سمير الزبن

صوت السماء
حكايات
عن الحرب والحب

الجزء الثاني

صوت السماء

حكاياتٌ عن الحرب والحبِّ

الجزء الثاني

صوت السماء

حكاياتٌ عن الحرب والحبِّ

الجزء الثاني

سمير الزبن

رواية

الكتاب: صوت السماء، حكايات عن الحرب والحب، (الجزء الثاني)
المؤلّف: سمير الزبن
التصنيف: رواية
التدقيق اللغوي: هبه سراج الدين
تصميم الغلاف: باسم صبّاغ
إخراج/تنسيق الكتاب: نغم عرنوق
الطبعة الأولى: تشرين الأوّل/أكتوبر 2025
الترقيم الدولي: 978-91-89925-63-2
المقاس: 14.5 × 21.5
عدد الصفحات: 662

info@lamassu-p.com
www.lamassu-p.com
دار لاماسو – دار لاماسو للنشر والتوزيع ©

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنّف محفوظة للمؤلّف، ولا يجوز بأيّة صورة إعادة النشر الكلّي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً، وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلاّ بإذن كتابيٍّ سابق من الناشر.
الآراء الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

المحتويات
الجزء الثاني

القسم الثالث: الغياب الموجع (عائلة سعد أحمد خليل) 7
الفصل الأوَّل: الحياة أفيش فيلم رعب (سعد أحمد خليل) 9
الفصل الثاني: اختفاء أبي (منذر سعد أحمد خليل) 99
الفصل الثالث: الموت الزاحف إلى الأقبية (رشا سعد أحمد خليل)..... 171
الفصل الرابع: عيون جميلة مليئة بالعتمة (فراس بن سعد بن أحمد خليل)... 259
القسم الرابع: العائلة الأميركيَّة (عائلة وداد أحمد خليل) 335
الفصل الأوَّل: غربةٌ لا عودة منها (وداد أحمد خليل) 337
الفصل الثاني: لعنة اسطنبول (ديانا بنت وداد أحمد خليل) 409
القسم الخامس: (ملحق) موتٌ على حافَّة القطب (صادق منير أحمد خليل) 465

القسم الثالث:
الغياب الموجع
(عائلة سعد أحمد خليل)

الفصل الأوَّل:
الحياة أفيش فيلم رعب
(سعد أحمد خليل)

عندما غادرت المخيَّم في العام 1972 بعد خلافٍ عائليٍّ وقرَّرت الابتعاد عنه نهائيًّا، لم أتوقَّع أن أعود إليه لاجئًا بعد كلِّ هذه السنين، وبعد كارثةٍ حطَّمت المكان الذي اخترت العيش فيه. كما لم أتوقَّع أن أسمع بعد أشهرٍ قليلةٍ من هذا اللجوء المرير أمِّي وأبي يتقاتلان في سماء المخيَّم على أيِّ خيارٍ نذهب إليه بعد الكارثة التي أصابت المخيَّم، مثلما أصابت مدينة دوما التي أتيت منها لاجئًا مع عائلتي، البقاء أم الرحيل؟

بالنسبة لي، بدأت خيار الرحيل، قبل أن يتحوَّل المخيَّم إلى الجحيم في ذلك اليوم الذي قصفته الطائرات الحربيَّة. وقتها كنت لاجئًا في المخيَّم منذ أكثر من خمسة أشهر. وكان ذلك اليوم إعلانًا عن بدء لجوءٍ جديدٍ إلى منفًى جديدٍ، في رحلة تنقُّلاتٍ، لم أعرف متى ستنتهي ولا أين؟ كنت قد عملت بنصيحة أبي قبل سماعه في تلك الليلة الباردة وهو يصرخ في سماء المخيَّم طالبًا منَّا الرحيل.

لأنَّ الوضع أصبح خطرًا، تركت تعب حياتي الذي بنيته في مدينة دوما ولجأت إلى المخيَّم، ولم أحتمل فكرة عيش أولادي في ظلِّ الخطر الداهم،

كان عليَّ فعل شيءٍ ما، ولا خيار سوى الرحيل. رحلت إلى المخيَّم، لأنَّ أهلي يعيشون فيه، ولمن غير أهلي ألجأ؟! قدَّرت وتمنَّيت أن تكون مغادرتنا لمدَّةٍ قصيرةٍ، لكنَّها طالت أكثر ممَّا توقَّعت. عندما قرَّرت الذهاب إلى المخيَّم، اعتقدت أنِّي لجأت إلى مكانٍ أعرفه، فقد عشت جزءًا من طفولتي وشبابي في المكان، قبل أن أغادره. بعد أيَّامٍ من لجوئي إليه، عرفت أنَّه ليس المكان الذي عشت فيه وتركته قبل أكثر من أربعين عامًا، والذي عدت إليه في زياراتٍ متقطِّعةٍ ومتباعدةٍ لزيارة أمِّي وأبي، ولزيارة أمِّي بعد وفاة أبي، وكنت أزور بعض إخوتي على هامش زيارة أمِّي وأبي.

عندما انتقل أهلي من حيِّ الأمين إلى المخيَّم، كنت في الرابعة عشرة من عمري، لم يعجبني هذا الانتقال، لأنَّه اقتلعني من عالمي في حيِّ الأمين الذي بنيته هناك. صحيحٌ أنَّنا كنَّا نعيش في غرفةٍ بائسةٍ، مقارنةً بالبيت الواسع الذي انتقلنا إليه في المخيَّم. لكنَّ الفرق كبيرٌ بين المكانين، الأوَّل ضيِّقٌ وبائسٌ، لكنَّه قريبٌ من وسط البلد، الذي كنت أحبُّه وأستطيع الوصول إليه سريعًا، والثاني واسعٌ، لكنَّه في منطقةٍ بائسةٍ ونائيةٍ ومعزولةٍ، يفتقد لكلِّ الخدمات الأساسيَّة. لم أعِ طفولتي في فلسطين، ما أذكره هو ما رواه أهلي عن اللجوء، لا سيَّما أمي وجدتي التي كنت مقربًا منها. وعيت طفولتي في الأليانس، هكذا سمَّى الفلسطينيُّون منطقة حي الأمين، وهي نسبةٌ إلى مدرسة اليهود التي تحمل هذا الاسم، والتي بُنِيَت في حارة اليهود، في الحي ذاته، وهي التي تحوَّلت إلى مدرسةٍ للاجئين الفلسطينيِّين بإدارة الأونروا. إذ أصبح في المكان تجمعٌ للاجئين مركزه قصر شمعايا القديم الذي كان ملكيَّةً يهوديَّةً مصادرةً، منحت الدولة بعض عائلات اللاجئين الفلسطينيِّين غرفًا فيه للعيش، وأقام البعض الآخر في محيط المكان. اشترى أهلي بيتًا صغيرًا بالقرب من المكان، هو عبارةٌ عن غرفةٍ ومطبخٍ من الطين. تكوَّنت ذكريات طفولتي في هذا المكان الذي سكنَّا فيه حوالي عشر سنوات، وبعدها انتقلنا إلى المخيَّم. أذكر كم كنت فخورًا بمريول المدرسة الأسود

الذي ارتديته لأوَّل مرَّةٍ في سنتي المدرسيَّة الأولى، أنا وأختي بيان التي كانت في الصف الثالث، نرافق أخي خليل الذي يوصلنا إلى مدارسنا القريبة من بعضها، قبل أن يذهب هو إلى مدرسة الأليانس الإعداديَّة، التي سأقضي سنوات دراستي الإعداديَّة الثلاث فيها قبل أن ننتقل إلى المخيَّم. كنت أعود من المدرسة، للعب كرة القدم مع أصدقائي في منطقةٍ خاليةٍ خلف بيوت الطين التي نسكن فيها، وهي عبارةٌ عن مربَّعٍ من الأرض المترَّبة اقتلعنا الأعشاب منها لتصبح صالحةً للعب، وكان أغلبنا يلعب حافي القدمين، وأنا واحدٌ منهم. كنت أقضي وقتي باللعب، وكان الإنذار الذي يعيدني إلى البيت، هو عودة أبي أو عودة أخي خليل إلى البيت. صحيحٌ أنَّ أخي عبد الرحمن أكبر من أخي خليل، لكنَّنا كنَّا نخشى ونهاب أخي خليل. لم نخف من عبد الرحمن، ولم نشعر يومًا أنَّه يشكِّل تهديدًا، ولم يتصرَّف هو كمسؤولٍ عنَّا يمكنه محاسبتنا. لم يقبل الذهاب إلى المدرسة بعد خروجنا من فلسطين، رغم إلحاح أمِّي، الذي لم يجدِ نفعًا معه، اكتفى بما حصل عليه من تعليمٍ في فلسطين، التي تركناها وهو في الصف الرابع. عدم اهتمامه بدارسته جعله غير مهتمٍّ بدراستنا، ما جعلنا نشعر بالأمان معه، فهو لم يسأل يومًا عن دراستنا. أمَّا خليل فهو حالةٌ مختلفةٌ، يسأل بالتفصيل عن الدراسة، ويتأكَّد من كتابتنا وظائفنا، وينظر في الإجابات هل هي صحيحةٌ أم لا. دفعته أمِّي للإشراف على دراستنا، وسؤالنا عن كلِّ شيءٍ في دراستنا. لم ترَ أمِّي مستقبلنا خارج الدراسة – وكان عبد الرحمن الذي رفض كلَّ محاولاتها لإغرائه في متابعة تعليمه – حسرتها في موضوع الدراسة. اعتقدت أمِّي أنَّ الدراسة هي طريقنا الوحيد لصناعة مستقبلٍ لنا له معنى. لذلك لم تتوقَّف عن دفعنا من أجل المزيد من الدراسة بكلِّ الأساليب.

ترتبط طفولتي في حي الأمين مع السحلب، هذا السائل الأبيض الذي يخرج منه البخار معلنًا رائحةً عَطِرةً من ماء الزهر في برد الشتاء، والذي يبيعه رجلٌ بلباسه الشاميِّ التقليديِّ، يقف بالقرب من باب مدرسة

الأليانس، بقي الرجل ذاته يقف في المكان ذاته لسنواتٍ، حتَّى بعد مغادرتنا الأليانس. في أوَّل مرَّةٍ طلبت فيها من أخي خليل أن يشتري لي السحلب مع الكعك، زجرني، وقال: «بعدين» وأنا ببراءة الطفل سألته: «إيمتى بعدين؟» وقع في حيرةٍ من أمره، لم يعرف بماذا يردُّ، قال كلماته من أجل تأجيل الموضوع إلى أجلٍ غير مسمًّى، في الوقت الذي فهمته وعدًا للمستقبل، فسألته سؤالي. وجد نفسه متورِّطًا بوعدٍ لم يقصده. قال: «وحياة عيونك، أوَّل ما بصير معي مصاري، لأشتريلك أحلى سحلب»، في اليوم التالي، استيقظنا أبكر من المعتاد، أيقظني خليل، وقال لي: «قوم ما بدك سحلب؟»، قلت: «بدي... بدي»، قال: «قوم البس أوعيك، عشان تلحق تشرب السحلب على مهلك، وما تحرق حالك»، قمت بكلِّ نشاطي، لبست ملابس المدرسة، التي كانت أمي تعدلها وتبتسم، وتسألني بخبثٍ: «ليش فرحان؟»، أقول وأنا مستعجل فرحان: «خليل بدوا يشتريلي سحلب»، قالت: «عن جد؟»، قلت: «وحياة الله. اسألي خليل إذا بدك»، قالت وهي تضحك: «صحتين حبيبي»، لم أصدِّق أنَّ خليل خلال يومٍ واحدٍ أصبح معه مال حتَّى يفي بوعده بهذه السرعة. ونحن في الطريق إلى عربة السحلب، سألته: «من وين جبت المصاري؟»، قال: «أمي أعطتني، بعد ما قلتلها سعد طلب سحلب وأنا ما معي مصاري. قالت خذ اشتري سحلب إلْكو كلّكو، وما تخليها بنفس سعد»، و«كلّكو» تعني أنا وخليل وبيان. بياض السحلب في ذلك اليوم رافق حياتي كلَّها، كنت سعيدًا لأنَّ أمِّي لم تتجاهل رغبتي، وأنَّ خليل حمل وعده كحملٍ ثقيلٍ؛ زيَّن البياض حياتي منذ ذلك اليوم، وكلَّما خطر الأليانس ببالي تذكَّرت شيئين رئيسيَّين، أوَّلهما السحلب، وثانيهما أفيش الأفلام.

وحدها المصادفة جعلتني أعمل في أفيش الأفلام، فقد كان هناك خطَّاطٌ في المنطقة الفاصلة بين حي الأمين وباب شرقي اسمه إلياس، ولم يكن يعمل في تخطيط لوحات المحلَّات فحسب، بل ويرسم إعلانات الأفلام

لعددٍ من دور السينما في مدينة دمشق، عندما شاهدته أوَّل مرَّةٍ اندهشت ممَّا يفعل، كان يرسم إعلان الفيلم مجزَّأً على قطعٍ كبيرةٍ من الورق، يترك فيها هامش فراغٍ أبيض في كلِّ قطعة ورقٍ مرسومةٍ، هذا الفراغ يغطِّيه بالقسم الثاني من اللوحة، تتكامل الأجزاء مع بعضها، عندما تُعَلَّق على واجهة السينما في لوحة الإعلانات الكبيرة التي كانت فوق دور السينما في دمشق. عندما شاهدته أوَّل مرَّة يرسم بألوانه الحادَّة أجزاءً لنساءٍ ورجال على ورقٍ، بدا لي ما يفعله وكأنَّه لعبةٌ، لم أفهمها، ماذا يريد من هذا؟ كان البعض يقف ليتفرَّج عليه لبعض الوقت، ثمَّ يذهبون في حالهم. أمَّا أنا فأصابني الفضول، تجرَّأت وسألت الرجل: «شو هذا؟»، قال: «هذا أفيش فيلم»، قلت «شو يعني؟ ليش بتعمله؟»، قال: «هذا إعلان عن الفيلم اللي بينعرض بالسينما»، قلت: «آه. فهمت. هاي الصور الكبيرة اللي بنشوفها عند السينما»، سألني: «ما تفرَّجت على فيلم بالسينما ولا مرَّة؟»، قلت: «لا، ولا مرَّة. بس شفتها من بعيد»، وقتها كانت العطلة الصيفيَّة قد بدأت، ولم أرغب في الاستمرار بلفِّ السكاكر في البيت، وهو العمل الذي كنَّا ننجزه في البيت من أجل تحسين وضعنا المالي، وكنت أكرهه وأهرب منه أغلب الوقت. وأنا أتكلَّم مع الرجل، خطرت لي فكرة أن أعمل عنده بدلًا من لفِّ السكاكر ولو بالمجَّان. سألت الرجل: «بتشغلني عندك؟»، قال: «شو بدي أشغلك عندي؟»، قلت: «اللي بدك إياه. بنظِّف المحل، بحمل معك الأغراض، وبساعدك بتعليق اللوحات»، ضحك الرجل وقال: «أنت وين ساكن؟»، قلت: «مو بعيد، هون عند مدرسة الأليانس»، قال: «أنت فلسطيني؟»، قلت: «أي»، قال: «ليش بدك تشتغل عندي؟»، قلت: «ما بدي ألف سكاكر»، اندهش الرجل من الجواب، وقال: «ما فهمت؟»، قلت: «بالبيت بنشتغل بلف السكاكر، لمعمل نواحي باب مصلى، وأنا ما بحب هاي الشغلة، وبظلني محبوس بالبيت»، ضحك الرجل وقال: «آه فهمت. قول لأهلك، إن وافقوا تشتغل عندي، تعال من بكره»، لم أصدِّق أنَّ الرجل

وافق على عملي عنده، رميت سؤالي متوقِّعًا الرفض، لأنِّي سألت في عشرات المحلَّات عن العمل فيها، في سوق البزورية، وسوق الحميدية، وسوق النسوان، والمسلخ، مع كرهي الشديد للدم، وفي أماكن أخرى، تلقَّيت جوابًا موحَّدًا: «الله يسرلك، ما بدنا شغيلة»، في كلِّ مرَّةٍ سألت فيها عن عملٍ توقَّعت الموافقة، في هذه المرَّة كنت متأكِّدًا من الرفض، جاء الجواب بالقبول. لم أسأل الرجل عن الأجرة، كنت فرحًا بعثوري على عملٍ بعد عشرات المحاولات. عندما قلت لأمِّي: «من بكره، رح اشتغل عند خطَّاط بباب شرقي»، قالت: «شغل عنجد، ولا بدَّك تهرب من البيت؟»، قلت: «وحياة الله عن جد، إذا ما مصدقيتني، تعالي معي اسألي الزلمة، أو ابعثي خليل يسألُه»، قالت: «أنا مصدقتك، روح بكره على الشغل مثل ما وعدت الزلمة»، لم أعرف أنَّ أمِّي أرسلت أخي خليل ليعرف إذا ما كان كلامي حقيقيًّا أم أنِّي أكذب إلَّا بعد سنواتٍ طويلةٍ من عملي عند الرجل. كنت قد تزوَّجت وأصبح عندي أولادي، عندما قال لي خليل ذلك، ليشير كيف أدارت أمِّي حياتنا. فقد ذهب خليل إلى مكان عملي وتأكَّد أنِّي أعمل عند الرجل، وعاد ليخبر أمِّي أنَّ ما قلته لها صحيحٌ، ولم أعرف ذلك، ولم تقل أمِّي لي شيئًا عن ذلك.

أدخلني عملي عند إلياس عوالم لم أكن لأعرفها لولا هذه التجربة. لم أعمل شيئًا جدِّيًا، بعض التنظيف، وتلوين الفراغات الكبيرة في أوراق اللوحات الإعلانيَّة للأفلام. وعرفت عندما اشتغلت، أنَّ رسم اللوحات الإعلانيَّة، ليس العمل الأساسي لإلياس، إنَّما التخطيط هو عمله الذي يعشقه ويقوم برسم اللوحات الإعلانية على هامش عمله كخطاط. ولم تكن دهشتي من الخط أقل منها من اللوحات الإعلانية للأفلام. كان فيلم «أين عمري» هو أول فيلم أساعد إلياس في رسم لوحته الإعلانية، والتي تقتصر فيها مهمتي على تعبئة الفراغات اللونية، وهو كان سيعرض في سينما دمشق بالقرب من ساحة المرجة، والتي افتتحت حديثًا. وكان أفيش الفيلم

يقتصر على صورة الممثلة ماجدة على طول الأفيش الملون. وعادةً ما يحوِّل إلياس الأفيش الطولي إلى لوحة إعلان عرضية، لأن كل لوحات الإعلانات السينمائية كانت عرضية، وفي هذا الفيلم، رسم إلياس صور ماجدة الملونة بخلفية زرقاء وفستان أبيض، ما يعني ترك مساحات الفستان بلا تلوين على اللوحة، لذلك ملأت فراغات الأسود في شعر ماجدة في لوحة الإعلانات، وبعد أن جف اللون الأسود وشحها إلياس بالأبيض ليعطي تدرجات الشعر ويعطيه الشكل الذي في الإعلان المرافق للفيلم، كانت الصورة على يمين اللوحة، وخط أسماء الممثلين والمخرج على يسار اللوحة، بذلك اقتصر تقطيع وجه ماجدة في اللوحة إلى أربع قطع فقط. عندما جفت القطع، طلب مني إلياس أن أرافق وديع، وهو شاب يكبرني بحوالي خمس سنوات، لتعليق اللوحة الإعلانية في مكانها فوق السينما. جاءت سيارة بيك أب إلى المحل، وضعنا أوراق الإعلان في الصندوق الخلفي، وصعد وديع إلى جانب السائق، وصعدت أنا في الصندوق الخلفي.

عندما وصلنا إلى السينما، أخرج وديع سلمًا طويلًا من مبنى السينما، لوحة إعلانات السينما فوق مدخل السينما مباشرة، وعندما وضع السلم على الواجهة، قال: «سعد امسك السلم منيح»، شعرت أنه يأتمنني على روحه. عندما حمل سطل اللاصق والفرشاة وصعد إلى الأعلى، أمسكت بالسلم بأقوى ما أستطيع خوفًا عليه من السقوط. كان يحمل قطعة من الإعلان يصعد ليعلقها، يهبط لأخذ قطعة أخرى وهي مرقمة حسب ترتيب لصقها. كانت سينما دمشق الأصعب في لصق إعلاناتها، لأنها بنت لوحتها الإعلانية بشكل شبه دائري. أما دور السينما الأخرى فكانت لوحاتها الإعلانية على سطح المبنى، ما يحتاج إلى سلم صغير للوصول إلى لوحاتها للصقها. لم يأخذ وديع وقتًا في لصق الإعلان بالطريقة المناسبة، فهو كان يعمل عند إلياس منذ عامين. عندما انتهى من عمله، اقترب رجل منا، عرفت فيما بعد أنه مدير السينما، وقال: «الله يعطيكو العافية. فوتوا شوفوا

الفيلم»، لم أصدق ما أسمع، سألت وديع: «بصير نفوت؟» ضحك وديع وقال: «بصير، ليش ما بصير؟!» قلت: «ما بحكي شي معلمي؟» قال: «بالعكس، هو بحب الأفلام، بحب احنا نشوفها»، طلب الرجل بطاقتين من الرجل في شباك التذاكر، أعطانا إياها، وقال: «تفضلوا. وسلموا على المعلم إلياس»، دخلت إلى الصالة بصفوف كراسيها المتدرجة التي أشاهدها لأول مرة، دلّنا رجل في الصالة على الأماكن التي يجب أن نجلس فيها. جلست على المقعد ولا أعرف ما الذي سيحصل. بعد قليل رنّ جرس في السينما، وانطفأ الضوء، لتخرج حزمة ضوء من نافذة صغيرة تحت بلكون السينما باتجاه الشاشة البيضاء، حيث أخذت الصور المتحركة بالأسود والأبيض تعبر متتابعة، شارة الفيلم وبعدها الأسماء مع الموسيقى، ليفتتح الفلم خادم يقطف وردة من حديقة بيت فاخر، لم أصدق أن هناك صور تتحرك، كنت سمعت عن هذا من قبل، لكنها المرة الأولى التي أشاهد فيلمًا متحركًا وبالصوت. قبل ذلك شاهدت أفلام صامتة رديئة بصور مشوشة، كانت تعرضها خيَم تقام على عجل في الأعياد في الساحة الفارغة قرب مدرسة الإليانس، إحداها كان فيها آلة لعرض الأفلام. أما فيلم بشاشة شاسعة، بصوت وصورة واضحين، فيه أناس تتحرك مثلما نتحرك نحن، فقد جعلني هذا الجو مسحورًا. أتذكر الفيلم تمامًا وكأني شاهدته بالأمس، إنه قصة إحسان عبد القدوس، والممثلون هم، ماجدة ويحيى شاهين وأمينة رزق وأحمد رمزي. تحكي قصة الفيلم عن فتاة مدللة يموت أبوها، ولا تعرف أمها كيف تتعامل معها، وهي تفتعل العديد من المشكلات في المدرسة. وفي كل مرة ينقذها الرجل العجوز صديق العائلة، والذي يتزوجها. بعد الزواج تكتشف وجهه الآخر، كرجل قاسي، غير ذلك الوجه اللطيف والمبتسم الذي كانت تشاهده قبل زواجهما. تقع في مشكلات مع شخصٍ غير أخلاقيٍّ، ينقذها الدكتور الذي يقع في حبِّها قبل أن يعرف أنَّها زوجة الرجل العجوز. ليس مضمون الفيلم ما سحرني، إنَّما الصور المتحرِّكة الضخمة بالأسود

والأبيض على شاشةٍ هائلةٍ، شعرت نفسي قزمًا صغيرًا دخل عالمـًا سحريًّا غير قادرٍ على استيعابه. عندما عدت إلى العمل بعد مشاهدة الفيلم، لم أستطيع البقاء صامتًا اعترفت لمعلمي إلياس أنَّنا حضرنا الفيلم وأنا أشعر بالخجل. ضحك إلياس، وقال: «ما يهمك، احضر أفلام قد ما بتقدر، السينما فن حلو»، كان ذلك تصريحٌ منه أن أحضر أيَّ أفلامٍ أستطيع حضورها، من تلك التي نعلِّق إعلاناتها. لقد عملت عند إلياس صيفين متتاليين، حضرت فيها الكثير من الأفلام، أذكر منها: فيلم «أنت حبيبي» من تمثيل فريد الأطرش وشادية، فيلمٌ غنائيٌّ كوميديٌّ. فيلم «صراع في الوادي» من تمثيل عمر الشريف وفاتن حمامة، وغيرها من الأفلام العربيَّة التي لم أعد أذكرها. وحضرت العديد من الأفلام الأجنبيَّة مثل «الشيخ والبحر»، لم أعد أذكر اسم البطل، لكنَّه ليس أنطون كوين الذي قالوا لي إنَّه مثَّل فيلمًا ملوَّنًا عن القصَّة ذاتها التي كتبها إيرنست همنغواي. أنا لم أشاهد النسخة الملوَّنة، والنسخة التي حضرتها وأنا طفلٌ كانت نسخةً بالأسود والأبيض. وهناك فيلمين لنساء ذلك الزمن لا يمكن نسيانهما، الأوَّل «قطَّةٌ على صفيحٍ ساخنٍ» للممثِّلة الساحرة اليزابيث تايلو. وآخر لمنافستها الأكثر إغراءً في ذلك الوقت مارلين مونرو صاحبة الفيلم الثاني، وهو «البعض يفضِّلونها ساخنةً»، من الصعب تذكُّر الممثلين الذين كانوا إلى جوار هاتين النجمتين اللتين شغلتا العالم حينها.

لم تكن الأفلام المتعة الوحيدة التي جلبها لي العمل عند إلياس، تعلُّم الخطِّ متعةٌ أخرى أصرَّ إلياس على تعليمي قواعدها، وأن يدلَّني على أسرار الخطِّ وجماليَّاته ومرونة تشكيلاته، فهو خطَّط لوحاتٍ بأنواع الخطِّ المختلفة، لوحاتٍ باهرةٍ، قبل وقتٍ طويلٍ ممَّا سمِّي بعد ذلك بالحروفيَّة في الفنِّ التشكيليِّ. امتلكت خطًّا جميلًا في الكتابة، مع إلياس أصبح رائعًا، بعد أن كنت أكره الكتابة، أصبحت متعتي، وكلُّ من شاهد خطِّي انبهر به. لم يترك نوعًا من أنواع الخطِّ، لم يعلِّمني إيَّاه، حاول أن أكون مثله أجيد فنَّ

الخطِّ وأعشقه، كما يتقنه هو ويعشقه، عدَّني تلميذه، وتمنى أن أمتهن مهنته. في الواقع كنت خطاطًا فاشلًا بالمقارنة به. لقد علمني كل الخطوط، النسخ والرقعة والديواني والفارسي والثلث وحتى علمني تناسب أصعب الخطوط وأجملهم رغم أنه الخط الأجمل والأصعب بين الخطوط العربية وهو الخط الكوفي.

عندما انتقلنا إلى المخيَّم، كنت أجيد الخطوط جيِّدًا، ما جعل البعض يستعين بي من أجل تخطيط لوحات المحلَّات المتواضعة التي افتتحت في المخيَّم، وكنت أتقاضى مقابل ذلك مبالغ تافهةً، أسعد بها تمامًا، بعد تجارب عدَّةٍ وجدت أنِّي لا أستطيع الاستمرار. أوَّلًا، لأنِّي التحقت بمدرسة المساحة بعد حصولي على الشهادة الإعداديَّة، وكانت هذه المدرسة توفِّر لي دخلًا يكفي احتياجاتي كطالبٍ. وثانيًا، لأنَّ عائلة عيلبوني المسيحيَّة قد انتقلت إلى المخيَّم، وسيطر ابنها ميلاد بخطِّه الساحر على المهنة وكان الخطَّاط الوحيد في المخيَّم لسنواتٍ عديدةٍ، معتمدًا بالأساس على تصليح الدرَّاجات العاديَّة في الوقت ذاته. لقد كان من الطبيعيِّ في تلك الفترة، أن يعمل الخطَّاط في مهنةٍ أخرى، فهو لا يستطيع الاعتماد على المهنة في عيشه لقلَّة زبائنها، وعيشه لا ينتظر الزبائن المستعدِّين للدفع مقابل لوحة محلٍّ جميلةٍ. والكثير من أصحاب المحلَّات في الأماكن الفقيرة، كانت تكتب لوحات محلَّاتها بيدها بصرف النظر عن جماليَّة الخطِّ، هذا إذا كان للمحلَّات لوحاتٌ أصلًا. ولم يتحوَّل الخطُّ إلى مهنةٍ خالصةٍ معتمدة على نفسها، سوى مع لوحات النيون التي ظهرت بعد ذلك بأكثر من عشرين عامًا.

لم يُدمِّر الانتقال إلى المخيَّم عالم طفولتي وعملي عند إلياس الذي أحببته فحسب، بل والأهم دمَّر حياتي التي كوَّنتها في المدرسة أيضًا. فهناك تشاجرت مع الآخرين، وهناك شكَّلنا عصابتنا، التي كان أعضاؤها يراعوني لأنِّي فلسطينيٌّ، لكن كعضوٍ كامل الصلاحيَّة في العصابة. لم يكن اختياري الذهاب إلى مدرسة المساحة، سوى محاولةٍ منِّي لاستمرار تلك الحياة، وقد

قرَّرت ذلك سلفًا، لأنَّ وديع الذي عمل معي عند إلياس، حدَّثني عن هذه المدرسة التي درس فيها، وأنهى سنته الأخيرة، وكان ينتظر أن يتسلم عمله، وهذه المدرسة كانت تابعةً لمديرية المصالح العقاريَّة، والطالب الذي يدرس فيها، يحصل على خمسين ليرة في أثناء الدراسة، وهو مبلغٌ جيِّدٌ لطالبٍ في الخامسة عشرة من عمره في ذلك الوقت، ويضمن وظيفةً في المديريَّة عندما يُنهي دراسته. منذ حدَّثني وديع عن المدرسة، قرَّرت أن أدرس فيها بعد الإعداديَّة، إذ سأصبح موظَّفًا براتبٍ وأنا لم أتجاوز السابعة عشرة من عمري، أعجبتني الفكرة وبدأت أنتظر انتهائي من الإعداديَّة حتَّى أتمكَّن من الانتساب إليها. عندما حصلت على شهادة الإعداديَّة، سألتني أمِّي: «شو رح تعمل هلأ؟»، قلت: «رح سجل بمدرسة المساحة»، استغربت أمِّي: «شو هاي مدرسة المساحة؟ أوَّل مرَّة بسمع بهيك مدرسة»، التفتت إلى خليل الذي يجلس في الغرفة معنا وسألته: «بتعرف شو هاي المدرسة يا خليل؟» قال خليل: «إي يمَّا، هي مدرسة تابعة للمصالح العقارية، بتشغل الناس بقياس الأراضي. إلي رفيق درس فيها»، قالت: «آه، على بركة الله»، لا أعتقد أنَّها فهمت شيئًا ممَّا قاله خليل، ولم تطلب المزيد من الشرح حتَّى لا تتورَّط أكثر بما لا تعرفه. كنت قد تحدَّثت سابقًا مع خليل مطوَّلًا عن هذا الخيار. وقد طلب منِّي الاستمرار في الدراسة الثانويَّة وصولًا إلى الجامعة، وهو مستعدٌّ لتحمُّل مصروفي حتَّى تخرُّجي. وكان وقتها قد تسلَّم وظيفته كمعلمٍ في مدراس المخيَّم عند انتقالنا إليه. قلت له: «أنا ما بحب الطرق الطويلة. هاي المدرسة رح تعطيني مصروفي، ورح ألاقي وظيفة فورًا بس أخلص المدرسة. وبعدها بحلها الحلال»، قال: «وعدني إنَّك تكمل دراستك بعد ما تخلص المدرسة، وتلاقي الوظيفة»، قلت: «بوعدك»، ولم أكن جادًّا بهذا الوعد.

وضعني الانتقال إلى المخيَّم في جوٍّ فلسطينيٍّ خالصٍ، لم أعشه في الأليانس، والتسجيل في مدرسة المساحة أعادني إلى علاقاتي السوريَّة. فعندما

تقدَّمت بطلب التسجيل في مدرسة المساحة، خفت رفض قبولي في المدرسة لأنِّي فلسطينيٌّ، وهذا لم يحدث، لأنِّي عندما راجعت لمعرفة النتائج، كانت المدرسة قد قبلت كلَّ المتقدِّمين، ولم يُرفض أيُّ طلبٍ. كنت الطالب الفلسطينيَّ الوحيد في المدرسة بين حوالي عشرين طالبًا موزَّعين على صفين.

بدأ عالمي يسير باتجاهين، في المخيَّم أخذت أقيم صداقاتي بين الفلسطينيِّين، كما أخذت أبني مثلها بين السوريِّين في مدرستي في وسط دمشق. في بعض الأحيان أشعر نفسي مشدودًا إلى عالم المخيَّم الذي يشبهني بآلامه ومواجعه، وأتساءل عن معنى الوجود في مخيَّمٍ في الوقت الذي يحتلُّ الآخرون بلدي التي أُخرِجتُ منها طفلًا. وأحيانًا أخرى، أجد نفسي مشدودًا لحياة أصدقائي السوريِّين، الذين لا يعانون ما أعاني منه من هويةٍ مجروحةٍ وانتماءٍ غامضٍ لمكانين، المكان الذي أعيش فيه، والمكان الذي أتيت منه. وأشعر أنَّ من حقِّي أن يكون لي حياتي الطبيعيَّة مثل كلِّ الآخرين. تفوَّق الإحساس بالغربة على الإحساس بالانتماء، بقي هذا التناقض يعيش داخلي طوال حياتي. عشت جلَّ حياتي في دمشق، فقد كان عمري أقلَّ من ثلاث سنواتٍ عندما طُرِدَ أهلي من بلدتهم في فلسطين خلال حرب العام 1948، لنجد أنفسنا في دمشق بعد رحلة عذابٍ. لا أذكر شيئًا من عيشي في فلسطين سوى ما حكته لي أمِّي وجدَّتي. تبدأ ذاكرتي الشخصيَّة من الأليانس، تبدأ من البؤس الذي سأبقى أشعر بالانتماء إليه طوال حياتي، رافقني مثل جرسٍ يرنُّ كلَّ حينٍ وحين، ليذكِّرني أنِّي لست من المكان الذي أعيش فيه، بصرف النظر عن العمل الذي أقوم به أو الخدمات التي أقدِّمها للبلد. ببطءٍ وجدت نفسي متورِّطًا في حياة المخيَّم، أعيش في مكانٍ بائسٍ وتجمُّعٍ لليائسين وتجمعٍ للحالمين في الوقت ذاته. اليائسون من حياة تبدو أنَّها تسير من سيِّئ إلى أسوأ منذ اللحظة التي خرج فيها سكَّان المكان من وطنهم فلسطين. يقابلهم، الحالمون في تغيير الحالة والوضع من أجل إعادة الحقوق إلى أصحابها والعودة إلى ديارهم، ليس لنا حقوق أقل من غيرنا في العودة

إلى بلدنا واستقلالنا الوطني أسوة بكل بلدان العالم، فنحن بشر ونملك الحقوق ذاتها التي يملكها الآخرون الذين استقلوا ببلدانهم. وبين اليائسين والحالمين، وجدت نفسي أقف في صف الحالمين الذين يريدون تغيير الواقع القائم، وصناعة واقع آخر واعد. مع تفهمي لأوضاع اليائسين، فقد عشنا في أوقاتٍ صعبةٍ فالاقتلاع حالةٌ قاسيةٌ، عشت تداعياتها في طفولتي أكثر ممَّا عشت واقعها، وهذا الوضع عدت وعشته في كهولتي.

عندما بدأت أتعرَّف على الأفكار السياسيَّة، كانت الوحدة بين مصر وسورية قد انحلَّت بانقلاب الانفصاليِّين في سورية، حصل ذلك بعد انتقالنا إلى المخيَّم بحوالي عامٍ، وبعد الانفصال بحوالي العام بدأ اهتمامي بالسياسة. فقد أصابني الانفصال كما أصاب كلَّ الفلسطينيِّين بخيبةٍ كبيرةٍ، لأنَّ إعلان الوحدة قبل ذلك بثلاثة أعوامٍ أعطاهم الأمل بتحرير فلسطين، لأنَّهم اعتقدوا بصحَّة ما قاله الخطاب القوميُّ وما قاله جمال عبد الناصر، من أنَّ الوحدة العربيَّة الطريق لتحرير فلسطين، لذلك منحت الوحدة الفلسطينيِّين الأمل باستعادة أرضهم، وكانوا الأكثر سعادةً بها، وقد جُبنا نحن أطفال الأليانس شوارع مدينة دمشق التي فرحت عن بكرة أبيها بالوحدة، مع المتظاهرين الفرحين بها. هذه الوحدة التي سرعان ما سقطت، بذلك ابتعد حلم تحرير فلسطين، وأخذ الشباب في المخيَّم يتساءلون ما العمل بعد انهيار الأمل بتحطُّم الوحدة؟ كانت هناك أصواتٌ تقول، أنَّ على الفلسطينيِّين أن يأخذوا قضيَّتهم بيدهم، وعليهم أن يستعيدوا بلدهم، لأنَّ الوعود بعيدة المدى لن تحقِّق لهم أيِّ شيءٍ، هي عبارةٌ عن وعودٍ مؤجَّلةٍ، وستبقى مؤجَّلةً إلى الأبد، وفي النهاية «لن يحك جلدك غير ظفرك» كما يقول المثل. أعجبني الاختلاف، وبعدها أعجبني المنطق الذي عكس الشعار القوميَّ، بدل أن يكون «الوحدة الطريق لتحرير فلسطين»، لماذا لا يكون الشعار «تحرير فلسطين الطريق إلى الوحدة العربيَّة» كنت أقرب إلى هذه المجموعة من الأشخاص، في الوقت الذي كان

بعض الأصدقاء على قناعةٍ بأنَّ حركة القوميِّين العرب هي على حقٍّ، وكلٌّ يبحث عن طريقه للإسهام في العمل على تحرير فلسطين. بدأت المجموعة التي أنتمي إليها تتعاون مع مجموعاتٍ أخرى وأخذ العمل شكلًا تنظيميًّا، وبدأنا بالعمل على تحويل الشعار إلى حالةٍ نضاليَّةٍ مسلَّحةٍ، وأخذت تناقش كيفيَّة تأمين السلاح، ووقت إطلاق الكفاح المسلَّح الذي كنَّا جميعًا متفقين على أنَّه الطريق الوحيد لتحرير فلسطين.

اتخذت هذه المجموعات من مجلة «فلسطيننا» التي تصل بأعدادٍ قليلةٍ إلى المخيَّم، مرشدها في النقاش مع الآخرين المختلفين معهم في الأولويَّات، الرافضين لأيِّ عملٍ مسلَّحٍ فلسطينيٍّ لأنَّه يورِّط مصر في حربٍ قبل استعدادها لها. هذا الكلام بالنسبة لنا مجرَّد ذريعةٍ، وأنَّ من يريد أن يحارب، يستطيع أن يحارب في كلِّ الظروف. خلال هذه الفترة، كنت قد انتهيت من معهد المساحة، وتسلَّمت وظيفتي في السجلِّ العقاريِّ في دمشق، وتقدَّمت بعدها إلى امتحان الشهادة الثانويَّة الحرِّ، وحصلت عليها، وقرَّرت أنَّ أسجِّل في كليَّة الآداب ـ قسم الجغرافيا، لأنَّ هذا الاختصاص سيحسِّن من وضعي الوظيفيِّ، كما سمح لي الدخول إلى الجامعة إلى توسيع علاقاتي الحركيَّة ومناقشتي لخياراتي السياسيَّة. أصبحت طالبًا جامعيًّا، صاحب دخلٍ جيِّدٍ وأستطيع التصرُّف بمالي، بعد مساعدة أهلي طبعًا، وعضوًا في تنظيمٍ سياسيٍّ مهمَّته تحرير فلسطين. عمل الجميع في التنظيم محمومًا من أجل إطلاق الكفاح المسلَّح، وهناك من ترك التنظيم لأنَّهم عدُّونا غير جادين فيما نقول، وأنَّنا مثل غيرنا مجرَّد تجَّار كلامٍ. في سنتي الجامعيَّة الرابعة، ظهرت مشكلة تحويل إسرائيل لمياه نهر الأردن، لم تُبدِ الدول العربيَّة خلالها أيَّ فعلٍ سوى إدانة إسرائيل وتقديم شكوى ضدَّها للأمم المتحدة. وكان ذلك دليلًا على عجز الدول العربيَّة أمام العدوان الإسرائيليِّ المتكرِّر. قرَّرنا في الحركة التي لم تكن قد وُلِدَت بعد عمل شيءٍ ضدَّ عمليَّة تحويل المياه، فكانت عمليَّة «عيلبون» إعلانًا لانطلاق العمل

المسلَّح الفلسطينيِّ ضدَّ إسرائيل وإعلان ولادة حركة «فتح» التي كنَّا عملنا طويلًا على بنائها. فجَّرت مجموعةٌ من «قوَّات العاصفة» -الجناح العسكريُّ للحركة- في صباح الأوَّل من كانون الثاني العام 1965، النفق الذي ستجرُّ فيه إسرائيل المياه في منطقة عيلبون، ما أدَّى لتدمير النفق، وإصابة جنديَّين إسرائيليَّين بجروحٍ، واستشهد أوَّل شهيدٍ للحركة في هذه العمليَّة، وهو أحمد موسى سلامة. عندما وصلنا الخبر، لم نصدِّق ما نسمع، لقد بدأ تاريخٌ جديدٌ في المنطقة، وليس ما نقوله وعودًا في الهواء، ها نحن نضع الكلام الذي قلناه موضع التنفيذ. وهذه العمليَّة والعمليَّات اللاحقة على أهميَّتها، لم تصنع التحوُّل الذي كنَّا نعتقد أنَّه سيحصل في المزاج العام، بتأييدٍ عارمٍ لتحرير فلسطين بجهودٍ فلسطينيَّة. وعدَّه البعض مغامرةً استعراضيَّة من أجل توريط عبد الناصر في حربٍ مع إسرائيل، وهو ليس جاهزًا لها، ولم يكن هذا بعيدًا عن الواقع، لقد ناقشنا نظريَّة التوريط طويلًا، لأنَّه تبيَّن أنَّ الدول العربيَّة لن تحارب إسرائيل إلَّا إذا تورَّطت في حربٍ معها، قد يكون كفاحنا المسلَّح هو السبب في وقوع هذه الحرب من أجل تحرير فلسطين. سننتظر عامين حتَّى هزيمة حزيران في حرب العام 1967، التي لم تشتعل بسببنا حتَّى يتأكَّد الناس أنَّ الأنظمة لا تصلح للصراع مع إسرائيل. ففي تلك الحرب انتصرت إسرائيل خلال ستة أيَّامٍ على ثلاث دولٍ عربيَّةٍ، واحتلَّت مساحاتٍ شاسعةً منها، إضافةً لما تبقَّى من الأراضي الفلسطينيَّة في الضفَّة الغربيَّة وقطاع غزَّة. كنَّا نريد توريط الدول العربيَّة في حربٍ مع إسرائيل من أجل تحرير فلسطين، وليس من أجل أن تحتلَّ إسرائيل المزيد من الأراضي العربيَّة. لكنَّ ما حدث هو العكس، كانت الحرب هزيمةً نكراء للعرب، وعليه فإنَّها هزيمةٌ لنا، وساد التشاؤم، وأصبحت فلسطين أبعد من السابق، وبات علينا أن نجترح المعجزات حتَّى نقول إنَّ الفلسطينيِّين قادرون على فعل شيءٍ من أجل فلسطين، رغم الهزيمة النكراء للعرب.

صدمتنا الهزيمة نحن الشباب المتحمِّس، لكنَّها كانت حافزًا إضافيًّا لوضع وجهة نظرنا التي نؤمن بها قبل الحرب موضع التنفيذ، وباتَ العمل العسكريُّ أولويَّةً، كلُّ الجهود تتجه لدعم هذا لعمل. انتقلت المجموعات المسلَّحة السريَّة في الأردن إلى العمل العسكريِّ العلنيِّ، وأخذت الدوريَّات الفدائيَّة التي تشتبك مع الجيش الإسرائيليِّ تزداد. أخذت إجازة دون راتبٍ من عملي، وسافرت إلى الأردن وخضعت لدورة تدريبٍ عسكريٍّ هناك. بعدها التحقت بمجموعةٍ من الفدائيِّين الذين يخرجون في الدوريَّات التي تشتبك مع الإسرائيليِّين بعد اجتياز النهر الذي يُعرف باسم «الشريعة» الذي بات الحدود الجديدة بعد احتلال إسرائيل للضفَّة الغربيَّة. شاركت في دوريَّات استطلاعٍ، لكنِّي لم أشارك في العمليَّات القتاليَّة. زاد المتطوِّعون للقتال، ليس من الفلسطينيِّين فحسب، بل ومن العرب أيضًا، على مدى الأشهر التالية لحرب العام 1967 أزعجت العمليَّات الفدائيَّة إسرائيل، ونغَّصت عليها انتصارها الساحق في الحرب. وهو ما دفع إسرائيل لتهديد الأردن، بأنَّها ستعمل على ضرب مواقع الفدائيِّين على أراضيها، إذا استمرَّت العمليَّات الفدائية عبر نهر الأردن. وتوقَّعنا اجتياز إسرائيل نهر الأردن بعد التهديدات التي أطلقتها في مطلع العام التالي لهزيمة العام 1967، وأنَّ تستهدف قرية الكرامة حيث التجمُّع الأكبر للفصائل الفلسطينيَّة على رأسها حركة فتح على نحوٍ أساسي والجبهة الشعبيَّة. حضَّرت الفصائل نفسها لمواجهة أيِّ عدوانٍ إسرائيليٍّ محتملٍ مهما كانت التضحيات. كان هدف العمليَّة الإسرائيليَّة اجتثاث العمل الفدائيِّ، وإسرائيل ما تزال تحت سكرة الانتصار على الدول العربيَّة، واعتقدت أنَّ الدخول إلى الأردن والقضاء على قواعد الفدائيِّين هناك سيكون رحلةً سياحيَّةً مقارنة بالحرب التي كسبتها خلال أيَّامٍ عدَّةٍ ضدَّ جيوش ثلاث دولٍ عربيَّةٍ، كان الأردن أضعفهم. اجتازت القوَّات الإسرائيليَّة نهر الأردن، من جهاتٍ عدَّةٍ، استهدفت قرية الكرامة على نحوٍ أساسيٍّ كما توقَّعنا، حيث أنزلت الطائرات الإسرائيليَّة المظلِّيين على

حدود القرية، مدعومةً بالمدرَّعات التي اجتازت النهر، كان قرار الحركة الصمود في المواقع حتَّى آخر رجلٍ، وهذا ما كان في الكرامة التي دمَّرها الهجوم الإسرائيليُّ واستشهد كلُّ الفدائيِّين الذين كانوا فيها، في صمودٍ أسطوريٍّ. من حظِّي أنِّي كنت في بلدة الشونة، حيث انطلق الهجوم الإسرائيليُّ، والذي أسهمت مدفعيَّة الجيش الأردنيِّ في إرباك القوَّات الإسرائيليَّة التي انسحبت من الموقع الذي كنَّا فيه، وكنَّا قوةً إسنادٍ للقوَّات المتقدِّمة التي تشتبك مع القوَّات الإسرائيليَّة كرًّا وفرًّا. عندما انتهت المعركة وانسحب الإسرائيليُّون مهزومين، عدنا إلى موقع الكرامة وجدنا مشهد الدمار مروِّعًا، أوَّل مرَّةٍ أشاهد دمارًا بهذا الحجم، لقد دمَّر الإسرائيليُّون جزءًا كبيرًا من القرية على المقاتلين الذين لم ينسحبوا، أذلَّ المقاتلون المتحصِّنين القوَّات الإسرائيليَّة قبل انسحابها مهزومةً. فرحت بالنصر الذي تمنَّيناه دائمًا، وكنت حزينًا على الشهداء، خسرنا خيرة شبابنا في تلك المعركة، أخوةٌ أعرفهم شخصيًّا، أصدقاء، ومدرِّبين سابقين، أصبحنا إخوةً في الحركة، خسرنا 95 شهيدًا في المعركة وأكثر من ضِعفِهم من الجرحى. دخلت إسرائيل لاجتثاث العمل الفدائيِّ، وبدل ذلك مُنِيَت بهزيمةٍ مُرَّةٍ أمام من أرادت اجتثاثهم، وقدَّمت لهم معركةً أعطتهم زخمًا هائلًا. لقد جلب الأبطال نصرًا ثمينًا في معركة الكرامة بعد الهزيمة المذلَّة لثلاث دولٍ عربيَّةٍ مجتمعةً، في حين مجموعة الفدائيِّين قرَّرت هزيمة الجيش الذي عدَّ نفسه لا يُقهَر، واستطاعوا فعل ذلك بأسلحتهم المتواضعة. معركة الكرامة، معركةٌ نادرةٌ في تاريخ الصراع، فهي المعركة التي سقط فيها عددٌ من الإسرائيليِّين أكثر من العرب - باعتراف إسرائيل - خسرت القوَّات الإسرائيليَّة 250 جنديًا قتيلًا وجُرِحَ 450 في يومٍ واحدٍ، لكنَّ إسرائيل لم تعترف سوى بثلاثين قتيلًا ومئة جريحٍ منهم. وقتها اعترف "حاييم بارليف" رئيس الأركان الإسرائيليِّ، أنَّ إسرائيل فقدت في هجومها الأخير على الأردن آليَّاتٍ عسكريَّةٍ تعادل ثلاثة أضعاف ما فقدته في حرب حزيران. وبعد حوالي العام قال لجريدةٍ

إسرائيليَّةٍ: «إنَّ عمليَّة الكرامة كانت فريدةً من نوعها ولم يتعوَّد الشعب في (إسرائيل) مثل هذا النوع من العمليَّات، وبمعنى آخر كانت العمليَّات جميعها التي نفَّذناها تُسفِرُ عن نصرٍ حاسمٍ لقوَّاتنا، ومن هنا فقد اعتاد شعبنا على رؤية قوَّاته العسكريَّة وهي تخرج منتصرةً من كلِّ معركةٍ. أمَّا معركة الكرامة فقد كانت فريدةً من نوعها، بسبب كثرة الإصابات بين قوَّاتنا، والظواهر الأخرى التي أسفرت عنها المعركة مثل الاستيلاء على عددٍ من دبَّاباتنا وآليَّاتنا، وهذا هو سبب الدهشة التي أصابت المجتمع الإسرائيليَّ إزاء عمليَّة الكرامة».

بعد معركة الكرامة، تدفَّق المتطوِّعون على العمل الفدائيِّ بأعدادٍ كبيرةٍ، ووضعت خططًا للتعامل مع هذه الكمِّ الكبير من الراغبين بالالتحاق بالعمل الفدائيِّ، وليس لدى الحركة القدرة على استيعابهم بسبب إمكاناتها الماليَّة والتسليحيَّة المتواضعة، رغم زيادة التبرُّعات بالمال والسلاح التي وصلت إلى الفصائل المسلَّحة. وهو ما وضعنا في حالة طوارئ لاستيعاب العدد الكبير من المتطوِّعين. وقتها طلب منِّي أبو علي إياد العودة إلى دمشق والعمل على تدريب المتطوِّعين الجدد في معسكرٍ يعود للحركة في بلدة الهامة بالقرب من دمشق، وهو المكان الذي تعرَّفت فيه إلى أبي علي إياد في أثناء عمله على تدريب المقاتلين قبل حرب حزيران. وقد أصيب في أثناء التدريبات بانفجار لغمٍ في ذلك المعسكر، فقد عينه وتأثَّرت ساقه كثيرًا، إذ بات يحتاج إلى عصًا يستند عليها لمساعدته في المشي. إصابته لم تمنعه من الاستمرار في قيادة العمل المسلَّح، الذي بقي قائدًا رئيسيًّا فيه حتَّى استشهاده في العام 1971 على يد الجيش الأردنيِّ في معاركه مع الفدائيِّين. بعد هذا التكليف عدت إلى دمشق، ذهبت إلى عملي في السجل العقاري وتقدَّمت بطلب تمديدٍ لإجازتي التي بلا راتبٍ لمدَّة عامٍ إضافيٍّ، حتَّى أتفرَّغ للعمل التدريبيِّ في معسكر الهامة.

التحقت بالمعسكر الذي أخذ كلَّ وقتي، ما بين التدريب وزيارة المعسكرات في الأردن، وتوصيل المتدرِّبين الشباب إلى هناك، ولم أكن أغادر عملي سوى في إجازاتٍ محدودةٍ وضروريَّةٍ، وفي هذه الفترة، كدت لا أرى أهلي، وعبد الرؤوف زوج أختي بيان هو الوحيد الذي أقابله كثيرًا، بحكم كونه أخٌ في الحركة، يأتي كثيرًا إلى المعسكر وأحيانًا ينام فيه، لا سيَّما عندما تكون المدارس في عطلة الصيف، حيث كان يعمل مدرِّسًا في مدارس المخيَّم. يكبرني عبد الرؤوف بحوالي ست سنوات، ولأنَّنا أولاد همٍّ واحدٍ وحركةٍ سياسيَّةٍ وكفاحيَّةٍ واحدةٍ، أصبحنا أقرب لبعضنا البعض، أخوةً في الحركة وأصدقاء في الحياة، وقرابةً من جهتين، ابن عمَّتي وزوج أختي في الوقت ذاته. في يومٍ من أيَّام الصيف الأوَّل في المعسكر، كان ينام هناك حيث أعمل، تمشَّينا معًا في ليلةٍ مقمرةٍ وحارَّةٍ ودبقةٍ، تحدَّثنا في كلِّ شيءٍ. وفجأةً سألني: «سعد، ليش ما تتجوَّز؟» قلت: «ما إنت شايف، كيف بدي اتجوَّز؟ وبعدين مين بدي اتجوز؟»، قال: «شوف، والله في وحدة بنت عمِّي، ما في حدا بستاهلها غيرك. شو رأيك تشوفها وإذا عجبتك بنخطبلك إيَّاها؟»، قلت: «لا تمزح معي»، قال: «أنا ما بمزح معك. خلص الموضوع بينا، ما بقول لحدا شي. بس تشوفها، إذا عجبتك بنحكي، ما عجبتك بنسكر على الموضوع»، قلت: «وكيف بدنا نشوفها؟»، قال: «الأسبوع الجاي، رح تفتح المدارس، وهي ساكنة بدوما، بس الثانوية تبعها بالشام. انزل إجازة بقلب الأسبوع وبنشوفها وهي مروحة على البيت، وبعدين بنحكي»، قلت: «والله يا عبد حاسس الشغلة سخيفة، وحاسس حالي زي الولاد الصغار. بس رح أجن وأجي معك»، قال: «وعد؟» قلت: «وعد»، في الأيَّام التالية نسيت الموضوع والمحادثة مع عبد الرؤوف، انشغلنا بتدريباتٍ للمتطوِّعين خاصَّةً بزرع الألغام ضدَّ الأفراد والآليَّات، إذ أخذت الدوريَّات التي تدخل إلى فلسطين تزرعها في الطرق التي تتحرَّك عليها الدوريَّات الإسرائيليَّة. بعد

أسبوعين، ذكَّرني عبد الرؤوف بوعدي له، فلم أستطع التملُّص، وعدته أن أنزل في اليوم التالي، وهذا ما كان.

اصطحبني في اليوم التالي إلى البلد، جلسنا في مقهى الحجاز وطلبنا القهوة، أخرج سيجارته وشرع في التدخين، بعد أن ضيَّفني واحدةً، ورفضت أخذها، لأنِّي لا أدخِّن. تقع المقهى على الطريق بين مدرسة «الفتاة العربيَّة» وموقف باصات دوما، حيث تسكن فتحيَّة. شعرت طوال المشوار بالضيق وكأنِّي عدت مراهقًا، ولمتُ نفسي لماذا وعدته بالقدوم وما هذا الشيء التافه الذي أقوم به مثل المراهقين. بعد حوالي ساعة من الانتظار، بدأت طالبات المدارس بالخروج مجموعاتٍ. بعد قليلٍ ومن دون أن يشير بإصبعه. قال عبد الرؤوف: «شايف البنات اللي جنب عمود الكهربا، عند إعلان الكازوز»، قلت: «شايف»، قال: «فتحية اللي حاملة شنتاية زرقا»، نظرت إلى الفتيات على الطرف الثاني من شارع خالد بن الوليد. كانت فتحية فتاةً مكتملةً بشعر أشقر يميل إلى الأحمر، يظهر من تحت إشاربها الصغير الذي يغطِّي نصف رأسها الخلفيِّ، وغرَّتها متحرِّرةٌ منها، يكاد الدم ينفر من خدودها بسبب الحرِّ، تحت عيونٍ سوداء لوزيَّةٍ، بابتسامةٍ ساحرةٍ، وهي تمشي بدلالٍ بين صديقاتها. لم أصدِّق أنَّ هذا المشوار السخيف سيغيِّر حياتي، لا أستطيع القول إنِّي أحببتها من أوَّل نظرةٍ، لكن لا أنكر أنِّي صُعِقتُ بجمالها. قلت: «عبد الرؤوف متأكِّد، إنها أم الشعر الأحمر والشنتاية الزرقا، ولا مخربط؟»، قال: «يا زلمة شو قصتك، معقول أخربط ببنت عمِّي؟»، قلت: «مو معقول، ما فيها ولا شي من أبوك. كأنَّها مو من البلد»، قال: «إذا هيك، قوم لنلحقها، ونسلم عليها وأعرفك عليها»، قلت: «طول بالك، ما بدنا نحرج البنت»، لم أخرج سليمًا من المشوار الذي اعتقدت أنَّه مشوارٌ تافهٌ وسرعان ما أنساه. بعد ذلك اليوم، وجدت نفسي أفكِّر في فتحية طيلة الوقت، أطردها من رأسي، أجد نفسي أفكِّر فيها، حتَّى وسط تدريبات السلاح. في المرَّة التالية التي قابلت فيها عبد الرؤوف قال: «شو رأيك؟ فكرت بالموضوع؟»، قلت:

«والله متردِّد يا عبد، ما بعرف شو بدي أقول»، قال: «البنت عجبتك، ولا لأ؟»، قلت: «بصراحة عاجبيتني. بس ما بدي أفرض نفسي عليها. بدي إيَّاها توافق برضاها قبل ما نسأل أهلها، إذا ما بدها، منشان ننهي الموضوع قبل ما نعمل أي شي محرج»، قال: «ما في شي ما إلُه حل. اتركني أفكِّر»، كانت الخطَّة بسيطةً، أن نعود مرَّةً أخرى إلى المكان نفسه، ونفتعل مصادفة ملاقاتها في الشارع، نسلم عليها لتراني، وبعد أن تراني، يمكن أن نرسل أختي بيان، أو أخته سعدة، لسؤال البنت عن رأيها، إذا وافقت، نرسل أهلي بعد ذلك رسميًّا. وفي النهاية قرَّرنا أن يذهب هو وأختي بيان في زيارةٍ إلى بيت عمِّه، على أن تجد بيان الفرصة المناسبة للانفراد بفتحية وسؤالها عن رأيها الصريح بفكرة الزواج منِّي. نفَّذنا الخطوة الأولى، ذهبنا إلى مقهى الحجاز، وانتظرناها هناك، وعندما شاهدناها من بعيدٍ، تحرَّكنا بعكس اتجاهها في شارع خالد بن الوليد، وعندما صرنا مقابلها، ذهبنا مباشرةً إليها، وألقى عبد الرؤوف عليها السلام، واستوقفها قائلًا: «كيفُه عمِّي محمود؟»، قالت بصوتها الناعم المرتبك: «أبوي منيح، وبسلم عليكُو»، قال عبد ملتفتًا إليَّ: «بعرفك، سعد ابن خالي، وأخو مرتي بيان»، قالت: «أهلًا وسهلًا»، والتفت إليها وقال لي: «فتحية بنت عمِّي»، قلت بصوتٍ يكاد لا يُسمع «أهلا وسهلًا»، كنت أتأمَّلها وأكاد أرتجف من الموقف المخجل الذي لم أحبَّه. عن قربٍ شاهدت النمش الخفيف الجميل على خدَّيها، الذي لم أشاهده من بعيدٍ في أوَّل مرَّةٍ. كانت مرتبكةً مثلي وصوتها يرتجف، حتَّى يُنهي عبد الرؤوف الموقف قال: «سلمي على عمي، وقوليلُه إنِّي بوعدوا آجي بزيارة بأقرب وقت»، قالت: «بتشرف»، بعدما تركناها وأصبحت وراءنا، لم أجرؤ على الالتفات للخلف والنظر إليها مرَّةً أخرى، رغم رغبتي الشديدة بفعل ذلك.

ما عدَدتُه سخافةً، بدأت أنتظر نتائجه على أحرِّ من الجمر، وأخذت أحثُّ أختي بيان على زيارة بيت عم عبد الرؤوف، لأعرف مصير هذه

الفكرة التي زرعها عبد الرؤوف في رأسي، وسرعان ما نمت وأزهرت ونضجت، وأنا الذي اعتقدت أنَّها فكرةٌ ميتةٌ، ونفَّذتها إرضاءً له، كانت النتيجة تعلُّقي بالفكرة التي باتت ملحَّةً جدًّا. لم تتأخَّر بيان وعبد الرؤوف في الذهاب لزيارة عمِّه، وعادت بيان بنتيجةٍ إيجابيَّةٍ، طبعًا أخبرتني بها بعد ما تلاعبت قليلًا بأعصابي. لم أصدِّق أنَّها وافقت في المبدأ، كانت في السابعة عشرة من عمرها، وأنا في الخامسة والعشرين من عمري. بعد ذلك، بقيت الإجراءات الرسميَّة، لم يكن عند أهلي أيُّ مانعٍ من زواجي، على العكس كانوا سعداء بذلك، لعلَّ زواجي، يجعلني أهدأ وأتوقَّف عن «الركض وراء الفدائيَّة» كما كانت تقول أمِّي. جرت القصَّة بأسرع ممَّا توقَّعت، خلال ثلاثة أشهر كنت متزوِّجًا وأسكن في بيت أهلي، والذي بتُّ أرجع إليه خلال الإجازات مشتاقًا لفتحية، كلَّ مرَّةٍ أكثر من التي قبلها.

في العام التالي، وقعت ثلاثة أحداثٍ حاسمةٍ في حياتي، الأوَّل: أنِّي تخرَّجت في الجامعة، والثاني: أصبت في قصف الطيران الإسرائيليِّ على معسكر الهامة، بشظيَّةٍ في بطني مزَّقت أمعائي، وقد أُسعِفتُ إلى مشفى المواساة، حيث أُجريت لي عمليَّةٌ جراحيَّةٌ إسعافيَّةٌ لاستخراج الشظيَّة وترميم ما مزَّقته من أمعائي، وهو ما جعلني أنزف الكثير من الدم. وفي اليوم التالي، شعرت أنَّ أوجاع العالم كلَّها تخرج من خاصرتي وأنا أتغوَّط في سريري بمساعدة أخي سعيد، صرخت من الألم ما جعل الطبيب يضاعف كميَّة العقار المسكِّن. عندما صحوت وشاهدت الخوف في عيني فتحية الحامل بابننا البكر، شعرت أنِّي ارتكبت جريمةً بحقِّ هذا الكائن الجميل، كان يمكن أن تتحوَّل إلى أرملةٍ تنتظر مولودها من زوجها الشهيد بعد سبعة أشهرٍ من زواجها، وهي ما تزال في الثامنة عشرة من عمرها. والحدث الثالث كان إنجاب فتحية منذرًا ابننا البكر، قبل أن أتعافى من جرحي تمامًا. ترافقت هذه الأحداث الشخصيَّة مع مظاهر غير مقبولةٍ بالنسبة لي في العمل الفدائيِّ، جعلتني أفكِّر بالابتعاد، كنت على قناعةٍ أنَّ هكذا سلوكيَّاتٍ،

لن تقرِّبنا من فلسطين، وعندما تكرَّرت، قرَّرت الابتعاد، حتَّى لا أتلوَّث بما كنت أرفضه. بلَّغت أبا حاتم قائد المعسكر أنِّي سأترك العمل في المعسكر، حاول إقناعي بالبقاء في عملي الذي يعرف أنِّي أحبُّه، فقلت له جرحي لم يعد يسمح لي بذلك، فلم يضغط عليَّ. سألني: «وشو رح تعمل؟»، قلت: «رح أرجع على وظيفتي في السجل العقاري»، قال: «بالتوفيق، أنت بطل وخسارة للعمل الفدائي، وأنت بتستاهل كل خير»، أبو حاتم رجلٌ شجاعٌ وطيِّبٌ، يخفي طيبته وراء مظهره القاسي، لكنَّ القذائف الإسرائيليَّة لم تمهله، في القصف الإسرائيليِّ التالي لمعسكر الهامة بعد عامين من تركي له، استشهد أبا حاتم بالقصف، وقد أحزنني جدًّا رحيل الرجل. على مدى السنوات اللاحقة حاول عبد الرؤوف إعادتي إلى الحركة على الأقل، دون أن أعمل فيها، رفضت كلَّ العروض، قلت له: «أنا رجلٌ عسكريٌّ، ما إلي بحرتقات السياسة»، وكانت هذه نهاية علاقتي بالعمل السياسيِّ. وأوَّل ما فعلته عندما تحسَّن جرحي، أنِّي تقدَّمت بطلب عودةٍ إلى عملي في السجل العقاري بدمشق. منعني جرحي من الالتحاق بفتح في أثناء حوادث أيلول الأسود في الأردن، التي سمعت أخبارها عن تساقط أصدقائي وإخوتي في الحركة شهداء، وأنا عاجزٌ عن فعل أيِّ شيءٍ، فقد منعني الجرح لوقتٍ طويلٍ من التحرُّك على نحوٍ جيِّدٍ، وعندما حاولت الذهاب، منعني عبد الرؤوف، وقال: «رح تكون صيد سهل. بجرحك إنت مش صالح للقتال»، سقط الكثير من أصدقائي في هذه المعارك، وعلى رأسهم الرجل الذي عرفته عن قرب، وعرفت مدى بسالته، أبو علي إياد، بكيته بحرقةٍ كما بكيت كلَّ رفاق السلاح الذين فقدتهم في تلك المعارك.

تمَّت الموافقة على طلبي بالعودة إلى عملي في السجل العقاري، وفُرِزتُ إلى بلدة الزبداني للعمل في الدائرة هناك. في الأسابيع الأولى، ذهبت إلى العمل وحدي وقضيت هناك أيَّام الأسبوع، وعدت يوم الخميس إلى عائلتي في بيت أهلي في المخيَّم، لم يكن هذا عمليًّا، فقرَّرت اصطحاب عائلتي.

استئجرت بيتًا في الزبداني وأحضرت عائلتي للعيش معي، وفي كلِّ أسبوعٍ نزور أهلي أو أهلها بالتناوب. قضيت عامًا ونصف في الزبداني، كانت فرصةً للاستراحة والتفكير في المستقبل. لم أفكِّر في البقاء في الزبداني، لأنَّها بلدةٌ صغيرةٌ والمواصلات إليها صعبةٌ في ذلك الوقت. فكَّرت فيها كفترة راحةٍ بعد الأحداث المتلاحقة في حياتي. وفترةً تعرَّفت فيها على زوجتي فتحية أكثر، وعرفت كم هي طيِّبةٌ. فمنذ تزوَّجنا، لم نبقَ مع بعضنا لوقتٍ طويلٍ حتَّى انتقالنا إلى الزبداني. كنت أرغب في البقاء في الزبداني لبعض الوقت قبل العودة إلى دمشق، لكنَّ هذا لم يكن ممكنًا، فقد كان عليَّ الالتحاق بالخدمة العسكريَّة، بعد أن انتهى تأجيلي الدراسي بانتهاء دراستي الجامعيَّة، ولم أرغب أن تلاحقني الشرطة من أجل تخلُّفي عن الالتحاق بالخدمة العسكريَّة، وأبدو كمجرمٍ وخائفٍ بسبب ذلك. قلت لفتحية: «قرَّرت روح على الجيش، ومشان هيك رح نرجع عند أهلي لأخلص عسكريَّة. شو رأيك؟»، قالت: «مثل ما بدك. إنت أدرى»، بلَّغت أهلي وعملي، بأنِّي سأذهب إلى الخدمة العسكرية، أخذت انفكاك من العمل، وعدت إلى دمشق ودَّعت أهلي، ومن هناك التحقت بالخدمة العسكريَّة بعد ترتيب أوضاع فتحية والأولاد. وبسبب كوني عملت في المساحة وخريج كليَّة الجغرافيا، جاء فرزي إلى كليَّة المدفعيَّة، التي كانت موجودةً في معسكرات عدنان المالكي في قطنا بالقرب من مدينة دمشق. وفي ذلك الوقت كان الفلسطينيُّ خرِّيج الجامعة، يقضي خدمة العلم في وحدات الجيش السوريِّ برتبة ملازم، وليس في جيش التحرير الفلسطينيِّ. وكنت من الدفعة الأخيرة من ضبَّاط مدفعيَّة الميدان التي تخرَّجت في الكليَّة في قطنا، بعد تخرُّج دفعتي نُقِلَت الكليَّة إلى مدينة حلب.

الكثير من الأسباب جعلت خدمتي العسكريَّة صعبةً، السبب الأوَّل: الزواج، فليس من السهل أن تذهب إلى الخدمة العسكريَّة وأنت متزوِّجٌ، وأنا لم أكن متزوِّجًا فحسب، بل وكان عندي ولدٌ وبنتٌ. فغيابي المستمرُّ عن

البيت بسبب خدمتي العسكريَّة، ولَّد مشكلاتٍ بين أمِّي وزوجتي، المشكلات المعتادة بين الحماة والكنَّة. وكان لهذه المشكلات تأثيرٌ أكبر بسبب هذا الغياب، وبسبب وضعي القلق في الخدمة، كما أنَّ لا رواتب تذكر للضبَّاط المجنَّدين، الذين يقضون الخدمة الإلزاميَّة وهي عامين ونصف العام مجانًا تقريبًا، والمال القليل الذي ادخرته واعتقدت أنَّه سيبقى حتَّى انتهائي من الخدمة سرعان ما تبخَّر. ازدياد المشكلات بين أمِّي وزوجتي، جعلني مشلولًا، لم أكن قادرًا على الوقوف مع زوجتي أو مع أمِّي، وأمِّي لم تقدِّر الوضع الذي أمرُّ به. وأصبح الطفلان يتأثَّران بهذه الصراعات، ما جعلني غير قادرٍ على الاحتمال أكثر، وبات من الضروري إيجاد حلٍّ للمشكلة. وقد طفح الكيل مع فتحية عندما اتهمتها أمِّي أنَّها تضرب أخي منير، الذي كان طفلًا في السابعة من عمره ولا تجعله يلعب مع الأولاد. وعندما عدت إلى المنزل في إجازةٍ، كانت فتحية في حالةٍ يرثى لها. قالت: «أنا ما عاد أتحمَّل، يا بتلاقي حل، يا بترجعني عند بيت أهلي. ما بقدر كل يوم مشكلة، ويلي ولادي وويلي مشاكل أمك»، قلت: «طولي بالك يا بنت الحلال، ما أنت عارفة البير وغطاه والوضع اللي أنا فيه»، قالت: «بعرف ومقدرة، بس إمَّك مش مقدرة. مفكرة الناس عبيد عندها»، قلت: «طولي بالك، خليني النزلة الجاي أشوف شو بعمل»، قالت: «ما في نزلة جاي. يا بتحلها وإنت هون، يا بترجع ما بتلاقيني»، قلت: «بتهدِّديني؟!»، قالت: «سعد، منشان الله، أنا ما بهدِّدك، والله ما عاد قادرة أتحمَّل هون ولا دقيقة، إلَّا إذا بدك ياني أموت»، قلت: «خلص طولي بالك. كل مشكلة وإلها حل»، فكَّرت ما الذي أستطيع فعله في مثل هذه الظروف، وأنا مفلسٌ تمامًا؟ لم يكن أمامي سوى أختي بيان وزوجها عبد الرؤوف، فهما قادران على إقراضي بعض المال حتَّى تنفرج حالتي. استأجرت أختي وزوجها بيتًا يبعد عن بيت أهلي حوالي كيلومتر باتجاه الميدان، كنت أمشي باتجاه بيتهم وأنا متردِّدٌ، أبحث عن خيارٍ آخر، إذا وجدته أعود من حيث أتيت، أو

أزورهم زيارةً وديَّةً فقط. عندما وصلت وطرقت الباب، فتحت بيان الباب، سلَّمت عليها وقبَّلت أولادها، لم يكن عبد الرؤوف في البيت، ولأنِّي لا أريد أن أعيد الحديث مرَّتين، انتظرت حتَّى جاء عبد الرؤوف. سألتني بيان: «ليش ما جبت فتحية والأولاد معك؟»، قلت: «ما إجيت من البيت، كنت مفكِّر أزوركم بكرة، بس يمكن بكرة ما أكون فاضي، قلت أشوفكم اليوم لأنِّي مشتقلكم»، قالت: «أهلا سهلا فيك، البيت بيتك بكل وقت»، قلت: «يسلم البيت وصحابُه»، سألت: «وين عبد الرؤوف؟»، قالت: «ما بتأخَّر عندُه اجتماع بالمكتب، شوي وبرجع»، فعلًا لم يتأخَّر، عندما دخل قال: «أهلًا وسهلًا برفيق النضال»، عانقني، وأخذ يسأل عن أحوالي. قلت: «والله الوضع مانو مريح، وأنا ما عدت قادر أتحمَّل هذا الوضع»، قال: «خير شو في؟»، قلت: «الموضوع إياه، وفتحية ما عاد بدها تبقى بالبيت، وأنا ما بقدر أعمل شي، هاي أمي، وهاي مرتي، وما بقدر أرضي التنين مع بعض، وأنا بعيد ما بقدر أحل الخلافات بينهم، وما بقدر أترك عسكريتي وأقعد حكم بينهم. وفتحية ما عاد بدها تظل بالبيت، والوضع صار يأثِّر على الصغار»، قالت بيان: «شو بدك تعمل؟ شو بتفكِّر؟»، قلت: «ما في شي أعملُه. غير إنِّي أوافق تروح عند أهلها. بس مش قادر أقبل أنُه مرتي تعيش عند أهلها وعلى حسابهم»، قال عبد الرؤوف: «معك حق، هذا وضع صعب. كيف ممكن نساعدك؟»، قلت: «أنا جاي منشان هيك. وأنا ما إلي غيركو»، قال: «أنت غالي وأنا عيوني إلك»، قلت: «أنا مقتنع فتحية تروح عند أهلها، تسكن جنبهم مش عندهم، وتظل قريبة منهم، بعرف إمِّي ما رح تتركها بحالها. وأنا محتاج مصاري. بدي أديَّن منكم ألف ليرة، إذا في مجال»، وكان مبلغًا كبيرًا في ذلك الوقت. قالت بيان: «يا أخي طول بالك. هاي بتظل إمَّك، ممكن ينحل الموضوع من دون ما تطلع من البيت»، قلت: «أنت بتعرفي إنُه هذا مستحيل، إمِّي ما في شي بردعها عن اللي براسها. وبالآخر فتحية مرة مسكينة ومش قد إمَّك»، قالت: «إذا أعطناك وعرفت إمِّي، ما

منخلص منها»، قال عبد الرؤوف: «شو هالحكي هذا. خيًّا سعد اعتبر المبلغ صار معك»، قالت بيان: «شو قلت، وكأنُه أنا رجل كرسي هون!»، قال: «الكلام اللي بتقوليه مانُه منطقي، الرجل جاي قاصدنا وأنت خايفة من إمِّك إذا وقفتي معُه؟»، قلت: «يا جماعة أنا آسف. خلص ما عاد بدي شي. أنا ما جاي أعمل خلاف بينكم. خلص ما بدي غير سلامتكو. وبدبِّر حالي ما في مشكلة»، قال عبد الرؤوف: «ما في خلاف ولا شي، المصاري موجودة وبيان ما قصدها شي»، التفت إلى بيان وقال: «بيان، روحي جيبي المبلغ لأخوكِ»، لم تجادل، لأنَّها لو جادلت، لظهرت أنَّها لا تريد إقراضي المال، ولم يكن هذا السبب، كانت خائفةً من أمِّي فعلًا، إذا عرفت، سوف تذوق بعضًا من لسان أمِّي الحاد. ذهبت بيان وأتت بالمال. وقالت: «والله يا خيا، قلبي معك، وحاسة فيك. بس كنت بتمنَّى تنحل المشكلة، بدون ما تتشنطط وأنت عسكري. على كل حال زي ما قال عبد الرؤوف عيونا إلك. وإذا احتجت أي شي تاني إحنا جاهزين»، قال عبد الرؤوف: «هذا الحكي اللي بنحكى».

عدت إلى البيت، وبلَّغت أبي وأمِّي أنِّي سأرسل فتحية والأولاد عند بيت أهلها للزيارة هناك وستقضي بعض الوقت. قالت أمِّي: «الله معها، بترَّيح» استفزَّني كلام أمِّي، لكنِّي ضبطت أعصابي، وقلت ما هي سوى ساعات ونصبح في واقعٍ جديدٍ. قلت: «وأنا ما بدي غير راحتك ياما»، في تلك الليلة الطويلة، لم أعرف ما أقوله لفتحية، كنت أحسُّ بجرحها، قلت لها: «بوعدك كل شي يتصلَّح. ما رح تظل الظروف صعبة»، قالت: «أنا ما بلومك، بس والله ما عاد فيني أتحمَّل»، قلت: «بعرف وأنا حاسس فيكِ. بس بدي أطلب منك طلب»، قالت: «أنت بتأمر»، قلت: «أنت بتعرفي أنا ما بقدر أسكن عند أهلك، بتخذي هدون المصاري، وبتخلي أهلك يستأجرولك بيت قريب منهم، طالما أنا ماني موجود فيكي تظلي عندهم طول الوقت، بس أرجع على البيت بدي أرجع على بيتي. أنا بعرف أهلك طيبين. بس أنا ما

بدي أزيد الحمل عليهم»، وضعت المال الذي اقترضته في يدها. وقالت: «زي ما بدك بصير»، في اليوم التالي جمعت فتحية أغراضها وأغراض الأولاد، وأخذت تكسي إلى دوما حيث بيت أهلها. قضيت بعد الوقت عندهم، وكانت أثقل وأقسى زيارةٍ أزورهم بها في حياتي، تركت عبء شرح الوضع لفتحية، وغادرت إلى وحدتي العسكريَّة دون التحدُّث في الموضوع. رتَّب أهل فتحية أوضاعها بالقرب منهم، إذ استأجروا لها بيتًا صغيرًا مجاورًا لهم، وأصبحت تقضي جلَّ وقتها عندهم، ونعود إلى بيتنا عندما أعود خلال إجازتي الأسبوعيَّة، التي تنتظر أحيانًا لأسبوعين، وساعدني هذا في الهرب من وضعٍ شعرت بالعجز اتجاهه. زارني أخي خليل وزوجته في تلك الفترة في دوما، عندما كان يعمل في السعودية، دُهِشَ من الوضع الذي نعيش فيه، وقال: «ما تشغل بالك، كل شي بنحل»، طلب منِّي الخروج من البيت لنتمشَّى معًا، خرجنا وتركنا زوجته مع زوجتي. قال: «اسمع، ما رح أسألك على اللي صار، بس هذا الوضع ما بنسكت عليه. امسك هدلون»، ومدَّ يده بمبلغٍ من المال أخرجه من جيب بدلته السفاري. قلت: «الأمور مستورة، وأنا ما بحاجة»، قال: «أنا ما عبخيرك تأخذهم، بتخذهم غصب عنك، هذا أمر. وكل شهر بتمر على خديجة وبتأخذ مبلغ، لحتَّى تخلِّص عسكريَّة وترجع على شغلك»، قلت: «والله هذا كثير خيا»، قال: «لا تقول هيك، هذا أقل واجب»، لم يقل خليل شيئًا حول مشكلتي مع أهلي، وكلُّ ما قاله جملةً واحدةً: «الحق مو على إمَّك، الحق على أبوك»، لم أعرف ما جرى حينها، وفهمت بعد وقتٍ طويلٍ أنَّ خليل عندما عاد من عندي، لم يستطع السكوت. ذهب في زيارة لأهلي قبل عودته إلى السعودية، وقال رأيه في الموضوع مُحمِّلًا أبي المسؤوليَّة عمَّا جرى، وقال: «هذا ما بجوز، إحنا اللي وضعنا منيح، أخونا يعيش بهذا الوضع!»، توجَّه إلى أبي وقال: «كيف قبلت يصير هيك؟»، لم يروِ خليل ما جرى في ذلك اليوم، أختي وداد هي التي روته لي بعد سنواتٍ، لأنَّها حضرت الجدل الذي دار. شعر أبي بالإحراج ممَّا

قاله خليل. ووداد هي التي أبلغت أخي خليل بما جرى، وكيف خرجنا من المنزل، وكانت متعاطفةً مع فتحية، التي كوَّنت معها صداقةً شخصيَّةً، ما جعل روايتها تستفزُّ خليل، ولم يستطع المغادرة إلى السعودية قبل أن يقول ما عنده. جاء أبي لزيارتي في دوما بعد مغادرة خليل، وطلب منِّي العودة إلى المنزل، لكنِّي رفضت ذلك على نحوٍ قاطع. قال: «اللي صار مو صح، وأنا بوعدك ما يتكرر»، قلت: «أنا أخذت قراري، طالما طلعت من البيت ما عاد أرجع. وأنت يابا بتعرف إمِّي ما بترد على حدا ولا حتى عليك، بتعمل اللي برأسها. وأنا اكتفيت من المشاكل»، حاول أن يستمرَّ في نقاش الموضوع، ولأنَّ النقاش يؤلمني، قلت: «يابا، أنت وأمي بتظلوا على رأسي من فوق، بس أنا ما عاد بدي أرجع، لا على البيت ولا على المخيَّم كلُه»، أغلقت باب النقاش، خرج أبي من عندي منزعجًا، ولم أرغب في ذلك، لكنِّي فعلًا، لم أعد قادرًا على العودة إلى المكان الذي بتُّ أشعر فيه أنِّي غريب.

المال الذي اقترضته من بيان وعبد الرؤوف، وتضامن أخي خليل معي، وقراره بأن يمنحني مبلغًا شهريًّا من المال حتَّى انتهاء خدمتي العسكريَّة، كانا حلًّا مؤقَّتًا معقولًا، سيحملني بعض الوقت ويقرِّبني من نهاية خدمتي العسكريَّة، التي ستنتهي بحساباتي بعد عامٍ وثلاثة أشهر، لأنَّ الانتقال إلى دوما حصل في منتصف خدمتي العسكريَّة. كانت حساباتي صحيحةً في عد الأشهر والأعوام، ولم تكن كذلك في تقدير الظروف والأحداث، وهو ما غيَّر كلَّ شيءٍ في الواقع وحطَّم حساباتي، وعلى رأسها مدَّة خدمتي العسكريَّة، التي لم تنتهِ في وقتها، فبعد انتهاء مدَّة الخدمة الإلزاميَّة، احتُفِظَ بنا ومُدِّدَت خدمتنا. صحيحٌ أنَّ الاحتفاظ جعل راتبي مختلفًا، إذ زاد بما يكفينا كعائلةٍ حدَّ الكفاف، ما جعلني أستغني عن مساعدات أخي خليل. لكنَّ الاحتفاظ فتح أمامي الخدمة العسكريَّة إلى ما لا نهاية، لم أعرف متى ستنتهي خدمتي. أصبح كلُّ يومٍ إضافيٍّ أثقل من اليوم الذي سبقه، التدريبات المتكرِّرة لا معنى لها، الضبَّاط، متطوِّعون ومجنَّدون ومحتفظٌ

بهم في حالة مللٍ، وصفُّ الضبَّاط والجنود ليسوا أحسن حالًا. هذا هو الحال في اللواء الثالث من الفرقة الخامسة حيث كنَّا متمركزين في منطقة الشيخ مسكين في درعا، وكنت أقود فصيلة مدفعيَّةٍ في الفرقة، وهي مؤلَّفةٌ من ثلاث مجموعاتٍ، كلُّ واحدةٍ منها مزوَّدةٌ بمدافع ميدان. مع كلِّ دورة ضبَّاطٍ جديدةٍ، كنت آمل في تسريحي من الجيش لأعود إلى حياتي العاديَّة، فأنا تركت العمل العسكريَّ في حركة فتح، لأنِّي أردت أن أستقرَّ في حياتي العائليَّة، أعمل عملي الذي أحبُّه، وأعيش حياتي بقرب زوجتي وأولادي. لم تكن الخدمة العسكريَّة الطويلة في حسباني، جاء قراري بإنجاز الخدمة العسكريَّة من أجل حياةٍ أكثر استقرارًا، وبخدمتي هذه أكون قد أنهيت التزاماتي التي يمكن أن تعكِّر حياتي العاديَّة، لكنَّ حساب الحقل لم يكن كحساب البيدر. خلال خدمتي العسكريَّة تردَّدت أخبارٌ وإشاعاتٌ داخل وحدات الجيش عن حربٍ قادمةٍ، تخبو حينًا وتزداد حينًا. بقيت آثار هزيمة حزيران تخيِّم على الجيش حتَّى بعد سنواتٍ من وقوعها، يجتاح إحساس العار الجميع، لا سيَّما الضبَّاط المتطوِّعون الذين خاضوا تلك الحرب، واستجابوا لأوامر الانسحاب السريع. كان النقيب أحمد العلي، قائد سريَّة المدفعيَّة التي خدمت فيها، واحدًا من هؤلاء الذين يلومون أنفسهم على الهزيمة النكراء التي تعرَّضت لها البلد. يتحمَّس عندما يرتفع مستوى الحديث عن الحرب، يريد أن يعيد الاعتبار لنفسه أمام نفسه قبل كلِّ شيءٍ. كانت علاقتي به جيِّدةً، وخدمتنا الطويلة مع بعضنا، ومعرفته الجيِّدة بي، جعلته يثق بي. كلَّما أتت أخبارٌ عن حربٍ قريبةٍ يفرح كالأطفال، وعندما تتراجع يُصَابُ بالحزن والخيبة. عندما جاءني في مطلع خريف العام 1973 في ليلة مناوبةٍ، والهواء البارد القادم من جبل الشيخ يلسعنا في الشيخ مسكين، وطلب منِّي أن نتفقَّد الحراسات معًا، سرنا من مَحرسٍ إلى آخر في محيط اللواء. قال: «والله يا سعد، هاي المرَّة الحكي عن الحرب عنجد، مش مثل كل مرَّة»، قلت: «ووالله يا سيدي، إذا هذا الحكي صحيح. بتكون فترة

الاحتفاظ ما راحت ببلاش»، قال: «أنت متحمِّس للحرب؟»، قلت: «غريب سؤالك يا سيدي، إذا في حدا متحمِّس للحرب، بكون أنا، هاي حربي. وأنت بتعرف مين أنا، أنا لاجئ بسبب إسرائيل، ومصاب بقصف إسرائيلي سابق على معسكر الهامة. عندي كل الأسباب لأحارب حتَّى الموت»، قال: «وولادك؟»، قلت: «إذا رح حارب، رح حارب منشانهم. إذا صرلي شي، إلهم الله»، قال: «إن شاء الله بترجع على بيتك سليم معافى، بحرب أو بدونها».

فعلًا، هذه المرَّة لم تكن إشاعةً أو أخبارًا كاذبةً. قبل أسبوعين من الحرب، أُعلِنَ الاستنفار العامُّ في الجيش، وأُغلِقَ المبيت على الجنود والضبَّاط، إلَّا لحالات الضرورة القصوى. وأخذ اللواء يتحوَّل إلى حالةٍ من الغليان، بعد أن أتت أوامر الجاهزيَّة الكاملة للتحرُّك من الموقع إلى مواقعٍ جديدةٍ، مع ترتيب الوضع والتأكُّد من جاهزيَّة العربات لنقل المدافع وذخائرها للاستخدام في الموقع الجديد في أيِّ لحظةٍ. كانت الأوضاع تشبه المشاريع التدريبيَّة السابقة من جهةٍ، التي أجريناها مرَّاتٍ عدَّةً، لكن هناك شيئًا مختلفًا هذه المرَّة. كان الضبَّاط الكبار في المشاريع السابقة، يزورون اللواء الذي أخدم فيه، ولم يكونوا بالتوتُّر الذي ظهر عليهم في الاستنفار الذي سبق الحرب، لا أعرف من كان يعلم بقرار الحرب ومن لم يكن يعلم، لكن في الجيش التوتُّر يصنع حالة عدوى، عندما يكون الضابط القائد متوتِّرًا، تصبح كلُّ الرتب تحته متوتِّرةً.

نُقل لواءنا إلى الجبهة الجنوبيَّة بالقرب من نوى، في اليوم السابق للحرب، وخلال الليل نصبنا مدافعنا كي نستهدف المواقع الإسرائيليَّة على الجانب الثاني من وقف إطلاق النار. أعدَدنا مدافعنا وحدَّدنا سمتات المواقع التي جاءت الأوامر باستهدافها بمدفعيَّتنا، والتي عادةً ما تحتاج إلى تعديلٍ عند الرمي. ومهمَّة سلاح المدفعيَّة في الجيش هي تغطية تقدُّم المدرَّعات والمشاة عندما تقتحم خطوط العدو، بالتمهيد لها بالقصف العنيف. انتظرت الحرب بفارغ الصبر، كنت خائفًا مثل كلِّ العسكريِّين، لم

أكن خائفًا من الموت، على العكس كنت أرحِّب به في حربٍ ضدَّ إسرائيل، ما كنت أخاف منه، هو الوصول إلى نتيجةٍ تشبه نتيجة حرب العام 1967 التي لا يزال طعمها المرُّ في فمنا، لا سيَّما مع الأكاذيب الأولى عن الانتصارات الباهرة للجيشين المصريِّ والسوريِّ في اليومين الأوَّلين للحرب، والذي تكشَّف بعد ذلك عن هزيمةٍ ساحقةٍ للجميع. أردت الحرب لأردَّ على تاريخٍ طويلٍ من الإذلال تعرَّضنا له، هذا الشعور الذي ينتابني منذ كنت طفلًا، أريد الحرب من أجل القضاء عليه، وهذا لا يُمحَى مع هزيمةٍ جديدةٍ، بل سيتعمَّق أكثر إذا حصل ذلك، من أجل كلِّ هذا خفت من الحرب، هذا الخوف الذي لم أشعر به عندما كنت في العمل الفدائي.

عندما جاءت الأوامر بإطلاق النار في الساعة الثانية ظهرًا في السادس من شهر تشرين الأوَّل الذي صادف العاشر من رمضان، وكان شنَّ الحرب في عيد الغفران أو يوم كيبور عند اليهود مقصودًا، ويعدُّ هذا اليوم عطلةً كاملةً عندهم، وهو مثل أيَّام السبت أو والأعياد الرئيسيَّة يُحظر عليهم العمل، وإشعال النار، والكتابة بقلمٍ، وتشغيل السيَّارات وغيرها، ويعدُّ «يوم كيبور» يومًا للعبادة. في ذلك اليوم كنت صائمًا لأنِّي عدَدتُ هذه المرَّة مثل غيرها من المرَّات السابقة الكاذبة، التي جاءت بأخبار أو إشاعات الحرب، ولم يحدث شيءٌ على الإطلاق. عندما جاءت الأوامر بإطلاق النار، نحن من بدأ قصف المواقع العسكريَّة الإسرائيليَّة. ألف مدفعٍ دوى على طول الجبهة معلنًا الحرب. ومع إطلاقنا القذائف حلَّقت الطائرات الحربيَّة في سماء الجولان وقصفت المواقع العسكريَّة الإسرائيليَّة أيضًا، بعد ساعةٍ من تغطيتنا المدفعيَّة بالقصف الشديد ومؤازرة الطيران الحربيِّ، اقتحمت وحدات الدبَّابات والمشاة المحمولة خطَّ آلون الدفاعيَّ الذي بناه الإسرائيليُّون ليردُّوا أيَّ هجومٍ سوريٍّ على الجبهة، وبدأت وحدات الهندسة في بناء جسورٍ عدَّةٍ في القطاع الشماليِّ والأوسط والجنوبيِّ، عبرت فوقها القوَّات المحمولة والمدرَّعات مخترقةً الدفاعات والتحصينات الإسرائيليَّة في الجولان. ما إن

اقتحمت الآليَّات خطوط الدفاعات الإسرائيليَّة، حتَّى التحقت قوَّات المدفعيَّة بالقوَّات التي دخلت أراضي الجولان، واندفعنا باتجاه الجنوب لتأمين الحماية للقوَّات التي سبقتنا وتغطيتها ناريًّا، وكنَّا نتجاوز في تقدِّمنا دشمًا إسرائيليَّةً عالية التحصين، لم يكن القصف المدفعيُّ ولا حتَّى الطيران قادرًا على اختراق تحصيناتها، تقدَّمنا وبقيت وراءنا محاصرةً. صحيحٌ أنَّ بعض هذه التحصينات قد سقط، لا سيَّما مرصد جبل الشيخ وهو الموقع الأهمُّ للجيش الإسرائيليِّ، فهو أعلى قمَّةٍ في المنطقة، حيث استطاعت وحدات المشاة التي أنزلتها المروحيَّات في المرصد ومحيطه من اقتحام المرصد وسقوطه بأيدينا. أوصلتنا اندفاعاتنا الجنوبيَّة إلى حدود طبريا، لقد رأيت البحيرة بأمِّ عيني من مواقع مرابض مدفعيَّتنا التي أعدنا نصبها لحماية قوَّاتنا المتقدِّمة. لم يكن هناك ما يفوق سعادتي بتقدُّم قوَّاتنا، سوى سعادة النقيب أحمد العلي، الذي تحوَّل إلى شخصٍ آخر مع بدء الحرب، ونحن نتقدَّم باتجاه بحيرة طبريا، قال: «بتعرف يا سعد، اليوم رجعتلي روحي»، كان يقصد أنَّه عاد إلى الأماكن التي كان يخدم فيها قبل هزيمة حزيران، وكان موضوع الوصول إلى هذه الأماكن تعويضًا نفسيًّا له عن الفترة التي تلت الهزيمة المذلَّة. في اليوم التالي، ردَّ الطيران الإسرائيليُّ بهجومٍ معاكسٍ، دمَّر بعض الدبَّابات المتقدِّمة، لكنَّه فشل في إنجاز أيِّ تقدُّمٍ على الأرض. بعد حوالي أربعة أيَّامٍ من المعارك بدأ الهجوم الإسرائيليُّ المعاكس في كلِّ قطاعات الجبهة. ضرب الطيران الإسرائيليُّ بطاريَّات صواريخنا أرض-جو رغم ما خسروه من طائراتٍ، وهذا ما أعطاهم القدرة على البدء بهجومٍ بريٍّ معاكسٍ بعد أن عبَّأت إسرائيل احتياطها خلال خمسة أيَّامٍ من الحرب. أصبحت قوَّاتنا المدرَّعة المتقدِّمة مكشوفةً أمام الطيران الإسرائيليِّ ومدرَّعاته التي تملك تغطيةً جوِّيةً، وأصبحت التحصينات الإسرائيليَّة التي تركناها وراءنا عوامل إزعاجٍ وتصيُّدٍ لقوَّاتنا. وهذا ما فرض علينا التراجع. وبدأنا نخسر المواقع التي كسبناها في بداية الحرب الواحد بعد الآخر. ومع كلِّ

تراجعٍ يعود النقيب أحمد إلى إحباطه السابق، في تراجعنا خسرنا أربع مدافع من المدافع التسعة التي تعود لسريَّتنا، منها مدفعٌ من مدافع فصيلي. وعندما أعدنا التمركز من جديدٍ، كنَّا قد فقدنا كلَّ الدبَّابات التي تتصدَّى إلى الدبَّابات الإسرائيليَّة، ولم يبقَ هناك من يقف في وجه الدبَّابات الإسرائيليَّة، وعندها جاء الأمر من النقيب أحمد، أن نصوِّب مدافعنا بإطلاقاتٍ قريبةٍ على الدبَّابات الإسرائيليَّة مباشرةً، وهي مهمَّةٌ صعبةٌ على المدافع المعدَّة للرمايات البعيدة، ورماياتها القريبة خطرةٌ على مطلقيها، وهي غير مجديةٍ في إصابة أهداف العدوِّ، لكنَّها توحي بوجود دبَّاباتٍ على الطرف الآخر من الجبهة. وعندما قلت: «يا سيدي، هذا ما بصير»، قال: «نفِّذ الأمر»، فعلًا، لم يكن هناك خيارٌ، خفَّضنا سبطانات المدافع قدر الإمكان أخذنا سمت مواقع الدبَّابات الإسرائيليَّة، وبدأنا القصف، ويبدو أنَّ خطَّة النقيب نجحت في جعل القوَّات الإسرائيليَّة تتوقَّف عن التقدُّم، التي يبدو أنَّها اعتقدت أنَّه هناك فعلًا تقدُّمٌ لمدرَّعاتٍ جديدةٍ. كانت الحركة ذكيَّةً، باستخدام مدفعيَّة الميدان بطريقةٍ غير مألوفةٍ. هذا ما جعلنا هدفًا للطائرات الإسرائيليَّة، التي أغارت علينا مرَّاتٍ عدَّةً، وكان النقيب أحمد شهيد تلك الغارات، إضافةً لخسارتنا مدفعين إضافيَّين. ولم تكن هذه الحركة التكتيكيَّة قادرةً على وقف التقدُّم الإسرائيليِّ الذي عاد مرَّةً أخرى للتقدُّم على جبهتنا، ونحن نتراجع أمامه إلى ما قبل الخطوط الدفاعيَّة السابقة، ولم تقف القوَّات الإسرائيليَّة عند الخطوط القديمة، بل دخلت الأراضي السوريَّة التي لم تكن محتلَّةً قبل الحرب، وتقدَّمت باتجاه دمشق، مخترقةً قوَّاتنا، وصولًا إلى منطقة سعسع. عدنا للتجمُّع في الشيخ مسكين، واتخذنا مواقع دفاعيَّةً، وزُوِّدنا بثلاثة مدافع جديدةٍ، ومع قدوم المدرَّعات العراقيَّة، تجدَّد الأملُ في وقف التقدُّم الإسرائيليِّ، وقد استطاعت هذه القوَّات تجميد التقدُّم، رغم الخسائر الكبيرة التي تكبَّدتها. وبعد حوالي أسبوعين من بداية الحرب، جاءتنا أوامر بهجومٍ معاكسٍ على القوَّات الإسرائيليَّة، لم نكن نملك

قوَّاتٍ كافيةً للقيام بهذا الهجوم، وقبل إعطاء الأوامر ببدء الهجوم، وافقت مصر على وقف إطلاق النار مع إسرائيل وقبلت بقرار مجلس الأمن 338، وألغي الهجوم.

توقَّفت الحرب على الجبهة المصريَّة، لكنَّها لم تتوقَّف على الجبهة السوريَّة، وقد أخذت الحرب شكل قصفٍ متبادلٍ بيننا وبين القوَّات الإسرائيليَّة، ولا إمكانيَّة لشنِّ حربٍ من سورية وحدها مع إسرائيل، ولم يبقَ التحرير هو الهدف، أصبح الهدف الخروج من الحرب ذاتها، بلا مزيدٍ من الخسائر. خلال الأشهر التالية، أصبحت الاشتباكات والقصف المتبادل شيئًا روتينيًّا على الجبهة.

خضنا حربًا لتحرير الأراضي المحتلَّة، وجدنا إسرائيل تحتلَّ أراضٍ إضافةً لتلك التي كانت تحتلُّها قبل الحرب، وأصبحت مدينة دمشق مهدَّدةً من الجيب العسكريِّ الإسرائيليِّ في منطقة سعسع، لم يكن ممكنًا قبول هذا الوضع، ولا إمكانيَّة لخوض حربٍ واسعةٍ، وبقيت المناوشات على طول الجبهة محدودةً، حصلت معارك جويَّةٌ لكنَّها بقيت محدودةً وروتينيَّةً. في مطلع العام التالي، بدأ هنري كيسنجر، وزير الخارجيَّة الأمريكيِّ، وساطةً بين الطرفين من أجل الوصول إلى وقف إطلاق النار، وكانت تسخَّن المفاوضات على خطوط الاشتباك، وعندما بدأ كيسنجر جولاته أصبح مطلوبًا إشعال الجبهة للتأثير على المفاوضات. وكان العبء الثقيل على سلاحنا، سلاح المدفعيَّة، الذي يصل إلى مدًى بعيدٍ داخل الأراضي التي تسيطر عليها إسرائيل حتَّى المستوطنات الإسرائيليَّة. وقد كنَّا نستهدف على نحوٍ رئيسيٍّ القوَّات الإسرائيليَّة في جيب سعسع، وهذا الضغط العسكريُّ جعل القوَّات الإسرائيليَّة تقلِّص من المساحة التي تحتلُّها حتى تُسهِّل الدفاع عنها. وفي أواخر نيسان من العام 1974 استهدفنا بالقصف قمَّة جبل الشيخ الذي فتح الإسرائيليُّون له طريقًا وعزَّزوا وجودهم فيه، وأصبحوا يستهدفون قوَّاتنا في الجبل من هناك. وقد جاء القصف المفاجئ بنتائجه وأصيب

العديد من العسكريِّين الإسرائيليِّين هناك، واستمرَّت قوَّاتنا بالقصف في أثناء إخلاء الجرحى بالمروحيَّات، ما أدَّى إلى إصابة مروحيَّةٍ إسرائيليَّةٍ وتحطُّمها. وبعد أيَّامٍ عدَّةٍ استطاعت وحدات المشاة العاملة في جبل الشيخ، إعطاب دبَّاباتٍ إسرائيليَّةً والعودة بأسرى من الجيش الإسرائيليِّ. في نهاية شهر أيَّار استطاع كيسنجر الوصول إلى اتفاق وقف إطلاق النار بين الطرفين على أساس عودة القوَّات الإسرائيليَّة إلى خطوط ما قبل الحرب مع تغييراتٍ محدودةٍ، مثل انسحاب إسرائيل من مدينة القنيطرة وإنشاء منطقةٍ عازلةٍ على الجانب السوريِّ من الحدود الذي سيطرت عليها قوَّات مراقبةٍ من الأمم المتحدة مع احتفاظ سورية بالإدارة المدنيَّة. واستمرَّ هذا الترتيب حتَّى اليوم.

الإجازة الأولى التي حصلت عليها خلال الحرب، وكانت أربع وعشرون ساعة فقط، لم تكن كافية لفعل أيِّ شيءٍ، سوى أن أطمئن عائلتي عليَّ، كنت أعرف قلق فتحية عليَّ، من أجلها ومن أجل الأولاد ذهبت في إجازتي القصيرة، لا أعرف ما الذي يمكن أن يحصل في الحرب، فالموت حولي في كلِّ وقتٍ، الانفجارات في كلِّ مكانٍ، الحرب في النهاية صراع الموت، الموت مهنة الجنود. لم يكن لفتحية أحدٌ غيري، فأنا كلُّ عالمها، وجعلتها الظروف الصعبة التي مرَّرنا بها تتعلَّق بي أكثر، لم أحاول يومًا إحراجها أو القسوة عليها، وفي الحرب عرفت أنَّها كلُّ عالمي، تمنَّيت أن أعبر الحرب بسلامٍ، من أجلها ومن أجل الأولاد. عرفتها طوال عمرها امرأةً راضيةً وغير متطلِّبة ومقدِّرةً للأوضاع التي نمرُّ بها. والسبب الأهمُّ أولادنا الثلاثة الذين أنجبناهم قبل الحرب. ماذا ستفعل فتحية مع أولادنا الثلاثة إذا خطفتني الحرب؟ كانت تعيش رعبًا حقيقيًّا، حاولت إخفاءه عنِّي. وأنا أيضًا عشت هذا الرعب، ما شعرت به في الحرب مختلفٌ عمَّا شعرت به عندما خضت تجربة العمل الفدائيِّ، هنا وهناك كان يمكن للموت أن يخطفني. أتى اختلاف شعوري من وجود الأولاد، عندما لم يكن عندي أولاد، موتي لا يترك ورائي أحدًا يحتاجني.

بالتأكيد سيحزن أهلي، ولكنَّهم ليسوا بحاجتي وحياتهم ليست معتمدةً عليَّ، فهي ستستمرُّ بوجودي وبموتي. أمَّا أولادي وفتحية، فحياتهم ستنقلب رأسًا على عقبٍ في حال موتي، وهذا ما جعلني أخاف على نفسي من هكذا مصيرٍ، وهذا هو سبب اختلاف مشاعري في المرحلتين. عندما قرعت الباب عند بيت عمِّي، وقالت وفاء أخت فتحية بصوتٍ شبيهٍ بالصراخ: «إجى سعد» ركضت فتحية من الداخل ورمت نفسها على صدري وهي تبكي، كانت تنظر إلى وتقول: «أنا مش مصدقة»، تنظر إلى وجهي وتعود لدفن رأسها في صدري. احتضنت أولادي الذين خفت مع كلِّ قذيفةٍ أو صاروخٍ سقط قربي ألَّا أراهم مرَّةً أخرى. سلَّمت على عمِّي وزوجته وأولادهم، وجلست لعشر دقائق، اعتذرت للذهاب إلى بيتنا. تركنا الأولاد عند بيت عمِّي، وذهبت لأستحم، فأنا لم أعرف الحمام منذ أكثر من عشرين يومًا، ولم تلتفت فتحية إلى رائحتي القذرة عندما دفنت رأسها في صدري. أصرَّت أن تحمِّمني كالأطفال الصغار، قلت: «بتحمَّم لحالي»، قالت: «لأ، ما بدي تغيب عن عيني ولا لحظة»، قلت: «حاضر» واستسلمت لها، تفقَّدت كلَّ عضو من جسدي لتتأكَّد أنَّه لم ينقص منِّي شيئًا سوى الكثير من وزني الذي فقدته بسرعةٍ في دوامة الحرب، وتفقَّدت الندبة الكبيرة التي تركتها إصابة الهامة على بطني، تفقَّدت عيوني، كوتني نظراتها غير المصدِّقة. تفقَّدتها كما تفقَّدتني، وعندما خلعت ملابسها، انتبهت أنَّ جسدها هزل مثل جسدي. سألتها بصوت حزينٍ: «ليش عاملة هيك بحالك؟»، قالت بصوتٍ يرتجف: «ما عبقدر آكل، خايفة عليك»، قلت: «بس هيك بتقتلي حالك، وأنا بخاف عليكي، شو بدي أعمل أنا والأولاد بلاكي. بعدين، أنت عارفة الأعمار بيد الله»، قالت: «ما قادرة، كل شي بخلِّيني أخاف عليك، خاصة الأولاد، لما بشوفهم، بدعيلك ترجع بالسلامة، إذا ما منشاني، منشانهم»، بكت، ودفنت رأسها في صدري من جديدٍ، قالت: «اوعدني ما تموت»، ابتسمت وسالت دموعي، لو الأمر بيدي، لما وعدتها فحسب، بل لقتلت الموت نفسه من

أجلها في تلك اللحظة. ورغم أنِّي لست واثقًا من مصيري ولا من طول الحرب، حتَّى أحاول تهدئتها، قلت وأنا أحاول أن أكون مرحًا: «سأهزم الموت وإسرائيل منشانك»، ضحكت، وغرقنا معًا في اللحظات الأكثر جمالًا، لم أضغط عليها بثقلي، لأنِّي خفت من كسر عظامها الظاهرة بعد هذا النحف الذي تسبَّب به قلقها عليَّ. تمنَّت أن تمتد اللحظة إلى الأبد، لكنَّ اللحظات الأروع هي الأسرع في حياتنا، منحني هذا الوقت القصير سعادةً غامرةً وجدَّد قواي، وأعطاني الحافز لأن أعود إلى حياتي، وفتحية أجمل ما فيها. بعد هذه اللحظات الاستثنائيَّة، أحضرت أولادي من بيت عمِّي، أريد رؤيتهم، لأنِّي في صباح اليوم التالي سأغادر من جديدٍ إلى الجبهة. سألني ابني منذر ذو الأربع سنوات في تلك الليلة الأسئلة الأكثر براءةً: «بابا، شو يعني حرب؟»، لم أعرف كيف أشرح الحرب لطفلٍ بعمره، قلت: «الحرب يعني جيشين بطخُّوا على بعضهم، لحتى ينتصر واحد منه»، قال: «بقتلوا بعض، بموتوا؟»، قلت: «أي بابا، بموتوا»، قال: «وليش بموتوا؟»، قلت: «لأنُه في حرب»، قال: «يا حرام، ما بصير حرب، بلا ما يموتوا؟»، قلت: «يا ريت يا بابا»، قال: «أنت راجع على الحرب؟»، قلت «إي راجع»، قال: «رح تموت؟»، صدمني السؤال، وتردَّدت بالإجابة عليه، احتضنته، وقلت: «بابا قوي، ما بموت»، بعد إجابتي على سؤال منذر، أصبحت خائفًا من الموت. أسئلة الطفولة البريئة محرجةٌ، والحرب لا يمكن علاجها بأسئلة الطفولة البريئة، ولا يمكن شرحها لهم، فهي أقسى التجارب. لم أملك الإجابات على أسئلة منذر، لا على تلك الحرب، ولا على الحرب التي نعيشها اليوم. قضيت تلك الليلة أتأمَّل أولادي وأمَّهم، لم أنم في تلك الليلة، ولم تنم فتحية، وكلَّما اقترب الصباح، طفا القلق والخوف على وجهها، شعرت بأمانٍ كاملٍ في حضنها. بعد ساعات سأذهب إلى المكان الذي يهدِّدني الموت فيه في كلِّ لحظة. قلت لها: «بكرة، رح أروح بكير. بدي أمر على أمِّي وأبوي. ما بعرف شو بصير معي؟»، قالت: «أكيد، هذا حقهم عليك».

حتَّى وصولنا إلى الحرب لم أكن شفيت من الخلاف مع أهلي، بقيَ خروجي من بيت أهلي جرحًا ينفتح المرَّة بعد الأخرى، يأتي حدثًا ما ينكؤه ويعود للنزيف، لم أجد مبرِّرًا لكلِّ ما حدث، كان الحدث قاسيًا عليَّ ووضعني في ضيقٍ شديدٍ. لا أعرف كيف فكَّرت أمِّي في تلك الفترة، ولا أعرف لماذا أصرَّت على التصعيد وصولًا لرحيلنا. في الحرب أصبح كلُّ ذلك ورائي، لا أعرف إذا كنت سأبقى حيًّا أم لا، فالحرب تهديدٌ جديٌّ لحياة المحاربين، ومن الممكن للمحارب أن يموت بطلقةٍ أو قذيفةٍ أو لغمٍ، ويمكن أن يموت بنيرانٍ صديقةٍ، الحرب قاسيةٌ لا ترحم. لذلك عندما اندلعت الحرب قرَّرت أن أصالح أمِّي، فلا أعرف سأعود من الجبهة مرَّةً أخرى وأراها ونختلف من جديدٍ على شؤون الحياة أم لا. لم أملك من الوقت سوى ما يكفي للذهاب إلى المخيَّم والسلام على أمِّي وأبي والعودة إلى وحدتي مباشرةً. لم أقابل أمِّي منذ خرجت من المنزل، أمَّا أبي فقد زارنا مرَّاتٍ عدَّةً محاولًا إقناعي بالعودة التي رفضتها رفضًا مطلقًا. عندما وصلت إلى بيت أهلي ناداني صوتٌ طفوليٌّ: «سعد ... سعد» التفت باتجاه الصوت، كان أخي منير الذي كبر قليلًا عن آخر مرَّةٍ رأيته فيها، أصبح في حوالي الثامنة من عمره، احتضنته وحملته، قبَّلته ودخلت إلى بيت أهلي حاملًا منير. في فسحة البيت غير المسقوفة، وعندما سمع إخوتي صوتي، ركض عمر ووداد ونوال فرحين بزيارتي، عانقتهم وقبَّلتهم، ذهبت باتجاه المطبخ حيث أشار إخوتي عندما سألتهم عن أمِّي. دخلت المطبخ، ولم تكن أمِّي قد انتبهت. قلت: «مرحبا أم العبد»، عرفتني قبل أن تلتفت، سقطت الملعقة الكبيرة التي تحرِّك الطعام فيها من يدها وهي تلتفت غير مصدِّقة، انحنيت وأخذت يدها وقبَّلتها، رفعت رأسي وعانقتني وهي تبكي. قلت: «كيفك يمَّا؟»، قالت: من بين دموعها: «أنا منيحة، إنت كيفك؟ أنا خايفة عليك وعلى أخوك طول الوقت، لا خبر ولا علم»، كان أخي سعيد ضابطًا مجنَّدًا في الفترة ذاتها أيضًا، وقضى خدمته العسكريَّة كضابط مشاةٍ في مطار

الضمير العسكريِّ، الذي تعرَّض للقصف الإسرائيليِّ مرَّاتٍ عدَّةً. قلت: «هاي أنا زي الحصان»، قالت: «بتوكل منيح؟»، قلت: «طبعًا، باكل منيح»، قالت: «كيف مرتك وولادك، شفتهم، طمنتهم عن حالك؟»، قلت: «هاي جيتي من عندهم، إجيت أطمنك عنِّي، وأطمَّن عليكي وعلى أبوي، وأرجع على الجبهة»، قالت: «خليك تغدى معنا»، قلت: «يا ريت، بس ما في وقت. بدي روح سلم على أبوي، قبل ما ألتحق»، قالت: «هيك بسرعة مثل البرق، والله بعدنا ما شفناك»، سألت إخوتي وأخواتي عن أحوالهم، وسألتهم إذا كان هناك أخبار عن سعيد، قالوا إنَّه بخيرٍ، وأنَّ أمِّي بعثت أخي عمر مرَّةً ليطمئن عليه في المطار، وكان بخير، وأنَّها أرادت أن تطمئن عليَّ، لكنَّها لم تجد الوسيلة لإرسال أحدٍ إلى مكان خدمتي في الجبهة، وكان ذلك ممنوعًا. بعد حوالي نصف ساعةٍ، استأذنت أمِّي بالذهاب للسلام على أبي في دكانه. قلت: «بخاطرك يمَّا، ادعيلنا»، قالت وهي تحتضني وتبكي: «روح يا ابني، الله يوفقك، ويحميك، ويرجعك سالم لولادك»، انحنيت على يدها وقبَّلتها. كان لدعوات أمِّي وقعها في قلبي وأشعرتني بالراحة والاطمئنان، ولا أدري هل جاء هذا الإحساس من إلقائي خلافاتنا السابقة وراء ظهري، وتحوَّل قلبي إلى صفاءٍ كاملٍ، بتهديد الحرب لحياتي، أم هو صدق الأمِّ في الدعاء لابنها، أو هي حاجتي وحاجتها للمحبَّة في لحظة خطرٍ كان التعبير عنها بالدعوات التي دخلت قلبي مباشرةً؟ عندما همَمت في الخروج، قال أخي عمر: «بدك تروح عند أبوي، خليني أروح معك؟»، قلت: «تفضل، أهلًا وسهلًا»، وطوال الطريق لم يكفَّ عمر عن السؤال عن الحرب، وعن اليهود، وعن المدافع التي أنا مسؤولٌ عنها، وعن خسائرنا، وعن خسائر الإسرائيليِّين، وعن الخوف والدم والموت. كانت إجاباتي عامَّةً، وحاولت ألَّا تحمل أيَّ مضامين تجعله يفهم الأمور على نحوٍ خاطئٍ، كان مراهقًا مفتونًا بأخيه البطل الذي يخوض الحرب على الجبهة، وأشعرني كأنِّي وحدي أخوض الحرب ضدَّ إسرائيل. في دكَّان أبي، كان الوضع مختلفًا، قبَّلت يد أبي عندما

وصلت إلى دكَّانه، وقبل أن نبدأ أيَّ حديثٍ، بدأ أهالي الحارة يأتون إلى دكَّان أبي ليسلِّموا عليَّ، بعضهم أصدقاءٌ قدامى، وبعضهم أقارب، وبعضهم معارف أبي، فقد افتتح أبي دكَّانه في منطقةٍ أغلب من يعيش فيها ينحدرون من بلدة الطيرة في جبل الكرمل في فلسطين والتي جاء منها أبي، وكانوا يعرفونه من أيَّام فلسطين. تجمَّع الناس أمام دكَّان أبي، حتَّى أنَّ عمَّتي التي تسكن بالقرب من دكَّان أبي جاءت للسلام عليَّ، وكانت مصرَّةً أن تأخذني للغداء عندها، اعتذرت منها، لأنَّ عليَّ الالتحاق بوحدتي خلال ساعاتٍ. انهمرت عليَّ أسئلة الحاضرين، تعاملوا معي كبطلٍ، وهذا ما أربكني وأشعرني بالفخر، كان لباسي العسكريُّ وذقني، التي لم يتسنَ لي الوقت لحلاقتها، قد أعطتني هيبةً غريبةً، وكان الشباب والرجال والنساء مسحورين بحضوري وكأنِّي شخصٌ قادمٌ من مكانٍ مقدَّسٍ. شعرت بحبِّ الناس، وعطشهم لنصرٍ يردُّ لهم كرامتهم. غادرت المكان بعد أن قبَّلت يد أبي وعمَّتي واحتضنت أخي عمر، وأنا أحمل مشاعر لم أشعر بمثلها من قبل، ولا أعرف كيف أشرحها، إنَّها مشاعر الفخر الخالصة. جاءت إجازتي في ذروة الحرب، لم نكن قد تراجعنا بعد، ولم أتوقَّع ما ستسفر عنه الحرب، التي بدأت بحالة تفاؤلٍ بنصرٍ كبيرٍ، وانتهت بإحباطٍ شديدٍ للمقاتلين، إذا كانت الدعاية اللاحقة قد أقنعت الناس أنَّنا انتصرنا في هذه الحرب، فإنَّ الجنود والضبَّاط الذين خاضوها يعرفون جيِّدًا أنَّها حربٌ بطعم الهزيمة ولو سمِّيت نصرًا، ومُنحنا نحن الضبَّاط الذين خضنا هذه الحرب وسام الاستحقاق، الذي تسلَّمته، والذي أعتقد أنَّ كلَّ الضباط الصغار الذين خاضوا الحرب يستحقُّونه، أمَّا الضباط القادة فهم يستحقُّون الذهاب إلى السجن على تقصيرهم في هذه الحرب.

بقي الوسام الذي نلته لخوضي تلك الحرب معلقًا على جدار البيت الذي اشتريته بعد انتهائها بسنواتٍ طويلةٍ في دوما، وسكنت فيه طوال حياتي حتَّى لجأنا إلى المخيَّم بعد أن ازداد الوضع سوءًا هناك. حملت

الوسام معي مع بعض أشياء قليلةٍ أخذتها من بيتي عندما غادرنا دوما إلى المخيَّم. لا أعرف لماذا أخذته معي، هل كان ذلك من أجل حمايتنا إذا ما حصل طارئٌ ما أو خطأٌ ما أو تشابهٌ في الأسماء، أستطيع الاعتماد عليه من أجل أن أقول إنِّي قدَّمت خدمات لهذا البلد؟ لو حصل ذلك لما اهتمَّ أحدٌ بحربٍ منسيَّةٍ كنت مقاتلًا فيها، ولم يكن قادرًا على حمايتي من أصغر رجل مخابراتٍ. أو أنِّي أخذته ليُذكِّرني بتاريخي السابق وبشبابي عندما كنت قادرًا على خوض الحرب في مواجهة عدوِّنا؟ أو أخذته ليذكِّرني أنَّ الحروب كانت سابقًا مع الأعداء، واليوم الحرب بين أبناء البلد الواحد؟ أو أخذته ليذكِّرني أنِّي نجوت من الحرب، وكأملٍ للنجاة من الحرب الحاليَّة؟ قد أكون حملته هكذا بالمصادفة، وليس هناك أيُّ معنًى عميقٍ لأخذ هذا الوسام دون غيره من الأشياء من المنزل الذي تركته ورائي، وبدأت أحلم بالعودة القريبة إليه.

سُرِّحت من الخدمة العسكريَّة بعد حرب الاستنزاف وتوقيع اتفاق فكِّ الاشتباك. رتَّبت الحرب آثارها عليَّ، لم تكن الكلمات عن البطولة والنصر قادرةً على دفع كوابيسي المظلمة التي تسبَّبت الحرب بها. حتَّى بعد الحرب بوقتٍ طويلٍ بقيت أسمع أصوات القذائف التي سقطت علينا، وتلك التي أطلقناها من مدافعنا. وبعد الحرب عادت لذاكرتي كلُّ تفاصيل الألم الذي شاهدته خلال الحرب لرفاق السلاح الجرحى أو القتلى، التي كنت أتجاوز وقوعها لانشغالي بالحرب أو بالانسحاب إلى مواقع جديدةٍ أو بحدثٍ جللٍ أكبر. احتفظت ذاكرتي بكلِّ التفاصيل لتعود في كوابيسي الليليَّة إلى بثِّ ألمها بالتفصيل في الأيَّام التالية للحرب، التي توقظني مرعوبًا كلَّما جاءتني، والتي رافقتني لسنواتٍ طويلةٍ بعد الحرب. عادت كوابيس الحرب لتضغط عليَّ بقوَّةٍ، واختلطت ذكرياتي عنها، بما جرى في الحرب الطويلة التي نعيشها منذ سنواتٍ. نعم، القذائف هي القذائف، والموت الذي تزرعه في كلِّ مكانٍ هو الموت نفسه. لكنَّ هذه الحرب لا تقارن بتلك الحرب، ليس لأنِّي كنت شابًّا وأصبحت عجوزًا، وليس لأنَّ تلك الحرب كانت بين جيشين وهذه حربٌ على

المدنيِّين. ما لا يمكنني فهمه في هذه الحرب، أن تخوض الدولة حربًا على شعبها بالأسلحة الثقيلة. طرحت هذه الحرب الكثير من الأسئلة عليَّ، كان أكثر إلحاحًا، لماذا خضنا تلك الحرب؟ ولم يكن السؤال لماذا نخوض هذه الحرب؟ وإلحاح السؤال يأتي من منطقيَّة الحرب الأولى، كحربٍ ضدَّ أعداء محتلِّين لأراضينا، ومن الطبيعيِّ أن تقع الحرب بين أعداء رغم قسوتها. أمَّا جنون الحرب الثانية فهو يأتي من أنَّ السلطة في البلد تخوضها ضدَّ شعبها الذي تحكمه، هذا ما جعلني أفكِّر في جدوى تلك الحرب مع إسرائيل، التي بدت لعبة أطفالٍ أمام الضحايا والهدم والتهجير الذي تسبَّبت بها الحرب التي خاضتها السلطة ضدَّ كلِّ مدن الجمهوريَّة التي ورثها الابن عن أبيه.

بعد تسريحي من الخدمة العسكريَّة، عدت إلى وظيفتي السابقة، واستأجرت بيتًا في دوما أكبر من ذلك الذي كنت مضطرًا للعيش فيه في أثناء خدمتي العسكرية. فقد تحسَّنت أوضاعي، كما تحسَّنت أوضاع البلد بسبب المساعدات الماليَّة التي تدفَّقت من الدول الخليجيَّة على مصر وسورية، والتي جاءت على خلفيَّة الارتفاع الكبير بأسعار النفط بعد إيقاف تصدير النفط من الدولة العربيَّة في أثناء الحرب. وسرعان ما أدَّت هذه المساعدات والتحسُّن الاقتصاديُّ الذي تسبَّبت به، إلى توسُّعٍ جنونيٍّ في البناء في بلدات الغوطتين الشرقيَّة والغربيَّة المحيطتين بمدينة دمشق، وهي البلدات التي تشكِّل محافظة ريف دمشق على نحوٍ رئيسيٍّ. وسرعان ما افتتحت مكتبي الخاصَّ في دوما، أقدِّم فيه خدمات المساحة والفرز والقسمة للأراضي الزراعيَّة التي أخذت أسعارها ترتفع على نحوٍ جنوني بسبب ضمِّ الكثير من الأراضي إلى المناطق المنظَّمة التي بات يمكن البناء فيها، ما زاد عمل المكتب على نحوٍ كبير. فكَّرت كثيرًا في ترك وظيفتي في السجلِّ العقاريِّ والتفرُّغ لعمل المكتب، كلُّ مرَّةٍ كنت أتراجع، لأنَّ عملي في السجلِّ العقاريِّ كان يخدم شغلي في المكتب. رغم العروض الكثيرة لأن أضمَّ إلى مكتبي أعمال السمسرة العقاريَّة، إلَّا أنِّي رفضت بشدَّةٍ، رغم أنَّ هذا

العمل درَّ مبالغ هائلةً على من عملوا به، لا سيَّما الذين غشُّوا الناس وتلاعبوا بالوثائق. رفضت بشدَّة الإقدام على هذه الأعمال، رغم معرفتي بما تدرُّه من مالٍ، ليس المال ما منعني، بل حجم الغش في هذه المهنة المدعومة من أجهزة المخابرات، فكلُّ المكاتب التي تعمل في السمسرة العقاريَّة، كانت مرتبطةً بأجهزة المخابرات، يقدِّمون لهم المعلومات والتقارير ليس عن أعمالهم، بل عن البشر الذين يعيشون وسطهم. وأنا لم أرغب في أيِّ علاقةٍ مع المخابرات، فتاريخي الذي أعتزُّ به منعني من التعامل معهم ومع قذارتهم. وفي الوقت ذاته، كان مردود مكتبي أكبر من راتب وظيفتي بكثيرٍ. وهذا ما جعلني أشتري شقَّةً بمساحةٍ كبيرةٍ في منطقة الكورنيش في دوما، والتي شيَّدوها بعد ثلاثة سنواتٍ من افتتاحي المكتب في دوما. وبعد عامٍ أكملت بناءها الداخليَّ وفرشتها وانتقلت للسكن فيها، وتركت بيتي الذي استأجرته. سارت الأيَّام بسرعةٍ، والحياة تترتَّب، أنجبت ثلاثة أولادٍ بعد الحرب، بنتين وولد. أي أصبحت أبًا لستة أولاد، أربعة بناتٍ وولدين، كبر الأولاد بسرعةٍ، وأخذت أندمج مع أهالي دوما، ووجدت أنَّ حياتي فيها أفضل من أيِّ مكانٍ آخر، فهي تعطيني الهدوء الذي أردته، على عكس المخيَّم الصاخب، الذي شعرت أنِّي غير قادرٍ على العودة إليه، ما جعلني أتمسَّك بالبقاء في دوما أكثر. في مقابل تحسُّنٍ أصاب البلد بعد الحرب وبعد المساعدات التي تدفَّقت في السنوات التالية، كان هناك متضرِّرين من السياسات التي اعتمدتها السلطة بعد الحرب، وقد استهدفت السلطة المناطق الريفيَّة على وجه الخصوص من خلال استملاك مساحاتٍ كبيرةً من أراضيهم، والتعويض عليهم بالفتات. وبذلك خسر الكثيرون موارد رزقهم التي ورثوها عن أهلهم، في الوقت الذي جمع البعض الثروات الكبيرة من سياسات السلطة التي اعتمدت سياسةً معلنةً، وسياسة ممارسةٍ غير معلنةٍ. وعلى رأسها فساد المحافظ في محافظة ريف دمشق، الذي كان يُصعِّب الحصول على تراخيص البناء اللازمة، مقابل

تسهيل المخالفات التي يقبض مقابلها رشًى مباشرةً. واقتنع الجميع أنَّ المحافظ الذي شغل المنصب في الثمانينيَّات كان مقرَّبًا من الرئيس، وهو الذي كان يقول على مسمع الجميع: «لو الرئيس بدُه يبني، بدُه يدفع»، بحكم عملي المتنقِّل في منطقتي الغوطة الشرقيَّة والغوطة الغربيَّة شاهدت الحجم الهائل للأبنية المخالفة التي شُيِّدَت في المنطقتين خلال هذه المدَّة، والتي لا تظهر في السجلِّ العقاريِّ، لأنَّها بلا تراخيص، ولا تُبنَى على أراضٍ محدَّدةٍ ومفرزةٍ. كما أنَّها مناطق غير مجهَّزةٍ ببنًى تحتيَّةٍ، تحتمل كلَّ هذا البناء. لم يكن هذا مهمًّا، المهمُّ بالنسبة لهؤلاء جمع المال بأسرع طريقةٍ ممكنةٍ، وتعميم الفساد على المجتمع حتَّى يصبح الجميع مطلوبًا لأسبابٍ جرميَّةٍ، ما يمنعهم من الاحتجاجات على سياساتٍ فاسدةٍ هم شركاء فيها. تسبَّبت هذه السياسات بحالةٍ من الاحتجاج في أوساط الفئات المتضرِّرة في ريف دمشق والمدن الكبرى. وجماعة الإخوان المسلمين في دوما كانت القوَّة الرافضة لسياسات النظام، وكان لهم تأييدٌ قويٌّ في المدينة، وعلي الصابوني مسؤولهم فيها حظي باحترامٍ كبيرٍ بين أهالي البلدة، وقد تعرَّفت على الرجل، وقمت له بأعمال مساحةٍ عدَّةٍ، كما كنت أقابلة في صلاة الجمعة في الجامع الكبير حيث نصلِّي معًا، ونتبادل السلام. ومنذ البداية ومع الخلافات التي نشبت في النصف الثاني من السبعينيَّات، حاول شباب الإخوان المسلمين استقطابي والتقرُّب منِّي لجعلي واحدًا منهم، رفضت أن أكون عضوًا في الجماعة رغم احترامي لهم. وعندما عرفوا بعض تفاصيل حياتي الشخصية أصرُّوا أكثر أن أكون قريبًا منهم، تحدَّثوا معي عن النظام الطائفيِّ الفاسد والكافر، الذي يدمِّر أخلاق المجتمع المسلم في سورية، والذي يجب الردُّ عليه، واقتلاعه من البلد قبل أن يقضي عليها. لم أبدِ أيَّ ردٍّ على ما يقولون، لا سلبيًّا ولا إيجابيًّا. وأحد أسباب بقائي في دوما هو عدم رغبتي بالعودة إلى العمل السياسيِّ مع حركة فتح، وقد اتخذت قراري بألَّا أكون جزءًا من أيِّ حالةٍ سياسيَّةٍ فلسطينيَّةٍ أو سوريَّةٍ، لذلك لم أكن قادرًا

على التفاعل الإيجابيِّ معهم، وقد أخذت مسافةً منهم، حتَّى لا أبدو كواحدٍ من الجماعة، في الوقت الذي كنت مقتنعًا باتهاماتهم للنظام وفساده، لكنِّي لم أعدَّ هذه المعركة معركتي. وعندما وقعت مذبحة مدرسة المدفعيَّة، حزنت جدًّا على عشرات طلَّاب الضبَّاط الذين فقدوا حياتهم، بصرف النظر عن انتمائهم الطائفيِّ، فقد قضيت فترة تدريبي كضابطٍ مجنَّدٍ في هذه المدرسة قبل نقلها إلى حلب، وكان بين أبناء دورتي سنَّةٌ وعلويُّون ومسيحيُّون ودروز. وكان العلويُّون من أطيب طلَّاب المدرسة، وقد خضت الحرب مع عددٍ منهم وكانوا في غاية البطولة. والنقيب أحمد العلي -العلويُّ- استشهد بين يدي على الجبهة في الحرب مع إسرائيل، كان بطلًا في الحرب بكلِّ معنى الكلمة. لم يكن هناك معنًى بالنسبة لي أن يُذبَحَ البشر، لأنَّهم وُلِدُوا أبناء طائفةٍ معيَّنةٍ فقط، وإذا كان النظام طائفيٌّ، فهذا ليس ذنب أبناء الطائفة. حوَّلتني هذه العمليَّة من متعاطفٍ مع الإخوان إلى نافرٍ منهم، مجرمون يواجهون مجرمين بطرقهم القذرة ذاتها. رغم هذا النفور، ورغم خوفي من مصيرٍ أسود، لم أستطع أن أرفض مساعدة صديقي وزميلي في العمل خليل المصري، الذي انتمى إلى الجماعة، عندما طلب منِّي أن يختبئ في منزلي في الطرف الغربيِّ من دوما، وكنت قد اشتريت قطعة أرضٍ في تلك المنطقة، وهي منطقة مخالفاتٍ جماعيَّةٍ، بنيت عليها بيتًا على الهيكل، وأكملت فيها غرفةً واحدةً مع مرحاضٍ مع بابٍ خارجيٍّ، بحيث أصبحت صالحةً للسكن. لم يبقَ خليل في البيت سوى خمسة أيَّامٍ، كانت كفيلةً أن تكلِّفني حياتي ثمنًا لما فعلت، لو عرفت أجهزة المخابرات أنِّي استضفت الرجل عندي. أعطيت خليل المفتاح، وأخذت أحصي الوقت، حتَّى بعد أن ترك البيت إلى مكانٍ آخر. حتَّى بعد أن غادر، كنت سألاقي المصير نفسه إذا اعتُقِلَ واعترف أنَّه اختبأ في بيتي. فأنا أعرف محاميًا مسيحيًّا من بلدة زملكا اسمه فيليب شديد، وهو حاز شهرةً واسعةً بعد ذلك، لأنَّه المحامي المسيحيُّ الذي اعتُقل بتهمة الإخوان المسلمين، وقضى في السجن

عشرة سنواتٍ، لأنَّ زميلًا له محامٍ من الإخوان المسلمين ملاحقٌ، نام عنده ليلةً واحدةً، كلَّفته عشرة سنواتٍ قاسيةً في السجن. قُتِلَ خليل في اشتباكٍ مسلَّحٍ مع المخابرات بالقرب من بلدة داريًّا، وللأسف كان موته من حظِّي، لم أعد خائفًا أن يُعتَقَلَ خليل ويعترف عنِّي. لم أفرح بموت الرجل، حزنت عليه من ناحيةٍ، وشعرت بالراحة لهذا الموت من ناحيةٍ أخرى، لأنَّه أنقذني من اعتقالٍ محتملٍ ومن كوابيس الليل كلَّما سمعت عن اعتقالاتٍ في أوساط الإخوان المسلمين. جعلتني هذه الحادثة، والصراع الدمويُّ بين الإخوان المسلمين والسلطة أكثر حذرًا وأكثر انعزالًا. كانت سنواتٍ صعبةً، خيَّم الخوف فيها على البلد كلِّه، وبات أيُّ تقريرٍ كيديٍّ من مُخبِرٍ صغيرٍ يمكن أن يجعل أيَّ شخصٍ يقضي زمنًا طويلًا في السجن، إذا لم يُقتَل. لم تعالج السلطة الصراع بالسياسيَّة، بل أطلقت أيدي أجهزة المخابرات المتوحِّشة، التي أرعبت البلد، فأصبحت البلد تعيش حالة حظر تجوُّلٍ دون إعلانٍ. يخلي الناس الشوارع قبل أن يغيب الضوء، ويتركون البلد لدوريَّات المخابرات تجوب طرقاتها، التي توقف أيَّ عابر سبيلٍ بوصفه خطرًا داهمًا عليها. مرَّةً واحدةً فعلتها وتأخَّرت عند بيت عمِّي، وأنا عائدٌ إلى البيت أوقفتني دوريَّة المخابرات وأنا أعبر الشارع الرئيسيَّ في دوما الذي يفصل منطقتهم عن منطقتنا. أضاءت السيَّارة ضوءها العالي باتجاهي، وصرخ أحد أفراد الدوريَّة بي: «وجهك للحيط، ارفع إيديك لفوق»، فلم يكن منِّي سوى الإذعان للأوامر، وعندما استدرت، سأل أحدهم باللهجة الآمرة ذاتها: «وين حاطط هويتك يا خرا؟»، أجبت: «في جيبة الجاكيت»، اقترب أحدهم منِّي بحذرٍ، وأخرج الهوية من جيبي، وسألني: «إنت فلسطيني؟»، أجبت: «هذا صحيح»، سأل مستخدمًا على نحوٍ دائمٍ اللهجة الآمرة ذاتها: «شو بتعمل بهذا الوقت برَّة بيتك؟»، قلت: «ما في شي، بس كانت حالة إسعاف عند بيت عمِّي، كنت بساعدهم»، أعطاني هويتي، وقال لي: «لا تعيدها مرَّة ثانية»، قلت: «حاضر»، شعرت بالنجاة بعد مغادرتي، لأنِّي سمعت عن

الكثير من حوادث التوقيف في الشارع، أراد الموقوف إخراج هويته بنفسه، ما جعل أفراد الدوريَّة يطلقون عليه النار. وفي أحسن الحالات كان نصيبه الضرب المبرح. وبعد أن هدمت مدافع الجيش مدينة حماة القديمة بالمدفعيَّة على رؤوس أهاليها لوجود عشرات المسلَّحين من الإخوان المسلمين هناك، سقط البلد أسير غول الخوف وتوحُّش أجهزة المخابرات، لقد أُخضِعَت البلد بالحديد والنار، وليس هزيمة الإخوان المسلمين سوى جزءٍ صغيرٍ من قمع البلد على نحوٍ وحشيٍّ، شكَّل الصراع معهم الذريعة للسلطة للقضاء على كلِّ صوتٍ معارضٍ في البلد، مهما كان هذا الصوت خافتًا، خفَّض الكلُّ في البلد رأسه حتَّى لا يقطعه سيف السلطة الدمويِّ.

رافق الخوف الجميع في السنوات اللاحقة، ومع الحصار الذي تعرَّضت له البلد بعد ذلك، أُذِلَّ الناس في كلِّ حاجاتهم الأساسيَّة المفقودة من البلد، والتي تعتمد على التهريب من لبنان. في الوقت الذي أدارت وحدات الجيش السوريُّ في لبنان عمليَّة التهريب المنظَّمة، وقام كبار الضبَّاط بها، بمن فيهم الابن الأكبر للرئيس. كان من الملفت أن تسرق السلطة البلد بهذه الطريقة الغريبة، وأن تخلق سوقًا موازيًا غير شرعيٍّ يعاقب عليه القانون، تديره وتستفيد منه، بذلك يصبح غير مشروعٍ على الآخرين، الذين يمكن أن يذهبوا إلى السجن في حال ممارستهم التهريب. أمَّا رجال السلطة، فهم محصَّنون ويحولون ما هو غير شرعيٍّ إلى شرعيٍّ، طالما هم في خدمة الرئيس. كانت أدوار البشر التي تنتظر الحصول على هذه المواد لا تنتهي لمن يريد الحصول عليها من خلال منافذ المؤسَّسات الاستهلاكيَّة، ويمكن للمرء أن يقضي نهارًا كاملًا في انتظار دوره، دون أن يحصل على ما ينتظره، سواءً كان علبة سمنةٍ، أو بعض الدجاج، أو محارم ورقيَّة، أو بعض اللحم... كان الوقوف في الأدوار تعذيبًا حقيقيًّا شمل البلد كلَّها، ومن لا يريد أن يخضع لهذا التعذيب، يمكنه الحصول على هذه المواد بأسرع وقتٍ ممكنٍ وباحترامٍ، لكن عليه شراء المواد المهرَّبة بسعرٍ قد يصل إلى عشرة أضعاف

سعرها في المؤسَّسة الاستهلاكيَّة. ولا يستطيع الفقراء الوصول إليها لافتقارهم إلى المال، ما يجبرهم على الوقوف في أدوار الإذلال يوميًّا للحصول على حاجاتهم.

مرَّت السنوات بطيئةً، عشت عزلةً شخصيَّةً وروتينًا متكرِّرًا، وإنجازاتٍ متواضعةً، مرَّ الوقت ما بين وظيفتي وعملي في مكتبي الخاص. بعض العلاقات والصداقات في العمل وفي محيطي في دوما، علاقاتٌ لا تكسر عزلتي لأنَّها لا تملك عمقًا. كبر الأولاد وأنا كبرت معهم، ولا منجز حقيقيٌّ، لم أعد مقتنعًا بعزلتي، وكان عليَّ أن أفعل شيئًا بهذا الشأن، بدأت أُعيد علاقتي مع أهلي. أمِّي وأبي أوَّلًا، وإخوتي وأخواتي، لم يكن عندي مشكلاتٌ معهم، تراجعت العلاقة، لأنِّي لم أعد أزور المخيَّم، سوى في المناسبات، أو بعزاءٍ لميت أو بمباركةٍ في فرح، لكنَّها لم تكن علاقاتٍ حقيقيَّةً. قرَّرت بعد غياب سنواتٍ طويلةٍ عن المخيَّم، أن أعود لبناء علاقاتٍ سويَّةٍ مع إخوتي. وبتُّ على قناعةٍ أنَّ المرء في النهاية يحتاج إلى أهله، ليس بالمعنى الماديِّ، لأنِّي على هذا الصعيد كنت مكتفيًا، وأيَّامي الصعبة أصبحت ورائي منذ سنوات. ما كنت أحتاجه علاقات قرابةٍ، تجعلني أشعر أنَّ هناك أحدٌ يسندني في أوقاتي الصعبة. أخذت أصطحب عائلتي في زياراتٍ لأختي بيان وأخي خليل وهما الأقرب إليَّ، ووقفا معي في أزماتي الأولى وأمِّي وأبي وبقيَّة إخوتي. عندما عدت لزيارتهم، لم أعرف بعد كلِّ هذه السنوات الطويلة من الغياب، ما أصبح عليه إخوتي. ففي زياراتي السابقة، لم أكن أهتمُّ أو أنتبه إلى التغيُّرات في العائلة، كانت زياراتٍ عابرةً وثقيلةً على روحي، ما إن أُنجزها حتَّى أعود مسرعًا إلى بيتي في دوما. كما لم أعرف أيَّ متغيُّراتٍ جرت عليَّ أيضًا، فليس إخوتي وحدهم من تغيَّر، وأنا تغيَّرت أيضًا، وكلُّ واحدٍ تغيَّر باتجاهٍ، فلم نعد نحن الأشخاص السابقين، وأقصد الكبار منهم، الذين كانوا ناضجين عندما غادرت المخيَّم، لأنِّي عرفتهم جيِّدًا قبل أن أغادر. أمَّا إخوتي الأصغر سنًّا، فهم شيءٌ آخر، فقد كانوا أطفالًا وأصبحوا رجالًا ونساءً، وعليه

فإنَّه من الطبيعيِّ أن يتغيَّروا جذريًّا. عندما عدت لبناء علاقةٍ جديدةٍ مع أختي بيان، لم تكن بيان التي عرفتها سابقًا، هناك شيءٌ تغيَّر فيها. مع أنِّي حافظت على علاقةٍ جيِّدةٍ معها طوال الفترة السابقة، وبقيت علاقتي مع عبد الرؤوف على حميميَّتها، حتَّى مغادرته دمشق، وقد قلقت عليه من الاعتقال قبل مغادرته، لأنَّ الصدام بين حركة فتح، التي بقي عضوًا فيها، وأصبح أحد قياداتها في سورية، وبين السلطة وصل أوجه بعد خروج المقاتلين من بيروت بعد حرب العام 1982، والانشقاق الذي حصل داخل الحركة بدعمٍ من السلطة في سورية. فقد بدأت المخابرات السوريَّة في اعتقال أعضاء حركة فتح الذين بقوا على ولائهم لياسر عرفات، وعبد الرؤوف واحدٌ منهم، واعتقلت المخابرات أخي منير الذي كان عضوًا في الحركة أيضًا، كما اعتقلت أكثر قيادات سورية، قبل أن يأتي تعيين عبد الرؤوف رئيسًا لاتحاد المعلِّمين العرب وهي هيئةٌ تابعةٌ لجامعة الدول العربيَّة، والتحاقه بوظيفته الجديدة أنقذه من الاعتقال، فلم يواجه المصير الذي واجهه الباقون من الحركة مثل أخي منير وأصدقاءٍ قدامى اعتقلوا في السجون السوريَّة لسنواتٍ. عندما ودَّعته قبل ذهابه إلى بغداد حيث مقرُّ الاتحاد، هنَّأته بالسلامة لأنَّه سيخرج من البلد رسميًّا. لم أكن واثقًا أنَّ النظام سيتركه يغادر، ولم أتأكَّد أنَّه نجا من الاعتقال، إلَّا عندما عرفت أنَّه اجتاز الحدود مع الأردن، لأنَّه لم يكن هناك سفرٌ مباشرٌ إلى بغداد، فالعلاقات بين البلدين كانت مقطوعةً والصراعات بين جناحي حزب البعث في العراق وسورية على أشدِّها والحدود مغلقةٌ بين البلدين. وصوله إلى الجانب الآخر من الحدود عنى نجاته من الاعتقال، وكنت أذهب للسلام عليه كلَّما عاد إلى دمشق، لأنَّ منصبه الرسميَّ بات يسمح له بالدخول إلى مدينة دمشق عندما يكون هناك نشاطٌ عربيٌّ فيها. ومنصبه لم يمنع المخابرات من الطلب منه مراجعتهم في كلِّ مرَّةٍ يأتي فيها إلى دمشق، كان

يعرف من الصعب اعتقاله وهو في منصبه الرسميِّ، وهذه الاستدعاءات مجرَّد تذكيرٍ له، من هو؟ ولأيِّ جهةٍ سياسيَّةٍ يتبع؟

مع الزمن، أصيبت العلاقة مع أختي بيان بالفتور، وكذلك الحال مع باقي إخوتي. عندما قرَّرت استعادة هذه العلاقات، اعتقدت أنِّي سأستعيدها من اللحظة التي ظلَّت عالقةً برأسي في ذروة علاقاتي الجيِّدة معهم قبل سنواتٍ طويلة، لا سيَّما خليل وبيان، ولم أدرك أنِّي أبنيها بعد جريان الكثير من المياه، لم أنتبه، لا للزمن ولا لتغيُّر البشر. إخوتي الذين كانوا شبابًا، لم يعودوا كذلك، وأنا نفسي لم أعد ذلك الرجل الذي كنته بعد كلِّ السنوات التي مرَّت. لم يجعلني هذا أتراجع عن تحسين علاقتي معهم، حتَّى بعد إدراكي المتغيِّرات التي أخذت كلَّ واحدٍ منَّا إلى حياته الخاصَّة وأغلق نفسه عليها، إذ بات الكلُّ مشغولًا بأولاده ومستقبلهم، فهم يكبرون بسرعةٍ، وأولاد إخوتي الكبار بدأوا يكوِّنون عائلاتهم وينجبون أطفالهم، ويحوِّلوا آباءهم إلى جدودٍ. عندما نغرق في تفاصيل حياتنا، نغرق باليومي وبالإنجازات الصغيرة، ونسهو عن الزمن الذي يمرُّ سريعًا ويحرق حياتنا. أردت التقرُّب من إخوتي، لأنَّ أبنائي يكبرون وهم يحتاجون إلى التعرُّف على عائلتهم الكبيرة، وإذا وجدت في إطار العائلة، من هو مناسبٌ لأولادي أو بناتي زوجًا أو زوجةً، يكون ذلك جيِّدًا، فأنا على الأقل أعرف مع من أتعامل، صحيحٌ أنَّ لهم عيوبهم مثل كلِّ البشر، لكنِّي أعرفهم، وهذا ما يجعل إمكانيَّة مصاهرتهم أسهل. لم يجرِ أيٌّ من الأشياء التي فكَّرت فيها كما أردت، فأنا كنت في عالمٍ وهم في عالمٍ آخر. ولم يكن أحدٌ من إخوتي يفكِّر في المصاهرة من العائلة، وحسموا أمرهم بهذا الشأن الذي اكتشفته متأخِّرًا.

أعاق مرض ابني فراس هذا التقارب أيضًا، وهو الحدث الذي جعلني أُعيد النظر في كلِّ شيءٍ، لم يكن ما أصابه مرضًا عاديًّا، إنَّه التهابٌ نادرٌ لأعصاب العين، وهذا يعني أن نظره سيتراجع، لم يحدِّد الأطبَّاء سرعة هذا التراجع. قالوا سيكون سريعًا، والمشكلة الأعقد لم يكن هناك دواء لهذا

المرض، وكلُّ ما يمكن للدواء فعله هو مدُّ فترة الرؤية عند فراس، وليس لمدَّةٍ طويلةٍ. جاء مرض فراس الطفل لينغِّص علينا حياتنا المستقرَّة. كانت أوضاعي جيِّدةً، نحن عائلةٌ سعيدةٌ، والأولاد يبلون بلاءً حسنًا في مدارسهم، كلُّ شيءٍ سار جيِّدًا، عندما عرفت أنَّ فراس سيتحوَّل إلى أعمى أو شبه أعمى خلال وقتٍ قصيرٍ، انقلب كلُّ شيءٍ، سيصبح أعمى وهو طفل. لم يقل الأطباء هذا الشيء مباشرةً، كان مفهومًا من كلامهم. أخذت كلَّ التقارير الطبيَّة التي تخصُّه، اتصلت بالأصدقاء والأقارب طلبًا للمساعدة، حتَّى لو احتاج الأمر إلى علاجه خارج البلد، ومهما كانت الكلفة. جاءت الإجابات، لا علاج لهذا النوع من المرض في أيِّ مكانٍ، لا دوائيًّا ولا جراحيًّا. وقع الخبر عليَّ وقوع الصاعقة، وعدَدتُ ما يجري غضبًا إلهيًّا لذنبٍ ارتكبته، وأخذت أراجع أفعالي وأتذكَّرها، صحيحٌ أنِّي ارتكبت العديد من الأخطاء في حياتي، وارتكبت الكثير من الذنوب، لكنِّي لم أؤذِ أحدًا في حياتي، ولم أعتدِ على أحدٍ، ولم أرتكب جرائم بحقِّ أحدٍ. وتساءلت إذا كان الله يريد معاقبتي على ذنوبي، فأنا أستحق هذا العقاب، ولكن لماذا لا يعاقبني أنا، ما الذنب الذي ارتكبه ابني حتَّى يعاقبه بجريرة أفعالي أنا. مرَرتُ بوضعٍ قاسٍ جعلني منهارًا ومرتبكًا ولا أعرف ما أفعل، شعور العجز تجاه ابني في غاية القسوة، لم أمرَّ بتجربةٍ تشبهه من قبل. إذا أراد الله معاقبتي بابني، فهو سلوكٌ دنيءٌ من إلهٍ في غاية القسوة، يعاقب من يستحقُّ بمن لا يستحقُّ، أي يعاقبني بابني الطفل، يعاقب البراءة لأنَّ أحمقًا راشدًا مثلي ارتكب ذنبًا لا يغتفر، فيعاقبه ويعاقب طفله معه، إنَّها القسوة في أبشع تجلِّياتها، أوصلتني الحالة التي عشتها إلى حدود الكفر، وأنا المؤمن بالله، كانت قسوة الوضع أكبر من احتمالي، عدت واستغفرت ربِّي وطلبت المغفرة عن أفكاري بعدم عدالة الله، ودعوت ربي أن يسامحني ويساعدني في إيجاد دواءٍ لفراس، وهو القادر على كلِّ شيءٍ. لم أكفَّ عن البحث عن علاجٍ لفراس، ولم يكن أمامي خيارٌ سوى المزيد من البحث، لعلَّ اكتشافًا جديدًا يجد حلًا لهذا المرض،

لكن دون جدوى. وفي سعيي إلى معالجة ابني يبدو أنِّي ارتكبت الأخطاء التي فاقمت الوضع، لأنِّي جرَّبت كلَّ نصيحةٍ، دون أن أدرك أنَّ الوضع لا يصلح معه التجريب، لذلك لم أتوانَ عن تجريب كلِّ الوصفات بما فيها الوصفات العربيَّة. ويبدو أنَّ هذا الوضع قد أثَّر سلبًا على مرضه، بدل أن يساعد في تخفيفه، وهو ما عجَّل في فقدان فراس لنظره. رأيت ابني يفقد بصره رويدًا رويدًا، وأنا عاجزٌ عن فعل شيءٍ، ولم يكن أمامي سوى إخفاء هذا الولد عن عيون الآخرين، لاعتقادي بأنَّ عين الحسد هي التي تسبَّبت له بهذا المرض. لم أخفِهِ لأنِّي خجلت بمرضه كما اعتقد البعض. خفت عليه من العيون الحاسدة فعلًا، وخوفًا من تعرُّضه للإساءة من الآخرين. فأنا حافظت على وعدي بتنفيذ كلِّ رغباته، ورافقته خلال امتحاناته المدرسيَّة والجامعيَّة. كنت مصرًّا على إكمال دراسته، كما كان هو مصرًّا، لعلَّ علاجًا يأتي يومًا ويعود إلى حياته الطبيعيَّة، لم يأتِ هذا اليوم مطلقًا. كنت أعرف أنَّ عليَّ التكيُّف مع هذا الوضع، لكنِّي لم أستطع، هناك أشياء يجب علينا فعلها ومقتنعين أنَّ علينا فعلها، لكنَّ شيئًا ما داخلنا يمنعنا عن القيام بها، أو حتَّى يشلُّنا فنصبح أعجز من أن نقوم بها.

الحياة لا تنتظر أحدًا ليحلَّ مشكلاته، سارت كما تريد هي أن تسير، لا كما أرغب أنا، فرحت لإنجازات الأولاد في دراستهم، وحزنت للمشكلات التي تعرَّضت لها. مرض فراس كبح انفتاحي على أهلي، لكنِّي بقيت أعمل على هذا الانفتاح، لأنِّي أحتاجه. فأنا لا أريد أن أعيش في العزلة التي شعرت بها في دوما، صحيحٌ أنِّي مرتاحٌ هناك، وأقمت علاقاتٍ جميلةً وقويَّةً، لكنَّها ليست العلاقات التي أريدها، كنت بحاجةٍ للإحساس بالحماية، التي لا يُؤمِّن الإحساس بها سوى الانتماء إلى عائلةٍ، هكذا فكَّرت عندما انفتحت على العائلة. ولمزيدٍ من الانفتاح فكَّرت أن أطلب يد إحدى بنات إخوتي لابني منذر، الذي اختار أن يذهب إلى ذات المهنة التي ذهبت إليها، ودرَّس في مدرسة المساحة، وحصل على وظيفةٍ في الدائرة ذاتها التي أعمل فيها،

وأخذ يساعدني في عملي في المكتب في دوما. فكَّرت بفاتن ابنة أخي خليل الوسطى وهي في عمرٍ يناسب ابني منذر، وكانت تصغره بسنتين، كما فكَّرت بابنة أختي بيان، وهي في العمر ذاته. وعندما أخبرت زوجتي فتحية بما أفكِّر، لم يكن عندها مانعٌ من هذه المغامرة التي أقدم عليها في التقرُّب من العائلة. وعندما سألت منذر عن الموضوع، لم يكن لديه مانعٌ، لأنَّه لم يكن يعرف امرأةً محدَّدةً ويريد الارتباط بها. ما يعني أنِّي أخذت الموافقات اللازمة لاختبارٍ جدِّيٍ للموضوع مع إخوتي. قبل فتحه مع أيٍّ من أهل الاثنتين، كان عليَّ الاختيار، لأنَّ التقدُّم لأيٍّ منهما والفشل في ذلك، يعني الفشل في الثانية، لأنَّ أيًّا منهما لن تقبل أن توافق على عريسٍ رفضته الأخرى. وكان عليَّ أن أجسَّ النبض، وعرفت من جسِّ النبض، أنَّ أيًّا منهما لا يفكِّران في تزويج ابنتيهما، بحجَّة الانتظار لحين إكمال دراستهما الجامعيَّة. ولم أعرف بالضبط، هل كانت تلك حجَّةً حقيقيَّةً، أم هي رفضٌ غير مباشرٍ لطلبي الذي لـمَّحت إليه دون أن أعبِّر عنه صراحةً. وصلت إلى قناعةٍ أنَّ تقدُّمي الرسميَّ لطلب يد أيٍّ منهما سيكون مصيره الفشل، حتَّى لا أضع نفسي في موقع المرفوض، سواءً كان السبب حقيقيًّا، أم كان رفضًا غير مباشرٍ، صرفت النظر عن الموضوع. ولأنِّي لا أريد تأجيل الموضوع، حتَّى تنهيا دراستهما لأعود إلى الموضوع مرَّةً أخرى، لأنِّي ظننت أنَّ منذر بحاجةٍ إلى الزواج، فكلُّ شيءٍ جاهزٌ بالنسبة له. وقد أنجزت البيت الذي سيسكن فيه، وقسَّمته إلى شقَّتين متساويتين، واحدةٌ له، والأخرى لفراس. واتخذت قراري بتزويجه إذا توافرت الزوجة الصالحة، وبعد فشل محاولتي، أحلت الموضوع لأمِّه لتقوم بحلِّه بمعرفتها. وبما أنَّ محاولاتي لإيجاد زوجةٍ لابني من أحد أفراد العائلة فشلت، فإنِّي لم أتوقَّع أن يقدم أحدٌ من إخوتي على طلب يد واحدةٍ من بناتي. لذلك أخذ الأولاد والبنات يكبرون، ويذهبون إلى بناء عائلاتهم الخاصَّة. كانت البداية مع منذر وتبعته سلام. وقد وجدت فتحية زوجةً لمنذر من أهالي دوما، والفتاة مناسبةٌ له في السن، وأوضاع أهلها

مقاربةٌ لأوضاعنا. وهذا ما جعلني مقتنعًا بهذا الزواج، وتقدَّمنا بطلب يد البنت من أهلها، وفرشنا البيت بمشاركة العروس، ولم نختلف على المهر أو الذهب. كنت سعيدًا لأنَّ ابني البكر سيتزوَّج ويبني عائلته، وهذا ما جعلني أرتِّب عرسًا وكأنَّه عرسي الذي لم أرتِّبه عندما كنت شابًّا، وكنت مشغولًا عن هذه القضايا. اخترت أثاث المنزل بنفسي من أفضل الموجود في سوق المفروشات. تمنَّيت وأنا أعدُّ لعرس منذر، أن أنشغل قريبًا مرَّةً ثانيةً في الإعداد لعرس فراس، وأجد المرأة المناسبة له، لتعوِّضه عن معاناته. بدأت حياة منذر وزوجته غادة ممتازةً، وقد أنجبت بنتًا سمُّوها فتحية على اسم جدَّتها، التي فرحت بما فعله منذر بتسمية ابنته على اسمها، وكنت أتمنَّى أن يأتي سعد، الذي يحمل اسمي، لكنَّ غادة أنجبت ابنةً ثانيةً، أسمتها غزل. وبعد ذلك اختلفا، ولم أستطع التوفيق بينهما رغم كلِّ محاولاتي، فانفصلا، وباتت البنتان تقضيان أغلب الوقت عندنا، وهذا يعني أنَّ العائلة تفكَّكت، ولا بُدَّ من حلٍّ بموجبه يعيد بناء أسرته من جديدٍ. وكان الحلُّ أن يتزوَّج مرَّةً أخرى، حتَّى يعيد ابنتيه إلى بيته، وهذا ما كان، تزوَّج من منيرة وهي من دوما أيضًا، وأنجب منها ابنًا، أسماه سعد على اسمي.

فرحت لزواج ابنتي سلام كفرحي بزواج منذر، لكنِّي كأبٍ لم أستطيع التعبير عن فرحي بزواجها كما عبَّرت عن فرحي بزواج ابني، فهذا يعدُّ عيبًا في وسطنا الاجتماعيِّ. كبر الصغار وأخذوا يغادرون البيت الواحد تلو الآخر.

مع غدير ابنتي الثانية، تعثَّر العثور على زوجٍ لها، والفرصة الوحيدة التي بدت معقولةً لها، هو طلب يدها من شخصٍ مهاجرٍ إلى ألمانيا، وافقنا أنا والبنت على الفكرة في المبدأ، وطلبنا من أهله أن يتقدَّموا لخطبتها، وهذا ما حدث فعلًا. وبعد الجاهة والخطبة، وقد حضرها إخوتي وأخواتي. بعد يومين جاء أبي مع أخي منير الذي قال: «واحد من أقارب الرجل، بعد ما عرف بالخطبة مني، قال عن العريس إنُه رجل متعصِّب كثير، وإنُه منتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين. حسيت من واجبي أخبرك، حتى تكون

في الصورة»، كان الخبر مزعجًا بالنسبة لي، لم أنزعج من أخي الذي أخبرني هذا الواقع الذي لا نعرفه، لكنّي انزعجت من حظّ البنت العاثر. سألت عن الرجل، عرفت أنَّ كلام أخي منير صحيحٌ، وأخذت رأي البنت التي رفضت الاستمرار بالخطبة إذا كان الرجل بهذه المواصفات. صحيحٌ أنّي رجلٌ متديّنٌ لكنّي لست متعصّبًا، وأحبُّ بناتي ولا أريد لهنَّ عيش حياةٍ قاسيةٍ مع رجالٍ متعصّبين، فالتعصُّب يعمي. من سوء حظّ غدير أنَّها لم تحظَ بزوجٍ مناسبٍ، وقد رفضت كلَّ الرجال الذين تقدَّموا لخطبتها بعد ذلك، احترمت خيارها، ولم أجبرها على أيٍّ منهم، وهذا ما أبقاها تعيش معنا طوال حياتها، مهتمَّةً بعملها كمدرِّسةٍ للرياضيات في مدارس دوما الإعداديَّة. آخر زواجٍ كان زواج ابنتي الثالثة رشا، وهي التي درست الهندسة المدنيَّة، وهي الأكثر تديُّنًا بيننا. في البداية رفضت الكثير من المتقدِّمين للزواج منها، حفاظًا على مشاعر أختها غدير، انتظرت أن يأتي نصيب أختها أوَّلًا، حتَّى توافق على رجلٍ من الذين يتقدَّمون لها. حاولت غدير إقناعها بأن تمضي في طريقها، ولا تنتظرها، لأنَّها قرَّرت عدم الزواج، وعليه فإنَّ انتظارها لا فائدة منه. في النهاية اقتنعت رشا أنَّ غدير لا تريد أن تتزوَّج فعلًا، فقد تقدَّم الكثيرون لها وكلُّ مرَّةٍ ترفض، لم تعد المسألة مسألة نصيب، باتت قناعةً بعدم الزواج. وهذا ما جعلها توافق على الزواج من محمد الرجل الخجول، والمهندس المنحدر من عائلةٍ من بلدة زملكا في الغوطة الشرقيَّة، وهو الذي يعمل مهندسًا مثلها، ويبدو أنَّها تعرفه من أيَّام الدراسة الجامعيَّة، وانتظرت أختها الرافضة للزواج وأدَّت واجبها اتجاهها، ما دفعها أخيرًا لحسم موقفها والزواج متخطِّيةً أختها، لذلك تقدَّم محمد لخطبتها، ونحن وافقنا وتزوَّجا، وذهبت رشا للسكن في زملكا، على عكس أخوها وأختها اللذين سكنا في دوما بالقرب منّي.

بمغادرة ثلاثةٍ من أولادي البيت لتأسيس عائلاتهم، بقي معي في البيت غدير وفراس ومنى، وبعد أن تجاوزت رشا غدير وتزوَّجت، فقد فتحت

الطريق أمام منى، لتتجاوز غدير أيضًا، وهي البنت الأصغر والأجمل والأقرب إلى قلبي وقلب أمِّها. منى تلك الطفلة التي أبت أن تكبر. كنت أنتظر أن أفرح بها فرحًا كبيرًا ولن أخفي فرحي، ولم يعد يهمُّنى هذه المرة أن يعيبوا عليَّ احتفالي بزواج ابنتي، وأنا نفسي لم أعد الشخص نفسه الذي خجل من الاحتفال بزواج ابنته الكبرى، أردت أن أعوِّض بالاحتفال بعرس منى، التي كانت تبلي بلاءً حسنًا.

منى طفلةٌ جميلةٌ سحرت الجميع، عندما وُلِدَت، وُلِدَت كاملةً وباهرةً، كأنَّها اختزنت كلَّ الجمال واحتكرته لنفسها دون أخواتها. حتَّى أنَّها عندما وُلِدَت، لم يكن أخي منير قد تزوَّج بعد، وعندما شاهدها لأوَّل مرَّةٍ بعد خروجه من السجن، قال لي: «خيا شو هالبنت، من وين جايبها؟ أقولك شي، أنا بدي أخطب هاي البنت لابني اللي ما إجا، مش مهم شو رح يكون فرق السن بينهم»، ضحك وضحكت، وفخرت بجمال طفلتي الساحرة. لذلك لم يكن غريبًا، أن أفكِّر بالاحتفال بزواجها، متمنِّيًا لها أفضل الرجال، رجل يستحقُّها، ليس لجمالها فحسب، بل وللطفلة الحنونة والطيِّبة التي بداخلها أيضًا، وهذه الطفلة بالذات هي التي خِفتُ عليها من قسوة الحياة. طفلتي المحظوظة، عاشت حياتها وهي تسعدنا، منذ ولادتها ونحن نعدُّها أجمل خاتمةٍ لحياتنا، وهي مدلَّلة الجميع بما فيهم إخوتها، للفارق الكبير في العمر بينها وبينهم، لذلك بقينا جميعًا نعاملها بوصفها طفلتنا المدلَّلة التي لا ترغب هي ولا نرغب نحن أن تكبر. وبقي الحال على ما هو عليه حتَّى عندما تخرَّجت من الجامعة، وكنت قد بلغت الستين وتقاعدت، وكانت محظوظةً في الجامعة، لأنَّها بدأت دراستها في دار المعلِّمين، وعندما استحدثت جامعة دمشق فرع معلم صف، أغلقوا دار المعلِّمين وأحالوا الطلَّاب فيه إلى الكليَّة الجديدة، أي أنَّها بدل أن تكون خريجة معهدٍ أصبحت خريجة كليَّةٍ، وهذا ما ساعدها على إيجاد وظيفةٍ شاغرةٍ في مدينة دوما. كنَّا فرحين لإنجازاتها بلا عقباتٍ، وفرحين لجمالها وطيبتها، واحتفالنا

بها بعد تعينها في مدرسة فاطمة الزهراء التي تبعد عن البيت أقلَّ من ثلاثمئة مترٍ.

عكَّرت وفاة أمِّي أوقاتي الجميلة في تلك الفترة، وأخذت ألوم نفسي على تقصيري بحقِّها، صحيحٌ أنِّي استعدت علاقاتي الطبيعيَّة مع أهلي، وازدادت زياراتي للمخيَّم، وكانت أمِّي تزورنا بين الفترة والأخرى وتعدني أن تبقى عندنا شهرًا كاملًا، لكنَّها بعد يومين أو ثلاثة تملُّ وتحنُّ إلى بيتها وتطلب منِّي إعادتها، فأعيدها إلى المخيَّم. شعرت بالتقصير لأنِّي لم أزرها كما يجب بعد وفاة أبي، الذي تُوفِّي قبلها بأربع سنواتٍ، لم أنتبه إلى أنَّ أمِّي تحتاجنا قربها ومعها أكثر من السابق، وأن أستعيد علاقتي الجميلة معها، التي سادت لسنواتٍ طويلةٍ، قبل خروجي من بيت أهلي بعد خلافها مع فتحية، وهذا الخلاف قد مضى عليه سنواتٌ طويلةٌ. عندما مات أبي لم أشعر باليتم، مع أمِّي كان الأمر مختلفًا، عندما أخبروني أنَّ أمِّي تُوفِّيَت لم أصدِّق، كنت أشعر أنَّ أمِّي أقوى من الزمن، وستبقى قويَّةً وتعيش حياتها حتَّى بعد مماتي، لا أعرف من أين جاءتني هذه الفكرة، عشت معها كحقيقةٍ غير قابلةٍ للإنكار، وفاتها أطاحت بهذه الحقيقة. عندما رنَّ هاتفي المحمول، وجاء صوت أختي بيان مع نشيج البكاء، عرفت أنَّ شيئًا كبيرًا قد حدث، لم أتوقَّع موت أمِّي. عندما قالت بيان: «أمي ماتت»، نهرٌ من الدموع انهمر من عيني، بكيت كطفلٍ صغيرٍ وأنا في الستين من عمري، لم أستطع أن أوقف بكائي، عندما سألتني فتحية: «شو صار؟ على أساس رايح على المكتب»، وأنا فعلًا كنت أعدُّ نفسي للذهاب إلى المكتب في ذلك الصباح العاديِّ في يومٍ عاديٍّ من أيَّام شهر شباط البارد. لم أستطع أن أقول لها شيئًا، سوى المزيد من البكاء. قالت: «منشان الله سعد شو في؟»، قلت من بين دموعي وبصعوبةٍ وأنا أشهق: «أمِّي ماتت» فهمت فتحية أيُّ حالةٍ أعيشها، فهي تعرف ارتباطي بأمِّي، رغم كلِّ ما جرى بيننا، وكانت فتحية تحترمها على ما فعلته معنا نحن أولادها، وقد نسيت ما كان بينهما من خلافٍ قديمٍ

منذ زمنٍ طويلٍ، وكانت تحتفل بها أفضل احتفالٍ عندما تزورنا لأيَّامٍ عدَّةٍ وتتمسَّك بها وترجوها البقاء، لكن لا شيء يقف في وجه أمِّي العنيدة. بكت فتحية أمِّي، وكان حزني عليها أشدَّ لإحساسي بالتقصير تجاهها، ولازمني هذا الشعور لوقتٍ طويلٍ، ولم أستطع تجاوزه، لأنِّي لا أستطيع تعويضها عن تقصيري الذي شعرت به بعدما غادرت الحياة. كان موت أمِّي فاتحة الموت في محيطي، هذا الموت الذي دمَّرني لأنَّه أخذ أعزَّ الأشخاص لديَّ، فلم أصحُ من موت أمِّي، لأجد نفسي بعد ثلاثة أشهرٍ من وفاتها في دوَّامةٍ هائلةٍ من الألم والأسئلة الكبرى عن العدالة والحياة والموت، وشعرت بأنَّ كلَّ المعاني تنهار أمامي، وأنَّ الحياة تعبث بي بقسوةٍ لا يمكن احتمالها. كنت في المكتب عندما اتصلت ابنتي غدير على هاتفي المحمول وهي تبكي، وتقول: «بابا تعال على البيت، محتاجينك»، سألتها: «شو في؟»، قالت: «بس تجي بتعرف»، قلت: «احكي هلأ»، أقفلت الخط دون أن تردَّ، عاودت الاتصال، لم تُجب، اتصلت بفتحية، لم تُجِب أيضًا، اتصلت بالجميع، لم يردَّ أحدٌ. تأكَّدت أنَّ مصيبةً وقعت في المنزل، لكن ما هي هذه المصيبة؟ لم أعرف، أخذتني ظنوني في كلِّ اتجاهٍ، جال تفكيري على كلِّ المصائب الممكنة، احتياطًا لما سأواجهه عندما أصل إلى البيت، كلُّ المصائب التي خطرت على بالي في الطريق إلى البيت، لم تكن أيٌّ منها المصيبة التي كانت تنتظرني هناك. عندما دخلت البيت، وجدت الجميع يبكون، وقد حضر أهل فتحية أيضًا، أوَّل شخصٍ وقع نظري عليه وهو يبكي، كان ابني فراس، وجلت بنظري لأشاهد سلام ورشا تبكيان، ومنذر يجلس على الأرض في زاوية الصالة، واضعًا رأسه بين قدميه ويبكي، وزوجته تقف إلى جواره وتبكي، ولم أشاهد فتحية أو غدير أو منى. سألت: «شو في؟»، لم أسمع جوابًا من أحدٍ. اقترب منِّي أبو زوجتي فتحية وقال: «البقية بحياتك»، التفت إليه وكأنَّ أفعى لدغتني وقلت: «فتحية ماتت؟»، وقبل أن أسمع أيَّ جوابٍ، شاهدت غدير تخرج من غرفة نومنا، وتركض باتجاهي وترمي بنفسها على صدري،

احتضنتها، وهي تقول: «شفت يابا، شو اللي صار، شفت يابا، منى ماتت، مش مصدقة منى ماتت»، دارت الدنيا بي، ولم أعرف ما حدث بعد ذلك، أذكر نفسي أسقط على الأرض بعد سماع كلمات غدير. لأعود وأصحو على رائحة العطر القوي والماء الذي يُرشُّ عليَّ. لم أبكِ، لم أصرخ، فقط سقطت في مكاني. وعندما صحوت، لم أكن قد استوعبت ما جرى. جرت مراسيم الدفن سريعًا، حضر إخوتي وأخواتي الموجودين في البلد، وحضر كلُّ معارفنا، كان التأثُّر واضحًا على الجميع، أحيانًا أسأل نفسي، لماذا كلُّ هذا الحزن، أعود لأتذكَّر كلام غدير، وأعود لنسيانه من جديدٍ، أسير في جنازةٍ ولا أعرف جنازة من؟ هي جنازة ابنتي، أرفض الفكرة، أنسى أنَّها جنازة ابنتي، دموعي لا تنزل، أرفض أن أصدِّق أنَّ منى ماتت، لا سبب لموت طفلتي، أعود إلى نسيان الموضوع. أصطفُّ مع المصطفِّين، والكلُّ يقول لي كلمات العزاء ويعانقونني، ولا أعرف لماذا يفعلون ذلك؟! فالميت لا يخصُّني، كابوسٌ يجثم على صدري، لا شيء فيه قابلٌ للتصديق، لماذا أعيش هذا الكابوس؟ عليَّ إنهائه، عليَّ أن أصحو من نومي لأطرد هذا الكابوس. بعد قليل سأصحو من كابوسي، وستخرج منى من غرفتها بعد قيلولتها المعتادة بعد المدرسة وتبدِّد هذا الكابوس.

لم تخرج منى من غرفتها، صحوت وبقي الكابوس في الواقع. في المساء وبعد أن غادر المعزُّون، عرفت أنِّي دفنتُ طفلتي منى لا في الحلم فحسب، بل دفنتها في الواقع أيضًا. عندما عدت من المقبرة إلى البيت، دخلت غرفتنا، التي كانت فتحية تستلقي فيها بعد الصدمة التي تعرَّضت لها. لم تستطع الكلام، تنظر إليَّ أو لغيري ممن يدخل الغرفة بعينيها فقط وتبكي. لم أعرف ما جرى بالضبط، سوى في المساء. وما أهميَّة أن أعرف ما جرى؟! لقد ماتت طفلتي. روت غدير لي ما جرى بعد ظهر ذلك اليوم. الأمر بكلِّ بساطةٍ، أنَّ منى عادت من مدرستها في الوقت المعتاد مثل كلِّ يومٍ، دخلت إلى البيت، رمت محفظتها ودفاترها على الطاولة بالقرب من الباب الخارجي للبيت،

وركضت باتجاه أمِّها التي تجلس على طرف الصوفا اليساري في الصالة، وهو مكانها المفضَّل، لأنَّ هذا المكان يوفِّر لها فرصة أن تضع يدها اليمني على يد الصوفا، وتركي خدها على أصابع يدها المغلقة. ألقت منى برأسها في حضن أمِّها، وقالت: «تعبانة»، وصمتت بعد أن أصبح رأسها في حضن أمِّها، وجسدها ممدَّدٌ على بقية الصوفا. قالت فتحية: «خلص فهمنا، قومي بلا مزح»، لم ترد منى. عادت فتحية للقول: «هلأ مو وقت غلاظتك، قومي بدي أروح أعمل شغلي»، لم ترد منى. هزَّتها فتحية بقوَّةٍ، لكنَّها لم ترد. نادت فتحية: «غدير، تعي شوفي أختك، شو مالها؟»، خرجت غدير من المطبخ حيث كانت تُعدُّ القهوة لنفسها، وعندما شاهدت منى لا تتحرَّك، لونها شاحبٌ وصدرها لا يتحرَّك. ركضت عليها وهي تصرخ فيها وتهزُّها وتقول: «منى ... منى..»، أخذت تضربها على وجهها محاولةً إيقاظها، دون فائدةٍ. ركضت إلى المطبخ وأحضرت كأس ماءٍ ورشَّت أختها، التي لم تحرِّك ساكنًا، قرَّبت يدها من فم منى، لم يكن هناك أيُّ نفسٍ. وضعت رأسها على صدرها لتسمع دقَّات قلبها، لم تسمع شيئًا. أدركت أنَّ منى قد ماتت. صرخت على نحوٍ جنونيٍّ، لم تعرف ما تفعل. دقَّت على الجيران، وقالت لهم: «أرجوكم، اتصلوا بدكتور»، لم يتأخَّر الجيران في استدعاء الطبيب، والذي فحص منى، وشخَّص حالتها بأنَّها توقُّفٌ مفاجئٌ للقلب. سألت غدير: «بهالبساطة ماتت؟!»، قالت: «بهالبساطة!»، كان شيئًا لا يصدَّق.

لم أصدِّق ما جرى في ذلك اليوم، مثلما لم أصدِّق أحداثًا أخرى وقعت بعد هذا الموت. شكل موت منى انعطافةٌ كبيرةٌ في حياتي، لم أعد بعدها كما كنت قبلها، جزءٌ منِّي مات معها، ولم يبقَ للأشياء طعمٌ دون ضحكتها. جعلني هذا الموت القاسي أكفر بكلِّ شيءٍ، وأسأل أسئلةً لا إجابة عليها، أسئلةً قادمةً من القهر العميق الذي أشعر به. لماذا أنا من يحصل معه هذا الشيء؟ ولماذا منى؟ ولماذا عليَّ العيش في هذا الجحيم؟ ما الذنب الذي ارتكبته؟ ولماذا يعاقبني إلهٌ أؤمن به؟ ولماذا كلُّ هذا الألم؟ ولماذا يحصل

معنا ما يحوِّل حياتنا إلى جحيمٍ، بعد أن كنَّا نعيش حياةً جميلةً؟ ما معنى الاستمرار بالحياة، عندما يموت أحبُّ شخصٍ إليَّ؟ أسئلةٌ لا تنتهي، لا إجاباتٍ عليها، ولا شيء يخرجني من حزني الذي استوطن فيَّ. وكان حال فتحية أسوأ منِّي، لم تعد تأكل، هزلت كثيرًا، ولم تعد قادرةً على الوقوف على قدميها، سارحةً طوال الوقت، جسدها في البيت وعقلها في مكانٍ آخر. غابت ضحكتها الصاخبة التي أحبَّها الأولاد، وأحبُّوا جعلها تضحك دائمًا بوضع أصابعهم في خاصرتها، تنهرهم وهي تضحك وهم سعداء بسماع ضحكة أمِّهم المجلجلة. غابت الضحكة، وحلَّ مكانها الدموع. لم أعرف ما الذي أستطيع فعله لأخرجها من حالتها، لم أكن قادرًا على فعل شيءٍ، ولم أكن مهيَّئًا أصلًا لمعالجة مثل هكذا وضع. حاول الأولاد والبنات إخراج أمِّهم من حالتها، صحيحُ أنَّها تحسَّنت بعض الشيء بفضل هذه المحاولات، واستعادت جزءًا من صحَّتها، لكنَّ موت منى حطَّمها تمامًا، وتحوَّلت من امرأةٍ راضيةٍ وسعيدةٍ ومبتسمةٍ طوال الوقت إلى امرأةٍ يسكنها الحزن. طغى الحزن على البيت، حتَّى زيارات الأولاد المتزوِّجين التي كانت تصنع لنا الفرح، لم تعد كذلك. عندما يدخلون البيت، يقعون تحت طغيان الحزن في البيت، وتصبح زيارتهم ثقيلةً علينا وعليهم. أعدت ذلك إلى صورة منى الكبيرة المعلَّقة في صالة البيت، التي كنَّا نشعر أنَّها تراقبنا بابتسامتها الجميلة وتذكِّرنا بنفسها، وكأنَّها تقول لنا لا تنسوا مأساتي، كنَّا جميعًا وعلى مدى أشهرٍ طويلةٍ، ننظر إلى الصورة في الصالة نستعيد حزننا عليها، فنشيح بوجهنا عنها، التي أصبحنا ننتبه إليها طوال الوقت، وهي التي لم تكن تلفت انتباهنا عندما كانت منى حيَّةً، إلَّا إذا لفت أحد الضيوف انتباهنا إليها. وبطبيعة الحال لم يكن الضيوف الغرباء الذين نستقبلهم في غرفةٍ خاصَّةٍ بالضيوف يدخلون إلى الصالة، وهذا الدخول يقتصر على الأقارب. وجود الصورة التي تراقبنا كلَّ الوقت وتذكِّرنا بخسارتنا وحزننا، جعل الحزن يخيِّم على البيت لوقتٍ طويلٍ. فكَّرت طويلًا بإزالة الصورة عن الجدار، تردَّدت كثيرًا، حتَّى لا أزعج

فتحية، لكنِّي عندما عدت إلى البيت ووجدتها تجلس على الصوفا في مكانها المعتاد وتبكي بصمتٍ، قرَّرت إزالتها نهائيًّا، لأنِّي عرفت أنَّ فتحية لن تتحسَّن وصورة منى قبالتها على الجدار. صحيحٌ ستبقى ذكراها وحركاتها وضحكاتها معنا في البيت، لكنَّ للصورة طغيانٌ خاصٌّ. انتزعتها عن الجدار بصعوبةٍ وكأنِّي أنتزع قطعةً من قلبي، وبقي أثر إطار الصورة موجودًا، ما جعلني أدهن الجدار بنفسي لإخفاء الأثر. أخفيت أثر الصورة، لكنَّ أثر وفاتها بقيَ يحرق قلبي وقلب فتحية، لأنَّ لا شيء يعادل خسارة الأولاد في الحياة، وهي أكبر خسارةٍ يُفجَعُ فيها الآباء. بعد هذه الوفاة، فهمت الدعاء الذي كانت العجائز يدعينه، والذي يقول: «الله لا يفجع حدا بأولاده»، نعم، موت الأولاد فاجعةٌ، وفاجعةٌ كبرى لا تعادلها فاجعةٌ أخرى، وهو ما اختبرته أنا وفتحية وسنختبره في قادم الأيَّام.

تولد كلُّ الأشياء صغيرةً وتكبر، إلَّا الموت يولد كبيرًا ويصغر، وهكذا جرى مع موت منى، مع أنَّ الجرح بقيَ مفتوحًا، لكنَّ الحياة استمرَّت في كلِّ الأحوال، بما أنَّنا أنا وفتحية مؤمنين بالله حاولنا على قدر استطاعتنا أن نقبل بهذا القدر القاسي الذي أصابنا. قبلنا بالقدر والجرح لم يشفَ، والحزن لم يزل، لكنَّه تراجع بحكم الزمن. سارت الحياة بمشكلاتها، وانشغلت جزئيًّا بخلافات إخوتي حول تركة أبي وأمِّي، والتي كنَّا قد أجلناها بعد موت أبي حتَّى لا نغيِّر من وضع أمِّي التي باتت خائفةً بعد موت أبي من إخراجها من المنزل، كنت أشغل نفسي بالمشكلة، أكثر ممَّا أنا مشغولٌ بها فعليًّا. لأنِّي بعد موت منى زهدت بالأشياء، حتَّى في الأشياء التي أملكها أنا، فكيف بالأملاك المختلف عليها التي تعود إلى أبي، وفيها الكثير من المشكلات العالقة التي تحتاج إلى سنواتٍ من أجل حلِّها. كما عدت إلى العمل في مكتبي الذي تركت العمل فيه إلى حدٍّ كبيرٍ لابني منذر بعد وفاة منى، فالعمل استطاع التخفيف عنِّي.

بقيت الحال تجرجر نفسها، وصولًا إلى انطلاق الاحتجاجات ضدَّ السلطة في درعا، وبلدة دوما حيث أسكن كانت أوَّل من تضامن معها بحكم قوَّة علاقات المصاهرة بين درعا ودوما، وأتت هذه المصاهرة من عمل بعض أهالي دوما في ضمان الأراضي الزراعيَّة في سهل حوران الذي مركزه درعا. لذلك عندما بدأ القتل في درعا كان للظلم التي تعرَّضت له المدينة صدى كبيرًا في دوما، فلأهالي دوما أخوةٌ وأبناء وأعمام وأخوال، يسقطون قتلى برصاص السلطة. بعد أيَّامٍ انطلقت الاحتجاجات في دوما، بدأت تضامنًا مع درعا، وبعد ذلك شقَّت طريقها وحدها بعد القتلى الثمانية الذين سقطوا في أوَّل جمعة تظاهراتٍ في دوما. وكانت بمنزلة مذبحةٍ صدمت الأهالي من عنف أجهزة الأمن الذي مورس ضدَّ المتظاهرين. وكان لأهالي دوما مطالبهم في الاحتجاجات التي عمَّت المدينة، وقد وحَّد القتل الوحشيُّ الأهالي حول قتلاهم، وقد حاولت السلطة استيعاب الحالة، من خلال المفاوضات مع أهالي المدينة للتهدئة، وقد دخل على الوساطة، كما علمت حينها، بعض ضبَّاط السلطة وبعض الآخرين من خارج السلطة الذين على علاقةٍ حسنةٍ مع النظام ومع رجال دوما، وكان خالد مشعل زعيم حركة حماس واحدًا من الذين سعوا للوساطة بين الطرفين، لأنَّ للرجل علاقاتٍ متينةً مع رجال الدين وغيرهم في دوما، نجحت المفاوضات في المبدأ، وتعهَّد الأهالي بالتهدئة بعد دفن قتلاهم، وتعهَّدت السلطة بالسماح لهم بتشييعٍ يليق بالشهداء. وقد عرفتُ بكلِّ هذا من رجالٍ كانوا منخرطين في المفاوضات مع السلطة. وبحكم هذا التطمين من السلطات للأهالي والسماح بتشييعٍ لائقٍ. جاء الكثير من الرجال والنساء من خارج دوما ليشاركوا في التشييع، وكانت مشاركة النساء جديدةً على دوما، ولم تكن النساء المشاركات في التشييع من أهالي دوما فحسب، بل جاءت عشرات النساء حتَّى من طوائف أخرى للتشييع أيضًا، وسار خلف نعوش

الشهداء عشرات آلاف المشيِّعين السكَّان المحليِّين ومن سكَّان المناطق المحيطة، رغم إغلاق المدينة بالحواجز من الأجهزة الأمنيَّة.

لم يعجب ضابط المخابرات الحشد الهائل للمتظاهرين، فأن يكون هناك عشرات آلاف المتظاهرين يهتفون بشعاراتٍ معاديةً للنظام، دون تدخُّل الأجهزة الأمنيَّة، هذا غير مقبولٍ بالنسبة لهم. قدَّرت هذه الأجهزة أنَّ ما جرى في دوما يشكِّل سابقةً تشجِّع مناطق أخرى على تقليدها، لذلك تخلَّت السلطة عن الاتفاق مع أهالي دوما، وعاد عناصر الأمن في الأيَّام التالية لإطلاق النار على المتظاهرين، وسقط بعضهم قتلى، ما أعاد إشعال الاحتجاجات في دوما، وانتقلت إلى العديد من المناطق في البلد. ولم تمضِ أشهرٌ عدَّةٌ على المظاهرات التي تتعرَّض لإطلاق النار وسقوط المزيد من القتلى، حتَّى ظهرت مجموعاتٌ مسلَّحةٌ من سكَّان المنطقة، حاولت الردَّ على أجهزة الأمن، مجموعاتٌ لم يكن عندها أيُّ خبرةٍ عسكريَّةٍ، وكان على رأس هذه المجموعة أبو علي الدوماني، وهو الرجل الذي عمل دهَّانًا قبل الاحتجاجات، وأذكر الرجل جيِّدًا، لأنَّه هو الذي طلى مكتبي آخر مرَّةٍ دهنته فيها، وكان كلَّما مرَّ بالمكان يلقي السلام. كان رجلًا له مشكلاته، جرأته في الاشتباكات مع أمن النظام جعلت له شعبيَّةً بين الأهالي، ما جعله يستقطب العديد من الشبَّان، وشكَّل ما عُرِفَ باسم «لواء شهداء دوما» الذي وقع على عاتقهم طرد قوَّات النظام من دوما، وقد استقطب أغلب زعران دوما، وكان أبو علي واحدًا منهم، كما عرفه أهالي دوما.

مع الاشتباكات المسلَّحة، زاد الحصار، وزاد إذلال الأهالي على الحواجز التي تغلق دوما، والتي لي معها تجارب مرَّةٌ، أكثرها صعوبةً ما جرى مع فراس عندما عدنا من مراجعة الطبيب. لو عرفت أنَّ فراس سيتعرَّض لما تعرَّض له في ذلك اليوم، لما أخذت ذلك الموعد من الطبيب. لم أيأس من إمكانيَّة أن يستعيد فراس بصره، لذلك كلَّما سمعت عن طبيبٍ يمكن أن يساعده، أصطحب فراس إليه، لعلَّ الفرج يكون على يديه. رغم أنَّنا راجعنا

مئات الأطبَّاء، إلَّا أنِّي لم أيأس من الطبِّ ومن إرادة الله. وقتها قال لي صديقٌ أنَّ قريبًا له حالته تشبه حالة ابني، قد عالجه طبيبٌ يقال إنَّه عاد من ألمانيا رغم الحرب، وقد استعاد نظره على يده. طلبت منه أن يحضر لي عنوانه ورقم هاتفه، ففعل ذلك. حجزنا موعدًا عند الطبيب وذهبنا إلى عيادته بالقرب من جسر فيكتوريا، في قلب مدينة دمشق. أصرَّت فتحية على الذهاب معنا، رغم الأوضاع المتوتِّرة في دوما. وهذه المرَّة أيضًا قال الطبيب: «الحالة لا علاج لها حتَّى الآن»، وكان هذا متوقَّعًا. عدنا محبطين، وكان فراس أكثرنا إحباطًا. أوقفت السيَّارة في الصف على حاجز المخابرات، الذي أقاموه بعد انطلاق الاحتجاجات. ساد الصمت في السيَّارة منذ خرجنا من عيادة الطبيب. ونحن ننتظر على الحاجز، شاهدت عسكريٌّ متوتُّر يصرخ على أحدهم وهو ينظر باتجاه صفِّ السيَّارات، قائلًا: «لا تطلع لهون يا خرا، دير وجهك»، لم أنتبه لمن يوجِّه كلامه، فالموضوع لا يعنيني، وأنا ضجرٌ من الانتظار على الحاجز. سار العسكريُّ على حافَّة صفِّ السيَّارات، وهو يقول: «ما بتفهم يا حمار، رح أفهمك باللغة اللي بتفهمها»، وعندما وصل بالقرب من سيَّارتنا، سمعت صوت صفعةً، التفت إلى المقعد الخلفيِّ، كان العسكريُّ قد صفع فراس الذي يجلس هناك. نزلت من السيَّارة، في الوقت الذي كانت فتحية تقول للعسكري: «الله يكسر إيدك، ما شايف الولد أعمى»، قلت أنا للعسكري: «ليش ضربتُه، شو عمل، ولا بس تبلِّي، حاسس حالك قوي لإنَّك حامل سلاح؟!»، قال العسكري: «اخرسوا، ولا بتشوفوا شي ثاني»، في هذا الوقت وصل الضابط المسؤول عن الحاجز، سأل: «شو في؟»، قلت له: «هذا العسكري ضرب ابني وهو ما بشوف، لإنُه مفكر عبيطَّلع عليه»، قال الضابط للعسكري: «انقلع من هون»، وأضاف يخاطبني: «حقَّك علي يا عم، ازرعها بدقني»، وتوجَّه بالحديث لفراس: «أنا آسف، أنا رح أحاسب العسكري الحمار، حقَّك علي»، وصرخ بصوتٍ عالٍ: «افتحوا الطريق»، قدت السيَّارة عائدًا إلى البيت، شعرت شيئًا ما داخلي

انكسر، وعرفت وقتها، لو حدث شيءٌ كبيرٌ، لن أستطيع حماية ابني العاجز عن حماية نفسه. لم أستطع حمايته من صفعةٍ ظالمةٍ، كيف يمكن أن أحميه ممَّا هو أكبر؟! شعرت بالعجز والقهر مثلما شعر ملايين البشر في هذا البلد الذي امتهن إذلال البشر.

عندما اشتدَّت الاشتباكات بين الطرفين في دوما، أخذت قوَّات النظام تقصف المدينة بمدافع الهاون. أصبح العيش في دوما مستحيلًا بالنسبة لي، لا سيَّما بعد المجزرة التي ارتكبتها الفرقة الرابعة في حيِّ الجورة، القريب من الحيِّ الذي يسكنه ابني منذر، حيث قتل الجنود كلَّ من وجدوه هناك بعد هرب أغلب أهالي الحيِّ، وكانت الحصيلة أكثر من عشرين قتيلًا منهنَّ سبع نساء، يُعتقد أنَّ جنود الفرقة الرابعة اغتصبوهنَّ. لم يتحدَّث أهالي دوما بالموضوع احترامًا لمشاعر أهالي النساء. بعد هذه المذبحة اتخذت قراري بالمغادرة، فلا أريد فقدان أيَّ من أولادي أو أولادهم، وكانت وجهتي المخيَّم، هناك عند أهلي. لم أنتظر شيئًا محدَّدًا من أحدٍ، كنت قادرًا على إعالة نفسي، رغم الظروف الصعبة التي أمرُّ بها، ورغم حماقتي في شراء أرضٍ في بلدة زملكا بأغلب النقود التي ادَّخرتها من عملي، على أساس أنَّ الأزمة في البلد ستضع أوزارها قريبًا، وعندها سيرتفع سعر الأرض بالضرورة، وأكون قد وظَّفت المال الذي أملكه على نحوٍ صحيحٍ، وربحت مبلغًا محترمًا، وإذا لم أكن بحاجةٍ إلى هذا المال، سأحتفظ بالأرض التي سيرتفع سعرها مع الوقت، كما أعرف من خبرتي مع هذه الأراضي خلال خمسين عامًا من عملي في المنطقة. كان تقديري خاطئًا بالمطلق هذه المرَّة، ولم تنتهِ هذه الأزمة سريعًا، جرَّت الأحداث نفسها عامًا بعد عامٍ. وفي العام الثاني للأزمة، وبعد الحصار الخانق لدوما، والاشتباكات التي تحصل فيها وحولها، وبات الخروج والدخول إلى المدينة أقرب للمرور بتجربة الدخول إلى الجحيم. رغم حبِّي للمكان، ورغم أنِّي أودعت فيه كلَّ ما أملك، إلَّا أنَّ الخروج منها بات الخيار الوحيد في ظلِّ المخاطر المحيطة بنا من كلِّ جانبٍ.

في رحيلنا إلى المخيَّم أخذنا القليل من الأغراض معنا، وتوقَّعت أن نعود إلى دوما بعد فترةٍ وجيزةٍ. حتَّى في حال احتجنا إلى مزيدٍ من الأغراض، يمكن الذهاب إلى هناك وإحضارها. لا أعرف من أين أتيتُ بهذا التفاؤل في ذلك الوقت، الذي لا شيء في الواقع يدلُّ عليه، ولا أعرف هل يأتي من رغبتي بحصوله كيلا أغادر دوما في البداية، أو حتَّى أعود إلى دوما بأسرع وقتٍ بعد مغادرتها؟ ولم أعرف قبل أن آتي للمخيَّم، أنَّ عائلتي منقسمةٌ مثل كلِّ شيءٍ في البلد، هناك من يريد التعاطف مع مأساتنا، وهناك من يتجاهلها، بذريعة ألَّا شيء يحدث في البلد. خرجت وابني منذر من دوما إلى المخيَّم، وخرجت ابنتي سلام وزوجها إلى منطقة ركن الدين، عند أهل زوجها. وبقيت ابنتي رشا مع زوجها في زملكا الذي رفض الخروج، وهي قرَّرت البقاء معه. احترمت رغبتها، ولم أحاول إزعاجها، رغم خطورة الوضع الذي يعيشونه، كان خيار زوجها، وهي قرَّرت البقاء معه.

عندما ذهبت إلى المخيَّم، استقبلتني أختي بيان في بيت ابنها في البناء الذي بنته في بيتهم القديم في المخيَّم، وهي التي رحلت إلى بلدة صحنايا قبل سنواتٍ من انطلاق الاحتجاجات. وعندما اتصلت بها، وقلت: «أريد بيتًا للإيجار في المخيَّم»، قالت لي: «عيب عليك. بيتي بيتك، أهلًا وسهلًا» لم يكن هناك بيوت للأجرة في المخيَّم، أغلب البيوت الفارغة، قد أَشغَلها لاجئون قادمون من المناطق المجاورة للمخيَّم التي تتعرَّض للقصف. كان الوضع في المخيَّم يشبه الوضع في دوما في الأحداث، لكنَّ الوضع في دوما يسبق المخيَّم بحوالي العام، أي أنَّ ما يمرُّ به المخيَّم قد مرَّت دوما به من قبل، وبتُّ أرى السيناريو ذاته يتكرَّر في المخيَّم، لذلك، لم أشعر بالأمان في المخيَّم، ومنذ وصولي بدأت أُعِدُّ نفسي لرحيلٍ جديدٍ.

بعد قدومي للمخيَّم، لم تقصِّر أختي بيان باستضافتي، وما فاجأني موقف أختي وداد منِّي، لم أكن أرغب في السكن مكانها، مع أنَّها تسكن في بيت أهلي، الذي ما زلنا نملكه جميعًا على الشيوع، تَرِكَةِ أبي وأمِّي. ولم أفكِّر

أن أطلب السكن مكانها، حتَّى عندما عرفت أنَّها مسافرةٌ عند زوجها إلى السعوديَّة. كان أخي منير هو من فتح الموضوع معها، وعرفت نتيجة الحوار بينهما متأخِّرًا، ولم أعرف أنَّها رفضت أن أسكن مكانها، ولا ما هو السبب، لأنَّ منير لم يذكر لي أيَّ سببٍ، ولم يحدِّثني في الموضوع أصلًا، وما عرفته من جدلٍ بينهما، عرفته عن طريق أخي خليل. وعندما اتصلت وداد من السعوديَّة معتذرةً منِّي، لنسيانها ترك المفتاح مع منير، وطلبت منِّي كسر القفل، وأن أعدَّ أغراضها أغراضي، شعرت أنَّ شيئًا ما قد حدث، لم أعرف ما هو بالضبط، سوى عندما أخبرني خليل على ما دار بين وداد ومنير. وعندما طلبتُ من منير أن يكون حاضرًا عند تحطيم الباب، اعتذر لانشغاله. لم أعرف أنَّ اعتذاره كان بسبب خلافه مع وداد قبل سفرها، وأنَّها لم تترك المفاتيح معه كالعادة، بسبب هذا الخلاف، ولم تكن القضيَّة مسألة نسيانٍ. في جميع الأحوال كان الانتقال إلى بيت أهلي أفضل لي، وشعرت براحةٍ أكبر، لأنَّ لي في المكان مثل الآخرين، رغم ذلك جمعت مفروشات أختي وداد غير الضروريَّة في مكانٍ واحدٍ، وقرَّرت عدم استعمالها، فهي تخصُّها وحدها.

واحدةٌ من الميِّزات التي عشتها بالانتقال إلى المخيَّم، رغم الظروف الصعبة واللجوء الذي عشته، هو أنَّني تعرَّفت على إخوتي من جديدٍ، ويبدو أنَّ الظروف الصعبة هي أفضل وقتٍ لاختبار البشر وعلاقاتهم وطبيعتهم، وهو اختبارٌ لا نختاره، ولا نعرفه في الحياة العادية. عندما حاولت التقرُّب من إخوتي في الأوضاع العاديَّة فشلت في ذلك، لأنَّ الجميع مشغولٌ بنفسه، وفي الحرب الناس مشغولةٌ بنفسها أيضًا، لكنَّها أكثر قدرةً على التضامن مع الآخرين أو تجاهلهم من الأوقات العاديَّة. كان إخوتي متضامنين معي بتفاوتٍ، حتَّى أختي وداد التي رفضت ذلك في البداية، عادت إلى رشدها وأدركت أنَّ ما يجري في البلد أكبر من كلِّ خلافاتٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ سابقةٍ. شعرت أنِّي أقرب إلى خليل وبيان ومنير. وأنِّي أستعيد ماضيًا جميلًا مع الخراب الذي يضرب البلد، أعود إلى إخوتي، وإخوتي يعودون إليَّ، وهذه

ميزةٌ في زمن الخراب الذي لم أختره، وهجَّرني من بيتي رغمًا عنِّي. أصبحنا أنا وإخوتي شيوخًا، باستثناء منير أصغرنا، وزادتنا الأزمة هرمًا. بعد خروجنا من دوما، لم أملك مكانًا لأخفي فيه بعض النقود التي حوَّلتها إلى مبلغٍ بالدولار، ولم يكن أمامي سوى اللجوء لأخي خليل لترك المبلغ أمانةً عنده استعيده عند الحاجة، وخليل واحدٌ من الناس الأكثر أمانةً ودقَّةً لدرجة المبالغة بالتعامل مع المال، لا سيَّما مع المال الذي لا يخصُّه، وقد اختبرناه في إدارة أوضاع تركة أبي الماليَّة. حتَّى لا أذهب وحدي، طلبت من منير مرافقتي في أثناء زيارتي لبيت أخي خليل لترك المبلغ أمانةً عنده، كشاهدٍ غير مباشرٍ على المبلغ، ولم يكن ذلك لأنِّي أشكِّك بأخي خليل، بل خوفًا من أن يأتي القدر في لحظةٍ غير مناسبةٍ. وكان الاكتشاف الأهمُّ في هذه التجربة هي المعرفة التي اكتسبتها مع أبناء أخي منير، محمود وصادق، لا سيَّما بعد مغادرة منير إلى مصر، وأصبحت ألتقي بهم على نحوٍ دوري في تلك الفترة، وعندما حطَّم محمود ركبته زرته مرَّاتٍ عدَّةً عند أمِّه.

لا تسمح الفترة التي قضيتها في المخيَّم لي بالقول إنِّي أصبحت جزءًا منه. ستة أشهر قضيتها هناك في انتظار العودة إلى دوما، جعلتني أتعلَّق بالمخيَّم، لأنِّي وجدت عائلتي من جديدٍ، لطالما بحثت عنها سابقًا ولم أجدها، وجدت لي عائلةً وفي أصعب الأوقات، قادرةً على التضامن معي، حزنت على مغادرة المخيَّم، كان تجربةً مؤثِّرةً فيَّ على الرغم من قصر المدَّة التي قضيتها فيه.

بدل العودة إلى دوما، كنَّا أمام لجوءٍ جديدٍ، لم أفهم ما جرى في المخيَّم، فأنا لم أعرف أوضاعه تمامًا، غبت عنه أكثر من أربعين عامًا، ولم أتابع أوضاعه بعد خروجي منه، لأنِّي أردت أن يسقط وتسقط تجربتي فيه في بئر النسيان. لم يحصل ذلك، ولم أتخلَّص من الانتماء إليه، كما أنِّي لم أعد أعرفه كما يجب، حاول الجميع أن يشرح لي الوضع، ولم يزد هذا من معرفتي بأوضاعه، بل زاد معرفتي غموضًا. حتَّى الأيَّام الأخيرة التي شعرت فيها أنَّ

المخيَّم متوتِّرٌ، وهناك أمرٌ جلَلٌ على وشك الحدوث، وهو ما بات هاجسًا عندي بعد خروجنا من دوما. شعرت أنَّنا مهدَّدون دائمًا بالترحيل من المكان الذي نذهب إليه. فهمت ما يجري في المخيَّم في لحظة الخروج منه، والتي كانت لحظةً قاسيةً وصعبةً جدًّا عليَّ، أصعب من تجربة الخروج من دوما، والتي لم أخرج منها في ظلِّ تهجيرٍ جماعيٍّ. خفت على أولادي، فقرَّرت الخروج، ولأنَّهم يحترمون قراراتي خرجوا معي بناءً على رغبتي. حتَّى رشا الوحيدة التي لم تخرج من مكان سكنها، قال زوجها لها: «فيكي تأخذي الأولاد وتلحقي أهلك بدون زعل، بس أنا ما رح أطلع من زملكا»، قالت رشا لزوجها: «أنا بكون، وين أنت بتكون»، عندما أخبرتني بقرارها، لم أحاول الضغط عليها من أجل تغييره، وبقيت قلقًا عليها وعلى محمد وعلى أولادهم طوال الوقت، واحترمت الموقف، لأنِّي أعرف رشا وأعرف كم هي رقيقةٌ، ولا أعرف كيف ستتعامل مع حصار الغوطة الشرقيَّة، وهي البنت التي عاشت حياتها مرتاحةً ولم تواجه مشكلاتٍ كبرى. ما طمئنني عليها، أنَّ علاقتها بزوجها جيِّدةٌ جدًّا، وهما شخصان منسجمان، متديِّنان، طيِّبان، يحترمان بعضهما.

اصطحبت ابني منذر وعائلته معي إلى المخيَّم، لم يكن له خيارٌ آخر. وفي الفترة الأولى من وصولنا إلى المخيَّم، التي عشنا فيها في شقَّةٍ عند أختي بيان، بدأت الخلافات بين منذر ومنيرة زوجته، وكانت هذه زوجته الثانية بعد أن انفصل عن الأولى. وجوهر الخلاف هو الاستقلال، لأنَّ زوجته أرادت أن تسكن مستقلَّةً، وهذا لم يكن ممكنًا في ذلك الوقت. وبعد حوالي الشهرين، انتقلنا للعيش في شقَّة بيت أهلي التي سكنتها أختي وداد. وعندها زاد إصرارها على العيش منفصلين عنَّا، ولم يكن عندي مانعٌ لذلك، لكنَّ الظرف لم يكن مناسبًا سابقًا. مع هذا الانتقال، اقترح أخي منير أن يسكن منذر في مكتبه الذي يقع تحت الشقَّة التي نسكن فيها في بيت أهلي، أي أنَّنا في نفس البيت، لكن في طابقين مختلفين. وكان هذا بعد أن

غادرت العائلة التي سكنت المكتب، وهي عائلةٌ مهجَّرةٌ من التضامن عندها ابنتين معاقتين تعانيان من الشلل، وأخوهما كان صديق عامر ابن أخي خليل ويعملان معًا. عندما تهجَّروا جاء عامر على ذكر مشكلة صديقه أمام أخي منير، الذي اقترح عليه أن يسكنوا المكتب، فأُعِدَّ المكان على عجلٍ وحُوِّلَ من مكتبٍ إلى شقَّةٍ سكنيَّةٍ، وجلب الأغراض اللازمة للعيش فيه، وانتقل أخي منير إلى مكتب صديقٍ له وسط المخيَّم، عندما خرجت العائلة، سكن ابني منذر وعائلته مكانها.

بعد أيَّامٍ من وصولنا إليه، بدأت أدخل نسيج المخيَّم، كنت ابن المخيَّم وغريبًا عنه في الوقت ذاته، ولَّد عندي إحساسًا غريبًا وغامضًا بالانتماء إلى المكان، بدأت استعيد علاقاتي القديمة بالمخيَّم، هناك علاقاتٌ استعدتها بسرعةٍ، أصدقاء قدامى لم تغيِّر الأيَّام من طبيعتهم، وآخرون لم يعودوا كما كانوا، رغبت أكثر في اختبار هذه المشاعر تجاه المكان، لكنَّ الأحداث لم تسعفني. بعد أشهرٍ عدَّةٍ من وصولي إلى المخيَّم، كان عليَّ أن أُعِيدَ لملَمة أغراضي والذهاب في رحلة لجوءٍ جديدةٍ. كنت مهتمًّا بأخبار دوما أكثر من أخبار المخيَّم. عندما حصل الرحيل الجديد، كنت أرغب بالعودة إلى بيتي الذي أحبُّه في دوما، وأنتظر أيَّ حلٍّ يُعِيدُني إلى هناك، كانت تلك رغبتي، وتأتي الوقائع مناقضةً لها على طول الخطِّ. لم يتوقَّع أهالي المخيَّم ما جرى له ولهم، فكيف كنت سأتوقَّعه أنا؟ خلال إقامتي هناك، فهمت من الناس، ورغبت في تصديق، أنَّ المخيَّم خارج الصراع في البلد، وأنَّ لهذا المكان حصانةٌ دوليَّةٌ، ما يجعله خارج الصراع، وأنَّه كمكانٍ حاضنٍ للاجئين، تجعله هذه الميزة مهمًّا لجميع الأطراف، بالحفاظ على وضعه على الحياد. كانت هذه أوهامٌ يُنمِّيها بعض أهالي المخيَّم، يخفون فيها خوفهم من مصيرٍ لمخيَّمهم يشبه الكثير من المناطق التي جرى فيها تهجير السكَّان في الغوطتين الشرقيَّة والغربيَّة. ولكنَّ واقع الحال المنقسم يقول غير أمنيات سكَّانه، منذ جئت وجدت أهالي المخيَّم منقسمين، بين من هم مع الثورة

على السلطة، ومن هم معادون لها ومؤيِّدون للنظام، وبعض هؤلاء وأولئك لم يكن هذا بالنسبة لهم مجرَّد وجهة نظرٍ، بل حالة انتماءٍ وانخراطٍ في الصراع، فهناك من حمل السلاح مع النظام ومجموعاته، وهناك من حمل السلاح مع المجموعات المسلَّحة المعارضة للنظام، وإنَّ من اعتقدوا أنَّ المخيَّم على الحياد هم بعض الحالمين ليس إلَّا. أمَّا الاشتباكات التي تدور حوله، فقد انتقلت إلى أطرافه، ثمَّ إلى قلبه. لم يكن مفهومًا، لماذا تقصف طائرةٌ حربيَّةٌ المخيَّم بالصواريخ، وهو القصف الذي أعلن نهاية المخيَّم فعليًّا، دون أيِّ قتالٍ من قوَّات النظام وحلفائهم للاحتفاظ به. وأعتقد بخبرتي العسكريَّة المتواضعة أنَّ النظام لم يكن يريد البقاء فيه، سواءً فيه اشتباكاتٌ أم لا. ويبدو أنَّ خطط النظام قامت على فرز الأماكن التي يريد الاحتفاظ بها من المدينة للحفاظ عليها، وترك الأماكن التي يصعب الدفاع عنها أو التي يمكن أن تشكِّل أماكن سهلةً لخرق الدفاع عن المدينة، وكأنَّ خطَّة النظام تقوم على خلق سورٍ دفاعيٍّ حول مدينة دمشق، تمتدُّ من منطقة المهاجرين في طرف جبل قاسيون، وصولًا إلى مطار المزَّة العسكريِّ، يمشي السور مع شارع المتحلِّق الجنوبيِّ الواصل إلى المطار، وبالعودة من المطار، يسير الخطُّ الآخر مع المتحلِّق الشماليِّ وصولًا إلى طريق حلب اللاذقية، وما تبقَّى يجب التخلُّص منه لصعوبة الاحتفاظ به، والمخيَّم من بين هذه الأماكن، وزادت أهميَّة التخلُّص منه بعد الخرق الذي قام به الجيش الحرِّ، عندما هاجم دمشق ودخل الزاهرة في أوَّل الميدان، حيث دارت هناك معارك عنيفةٌ، فيما أعلنه وقتها الجيش الحرُّ وأسموه «زلزال دمشق»، الذي كان يهدف إلى اقتحام دمشق من محاور عدَّةٍ، ورافقه عمليَّة تفجير ما عُرِفَ باسم «خليَّة الأزمة»، فشل الهجوم ليس فقط من المخيَّم، بل ومن جوبر ومن دير العصافير في الغوطة الشرقيَّة ومن داريًّا والمعضميَّة في الغوطة الغربيَّة. وهي العمليَّة التي أقنعت النظام بالتخلِّي عن مواقعه خارج السور الذي أتحدَّث عنه، وكان المخيَّم من هذه المناطق.

لذلك كان قصف الطائرة الحربيَّة ومهلة الخروج التي سُرِّبَت لسكَّان المخيَّم هو الإعلان عن بداية رحلة لجوءٍ جديدةٍ، ليس لنا وحدنا، نحن المهجَّرين من دوما، بل وللأغلبيَّة الساحقة من أهالي المخيَّم.

كانت ليلة الخروج رهيبةً على أهالي المخيَّم، الكلُّ يتساءل ما العمل؟ وكان هناك إجابتان: الأولى، وهي جواب الأغلبيَّة، أنَّنا سنترك المخيَّم، وهو قرارٌ مفهومٌ، لأنَّ الهرب من الموت ردٌّ فعلٍ طبيعيٍّ للبشر، فحقُّهم في الحياة يجعلهم يحاولون حماية أرواحهم بكلِّ الطرق، وعدم التعرُّض للموت. فالصاروخ الأوَّل الذي سقط بين اللاجئين المتجمِّعين أمام جامع عبد القادر الحسيني، والذي أحدث مجزرةً حقيقيَّةً هناك، وحوَّل البشر إلى أشلاء، كان الحدث الذي وعدهم بمثل هكذا مصيرٍ إذا بقوا في المكان الذي بات مستباحًا أمام كلِّ الأسلحة. لم أذهب لمشاهدة المكان، لكن ما رواه الشهود عن الدماء والأشلاء والصراخ يدمي القلب. الثانية، وهي إجابة الأقليَّة، لا مكان لنا نذهب إليه، سنبقى هنا مهما كانت النتائج.

عندما زرت أخي خليل في تلك الليلة لأطمئنَّ عليه، لأنَّ الصاروخ الذي أطلقته الطائرة الحربيَّة، سقط خلف بيته، وحطَّم زجاج النوافذ واقتلع الأبواب المغلقة من الضغط الهائل الذي سبَّبه الانفجار. لم يكن خليل قد أفاق من الصدمة بعد، كان الذهول باديًا على وجهه، وحالة الانهيار التي يعيشها لا تخفى على أيٍّ ناظر إليه. وعندما عانقته وقلت له: «الحمد لله على سلامتك»، لم يردَّ، وكأنَّ الطنين الذي سبَّبه الانفجار في أذنيه ما زال يعمل، وكأنَّه منعه من سماعي. نظَّف أولاده البيت على عجلٍ، لكنَّ الحطام كان ظاهرًا في كلِّ مكانٍ في البيت. عندما سألته إذا كان يريد المغادرة؟ هزَّ رأسه بالنفي. وقال أولاده إنَّهم يحاولون إقناعه بالخروج معهم، لكنَّه يرفض بعناده المعروف، وهم لا يستطيعون تركه وحيدًا، لأنَّ أمَّهم كانت في زيارةٍ لابنتها في سويسرا، لذلك قرَّر ابنه أحمد البقاء معه. زرت أولاد أخي منير عند أمِّهم، وكان محمود ابنه الأكبر قد كسر رجله قبل فترةٍ وجيزةٍ من ذلك

اليوم، وكان من الخطر أن يخرج من المخيَّم على هذا الحال. لم يعرف أحدٌ ما الوضع الأمنيُّ الذي سيكون في صباح اليوم التالي، لذلك، قلت لمحمود ولأمِّه: «لا تطلعوا بكرة، حتَّى أتصل وأقول الطريق آمن».

لم أحتَج لجمع أغراضي، فهي مجموعةٌ دائمًا بانتظار العودة إلى بيتنا، ولم أتوقَّع أن تبقى مجموعةٌ من أجل رحيلٍ جديدٍ. استيقظت في اليوم التالي، في الساعة الخامسة صباحًا، لأجد فتحية صاحية. سألتها: «شو اللي مصحيكي لهلأ؟»، قالت: «ما عرفت أنام»، أومأت برأسي حسرةً، ولم أعلِّق بشيءٍ. سألت هي: «لوين بدنا نروح، وإيمتى بدنا نخلص من هذا العذاب؟»، لم يكن عندي جوابٌ، قلت: «لا تخافي، الله ما بنسى حدا»، لم أكن واثقًا من أنَّنا سنستطيع أن نجد حلًّا، مادت الأرض تحتي مرَّة أخرى، حتَّى قبل أن تهدأ. كنت قد اتصلت في الليلة السابقة بأصدقائي لإيجاد مكانٍ نذهب إليه عند خروجنا. وقال صديقي أبو السعيد الذي يقطن في بلدة جرمانا، لا بيوت فارغةً في جرمانا في هذا الوقت، وإنَّه يستطيع استضافتي، فعنده ملحقٌ مستقلٌّ، عبارةٌ عن غرفةٍ وصالةٍ، ويعيش فيه ابنه، يمكننا السكن فيه. سألته عن الأجرة، فقال: «عيب يا أبو منذر، أنت صديق عمري»، كنت أعرف أنِّي أضيِّق عليه، وهو صاحب العائلة الكبيرة، لم يكن أمامي خيارٌ، ولم أرغب في أن أخذل صديقًا قرَّر الوقوف معي، ولم أرغب بالتضييق عليه. لم أفكِّر بالإقامة في جرمانا، كانت خيار اللحظة، لأنَّني منذ اللحظة التي وقعت فيها أحداث المخيَّم، وبات الخروج حتميًّا، قرَّرت ألَّا أسكن في المناطق التي تقع على أطراف سور المدينة التي أعتقد أنَّ النظام يريدها دون غيرها، ولأنَّ هذه المناطق ستكون عرضةً دائمًا للهجمات، مثل مناطق جرمانا وصحنايا وقدسيًّا وغيرها من المناطق المتاخمة للريف التي خرجت سريعًا من يد النظام، لذلك قرَّرت وقبل خروجي من المخيَّم، أن أبحث عن بيتٍ للسكن في وسط مدينة دمشق لا في أطرافها.

في ذلك الصباح، نزلت إلى مكتب أخي منير، حيث يسكن ابني منذر، أيقظته وطلبت منه تجهيز أغراضه للرحيل. عندما بدأنا نُخرِجُ أغراضنا من البيت، وننقلها إلى سيَّاراتنا، لطمتني مشاهد الراحلين. لم أعِ تجربة اللجوء من فلسطين، ولا أذكر منها شيئًا، كنت أبلغ الثالثة من عمري عندما وقعت الكارثة، كنت جزءًا غير واعٍ منها، وعيتها من روايات أمِّي وجدَّتي وإخوتي الأكبر. مع إطلالتي خارج المنزل، شاهدت نكبةً أخرى، نكبةً من الصعب وصفها، لا أجد الكلمات للتعبير عنها. حجم الألم والحزن في عيون الناس الخارجين من المخيَّم لا يحتمل. الوجوه الحزينة والمتعبة تعبِّر عن خسارةٍ كبيرةٍ، وهي مدركةٌ ضمنًا أنَّ هذه الخسارة نهائيَّةٌ، ولن يكون للخارجين أملٌ بالعودة، وجوههم تقول هذا، لأنَّهم يعتقدون تجربة النكبة تكرِّر نفسها، وهم لم يعودوا إلى بلدهم، لذلك فهم لن يعودوا إلى مخيَّمهم الذي انتظروا فيه عودتهم إلى وطنهم التي لم تحصل. ولم تكن وجوه العجائز الذين وُلِدُوا في فلسطين التي تقول هذا، بل ووجوه أبنائهم أيضًا، فقد وَرَّثَ الفلسطينيُّون الخوف من الخسارات النهائيَّة إلى الأجيال التي وُلِدَت خارج البلاد، ورَسَمَ هذا الخوف العميق نفسه على الوجوه، وهو ما أخافني، وأعاد ذاكرة اللجوء الأولى والمؤذية ووعيها في هوامش مدينة دمشق. شاهدت الخارجين من دوما قبل أن ألجأ إلى المخيَّم، كانت وجوههم حزينةً بالتأكيد، لكنَّه الحزن الغاضب، وأصحابه متأكِّدون من عودتهم إلى المكان... مكانهم، لم يكن في وجوه أهالي دوما الخارجين منها هذا اليأس والحزن العميق، الذي شاهدته على وجوه الخارجين من المخيَّم.

في لحظة الخروج الحزين من المخيَّم، استعدت هويتي كغريبٍ عن البلد، عدت لاجئًا قَدِمَ طفلًا وبقي لاجئًا وهو شيخٌ، كلُّ شيءٍ يعبث بحياتنا نحن اللاجئين الذين يتَّهمنا الجميع بكلِّ الاتهامات الباطلة، ليس لشيءٍ سوى لأنَّنا الطرف الأضعف في كلِّ المعادلات. لم أميِّز الفلسطينيَّ عن السوريَّ ونحن خارجون من المخيَّم، عندما أنهيت إخراج أغراضي وترتيبها

في سيَّارتي، وأخرج منذر أغراضه ورتَّبها في سيَّارته، وبذلك أكون قد دخلت وخرجت مرَّاتٍ عدَّةً، وفي كلِّ مرَّةٍ أشاهد المزيد من الوجوه الحزينة للنساء والرجال من كلِّ الأعمار والأطفال الذين يبكون، والكلُّ كذلك، سواءً راكبوا السيَّارات، أم الراجلين، أم من يدفعون العربات المنزليَّة، شعرت الحزن قبَّةً هائلةً تغطِّي المخيَّم، أصابت عدواه الجميع، ولم ينجُ أحدٌ منه. لحظتها شعرت أنِّي أتهجَّر للمرَّة الأولى بالمعنى التامِّ للاقتلاع الذي عرفناه نحن كفلسطينيِّين في نكبة العام 1948.

ركبت سيَّارتي وركب معي زوجتي فتحية وابني فراس إلى جوارها، وانحشرت ابنتي غدير مع أغراضنا في المقعد الخلفيِّ، وهي الأغراض التي لم يتَّسع لها صندوق السيَّارة، رغم أنَّنا تركنا الكثير منها، لعلِّي أعود مرَّةً ثانيةً وأجلبها. وركب منذر وزوجته وأولاده الثلاثة في سيَّارتهم، الولد في حضن أمِّه، وانحشرت البنتان مع الأغراض في الكرسيِّ الخلفيِّ. الجميع في الشارع في حالة حزنٍ، إلَّا الأطفال الصغار الذين لا يدركون ما يجري حولهم. قبل أن أدير محرِّك السيَّارة، قلت لمنذر: «ابقَ وراي، ولا تضوِّعني، ما بدِّي أدوِّر عليك»، قال: «لا تخاف، رح أبقى وراك على الدعسة»، عندما قدت سيَّارتي، أدركت أنَّ وصيَّتي بلا معنى في ظلِّ ازدحام السيَّارات والبشر الذين يغادرون المخيَّم في ذلك الصباح البارد. تكاد السيَّارات تسير بسرعة المشاة، وفي بعض الأوقات، يسبق الذين يمشون على أقدامهم والمثقلين بأغراضهم السيَّارات، التي تتوقَّف دون سببٍ واضحٍ، اعتقدت أنَّ ذلك يعود إلى عمليَّات التفتيش التي يقوم بها الجنود على الحواجز عند مدخل المخيَّم. بطء القيادة والتوقُّف أحيانًا، أعطاني الفرصة للنظر إلى المغادرين، لم أرغب في النظر إلى وجوههم، لكن هناك شيءٌ أقوى منِّي يشدُّني للنظر إليهم. طُبِعَت الصورة المأساويَّة لهذا الهرب الكبير من الموت في ذاكرتي كمواد كاويةٍ، طُبِعَت بقوةٍ لا يمكن نسيانها. لقد شهدت الكثير من الحوادث الكبرى، بما فيها الحرب التي مات فيها أصدقاء ورفاق وأخوةٌ بين يدي،

بالتأكيد حزنت، لكن لم أحزن مثل ذلك الحزن الذي أصابني، وأنا اليائس الذي يتأمَّل الناس اليائسين. كان الطريق إلى خارج المخيَّم أشبه بالسير في جهنم، طريقٌ كاويةٌ، مشاهد البشر الحزانى الذين يحملون أغراضهم كيف ما اتفق تحرق القلب، العويل والبكاء والغضب، اليأس والبؤس، الحنان والقسوة، طفولة تكبر قبل أوانها، ورجالٌ ونساء يهرمون بمجرَّد ما يقطعون المسافة إلى خارج المخيَّم، وكأنَّ المسافة تحتاج إلى عشرات السنوات لقطعها، وهذه السنوات طبعت بؤسها على ملامحهم. بين مغادرتهم بيوتهم ووصولهم إلى خارج المخيَّم، كأنَّهم عوقبوا عقابًا جماعيًّا بإخراجهم من الجنَّة إلى الجحيم. لا أعرف كيف تحمَّلت هذه المشاهد كلَّها في الطريق قصيرة المسافة، والطويلة بآلام الناس اليائسة. وصلت إلى خارج المخيَّم منهكًا، لم أصدِّق أنَّ الجحيم الذي مرَرتُ به يمكن أن يوجد يومًا، ولم أصدِّق أنِّي اجتزته، فقد اجتزت الكثير من المواقف الصعبة في حياتي، وأعتقد أنَّ هذه من أصعبها، لا أعرف لم يعود ذلك؟ هل يعود للظروف التي أمرُّ بها، أم يعود لسنِّ الشيخوخة الذي أعيشه، أم إلى أنَّ كلَّ ما يحدث جاء بالضدِّ من توقُّعاتي؟

عندما وصلت خارج المخيَّم، وأنا في أوَّل طريق الزاهرة، ناولت تلفوني المحمول لابنتي غدير، وقلت لها: «اتصلي بمحمود ابن أخي منير»، طلبت الرقم، وأعطتني الهاتف. عندما ردَّ محمود، قلت له: «مرحبا عمِّي... إذا إنتوا جاهزين اطلعوا فورًا، ما في حواجز على مدخل المخيَّم»، قال: «إحنا جاهزين، كنَّا نستنى تلفونك»، قلت: «ممتاز، اتكلوا على الله، ولما تصيروا خارج المخيَّم، بس خبِّرني، ابعتلي رسالة»، قدت سيَّارتي باتجاه بلدة جرمانا، حيث تنتظرني شقَّةٌ هناك، وحالما وصلنا، ونحن ننقل أغراضنا إليها، وصلت رسالة محمود بن منير تقول: «ألف شكر عمِّي، طلعنا من المخيَّم، وصرنا بصحنايا»، عندما وصلتني الرسالة كنَّا قد أنهينا نقل الأغراض إلى الشقَّة الصغيرة. تمدَّدت على السرير في غرفة النوم لأريح ظهري المتعب قليلًا،

وجدت نفسي أغرق في النوم، ولم أصحُ إلَّا عندما هزَّتني فتحية، وهي تقول: «أبو منذر، قوم صرلك نايم ست ساعات»، بين النوم والصحو، قلت: «معقول صرلي نايم ست ساعات»، قالت: «وأكثر» كان نومي هربًا وفاصلًا بين زمنين في كارثةٍ لا تنتهي، نعيشها في بلدٍ انفجر بكلِّ معنى الكلمة. إنَّه لجوءٌ جديدٌ، ألمٌ جديدٌ، ننتقل من ألمٍ إلى ألمٍ أكبر وتستمرُّ الحياة كرحلة شقاءٍ لا تنتهي. منذ اليوم التالي، بدأت البحث عن مسكنٍ جديدٍ وسط دمشق، لم يكن إيجاد بيتٍ عملًا سهلًا في ظلِّ تزايد عدد اللاجئين من ريف دمشق إلى المدينة ومن المدن الأخرى. وبعد بحثٍ مضنٍ بين بيوتٍ لا نستطيع تحمُّل إيجارها وبين بيوتٍ غير صالحةٍ للسكن الآدميِّ، عثرت على بيتٍ في منطقة ركن الدين في جبل الأكراد، لم أسكن في المنطقة المرتفعة، لأنِّي لم أكن وزوجتي قادرين على الوصول إلى البيوت هناك، وجدت بيتًا في أوَّل الطلعة، كان معقولًا للسكن لحدٍّ ما، ثلاثة غرفٍ وصالةٌ يسعنا جميعًا، ريثما نجد مخرجًا من هذه الأزمة التي نعيشها، منذر وعائلته في غرفةٍ، وأنا وزوجتي في غرفةٍ، وفراس وغدير في الغرفة المتبقِّية، والصالة مشتركةٌ للجميع.

استمرَّ وضع البلد في التردِّي، وأصبحت الاشتباكات في كلِّ مكانٍ، ومناطق تلو مناطق تخرج عن سيطرة النظام، المزيد من القتلى والجرحى، والمزيد من المشرَّدين، والمزيد من البيوت المهدَّمة، بسبب القصف بالطائرات أو بالمدفعيَّة أو بالبراميل المتفجِّرة. تزداد الاشتباكات وتنقص، ولا شيء يدلُّ على أنَّ أيًّا من الطرفين قادرٌ على هزيمة الطرف الآخر. وهذا لا يعني أنَّ الطرفين قادران على الوصول إلى تسويةٍ، لأنَّ أيًّا منهما غير قادرٍ على حسم الصراع لصالحه. والناس عالقةٌ في الآثار المدمِّرة للحرب، التي ترفع أسعار كلِّ شيءٍ في الوقت الذي تتراجع دخول الناس، إنَّها معادلةٌ صعبةٌ للعيش في بلدٍ الدخل فيه شبه معدومٍ والغلاء فاحشٌ. ما زلت قادرًا على تحمُّل الوضع، بالاستعانة بمدَّخراتي وبعض المساعدات من الآخرين.

وكلَّما انخفض دخلنا وارتفعت الأسعار والأجور، زاد هذا من تعقيد حياتنا وانخفضت قدرتنا على التكيُّف. كلُّ شيءٍ ينذر بالأسوأ، فلا عمل لديَّ، وبتُّ معتمدًا على راتبي التقاعديَّ فحسب، فلم يعد العمل الذي وفَّره لي مكتبي في السابق موجودًا، ولم يكن من الممكن أن أجد عملًا بديلًا، لذلك لم أرفض العمل على صندوق المحاسبة في محلٍّ لبيع الفروج المشوي والشاورما في ركن الدين من أجل تحسين دخلنا بعض الشيء، وهو ما يجعلني أخرج من البيت لوقتٍ طويلٍ أيضًا. احتجَّ أولادي على عملي، وطلبوا منِّي تركه، وقالت غدير: «بعدنا بنقدر نعيش راتبي وراتبك وراتب منذر، بكفِّي في هاي الظروف»، قلت: «ما في شي عيب بالشغل اللي بشتغله، الناس مش ملاقية أي شغل»، قالت غدير: «بابا، بس هذا مش شغلك، إنت غالي علينا كثير»، قلت: «والله بعرف يا بنتي، بس ما بنعرف الدنيا شو بتعمل فينا»، كنت بحاجةٍ لهذا العمل لأسبابٍ نفسيَّةٍ أكثر منها ماليَّةً. لم أكن قادرًا على البقاء في البيت دون عملٍ، فأنا لم أعتَد ذلك منذ طفولتي. والبقاء في المنزل يقتلني. الخروج للعمل حتَّى لعملٍ لا يناسبني، هو في النهاية أفضل من الجلوس في المنزل وندب الحظِّ. مرحلةٌ قاسيةٌ، كلُّ شيءٍ فيها يسير إلى الوراء بسرعةٍ، ولست واثقًا من شيءٍ، الشيء الوحيد الذي كنت متأكِّدًا منه، هو أنَّنا نسير باتجاه أوضاعٍ أسوأ بثباتٍ. وأنَّ عليَّ تجنُّب الأسوأ إذا أمكن، وليس من طريقةٍ لذلك سوى محاولة التكيُّف وتحسين الحال في وضعٍ يبشِّر بالأسوأ دائمًا.

لا خيار عندي سوى الانتظار، وجدت نفسي عاجزًا عن الفعل، حتَّى عاجزًا عن التفكير، حتَّى عندما أخذت الناس تغادر البلد، لم أفكِّر مثلهم، إخوتي الذين قاربت بيني وبينهم الكارثة التي تعيشها البلد، سرعان ما غادروا وأولادهم الواحد بعد الآخر، وعندما طلب منذر موافقتي على مغادرته، ليركب موجة اللجوء مثل غيره من الآلاف، الذين ذهبوا في هذه الرحلة ليوقفوا انهيار حياتهم، وجدت نفسي غير قادرٍ على الموافقة، لم

أستطع مشاهدة ابني وأولاده يخوضون هذه التجربة القاسية. حتَّى عندما قال منذر أنَّه سيذهب وحده وبعد ذلك يأتي بهم إلى المكان الذي يصل إليه، لم أوافق على الفكرة، وهو لم ينفِّذها احترامًا لي، وأنا اليوم أعرف أنِّي ارتكبت خطيئةً كبرى في جعله يبقى في البلد، التي لا مستقبل فيها، لا له ولا لأولاده. لا أعرف لماذا خفت من مغادرة منذر أكثر من الحرب نفسها؟ ولا أعرف هل خفت عليه من مصيرٍ سيِّئٍ في رحلة اللجوء، أم خفت على نفسي من مصير الوحدة التي تنتظرني في حال غادر منذر ولحقته بقيَّة العائلة؟ وماذا أفعل أنا الذي بنيت حياتي من أجلهم؟ مغادرتهم عنت موتي بموت عالمي القريب. ولا أفهم لماذا خفت من المخاطر، وكأنَّ المخاطر في دمشق أقلُّ منها في طرق التهريب؟! وكانت دمشق التي تتعرَّض للقصف من الريف، وتشهد بعض العبوات المتفجِّرة هي أكثر خطورةً من طرق التهريب التي سلكها اللاجئون. والأسوأ من دمشق ريفها، إذ أصرت رشا على البقاء مع زوجها ورفضت الخروج من زملكا، وقالت: «مصيري أنا أولادي من مصير جوزي»، لم أناقشها في الأمر، تفهَّمت الموقف وسكت. ناقشتها فتحية مرَّاتٍ عدَّةً في الموضوع، لكنَّها استسلمت لإرادة ابنتها الصلبة في البقاء مع زوجها. في زملكا هناك حيث بقيت رشا، كان الوضع أسوأ ألف مرَّةٍ من طرق التهريب، لم يتوقَّف القصف بالمدفعيَّة والطيران والصواريخ والبراميل المتفجِّرة، حتَّى السلاح الكيماويِّ استُخدِمَ في الغوطة الشرقيَّة. قلقت على رشا كثيرًا، فالخطر يلاحقها ويلاحق أولادها طوال الوقت. أعترف بأنِّي ندمت لأنِّي لم أوافق على سفر منذر، وتمنَّيت لو رفض كلامي وفعلها وغادر البلد. وعندما أدركت أنَّ البلد سيسير إلى خرابٍ مستقبليٍّ لا تبدو له نهايةٌ، كانت طرق التهريب إلى أوروبا، قد أُغلِقَت، وبات أيُّ قرارٍ في الهجرة متأخِّرًا.

في حياتنا، لم يحدث الكثير بعد أن سكنَّا في ركن الدين غير ما اعتدنا عليه من حربٍ مجنونةٍ باتت تغطِّي كلَّ البلد. كان الحدث الأساسيُّ الارتفاع

المستمرُّ واليوميُّ في إيجار المنازل، لانخفاض قيمة العملة السوريَّة طوال الوقت، وهذا يعني زيادة تكاليف المعيشة، التي باتت منذ زمنٍ أكبر بكثيرٍ من قدراتنا الذاتيَّة، ولولا المساعدات التي تأتي من هنا وهناك لباتت حياتنا أصعب بكثيرٍ. وأخذ الصراع المسلَّح في محيط دمشق يتحوَّل لمصلحة النظام، ما خفَّف من المخاطر على مدينة دمشق إلى حدٍّ ما.

لم يكتفِ القدر بجعلنا نعيش مأساة الحرب ونخسر حياتنا ومنازلنا ونتشرَّد، بل كان عليه أن يضيف مآسٍ أخرى، لتتحوَّل حياتنا إلى جحيمٍ حقيقيٍّ. ففي ظلِّ هذا التردِّي في أوضاعنا، جاء الخبر الفاجع أنَّ فراس مريضٌ.

عندما شعر فراس بآلامٍ في بطنه لم يكترث، وأخذ يبالغ في كتم الأمر، وفي الوقت الذي فقد شهيَّته للأكل، وأخذ وزنه في التناقص سريعًا، دون سببٍ ظاهرٍ. رفض الذهاب إلى الطبيب، لأنَّه عدَّ ما يمرُّ به آلامًا عاديَّةً ومؤقَّتةً، وستذهب في حالها. لم أقبل بذلك وقلت له أنَّ عليه الذهاب إلى الطبيب، وتحت إلحاحي وافق على الذهاب إلى الطبيب الذي شخَّص حالته بأنَّها آلامٌ ذات منشأٍ نفسيٍّ، تصيب الكثيرين في حالات الحرب وتتسبَّب في فقدان الشهيَّة، وكتب له بعض المسكِّنات والأدوية الأخرى المضادَّة للاكتئاب، قال الطبيب: «إضافةً للدوا، الأحسن يتحرَّك، الحركة بتساعده يطلع من الحالة اللي هو فيها، وبتساعده على الشفاء»، التزم فراس وصفة الطبيب، وكنت أخرج معه من أجل الحركة، وعندما أكون مشغولًا، يخرج معه منذر أو غدير. مع الدواء والحركة بدأ يتحسَّن، أصبح أكثر تفاعلًا معنا، وبات يضحك، ويأكل أفضل، لكنَّ وزنه استمرَّ في التراجع، وقد ظهر هذا الشيء جيِّدًا بالنسبة له، لأنَّ وزنه كان زائدًا، ويحتاج إلى خفضه لأكثر من عشرين كيلوغرام حتَّى يصبح وزنه مناسبًا لطوله. ارتحت لتحسُّنه، لا سيَّما أني أحمِّل نفسي مسؤوليَّة العمى الذي أصابه، ولم أرغب أن يصيبه مكروهٌ جديدٌ، لذلك كنت قلقًا عليه أكثر من بقيَّة أخوته.

لم يطل تحسُّنه، وسرعان ما انتكس، وعندما راجعنا الطبيب مرَّةً أخرى، وأجرى ببعض التحليلات الإضافيَّة، تبيَّن أنَّ فراس مصابٌ بمرض السكَّري، والذي أعاده الطبيب مرَّةً أخرى إلى الحالة النفسيَّة، وبات علينا أن نضيف دواء السكَّري إلى أدويته. بعد أسابيع عدَّةٍ أصبح يشعر بالإرهاق. بات وضعه مقلقًا، مع اصفرار وجهه، وبعد ذلك شُخِّصت حالته بالتهاب حادٍّ بالبنكرياس، وأضيف دواء الالتهاب إلى قائمة الأدوية التي يأخذها. لم تعجبني الحالة، فأخذته إلى أطباء عدَّةٍ، كانت تشخيصاتهم متقاربةً. لكنَّ ذلك لم يحسِّن من حالة فراس، الذي يزداد ألمه باستمرارٍ، ويشعر بسكِّين تشقُّ بطنه وتذهب إلى ظهره. في زيارتي الأخيرة للطبيب الذي يعالجه، أخذني الطبيب بعيدًا عن فراس، وقال بصوتٍ منخفضٍ حتَّى لا يسمع فراس: «والله يا أبو منذر، أظن صار ضروري تعرض فراس على طبيب أورام»، عندما قال هذه الكلام خفت، سألته: «خير في شي يا دكتور؟!»، قال: «أبدًا، بس منشان نتأكَّد إننا عبنعمل الصح»، أقلقني كلام الطبيب، سألته إذا كان يعرف طبيب أورام جيِّدٍ في دمشق، أعطاني اسم الدكتور سعيد الساطي، وعيادته في شارع بغداد، وأعطاني رقم هاتفه. عندما اتصلت بعيادة الدكتور من أجل حجز موعدٍ، لم يكن هناك موعدٌ قبل ثلاثة أشهرٍ. قلت للمرأة التي ردَّت على الهاتف: «بس الحالة ما بتستنى ثلاث شهور، ما في موعد أقرب، حتَّى لو بدِّي أدفع أكثر»، قالت: «للأسف لا، الموضوع مش دفع، هذه أوقات المواعيد المتوافرة»، سألتها: «ما في حل ثاني؟»، قالت: «في، إنَّك تجي وتنتظر الدور، وهذا برجع للحظ، يمكن تستنى ساعتين ويمكن تستنى أسبوعين، هذا إلُه علاقة بحدا ما يجي على الموعد»، قلت: «فينا نحجز موعد، ونجي نستنَّى على الدور، إذا حصلنا دور، بنلغي الموعد؟»، قالت: «طبعًا، هذا ممكن»، قلت: «معناه أعطيني موعد»، أعطتني موعد، دوَّنته على ورقةٍ ووضعته في محفظة جيبي، وقرَّرت أن أذهب أنا وفراس وننتظر، لعلَّنا نحظى بفرصة مقابلته قبل الموعد. في المرَّة الأولى، انتظرنا

ثلاث ساعاتٍ لم يتحمَّل فراس أكثر، فغادرنا المكان. وفي المرَّة الثانية انتظرنا أربع ساعاتٍ، دون أن نحصل على فرصة مقابلة الطبيب. في المرَّة الرابعة، نام فراس من التعب، وقرَّرت أن أنتظر طالما فراس نائمٌ. وفي ذلك اليوم جاءت المساعدة في العيادة، وقالت: «يا عم بتقدر تفوت على الدكتور»، أيقظت فراس، ودخلنا عند الطبيب، الذي استمع لفراس عمَّا يشعر به، وبعدها طلب صورة الموجات فوق الصوتيَّة، عملنا الصورة وعدنا للطبيب، الذي أذهلته الصورة، استغربت وجه الطبيب عندما شاهد الصورة. سألته: «خير يا دكتور، طمنِّي؟»، قال الطبيب: «بدنا نعمل تنظير حتَّى نتأكَّد إنُه الحالة سليمة»، قلت: «دكتور، بنعمل كل شي، بس فراس يتحسَّن»، نصحنا بمشفى لإجراء التنظير، ذهبنا إلى هناك وأجروا له التنظير. عدنا إلى الطبيب، وكان مدهوشًا من النتائج، هذه المرَّة لم يبقَ صامتًا، انتحى بي جانبًا وقال: «ما بحب أقلك هذا الكلام، بس هذا واجبي. ابنك مصاب بسرطان البنكرياس، وهي حالة غريبة ونادرة، لإنه هذا المرض عادةً ما بصيب المريض قبل سن الستين، وحالة نادرة أن يصيب شاب بالخمس والثلاثين مثل ابنك»، صدمني كلام الطبيب، وقلت وأنا أنظر إلى سقف الغرفة: «ليش يا الله، بتصيب هذا الولد بكل الأمراض الغريبة والنادرة»، أضاف الطبيب: «وبدنا نستنى شوي لنشوف درجة الإصابة»، لم أصدِّق ما أسمع، مصيبةٌ أخرى حلَّت على رأسي، تمنَّيت أن يكون تشخيص الطبيب خاطئًا، وأخذت الصور إلى أطبَّاء آخرين، أكَّدوا ما قاله الدكتور الساطي. لم أخبر فتحية بحالة فراس، إلَّا بعد أن تأكَّدت من التشخيص من أطبَّاء آخرين. وكانت لحظةً من أصعب لحظات حياتي، أن أخبر فتحية بأنَّ ابننا فراس مصاب بمرضٍ قاتلٍ، كنت أرغب في أن يبقى الأمر سرًّا لكنَّ هذا لم يكن ممكنًا، لأنَّنا سنتعامل جميعًا مع الحالة. عندما أخبرتها، فتحت فمها ووضعت يدها عليه وتجمَّدت وانقطع نفسها. اعتقدت أنَّها أصيبت بذبحةٍ قلبيَّةٍ، لولا الدموع الصامتة التي تنهمر من عينيها. هي لم تنسَ موت منى بعد، وهي

الآن تعلم أنَّ فراس يحمل موته داخله. عندما تكلَّمت قالت: «حسبي الله ونعم الوكيل، حبيبي فراس ما بكفيك اللي فيك»، لم تكن قادرةً على لطم نفسها، تمنَّيت لو استطاعت ذلك، خارت قواها لدرجة أنَّها لم تكن قادرة على رفع يدها.

بدأنا ننتظر الفحوص والتحليلات لنعرف مستوى المرض، وهل يمكن إجراء جراحةٍ لاستئصال الورم أم لا. كنت آمل ذلك، مع أنَّ حالاتٍ قليلةً من هذا النوع من السرطان يمكن استئصال الورم فيها، تمنَّيت أن تكون حالة فراس منها. جاءت النتائج لتقول عكس ذلك. وهذا يعني أنَّه سيعاني مع العلاجات الإشعاعيَّة والكيمياويَّة. كان الوضع أقسى من تحمُّلنا، لم تبقَ مصيبةٌ في هذه الحرب لم تقع على رأسنا. بعد تجاهلنا الحديث عن المرض، بات عليَّ أن أتكلَّم بوضوحٍ، لأنَّنا جمعيًا سنواجه هذا المرض وليس فراس وحده. عندما سألته عن إحساسه بالمرض، ابتسم ساخرًا وقال: «مش فارقة، كلُه مثل بعضُه»، لم أشعر أنَّه خائفٌ، أو أنَّه لا يُقدِّر ما هو فيه فعلًا، ولأوَّل مرَّةٍ أعرف كم هو زاهدٌ بالحياة التي لم يعشها على نحوٍ طبيعيٍّ. صدمني جوابه، إنَّه متخلٍ عن الحياة بهذه البساطة، وكأنَّ الموت والحياة تساويا عنده، أو كأنَّ الموت يخلِّصه من بؤس الحياة. لم تتغيَّر قناعته، حتَّى مع زيادة آلامه الرهيبة بعد العلاج الكيمياويِّ. لم يكن حتَّى المورفين قادرًا على تخفيف آلامه الجسديَّة، وكانت آلامه النفسيَّة تفوق آلامه الجسديَّة. أراد الخلاص من حياةٍ لم يحبَّها يومًا، وكأنَّ المرض جاءه مخرجًا من أسر الحياة. كانت آلامه مبرحةً، ونحن أهله أصبحنا نتمنَّى له الخلاص، لأنَّنا لسنا قادرين على سماع صراخ الألم المرعب الذي زلزلنا خلال أشهر مرضه الأخيرة. عندما ماتت منى، بقيت بحسرة أنَّها لم تمهلنا حتَّى نودِّعها لتذهب إلى موتها، فجاء موتها صادمًا. مع فراس وآلامه وأوجاعه التي أوجعتنا كما أوجعته، جاء موته البطيء رهيبًا ومؤلـمًا ومرعبًا لنا، لقد حطَّمنا موته الطويل والصعب أنا وفتحية أكثر من الحرب ذاتها.

بعد موت فراس فقدت الإحساس بالحياة، شعرت بالذنب تجاهه، لأنِّي أتيت به إلى الحياة، كانت حياته مسيرة ألمٍ، لم أستطع حماية ابني الذي أحبُّ من المرض، عاش حياته بعاهةٍ ليست من صنع يده ولا من صنع أيدينا، ومات بمرضٍ نادرٍ موتًا بطيئًا مؤلـمًا له ولنا. كما أخذت منى بموتها جزءًا من أروحنا، أخذ فراس ما تبقَّى منها، وأخذت الحرب واللجوء والحاجة ما هو أكثر من الروح. لم تتأخَّر غدير من اللحاق بإخوتها، فماتت بعد أشهرٍ، كما ماتت منى من دون سببٍ. يوم عدنا من زيارة أهل فتحية إلى البيت وجدناها ميتةً، وهي جالسةٌ على كرسي طاولة السفرة وأمامها تفَّاحةٌ مقشَّرةٌ ومقطعةٌ في صحنٍ صغيرٍ، وكانت قدَّمت لأخيها منذر قطعةً منها قبل موتها بقليلٍ، قد يكون قبل دقائق. عندما دخلنا إلى البيت وشاهدت فتحية ابنتها على هذه الحالة، لم تسأل هذه المرَّة ما بها غدير، منذ شاهدت يدها تتدلَّى إلى جانبها، صرخت صرخةً مدوِّيةً، ما زال صداها يرنُّ في أذني، وسقطت على الأرض. شاهدت فتحية غدير ساكنةً فعرفت أنَّها ماتت، صرخت وسقطت بفعل الانهيار العصبيِّ. عزَّز موت غدير دماري الشخصيَّ، ولم أعد أحسُّ بشيءٍ، انغلق قلبي على سواد العالم الكثيف، وشعرت أنَّ كلَّ شرور العالم موجَّهةٌ لي شخصيًّا. كانت غدير بكامل صحَّتها، فُجعنا من جديدٍ بأعزِّ الناس علينا، وأنا لم أعد أملك طاقةً على الحزن، الذي لم ينتهِ بموت غدير، ولمت الله لماذا تركني أعيش كلَّ هذا الألم والحزن الذي لا يُحتَمَلُ، وعلى ماذا أُعَاقَبُ؟ أما كان يمكنه أن يأخذ روحي قبل كلِّ هذه المآسي، ويريحني من هذا العذاب الذي لا يحتمل؟! رغبت جدًّا في الانتحار، هذا الشيء الوحيد الذي ينقذني من النار المدمِّرة المشتعلة داخلي. لا معنى لأيِّ شيءٍ، ولا أرغب في الحياة، فلماذا أستمرُّ فيها؟ لذلك عليَّ وضع حدٍّ لها. في كلِّ مرَّةٍ كنت أجبن، أخاف من الله، أخاف من عذاب الآخرة، بعد أن شاهدت عذاب الأرض القاسي. لم تفارقني الأفكار المجنونة، لماذا لم يمت أولادي في قذيفةٍ طائشةٍ، أو بطلقة قنَّاصٍ، هذا أهون عليَّ من موت أولادي

بعوامل إلهيَّةٍ لا أرضيَّةٍ، على الأقل كنت شعرت بأنِّي خسرت أولادي لأنَّ مجرمًا قد قتلهم، وأنَّ الجريمة من فعل بشرٍ في عالمنا، أمَّا أن يموتوا هكذا بفعل الإرادة الإلهيَّة، وكأنَّ هذه الإرادة الإلهيَّة تعاقبني بأقسى طريقةٍ يعرفها البشر. لم أحظَ بفرصةٍ أن يكون هناك سببٌ بشريٌّ لهذا الموت ليخفِّف عنِّي الفقدان المرعب الذي أعيشه، أو على الأقل لموت أحدهم. لقد مات مئات الآلاف في الحرب المجنونة المشتعلة في البلد بفعل القصف والبراميل المتفجِّرة والقنص، لماذا لم ينعم الله عليَّ بموت أولادي بإحدى هذه الوسائل، وألَّا يظهر هذا الموت كأنَّه عقابٌ إلهيٌّ يضاف إلى الحرب، وليس عقابًا إلهيًّا من خلال الحرب. خسرت نصف أولادي، لم تأخذهم الحرب منِّي، أخذهم الله. كرَّر الكثيرون أمامي: «إنَّها إرادة الله»، نعم إنَّها أرادة الله، ولا أستطيع أن أفعل شيئًا حيالها، لكنَّ السؤال الذي أسأله لنفسي ولله نفسه، لماذا تأتي إرادته فيما يخصُّني بأكثر طريقةٍ إيلامًا؟! عادوا وكرَّروا: «أنَّ الموت يبدأ كبيرًا ويصغر مع الوقت»، لم يكن كذلك معي، بقي هذا الموت المؤلم كبيرًا، لم يصغر عندي وعند فتحية، التي عندما أحاول نسيانه، يعيدني حزنها العميق إلى مأساتنا من جديدٍ.

لم أعد أنتظر شيئًا، حتَّى أنَّ مأساةً أخرى لن تضيف الكثير إلى الحزن والألم القاتل الذي نعيشه، ازدادت الأوضاع الاقتصاديَّة سوءًا، وتراجعت المعارك في ريف دمشق، وأخذت التسويات تعيد بلداتٍ ومدن الغوطة الشرقيَّة للنظام بعد الضربات القاسية التي تعرَّضت لها. وشمل هذا الكثير من المناطق، التي استسلمت الواحدة بعد الأخرى، ووصل الاستسلام إلى دوما التي حكمها «جيش الإسلام» لسنواتٍ، الذي أراد تحرير دمشق من النظام. جاء النظام وحرَّر دوما منهم، وركبوا الباصات الخضر، التي نقلت المقاتلين المستسلمين إلى أماكن أخرى، فرحل جيش الإسلام عن المدينة، الذي لم أحزن عليه، إنَّما حزنت على ابنتي رشا وزوجها وأولادها الذين ركبوا

هذه الباصات مع الراكبين عندما جاء دور زملكا، التي رمتهم في إدلب وفق التسوية مع الحكومة.

فتح خروج «جيش الإسلام» من دوما الباب أمام العودة إلى دوما المدمَّرة، تكاثرت الوعود الكاذبة بالسماح بعودة السكَّان إليها، لكي يرمِّموا الأبنية التي تركوها. سمحوا بالزيارات للسكَّان، وكانوا يحتجزون الهويات عند حاجز المدخل، ويعطونها للشخص عندما يغادر. حصلت على إذن زيارةٍ لبيتي، ذهبت إلى هناك. شاهدت الدمار في المدينة، وهو دمارٌ لم أشاهده في حرب العام 1973. تدمير المكان فاجعةٌ أخرى أشهدها، وأشهد خراب كلِّ ما عملت من أجله طوال حياتي. عندما وصلت إلى بيتي في منطقة الكورنيش، كانت البناية ما تزال قائمةً ودرجها صالحٌ للاستخدام، وفيها الكثير من الطلقات وآثار القذائف التي أطلقت عليها. كان هذا شكل البناء من الخارج، هذا ما أعطى الانطباع بأنَّ هناك حدٌّ أدنى يمكن الاعتماد عليه لترميم المكان والعودة للسكن فيه، وهو القرار الذي اتخذته منذ سادت إشاعات العودة. فأنا لست قادرًا على دفع أجرة الشقَّة التي نستأجرها، حتَّى لو كنت قادرًا، بات أصحاب البيوت يطلبون الحصول على أجرة عامٍ كاملٍ سلفًا، وأنا لا أملك هذه الإمكانيَّة، لذلك دعوت ربي ليلًا نهارًا أن نعود إلى دوما. عندما وصلت إلى شقَّتي، أذهلني الخراب الذي أصاب الشقَّة، ليس بفعل القصف والاشتباكات المسلَّحة، بل بفعل النهب البشريِّ للبناء. لم يتركوا أيَّ شيءٍ في البيت، لا أقصد الأثاث والأواني والأشياء المتحرِّكة، التي توقَّعت أن تكون قد سُرِقَت خلال الغياب الطويل عن البيت، إنَّما أقصد كلَّ شيءٍ، لم يبقَ في البيت لا بابٌ ولا شبَّاكٌ، ولا أيَّ خزانةٍ من خزانات المطبخ، حتَّى رخام حوض الجلي قد انتزع من مكانه، الإطار الرخاميُّ للشبابيك، المرحاض والمغسلة، والسيراميك الذي كان مثبَّتًا على الجدران انتزع من مكانه، كابلات الكهرباء سُحِبَت من الجدران، عمليًّا لم يترك اللصوص في البيت سوى فجوات القذائف والطلقات وقذارتهم، أمَّا ما

عدا ذلك سُرِقَت بما فيه بلاط أرض البيت. لم أعرف وضع البيت قبل معاينته، فقد قدَّرت أنَّ كلفة الترميم ستكون خفيفةً عليَّ لأنَّها مجرَّد تصليحاتٍ، بعدما رأيته أدركت أنَّ البيت بحاجةٍ إلى إعادة إكساءٍ وليس إصلاحٍ فقط. رغم الكلفة العالية التي يحتاجها البيت، يبقى هذا الحال أفضل وأقلَّ كلفةً من الاستمرار بالسكن في شقَّةٍ مستأجرةٍ، كانت أجرتها عندما بدأت السكن في هذه البيوت تستهلك راتبي كاملًا، وباتت بحاجةٍ إلى ستة أضعاف راتبي حتَّى أستمرَّ بالسكن في البيت، ولا أعرف بعد عامين كم ستكون الأجرة، عداك عن عذاب الانتقال المرهق المكلف من شقَّةٍ إلى أخرى، والبحث المضني عن شقَّةٍ جديدةٍ عند كلِّ انتقالٍ، والخراب الذي نجده في كلِّ شقَّةٍ ننتقل إليها. انتظرنا الموافقة الأمنيَّة للعودة، التي تأخَّرت كثيرًا. وعندما جاءت، بدأنا مباشرةً بترتيب متطلَّبات العودة، فأنا لا أريد البقاء على الوضع ذاته. وجاءت الكلفة الفعليَّة أكبر بكثيرٍ من تلك المقدرة، بسبب فساد الحواجز، ودفع الرشى من أجل تيسير أمور البيت والعمَّال الذين يعملون هناك. المكان لا يصلح للعيش، فلا ماء في شبكة المياه المحطَّمة، ولا تيَّار كهربائيًّا، وكان على السكَّان القلائل الذي عادوا إلى بيوتهم أن يحلُّوا هذه المشكلات، فكان أن اشترى أحد الجيران محرِّكًا كبيرًا لتوليد الكهرباء، لإضاءة البيوت وتشغيل البرَّادات في عددٍ محدودٍ من الساعات، على أن يأخذ مقابل هذا اشتراكًا شهريًّا من العائلات المشتركة معه، ريثما تصلح البلديَّة الخطَّ الرئيسيَّ، وهو شيءٌ لم يحصل، لأنَّ السلطة لا تريد ذلك للمناطق التي تمرَّدت عليها، ولا تريد ذلك للبلد كلِّه، حتَّى إذا أرادت فهي غير قادرةٍ، بسبب الدمار الهائل المنتشر في البلد. وحُلَّت مشكلة المياه جزئيًّا بعد عودة عددٍ جديدٍ من العائلات إلى دوما، إذ عادت طنابر لبيع الماء التي تجرُّها الأحصنة والشاحنات الصغيرة إلى العمل من جديدٍ. لم أستطع ترميم البيت كلِّه، اقتصر الترميم على غرفةٍ وصالةٍ مع الحمام والمطبخ، وأغلقت الغرف الأخرى على حالها بعد تنظيفها من

الأوساخ. وعدت إلى السكن في مساحةٍ أقلَّ من نصف بيتي سابقًا، لقد استنزفني ترميم المنزل ماليًّا، رغم المساعدات التي أتتني. وقد زادت الحواجز العسكريَّة الفاسدة في محيط دوما الكلفة إلى الضعف، فكلَّما أراد أحدنا إدخال مواد بناءٍ أو أشياء يحتاجها في ترميم بيته كان عليه دفع الرشى لهذه الحواجز، التي استنفذتنا ماليًّا أكثر ممَّا نحن مستنزفين.

وأخيرًا، استطعنا أنا وفتحية العودة إلى دوما، واعتقدت أنَّ هذه العودة، ستكون أقلَّ عذابًا من العيش في مدينة دمشق في بيوت الإيجار، لم أرسم صورةً ورديَّةً للعودة، لكنِّي اعتقدت أنَّها أهون الشرور في الظروف التي نعيشها، دون أن أنتبه، أنَّ هذه العودة ستكون العودة إلى مركز الألم الذي أردت الهرب منه. عندما انتهت معركة إعادة ترميم جزءٍ من البيت وعدنا إليه، عرفت أنَّنا لم نعَد إلى بيتنا، بقدر ما عدنا أنا وفتحية إلى الجحيم الذي يحرقنا، نصف بيتنا المدمَّر يذكِّرنا كلَّ يومٍ بمأساتنا، برحلة الذلِّ التي عشناها خارج بيتنا بتنقُّلنا من بيتٍ إلى آخر، يذكِّرنا كلَّ لحظةٍ بأولادنا الذين فقدناهم، نذكرهم في البيت الذي تربَّوا فيه في أعمارهم المختلفة. لا نملك ما نعيش من أجله سوى ذكريات الألم التي لا تغادرنا. عندما أنظر إلى فتحية أرى قهر العالم في عينيها، وأشعر أنَّ قهري الشخصيَّ مجرَّد لعبة أطفالٍ أمام دمارها الشخصيِّ بسبب ما جرى. لم يكن الوضع قابلًا للاحتمال، العودة إلى دوما لم تكن حلًّا، لقد فاقمت المشكلة، والآن المشكلة المتفاقمة بحاجةٍ إلى حلٍّ، ولأنَّ حلول الأرض لم تعد مجديةً، أصبحنا بحاجةٍ إلى حلول السماء، ولأنَّ حلول السماء لا تأتي أيضًا، يبدو أنِّي مضطرٌ لجلب حلِّ السماء بيدي، طالما الله لا يريد أن يفعلها بدلًا عنِّي، لم أجد حلًّا غير هذا، صحيحٌ أنِّي أجَّلته كثيرًا خوفًا من جهنم، لكنِّي لا أعتقد أنَّ عذاب جهنم سيكون أقسى ممَّا أعيش فيه. لذلك لا بُدَّ ممَّا لا بُدَّ منه بُدٌّ.

الفصل الثاني:
اختفاء أبي
(منذر سعد أحمد خليل)

اتصلت أمِّي وقالت: «أبوك طلع من الصبح، وهاي صرنا العصر وبعدُه ما رجع، وما برد على التلفون»، لم أقلق، أصبح من عادة أبي بعد كلِّ المآسي التي عرفها وعرفناها ومرَّت علينا، أن يختفي لبعض الوقت، محاولًا الانفراد بنفسه، وزاد خروجه من المنزل بعد عودته هو وأمِّي إلى دوما بعد أن رمَّم جزءًا من المنزل الذي دمَّرته الحرب، وسرق اللصوص منه ما لم تدمِّره الحرب، ولم يغادر دوما بعد هذه العودة إلَّا نادرًا. اتصلت به مرارًا وتكرارًا على هاتفه المحمول، رنَّ الهاتف ولا جواب. زاد قلقي، ولكن قلت لعلَّه نسي هاتفه هنا أو هناك، وهذا يحدث كثيرًا، وعندما يشاهد هاتفه، سيعرف أنِّي اتصلت به، حينها سيعاود الاتصال بي. حصل هذا الموقف كثيرًا، لعلاقة أبي السيِّئة مع هاتفه المحمول، ينساه هنا أو هناك، أو يحمله وهو فارغٌ من الشحن، لأنَّه نسي أن يشحنه. في ذلك اليوم، طالت غيبته أكثر من المعتاد، فهو ينسى نفسه في شوارع دوما المدمَّرة، أو عند هذا الصديق أو ذاك، لكنَّه لا يقضي الليل خارج المنزل أبدًا، وعادةً يعود إلى المنزل قبل حلول الليل، لأنَّه يعرف خوف أمِّي من العتمة، ولا يرغب في أن يتسبَّب بإزعاجٍ إضافيٍّ لها، فعندها ما يكفيها من الأحزان والآلام المدمِّرة التي

عاشتها. لذلك عندما عاودت أمِّي الاتصال بي ليلًا لتخبرني أنَّ أبي لم يعد إلى البيت، عرفت أنَّ هناك مشكلةٌ، وقلقت عليه، كما لم أقلق من قبل. عاودت الاتصال على هاتفه المحمول مع أنِّي أعرف أنَّ ذلك من غير جدوى، لكن ليس أمامي خيارٌ آخر. وسألت نفسي: أين يمكن أن يكون؟! لم أستطع الانتظار، فأنا لا أستطع ترك أمِّي وحدها في مثل هذه الظروف. خرجت من البيت، بحثت عن تكسي، ولم تكن سيَّارات التكسي تقبل الذهاب إلى دوما في أوقات النهار بسبب الحواجز التي تتعامل بقسوةٍ مع الداخلين والخارجين على مدخل دوما. لم أنجح في الحصول على سيَّارة تكسي، وهذا ما جعلني أتصل بخالي يوسف الذي يسكن بالقرب منِّي في ركن الدين، ليساعدني فيما أنا فيه، فهو يملك سيَّارةً خاصَّةً، يستطيع أن يقلَّني إلى دوما في هذا الوقت، وهو لن يرفض لي هذا الطلب، بحكم العلاقة الخاصَّة التي تربطنا، وبحكم العلاقة التي تربطه ليس بأمِّي فحسب، بل وبأبي أيضًا، الذي طالما عَدَّه واحدًا من أولاده وقد تربَّى خالي معنا في البيت فعلًا. وهو طفلٌ قضى وقتًا عندنا أكثر ممَّا قضى في بيت جدِّي، حتَّى عندما أراد عملًا، أبي من تدبَّر له ذلك العمل في شركة تأمين السيَّارات، وهو العمل الذي ما زال يعمل به إلى اليوم. عندما أخبرته عن الوضع، قال: «خمس دقائق وبكون عندك»، فعلًا لم يتأخَّر، كان عندي خلال دقائق، انتظرته أمام البناية التي أسكن فيها، فلم أكن قادرًا على سماع أسئلة زوجتي الفضوليَّة، التي ليس لديَّ إجابةٌ عليها. عندما وصل يوسف قال: «اطلع» وعندما ركبت السيارة، سألني: «شو صاير؟!»، قلت: «والله يا خالي ما بعرف. كل اللي بعرفُه قلتُه»، قاد السيَّارة مسرعًا باتجاه دوما، أخرجت سيجارةً من علب سجائري، وبدأت أدقُّ بها على صندوق السيَّارة أمامي، ولم أشعلها لأنِّي أعرف أنَّ خالي يوسف لا يحبُّ أن يدخِّن أحدٌ في سيَّارته. وعندما شاهدني على هذه الحالة، قال: «معليش خالي شعِّل سيكارتك»، قلت: «معليش، بأجلها لننزل»، قال: «خلص خال، شعلها ما رح تخرب الدنيا»، منذ شاهدني

أمام بيتي، عرف أن قلقي أكبر ممَّا تصوَّر، وعرف أنَّ الأفكار تذهب بي بعيدًا، فهو لم يكن خالي فحسب، بل وصديق عمري الذي كبرت معه، وهو أكثر من يفهمني، وأقرب الناس إليَّ، ليس في عائلتي الصغيرة فحسب، بل في العالم كلِّه أيضًا. منذ كنَّا أطفالًا، فعلنا كلَّ شيءٍ معًا الجيِّد والسيِّئ، وشكَّلنا ذاكرتنا معًا. بعد قليلٍ من الصمت، سألني: «شو بتعتقد صاير معُه؟» عندما داهمني سؤاله، كنت أتأمَّل حزمتي الضوء المنطلقتين من السيَّارة أمامنا والساقطتين على الإسفلت الأسود الذي أظهر السيَّارة كأنَّها تبتلع الضوء الذي أمامها، في تلك الليلة التي كانت الكهرباء مقطوعةً في المدينة مثل كلِّ ليلةٍ. فكَّرت قليلًا بسؤاله، لم أجد عندي أيَّ تقديرٍ لما يكون قد حصل مع أبي، أو حصل له. أجبت: «والله ما بعرف يا خالي. حاسس تفكيري مشلول»، قال: «طوِّل بالك، الله كريم، إن شاء الله يكون اللي صار خير»، وساد صمتٌ ثقيلٌ في السيَّارة، ولم نعد نسمع سوى صوت المحرِّك، حتَّى أنَّ يوسف لم يشغِّل الراديو أو آلة التسجيل في السيَّارة مثلما يحدث عادةً. عند حاجز مدخل دوما، وجدت نفسي غير قادرٍ على مجادلة عساكر الحاجز، فتركت المهمَّة لخالي يوسف، الذي عاد مع عسكريٍّ بعد قليلٍ ليفتِّش السيَّارة، ويتأكَّد من هويتي، أعطيته هويتي من شبَّاك السيَّارة، وكان خالي قد منحة رشوةً وهو قادمٌ باتجاهنا، فتح صندوق السيَّارة ونظر بلا مبالاةٍ، وأغلقه وقال: «الله معكم».

وصلنا دوما بعد منتصف الليل. وجدنا أمِّي في غاية القلق، سألتها: «صار شي بينك وبين أبوي؟ خلَّاه يطلع زعلان»، قالت: «ولك ابني شو بدُه يصير بيني وبين أبوك، ما صار شي، هذا اليوم مثل أي يوم ثاني»، سألتها: «طيب، أبوي وين بروح، بس يطلع من البيت؟»، قالت: «والله ما بعرف، بقلِّي شاف فلان، وشاف علَّان، بس ما بقلي وين شافهم، وأنا ما بسألُه. عادةً بروح جنب المكتب، أنت بتعرف أنُه البناية هناك وقعت، بس بظل يروح لهناك، إلا يلاقى حدا من الجيران، بقعد هناك معهم، بتسايروا

وبرجع. وإذا ما في حدا، بظل يمشي بدوما، وإذا لاقى حدا بعرفُه، بوقف معُه شوية»، لم تكن هذه المعلومات مفيدةً، ولم يكن الوضع ليلًا يسمح بالخروج للبحث عنه، وليس من المفيد إخبار الشرطة التي لا تعمل في دوما، لأنَّها ببساطةٍ غير موجودةٍ، ولن يكلِّف أحدٌ نفسه عناء البحث عن أبي في ظلِّ الفوضى التي تعيشها البلد. لم يكن أمامنا سوى الانتظار حتَّى الصباح. طلبت من أمِّي أن ترتاح في سريرها، وأوصلتها إليه، قبَّلت يدها ورأسها وهي تقول: «الله يرضى عليك ويخليلك ولادك»، كنت أعرف أنَّها لن تستطيع النوم. طلبت من يوسف أن يرتاح أيضًا، ألقى بنفسه على الصوفا المقابلة للصوفا التي استلقيت عليها في صالة البيت الذي أُعِيدُ ترميمه قدر المستطاع. طلبت منه أن يغفو، وحاولت بدوري أن أغفو، لم أستطع. فكَّرت كثيرًا بأسئلةٍ من نوع: أين ذهب أبي؟ ولماذا لم يعد؟ ولماذا لا يردُّ على هاتفه؟ لم أجد أيَّ إجابةٍ أو توقُّعٍ، وما زاد الطين بلَّةً أنَّ حركة أبي في دوما كانت مجهولةً بالنسبة إلينا، ولم أقدِّر أيَّ أشخاص كان يقابل، وأيَّ أشخاص سنسأل عنه في الصباح؟ لم يعرف يوسف النوم مثلي، حاولنا التفكير معًا، بما يمكن أن نفعله في الصباح، وأين يمكن أن يكون أبي، وأين يمكن أن نبحث عنه؟ لم يكن لدينا أيُّ فكرةٍ أو أيَّ خططٍ. أنا ويوسف عشنا كلَّ حياتنا في دوما، ونعرفها عن ظهر قلب، قديمها وجديدها وعشوائيَّاتها، وما كنَّا نعرفه قد تغيَّر بعد خروجنا منها لسنوات. غيَّرت الحرب جغرافيا المدينة، عندما زرتها أوَّل مرَّةٍ بعد خروج «جيش الإسلام» منها، لم أتعرَّف على معالم المدينة، هناك أحياءٌ كاملةٌ اختفت تحت ركامها بفعل القصف، وهنا شوارع أُغلِقَت، لم تكن دوما التي زرتها، هي دوما التي خرجت منها قبل حوالي ست سنواتٍ.

في صباح اليوم التالي، جلت مبكرًا على شوارع دوما، أسأل عنه المارَّة الذين وجدوا في الشوارع، إذا كان أحدٌ قد شاهد أبا منذر، وعندما يسألون من أبو منذر؟ كنت أقول أبو منذر الفلسطينيُّ، وهكذا عُرف أبي بين أهالي

دوما، وكان يملك مكتبًا للمساحة في وسط البلد، وقد اشتغل للكثيرين من أهالي دوما أراضيهم، مساحةً وتقسيمًا، وساعدته في الكثير من الحالات عندما بدأت العمل معه في المكتب. انقسمت إجابات الذين قابلناهم في الصباح الباكر، إلى إجابتين: «ما بنعرفُه»، أو «ما شفناه»، وأحاول الشرح لمن لا يعرفه، عن رجلٍ سبعينيٍّ نحيفٍ وطويلٍ، وله بنيةٌ جيِّدةٌ، أسمر البشرة، بعينين كبيرتين... حتَّى بعد هذا الشرح، كنت أسمع الإجابة ذاتها. اتصلت بكلِّ معارفي الذين أعتقد أنَّهم ما زالوا في دوما، دون معرفة أيِّ أثرٍ لأبي. عدنا إلى الاتصال برقم هاتفه، هناك رنين، لم يرد. وفي عصر ذلك اليوم، أصبح هاتفه مقفلًا، عندما نتصل به يقول المجيب الآلي «أنَّ الرقم المطلوب مقفل، أو خارج نطاق التغطية».

لم أترك مكانًا في دوما أو غيرها إلَّا وبحثت عنه، ولم أترك أحدًا أعرفه أو يمكن أن يعرف شيئًا عنه، لم أسأله. وعندما أعيتني الحيلة، أَبلَغتُ الشرطة، التي لم تفعل شيئًا سوى كتابة محضرٍ بالواقعة. كلُّ ما فعلته كان بلا جدوى، اختفى أبي دون أن يترك أثرًا.

لم أصدِّق اختفاء أبي بهذه الطريقة، ولم أصدِّق أنَّه اختفى بإرادته، وكنت متأكِّدًا أنِّي سأقابله من جديدٍ، فالرجل الذي احتمل ما مرَّ به من مآسٍ لا يمكن أن يختفي بهذه الطريقة الغامضة. صحيحٌ أنَّ الناس تختفي لعشرات الأسباب في هذا البلد بعد انفجاره، وعلى رأس الأسباب، اعتقالهم ونسيانهم يتعفَّنون أو يُقتَلون في السجون. وهناك من يُخطَفُون من أجل الحصول على فديةٍ من أهالي المخطوفين. كان أبي واحدًا من عشرات آلاف المفقودين في البلد، الذين لا يبحث أحدٌ عنهم، وأغلبهم اختفوا لأنَّ أجهزة المخابرات اعتقلتهم. ولم أستبعد أن يكون قد اعتُقِلَ لسببٍ ما، أو دون سببٍ مثلما حصل للآلاف، رغم أنَّه طوال سنوات الصراع في البلد، تجنَّب أن يُعبِّر عن موقفٍ ممَّا يجري في البلد، وكلَّما جاء الحديث عن الاحتجاجات، يقول: «الله يفرِّج»، قرَّر أن يكون حياديًّا تجاه ما يجري على المستوى

اللفظيِّ على الأقل، لأنَّه اعتقد أنَّنا أمام «سلطة مجرمين وقتلة»، كما قال قبل انفجار الاحتجاجات في البلد بوقتٍ طويلٍ.

أبي الحذر في أواخر حياته، لا يشبه أبي المندفع في مطلع حياته، وبين هذا وذاك مرَّ أكثر من خمسين عامًا تُغيِّر الصخر. لم أتعامل معه يومًا، كأبٍ فقط، بل وتعاملت معه كمثلٍ أعلى. طبعًا، هذا لا يعني أنَّه رجلٌ بلا أخطاء، بل كان مثالًا بالنسبة لي لاعتداده بنفسه واعتماده عليها، ما أبقاه مستقلًّا طوال حياته. وهذا ما جعله طاغيًا على حياتي ومتحكِّمًا فيها. لم أكن أخافه، بقدر ما كنت أحترمه، لدرجة أنِّي لم أستطع التدخين أمامه في أيِّ يومٍ من الأيَّام، لم يمنعني من ذلك، على العكس تمامًا، قال لي: «دخن زي ما بدك»، رغم أنَّه لم يدخِّن طيلة حياته، لم أكن قادرًا على فعل ذلك، ولا أعرف لماذا كنت أشعر أنَّ التدخين أمامه إهانةً له، مع أنَّه لم يَعدَّها كذلك.

روت لي أمي، أنِّي عندما وُلِدتُ في مخيَّم اليرموك، وأنا الولد الوحيد من إخوتي الذي وُلِدتُ هناك، كان أبي فدائيًّا في حركة فتح، يعمل مدرِّبًا في معسكر الهامة التابع للحركة، وأنَّه أصيب في بطنه خلال قصف الطيران الإسرائيليِّ للمعسكر إصابةً بليغةً قبل ولادتي بخمسة أشهر. حفَّزته ولادتي على تغيير حياته، وكان خلافه مع أهله، قد جعله يغادر المخيَّم، كان يؤدِّي خدمته العسكريَّة وقتها، وهذا ما أبعده عن المخيَّم والقضايا المتعلِّقة به. ولأنَّه لا هرب من القدر، كان عليه أن يخوض حرب العام 1973 وهو ضابطٌ مجنَّدٌ في القوَّات المسلَّحة السوريَّة، وقد حاز وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى لبطولته في الحرب. بقي الوسام معلَّقًا على الجدار في صالة بيت أهلي، يذكِّرنا أنَّنا ننتمي إلى بطلٍ يحمل وسامًا لأنَّه خاض حربًا، حتَّى رحلنا من دوما، بسبب سوء الأوضاع الأمنيَّة، وكانت وجهتنا المخيَّم.

طبعًا، لا أذكر حياتي في المخيَّم، أو في الزبداني التي عمل فيها أبي قبل التحاقه بالخدمة العسكريَّة، وعيت نفسي طفلًا في دوما، قضيت الكثير من الوقت في بيت جدِّي لأمِّي، الذي كان قريبًا من بيتنا في البداية، أذكر نفسي

دائمًا برفقة خالي يوسف الذي وُلِدَ في العام ذاته الذي وُلِدَت فيه، وكبرنا معًا في المدرسة وفي الشارع. الكثير من أهالي دوما اعتقدوا أنَّنا توأم. في طفولتي الأولى لم نسكن في دوما وسط أهلها، بل سكنَّا في طرفها، حيث هناك تجمُّع للفلسطينيِّين وبعض القادمين من المحافظات الأخرى، أيُّ تجمُّعٍ هامشيٍّ، يَشعرُ أهالي دوما بالضيق منه، لأنَّهم عدُّوا نسائه سافراتٍ، وأنَّ هذا السفور سوف يصيب نساء دوما بالعدوى، اللواتي يخرجن من البيت مجلَّلين بالسواد، ولا يستطيع المرء أن يشاهد وجه أيَّ واحدةٍ منهن، لأنَّ وجوههن كانت مغطَّاةً بملايةٍ سميكةٍ، والكثير من رجال دوما لا يعرفون من التي تسير في الشارع، سواءٌ كانت أختًا أو زوجةً أو أمًّا لهم، والقلائل منهم كانوا يميِّزون قريباتهم من مشيتهنَّ، ولكن هذا ليس أكيدًا، إنَّه مجرَّد تخمينٍ. أمَّا التجمُّع على هامش دوما، فلم تكن أيٌّ من النساء فيه تغطِّي وجهها، والكثير منهن يسرن سافراتٍ يلبسن الجينز والقمصان الخفيفة، وهذا ما كان يستفزُّ أهالي دوما الأكثر محافظةً، بينما يجد تشجيعًا من القليل من الرجال، الذين يريدون كسر الانغلاق الذي تعيشه دوما، والذي لا يتناسب مع موقع دوما المهمِّ، بوصفها مركز الغوطة الشرقيَّة. أعجب هذا الهامش نساء دوما اللواتي أردن كسر هذه التقاليد، والخروج من العباءة السوداء التي تلغيهنَّ بالمطلق. وكذلك الذين يعيشون في المناطق الهامشيَّة، يشعرون بالاستفزاز من أهالي دوما، الذين يعاملونهم باحتقار ويعدُّونهم أقلُّ منهم قيمةً أو متطفِّلين على دوما، ويعيِّرونهم بنسائهم السافرات، وهو ما وصل في بعض الأحيان إلى الشجار الجماعي بين الطرفين.

في دوما عشت بين هذين العالمين المتناقضين، كان فيها مدرسةٌ تابعةٌ للأونروا، يسجِّل الفلسطينيُّون فيها أولادهم، هناك تجمُّعٌ يسمح للأونروا بفتح مدرسةٍ خاصَّةٍ بالفلسطينيِّين، مثل بعض الأماكن الأخرى في دمشق، دمَّر البلد، وجوبر، وغيرها، وهذه الأماكن لم تكن مخيماتٍ، لكن فيها تجمُّعٌ فلسطينيٌّ كبيرٌ. لم أدرس في تلك المدرسة، لا أعرف لماذا سجَّلني أبي في

المدارس الحكوميَّة، لم أعرف سبب قيامه بذلك، فقد كانت مدرسة الأونروا أقرب إلى بيتنا من المدرسة الحكوميَّة، وبعد سنواتٍ طويلةٍ، عندما سألته: «ليش ما سجَّلتني بمدرسة الوكالة؟»، أجاب: «التدريس بمدارس الدولة كان أحسن»، طبعًا كانت حجَّةً واهيةً، لأنَّ الجميع يقرُّ أنَّ مدارس الأونروا هي الأفضل، وأنَّ الكثير من أهالي دوما حاولوا عبر الوساطات أن يسجِّلوا أولادهم فيها لجودة تعليمها، وهناك من نجح وهناك من فشل. لم تكن حجَّة أبي صحيحةً، قالها كيفما اتفق، لكيلا يقول السبب الحقيقيَّ الذي أدركته في حياتي متأخِّرًا. يبدو أنَّ أبي اتخذ قراره بأن أدرس في المدارس الحكوميَّة، بعد قراره بالاستقرار نهائيًّا في دوما، ولا يريد أن يعود للسكن في المخيَّم. ولأنَّه قرَّر ذلك، أراد أن يكون جزءًا من قلب دوما، ولن يعيش على هامشها. حتَّى نكون جزءًا منها إلى حدٍّ ما، كان علينا ألَّا نستمر بالعيش في هامش المكان، بل علينا العيش في مركزه. لذلك ترافق تسجيلي في المدرسة الحكوميَّة للصف الأوَّل مع شراء أبي لشقَّةٍ على المخطَّط في مجموعة بناياتٍ كانت ستُبنى عند مدخل دوما الرئيسيِّ، وهي ستكون بيتنا بعد عامين، وستصبح مدرستي قريبةً إلى بيتنا. ذهابي إلى المدرسة الحكوميَّة لم يقطع صلتي مع مدرسة الأونروا، لأنَّ جدِّي على عكس أبي، أصرَّ على تسجيل يوسف في مدرسة الأونروا. وبذلك كنت وسيطًا بين يوسف ووسطي الدوماني في المدرسة، وكان هو وسيطًا بيني وبين وسطه الفلسطينيِّ في مدرسة الأونروا، وبذلك جمعنا العالمين من خلال علاقاتنا التي اختلطت مع بعضها، والتي عادت للتوحُّد في المرحلة الثانويَّة، لأنَّ مدارس الأونروا كانت تغطِّي دارسة الطلاب الفلسطينيِّين حتَّى نهاية المرحلة الإعداديَّة فقط، وبعد ذلك عليهم الذهاب إلى المدارس الحكوميَّة. في البداية شعرت بغربةٍ في المدرسة، كانت لهجة الأطفال في الصفِّ والمدرسة غريبةً عنِّي، ولهجتي غريبةً عنهم. لطالما سألني أصدقائي وزملائي في المدرسة لماذا أتكلَّم بهذه الطريقة، لم أخجل في الإجابة أنَّني فلسطينيٌّ، مع تكرار السؤال، أصبحت

أشعر بالملل والضيق منهم، ولم أعد أجيب عليه، وبحكم قضائي وقتًا طويلًا في المدرسة، وبناءً على ما أقمته من صداقاتٍ مع أبناء دوما الأصليِّين، بدأت لهجة دوما تطغى على كلامي في المدرسة، وبعد أقلَّ من عامين من الدراسة في المرحلة الابتدائيَّة، بدأت أتكلَّم معهم بلهجتهم، ولا أحد يستطيع أن يعرف أنِّي لست من أهالي دوما أبًّا عن جدٍ. والمفارقة أنِّي لم أتخلَّ عن لهجتي الفلسطينيَّة، وأصبحت أتحدَّث باللهجتين، وأتنقل بينهما بسهولةٍ. في بيتنا وبيت جدِّي وأصدقائي الفلسطينيِّين أستخدم اللهجة الفلسطينيَّة عندما أتحدَّث في المدرسة ومع أصدقائي من أهالي دوما وفي محلَّات دوما، عندما أريد شراء شيءٍ ما أستخدم اللهجة الدومانيَّة. عندما سمعني أبي أتكلَّم باللهجة الدومانيَّة أوَّل مرَّةٍ أصيب بالدهشة، كنت طفلًا في الصف الخامس عندما التقيت مع أصدقائي من أهالي دوما وأنا برفقته في السوق. تكلَّمت مع أصدقائي، ونظر أبي إليَّ بدهشةٍ، ابتسم وأمسك ضحكته بصعوبةٍ. أربكتني نظرات أبي وأنا أتحدَّث مع أصدقائي، شعرت أنَّه سعيدٌ بسماع لهجتي، لذلك تركني أتكلَّم دون أن يستعجلني كعادته. وبعد أن غادر أصدقائي، قال أبي: «والله مانك قليل، بتحكي دوماني مثلهم. من إيمتى؟»، قلت: «بابا خجَّلتني، وما خلتني أعرف أحكي. من زمان بحكي هيك، بس بالبيت وعند بيت جدِّي بحكي متلكم»، ضحك أبي ولم تفارقه الدهشة في ذلك اليوم، وقد روى لأمِّي اكتشافه. لا أعرف ما الذي أدهشه، كنت أعدُّ حالتي طبيعيَّةً، لم أسعَ لإخفاء لهجتي الفلسطينيَّة، ولم تكن تزعجني في المدرسة، سألوا في البداية، وبعد ذلك أصبحت عاديَّةً على الطلاب، لكنِّي وجدت نفسي ابن المكان، فصرت أحكي مثلهم، وبقيت هذه حالي حتَّى اليوم، عندما أكون في وسطٍ فلسطينيٍّ أتكلَّم لهجته، وعندما أكون في وسطٍ دومانيٍّ أتحدَّث لهجته. يبدو استغراب أبي أتى من عدم تأثُّره باللهجة الدومانيَّة ولا بكلمةٍ واحدةٍ. فقد قضى جلَّ حياته في دوما، لم تغزُ لهجته ولا كلمةً دومانيَّةً. حتَّى أنَّ لهجته الفلسطينيَّة كانت في غاية

الوضوح، ما جعل معارفه من أهالي دوما يطلقون عليه لقب «الفلسطيني» وبقيت لهجته ذاتها طوال الوقت.

لم أشعر يومًا بالغربة في دوما، شعرت أنَّها مكاني الطبيعيَّ دائمًا، هذا لا يعني أنِّي لم أقابل منغِّصاتٍ، كان تذكير البعض لي بفلسطينيَّتي مزعجًا، لكنِّي عدَدتُه إزعاجًا طبيعيًّا مثل الإزعاج الذي يمارسونه ضدَّ بعضهم، وهذا ما كانوا يزعجوني به، مثلما كنت أزعجهم بفلاحيَّتهم، ويزعجون بعضهم بالتقليل من شأن بعضهم البعض. وجدت نفسي في مكاني الطبيعيِّ سواءً في دوما أو في التجمُّع الفلسطينيِّ الذي يعيش على هامشها، لكن عندما أذهب إلى مخيَّم اليرموك أشعر بغربةٍ، ولا أشعر بالانتماء إلى المكان، رغم أنَّه المكان الذي وُلِدتُ فيه. كلَّما ذهبت إلى المخيَّم مع أهلي، وقضيت بعض الوقت هناك أشعر أنِّي مشدودٌ إلى دوما المكان والأصدقاء الذين أحبُّهم.

عرفت دوما التي تختفي خلف محافظتها وتديُّنها، لم يكن أبي متديِّنًا بالمعنى الصارم للكلمة، تديُّنه «سكر خفيف»، مثلما كان يقول جدِّي أبو أمِّي، وهذا النوع من التديُّن لا يقنع أهالي دوما، لم يكسب أبي احترامه في دوما من تديُّنه، وهي صفةٌ كان أهالي دوما يحترمون أصحابها، بل كسب احترامه من استقامته وصدقة في العمل.

لمدينة دوما وجهها الآخر، فلا يمكن العيش في ظلِّ هذا التشدُّد، سوى على مستوى الشكل. أمَّا الحياة نفسها، الحياة الحقيقيَّة، فلها طرقٌ تتسرَّب للمكان من العلاقات الخلفيَّة، وهذه الحياة لم يكن لي الحظُّ بمعرفتها، لو لم يكن لي علاقات صداقةٍ قويَّةٍ مع أشخاص من جيلي من أهالي دوما، كبرت معهم في المدرسة. كبرت وأنا أعيش في العالمين دون تناقضٍ، منغمسًا فيهما بكليَّتي. عشت ابن المجموعة الفلسطينيَّة في دوما، وكواحدٍ من أهالي دوما التاريخيِّين. كما أحببت فريال ابنة التجمُّع الفلسطينيِّ في مراهقتي، أحببت كذلك خلود ابنة دوما في شبابي، وكما ساعدني أصدقائي الفلسطينيُّون في

الوصول إلى فريال، ساعدني أصدقائي من أهالي دوما في الوصول إلى خلود، التي أشعلت قلبي كما لم تشعله امرأةٌ أخرى، لا قبلها ولا بعدها.

كانت فريال فتاةً جميلةً وخجولةً، تسكن بالقرب من بيت جدِّي، اكتشفتها في الرابعة عشرة من عمري، مع أنَّها في الحارة منذ زمن، أراها منذ كنَّا أطفالًا صغارًا، لكن في الثالثة عشرة من عمرها، بدت فتاةً أخرى، وكأنِّي أراها لأوَّل مرَّةٍ، فجأةً شاهدتها وقد نمت أنوثتها التي ظهرت على صدرها وتكوَّر حوضها، وتحوَّلت إلى فتاةٍ كاملةٍ المعالم، في الوقت الذي كانت تلعب معنا كطفلٍ يشبهنا تمامًا قبل سنواتٍ قليلةٍ. كتبت لها الرسائل التي أوصلها خالي يوسف، وأتى لي بالردود منها، وكانت الرسالة الأحبُّ إلى قلبي والتي همت بها، وقرأتها آلاف المرَّات لأنَّ يدها هي التي كتبتها ومرَّت عليها. لم أستطيع الابتعاد عنها، وكنت أذهب كلَّ يومٍ إلى بيت جدِّي حتَّى أكون بالقرب منها، ولأنَّها تعيش في الحارة التالية لحارة بيت جدِّي، كنت ألعب مع خالي أو أحد الأصدقاء هناك لعلِّي أحظى بنظرةٍ وابتسامةٍ منها، ويبدو وجودي الطويل وغير المألوف في الحارة، لفت انتباه أولاد الحارة إلى أنَّ وجودي غير بريءٍ، وصادف أنَّ أحد الأولاد واقعٌ مثلي في حبِّ فريال، كان أوَّل المنتبهين، فلم يلبث أن جمع أصدقاءه من أولاد الحارة، واستفردوا بي وأوسعوني ضربًا. لم أسكت، جمعت أصدقائي، وتربَّصت به وبغيره من الذين ضربوني، وأوسعناهم ضربًا انتقامًا لما فعلوه بي. بهذا الفعل لم أعد أستطيع الدخول إلى حارتها. تدبَّر خالي يوسف توصيل رسالةٍ لها عن طريق حبيبته، وقد تدبَّرت حبيبته الجريئة لقاءً لنا، وفي الموعد المحدَّد، كنَّا نسير خلفهم باتجاه الأبنية الجديدة على أطراف دوما، بعيدًا عن التجمُّع هناك. ما إن ابتعدنا، واقتربنا منهم، جاءت حبيبة يوسف مقبلةً وسعيدةً باللقاء، بينما فريال خجولةٌ وخائفةٌ تتلعثم بكلامها، مستعجلةً تريد أن تعود فورًا، غير قادرةٍ على النظر إليَّ. بقيتْ في حالة توتُّرٍ شديدٍ، تستعجل المغادرة، لم تسمح لي بلمسها، أو حتَّى بمسك يدها كما فعل خالي

يوسف مع حبيبته. وبقيت على حالها طوال اللقاء. وعندما افترقنا كانت ترتجف من الخوف، هذا الخوف الذي منعها من مقابلتي مرَّةً أخرى، رغم إلحاحي في الرسائل التالية التي أرسلتها لها. أصابني رفضها المستمرُّ للقاء بالملل، وسرعان ما أقلعت عن التفكير فيها، لأنَّني أدركت أنَّها لن تكون في متناول اليد، وخوفها الشديد سيمنعها من التصرُّف كما يجب أن تتصرَّف في علاقةٍ لها طابع المغامرة الخطرة في ذلك الوقت.

مع خلود التجربة مختلفةٌ تمامًا، فهي فتاةٌ من دوما القديمة، كانت تسكن بالقرب من المقبرة القديمة، أي من أكثر عائلات دوما تشدُّدًا، عندما شاهدتها لأوَّل مرَّةٍ بحجابها وبعينيها اللوزيتين الشبيهتين بالعيون الصينيَّة، لم أعد قادرًا على التفكير بغيرها، باتت ترافقني في تخيُّلاتٍ لا تنتهي في الحصص الدراسيَّة، وفي الطريق أبحث عنها طوال الوقت، وفي الليل أحلم بها، بتُّ مجنونًا بها. كنت في الصفِّ التاسع، ومدرستي بالقرب من مدرستها، وكلَّما خرجنا من المدرسة أبحث عنها، أحيانًا أنجح في العثور عليها وتأمَّلها بحذرٍ دون أن ينتبه أحد، وأكون في غاية الفرح. أكثر الأحيان لا أحظى بفرصة مشاهدتها، وهذا ما يسبِّب لي الضيق والحزن. لا أعرف كيف انتبهت إليَّ، وكأنَّ أحدٌ ما نبَّهها لوجودي، ولفت انتباهها إلى أنِّي أنظر إليها فبادلتني النظرات. وعندها لم أعد أفكِّر سوى في كيفيَّة الوصول إليها، سواءً برسالةٍ أرميها في الطريق فتلتقطها، أو بكلامٍ مباشرٍ معها، ولم أجد لهذه ولا لتلك طريقةً مناسبةً مع خلود، كانت ابنة عائلةٍ دومانيَّةٍ، أي لا صلاتٍ بيني وبين العائلة التي تنتمي لها سوى أصدقاء المدرسة. تبعتها مرَّاتٍ عدَّةً من بعيدٍ، وعرفت أنَّها تسكن في المباني الواقعة إلى جانب المقبرة القديمة، وهذا ما زاد الوضع إرباكًا، أي أن الجلوس في المقبرة خلف بيتهم في الليل أو في النهار يلفت الانتباه، رغم ذلك كثيرًا ما ذهبت إلى هناك لأكون إلى جانبها، رغم أنَّها لا تعرف. بقيت حائرًا بكيفيَّة الوصول إليها، حتَّى انتبه مصطفى صديقي في الصفِّ إلى حالي، وهو أقرب صديقٍ لي بين

الجميع، سألني عندما شاهدني أنظر إلى الفتاة خلسةً: «منذر حاطط عينك على البنت»، قلت: «أعوذ بالله، عيب هذا الحكي»، ابتسم وسكت على الموضوع. وعندما ضبطني مرَّةً أخرى أنظر إليها، لم يقل شيئًا، نظر إليَّ، ابتسم وهزَّ رأسه في الاتجاهين بسخريةٍ، ولم يقل شيئًا. وأصبح كلَّما ضبطني بهذا الوضع يضحك عليَّ، وأنا أصرُّ على النكران وأنا في غاية الخجل. بعد مرَّاتٍ عدَّةٍ، وجدت نفسي مستسلمًا، عندما ضحك قلت: «خلص مصطفى، ما تزيدها علي»، قال: «شو مالك؟»، قلت: «بحبها، أي بحبها، مش عارف أنام الليل»، عاد إلى الضحك، وقال: «سألتك، وقلت مش صحيح»، قلت: «منشان الله خلص»، قال: «خلص ولا يهمك. اكتب رسالة إلها»، قلت: «شو بتقول؟»، كرَّر: «اكتب رسالة إلها»، قلت: «مين رح يوصِّلها؟!»، قال: «اكتب، وخلص»، سمعت كلامه وفعلت، وأعطيته الرسالة. لم أكن أعرف أنَّه يحبُّ صديقتها، التي هي جارتهم في البناء في الوقت ذاته. فرحت لمساعدته، ولم تكن مساعدته لي لأنِّي صديقه المقرَّب فقط، بل أراد شريكًا له فيما يرتكب من أفعال المغامرة والحبِّ أيضًا. وكنت أفضِّل من يحتل هذا الدور، فهو يعرفني كأفضل كاتم أسرارٍ. كتبت الرسالة، وقد أخذتها حبيبته وأوصلتها لخلود، وأتاني الردُّ، بمثل ما كتبت من عبارات الحبِّ الطفوليَّة. وكنَّا محظوظين أنا ومصطفى، حيث تبدأ أسماؤنا بحرف الميم، أن يأتي موقع تقديم الشهادة الإعدادية لنا، في بلدة حرستا القريبة من دوما، وكذلك خلود وعفاف حبيبته، جاء مكان تقديمهما امتحاناتهما هناك أيضًا. ما جعل أيَّام امتحان الشهادة الإعداديَّة أجمل أيَّام حياتنا أنا ومصطفى وتمنَّينا أن تمتدَّ هذه الامتحانات للأبد، على عكس بقيَّة الطلَّاب الذين استعجلوا انتهاء الامتحانات. قابلنا خلود وعفاف في كلِّ يوم امتحانٍ، وقضينا بعض الوقت نتمشَّى بعد الانتهاء منه، وقبل عودتنا إلى دوما. وهناك امتلكنا الجرأة لأن نمشي معًا في الشوارع الجانبيَّة، لأنَّ إمكانيَّة أن يرانا أحدٌ يعرف البنتين قليلةٌ، ولو حدث مثل ذلك، فهناك مبرِّرٌ لوجودنا في البلدة، إنَّها الامتحانات

التي تشرعن الممنوع. لم تكن خلود مجرَّد امرأةٍ مرَّت في حياتي، إنَّما هي المرأة التي تركت الأثر الأكبر في تجربتي، فتاةٌ فعلت كلَّ ما تستطيع من أجل أن تقابلني. ولم أكن قادرًا على التوقُّف عن رؤيتها بعد انتهاء الامتحانات، ولكن في العطلة الصيفيَّة عليها أن تنتظر في البيت، لم يكن هناك من حجَّةٍ تخرج فيها، فكانت تذهب إلى صديقتها وجارتها، التي عادةً ما تقضي عندها وقتًا طويلًا، كان أهلها يسمحون لها بالبقاء عند الجيران، الذين ليس عندهم سوى ثلاث بناتٍ وأمِّهم وأبوهم طيلة النهار خارج البيت. كانت خلود تذهب إلى صديقتها، تغيِّر من شكل مؤخِّرتها، ومن شكل صدرها بتدعيم المنطقتين بمزيدٍ من القماش وتلبس الملاية وتغطِّي وجهها، وتغيِّر مشيتها، وتخرج من البناية على أنَّها امرأةٌ أخرى، وأقابلها، إمَّا في بيت جدِّي، في غرفة خالي يوسف الجانبيَّة، وإمَّا نذهب إلى حرستا البلدة المجاورة. كنت أرغب في البقاء مع خلود كلَّ حياتي، لكنَّ هذا الحبَّ الجميل لمراهقين لم يكتمل. بقينا معًا في حالة حبٍّ ساحرةٍ، حتَّى الصف الحادي عشر، عندما جاءت خلود إلى غرفة يوسف بخبرٍ ساحقٍ، لقد جاءها عريس وهو ابن عمِّها، وأهلها موافقون على هذا الزواج وسوف تترك المدرسة. أربكني الخبر، ولم أعرف ما أقول. سألتني: «شو رح نعمل؟»، لم يكن عندي جوابٌ، بقيت صامتًا، تحت هول الصدمة. لم أصدِّق أنِّي سأخسر خلود، وأنَّها ستذهب إلى رجلٍ آخر. عادت وسألت «شو رح نعمل؟»، قلت: «والله ما بعرف، أنا مش مصدِّق، ليش هيك بصير معنا؟!»، قالت: «تعال نهرب من دوما، ونروح على أي محل ثاني ونتجوَّز»، صدمني كلامها الذي قالته بكلِّ جديَّةٍ. «نهرب ونتزوج؟!» تساءلت، وُلِدتَ عندي رغبةٌ عارمةٌ بالموافقة على الاقتراح، وأن أمسك يدها ونركض هاربين إلى نهاية العالم. لم أتخيَّل حياتي دونها، والهرب هو الحلُّ الوحيد، ولا يمكن الردُّ على هذا الوضع إلَّا بهذه الطريقة الجنونيَّة. أجبت على تساؤلي «نعم نهرب، لازم نهرب..»، للحظات، تخيَّلت أيَّ أذًى يمكن أن يلحق بخلود إذا نفَّذنا ما نفكِّر فيه وهربنا، لم أكن

قادرًا على تحمُّل فكرة أنَّ خلود يمكن أن يصيبها الأذى، وبسببي، إذا هربنا واستطاع أهلها إيجادنا، لم أفكِّر أبدًا في الأذى الذي يمكن أن يصيبني، كلُّ ما فكَّرت فيه، الأذى الذي يمكن أن يلحق بها، فوجدت أنِّي غير قادرٍ على تحمُّل ذلك، فاستدركت: «وين رح نروح، وأنت بتعرفي إذا أهلك قدروا يلقطونا شو رح يصير فيكي»، قالت: «ما بهمني، يصير شو ما يصير، يقتلوني ما بهمني»، أخافني كلامها أكثر، وخفت عليها أكثر، فهي مستعدةٌ لأن تخاطر بحياتها لتبقى معي. لم أكن قادرًا على تحمُّل هذه التضحية، ولم أشعر نفسي قادرًا على حمايتها من الأخطار التي يمكن أن يتسبَّب بها هربنا. لم أقبل أن أتسبَّب بأيِّ أذى لخلود، فقلت: «خلود، أنا مو بس بحبك، أنا بعبدك، وما بقدر أتخيَّل حياتي من دونك. بس ما بقدر أعمل هيك، ما بقدر أحطِّك بشي خطر عليكي»، كنت أقول كلماتي بقلبٍ دامٍ، لم أتخيَّل أنِّي يمكن أن أتخلَّى عنها. قالت: «منذر، أنت مش فاهم، أنا ميتة، ميتة، هذا الزواج موت إلي، بفضل أموت وأنا هربانة معك، على إنِّي أموت بتخت حدا غيرك»، حطَّمني كلامها، ولم أجد الكلمات للردِّ عليها، كانت محقَّةً بكلِّ كلمةٍ قالتها، وهذا جعلها تحطِّم قلبي وتأخذه معها إلى الأبد، وشعرت كم أنا جبانٌ، وكم هي شجاعةٌ، ومستعدَّةٌ للموت من أجل حبِّها. كنت كلَّما تكلَّمت من أجل حمايتها من الأذى أشعر أنِّي أسلمها قلبي أكثر، وأشعر بالعجز عن حماية الفتاة التي أحبُّ. كنت مشلولًا ومحطَّم القلب وخائفًا على حبِّي، لم أستطع فعل ما طلبته منِّي، لم أستطع من أجلها. بكت، وبكيت، حضنتها وبكينا معًّا بحالة هستيريا، قالت وهي بين ذراعي: «منشان الله، خلينا نهرب»، كنت أتمنَّى فعل ذلك، لكنِّي جَبُنتُ، جَبُنتُ من أجلها، جَبُنتُ لحمايتها، احتقرت نفسي، وركعت على ركبي، وقلت: «ما في مرة رح تدخل قلبي بعدك، أنت لحالك رح تظلي بقلبي لأموت»، حضنت رأسي وشدَّته على بطنها، وقالت: «شو بعمل بحبك وأنت بعيد عنِّي»، كان لقاء مدمِّرًا حارقًا، واحدٌ من أصعب المواقف في حياتي. خرجت من ذلك

اللقاء وقلبي مغلقٌ على خلود، امرأةٌ وحيدةٌ أحبَّها قلبي بكلِّ هذا العنف. لم أستطع نسيانها، وندمت لأنِّي لم أهرب معها، كنَّا نستحقُّ هذه المغامرة التي تستحقُّ حياتنا ثمنًا لها، وعرفت أنَّ الحياة دون خلود مجرَّد فراغٍ. كنت أجبن من أن أُقدِمَ على مثل هذه المغامرة الكبرى، وأجبن من أن أستحقَّها، خفت عليها لدرجة شلَّني هذا الخوف، خرجت بقلبٍ محطَّم وخسارة عظيمةٍ، حطَّمت قلبها معي، وقلبي قرَّر أن يذهب معها وحدها، وأغلق نفسه على الأخريات.

في يوم زفافها، كدت أجنُّ، لم أحتمل ذلك اليوم، كان مصطفى شاهدًا عليَّ في ذلك اليوم الهستيريِّ، لم أكن قادرًا على الصمود بقواي الذاتيَّة، فاشترينا زجاجة عرقٍ مع علبة دخان فيرسروي من عند أبي سعيد الذي يبيع المشروبات الكحوليَّة سرًّا، لكنَّه سرٌّ معلنٌ، فكلُّ الذين يشربون الكحول يعرفون المحلَّ، رغم أنَّه لا يضع زجاجات خمرٍ ظاهرةً في واجهة المحل. اشترينا نصف ليتر عرقٍ وذهبنا إلى البساتين خلف البيوت من الجهة التي يقع فيها بيت جدِّي، وهناك في خرابةٍ تقع بالقرب من حوض ماءٍ قديمٍ، بمحرِّك يعمل بالمازوت يُخرج الماء منه للريِّ، قبل أن تغور المياه في الغوطة عميقًا. جلسنا هناك، وبدأت أخلط الماء مع العرق الذي جلبناه من عند أبي سعيد في كيسٍ من البلاستيك. أُشعلُ سجائري وأشرب العرق، لم تكن تجربتي الأولى بالتدخين، لقد بدأت التدخين قبل عامين وأنا في الصف التاسع، مع العرق كانت المرَّة الأولى التي أشربه فيها، ولا أعرف كيف أتعامل معه. كان طعمه قاسيًا وحادًّا وغريبًا، لم أعرف عياره وعياري، ولم يكن معنا ثلج، لم يكن هذا مهمًّا، أردت شيئًا يخرجني من هذا العالم، يذهب بي بعيدًا عن الكارثة التي تحصل بالقرب منِّي. وكان العرق بطعمه الرديء وسيلتي لنسيان أنَّ المرأة التي أعبدها تتزوَّج غيري في تلك الليلة. لم يشاركني مصطفى الشراب، أراد أن يكون صاحيًا حتَّى يستطيع مساعدتي عندما أحتاج مساعدته. شربت العرق وكأنِّي أشرب الماء، لذلك فقدت وعي

بسرعةٍ، ولم أعرف ما الذي قلته أو فعلته، لا أذكر سوى بكائي كالأطفال، وبعدها لم أعد أدرك شيئًا. لم أعرف ما حدث سوى بعد أن روى لي مصطفى أحداث تلك الليلة، التي سكرت فيها حتَّى الثمالة. صحوت في اليوم التالي لأجد نفسي نائمًا في غرفة خالي يوسف في بيت جدِّي أعاني من صداعٍ شديدٍ. وحسب مصطفى، كنت أشرب العرق، أبتلع نصفه ونصفه الآخر يقع على الأرض، وملامح وجهي تعبِّر عن قرفٍ واستنكارٍ للطعم القويِّ الذي يحرق حلقي ومعدتي، سرعان ما سكرت، وصرت أصرخ: «كس إختهم، بدي أروح أخرِّب العرس... بدي أروح أكسر الدنيا»، أتفلَّت من مصطفى وهو يحاول تهدئتي ويقول: «طول بالك، بلا فضايح. إذا بتحبها لا تعمل هيك»، عندها أرمي برأسي على صدر مصطفى، وأبكي وأنا أقول له: «ما بقدر أعيش بدونها. عبيقتلوني»، تقيَّأت، سعلت، كفرت، شتمت العرس، شتمت نفسي، شتمت مصطفى، وعدت للشرب. وكان على مصطفى مهمَّةٌ صعبةٌ، أن يعيدني إلى البيت، بدل إعادتي إلى البيت، نظَّفني وجعلني أغسل يداي ووجهي عند صنبور الماء عند الجامع الكبير، وبعدها وبصعوبةٍ كبيرةٍ أوصلني لغرفة خالي يوسف. قال لي بعدها: «كنت عنيد مثل البغل. وصار خالك يوسف مش عارف شو بدُه يعمل، حتَّى يغطِّي عليك وإنت سكران مطفي»، بعد أيَّامٍ روى مصطفى لي ما قالت حبيبته التي حضرت عرس خلود، أنَّ العرس كان بمنزلة عزاء لخلود، التي لم تستطع الابتسام، وكأنَّها في عزاءٍ وليس عرسها، وليست هي من يتزوَّج، إنَّما تساق إلى ذبحها. بكيت بحرقةٍ عندما قال هذا الكلام، شعرت بعجزي المخزي، وشعرت أنَّ خلود تغرس سكينًا في قلبي وهي بعيدةٌ.

كانت أيَّامًا صعبةً عليَّ، شعرت وأنا المراهق المحطَّم أنَّه لم يعد لي شيءٌ في هذا العالم بعد أن خسرت حبِّي، فهي كلُّ شيءٍ بالنسبة لي. لولا وقوف مصطفى إلى جانبي في تلك الأزمة التي هزَّتني بعنفٍ، لا أعرف أيَّ حالٍ كانت حالي، مراهقٌ يساعد صديقه المراهق محطَّم القلب لينجو من حبٍّ

ليس له أيُّ فرصةٍ في النجاح. شعرت أنَّ مصطفى الوحيد الذي يفهمني في هذا العالم، كبرنا معًا وأنا أتجاوز حدَّة الأزمة، التي أعتقد أنَّ آثارها ما تزال تفعل فعلها عندي حتَّى اليوم. الجانب الآخر من الحكاية، هو علاقتي بمصطفى التي أصبحت غير قابلةٍ للانكسار مهما حدث بيننا. وفي تلك الفترة اتخذت قراري، بأنِّي سأقف معه في الدفاع عن حبِّه، حتَّى لو اضطرَّ لخطف حبيبته، وسأكون شريكه في هذه الجريمة عن طيب خاطرٍ، عندما خسرت حبيبتي، لم أحتمل، ولن أحتمل أن يخسر مصطفى حبيبته أيضًا. لم يحدث هذا وسارت قصَّة حبِّه مع عفاف إلى نهايتها الطبيعيَّة، لم يحتَج لهذا الخطف أو الهرب من المكان. افترقنا بعد الثانوية في الدراسة، إذ ذهب هو إلى كليَّة الهندسة الكهربائيَّة، وذهبت أنا إلى معهد المساحة، كما أراد أبي، وهذا المعهد الذي انتسب له أبي بعد حصوله على الشهادة الإعداديَّة، أصبح في أيَّامي يحتاج إلى الشهادة الثانويَّة، ويحتاج إلى وساطةٍ حتَّى يُقبَلُ به، لأنَّ وظيفته مضمونةٌ في السجلِّ العقاريِّ، وبات الحصول على وظيفةٍ في البلد مسألةً صعبةً. رغب أبي أن أعمل معه، وهو ما أردته أنا أيضًا، أسَّس مكتبًا في دوما، وبنى لنفسه سمعةً حسنةً جدًّا في هذه المهنة. افتراقنا أنا ومصطفى في الدراسة لم يجعل العلاقة بيننا تفقد حرارتها، بل بقيت بذات المستوى من الحميميَّة. قلَّت لقاءاتنا بسبب انشغالاتنا، التي كانت يوميَّةً، وأصبحت مرَّتين في الأسبوع وحافظنا على هذا المعدل، إن لم يكن أكثر من ذلك، فليس أقلَّ بالتأكيد، بوجود أصدقاء آخرين أو دونهم. ورغم العلاقة القويَّة بيننا، بقي مصطفى على رفضه مشاركتي شرب العرق، حتَّى عندما نسهر معًا في مطاعم دمشق، لم يكن عنده مشكلةٌ، بأن أشرب أنا، لكنَّه يرفض أن يتناوله، رغم أنَّه ليس رجلًا متديِّنًا. عندما قلت له: «أنت غريب يا رجل... نص رجال دوما بشربوا عرق، وليش إنت لأ؟!»، لم يكن مصطفى يرفض المشروبات الروحيَّة لأسبابٍ دينيَّة. إنَّما الأمر يتعلَّق بموقفٍ قديمٍ، جعله ينفر من الكحول نهائيًّا، رغم أنَّ أصحابنا جميعًا يشربون الكحول،

حتَّى أولئك الذين يذهبون إلى الجامع أيَّام الجمعة، ليمثِّلوا دور المؤمنين، وكنت واحدًا من هؤلاء الممثِّلين. متأخِّرًا، وبعد وفاة والده بسنواتٍ، أسرَّ لي سبب موقفه من الكحول. يعود الموقف إلى طفولته، فوالده كان رجلًا مدمنًا ويشرب بكثرةٍ، عندما يشرب يصبح عكر المزاج يفشُّ خلقه فيهم. لم يكن عند مصطفى مشكلةً أن يضربه والده لأنَّه سكران أو يضرب أحد أخوته، فهو يعرف أيَّ محنةٍ مرَّ بها والده عندما استولى الجيش على أرضهم في المليحة، وبنى عليها قاعدةً عسكريَّةً، التي تُعرَفُ بثكنة «الدفاع الجويِّ»، وخرجت من يده في الوقت الذي كانت كلَّ ما يملك، لقد استُملِكَت الأرض بموجب قوانين الطوارئ، وخسر الرجل كلَّ شيءٍ، والأرض الصغيرة على أطراف دوما لم تكن تُذكَر مقابل الأرض التي خسروها هناك. حطَّم هذا الاستيلاء على الأرض والده، الذي لا له متنفَّس لإخراج غضبه سوى الكحول وضربهم. ما لم يحتمله مصطفى، ليس ضربه شخصيًّا، بل ضرب أمَّه، التي لم يكن قادرًا على فعل شيءٍ من أجلها، وغير قادرٍ على حمايتها، وغير قادرٍ على ردع والده المسكين. منذ ذلك الوقت، ولأنَّه يعرف طيبة والده في الأوقات العاديَّة، فهو يعتذر منهم عندما يصحو، ولكن ما نفع الاعتذار بعد وقوع الضرب، وطالما لا يمنعه من العودة لضربهم من جديدٍ. كان يعرف أنَّ أبوه يحبُّهم ويحبُّ أمَّهم، رغم ذلك يغيب عن وعيه ويقوم بما يقوم به. أخذ مصطفى عهدًا على نفسه ألَّا يضع الكحول في فمه طوال حياته، حتَّى لا يأتي يومًا بفعل يشابه ما يقوم به والده ويؤذي من يحبُّ، ويعود للاعتذار. وبقي وفيًّا لعهده حتَّى مقتله.

قاومت عفاف التي درست الأدب العربيَّ في جامعة دمشق كلَّ طلبات الزواج التي جاءتها خلال دراستها وبعدها في انتظار مصطفى. لذلك عندما أنجز خدمته العسكريَّة، كان أوَّل شيءٍ فكَّر فيه هو الارتباط بعفاف، وكنت في غاية السعادة عندما وافق أهلها على خطبته ولم يربطوا بين مصطفى وسمعة أبيه المعروف كسكِّيرٍ في أوساط دوما. وكان هذا مفاجئًا لحدٍّ ما،

ولكنَّ المفاجأة تزول، عندما نعرف أنَّ مصطفى كرَّس سمعته في أوساط أهالي دوما كرجلٍ صاحب أخلاقيَّاتٍ عاليةٍ منذ كان طالبًا في الثانوية. يومها أخذت كلَّ المال الذي جمعته من عملي، وقدَّمته له هديةً، لم يقبل أن يأخذه، سوى بعد أن قبلت أن يكون دينًا عليه. بعد خدمته العسكريَّة عاد مصطفى إلى وظيفته في وزارة الكهرباء، قسم الطاقة. وبنى حياته بصعوبةٍ مثل أيِّ شابٍّ نظيف اليد، فقد كانت وظيفته تؤمِّن له دخلًا إضافيًّا من الفساد لو أراد ذلك، لكنَّه قرَّر أنَّه سيحسِّن دخله من عمله بعد الدوام وفي أيَّام العطل الرسميَّة وأيَّام إجازته. لذلك افتتح شركةً صغيرةً للتمديدات الكهربائيَّة، وحاز على أعمال صيانةٍ في كثيرٍ من الشركات الكبرى في البلد، وأدَّى بعمله بأفضل المواصفات التي كان يتابعها عن قربٍ. رغم نجاح شركته، وبفضل خمسةٍ من أفضل العاملين في الكهرباء الذين اشتغلوا معه، لم يرغب في ترك الوظيفة، لأنَّه عدَّ أنَّ هناك واجبًا عليه أن يكمله في هذه الوظيفة.

عندما انطلقت الاحتجاجات في دوما تضامنًا مع درعا المنتفضة ضدَّ النظام الذي اعتقل الأطفال، لأنَّهم كتبوا شعاراتٍ ضدَّ الرئيس، لم يكن هناك ما ينقص مصطفى كشابٍّ ناجحٍ سوى «بعض الكرامة» كما قال. كان من أوَّل الناس الذين خرجوا للتظاهر، وسرعان ما كان على رأس تنسيقيَّة دوما للثورة، جمع حوله خيرة شباب دوما المحترمين بين أوساطهم. وعندما طلبت منه أن أكون معهم في التنسيقيَّة، رفض طلبي، وقال: «منذر، أنت بتعرف شو بقولوا بدرعا واللاذقية على الفلسطينيِّين إنهم مدسوسين، وبخربوا البلد لصالح جهات معادية، وبتعرف إنُه هذا قالتُه مستشارة الرئيس بلسانها»، قلت: «شو يعني، ما بدك إياني؟»، قال: «إنت غلطان، أنا إذا بدي حدا بالدنيا بدي إيَّاك معي. بس منشانك ومنشانا»، غضبت منه، وقلت له: «ماشي مصطفى، يعني بدك تمنعني من المشاركة بالمظاهرات»، قال: «منذر، شو مالك، إحنا تظاهرنا سوى من أوَّل يوم. أنا ما بحكي عن

المظاهرات، أنا بحكي عن التنسيقيَّة»، هذا ما زاد من غضبي. رغم ذلك لم أقاطعه، وبعد بعض الوقت تفهَّمت موقفه بأنَّه لا يريد إعطاء أيَّ ذريعةٍ للنظام. كان الوضع صعبًا في دوما بعد سقوط ثمانية قتلى في الأيَّام الأولى للمظاهرات. وهو ما استدعى إيجاد هياكل تنظيميَّةٍ أهليَّةٍ في دوما لحلِّ العديد من المشكلات، ليس تنسيقًا للاحتجاجات فحسب، بل ومن أجل الكثير من القضايا الملحَّة، من لجانٍ طبيَّةٍ لإسعاف المصابين جرَّاء إطلاق الأمن النار على المتظاهرين، ولجان دعمٍ إغاثيٍّ بالأدوية وغيرها من المواد اللازمة للمحتاجين، ولجانٍ من أجل تنظيم دفن القتلى، ولجان الحراسة غير المسلَّحة للنشاطات التي تستطلع وجود الأمن، وغيرها الكثير من القضايا التفصيليَّة التي احتاجتها الاحتجاجات في دوما. وبعد إطلاق النار الكثيف على المتظاهرين في اليوم الأوَّل للاحتجاجات المتضامنة مع درعا، اعتقد النظام أنَّ القمع الشرس هو الوسيلة الأسرع والأنجح لردع المتظاهرين.
أذكر ذلك اليوم جيِّدًا، كانت المرَّة الأولى التي أشارك في التظاهرات، أخبرني مصطفى، أنَّ التجمُّع سيكون في الجامع الكبير، ومن هناك ستخرج المظاهرة التي ستطوف المدينة. إنَّه الأوَّل من نيسان، ما جرى يشبه الكذبة ليس أكثر. خرجت من البيت قبل صلاة الجمعة بحوالي ساعتين، حتَّى أكون بالقرب من المكان، قبل الوقت المحدَّد، لأنِّي خفت من إغلاق الطرق المؤدِّية إلى الجامع. انتظرت عند صديقي رضوان، الذي بيته بالقرب من الجامع، وكنت على اتفاقٍ مسبقٍ معه، وعندما بدأ الرجال يتوافدون من أجل الصلاة، دخلنا الجامع أنا وهو. كانت هناك أعدادٌ محدودةٌ من شرطة مكافحة الشغب بلباسٍ عسكريٍّ، يحملون البنادق، وبعد أن انتهت خطبة الجمعة ومن بعدها الصلاة، قضينا حوالي نصف ساعةٍ في الجامع، خرجنا لنجد أنفسنا أمام وضعٍ آخر. المزيد من رجال مكافحة الشغب، ويقف خلفهم رجال المخابرات المسلَّحين، حاول بعض المتظاهرين إبعاد الشرطة برميهم بالحجارة المتوافرة في المكان، وعندما استخدمت قوَّات الشرطة

قنابل الغاز المسيل للدموع، ووجدوا أنَّها لم تردعنا عن المشاركة في التظاهرة، وقد أحضر البعض منَّا البصل لاستخدامه ضدَّ الغاز المسيل للدموع، كما أنَّ عددًا منَّا أعاد القنابل المسيلة للدموع رميًّا إلى مناطق وجود الشرطة، ما جعلهم يعانون ممَّا نعاني لأنَّهم بلا أقنعةٍ واقيةٍ. وعندما أخذ رجال الشرطة بالتراجع إلى الخلف، أطلق عناصر الأمن الرصاص الحيَّ علينا مباشرةً. سقط عددٌ من المتجمعين أمام باب الجامع بين قتيلٍ وجريحٍ، وغطَّت الدماء المكان. تراجع رجال الأمن ليفسحوا المجال لهرب المتجمعين أمام الجامع، لكن بعد نقل المصابين، عاد الناس للتجمُّع، وعاد رجال الأمن لإطلاق النار مباشرةً علينا من جديدٍ. سحبنا المصابين وتفرَّقنا لنعود للتجمُّع ضمن مجموعاتٍ صغيرةٍ في أماكن أخرى، وعادت التجمُّعات الصغيرة لتجتمع من جديدٍ في الساحة الكبيرة، بقي الكرُّ والفرُّ بيننا وبين رجال الأمن طوال النهار. واستمرَّ إطلاق النار متواصلًا على أيِّ تجمُّعٍ صغيرٍ في المدينة حتَّى المساء. كان يومًا داميًا، انضمت دوما فيه إلى درعا واللاذقية لتكون المكان الثالث في البلد الذي سقط فيه قتلى برصاص رجال المخابرات.
لم أصدِّق ما يجري، ثلاث مرَّات اختبأت من الرصاص في مداخل البنايات، ثلاث مرَّات رأيت الشبَّان يسقطون بالقرب منِّي مضرَّجين بدمائهم، لم أعرف ما حدث لي، كنت كالمنوَّم مغنطيسيًّا، أسير دون أن أدرك ما يجري حولي تمامًا، كأنِّي أسير في كابوس والدماء تحيط بي. في المساء أصبحت دوما محتلَّةً بالكامل من قوَّات المخابرات ولا أحد يستطيع التحرُّك، واقتحم رجال المخابرات المشافي والمستوصفات واعتقلوا الكثير من الجرحى الذين أُسعِفُوا إلى المشافي في المدينة. ستة عشر شابًّا سقط في ذلك اليوم برصاص رجال المخابرات، وعددٍ كبيرٍ من الجرحى، ومئات المعتقلين. ثمانيةٌ من القتلى دُفِنُوا خارج دوما، وبعد يومين من سقوطهم شُيِّعَ ثمانيةٌ في دوما. كان التشييع مهيبًا، لم يخرج في التشييع أهالي دوما فحسب، بل وخرجت الغوطة الشرقيَّة أيضًا، شعرت أنَّ البلد كلَّها شاركت في التشييع تضامنًا مع

دوما. في ذلك اليوم انسحب رجال المخابرات والشرطة من دوما وتمركزوا على مداخلها، لم يمنعوا القادمين من خارج دوما للمشاركة في التشييع، رغم أنَّهم ضايقوا بعضهم. كان منظر الجثامين الثمانية للشهداء في صدر الجامع الكبير مهيبًا، لم أصدِّق أنَّ فؤاد بللة الشاب المهذَّب المسجَّى بين الشهداء قد قُتِلَ برصاص رجال الأمن. هذا الشابُّ المحبوب من كلِّ الجيران ومدرِّس الرياضيَّات الناجح، فهو يسكن في البناية التي يسكن فيها أهلي. فؤاد يبتسم في تابوته المكشوف، وكأنَّه يمثِّل الموت، وسيقف على قدميه عندما ينتهي من تمثيل موته ليسألنا عن أدائه في موته، وسأقول له إنَّه لم يكن مقنعًا في دوره، لأنَّه لم تكن على وجهه علامات الموت، كان حيًّا وحيويًّا كما لم أره من قبل بهذه الحيويَّة. كان كلُّ شيءٍ فيه يقول عندما تنتهي الجنازة، سأقوم من تابوتي، وأذهب معكم إلى البيت لأوقف بكاء أمِّي التي أحبُّها. لم يصلُّوا على الجثامين، لأنَّه لا يجوز الصلاة على الشهداء، لم يقم فؤاد من تابوته، حملوه على الأكتاف من الجامع الكبير، وعندما خرجت من الجامع كان بحرٌ هادرٌ من البشر ينتظر الجثامين في الخارج، كان الذين انتظروا التشييع في الخارج أضعافًا مضاعفةً لمن كانوا داخل الجامع الكبير. سارت الجثامين المحمولة على بحرٍ من الأيدي، غطَّى نهر البشر الشارع على مدِّ نظري، والجثامين تسبح على هذا النهر، أصابني هدير الهتافات القويَّة بالقشعريرة. في أثناء التشييع، لم أفكِّر سوى بالخالة سلوى أم فؤاد تلك المرأة الطيِّبة التي تحبُّ بكرها، ورعته برموش عينيها، حتَّى شاهدته شابًا. كانت تنتظر عرسه المقرَّر في صيف ذلك العام، لقد خطب قبل مقتله بشهرٍ بناء على إلحاح أمِّه، التي عدَّته تأخَّر في الزواج، فهو في السابعة والعشرين من عمره، ومنذ أنهى خدمته العسكريَّة قبل عامين وهي تلحُّ عليه. لم تغب أمُّه عن بالي خلال التشييع، لقد كانت جارتنا وصديقة أمِّي المقرَّبة. لم أعرف أحدًا من أصحاب الجثامين الأخرى. لم أستطع مسك دموعي التي

سالت طوال الطريق إلى المقبرة، وعندما بدأت خطب التأبين تركت المكان وعدت إلى بيتي غير راغبٍ في الكلام مع أحد حتَّى مع زوجتي.

الوحشية التي تعامل بها رجال المخابرات مع تظاهرات دوما أثارت أهالي المدينة ومحيطها، وأصبحت دوما مركزًا رئيسيًّا من نقاط التظاهر كلَّ يوم جمعةٍ، فقد سقط قتلى دوما في الجمعة التي أطلق عليها «جمعة الشهداء»، وفي كلِّ جمعةٍ تلتها كانت المظاهرات تعمُّ المدينة، وهو ما زاد من شراسة رجال المخابرات الذين احتلُّوا البرج الطبِّي في وسط دوما، والذي يكشف الجهات الأربعة وتمركز عددٌ من القنَّاصة فوقه، وهو أعلى مبنًى في دوما، ويبلغ ارتفاعه أحد عشر طابقًا، لم يكن قد اكتمل بناءه بعد فهو ما زال على الهيكل، هذا لم يمنع تمركز القنَّاصة فوقه وكشف المدينة كلَّها. في الوقت الذي كان البرج الطبيُّ أعلى المباني، لم يكن ارتفاع المباني الأخرى في دوما يزيد عن ستة طوابق فقط. أذاق قنَّاصة البرج الموت لكلِّ مناطق دوما من ذلك العلوِّ، ولم ينجُ من رصاص قنَّاصة البرج حتَّى القطط والكلاب التي لم يوفِّروها، وهو ما جعل أهالي دوما يطلقون على المبنى اسم «برج الموت». لم يوقف القمع الشرس التظاهر في دوما، وقد انتظمت المظاهرات، وانتظمت الهيئات المحليَّة التي تدير المدينة فعليًّا، لم يكن رجال المخابرات سوى قوَّات احتلالٍ للمدينة، التي يدخلونها في النهار ويخرجون منها في الليل. وعندما أخذ الرئيس يقابل الوفود من المدن السوريَّة، طلب الوسطاء من أهالي دوما تشكيل وفدٍ لمقابلة الرئيس لشرح مطالبهم، واختير مصطفى عضوًا في هذا الوفد، الذي قابل الرئيس في ذروة الصدام بين المتظاهرين وقوَّات الأمن. وكانت مطالب وفد دوما واضحةً، على رأسها، إطلاق سراح المعتقلين من أهالي المدينة، رفع الحصار عن المدينة بإزالة الحواجز من مداخلها، والكفَّ عن إذلال الناس على الحواجز، إقالة رئيس اللجنة المحليَّة في دوما، لأنَّه عنوان الفساد الذي استشرى في عهده، وإقالة عصابته، انتخاب مجلسٍ للمدينة بانتخاباتٍ ديمقراطيَّةٍ دون تدخُّل الأجهزة الأمنيَّة،

حلَّ مشكلة الأراضي المستملكة لأهالي دوما، وأخيراً ترك أهالي دوما ينتخبون مجلسهم المحليَّ بحريَّةٍ، وفي انتخاباتٍ ديمقراطيَّةٍ. لم يتعرَّض الوفد الذي قابل الرئيس إلى المضايقات، لقد اصطُحِبَ بكلِّ احترامٍ لمقابلة الرئيس، الذي كان لطيفًا معهم وقال لهم: «إنِّي لا أعرف عن هذه المشكلات شيئًا، وأعدكم بحلِّها. وأنا ضدُّ أن يتعرَّض أحدٌ للظلم في هذا البلد»، كما قال جميع أعضاء الوفد، وعاد الجميع إلى دوما بسلامٍ. وعندما سألت مصطفى في اليوم التالي للقاء عن رأيه قال: «والله يا منذر ماني مطمِّن، في شي غلط، مش معقول الرئيس بقول لكل وفد، إنُه ما بيعرف، إذا ما بعرف مشاكل البلد، شو بعرف؟! في شي مش عاجبني، حاسس رح يصير شي، لكن مش عارف شو هو»، كان من أعضاء الوفد من بُهِرَ باللقاء مع الرئيس، وأصبحوا يردِّدون ما يقوله النظام «الرئيس منيح بس اللي حواليه خروات»، مرَّ أسبوع هدوءٍ واحدٍ على دوما، تظاهر فيها الأهالي دون إطلاق النار عليهم. في الأسبوع التالي، وفي يوم الخميس وهو اليوم السابق للمظاهرات، ثلاثةٌ من أعضاء الوفد يُطلَقُ عليهم النار، من بينهم مصطفى الذي تُطلِقُ سيَّارةٌ للمخابرات النار عليه في الشارع المؤدِّي إلى بيته، وكذلك الحال بالنسبة للشيخ علي، شيخ جامع الأنصار، الذي قُتِلَ أمام بيته، والدكتور عبد الله، الذي دخلوا على غرفة نومه من شبَّاك غرفته عبر رافعةٍ، وأطلقوا عليه النار وأردوه قتيلًا أمام زوجته.

بمقتل مصطفى تحطَّمت شخصيًّا، لم أتخيَّل يومًا العالم دونه. لا أعرف كيف أصف علاقتي به، لكنِّي لم أتخيَّل حياتي دونه، كان الصديق والأخ والرفيق وكاتم الأسرار، وأكثر من ذلك، كان الروح والمكان ولم أتصوَّر دوما دونه. وبمقتله كرهت المكان فعلًا، لم أعد أرغب في البقاء فيه. لا أذكر نفسي دونه، لا أذكر حماقةً ارتكبتها لم يكن شريكي بها، أو لم يعلم بها، ولا تستحقُّ الحماقة اسمها قبل أن يعرف مصطفى بها. كان أقرب لي من أوردتي، كان يطلُّ على حياتي كبستانٍ مفتوحٍ أمامه، لم أكن بحاجةٍ أن أتستَّر على عيوبي

أمامه، كنت أحبُّ أن أكون بكامل عريِّي دون أن أخاف أو أخجل، أو أعدَّ أو أشكَّ أنَّه يلومني أو يأخذ عليَّ ممسكًا. كان مرآتي وجزءًا من روحي، وهذه الروح ذهبت معه بمقتله. لأنِّي لم أصدِّق مقتله، فلم أعد موجودًا، لم أعد أذهب إلى العمل، جلست طوال الوقت في المنزل، لا أعرف ما يجري في العالم الخارجيِّ، رغم أنِّي أسمع الطلقات، وأحيانًا القصف المدفعيَّ هنا وهناك. كان العرق رفيقي الوحيد في تلك الأيَّام الرهيبة، لنسيان ما أنا فيه. لم أعد أرى أحدًا، ولا أذهب لزيارة أهلي. عندما زارني أبي ليطمئن عليَّ، تماسكت أمامه بصعوبةٍ، لقد عرف ما أنا فيه، لم يعلِّق، لأنَّه لم يرد إحراجي. تأسَّى لحالي، وقال بلغةٍ وهو خارجٌ من بيتي: «دير بالك على حالك، إذا مش منشانك، منشان الأولاد»، وهو خارجٌ من البيت سمعته وهو يقول لزوجتي: «إذا بدك أي شي، لا تخجلي اطلبيه منِّي، أنا مثل أبوكي»، لم تعرف زوجتي منيرة ما الذي تستطيع فعله حتَّى أخرج من حالتي، فقد حاولت معي، ورجتني كثيرًا، وقالت: «العالم ما انتهى، بعرف قديش بتحب مصطفى، بس قتلُه مش ذنبك، دمُه برقبة اللي قتلُه، منشان الله خلص»، لم يكن عندي ما أقوله لها، ولم تكن لتفهم أنَّ مصطفى كان العالم كلَّه بالنسبة لي. حاولت مرارًا وتكرارًا إخراجي من الحالة التي أنا فيها، أحيانا بمسايرتي ورجائي، وأحيانًا بتهديدي بتركها البيت. كلُّ هذا لم يؤثِّر بي، ولا حتَّى الجرائم التي يرتكبها الأمن في دوما وفي البلد. أعادني القصف الذي تعرَّضت له الحارة التي أسكن فيها إلى رشدي، لم أكن أعرف أنَّ هناك مجموعاتٌ مسلَّحةٌ في دوما، وأنَّ هناك من شباب الجيران من بين هذه المجموعات التي تأسَّست حديثًا. عندما سقطت أوَّل قذيفةٍ، بعيدةٍ عن بيتنا حوالي الثلاثين مترًا، ركضت فتحية ابنتي باتجاهي ودفنت رأسها في صدري، وقالت: «بابا، أنا خايفة»، وكانت في حوالي الثامنة من عمرها، ولحقتها أختها غزل وشرعتا بالبكاء، ليلحق بهم ابني سعد ابن العامين، وأخيرًا منيرة، باكيةً وخائفةً، لم أكن أستطيع الوقوف على قدمي، بفعل كميَّة العرق التي

شربتها في ذلك اليوم. فجأةً، انتبهت ما الذي أفعله بنفسي؟ ومن الذي سيحمي أطفالي إذا لم أحميهم أنا؟ أكيد، أحبُّ مصطفى، وهو مهمٌّ في حياتي، ولكن هناك أيضًا من أحبُّهم ومهمِّين في حياتي، ويحتاجوني في هذا الزمن الصعب. كان عليَّ أن أصحو من سكري، ليس من فعل العرق فحسب، بل ومن الحزن أيضًا. هناك عائلةٌ تخوض في أوحال البلد المجبولة بالدم، وهذه العائلة عائلتي، لا يمكنني التفرُّج عليها من غمامات سكري. عليَّ أن أحدِّق في عين الواقع وأن أحمي عائلتي، نعم، أحزن على من أحبُّ، وهذا يجب ألَّا يُنسيني أنَّ عليَّ مسؤوليَّةً يجب تحمُّلها. تدهور الوضع سريعًا في دوما والبلد، وأخذ المجنَّدون والضبَّاط ينشقُّون عن الجيش، وبدأت مجموعاتٌ مسلَّحةٌ تظهر هنا وهناك، تحاول حماية المدنيِّين بالتصدِّي لرجال المخابرات بعيدًا عن تجمُّعات المتظاهرين. ودوما من أوَّل المناطق التي شكَّلت هذه المجموعات المسلَّحة، وكان على رأس هذه المجموعات، أبو علي الدوماني، المعروف كشخصٍ صاحب مشكلاتٍ. رغم ذلك استطاع أن يجمع حوله الكثير من الشباب الجيِّدين في دوما، وكانت جرأة الرجل هي ما جذب الشباب إليه، لم يكن أحد يعرف من أين يأتي بالسلاح، أعرف شبَّانًا عدَّةً التحقوا بمجموعاته. مع الصدامات المسلَّحة، بات الوضع في دوما في غاية الخطورة، وبات المكان من أخطر الأماكن في البلد. وكأنَّ تحوُّلًا جرى في أداء أجهزة المخابرات بعد مناوشاتٍ عدَّةٍ بين المجموعات المسلَّحة وقوَّات النظام على أطراف دوما. قبل هذا التحوُّل، اعتمدت المخابرات في قمع المظاهرات على إطلاق النار على المتظاهرين أو قنصهم وقنص النشطاء منهم أو اغتيالهم. كان الهدف القضاء على من يدير الاحتجاجات في دوما. مع الاشتباك الثالث أو الرابع ظهر التحوُّل في دمويَّة النظام، الذي أصبح دمويًّا تجاه عموم السكَّان، وليس تجاه الناشطين فحسب. كان الاشتباك المسلَّح في حي الجورة القريب من بيتي على الطرف الثاني من كورنيش دوما، هو إعلانٌ لسياسة الأرض المحروقة من النظام.

عندما اشتدَّ الاشتباك، أخذت الفرقة الرابعة التي تمركزت في محيط دوما، والتي يقودها أخو الرئيس، بقصف حيِّ الجورة. أصاب القصف السكَّان بحالة هلعٍ، فهربت أغلب العائلات من بيوتها باتجاه قلب دوما، يحملون ما تيسَّر من أغراضٍ، ويجرُّون أولادهم بأيديهم أو يحملونهم. هرب الجميع كبارًا وصغارًا، وكان بكاء الهاربين من المنطقة إعلانًا عن المأساة، والذين تمرُّ طريقهم بجوار بيتي. استنفرت المنطقة التي أسكن فيها استعدادًا للهرب إذا وصلت الاشتباكات إلى بيوتنا. لم انتظر، أخرجت زوجتي وأولادي، ركبت سيَّارتي، أوصلتهم إلى بيت أهلي، وعدت أدراجي مع أصدقائي أحمد وسعيد، وانتظرنا نهاية الاشتباك، عندما عدنا إلى الحيِّ كانت الاشتباكات قد خفَّت، وكان المسلَّحون قد غادروا الحيَّ، وقسمٌ منهم غادر حيَّ الجورة مرورًا بحيِّنا، وهدأ القصف والرصاص. واستطعنا رؤية الجيش من بعيدٍ ينتشر داخل الحيِّ، وآخر الهاربين قالوا إنَّ الجنود يفتِّشون البيوت. بقينا نراقب الجنود من بعيدٍ، وكنَّا نستطيع مشاهدتهم من أطراف الحيِّ الذي أسكنه. بقي الجنود في المكان حوالي ثلاث ساعاتٍ، وبين الوقت والآخر نسمع طلقاتٍ متفرِّقةً لا نعرف مصدرها ولا لأيِّ سببٍ أُطلِقَت. بعد ذلك بدأ الجنود يتجمَّعون في مجموعاتٍ استعدادًا للمغادرة، وعندما شعرنا أنَّ الجيش غادر المكان، دخلنا إلى المنطقة، لم نكن وحدنا من ينتظر خروج الجيش، بل هناك العديد من الأهالي والناشطين الذين انتظروا متخفِّين على أطراف الحيِّ هذه اللحظة، دخلنا الحي بحذرٍ. ساد الصمت في المكان، لا صوت في الحيِّ كلِّه، بين الحين والآخر يخرج أحدهم مرعوبًا، ويركض خارجًا من المكان، وهو يقول «طلعوا... طلعوا»، بعد دخولنا بدقائق، بدأ الصراخ يصدر من الأهالي الذين دخلوا معنا إلى الحي. وعندما دخلنا إلى الأماكن التي صدر منها الصراخ، عرفنا أنَّ العديد من الذين دخلوا بيوتهم، قد وجدوا أخوةً أو زوجاتٍ أو آباء وأمَّهاتٍ قد أُعدموا بإطلاق النار عليهم من مسافةٍ قريبةٍ. كانت مذبحةً حقيقيَّةً، لم ينجُ من الباقين في الحيِّ، سوى

رجلٌ وامرأتين مصابين، سرعان ما نقلهم النشطاء إلى المشفى الميداني في دوما، نجا رجلٌ وامرأةٌ والمرأة الأخرى لم يتمكّن الأطبّاء من إنقاذها. خمسة عشر رجلًا وسبع نساء من الذين وجدهم الجيش في المكان أطلق عليهم النار وأعدمهم ميدانيًّا. في المنزلين اللذين دخلناهم، كان الرجل المنكوب قد غطّى زوجته، لكنّها تبدو عاريةً من فوق الغطاء، ما يعني أنّها اغتصبت، وفي البيت الثاني لم يعرف الرجل كيف يغطّي زوجته، بقي جنبها الأيمن عاريًا، وهو ما يدلُّ على ما ارتكب من اغتصابٍ بحقّها. لم أصدّق ما جرى، نساءٌ ورجالٌ أُطلِقَت النار عليهم، لمجرّد وجودهم في المكان، دون ارتكاب أيِّ فعلٍ، أو احتجاجٍ في مواجهة النظام. لم يكن ما جرى فعلًا فرديًّا، كان فعلًا بقرارٍ من أجل تحطيم سكّان دوما، من خلال أبشع الانتهاكات ضدّ الأهالي، فمن اتخذ قرار الاغتصاب يعرف حساسيّة أهالي دوما، وكلُّ أهالي البلد لمثل هكذا جرائم تنتهك فيها أعراض نسائهم. كانت صدمةً للجميع، وبعد هذه المذبحة والفعل الوحشيّ في حيِّ الجورة بدأ أهالي دوما الأكثر محافظةً مغادرة المدينة خوفًا على أعراضهم، لقد فعلت المذبحة واغتصاب النساء فعلها، وأوصلت رسالةً للأهالي، أنّ كلّ سكّان دوما مستهدفين سواءً كانوا مشاركين وغير مشاركين في الاحتجاجات.

بعد المذبحة، لم يعد الوضع مقبولًا بالنسبة لأبي الذي خاف علينا، وعدَّ أنَّ ما يجري يهدِّدنا ويهدِّد أطفالنا. أخذ يُعدُّ للخروج من دوما، ولم تطل المدَّة، بعد أقلَّ من ثلاثة أسابيع، وكانت الأوضاع الأمنيَّة في دوما والاشتباكات تزداد، أدرك أبي أنَّ الوضع لن يرجع إلى سابق عهده، وأنَّه سيذهب إلى الأسوأ، فقرَّر رحيل الجميع. لم أعترض على قراره بالرحيل عن دوما، لأنِّي أنا نفسي لم أرغب بالبقاء في المكان. فوافقت على اللجوء إلى المخيَّم بناءً على رغبته، حتَّى تنقشع الرؤية في دوما، وعلى أثرها، نفكِّر فيما سنفعله لاحقًا.

اللجوء انتهاكٌ لحياة البشر، لم أعرف معنى اللجوء، رغم حديث أبي الكثير والمتكرِّر عنه، صحيح أنَّه لم يعِ اللجوء عندما خرج أهله من فلسطين وكان في الثالثة من عمره. هو كبر وشبَّ في أماكن لجوءٍ، أوَّلًا في منطقة حيِّ الأمين، وما كان يعرف عند الفلسطينيين بـ «الإليانس»، وبعدها في مخيَّم اليرموك مع بدايات تأسيسه، وأنا ولدت هناك، وخرجنا من المخيَّم ولم أكن قد بلغت الثالثة من عمري. حكى أبي طويلًا عن معاناة اللجوء، وكيف ينظر الآخرون إلى اللاجئ، والعيش الصعب في الأماكن الضيِّقة، وضيق حياته وانكشافها، ما بين نظرةٍ عدوانيَّةٍ وبين نظرة شفقةٍ، والنظرتان تتسبَّبان بالحرج، وفوق كلِّ هذا إحساسٌ بالضياع. يبقى الكلام عن المعاناة شيءٌ، وعيش هذه المعاناة شيءٌ آخر. عندما جمعنا أغراضنا الرئيسيَّة، واتفقت مع أبي على أن نخرج معًا من دوما، فالأوضاع باتت لا تحتمل، وأصبحت خائفًا على أولادي، وأبي خائفٌ علينا جميعًا، لذلك لم يلزمني وحدي بالخروج من دوما، بل ألزم أختي سلام وعائلتها، لم يكن قادرًا على تحمُّل القلق على حياتنا، قاوم زوج أختي في البداية، لكنَّه احترم خيار أبي، وهذا ساعده على اتخاذ قرار الخروج. كان خائفًا على عائلته، ولا يريد ترك بيته في دوما. لم تخرج سلام وعائلتها معنا إلى المخيَّم، بل خرجت إلى ركن الدين حيث يسكن أهل زوجها. حاول أبي إقناع أختي رشا وزوجها بالخروج من زملكا، التي أوضاعها ليست أفضل حالًا من أوضاع دوما. رفض محمد زوج رشا الخروج، وليس لارتباطه ببيته، ولكن لربطه مصيره بمصير الثورة، فقد كان أوَّل الناشطين في زملكا، ومنسِّق النشاطات مع البلدات الأخرى في الغوطة الشرقيَّة والغوطة الغربيَّة ومدينة دمشق. لم يكن يترك الثورة التي يعدُّ نفسه صاحبها ويتحوَّل إلى لاجئٍ في هذا المكان أو ذلك، اعتذر من أبي، الذي استنفذ كلَّ وسائل الإقناع، فاستسلم. سأله أبي من أجل رشا والأولاد، قال محمد: «رشا بتقرِّر، أنا ما عندي مانع تأخذ الأولاد وتخرج من زملكا»، وعندما سأل أبي رشا، كان جوابها حاسمًا: «ما رح أترك محمد، يا بنعيش

سوا يا بنموت سوا»، كان جوابها مفاجئًا، ليس لأبي فقط، بل لنا جميعًا أيضًا، نحن الأخوة الذين نعرف رشا الخَوِّيفة والحسَّاسة والخجولة، التي تخاف من صرصورٍ صغيرٍ. رغم ذلك قرَّرت الصمود في أوضاعٍ حربيَّةٍ دمويَّةٍ ومجنونةٍ تعيشها زملكا وكلُّ الغوطة الشرقيَّة. لم يكن أمام أبي سوى الاستسلام أمام رغبة رشا، التي طالما عدَّها الأكثر عقلانيَّةً ورزانة بيننا. ورغم الصمود المذهل لرشا وزوجها في التجربة الصعبة التي مرُّوا بها ومرَّت بها بلدة زملكا، ورغم إصرار محمد على البقاء في البلد مهما كان الثمن، كان الثمن كبيرًا جدًّا. واضطر محمد ورشا لفعل ما لا يرغبون، على العكس من كلِّ أحلامه وقراراته الحاسمة، وكان الدرس بالنسبة لي، أنَّ الحرب المجنونة في البلد تحطِّم أكثر الإرادات صلابةً.

كانت تجربة العيش في المخيَّم جديدةً بالنسبة لي، فقد عرفت عن قربٍ كيف يتصرَّف الفلسطينيُّون في دوما مع إحساسٍ بأنَّهم أقليَّةٌ وطارئون على دوما وأهلها. في اليرموك لم يكن هذا الإحساس موجودًا، إحساس الأقليَّة الظاهر بين الفلسطينيِّين في دوما، غير موجودٍ في المخيَّم. لأنَّ أهالي المخيَّم لا يعدُّون أنفسهم سوريِّين ويعرفون أنَّهم غريبون عن المدينة، لكنَّ الغريب كانوا يعدُّون المخيَّم مكانهم، وليسوا طارئين عليه، هو المكان الذي بنوه بأنفسهم، لم يأتوا ليعيشوا على هامشه، كما هو الحال في دوما، وهو مكانٌ صنعوه من العدم، المخيَّم الذي يحكي عنه أبي، والذي وُلِدتُ فيه، والذي كان خارج المدينة، لم يعد كذلك منذ سنين طويلةٍ، لقد بات في قلب المدينة، ولم يعد مكانًا نائيًا. أهالي المخيَّم يعدُّون أنفسهم صنعوا المخيَّم وهم من أعطاه مركزيَّته، وليس لأحدٍ فضلًا عليهم. لذلك، عدُّوا أنفسهم أصحاب المكان عند استقبالهم للاجئين السوريِّين من الأماكن الأخرى بوصف المكان مكانهم. عندما لجأنا إلى المخيَّم، كان يعجُّ باللاجئين من المناطق المجاورة له، فقد كانت هذه المناطق تشهد اشتباكاتٍ بين الجيش الحرِّ وبين قوَّات النظام، والطائرات تحلِّق فوق هذه الأماكن وفوق المخيَّم،

وتطلق النار، وكان كلُّ يومٍ يزيد عدد اللاجئين في المخيَّم من هذه الأماكن، وأصبحت المدارس والجوامع مليئةً بهم. لم يكن هناك أماكن للإيجار، لم نجد واحدًا منها، لذلك، لجأنا عند عمَّتي بيان التي تملك بناءً لأولادها في المخيَّم، وهو بيتها القديم، والذي تركته لترحل إلى بلدة صحنايا، وأعادت بناء البيت القديم وأصبح شققًا عدَّةً لأولادها. وكانت واحدةٌ من هذه الشقق فارغةً، لأنَّ ابنها الصغير ما زال عازبًا، واستمرَّ في العيش مع أمِّه، بعد أن تزوَّج كلُّ إخوته وأخواته. لم تكن الشقَّة كبيرةً، كانت عبارةً عن غرفتين وصالة، أخذ أمِّي وأبي غرفةً وأخذت أنا وزوجتي والأولاد الغرفة الثانية، وغدير وفراس كانا يشغلان الصالة. كان انتقالًا من الراحة إلى الضيق، ليس ضيق المكان وحده، بل ضيق الحال المتزايد يومًا بعد يومٍ. ووقتها، عرفت أنَّ ترك المرء لمكانه ليس بالسهولة التي كنت اعتقدها. لأنِّي وفي المخيَّم اكتشفت علاقتي العميقة مع دوما، التي لم أكن أشعر بها عندما كنت أعيش هناك على نحوٍ طبيعي، ولا شيء يهدِّد هذه الحياة. أمَّا عندما اقتُلِعتُ منها، وجدت نفسي غريبًا، حتَّى في المكان الذي ولدت فيه، والذي يعيش فيه أناسٌ يشبهونني في الانتماء على الأقل. وعرفت أنَّ هذا لا يكفي مع البشر الذين يحفر المكان عميقًا في حياتهم، ويصبحون أسرى له. وبالخروج من دوما عرفت أنِّي واحدٌ من هؤلاء. لذلك طالما خرجت من بيتي فأنا لاجئٌ، حتَّى عندما آتي إلى اللاجئين أمثالي المسجَّلين في الأونروا. عشت حياتي في دوما بين مجموعتين، فلسطينيَّةٍ ودومانيَّةٍ، وعندما عرفت الفلسطينيِّين هناك وكنت ابنًا لهذا التجمُّع، كنت أعتقد أنِّي أعرف الفلسطينيِّين لأنِّي منهم وعشت في قلب تجمُّعهم في دوما، وكانوا يختلفون عن أهالي دوما بالكثير من تفاصيل حياتهم التي ورثتها عنهم، لأنِّي تربَّيت في بيتٍ فلسطينيٍّ. واعتقدت أنَّني أعرف أهالي دوما جيِّدًا، لأنِّي عرفتهم عن قربٍ وكنت واحدًا منهم. قبل أن أخرج من دوما، اكتشفت أنِّي لا أعرفهم، أو أنَّ الناس عندما يهدِّدهم القتل والموت والاعتقال يصبحون أناسًا آخرين.

ولم يقتصر هذا على دوما، لأنِّي عندما لجأت أنا وأهلي إلى المخيَّم، عرفت أنِّي لا أعرف الفلسطينيِّين أيضًا، الذين يُفترض أنِّي واحدٌ منهم. المخيَّم لا يشبه أيَّ مكانٍ آخر، لا يشبه إلَّا نفسه، هو في وسط دمشق لكنَّه يعيش عالمه الخاصَّ المختلف عن محيطه. عندما يخرج ابن المخيَّم إلى وسط دمشق، يتحوَّل إلى فلسطينيٍّ يشبه الفلسطينيَّ القادم من تجمُّع دوما، لكن في المخيَّم الفلسطينيِّ هو في قلب عالمه، العالم الذي صنعه، والذي أعاد صناعته كإنسانٍ. لجوئي إلى المخيَّم جعلني أعيش في وسط هذه العلاقات لأنَّهم ببساطةٍ أهلي، وهذا ما جعلني أعرف المخيَّم عن قربٍ، لم تكن الزيارات السريعة ذات الطابع العائليِّ توفِّر هذه المعرفة، فقد خلق السكن في دوما عندنا كعائلةٍ، ليس مسافةً جغرافيَّةً أبعدتنا عن المخيَّم فحسب، بل ومسافةً نفسيَّةً أيضًا. أصبحنا غرباء عن هذه الأجواء، حتَّى أبي الذي عاش شبابه الأوَّل في المخيَّم أحسَّ بهذه الغربة، وإن كان أقلَّ منَّا. صنع أهالي المخيَّم المكان بعلاقاتٍ مفتوحةٍ، في المخيَّم لا تشعر أنَّ للناس حياةً خاصَّةً، وكأنَّهم اتفقوا على التنازل عن حياتهم الخاصَّة مقابل هذا الشكل الخاصِّ من العلاقات الغريبة، فيها أقصى الخصام، وفيها أقصى التفاهم. قد يطرق أحدٌ باب آخر منهم في منتصف الليل ليتشاجر معه، أو ليستعير رغيفين من الخبز، لأنَّه انتهى من عنده. لم أفهم هذا الانتهاك للحياة الخاصَّة، لكنَّهم في المخيَّم لم يعدُّوا هذا انتهاكًا، عدُّوه تضامنًا مستحقًّا للآخرين، إنَّها حياة المخيَّم التي يتَّفق عليها الجميع. وبعد أن سكنت فيه، فهمت لماذا بعض العائلات التي غادرت المخيَّم لم تستطيع العيش في الأماكن الجديدة، سواءً كان المكان الجديد دوما أو داريًّا أو صحنايا أو دمر، على خلاف طبيعة الأماكن في الانفتاح. يبدو أنَّ الذين عاشوا حياة المخيَّم عالقون فيه حتَّى عندما ينتقدونه، لأنَّ الحياة فيه لا تشبه أيَّ مكانٍ آخر. وفَّر لي العيش في المخيَّم علاقةً مباشرةً مع أولاد أعمامي وعمَّاتي القريبين من عمري. وإذا كانت الفترة الأولى من السكن في المخيَّم صعبةً، فإنَّها أصبحت أقلَّ صعوبةً

عندما انتقلنا إلى السكن في بيت جدِّي بدلًا من عمَّتي التي غادرت إلى السعودية. ليس لأنَّ البيت كبيرٌ فقط، بل لأنَّ هذا الانتقال وفَّر لي خصوصيَّةً لم تكن موجودةً في بيت عمَّتي بيان. بقيت زوجتي منيرة تلحُّ على الاستقلال، وأنَّها غير قادرةٍ على العيش دون أن يكون لها مكانها الخاصُّ، ولأنَّها أنجبت ابني الذي حمل اسم أبي أصبح لها مكانةٌ لا سيَّما عند أبي وأمِّي أيضًا. لقد تفهَّموا ضيقها من الحال الذي نعيشه بعد اللجوء، لا سيَّما أنَّها ابنة دوما وغريبةٌ عن أجواء المخيَّم تمامًا، ومشغولةٌ دائمًا بأهلها الذين غادروا دوما إلى مدينة النبك، وبدل أن تزورهم تقريبًا يوميًّا كما كان الحال في دوما، أصبحنا نزورهم كلَّ شهرٍ مرَّةً، وإحساسها بالغربة في المخيَّم جعلها غير قادرةٍ على التعامل مع قريباتي من النساء، وكأنَّهن قادماتٌ من عالمٍ آخر، وكنت أفهم ذلك، فأنا ابن هذه العائلة، ولم أكن أفهم العلاقات القائمة بينهم، كيف الحال بالنسبة لها وهي ابنة بيئةٍ مختلفةٍ، تشعر أنَّ كلَّ ما يجري أمامها غريبٌ عنها. حلَّ عمِّي منير المشكلة، بأن طلب منِّي السكن في المكتب الذي يخصُّه والكائن في بيت جدِّي، أسفل البيت الذي سكنه أهلي، عندما غادرته العائلة اللاجئة من التضامن التي كانت تسكن به. وقد سبق وحُوِّلَ من مكتبٍ إلى شقَّةٍ سكنيَّةٍ صالحة للعيش، وقد انتقلنا للعيش فيه، وهو ما أعطانا بعض الخصوصيَّة، لم نعد نسكن مع أهلي في المكان نفسه، ولم نكن بعيدين عنهم، يفصلنا عنهم درجٌ، هذا الفاصل منحنا الخصوصيَّة، نعود إليه ونغلق الباب على أنفسنا، رغم أنَّنا نقضي أغلب الوقت عند أهلي ونأكل معهم، وكثيرًا ما تبقى بناتي عند أمِّي، حيث يشعرن أنهنَّ أكثر راحة في بيتٍ أكبر وعند جدَّتهنَّ، ولا يشعرنَ بالضغط النفسيِّ الذي تشكِّله زوجة الأب عليهنَّ، رغم أنَّها لم تكن سيِّئةً معهم، لكن من تجربتي، تبقى زوجة الأب غير قريبةٍ من الأولاد مهما فعلت لهم، لأنَّهم كلَّما رأوها يتذكَّرون أمَّهم، وقد حلَّت محلَّها، بصرف النظر عن سبب الانفصال.

رغم صعوبة تجربة اللجوء إلى المخيَّم، إلَّا أنَّ جانبًا منها كان له سحره، التعرُّف على العالم الداخليِّ للمخيَّم، لم يكن ليتوافر، دون اللجوء الذي أجبرتنا الحرب على القيام به. عرفت أبناء عمومتي عن قربٍ، وعرفت آليَّات تعاملهم مع خلافاتهم وصراعاتهم الكثيرة، وهذا ما قرَّبني من المخيَّم، وفهم الحياة فيه، والأشهر القليلة التي قضيتها هناك في وضعٍ يغلي جعلني أحبُّه، رغم حالة الاستغراب التي أصابتني في بداية هذا اللجوء، بعد ذلك أخذت بالتعوُّد على الحياة فيه، وبات المساء ينقضي بسرعةٍ مذهلةٍ، اللقاءات مع الأقارب لا تنتهي والأحاديث لا تنتهي، لا القديم منها، ولا الجديد. وجدت نفسي أعيش في شبكةٍ من العلاقات الجاهزة دون أن أدرك، وجعلني أسيرها وجزءًا منها دون أن أنتبه. وبات مساء المخيَّم حالةً إدمانيَّةً، فيجب ألَّا يمرَّ اليوم دون لقاءٍ عند أبي، أو عند عمِّي، أو عند عمَّتي، فلم يكن الوضع عندي يسمح بهذه اللقاءات لضيق المكان. وبعد أيَّامٍ لم أعد بحاجةٍ إلى واسطة أبي لأذهب إلى هذا المكان أو ذاك، أولاد عمومتي، يأتون ليصطحبوني كلَّ مساءٍ، أحيانًا مع زوجتي، وأحيانًا وحدي، وتقضي زوجتي الوقت عند أهلي. نمت روابطي العائليَّة بسرعةٍ ومن خلالها كنت أطلُّ على علاقاتهم أيضًا، لم أكن أعرف ماذا يعني أن يكون لك عائلةٌ عندما كنت أعيش في دوما، رغم وجود بيت جدِّي لجهة أمِّي، وهم كانوا عائلتنا في دوما. في المخيَّم الموضوع مختلفٌ، أنت لا تحتاج أن تُعرِّف عن نفسك عندما تكون من عائلةٍ معروفةٍ، يكفي أن تقول اسمك وكنيتك، ليتعرَّف السامع عليك مباشرةً، من خلال معرفته لعددٍ من أفراد العائلة، وهذا ما جعل عشرات الحواجز النفسيَّة مع الآخرين تسقط بسرعةٍ رهيبةٍ. بقدر ما أدمجني المخيَّم في علاقاتي العائليَّة، بقدر ما شكَّل نفورًا عند زوجتي من المكان، وشعرت أنَّ المكان يسرقني منها، لأنِّي أصبحت أقضي وقتًا أقلَّ مع عائلتي.

عندما كنت أعيش في دوما لم أملك علاقات مع المخيَّم، وعلاقاتي العائليَّة هناك كانت مجاملةً لأبي، فهو يحبُّ أن أرافقه إلى هناك دائمًا، وعندما كان يقول لي: «رح تروح معي على المخيَّم»، لم أكن أستطيع الرفض، لأنَّ هذا سيزعجه. وكانت علاقاتي مع أقاربي في المخيَّم تبدأ وتنتهي بالقيام بالالتزامات الشكليَّة في الأفراح والأحزان نذهب إليهم أو يأتون إلى دوما، عندما يكون حدث من هذا النوع، وبعد انتهاء الحدث يختفون في المخيَّم من جديدٍ، ونحن نختفي في دوما، إلى أن يحدث فرحٌ أو حزنٌ جديدٌ. وهكذا اقتصرت علاقاتي مع هذا الوسط على الشكليَّات، على عكس حال العلاقة عندما عشت في المخيَّم لاجئًا، فقد تغلغلوا في حياتي دون أن أنتبه. حتَّى علاقاتي بالتجمُّع الفلسطينيِّ في دوما كانت قد أخذت بالتراجع، بقي عندي عددٌ من الأصدقاء هناك، لكنَّ عملي الوظيفيَّ وعملي بالمكتب مع أبي فرض عليَّ علاقاتٍ مع أهالي دوما أكثر من علاقاتي القديمة مع الفلسطينيِّين، فقد كان عملنا في مسح الأراضي يتركَّز على الأراضي الزراعيَّة في المنطقة وإجمالي الغوطة، وهذه الأراضي كان يملكها أهالي دوما أو أهالي الغوطة، فلم يملك الفلسطينيُّون أيَّ أراضٍ في الغوطة. كما بقيت هذه العلاقات بحكم علاقتي مع خالي يوسف وبيت جدِّي وسط التجمُّع الفلسطينيِّ. وزاد من هذا البعد أنِّي تزوَّجت مرَّتين نساء من أهل دوما. بعد علاقة الحبِّ مع خلود، لم أعد أرغب في النساء، ولم أعد أفكِّر في الزواج، لم يتركني أبي وأنا بكره دون زواجٍ، ودون أن أنجب أولادًا. ومنذ انتهاء خدمتي العسكريَّة أصبحت جاهزًا للزواج من وجهة نظره، أخذ يبحث عن زوجةٍ لي بين أقربائنا، لأنَّه كان يعتقد أنَّ المرأة التي تعرف ظروفنا تستطع أن تفهم الحياة التي نعيشها أكثر من المرأة التي لا تعرف هذه الحياة، كان يرغب في تزويجي امرأةً فلسطينيَّةً لأنَّها ابنة التجربة نفسها، تستطيع أن تفهم أكثر حياة الفلسطينيِّين وما عانوه وما فرضته هذه المعاناة عليهم. لم أكن مقتنعًا بهذا الكلام، وأنا أعدُّ نفسي ابن دوما مثل أيٍّ من أبنائها، لذلك

عندما فشلت محاولات إيجاد زوجةٍ فلسطينيَّةٍ شعرت بالراحة. وبدأت أمِّي تبحث في محيطها الدومانيِّ، كنت سعيدًا عندما تعرض عليَّ إحداهنَّ من أهالي دوما. بقيت حزينًا لعدم زواجي من خلود، لكن أن أتزوَّج واحدةً من المكان الذي نشأت فيه، هذا يجعلني قريبًا منها طوال الوقت، رغم أنَّها بعيدةٌ عنِّي. صحيحٌ أنَّها تعيش في دوما التي أعيش فيها، لكنِّي شعرت أنَّها تعيش في كوكبٍ آخر، لم أجرؤ على التفكير في إقامة أيِّ صلةٍ معها بعد أن تزوَّجت، لست أنا الذي أستطيع أن أسيء إلى المرأة التي أحبَّها قلبي من بين كلِّ نساء العالم. عندما عرضت أمِّي عليّ غادة، وجدت نفسي أوافق، لأنتهي من إلحاحها وإلحاح أبي، ولأنَّ البنت أعجبتني لحدٍّ كبيرٍ، شاهدتها لمامًا فيما مضى، لم تكن مغطَّاة الوجه، وكانت صديقةً أختي غدير في مرحلةٍ من مراحل الدراسة، لكنَّها لم تكمل دراستها. كانت خيارًا مناسبًا بالنسبة لي، فوافقت. ولم تنتظر أمِّي، سرعان ما أخذت أختي سلام، وزارت عائلة غادة، لمعرفة ردِّ فعلهم تجاه طلبها لزواجي من ابنتهم، وعندما أخذت الموافقة، سرعان ما تمَّم أهلي الإجراءات، حتَّى لا أستطيع الهرب من الالتزام، وبدأوا، لا سيَّما أبي الأكثر استعجالًا، بترتيب البيت وشراء الأثاث الذي اختاره بنفسه لأنَّه شعر أنِّي أتلكَّأ في السير بهذا الزواج، وكأنِّي أريد الهرب، فوجد أفضل وسيلةٍ للخلاص من هذا الهرب أن يورِّطني، وهذا ما كان، لأنَّني لم أستطع يومًا أن أقول لأبي لا.

افتتحنا أنا وغادة حياتنا جيِّدًا، وكانت مقنعةً لي إلى حدٍّ كبيرٍ، رغم أنَّ عقلي بقي معلَّقًا في مكانٍ آخر، غادة امرأةٌ جميلةٌ، سمراء بعيونٍ خضراء، بكراسي خدودٍ مرتفعةٍ على ملامح ناعمةٍ، وعينان لوزيَّتان، وأنفٍ دقيقٍ، وفمٍ مرسومٍ بحدودٍ واضحةٍ، وشفاهٍ مكتنزةٍ. شعرها أسود خيليٌّ سميكٍ ينسدل على ظهرها طويلًا يصل إلى مؤخِّرتها. متوسِّطة الطول ووزنها حوالي الخمسين كيلو غرام، وبقيت محافظةً على هذا الوزن. وكنت مقنعًا بالنسبة لها، فلم أفرض عليها شيئًا لا باللباس ولا بالخروج ممَّا يفرضه رجال

دوما على نسائهم، ولم أطلب منها أن تلبس مانطو ولا أن تغطِّي وجهها، هي تخرج كما تخرج أخواتي البنات. حجابٌ عاديٌّ، ولباسٌ عاديٌّ مستَّر، كما يقال، دون أيِّ معطفٍ ثقيلٍ. صحيحٌ كنَّا نعيش في دوما، وكان أبي وأنا مثله، نريد أن تكون النساء محتشمات، لكن دون تشدُّدٍ. وهذا ما جعل غادة مرتاحةً في بداية العلاقة. مع الوقت بدأ الموضوع ينقلب، وأخذت بعض التوتُّرات تظهر عندما حملت غادة بطفلتنا الأولى، وأعدت هذه التوتُّرات إلى حملها الأوَّل الصعب، وصبرت عليها، قلت بعد أن تنجب الولد الأوَّل يتغيَّر الوضع. وبعد ولادة ابنتنا فتحية، زادت الأمور سوءًا، وعرفت فيما بعد أنَّ هذا السوء لا يعود إلى العلاقة المباشرة بيني وبين غادة، بل يعود إلى إحساسها بالغربة في العائلة، وكان سلوك أبي يستفزُّها والذي عدَّته سلوكًا يسلبني إرادتي، والذي عبَّرت عنه بأنِّي كما قالت: «مش رجال»، كان أبي رجلًا حشريًّا إلى حدٍّ ما، لا يترك شيئًا في المنزل لا يتدخَّل به، ولم يكن هذا التدخُّل ممارسةً للسلطة، وسلب الآخرين إرادتهم، بقدر ما كانت طبيعته بوصفه رجلًا يملك فرط نشاطٍ هائلٍ، ويبدو كأنَّه آلةً لا تتعب. يراقب الوضع طوال الوقت ويسأل: «ليش هاي هون؟ من جاب هاي لهون؟ قيموا هاي من هون. اشتروا هاي الشغلة، ارموا هاي الشغلة. ليش ما بتدرس؟ ليش مو لابس شحاطة؟»، إلى آخره من الأسئلة التي لا تنتهي. بدأ حياته المهنيَّة عسكريًّا، وبقي أشبه بالعسكريِّ طوال حياته، ونحن صغارٌ أزعجنا هذا الشيء، ولكن تعوَّدنا عليه في المنزل، لأنَّ أبي كان يريد القيام بكلِّ الأشياء بالنيابة عنَّا حتَّى لا يزعجنا، دون أن يدرك أنَّه بذلك يصادر إرادتنا. أنا لم أكن أعترض، لأنَّ أبي كان أغلب المرَّات يفعل الأفضل وهذا ما حرَّرني من اختيار الأثاث لمنزلي، فهو الذي اختاره. هذا الذي عدَدتُه أنا ميزةً بوجود أبٍ من هذا النوع، عدَّته غادة عيبًا. وأبي لم يكن يسكت في أيِّ مكانٍ، لا في بيتنا ولا في بيت جدِّي لأمِّي، أو بيت أهله، أو بيت أخوالي. كان الجميع يعرف أنَّ محرِّكه الأساسيَّ طيبته التي عرفها الجميع عن قربٍ. بينما كانت

غادة تُستفزُّ عندما يأتي إلى بيتنا، ويبدأ بتوجيه الأوامر «ليش هاي هناك؟ مين حاطط هاي هون؟ جبتلكون برادي، غيروا البرادي اللي عندكو... غيروا هاي الطاولة رح اشتري واحدة الكم. اشترتلكم غاز جديد..»، اشتكت لي مرَّاتٍ عدَّةً، وكنت أتفهَّم مشاعرها، لكنِّي قلت لها بوضوح: «ما بقدر أعمل شي. هاد أبوي، وطول عمرُه هيك ما رح أغيرُه بعد هذا العمر... اتحمليه شوية»، لم أكن قادرًا على الصدام مع أبي من أجل هذه الأمور، فأنا أعرف حساسيَّته وكبرياءه العالي. ولا أريده أن يغضب منِّي، لأنِّي أعرف كم سيطول غضبه، وأنا أحبُّه رغم كلِّ عيوبه. وعندما لم ترَ جدوى من الحديث معي، شكت الحال لأخواتي البنات، قالت لها أختي سلام: «معك حق بكل كلمة بتقوليها، بس هذا أبوي، وما بتغيَّر، حاولنا مرَّات، وغضب منَّا، وإحنا ما بنقدر على غضبُه. اعملي اللي بدو إيَّاه، وبس يروح اعملي اللي بدك إيَّاه إنت. حتَّى بعمل هذا الشي، فيني وبجوزي. بالأوَّل جوزي كان يتضايق. بعدين تعود عليه، صار عادي يأخذ كلامه بروح رياضيَّة ويقولوا على راسي عمي، وبعدين يعمل اللي بدو إيَّاه، هو بالآخر ما عايش عنَّا، ولا عندكوا»، لم تكن غادة لتقبل هذه المعادلة التي عدَّتها مصادرةً لحياتها، هي خرجت من بيت أهلها وتزوَّجت من أجل أن تتحرَّر من قيودهم، وليس لتأتي لقيودٍ عدَّتها أشدَّ وسلطةً مستبدَّةً، كما كانت ترى سلطة أبي. كلُّ محاولات إقناعها لم تجدِ نفعًا، لم أكن قادرًا على الاصطدام مع أبي من أجلها، ولم أكن قادرًا على إقناع أبي على تغيير طبيعته بعد كلِّ هذه السنوات. راهنت على الوقت، وراهنت على أنَّ علاقتها الجيِّدة مع أخواتي البنات يمكن أن تجعلها تتفهَّم الوضع أكثر. وأنجبنا ابنتنا الثانية غزل، وقلت مع هذه المولودة الجديدة، يمكن للوضع أن يتحسَّن. لم أستطع طمأنتها، ولم تستطع هي الشعور بالأمان، كانت تشعر نفسها غريبةً بين أهلي، رغم علاقتها الجيِّدة مع أخواتي البنات. ويبدو أنَّها اعتقدت أنَّ إنجابها البنات يعطيها الحقَّ بأن تتمادى معي، وبعد ولادة غزل، التي توقَّعت أن تتراجع المشكلات بيننا،

وكنت مخطئًا، لأنَّها زادت على عكس توقُّعاتي. تحوَّل البيت إلى جحيمٍ بالنسبة لي، ما جعلني أهرب من البيت أغلب الوقت، وزاد الهرب المشكلات، التي حاولت تجنُّبها. بالصدام المستمرِّ الذي تحوَّل إلى صدامٍ معلنٍ، لم تترك أمامي خيارًا، سوى أكثر الخيارات مرارةً، والذي لم أرغب به من أجل بناتي، لأنِّي لم أرد أن تتربَّى بناتي بعيدًا عن أمِّهنَّ. لكنَّ الصدام المستمرَّ أقنعني أنَّ تربية البنات دون أمِّهنَّ، أفضل من عيشهم وسط شجاراتنا التي لا تنتهي. عندما قرَّرت الانفصال عن غادة، أخبرت أبي وأمِّي قبل الإقدام على الخطوة، وتفاجأت بأنَّهم يعرفون عن علاقتنا أكثر ممَّا توقَّعت. طلب أبي منِّي أن أتسم بطولة البال وقال: «يابا، بنات الناس مش لعبة»، قلت له: «والله بعرف يابا، بس ما عدت قادر أتحمَّل»، قال: «اصبر شوي»، صبرت، ولكن لا شيء تغيَّر، ولم أكن قادرًا أن أقول له، أنت المشكلة، لأنِّي أعتقد أنَّ هذا غير صحيحٍ وغير عادلٍ. لم يعجب غادة العيش في وسطنا، لأسبابٍ لم أكن قادرًا على معرفتها، وكان أبي مجرَّد ذريعةٍ، لو لم يوجد أبي لكان عندها ذريعةٌ أخرى، لذلك رأيت أنَّ انفصالنا مسألةٌ حتميَّةٌ، وكلَّما تأخَّر كان مكلفًا أكثر لي وللبنات. فاتخذت قراري الذي لم تتوقَّعه، لأنَّها اعتقدت أنَّه خلافٌ عاديٌّ، وسيعود كلُّ شيءٍ مثلما كان قبل أيَّامٍ، ولكن هذه المرَّة، لا شيئًا كما كان، وأخرجت غادة من حياتي نهائيًّا. لم تكن المرَّة الأولى التي نختلف فيها، ولا المرَّة الأولى التي تذهب فيها عند أهلها وتترك البنات. لكنَّها كانت الأخيرة. حزنت من أجل بناتي، وحاولت المحافظة على زواجي من أجلهنَّ، لكنَّهن كنَّ موقع ابتزازي في كلِّ مرَّةٍ، ولم تتورَّع غادة عن استخدامهنَّ في الخلافات، وعندما كانت تتركهنَّ وتذهب وحدها لتزعل عند أهلها أيَّامًا عدَّةً، ولا تفكِّر في رؤية البنات، كنت أقول لنفسي: «أيُّ أمٍّ هذه؟!»، كان يحزنني رؤية أمِّي ترعى بناتي، وأمُّهن موجودةٌ. لقد انتهت من تربية أولادها، لتربِّي بناتي، كنت أتساءل. لكن في النهاية لم يعد العيش

كما في السابق ممكنًا، وقرَّرت ألَّا أخضع لأيِّ ابتزازٍ جديدٍ، رغم حزني على بناتي.

بعد أن تأكَّد كلٌّ من أمِّي وأبي من انتهاء العلاقة مع غادة. عادا للإلحاح لأتزوَّج من جديدٍ. في البداية رفضت الفكرة نهائيًّا، لا أريد تكرار التجربة وأفشل فيها. تركني أبي حتَّى أتجاوز أزمتي، وبعد عامٍ من انفصالي عن غادة، فتح الموضوع معي من جديدٍ. قلت له: «إنت بتعرف رأيي في الموضوع، ما بدي أكرِّر التجربة»، قال: «إنت ما بتكرِّر التجربة، إنت ما عدت لحالك لتكرِّر التجربة. إنت عندك بنتين، وهدلون لازم يعيشوا بعيلة، ما بصير يتربُّوا عنَّا. إحنا بنحطهم بعيونا، بس هدلون بدهم بيت إلهم، وبدهم يتربُّوا بحضن أبوهم. الله يرضى عليك يا ابني، ما تفكِّر بس بحالك، فكِّر بالبنات كمان»، لم أنتبه لهذا المتغيِّر، كنت أحاكم الوضع وكأنِّي ما زلت أعزبًا، وأريد أن أجرِّب الزواج من جديدٍ. لم أنتبه أنِّي يجب أن أتعامل مع الموضوع من زاويةٍ أخرى بعد أن أصبحت أبًا لابنتين، وما قاله أبي صحيحٌ، يجب أن يتربَّوا في حضني، لا في بيت أهلي. وبعدما تكلَّم أبي، لم يعد بإمكاني تجاهل هذا الواقع. وبدأ البحث من جديدٍ عن امرأةٍ تقبل بحالتي، كوني رجلٌ مطلقٌ وعنده ابنتين صغيرتين، وهما في حضانته وليستا في حضانة أمِّهما. لم يكن الموضوع سهلًا، فإذا كان من الصعب على رجلٍ عازبٍ أن يجد امرأةً مناسبةً، فكيف حال رجلٍ مع ابنتين؟! لم تترك أمِّي مكانًا لم تسأل فيه، أحيانًا أهالي البنات يرفضون تزويج بناتهم لواحدٍ مثلي، أو تكون المرأة غير مناسبةً. بقي الحال على حاله لأشهرٍ عدَّةٍ، عندما ذهبت أمِّي للتعرُّف على أهل منيرة، الذين لم يكن لديهم مانعٌ طالما أنِّي سأعامل ابنتهم باحترامٍ. كانت منيرة مناسبةً في المواصفات العامَّة، وفق المعلومات التي جمعتها أمِّي عنها. ولكن بقي تفصيلٌ كان مهمًّا بالنسبة لي، لكنِّي لم أقف عنده، لأنَّ المواصفات الأخرى كانت أهم، وهذه المرَّة ليس من أجلي، بل من أجل البنات، فكان زواجنا. منيرة امرأةٌ عاديَّةٌ من ناحية الجمال، وهذا ما جعلها

موقع مقارنةٍ من الآخرين مع زوجتي السابقة، لم يحدث هذا أمامها، بل كان يصلها جزءٌ من هذا الكلام الذي يزعجها، وهو ما خلق الكثير من المشكلات بيننا في البداية، تعاملها الجيِّد مع بناتي جعلني أتحمَّل هذا الوضع، رغم نفورهنَّ منها في البداية بوصفها زوجة أبيهنَّ. بقيت منيرة متوتِّرةً من هذا الزواج، حتَّى أنجبت ابننا سعد، وهو ما أعطاها ثقةً بنفسها، ورفع مكانتها عند أبي. وبذلك انتهينا من المشكلات المتعلِّقة بالمقارنة، ودخلنا في المشكلات العاديَّة للمتزوِّجين، وهذه مشكلاتٌ أستطيع احتمالها، ولكنَّها مشكلاتٌ ازدادت مع اللجوء إلى المخيَّم، الذي شعرت فيه بغربةٍ قاتلةٍ. لا أعرف كيف أنظر إلى تجربة اللجوء، لا سيَّما أنَّها جاءت في ظروفٍ اضطراريَّةٍ، في وضعٍ اشتعلت فيه البلد، وبتنا نعيش لاجئين في مخيَّم لاجئين. عرفت الكثير من شباب المخيَّم، عندما أدَّيت خدمتي العسكريَّة، إذ خدمت عسكريَّتي في جيش التحرير الفلسطينيِّ، وهو مكوَّنٌ من الفلسطينيِّين حصرًا، على عكس أبي الذي أدَّى خدمته العسكريَّة في الجيش السوريِّ. وهناك تعرَّفت على أجواء المخيَّم من تعاملات الذين يخدمون معي، لكنَّ التعرُّف شيءٌ، والعيش في الوسط نفسه شيءٌ مختلف. عندما رأيت سلوكيَّات شباب المخيَّم في الجيش كنت أستغرب هذه العلاقات المتناقضة، وأقصى التناحر مع أقصى التضامن، هذان الوجهان متلازمان، من أين يأتي هؤلاء الشباب الذين في مثل عمري بهذه القدرة على التنقُّل بين هذين المتناقضين، لم أكن أفهم. وهذا لم يكن مفهومًا حتَّى للمجنَّدين القادمين من المخيَّمات الأخرى، والذين كانوا يختلفون على كلِّ شيءٍ، ويتفقون على شيءٍ واحدٍ، وهو كراهيَّتهم لشباب اليرموك، كانوا يصفونهم بالشباب المتعجرفين، ويبدو أنَّ هذه القناعة عند الجميع جاءت من غرابة سلوكيَّات الشباب القادمين من هذا المخيَّم. كنت أتفق مع هذه الانتقادات، لأنَّ العالم الذي أتى منه هؤلاء الشباب لم يكن مفهومًا بالنسبة لنا نحن الفلسطينيِّين الذين نعيش خارج المخيَّم. عندما عشت فيه بعد

اللجوء، استطعت أن أفهم هذا العالم إلى حدٍّ ما، دون أن أستطيع شرحه؛ عالمٌ تعيشه بإحساسك بالآخرين أكثر ما تعيشه بمعالم المكان. عالمٌ خاصٌّ أنت عالمه الخاصُّ وأهله الخاصِّين، وكأنَّه مكانٌ معزولٌ عن العالم طوَّر نفسه بنفسه متمركزًا على ذاته، وكأنَّه مركز العالم. في الوقت الذي يعرف أصحابه أنَّه مكانٌ هامشيٌّ في البلد والعالم، لكن هذا ليس مهمًّا، طالما هم يعتقدون أنَّهم مركزٌ، كلُّ من يدخل إلى المخيَّم يدخل إلى مركز العالم الخاصِّ بأهالي المخيَّم، وكلُّ من يخرج منه يخرج من مكانٍ هامشيٍّ وفقيرٍ. كلُّ من يدخل ويعيش بين أهله، يكتشف الغنى، ويعرف أنَّ المشهد الخارجيَّ البائس لا يعكس حقيقة عمق الحياة التي يعيشها سكَّان المكان وأصحابه مجازًا. لا أحد دخل المخيَّم وعاش فيه لم يشعر أنَّ المكان مكانه، يكتسب الجنسيَّة الفلسطينيَّة جزئيًا من العيش في المكان الذي بناه أهله من أحلامهم المستقبليَّة، صورةٌ لوطنٍ باهرٍ، لم يصل إليه سكَّان المخيَّم المقتلعين من وطنهم، ولأنَّهم لم يصلوا لهذا الوطن الأم، حوَّلوا المخيَّم إلى وطنٍ بديلٍ، وطنٍ رمزيٍّ وشعبٍ يمثِّل وطنًا غائبًا، لكنَّهم الدليل الحيَّ على وجوده، لذلك استحقَّ مخيَّم اليرموك اللقب الذي أُطلِقَ عليه بوصفه «عاصمة الشتات» الفلسطينيِّ. هناك اكتشفت جانبًا من فلسطينيَّتي لم أكن أدركها، جانب الضحيَّة التي واقعها اليوم يذكِّرها بالجريمة التي ارتُكِبَت بحقِّها، ويحاصرها نظامٌ سياسيٌّ يتاجر بقضيَّتها. النظام يحبُّ القضيَّة الفلسطينيَّة ويكره الفلسطينيِّين، يحبُّ القضيَّة الفلسطينيَّة، لأنَّه بذريعتها يخنق البلد ويعتقل الناس ويفرض حالة الطوارئ، أمَّا الفلسطينيُّون فهم يشكِّلون قلقًا له، ولطالما اختلف مع قيادتهم، وأصبحوا بؤرة توتّرٍ في البلد. عندما عشت في المخيَّم، شعرت هذا المكان الضيِّق أوسع من المدينة، إنَّه على هامشها ويعوِّضها بحالة احتضانٍ للغرباء غير معروفةٍ في الأماكن الأخرى، فهو احتضن السوريِّين الذين تحوَّلوا إلى فقراء المدينة، ولم يجدوا مكانًا وفق إمكاناتهم الماديَّة سوى في المخيَّم، فأصبحوا فلسطينيِّين مثل أصحابه، ضحايا

في وطنهم يعيشون مع ضحايا من خارج البلد. لم يكن غريبًا أن يستضيف المخيَّم الكمَّ الهائل من اللاجئين من مناطق الجوار بعد اشتعال القتال في المناطق المحيطة به، كان هذا طبع المخيَّم أكثر منه خدمةً يقدِّمها إلى المناطق المجاورة. عندما سكنت المخيَّم كان اللاجئون في كلِّ مكانٍ في المخيَّم، وجوههم تدلُّ عليهم، ولا حاجة للسؤال.

لم تطل إقامتنا في المخيَّم، هربنا إلى هناك انتظارًا لانتهاء الوضع الشاذِّ في دوما حتَّى نعود إلى بيوتنا. لم نعد إلى بيوتنا، ولم نستطع البقاء في المخيَّم، لأنَّه بدل أن ينحلَّ الوضع الشاذُّ في دوما، حدث العكس، انتقل الوضع الشاذُّ الذي ساد في دوما والمناطق المجاورة إلى المخيَّم نفسه، وكان لا بُدَّ من لجوءٍ جديدٍ. لم أتوقَّع ما حصل، ظهر الوضع بالنسبة لي وكأنَّه وضعٌ روتينيٌّ، المخيَّم يغلي منذ قدمنا إليه لاجئين من دوما. يزداد اللاجئون من المناطق المجاورة، يزداد المسلَّحون التابعين لفصيل أحمد جبريل الفلسطينيِّ المؤيِّد للنظام، وينتشرون في قلب المخيَّم ومحيطه الداخلي. واعتاد الجميع على هذا الوضع، ولم يكن هناك أيُّ مشكلةٍ في الخروج والدخول إلى المخيَّم، ويوميًّا أذهب إلى عملي في مبنى السجلِّ العقاريِّ في شارع الثورة وسط دمشق، باستثناء الأيَّام التي تشتدُّ فيها الاشتباكات في محيط المخيَّم. وكان هناك قنَّاصةٌ على البنايات العالية التي تقع في مدخل اليرموك، وهي تغطِّي شارع الثلاثين حتَّى الحجر الأسود، وكانت هذه المنطقة الشغل الشاغل للقنَّاصة المتمركزين في الأعلى. أمَّا داخل المخيَّم، فكان المسلَّحون التابعون للنظام يؤمِّنون للمكان حمايةً ما من القنَّاصة، وتعلن المخيَّم مكانًا ليس بيد المعارضة، وهذا ما قبله السكَّان على مضضٍ. هكذا كان الوضع عندما غادرت المخيَّم إلى عملي في ذلك اليوم، وعند الساعة الثانية عشرة ظهرًا، اتصلت منيرة على هاتفي وهي في حالة انهيارٍ، وهي تقول: «منشان الله منذر تعال... الطيران عبقصف المخيَّم»، وسمعت صوت أولادي يبكون بالقرب منها، وأمِّي تحاول تهدئتها وصوتها الخافت يقول: «طولي بالك يا

بنتي..»، قلت: «لا تخافي منيرة، أنا جاي فورًا»، حاولت أن أتماسك وأخفي خوفي عنها. في الحقيقة كنت مرعوبًا، ما الذي يجري؟ لم أكن أعرف. اتصلت بأبي وأنا أغادر مكتبي باتجاه سيَّارتي في كراج العمل، الذي قال لي: «الطيران الحربي قصف المخيَّم، والناس في حالة رعب»، سألت: «كلكم بخير؟»، قال: «لا تخاف، كلنا بخير، ولادك ومرتك بخير، وهنِّي عنَّا»، زاد كلام أبي من رعبي، وخطرت لي كلُّ الأفكار السيِّئة وأنا في طريقي إلى المخيَّم، وعندما أواجه ازدحامًا أشعر بضيقٍ يكاد يخنقني. لا أعرف كيف وصلت إلى مدخل المخيَّم، كان الوضع هناك في غاية الفوضى، الداخلون والخارجون في حالة رعبٍ، الخارجون من رعبٍ عاشوه، والداخلون من رعبٍ سمعوا عنه وعادوا من أجل أحبَّتهم ليعيشوا هذا الرعب. كان الطريق من مدخل المخيَّم إلى بيت جدِّي الذي نسكن فيه على شارع اليرموك أطول طريقٍ قطعته في حياتي، رسم الرعب معالمه على وجوه الناس، أصابتني مشاهد الناس المرعوبين برعبٍ إضافيٍّ. كنت مرعوبًا مثلهم من شيءٍ لم أشاهده، مرعوبًا من النتائج التي أراها أكثر من الفعل ذاته. عندما وصلت إلى بيت جدِّي، وصعدت إلى الطابق الذي يسكن فيه أهلي، ركض الأطفال نحوي وهم يبكون، وشاهدت منيرة وهي تبكي أيضًا. كان الخوف على وجوه الجميع، أولادي، وأمِّي وأختي غدير وأخي فراس الذي يحرِّك عينيه بكلِّ الاتجاهات، وكأنَّه يبحث عن مكامن الخطر المحدق بالجميع الذي يحسُّ فيه ولا يراه، يبحث عنه بعينيه اللتين لا يرى فيهما. حتَّى أبي الذي يحاول التماسك أمامنا، كان الخوف ظاهرًا في لغة جسده. الحيرة ظاهرةٌ عليه، مرَّةً أخرى عليه اتخاذ قرارٍ قاسٍ، وهو مجبرٌ عليه، فالجحيم الذي هربنا منه من دوما، لحقنا إلى المخيَّم، ومن الطبيعي أن يقرِّر المغادرة، صحيحٌ أنَّ هناك حساباتٌ كثيرةٌ عليه مراجعتها، ومنها الماليَّة، وإمكانيَّة العيش في مكانٍ آخر في ظلِّ التراجع المستمرِّ لدخلنا الماليِّ. كانت هذه الحسابات تتحطَّم أمام خطر الحرب المحيطة بنا، رمى أبي كلَّ الحسابات وراءه وأصبح مشغولًا

بنجاتنا فقط. كان قراره متوقَّعًا وكنت موافقًا عليه قبل أن ينطق به، فأنا أشبهه في هذا الموضوع، ولن أسمح لنفسي بتعريض أولادي للخطر. جاء قرار أبي بالمغادرة بعد اتصالاتٍ أجراها مع أصدقائه أسفرت عن العثور عن مكانٍ مؤقَّت للسكن في جرمانا.

مساءً، أبلغني أبي أنَّنا سنغادر المخيَّم في الصباح الباكر، وأنَّ عليَّ أن أجهِّز نفسي. هززت رأسي موافقًا على الفكرة، دون أن أقول أيَّ كلمةٍ، لم أرغب في فتح نقاشٍ لا لزوم له، لأنِّي أعتقد أنَّ المرء في الحالات الحرجة إمَّا يصاب بالخرس وإمَّا يبالغ بالثرثرة. آثرت الصمت لأنِّي اعتقدت أنَّ اللحظة الحرجة التي نعيشها لا تحتمل الثرثرة. لم يدر حديثٌ كثيرٌ بيني وبين منيرة في تلك الليلة، انشغلت بترتيب أغراضنا للرحيل، ولم أجد ما أعمله، ولم أرغب في زيارة أحدٍ في هذا الوقت العصيب. أخذت أجول بنظري في المكتب الذي نسكنه، أنظر إلى رفوف الكتب التي تركها عمِّي منير وراءه، وبين رفوفها، لوحةٌ لمصارع ثيرانٍ يلتفُّ حول نفسه يتفادى هجوم ثورٍ وعلى ظهره مجموعةٌ من السهام التي أسالت دمه، وقد تجمدت اللوحة عند اللحظة التي يرفع فيها المصارع قماشته الحمراء من أمام الثور الذي ينطح الفراغ. شعرت أنِّي مثل الثور في اللوحة الذي يسيل دمه وينطح الفراغ، والذي يصارع في معركةٍ محسومةٍ سلفًا بموته، لكنَّه لا يدرك هذا المصير، فيصارع من أجل بقاءٍ مستحيلٍ. ونحن مثل هذا الثور، نرفض القبول بهذا المصير الجائر، ونرفض أن ندفع ثمنًا هائلًا لجريمةٍ لم نرتكبها، وليست موجودةً أصلًا. فكَّرت بعمِّي منير الذي غادر البلد، لأنَّه وهو المتحمِّس للثورة وصل إلى قناعةٍ مبكرةٍ أنَّ الثورة هُزِمَت وأنَّ الحلَّ بات فرديًّا، وعلى من يستطيع أن ينجو من هذا المصير البائس فليفعل وبسرعةٍ. سخرت من هذا الرأي الاستسلاميِّ، لم أكن مقتنعًا بما قاله عمِّي، وعدَدتُ أنَّ ما يقوله غير واقعيٍّ، ويأتي من رجلٍ انهزاميٍّ، يريد تبرير هربه من البلد، ومن المبكر القول إنَّ الثورة انهزمت، لأنَّ الثورات ليست رحلاتٍ سياحيَّةً. لم أجادله لأنِّي

كنت أعدُّ الجدل معه مضيعةً للوقت. ولا أعرف إذا كان ما قاله عمي هو نوع من النبوءة المبكرة التي تقرأ ما لا يراه الكثيرون في لحظةٍ حالكةٍ، أم أنَّ ما جرى نبوءةٌ حقَّقت نفسها بخروج عمِّي وأمثاله الأكثر حرصًا على الثورة والأكثر تمثيلًا لها في البلد والإقرار بالهزيمة، وترك الساحة لبطش النظام وأغبياء المعارضة المسلَّحة والمعارضة السياسيَّة التي لا تملك أيَّ نفوذٍ على المجموعات المسلَّحة. لا أعرف من يتحمَّل مسؤوليَّة الهزيمة، التي أدركتها بعد سنواتٍ من الدمار، والتي كان ثمنها تحطيم البلد. أفكارٌ كثيرةٌ خطرت لي في ليلة الانتظار تلك، فكَّرت في مصيرنا، وأيُّ مستقبلٍ ينتظرنا، وفي حالة رحيل النظام، يستطع الناس بناء ما دمَّره. ولكن متى يمكن أن يحصل ذلك، لم أكن واثقًا من ذلك، رغم رغبتي في سقوطه في اليوم التالي. فكَّرت بأبي وخسائره الفادحة، وكيف سيحتمل المزيد من الخسائر. فكَّرت بأمِّي، فكَّرت بأبي، فكَّرت بمنيرة، وفكَّرت بمستقبل أولادي. كانت كلُّ الأفكار مخيفةً، وقد خيَّم الخوف عليَّ واحتلَّني.

كانت تجربة الخروج من المخيَّم تجربةً مؤلمةً، عندما خرجنا من دوما خرجنا كعائلةٍ، صحيحٌ أنَّ الكثير من العائلات خرجت من دوما هربًا من الوضع المتردِّي هناك، كان خروج الجميع فرديًّا. في تجربة المخيَّم عرفت معنى الهرب الجماعيِّ الذي لم أعرفه في أثناء الخروج من دوما. لم أكن أعرف أنَّ للهرب الجماعيِّ هذه الرهبة والقدرة على خلق هذا الرعب المعدي. في اليوم التالي، وأنا أنقل أغراضنا إلى السيَّارة، بدأت أرى المعالم الأولى للرعب والتيه الجماعيِّ، شعرت عيون الناس مطفأةً، فهي لا ترى أمامها. يسير البشر في الطريق لكنَّهم لا يرون، يذهبون إلى مكانٍ آخر لكنَّهم يبقون في المكان، لأنَّ لا مكان آخر يذهبون إليه. إنَّ الذهاب إلى المجهول نوعٌ من العمى، وعندما يكون العمى جماعيٌّ، فالعميان لا يرون بعضهم البعض ولا يدركون أنَّ الآخرين مثلهم ولا يعرفون إلى أين يذهبون، لأنَّ لا مكان لهم يذهبون إليه أيضًا. عرفت كيف يمكن للمبصر أن يصبح

أعمى، عميانٌ يسيرون بعيونٍ مفتوحةٍ إلى المجهول. يتحرَّك البؤس على قدمين خارجًا من المخيَّم، بؤساء يشيحون بوجههم عن بؤساء آخرين، ليس لأنَّهم لا يريدون رؤيتهم، بل لأنَّهم لا يريدون أن تصيبهم المزيد من عدوى البؤس والألم، لأنَّهما معديان. نساء ورجالٌ، كبارٌ وصغارٌ، عجائز وأطفالٌ، يحملون أغراضهم كيفما اتفق، وبوسائل النقل المختلفة، من سيَّاراتٍ وميكروباصاتٍ ودرَّاجاتٍ آليَّةٍ وعاديَّةٍ وعرباتٍ أشكال ألوان، وعلى الأقدام أيضًا، الدهشة في عيون الأطفال الذين لا يعرفون ولا يفهمون ما الذي يجري، يصابون بعدوى الحزن والبكاء الذي يشاهدونه في وجوه أهاليهم. وهو ما أصابني بالعدوى، شعرت الحزن يحرقني، وشعرت بالخسارة على المكان الذي أحببته وأحببت ناسه على غرابته، ولم تتوافر لي الفرصة لأعرفه كما رغبت. عندما سألني أبي: «أنت جاهز»، قلت: «جاهز» قاد سيَّارته أمامي وأنا قدت خلفه، تمنَّيت أن يكون خروجنا من المخيَّم سريعًا حتَّى أتخلَّص من مشاهد الألم التي تحرقني، فهي مشاهد منتشرةٌ على الأرصفة وفي السيَّارات المغادرة للمكان. لا أعرف لماذا شعرت أنَّ هذا الحزن والألم الذي شاهدتهما في تعابير الخارجين من المخيَّم كانت تعبيرًا عن حالة اليأس من العودة إلى المكان الذي يغادرونه، ساد خوفٌ شديدٌ بين سكَّان المخيَّم من المجهول الذي يذهبون إليه لأنَّهم مكويُّون بتجربة ونار اللجوء من قبل، وانتظروا العودة أكثر من ستة عقودٍ لكنَّها كانت تبتعد كلَّما مرَّ الزمن على نكبتهم. وكأنَّهم في تجربة خسارةٍ لا تنتهي، أدمنوا فكرة ألَّا شيء يعود إلى ما كان. عندما خرج الفلسطينيُّون من فلسطين، كانوا واثقين من العودة، كما حدَّثني أبي مرارًا وتكرارًا، وكانت هذه الثقة تتراجع مع تقدُّم الوقت، في الخروج من المخيَّم، كانوا واثقين منذ البداية أنَّهم لن يعودوا إلى المكان، هذا الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفسِّر حالة الحزن واليأس العميق التي طغت على وجوه أهالي المخيَّم المغادرين، وكأنَّهم يقولون إنَّنا لن نعود إلى هذا المكان، لذلك نحن نودِّعه بما يستحقُّ من الحزن. كنت أتعجَّل

الخروج، لم أحتمل طغيان هذا الحزن الذي خيَّم على شارع اليرموك في ذلك اليوم الرهيب. وعندما أصبحنا خارج المخيَّم، شعرت بالإنهاك الشديد، وأريد أن أرتاح وأنام بأيِّ شكلٍ، لأنَّنا خرجنا من الكابوس أخيرًا.

طبعًا، خرجنا من الكابوس الصغير إلى الكابوس الكبير، فمأساة المخيَّم صورةٌ مصغَّرةٌ عمَّا جرى في كلِّ البلد، لم يُعمَّم الألم والحزن في عموم البلد فحسب، لقد عُمِّمَ الموت الذي زُرع في كلِّ مكانٍ أيضًا. النجاة من المخيَّم هي نجاةٌ صغيرةٌ في بلدٍ يغرق بالدم. خرجنا من المخيَّم إلى جرمانا، حيث مكاننا المؤقَّت، وبعد نقاشاتٍ طويلةٍ بيني وبين أبي، قرَّرنا ألَّا نبقى على أطراف دمشق إذا أردنا ألَّا يتكرَّر ما جرى معنا في دوما والمخيَّم، علينا أن نسكن في قلب المدينة، لا ضمانة في البلد كلِّها، لكن تقديرًا لأبي وافقته عليه، لقد تعب أبي، كما تعبت أنا من الترحال. صحيحٌ أنَّ هذا القرار مكلفٌ ماليًّا في ظلِّ التردِّي المستمرِّ في وضعنا الماليِّ، لكنَّه الخيار الأفضل على المدى القريب، فالرحيل منهكٌ ومكلفٌ. غريبٌ أمر الأوضاع في البلد، تنتقل من مكانٍ يُقتَلَعُ سكَّانه ويُقصَفُ بالطائرات التي تُحدِثُ الرعب بين السكَّان إلى جرمانا، حيث ترى الحياة تسير على طبيعتها، وكأنَّ لا شيء يحدث في البلد، أو كأنَّ هذا المكان خارج البلد، صحيحٌ أنَّنا نسمع صوت بعض الانفجارات البعيدة، وصوت إطلاقات نارٍ، وهذا لا يغيِّر شيئًا من الحركة الطبيعيَّة للناس في المكان الجديد الذي انتقلنا إليه. لم أهتمَّ بحالة جرمانا، كما كان اهتمامي بالمخيَّم، ليس لأنَّنا قضينا في المكان فترةً قصيرةً فحسب، بل لأنَّ للمخيَّم معانٍ مختلفةً بالنسبة لي، مع أنِّي تربَّيت خارجه، شعرت بالانتماء له، وفيه فهمت لماذا لم أستطع أن أكون ابن دوما كما أردت وكما أراد أصدقائي الدوامنة. الموضوع لم يكن بإرادتي أو إرادتهم، الواقع القاسي هو الذي يطرح الأسئلة الصعبة وليس إرادات الناس البسطاء. فأن تعي أنَّك غريبٌ، هذا يعني أنَّك تنتمي إلى مجموعةٍ من الغرباء من الأصول نفسها، من أجل ذلك شعرت أنِّي أنتمي إلى المخيَّم أكثر من أيِّ مكانٍ آخر سكنته في

البلد، أنتمي إلى سكَّانه طبعًا وليس إلى المكان الجغرافيِّ. فالانتماء إلى الغرباء يعني الانتماء إلى الأماكن المؤقَّتة التي يعيشون فيها. من مكانٍ إلى آخر كانت تزداد غربتي في البلد، لقد أعلنت الحرب أنَّ أهالي البلد غرباء في بلدهم، فأصبح الكلُّ غريبًا، مدنٌ وأماكن كاملةٌ رُحِّلَ سكَّانها، فأصبحوا غرباء عند أبناء وطنهم في مدنٍ أخرى، أو في مناطق أخرى من المدن التي يعيشون فيها. حدث انقلابٌ كاملٌ في حياة البشر دون أن يعرف أحدٌ إلى أين تسير البلد بهذا الجنون. وأنا نفسي ضائعٌ، لا أعرف ما الذي أفعله بنفسي، أخذ اليائسون من الوضع في البلد يغادرون إلى الخارج، لأنَّهم رأوا استحالة العيش فيه، وشعروا أنَّه لم يعد بلدهم، تغيَّر كلُّ شيءٍ في البلد، الأماكن والبشر والأسعار. بالانتقال إلى ركن الدين، دخلنا مرحلةً جديدةً في تيهنا، الذي لم أكن أعرف إلى أين أو متى سينتهي. عندما تضيق الحال، تزداد المشكلات العائليَّة، فأنا قلقٌ طوال النهار لألف سببٍ وسبب، لا سيَّما بشأن الأولاد ومستقبلهم، ومنيرة قلقةٌ للأسباب ذاتها ولغيرها، وليس أمامنا أن نفرِّغ شحنات التوتُّر سوى في شجاراتنا معًا، لكنَّها كانت دائمًا شجاراتٌ مكتومةٌ لأنَّنا نعيش مع أهلي في البيت ذاته، ولا إمكانيَّة للاستقلال، هي تعرف ذلك، ولكن هذا لم يمنع تذمُّرها وضيقها من الوضع الذي نعيشه، فحتَّى لم نعد نتشاجر، كما يجب أن نتشاجر، حتَّى هذا الشيء المتواضع، قدرتنا على الشجار فقدناها. بات علينا أن نخرس، وأن نتشاجر بصمتٍ لأنَّ حياتنا مكشوفةٌ. لم يكن هذا يصلح دومًا، فلا بُدَّ من شجاراتٍ بصراخٍ، رغم كلِّ الاحتياطات، وهو ما كان يعني أنَّ على أهلي أن يسمعوا تفاصيل شجارنا، وهو ما يجعلهم يتدخَّلون بسرعةٍ، حتَّى يطفئوا نار الخلاف قبل أن يستعر وينفجر أكثر. وبذلك أيضًا، لم نكن قادرين على الشجار، حتَّى نفرِّغ طاقاتنا كما يجب أن تُفرَّغ، لأنَّ تدخُّل أهلي يعيدنا إلى هدوئنا دون تفريغ شحنة الغضب التي داخلنا، لا أنا ولا منيرة، ما جعل حالة التوتُّر في المنزل دائمة. سبَّبت لي أوضاع البلد المتردِّية مزيدًا من الضيق، وكلُّ يومٍ أفقد

المزيد من أملي بالمستقبل الذي يخلقه الدمار الذي يجعل هذا المستقبل مظلمًا. أخذ الجميع يغادرون البلد، أصدقاء، أقارب، معارف، هذه المرَّة ليست مغادرةً مؤقَّتةً، بل نهائيَّةً، إلى بلادٍ بعيدةٍ، تمنح الأمان للهاربين من الموت، وبدأ أقارب أبي بالرحيل من البلد إلى الدول الأوروبيَّة عن طريق رحلات التهريب، كلُّ شهرٍ نسمع عن أحد أفراد العائلة قد غادر البلد قاصدًا الهجرة. بدأ المسار أولاد عمِّي منير، الذين حاولوا المغادرة إلى أوروبا، عن طريق مصر عندما أقام عمِّي منير هناك، فشلوا فاعتُقِلوا وحُبِسوا لفترة ثمَّ أُعِيدُوا إلى لبنان. لكنَّهم لم ييأسوا ولم يستسلموا، وأعادوا المحاولة من جديدٍ عن طريق ليبيا ونجحوا هذه المرَّة في الوصول إلى أوروبا، ولحق بهم أبناء عمِّي خليل، الواحد تلو الآخر، حتَّى عمِّي وزوجته هاجروا، وابنه أحمد الذي كان محاصرًا في المخيَّم، قد تدبَّروا إخراجه من المخيَّم ولحق بإخوته هناك. وبعدهم لحقت عمَّتي بيان وأبناؤها بهم بعد أن سبقتهم ابنتها الكبرى من مصر. كما غادرت عمَّتي نوال وأولادها وزوجها. الكلُّ غادر أو يغادر، نسمع ذلك أو يأتون ليودِّعوا أبي. الرغبة في المغادرة معديةٌ، ولم أكن وحدي من أصابتني العدوى، أصبح الجميع يريدون المغادرة، وبات من الواضح ألَّا نجاة من هذه الأوضاع دون مغادرة البلد إلى بلدان اللجوء الجيِّدة. فكَّرت بالرحيل وبدأت أرتِّب أوضاعي من أجل الإقدام على هذه الخطوة. عندما طرحت فكرة أن أغادر وحدي، وأن أجلب عائلتي بعد أن أصل إلى هناك، رفضت منيرة الفكرة جملةً وتفصيلًا. وقالت: «يا بنسافر كلنا، يا بنبقى كلنا، أمَّا تسافر لحالك وتتركنا لحالي مع الأولاد عند أهلك فهذا مستحيل، ما بوافق عليه لو بدي أموت»، لم يكن هذا ممكنًا، فأنا لا أملك المبلغ الذي يسمح لنا بالمغادرة جميعًا، حتَّى لو أردت استدانته، ولا أستطيع أن أخاطر بأولادي في رحلةٍ خطرةٍ، أغامر أنا إذا حدث شيءٌ سيِّئٌ أتعرَّض له وحدي وهم ينجون، ولا أعرف كيف يمكن أن أتصرَّف إذا تعرَّضنا جميعًا للخطر. فكان من الأسهل أن أذهب وحدي، في حال نجوت، ينجون

معي، ويلحقون بي عبر رحلة طيرانٍ آمنةٍ. وفي حال تعرَّضت لخطر، أتعرَّض له وحدي. لم يقف الموضوع عند رفض منيرة التي قرَّرت تجاوزها، حتَّى لو أصرت على هذا الرفض. وكان العقبة الثانية، أبي الذي استفزَّته الفكرة، وغضب من تفكيري الأنانيِّ. قلت له: «يابا، كل الناس عبتسافر، ما ظل حدا بالبلد، عمامي وعمَّاتي وولادهم سافروا، ما ظل غير إحنا وعمي عبد الرحمن»، قال: «تسافر الدنيا كلها، وين بدك تسافر وتترك ولادك، وإذا صرلك شي شو بدُه يصير بهدول الولاد؟!»، قلت: «يابا، الموضوع ما بدُه هذا الغضب، كل الناس سافرت ووصلت»، قال: «مش صحيح، إنت بتحكي عن اللي وصولوا، بس ما بتحكي على اللي ماتوا»، قلت: «طيب خليني جرِّب حظِّي مثل هالناس»، قال: «حظنا بنعرفوا. بدك تسافر سافر، الله ييسرلك. بس أنا بقلك، أولادك ومرتك خطية برقبتك، إذا صرلك شي. شو بدو يصير فيهم؟ أنا زلمة ختيار، صار عمري سبعين سنة، ما بعرف إيمتى الله بياخذ أمانتُه، وما بعرف شو ممكن يكون مصير هدلون الولاد بدونك بهذا البلد»، لم يترك أبي لي مجالًا للتفكير في الموضوع، يمكنني تجاوز رفض منيرة ووضعها تحت الأمر الواقع، حتَّى لو ذهبت عند أهلها. لم يكن السفر ممكنًا دون موافقة أبي، لأنَّ أولادي سيبقون عند أهلي، وكلام أبي قطع الطريق عليَّ، ولم يبقَ خيار السفر قائمًا. وبقيت طوال الوقت أفكِّر في كسر كلمته وأغادر، وأضعه تحت الأمر الواقع، لكنِّي لم أجرؤ على فعل ذلك في الظروف المأساويَّة التي تمرُّ بها البلد. وجدت نفسي مجبرًا على البقاء بالضدِّ من رغبتي، وكلَّما سمعت أنَّ أحدهم نجح في الوصول إلى بلدٍ أوروبيٍّ وحصل على اللجوء، أحسده، وكلَّما ساءت الأوضاع بالبلد أشعر بالقهر من أنِّي غير قادرٍ على مغادرة البلد مع مئات الآلاف الذين غادروه ونجوا من الخراب الذي يستمرُّ بالتوسُّع. حتَّى عندما أُغلِقَت الحدود وأصبح من شبه المستحيل الوصول، لم تتراجع حسرتي من فشلي بعدم مغادرة البلد. باتت الأيَّام تمرُّ ثقيلةً، وكلُّ يومٍ يزداد الخوف من القادم، وأوضاعنا تزداد سوءًا

ومجبرين على التكيُّف معها، وكنت أعتقد أنَّ هناك قاعٌ للسوء الذي يمكن أن نصل له، ولكن مع استمرار استنزافنا، بدأت أعرف أن الأوضاع السيِّئة لا قاع لها. أنا وعائلتي وأبي وأمِّي وفراس وغدير نعيش في ذات الشقَّة الضيِّقة، التي كنَّا مضطرين في كلِّ مرَّةٍ أن ننتقل إلى شقَّة أضيق، لأنَّنا لم نحتمل كلفة الشقَّة السابقة التي يطالب أصحابها بأجرٍ أعلى، ونحن غير قادرين عليه. وأختي سلام تعيش مع عائلتها مع بيت حماها في أوضاعٍ ليست أفضل من أوضاعنا. ورشا التي أصرَّت على البقاء مع زوجها في الغوطة، عندما يشتدُّ القصف على المناطق التي يحتمل أن يكونوا فيها، يصيبنا القلق، وعندما ينقطع الاتصال معها نخاف عليها وعلى أولادها وزوجها، ونخاف أن يحصل الذي لا نرغب في حدوثه، كان الموت يحيط بنا من كلِّ جانب، ويهدِّد أحبَّتنا أينما كانوا. لم يأتِ الموت من القذائف ولا من القناص ولا من الانفجارات التي عمَّت البلد، الموت زارنا في الحرب كما زارنا أوَّل مرَّةٍ، لكن بطبيعةٍ مختلفةٍ هذه المرَّة. انتظرناه أن يأتي بالأسلحة المستخدمة في كلِّ مكانٍ في البلد، جاءنا من المرض وأصاب أصغرنا والشخص الأكثر ضعفًا بيننا. لم أصدِّق أنَّ أخي فراس قد أصابه سرطان البنكرياس القاتل، ونادرًا ما يصيب من هم في سنِّ فراس، وأصابه وهو طفلٌ مرضٌ نادرٌ أفقده بصره. لم يكن ينقصنا في كلِّ هذه الأوضاع المتردِّية سوى مرضٍ ميؤوسٍ منه، عندما أخبرني أبي أنَّ فراس مصابٌ بالسرطان، ضربت رأسي بالجدار، لا يمكن أن يصيب هذا الشاب البريء كلَّ هذا. سألت: «لماذا. يا الله، شوية عدالة»، مرض فراس استدعى ذكرى فاجعة أختي منى، التي صدمتنا بموتها المفاجئ، كانت أصغرنا ومدلَّلة الجميع، الكلُّ اتفق على أنَّ منى خارج أيِّ خلافٍ، ممنوعٌ على أحدٍ في العائلة أن يتسبَّب بزعلها، وهي ببراءتها كانت تمنعنا من إزعاج البراءة الأجمل التي تسير في البيت. كانت أجملنا وألطفنا، وكنت أحبُّها كأختي وكواحدةٍ من ابنتاي اللتان كانتا متعلِّقتين بعمَّتهنَّ التي تمارس طفولتها معهما. كنت أخاف عليها من الطريق وهي طفلةٌ، فأصرُّ على

توصيلها إلى المدرسة رغم قربها من البيت، عدَدتُ نفسي حارسها الشخصيَّ، حتَّى بعدما تزوَّجت أنا وخرجت من البيت، كان سؤالي الأوَّل عنها. وعندما أصبح في البلد هاتفًا محمولًا، أهديتها واحدًا، وكنت أتصل بها مرَّتين على الأقل يوميًّا. لم أعامل أيًّا من أخواتي البنات الأخريات بهذه الطريقة، بالطبع كنت أحبُّهن جميعًا، لكن لمنى مكانةٌ خاصَّةٌ أعلى وأعمق من الأخريات. لا أعرف إذا كان ذلك ينبع من إحساسٍ داخليٍّ عندي، بالخوف من الفقدان الذي سرعان ما سيحقَّق نفسه.

عندما اتصلت أختي سلام، وقالت وهي تبكي: «منذر، منى ماتت»، لم أسمعها، ولم أفهم الأصوات التي خرجت من فمها. قلت: «قصدك منى مريضة»، قالت: «لا، إختك ماتت»، لم يكن لهذا الكلام معنًى بالنسبة لي، ما معنى أن تموت منى، أصغرنا والأفضل صحَّةً بيننا. لم أحمل هذا الكلام على محمل الجدِّ، أنا متأكِّدٌ أنَّ هناك خطأٌ ما في تعبير سلام، كأنَّها لا تعرف ما تقول. غادرت عملي، وأنا على يقينٍ سأذهب إلى بيت أهلي، ومنى تنتظر ابنتيَّ لتأخذهما إلى غرفتها وتوقظ الطفلة التي داخلها لتلعب معهما بعيدًا عنَّا. لم أستطع قبول الفكرة، ولم أستوعب أنَّ هذه الكلمات تُقال عن منى، حتَّى عندما دخلت بيت أهلي وكان الجميع في حالة صدمةٍ وبكاءٍ، وأنا أنكر أمام نفسي أنَّ منى قد ماتت. حتَّى عندما دخلت غرفة أبي وأمي حيث سُجِّيَت منى، لم تظهر عليها علامات الموت، وجدت عينيها مغمضةً ووجهها يكاد يبتسم، وقبل أن أتأمَّلها، زاد عويل أمِّي التي تجلس إلى جوارها على السرير وهي تقول: «شفت يا منذر، إختك ماتت... إختك تركتنا..»، وتنحني على صدر منى وتبكي بكاءً مرًّا. قالت أمِّي كلماتها، وكأنَّها كلماتٌ مستعارةٌ من فمٍ آخر، فهي لم تصدِّق ما قالت، وأنا بدوري لم أصدِّق كلامها، ولم أرَ منى الممدَّدة على السرير ميتةً، انتظرتها أن تفتح عينيها وتكذِّب خبر وفاتها، لكنَّها لم تفعل ذلك. اقتربت منها، جلست على طرف السرير، هززتها، وقلت: «منى، منشان الله قومي»، توقَّعت أن تسمعني

وتفتح عينيها وتغادر السرير، ويغادر الذين يبكون البيت، لأنَّ منى تكذِّب خبر الموت بمتابعتها حياتها، دون أن تقول أيَّ كلمةٍ. لكنَّ منى لم تسمع كلامي، ولم تغادر السرير، حينها صدَّقت الكذبة، وشعرت أنَّ منى صدَّقت الكذبة أيضًا ودخلت فيها، لأنَّها لا ترغب في أن يكون من حمل لي الخبر كاذبًا، فمثَّلت الموت لدرجة أنَّها صدَّقته وماتت. انفجعت بموت منى، رغم عدم تصديقي له. عندما مشيت بجنازتها، لم أصدِّق أنَّنا نذهب إلى المقبرة في دوما لندفن منى. وقبل وفاتها، لم يكن لنا أيُّ عزيزٍ مدفونٍ هناك، لأنَّ جدَّاي دُفِنَا في مقبرة المخيَّم. رغم أنَّنا دفنَّاها وأخذنا العزاء فيها لثلاثة أيَّامٍ، بقيت غير مصدِّقٍ، كلَّ يومٍ أمسك هاتفي المحمول لأتصل بها، وعندما لا يردُّ أحدٌ على الجهة الأخرى من الهاتف، أتذكَّر أنَّ منى غادرتنا حتَّى لو رنَّ الهاتف فلن تردَّ على الهاتف الذي احتفظ به أهلي وانتزعوا منه بطاقتها، وتركوه ذكرى من ابنتهم الأقرب إلى قلوبهم، التي فاجأتهم وسقطت في حفرة الموت، التي خيَّمت على حياتنا لسنواتٍ.

رحلت منى سريعًا، دون وداعٍ، وشعرنا جميعًا أنَّنا أُخِذنا غدرًا في رحيلها، واعتقدنا أنَّ موتها جاء صعبًا لأنَّه سريعٌ بلا إنذارٍ. موت فراس كان فاجعةً حقيقيَّة لنا، وجاء في ظروفٍ نعيشها في غاية القسوة. كنَّا نحبُّ منى ونتعاطف مع فراس بسبب حالته المرضيَّة، أقول نتعاطف، لأنِّي لا أفضِّل كلمة نُشفِق. لم نكن نستطيع أن نزعج منى لأنَّنا نحبها، ولم نكن نستطيع أن نزعج فراس بسبب مرضه. كنت في الرابعة عشرة من عمري عندما وُلِدَ، وكنت البكر وهو جاء بعد ثلاثة بناتٍ تفصل بيننا، فرحت عندما قالوا إنَّ أمَّك أنجبت لك أخًا. كان وقع الكلمة قويًّا عليَّ. أخٌ، إنَّها مفردةٌ أشتاق لها لأنِّي كنت أحسد أصدقائي في المدرسة، عندما يقول أحدهم: «رح أنتظر أخي»، أو «رح روح مع أخي»، أو «رح أنتقم لأخي، في واحد كلب ضربُه..»، الخ. كان وقع الكلمة عليَّ ساحرًا، وتمنَّيت أن يكون لي أخٌ. ولطالما قلت لأمِّي: «ليش ما بتجبيلي أخ مثل رفقاتي»، لم ينسَ أبي مطالبتي بأخٍ،

فعندما وَلَدَت أمِّي جاءني وقال: «منذر، إمَّك جابتلك أخ»، فرحت جدًّا، وعدَدتُه مسؤوليَّتي. كان طفلًا جميلًا، بوجهٍ مستديرٍ، وشفاهٍ رقيقةٍ، وملامح ناعمةٍ، وعندما طال شعره، جاء ناعمًا على عكس من شعري المجعَّد. أمَّا عيناه فكانت أجمل عيونٍ أراها، ليست أجمل عيونٍ في عائلتنا، بل أجمل عيونٍ رأيتها طوال حياتي. عيونٌ واسعةٌ بخطوطٍ واضحةٍ، وبياضٍ صافٍ وسوادٍ صافٍ برموشٍ طويلةٍ، تكاد تصل حاجبيه. أخيرًا، سيكون سندي، سأحميه طوال عمري، لن أكون معه في المدرسة ذاتها، ولكنِّي لن أسمح لأحدٍ الاقتراب منه وإيذاءه. عندما خطى خطواته الأُوَل، كنت في غاية السعادة، عندما تسمح لي أمِّي أن آخذه إلى الخارج، كنت أفخر بأخي الجميل بين أصدقائي وأولاد الجيران. لم يصيبني الملل يومًا من اصطحابه خارجًا، فقد كان ولدًا هادئًا، ويحبُّ مرافقتي إلى الخارج، وكلَّما عدت إلى المنزل، كان يرفع يده عاليًا، ويقول لي: «باي... باي»، ويشير بيده إلى الباب الخارجي. في عمر الثالثة عندما عرفنا أنَّه يعاني من مرضٍ في عينيه قد يذهب بنظره، أصابتنا جميعًا الكآبة، وتمنَّينا أن تكون هذه النبوءة الطبيَّة كاذبةً. لكن تمنِّياتنا لم تتحقَّق، وفي عمر الرابعة تقريبًا، فقد فراس آخر ضوءٍ في عينيه الجملتين، التي كانت أجمل من أن تُصَاب بالعمى، ولم أصدِّق أنَّ هاتين العينان لا تستطيعان الرؤية. منذ طفولته قرَّر فراس مقاومة العمى، وكلُّنا قرَّرنا دعمه في معركته ضدَّ الظلام. استطاع أن يكمل دراسته في كلِّ مراحلها، واستطاع دخول الجامعة، وفكَّر أبي في تزويجه من إحداهنَّ، إن وجد البنت المناسبة، والتي يمكن أن تقبل بوضع فراس. لكنَّه رفض الفكرة، مستلهمًا فكرة أبي العلاء المعريِّ، الذي رفض الزواج حتَّى لا ينجب أولادًا، وقال بيت الشعر الشهير الذي يقول: «هذا ما جناه أبي عليَّ / وما جنيت على أحد»، كرَّر فراس بيت شعر المعريِّ أمامنا، وتجنَّب أن يقوله أمام أبي، حتَّى لا يجرحه، ويعدُّ أنَّه يقصده بالتسبُّب بعماه. أُعجِبَ فراس بالمعريِّ وتمثَّله عندما تعرَّف عليه في المرحلة الثانويَّة، وقرأت له الكثير من شعره،

وكما المعرِّي الذي أصابه العمى بسبب مرض الجدري، الذي لم يوقفه عماه عن متابعة تعليمه وسافر من المعرَّة إلى بغداد ليتزوَّد بالعلم، كذلك لم يوقف العمى فراس عن تحصيله العلمي، وأصرَّ على دخول الجامعة ليدرس في كليَّة الحقوق، تمنَّى أن يصبح محاميًّا يدافع عن المظلومين لو كان بصيرًا. استطاع التخرُّج في الجامعة، لكنَّه لم يستطع أن يكون محاميًّا، رغم ذلك عدَّ ذلك نجاحًا له، لأنَّه قطع الطريق الذي يستطيعه إلى هذه المهنة، وما منعه ليس قدراته، بل عيبٌ خَلقيٌّ لا يد له فيه. ولأنَّه لا يحبُّ الظلم، رفض فكرة الزواج، وقال لن أظلم امرأةً تبصر معي. كنَّا سعداء بتجاوز فراس لحالته وإصراره على التعلُّم، وهو ما أعطى حياته معنًى، لم يستطع أن يرى العالم بعينيه، جال في العالم عبر الكتب التي نقرأها له والتي باتت حياته، أو عبر الكتب الصوتيَّة المتوافرة باللغة العربيَّة. كانت الكتب كلَّ عالمه، العالم الذي يحوِّله من كلماتٍ إلى أشياء منظورةٍ في خياله. لم أكن أقرأ له كثيرًا، وأدَّت أخواتي بالجزء الأكبر من هذه المهمَّة. لكن عندما كنت أقرأ له، كنت أشعر أنَّه يغادر المكان، صحيحٌ أنَّ جسده يبقى مكانه، أمَّا روحه فتحلِّق في عالمٍ آخر، عالم الكلمات التي يسمعها. عندما أخبرني أبي، أنَّ فراس مصابٌ بسرطان البنكرياس صُدِمتُ بالخبر، لأنِّي أعرف أنَّ فراس الشخص البالغ الحساسيَّة، والذي زاده فقدان البصر حساسيَّةً، لن يستطيع تحمُّل هذا المرض، وإن لم يأتِ بخياره. لم أعرف أنِّي كنت أخلط بين الحساسيَّة والقوَّة، وفراس الحسَّاس، كان قويًّا في مواجهة مرض السرطان، الذي تعامل معه بسخريةٍ، وكأنَّه عدَّ المرض فرصةً للرحيل عن هذا العالم في هذه الظروف الصعبة، والتي تزداد صعوبةً، لكن ما أحزنه أكثر من مرضه، أنَّ مرضه تسبَّب بضيقٍ إضافيٍّ لنا في فترة الحرب، لا سيَّما مع فقدان الأدوية، التي باتت تكلِّف مبالغ هائلةً. استعجل موته من أجل تجنيبنا المزيد من التكاليف الإضافيَّة على مرضه المستعصي على المعالجة، وطلب مرَّاتٍ عدَّةً منَّا أن نتوقَّف عن شراء الدواء، لأنَّنا أولى بهذه الأموال التي لن تنقذه من

مرضه، ولن تفعل شيئًا سوى إطالة أمد ألمه الذي لا يحتمل. لطالما شعر نفسه ثقيلًا علينا، ومع مرضه شعر أنَّه يخنقنا ويظلمنا، لذلك رغب بموتٍ سريعٍ، لكنَّه أتاه بطيئًا، آلمه وآلمنا أكثر ممَّا توقَّعنا. كان مرضه فاجعةً استمرَّت أشهرًا طويلةً، أشهرٌ من الألم والمعاناة له، وأشهرٌ من القلق والدعاء له بالشفاء، وتخفيف ألمه وأحزاننا عليه. قتلني الحزن وأنا أرى فراس ضخم الجثَّة يذوي وينكمش بفعل المرض الحقير، انخفض وزنه بثباتٍ، والشابُّ الأقرب إلى السمنة، غدا في غاية النحافة، وباتت عظامه ناتئةً. من الغريب أنَّ كلَّ شيءٍ في جسده يشحب وينكمش باستثناء عيونه الميتة التي تزداد تألُّقًا وجمالًا كلَّما ذوى جسده، وكأنَّ هذه العيون ليست لهذا الجسد المريض. لم أعرف أنَّ موت فراس سيسبِّب لي الارتياح، ليس كراهيةً، بل لأنَّه لن يتحمَّل أوجاعه، وأنا بذلك تمنَّيت له الخلاص من هذه الآلام التي ظهرت وكأنَّها لا تنتهي، وفهمت أنِّي لست الوحيد الذي تمنَّى له الخلاص بموته، بل أخواتي أيضًا، لأنَّ الألم هائلٌ، وصراخه المرعب، يصدر إلينا ألمـًا هائلًا وحزنًا عليه يكاد يقتلنا، لذلك، عندما مات عدَدتُ أنَّه ارتاح. بكيته بألم، لم أرغب في تلك المغادرة، ولم يكن ثقيلًا علينا كما اعتقد، كنَّا نحبُّه أكثر ممًّا تصوَّر، لا أعرف إذا كنَّا قد استطعنا أن نوصل له هذه الصورة، أم فشلنا في التعبير عنها، دون أن يرى لغة جسدنا التي تحتفل به، ودون أن يرى الفرح على وجوهنا. موت فراس من أبشع وجوه الحرب في البلد، لم يستطع أن يمرض في المكان الذي أحبَّه، ولم يكن في المتسع أن نرعاه كما يجب أن نرعاه في ظروفٍ طبيعيَّةٍ، كانت صرخات الألم التي يطلقها في أيَّامه الأخيرة تقتلني، فقدت المسكِّنات والمخدِّرات التي تحقن في جسده قادرتها على تسكين آلامه، وكنَّا عاجزين عن فعل أيِّ شيءٍ في مواجهة هذه المصيبة، المرء لا يختار المصائب، وهي ليس لها وقتٌ مناسبٌ.

الموت... الموت، يلاحقنا في خراب الحرب، المصائب هي المصائب، وهي صعبةٌ عندما تأتي مجتمعةً أو متتابعةً. لم نشفَ من موت فراس، حتَّى

فجعتنا أختي غدير برحيلها. لم تعانِ من أيِّ مرضٍ، كانت في كامل صحَّتها، كنت قد غادرتها قبل وفاتها بقليلٍ، كانت تجلس على الطاولة في الصالون، وتقشِّر بيدها تفاحةً، قدَّمت لي قطعةً، أخذتها وشكرتها. قالت: «استنى خوذ كمان وحدة»، قلت: «شكرًا، مستعجل بدي أجيب منيرة والولد من عند أختها»، أضفت وأنا خارجٌ: «وين أهلي؟» قالت: «أخذوا بناتك، وراحوا يطلُّوا على ستي، قالوا مريضة»، لوَّحت لها بيدي وأنا أقول لها: «بدك شي من برَّة»، خرجت وأنا أسمعها تقول: «ما بدي غير سلامتك»، كانت هذه آخر الكلمات التي سمعتها منها، وكانت هذه آخر الكلمات التي تحدَّثتها مع شخصٍ آخر. لأنَّه بعد حوالي نصف ساعةٍ من خروجي، عاد أهلي من بيت جدِّي، ليجدوا غدير تجلس على الكرسيِّ الذي تركتها عليه، وتحني رأسها على الطاولة وقطع التفاحة المقشَّرة ما تزال أمامها على الطاولة.

كنت أعتقد أنَّ الألم الكبير يعدم الإحساس عند البشر، وما مرَّ معنا كان يجب أن يعدم إحساسنا بعد ما أصابنا من خسائر وآلامٍ وفقدانٍ حتَّى نستطيع الاستمرار في حياة العذاب هذه. عذَّبني مشهد أمِّي وأبي وأنا أشعر كلًّا منهما وهو في حالة توهانٍ في هذا العالم، توهانٍ من حجم المصائب التي لا تنتهي. لم يتعبوا من الزمن المنهك الذي عاشوه ومن خراب اللجوء المتكرِّر الذي لاحقهم خلال هذه الحرب التي حرقت الأخضر واليابس في البلد فحسب، بل أصرَّ الموت المجَّانيُّ لأولادهم أن يلاحقهم كسيفٍ لا رادَّ لحدِّه، سيفٌ ذبحهم من الوريد إلى الوريد أيضًا. كنَّا نعيش معًا في المكان نفسه، أجسادهم في المكان، أمَّا أرواحهم فقد كانت في مكانٍ آخر. رأيت في وجوههم التائهة معنى أن يفقد المرء أولاده وقسوة هذه التجربة. هم إخوتي ولم أستطع تحمُّل الألم الذي سبَّبه لي موتهم القاسي علينا جميعًا. كانا يتصرَّفان وكأنَّهما فقدا كلَّ أولادهم، وليس نصفهم، وكانا محقَّين في ذلك، لقد كنَّا نحن الباقين على قيد الحياة، أشبه بالموتى، أختي سلام ما زالت تسكن مع بيت حماها في بيت ابنهم المسافر في الخليج، وما كان مؤقَّتًا،

بات دائمًا بالنسبة لها ولأولادها الذين يكبرون ويذهب الواحد بعد الآخر منهم إلى الجامعة وتزداد مصاريفهم، في الوقت الذي تتراجع أوضاعهم الماليَّة مثل كلِّ الذين يعيشون في البلد. وأختي رشا التي قرَّرت البقاء مع زوجها في كلِّ الظروف، على أساس أن يبقيا في الغوطة يعيشان هناك أو يموتان هناك، هما وأولادهم، حتَّى أمنية الموت كانت ترفًا بالنسبة لهم، ليجدوا أنفسهم في مكانٍ لم يفكِّروا يومًا في الذهاب إليه، حتَّى في ظلِّ أكثر أيَّام الصراع قسوةً، وجدوا أنفسهم في مدينة إدلب. وهذا يعني بالنسبة إلى أبي وأمِّي أنَّهما لن يستطيعا أن يشاهدا رشا وأولادها بعد الآن. وأنا الوحيد القريب منهم، باتوا يشعرون بثقلهم من العيش معنا.

تزداد الحياة سوءًا يوميًّا، وعندما بدأت الحرب تنحسر والنظام ينتصر على الفصائل المسلَّحة، لم يكن الوضع يتحسَّن، بل كانت تتراجع أصوات الانفجارات والطلقات، لنكشف واقعًا مرعبًا أنتجه الفقر، وكان صوت القذائف العالي يغطِّي على أصوات الجوع، مع تراجع أصوات القصف وإطلاق النار، بدأ يصعد صوت الجوع القاسي.

نهش الفساد البلد قبل انطلاق الاحتجاجات، التي حلم فيها الشباب أن تكون لهم بلدٌ أكثر عدالةً وأقلَّ فسادًا، بلدٌ تسمَّى باسمها وتكون بلدهم وأن يقرِّروا مصيرها، لا أن تكون بلدًا تسمَّى على اسم رئيسها الذي تصادر عائلته مستقبل البلد وتغلقه للأبد. حلمت بهذا الحلم مثلما حلم الكثير من الشباب الذين كانوا يستحقُّون حياةً أفضل، وقدَّموا أرواحهم من أجل الوصول إلى بلدٍ تستحقُّهم ويستحقُّونها، كانت تضحياتهم غير مجديةٍ، خسرناهم وخسرنا البلد الفاسد لنصل إلى البلد المدمِّر، لم نكسب الثورة، ولم نستطع التراجع، ولأنَّ الثورة مرهقةٌ لا يمكن تحمُّلها طوال العمر، ولسحق الثورة سُحِقنَا، مشاركين بالثورة ومتعاطفين معها ومعارضين لها ومؤيِّدين للنظام، لم ينجُ أحدٌ من شظايا الوحشيَّة المسلَّحة التي قمع النظام فيها الثورة ودمَّر البلد، لا المعارضين ولا المؤيِّدين للنظام الوحشيِّ.

عندما بدأت عملي في السجل العقاريِّ، لم يكن راتبي جيِّدًا، لكنِّي وجدت أبي قد أسَّس المكتب وكان عمل المكتب جيِّدًا لأبي ولي، دخل المكتب مع راتب العمل، جعلني أشعر بالراحة الماليَّة، منذ بدء حياتي العمليَّة، لم تكن فكرة قبول الرشى تخطر على بالي، ورأيت أغلب من يعملون في السجل العقاريِّ حيث أعمل يتقاضون الرشى، وهو مكانٌ يُعرَف كمرتعٍ للفساد بسبب حاجة الناس للوثائق منه، لا سيَّما الذين يبيعون أو يشترون البيوت والعقارات. عرُض عليَّ الكثير من المال لأنجز الأعمال، ولم يكن هذا المال مقابل أشياء غير قانونيَّةٍ، بل من أجل تسريع معاملاتهم، لم أقبل هذه الرشى تحت أيِّ ظرفٍ، حتَّى عندما كان مقدِّمها يقول إنَّها على سبيل الهدية. أرفض بشدَّةٍ قبول أيَّ شيءٍ ماليٍّ أو عينيٍّ. وكانوا زملائي في العمل، يقولون لي: «إنت بتعمل هيك لأنَّك مش محتاج، بس إحنا المحتاجين شو نعمل؟»، كانت حجَّةً واهيةً بالنسبة لي، لأنَّهم ببساطةٍ عندما سدُّوا حاجتهم التي يقولون إنَّها دفعتهم لقبول الرشى، لم يتوقَّفوا عن جمع المال الفائض عن الحاجة ويراكموا ثرواتٍ من وراء الفساد. لم يأتِ الحال التي وصلت له البلد بالمصادفة، ولم يكن هذا التردِّي دون فاعلٍ. عندما قال أبي: «إن أي واحد من جيلي بس يشتغل بفتح بيت من راتبُه وبساعد أهلُه كمان»، كان يقول شيئًا لا يصدَّق، كأنَّه قادمٌ من تاريخٍ قديمٍ، في جيلي لم يكن أحدٌ يستطيع أن يفتح بيتًا براتبه دون مساعدة أهله، إذا كانوا قادرين على ذلك، فلا يكون ذلك برواتبهم الوظيفيَّة. لقد دُفِعَت البلد إلى الفساد دفعًا، والموظَّف المكتفي براتبه أصبح ينتمي إلى المحتاجين، عمله لا ينقذه من الحاجة، ولا يجعله يستطع بناء حياته بالزواج وبالحصول على بيتٍ، حتَّى لو أجرة. وعندما أقيس على نفسي، أعرف ما يعانون، لولا دخلي من مكتب أبي ومساعداته، لما استطعت فعل شيءٍ، لا بناء البيت الذي تزوَّجت فيه ولا دفع أغلب تكاليف الزواج في المرَّتين، ولما استطعت الزواج أصلًا. لذلك، كنت أفهم معاناة زملائي الذين جاؤوا من عائلاتٍ لا تستطيع

مساعدتهم، بل على العكس هذه العائلات هي التي تحتاج إلى مساعدة ابنها الموظَّف لأنَّ ظروفها صعبةٌ، والراتب الذي لا يكفي صاحبه، عليه أن يقتطع منه لمساعدة العائلة التي ربَّته. رغم تفهُّمي لم أستطع أن أكون جزءًا من هذا العالم الذي صنعه النظام ليجعل كلَّ سكَّان البلد مطلوبين، ويستطيع حبسهم جميعًا لأسبابٍ جرميَّةٍ، لم أستطع ذلك ليس لأنِّي كنت خائفًا، لم أستطع لأنِّي لم أرغب في أن أكون ملوَّثًا، لقد حماني أبي من التلوُّث وكنت شاكرًا له، لأنَّه منحني تعبه السابق في العمل، حماني من الانحدار إلى الرشوة، وهذا ما أشعرني بالراحة والتفوُّق على كلِّ الموظَّفين في الدائرة التي أعمل فيها. مع انطلاق الاحتجاجات في دوما، توقَّف العمل في المكتب، الذي يسهم بدخلنا الأساسيِّ عائلتي وعائلة أبي. وقد صمدنا في الفترة الأولى بفعل المدخَّرات التي جمعناها أنا وأبي وعمل أختي غدير كمدرِّسةٍ، لكنَّ هذه المدخرات أخذت تتبدَّد بسرعةٍ، لأنَّ لا دخل جديدًا، ودخولنا أخذت تنخفض بسبب انخفاض سعر العملة. وفي بداية الثورة وضع أبي أغلب مدَّخراته في أرض اشتراها ببلدة زملكا، معتقدًا أنَّ المشكلة في البلد ستنتهي سريعًا بانتصار أحد الطرفين، وسيحصد ربح ما فعل خلال فترةٍ قصيرةٍ، لكنَّ هذا لم يحصل، ودخلت الغوطة الشرقيَّة في حربٍ طاحنةٍ مع النظام، وباتت الأرض التي اشتراها أبي بتعب سنواتٍ لا قيمة لها، ولم نستطع بيعها عندما احتجنا إلى المال، فليس هناك من يريد شراءها، وهي تأتي بمبلغٍ زهيدٍ في ظلِّ المعارك التي تشهدها المنطقة، ولا أحد يعرف متى ستنتهي. انتظرنا سنواتٍ ولم تنتهِ، وهذا ما أدخلنا في الحاجة، بعنا الكثير من الذهب الذي تملكه أمِّي وأختي وزوجتي، مع وعودٍ بإعادته، دون أن نستطيع ذلك. وبعنا السيَّارتين اللتين نملكهما الواحدة بعد الأخرى، وتردَّت الأوضاع في البلد أكثر، وأوضاعنا الماليَّة تتردَّى معها. ولم نعد قادرين على دفع أجرة البيت والعيش بكرامةٍ بثلاث رواتب، راتبي وراتب أبي التقاعديِّ وراتب

أختي غدير. لا حلَّ للمشكلة سوى طريقٍ واحدٍ، أن أقبل ما لم أقبله في سنوات عمري السابقة، كانت الرشى هي الحلُّ.

عندما خرجنا من المخيَّم ودخلنا في متاهة استئجار البيوت، كانت أجرة أوَّل بيتٍ سكنَّاه في ركن الدين بعد فترةٍ قصيرةٍ قضيناها في جرمانا بلغت حوالي نصف راتبي الشهري، وكانت محمولةً لحدٍّ ما، ونحن نسكن معًا بثلاث رواتب، أنا وأبي وأختي، مع الوقت أخذت العملة السوريَّة في الانخفاض، وبعد ذلك بالانهيار، والبيت الذي كنَّا نستأجره بنصف راتبي الشهري أصبح يحتاج إلى راتبين مثل راتبي، ومع انهيار العملة في البلد وبعد سنواتٍ قليلةٍ من الصراع، بات البيت الذي نسكنه يحتاج إلى خمس رواتب مثل راتبي. وباقي شؤون الحياة باتت في الوضع ذاته من الغلاء الفاحش، الذي لسنا قادرين على تحمله، نحن من نملك ثلاثة رواتب، فكيف حال من لا يملك أيَّ دخلٍ وتشرَّد من بيته؟! لا خيار آخر أمامي، خيَّم وحش الحاجة علينا، ولم نستطيع الصمود دون دخلٍ إضافيٍّ، حتَّى المساعدات التي تأتي من هنا وهناك لا تغطي الاحتياجات المتزايدة، في بلدٍ انفجر فيه الغلاء انفجارًا وتبخَّرت الرواتب. عدت لأندم على عدم خروجي من البلد، وخضوعي لضغوط أبي، لأنَّ من غادروا استطاعوا أن يساعدوا عائلاتهم، فلا أمل لأيِّ عائلةٍ في البلد يعمل ربُّ عملها وزوجته أو لا يعملان العيش براتبيهما دون مساعداتٍ خارجيَّةٍ، تساعد على ترميم انهيار الدخول الذي أصاب البلد ودفع الأغلبيَّة الساحقة إلى الفقر. بل كلُّ البلد دخلت في مستنقع الفقر باستثناء تجَّار الحرب هنا وهناك. لست قادرًا على الصمود، وبات عليَّ أن أنضمَّ مجبرًا إلى آلة الفساد التي صُمِّمت للبلد ولم تترك أحدًا خارجها بعد انهيار أوضاع الناس الذين عضَّهم الفقر والحاجة بقسوةٍ، حتَّى بات الفاسدون من المحظوظين، لأنَّ الكثيرين ممَّن أرادوا الغوص في الفساد لم يجدوا الفرصة، لأنَّ الفرص باتت شحيحةً حتَّى بالنسبة للفساد، فاستمرَّت الحاجة في خنقهم دون مخرجٍ.

بدأت حياتنا بالانكشاف مع انحسار الحرب، كانت القذائف تغطِّي على حاجات الناس وإفقارهم، باعتبار انفجارات الحرب مؤقَّتةٌ، وعندما تتوقَّف سيتحسَّن الحال. مع توقُّف القتال، وانضمام منطقةٍ وراء الأخرى إلى المصالحات، وترحيل المقاتلين ضدَّ النظام إلى شمال البلد، انكشف الخراب الذي اخترق حياة البشر في البلد، فمن كان ينام في الحدائق العامَّة وفي الشوارع، على أساس أنَّها حالةٌ مؤقَّتةٌ ريثما يهدأ القتال، هدأ القتال وتبيَّن أنَّ الحالة ذاتها مستمرَّةٌ، وأنَّ الفقر والحاجة يعلنان عن نفسيهما في كلِّ مكانٍ على وجوه الناس، على طوابير الخبز والمواد التموينيَّة غير الصالحة للأكل، على بقايا الخضار التالفة، التي بات لها سوقٌ موازٍ للخضار الصالحة للأكل، وما كان عاديًّا قبل الحرب صار حلمًا بعدها، حتَّى أبسط الأشياء مثل سندويشات الشاورما التي كان بمقدور الجميع شرائها، باتت حلم الآلاف من الجائعين والفقراء. عادت سيطرة النظام على المناطق المحيطة بدمشق والكثير من المدن في البلد، لكنَّ البلد لم تعد إلى ما كانت عليه قبل الدمار الذي أصاب أغلب المناطق في محيط دمشق، رغم أنَّ المدينة نجت من الدمار، لكنَّها المكان الوحيد الذي لم يدمَّر في محيطٍ كلُّه دمارٌ، من يرى الوضع في مدينة دمشق، يشعر أنَّ البلد لم تشهد حربًا، من يشاهد الدمار الهائل في محيط المدينة، يعرف أنَّ حربًا مدمِّرةً شهدتها هذه البلد. عالمان مختلفان، وصورتان لنوعين من الحياة في المكان ذاته، لا يبعدان عن بعضهما سوى كيلومتراتٍ عدَّةٍ.

بلدٌ مدمَّرٌ وناس مطحونون، هذا هو حال البلد بعد سنواتٍ طويلةٍ من الحرب، التي لم تنتهِ بتوقُّف العمليَّات العسكريَّة، لأنَّ طحن البشر استمرَّ في البلد بعد تراجع العمليَّات العسكريَّة وانحصارها في الشمال. وكان علينا أن نتابع أخبار الشمال، لأنَّ أختي رشا وزوجها وصلا إلى هناك، بعد المصالحة التي جرت في زملكا مع فيلق الرحمن، الذي بموجبه نُقِلَ المقاتلين وعائلاتهم إلى مدينة إدلب وفق الاتفاق، وهي ذهبت مع زوجها إلى هناك،

وبتنا مشغولين عليها في أوضاعنا القلقة. قتلني الإحساس بالعجز، وأنا أرى أختي في الشمال وغير قادرٍ على فعل شيءٍ من أجلها، كما أنِّي أصبحت عاجزًا عن فعل شيءٍ لنفسي ولعائلتي. وأبي الذي بات يقضي أوقاتًا طويلةً خارج البيت بعد موت غدير، بات مشغولًا بشيءٍ واحدٍ بعد خروج مقاتلي جيش الإسلام من دوما. ومنذ اللحظة التي بدأت الباصات الخضر تذهب بالمقاتلين وعائلاتهم إلى إدلب، أخبرني قائلًا: «رح أرجع على دوما، إذا سمحولنا. أنا عرفت بيتنا ما تدمَّر، صحيح فيه خراب كثير، بس ممكن تصليحُه»، قلت: «يابا، شو بدك تروح تعمل هناك، البلد، لا فيها مي ولا كهربا، المكان مش صالح للعيش»، قال بلهجةٍ ساخرةٍ: «ليش أنا شو بعمل هون. ومن كثر المي والكهربا بالشام»، لم أردَّ عليه، لأنِّي عدَدتُ النقاش سابقًا لأوانه، صحيحٌ أنَّ المقاتلين يخرجون من دوما، لكن هذا لا يعني أنَّ النظام سيسمح للسكَّان بالعودة، فهناك الكثير من المناطق التي لا قتال منذ وقتٍ طويلٍ، مثل داريَّا والمعضميَّة، ولم يسمح النظام للسكَّان بالعودة إلى بيوتهم الصالحة للسكن. ربَّى أبي الأمل بالعودة إلى بيته في دوما، وكانت هذه أمنيته الأخيرة، لأنَّه قالها قبل عودته إلى دوما: «يابا، أنا بدي أرجع على دوما أموت ببيتي»، قلت له حينها: «يابا، منشان الله صلِّي على النبي، بلا هالحكي»، أبي الذي يريد العودة إلى دوما، ليس أبي الذي خرج منها قبل سنواتٍ، حطَّمته هذه السنوات تمامًا، كنت أعتقد أنَّ أبي صخرةٌ صلبةٌ لا شيء يكسرها، لكنَّ الحرب حطَّمته، وجعلته يبدو أكبر من عمره، أبي الذي امتلك جسمًا رياضيًّا، لأنَّه رجلٌ لا يهدأ، يملك فائضًا هائلًا من النشاط، حتَّى بعد أن تقاعد، حطَّمته الحرب وجعلته يهرم بسرعةٍ، وبات من الطبيعي أن نضبطه يتكلَّم مع نفسه. اعتقد أنَّ العودة إلى دوما ستعيد الروح إلى المكان، وتعيد روحه المتوهِّجة التي خسرها في الحرب، وربَّما اعتقد أنَّ هذه العودة ستعيد الأولاد الذين سرقهم الموت منه. لا أعرف ما كان يشعر به بالضبط، لكنَّه لم يكن يتصرَّف بالشكل الطبيعيِّ للتصرُّف الذي نعرفه عن

أبي. أراد أن يحقِّق أشياء متناقضةً، أن يهرب من الواقع المرِّ الذي حطَّمه، ويهرب إلى مكانٍ يستطيع فيه إعادة ترتيب حياته التي تبعثرت، وليس قادرًا على السيطرة عليها. قد يكون اعتقد أنَّ العودة إلى دوما، تعيد له الطاقة الأولى التي بدأ فيها حياته الأولى والتي بناها في هذا المكان الذي يريد العودة إليه، كبدايةٍ جديدةٍ وهو في ختام حياته، وكأنَّه يعتقد أنَّ موته سيكون بدايةً جديدةً، ولأنَّها كذلك، يريد العودة إلى المكان الذي نجح فيه أوَّل مرَّةٍ، لينهي حياته البائسة ويبدأ واحدةً جديدةً، تبدأ بموته. لم أعد أعرف أبي، لم يفقد قدراته العقليَّة وبقي يدرك ما يفعل وما يريد، لكن في جانبٍ من حياته، بات يرفض الحياة وكأنَّه يطلب الموت، لكن هذا الموت لا يأتي، أو أنَّه يبعده لتعلُّقه بأمِّي، التي اعتقد أنَّ ليس لها أحدٌ غيره، وإذا غاب فإنَّ حياتها ستكون صعبةً دونه، ولا يثق بأنَّ أيَّ أحدٍ غيره يمكن أن يرعاها كما يرعاها هو. ضمن يأسه من الحياة، كان يبحث عمَّا يعطيه القدرة على الاستمرار، بإيجاد دورٍ يعتقد ألَّا أحد غيره يستطيع القيام به. إنَّها تناقضات الرغبة بالحياة ورفضها في الوقت ذاته. رغم أنَّه رجلٌ مؤمنٌ وقابلٌ بقدره إلَّا أنَّ الظروف الصعبة والقاسية التي مرَّ بها جعلته في بعض الأحيان يكفر حتَّى بالله نفسه. ظروفٌ بلغت من القسوة ما يفوق طاقة البشر على الاحتمال. رغم ذلك، في الكثير من الحالات تراه بكامل اتزانه وتألُّقه، كأنَّ لا شيء حدث في هذا العالم، لا حرب ولا دمار ولا أبناء له ماتوا تباعًا، وفي لحظةٍ تاليةٍ يغيب عن الدنيا ويصبح شخصًا آخر، ويتحوَّل كلامه إلى هذيان، ويطفو على السطح كلُّ الألم الذي جهد لإخفائه. البشر طاقاتٌ مختلفةٌ وقدرتهم على الاحتمال متفاوتةٌ، لكنَّهم جميعًا في الظروف القاسية جدًّا يحتالون على حياتهم حتَّى يستطيعوا الاستمرار فيها حتَّى لا تدفعهم القسوة إلى الجنون.

كان أبي مثلي الأعلى للشخص العصاميِّ الذي يبني نفسه بنفسه، وكنت معجبًا جدًّا بتجربته، ليس لأنَّه أبي، بل لأنَّ خبرته الواسعة في الحياة

جعلته شخصًا متواضعًا بدل أن تجعله رجلًا مختالًا بنفسه، مع أنَّه لو فعل ذلك، لما لمته، لأنَّ في حياته ما يستحقُّ ذلك، وآخرون تجربتهم قزمةٌ أمام تجربته، تراهم يعانون من خيلاء مرضيَّةٍ. أبي الذي أُجِلُّه وأقدِّره كان يذوي أمامي، وكذلك حال أمِّي. لذلك لم أكن قادرًا على الاعتراض على عودتهم إلى دوما، وقرَّرت تركهم يفعلون ما يريدون، لأنِّي فكَّرت أنَّها قد تكون رغباتهم الأخيرة وأنا لا أريد أن أقف بينهم وبين هذه الرغبات، التي أعتقد أنَّها كانت تساعدهم بالبقاء على قيد الحياة، لذلك، لم أمانع العودة إلى دوما عندما سمحت السلطة لبعض الأهالي بالعودة إلى بيوتهم. إعادة تأهيل البيت للسكن كان مكلفًا للغاية بالنسبة لنا، لأنَّ وضعنا المالي خلال سنوات الحرب قد انهار هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى، لم يترك اللصوص أيَّ شيءٍ في البيت سوى البلاط، فقد سرقوا كلَّ شيءٍ. لذلك لم نستطع تأهيل كامل البيت، رُمِّمَت غرفة النوم والصالة والمطبخ والحمام، وأُغلِقت الغرف الأخرى، وتُرِكَت على حالها. تحمَّس أبي للعودة إلى دوما، ولم أفهم من أين أتاه هذا الحماس، وما الفرق الذي ستصنعه دوما في ظلِّ فقدانها لكلِّ الخدمات الأساسيَّة، فلا ماء يصل إلى المنازل، وعليهم أن يشتروا الماء من السيَّارات التي تنقله، وكان مكلفًا، ولا تيَّار كهربائيًّا، اشتركوا مع رجلٍ اشترى مولِّد كهرباء للمنطقة، ويمنحهم خطوطًا كهربائيَّةً ضعيفةً لحوالي خمس ساعات يوميًّا مقابل اشتراكٍ أسبوعيٍّ. وشبكة الهاتف المحمول والانترنت في غاية الرداءة في المكان. في ظلِّ هذه الأوضاع، لم أفهم، هل عاد أبي إلى دوما بدافع الحنين القويِّ الذي وُلِدَ عنده بعد أن غادرنا المكان، أم عاد إلى دوما لأنَّها تمنحه العزلة، ولأنَّه لم يكن يرى نفسه ذلك الشخص الذي كان عليه، ولا يريد أن يراه أحدٌ في لحظات ضعفه الأخيرة؟ لم يكن أبي شخصًا محيِّرًا في حياتنا، كان رجلًا في غاية الوضوح، لذلك من السهل التعامل معه. بات شخصًا محيِّرًا في الفترة الأخيرة من حياته. الرجل صاحب الوجه الواحد، الذي لا يضطر للبس أقنعه، بات شخصًا مضطربًا إلى حدٍّ كبيرٍ، لأنَّه لا

يصدِّق ما جرى معه وحوله، لأنَّ ما جرى غير قابلٍ للتصديق فعلًا. لم أترك أمِّي وأبي في دوما، وكنت أذهب إلى هناك مرَّتين في الأسبوع. أتصل قبل الذهاب لأعرف احتياجاتهم، أدوِّنها وأجلبها بدقَّةٍ، وأحاول بقدر المستطاع ألَّا أنسى شيئًا، حتَّى لا يغضب أبي ويعود إلى النغمة القديمة التي يستخدمها ضدِّي من أنِّي لا أستطيع فعل شيء دونه. طبعًا هذا غير صحيحٍ، لكنِّي وافقته على هذا الرأي طوال عمري، أو أوهمته بذلك، لأنِّي أحبُّه، بالنسبة له، كنَّا نحن عائلته كلَّ حياته، لم يكن له حياةٌ أخرى مثل كلِّ الرجال في السهر خارج المنزل، أو لعب الورق، أو الذهاب إلى المقهى وقضاء الوقت هناك. ورغم أنَّه لم يكن في شبابه متديِّنًا، فهو لم يتعلَّم التدخين، ولم يشرب الكحول، ولم تُعرَف عنه مشكلاتٌ مع النساء، سواءً قبل زواجه من أمِّي أو بعد ذلك، ولم يكن له مشكلاتٌ في العمل، وهذا ما عرفته، عندما عملت معه في نفس الدائرة، وقابلت أصدقاء له يعرفونه منذ بدأ العمل هناك. صورته عند الآخرين، صورة الرجل الدمث، الطيِّب، الذي يحبُّ مساعدة الآخرين، ولا يتدخَّل في شؤونهم، ولا يشارك في النميمة على الآخرين، حتَّى عندما يستمع، لا يحاول المشاركة، متسامحٌ مع من حوله، جدِّيٌ في عمله، ولا يحبُّ المزاح، لا سيَّما مع الأناس الذين لا يعرفهم. وهذه عكس الصورة التي كوَّناها عنه، نحن أبناؤه وبناته، فهو بالنسبة لنا، أبٌ صارمٌ، غير متسامحٍ، يتدخَّل بكلِّ تفصيل في حياتنا، يخنقنا ولا يتركنا نتخذ قراراتنا بأنفسنا، إذا لم يأخذ هو قرارنا بدلًا عنَّا، على الأقل يجب أن يسهم في هذا القرار، وإذا لم يعجبه قرارنا لا يهدأ حتَّى نعيد النظر فيه ونغيِّره. مع الوقت اعتدنا عليه، واستسلمنا لطريقة حياته، لم أستسلم وحدي، بل جميعنا استسلمنا لطريقته حتَّى أمِّي. وعندما كنَّا نسأل أمِّي: «ليش إنت مستسلمة، وما بتناقشيه ولا بشي؟!»، كانت تردُّ: «إنتو ما بتعرفوا أبوكو، أبوكو اللي شايفينوا بشخط وبنطر، وبتدخل بكل كبيرة وصغيرة، هو طفل في غاية الطيبة»، كنت أعتقد أنَّ هذه الإجابة، تنبع من امرأةٍ ساذجةٍ مثل

أمِّي، لم تغادر بيتها ولم ترَ العالم خارج المنزل حتَّى تستطيع الحكم على الأشياء والأشخاص، لا سيَّما على شخصيَّةٍ متسلِّطةٍ مثل أبي. مع الوقت عرفت أنَّ نظرة أمِّي التي لم تغادر بيتها، كانت مصيبةً، وهي أكثر من عرف أبي. وكلَّما تعمَّقت معرفتي بأبي، كان يتكشف صحَّة ما وصفته أمِّي عندما لم نصدِّقها. هل وصف أمِّي كان صحيحًا منذ البداية، أم أنَّ أبي الكهل عاد طفلًا حنينًا لطفولته؟ قد يكون هذا، وقد يكون ذلك، وقد يكون الاثنين معًا.

تقديري لأبي لم يتراجع يومًا، لم أعدَّه يومًا ملاكًا، أو رجلًا بلا أخطاء. كنت أحبُّ أبي، حتَّى ذلك الأب المتسلِّط، وهذه المكانة لم يهزُّها أيُّ خلافٍ معه، على قلَّة هذه الخلافات، لكنِّي حقيقةً لم أعرف مكانة أبي سوى بعد اختفائه. لم أترك طريقًا لم أبحث فيه، ولم أترك أحدًا لم أسأله، ولم أترك مشفًى في المدينة لم أبحث فيه، لم أترك مخفرًا أو فرعًا للمخابرات لم أسأل عنه فيه. لقد اختفى.

عندما اتصلت أمِّي، وقالت إنَّ أبي لم يعد إلى البيت في ذلك اليوم، اعتقدت أنَّه تأخَّر في مكانٍ ما، وسيعود على كلِّ حالٍ. قضيت أنا وخالي يوسف اليوم التالي لاختفائه نبحث عنه في كلِّ مكانٍ نعرفه في دوما دون جدوى. وعندما لم نجده، قرَّرت أن آخذ أمِّي معي، فلن أتركها تعيش وحدها. رفضت مغادرة دوما بشراسةٍ، قالت: «بدي أستنى أبوك»، قلت: «بتستنيه عنَّا، ما بقدر أتركك لحالك، بلكي ما رجع أبوي»، قالت: «ما تقول هيك عن أبوك»، نظرت إلى يوسف، الذي خفض رأسه وقال: «خيتا، ما بتخسري شي، بتروحي معنا، ما بتحبي تروحي عند منذر، تعي عندي»، قالت: «لا عندك ولا عندُه، أنا مو طالعة من بيتي، رح أستنى أبو منذر ليجي»، قضينا ساعات، ونحن نحاول إقناعها بمرافقتنا، وأنَّ أبي عندما يعود سيتصل بنا، ووقتها تعودين سريعًا إلى دوما.

لم يظهر أبي، في اليوم التالي، ولا في الأيَّام التي تلت، وكلّما توغَّل أبي في الغياب، شعرت بالفراغ الهائل الذي تركه، لم يكن إحساسًا باليتم، لأنِّي لم أعدَّ للحظةٍ أنَّ أبي قد تُوفِّي، إطلاقًا. إنَّه أقرب إلى إحساس الفطام القاسي، إحساس التعلُّق بالعادي الذي يعيش معنا، ولا نعرف قيمته الهائلة إلَّا عند غيابه. لذلك كان غياب أبي مهولًا بالنسبة لي. لم أصدِّق أنَّه لن يعود، انتظرته كلَّ يومٍ. وعندما لا أنتظره أو أنشغل، تذكِّرني أمِّي، وتسأل: «ما رجع أبوك؟!»، لم تملَّ من السؤال، انتظرت الرجل الذي عاش معها طوال حياتها، تزوَّجها طفلةً، بقيت هي طفلةٌ وبقي هو مخلصًا لهذه الطفلة التي أحبَّها، ولم يخذلها يومًا. عندما تستيقظ في الصباح الباكر، وأوَّل ما تراني، تسألني: «ما رجع أبوك؟!»، لا أعرف بماذا أجيبها، وفي النهاية كنت أقول لها: «وين بدو يروح بالآخر ما إلُه غيرك»، تبدأ يومها بالسؤال عنه، وتسأل عنه قبل أن تذهب إلى النوم، وما بينهما، تصبح غائبةً عن الوعي، بهذا الغياب حمت نفسها من قسوة الظروف التي مرَّت بها. كان أبي كلَّ ما تريده، تنتظره كأنَّه خرج قبل ساعةٍ واحدةٍ، وكانت على يقينٍ أنَّه سيعود، لم تندب بشأنه مثلما فعلت عندما مات إخوتي، لأنَّها ندبت ولطمت نفسها كما لم تفعل امرأةٌ من قبل. عندما اختفى أبي، بقي موجودًا بالنسبة لها، خرج لقضاء بعض الحاجات وسيعود بعد قليل. لم تهتزَّ ثقتها ويقينها بأبي يومًا، وكانت واثقةً هذه المرَّة أيضًا، أنَّه لن يخذلها ويذهب دون أن يعود، مهما طال الانتظار الذي تعيش عليه. ليست أمِّي وحدها من يذكِّرني كلَّ يومٍ بغياب أبي، رشا التي هُجِّرت إلى إدلب تتصل يوميًّا لتعرف هل عاد أبي، وعندما أسمع صوتها المكسور، تجتاحني رغبةٌ في البكاء، وأتمنَّى أن يعود أبي من أجلها ومن أجل أمِّي، أكثر منه من أجلي.

كلَّما سمعت خبرًا يقول إنَّ أبي يمكن أن يكون في هذا المكان أو ذاك، أذهب إليه للسؤال، وعندما يُقال، أنَّ أحدهم شاهد رجلًا يشبه أبيك في هذا السجن أو في فرع المخابرات ذاك. أذهب للبحث عنه عبر معارفنا

الذين لهم صلات برجال النظام، وعندما أسمع أن أحدهم خرج من فرع المخابرات هذا أو ذاك، أهرع لزيارته، لمعرفة إذا ما كان قد صادف أبي هناك. في كلِّ مرَّةٍ أعود بالخيبة، رغم ذلك لم أتوقَّف عن البحث عنه، حتَّى عندما فقدت الأمل، فأنا بحاجةٍ لوجوده إلى جانبي. لم أملك يقين أمِّي بعودته، لذلك شعرت بالخذلان باختفائه، وكأنَّه اختفى حتَّى يزيد ضعفي ضعفًا، وعلى عكس أمِّي، كنت واثقًا أنَّه لن يعود.

الفصل الثالث:
الموت الزاحف إلى الأقبية
(رشا سعد أحمد خليل)

أنا امرأةٌ مؤمنةٌ، لم تهتزَّ ثقتي بعدالة الله يومًا، حتَّى في أصعب الظروف التي مررنا بها، وإذا لم تتحقَّق العدالة على الأرض، فلا شكَّ عندي بأنَّها ستتحقَّق في السماء، لن ينجو الظالمون بظلمهم بعد كلِّ المعاناة التي سبَّبوها للآخرين. من الصحيح أنَّ الظلم الذي يقع علينا هو اختبارٌ لقدرتنا ولإيماننا بالله، ولكنَّ هذا الاختبار لا يعني أنَّ الظالمين هم أداة الله في اختبار إيماننا، وأنَّهم سينجون بظلمهم لنا. وأنا امرأةٌ يستفزُّني الكلام الذي يقول إنَّ ما جرى ويجري هو عقابٌ من الله لنا على ذنبٍ ارتكبناه ولا نعرفه، لأنَّ الله لا يُوقع العقاب في عباده دون ذنبٍ، ولا يمكن أن يكون عقابنا بلا سببٍ. أكره مثل هذا الكلام الذي يُنزِلُ الله جل وعلا إلى هذه التفاصيل، فالله عظيمٌ ورحيمٌ وعادلٌ، وأنا على قناعةٍ، إن أراد الله معاقبتنا، على الأقل سيبيِّن لنا عن أيِّ ذنب نُعاقب. وكما تقول سورة المائدة «اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، فالعقاب الشديد هو على الذنب الكبير، فلا عقاب على المجهول من الذنوب. عندما أُعَاقَب، أُعَاقَب على فعلٍ ارتكبته وأعرفه. فعندما تجري أيُّ محاكمةٍ يجب أن يعرف المتهم التهم المنسوبة

إليه، ويعطى الحقَّ في الدفاع عن نفسه. هذا في المحاكم البشريَّة، التي لا تقارن عدالتها بعدالة محكمة الله، وهو أعدل من كلِّ محاكم الأرض.

أنا امرأةٌ راضيةٌ عن حياتي في شقَّيها السهل أو الصعب، لأنِّي أعتقد أنَّ الله الذي سَهَّل لي حياتي في البداية، ووقف معي في الأيَّام الصعبة، وهذا ما جعلني أتجاوز كلَّ المحن التي مرَّت في حياتي. صحيحٌ كانت خسائري كبيرةً، لكنَّ ما قدَّره الله وقع، ولا يمكن تغييره، ولا يمكنني سوى القول، الحمد لله من قبل ومن بعد.

اليوم، أنظر حولي وأستغرب من وجودي في هذا المكان، لاجئةٌ مع عائلتي في مدينة إدلب، مدينةٌ لا أعرفها، لم أفكِّر في زيارتها، رغم أنَّها في البلد نفسه. أنا التي وُلِدتُ في مدينة دوما وترعرعت فيها، وتزوَّجت من محمد النايف وعشنا معًا في بلدة زملكا، البلدة التي وُلِدَ وكبر فيها. لم يكن طموحنا أكثر من تأسيس عائلةٍ سعيدةٍ راضيةٍ بما قسمه الله لها، محمد وأنا لم نُرِد الكثير من الأشياء، لم نطلب سوى ما يكفينا فقط، وما يضمن للأولاد مستقبلًا معقولًا، نعمةٌ من الله نشكره عليها. عدَدتُ محمد أفضل هديةٍ قدَّمها ربِّي لي، فهو رجلٌ لم يخذلني يومًا، وزادني ربِّي فضلًا بأن منحني ثلاثة أبناء، ولدان وبنت، هديةٌ أشكر الله عليها كلَّ يومٍ، وأدعوه أن يحفظهم لي، وقد استجاب لدعواتي وحمانا طيلة الحرب التي استمرَّت لسنواتٍ طويلةٍ، أشعرها وكأنَّها طالت لقرونٍ لا تُعَدُّ. لقد نجونا معًا رغم كلِّ الأهوال التي مررنا بها، شعرت في أوقات الضيق الشديد أنَّنا لن ننجو، ولم أكن أملك سوى الدعاء لربِّي بالقول، «يا الله أنت الحامي وأنت المنجي، وإحنا ما إلنا غيرك، خذنا بعطفك ورحمتك»، فنجونا برحمة الله وحمايته.

وُلِدتُ لأسرةٍ فلسطينيَّةٍ تعيش وسط أهالي مدينة دوما، ترتيبي الرابعة بين إخوتي الستة. رغم ذلك لم أشعر نفسي غريبةً عن دوما. كانت جميع صديقاتي في المدرسة من أهالي دوما، ويعود ذلك، لأنَّ أبي منذ البداية أرادنا أن ندرس في المدارس الحكوميَّة في دوما، ولم يسجِّلنا في مدارس الأونروا،

التي كان يُسجَّل الطلاب والطالبات الفلسطينيُّون فيها. صحيحٌ أنِّي فلسطينيَّةٌ من جهة أمِّي وأبي، وصلة القرابة هذه تذكِّرني بفلسطينيَّتي دائمًا، التي لم أكن أخجل منها مثل بعض الفلسطينيَّات اللواتي قابلتهنَّ في حياتي، واللواتي يخجلن من فلسطينيَّتهن، أنا على العكس لطالما أفخرت بفلسطينيَّتي وبتجربة أبي التي لم يتحدَّث لنا عنها كثيرًا، ولكنِّي عرفت الكثير من تفاصيلها من الآخرين. انخرط أبي في العمل الفدائيِّ الفلسطينيِّ في بداية حياته، وأصيب بجرحٍ بليغٍ في بطنه جرَّاء قصفٍ للطيران الإسرائيليِّ على المعسكر الذي كان يخدم فيه. وأفخر بأنَّه خاض حرب تشرين ضابطًا في سلاح المدفعيَّة في الجيش السوريِّ على الجبهة الجنوبيَّة، وحاز وسام البطولة، الذي كان معلَّقًا في صدر الصالة في بيت أهلي في دوما. ولأنِّي كنت أفخر بالانتماء لهذا الرجل، الذي تقول صوره القديمة إنَّه كان رجلًا وسيمًا يشبه في شبابه ممثِّلي السينما، وحافظ على وسامته حتَّى وهو يشيخ، فَخَرتُ بالانتماء إلى المكان الذي وُلِدتُ فيه وانتميت له، ولم أتذمَّر يومًا من دوما التي وُلِدتُ فيها. عدَدتُ نفسي وُلِدتُ لعائلةٍ مثاليَّةٍ وفي مكانٍ مثاليٍّ، وأنَّ وجهي كان حلوًا على أبي كما يقول، لأنَّه اشترى البيت الذي عشنا فيه في دوما في اليوم الذي وُلِدتُ فيه، فعَدَّ قدومي سعدًا عليه، ولم يرَ في ولادة البنت مدعاةً للحزن، وأنَّه يفضِّل الأولاد على البنات، كما هو حال الكثير من الرجال في المجتمع الذي عشنا فيه، رغم أنَّه رجلٌ متديِّنٌ. ولم يفكِّر في إخراج أيٍّ من بناته الأربعة من المدرسة، كما فعل أغلب رجال دوما ببناتهنَّ. وحزنت على الكثيرات من صديقاتي المتفوِّقات في المدرسة اللواتي كنَّ ينتظرهن مستقبلٌ واعدٌ، وفجأةً يتبخَّر هذا المستقبل بقرارٍ مجحفٍ من الأب بإنهاء تعليم الفتاة بعد حصولها على الشهادة الإعداديَّة، وكان الكثير من الرجال يَعدُّ هذه الشهادة نهاية العلم للبنت، ما حطَّم مستقبلهنَّ وحوَّلهنَّ إلى خادماتٍ في بيوت أزواجهنَّ، وكنَّ خسارةً كبيرةً. منذ كنت طفلةً صغيرةً، حين أُسأَلُ: «شو بدك تصيري لما تكبري؟»، كان ردِّي: «بدِّي

أصير مهندسة»، لم يعترض أبي يومًا على هذا الطموح، ولم يقل إنَّ هذه المهنة للرجال، وهي كذلك في هذا البلد، وأنَّ عليَّ اختيار مهنةٍ تناسب النساء، مثل أن أكون معلِّمةً، أو دكتورةً، أو ممرِّضةً. كان يشجِّعني، ويقول: «رح تكوني أفضل مهندسة في العالم»، لم أشعر أنَّه أبي فحسب، بل هو بطلي أيضًا. لم يترك أيًّا منَّا -نحن البنات- دون تعليمٍ، رغم أنَّ أخي منذر قرَّر أن يختصر تعليمه ليعمل مع أبي وبمهنته، ما جعله يلتحق بعد الثانوية العامَّة بالمعهد المتوسِّط الذي أهَّله للعمل، أمَّا نحن البنات فقد أكملنا دراستنا الجامعيَّة جميعًا، حتَّى أخي فراس الذي أصيب بالعمى وهو طفلٌ صغيرٌ، قاوم مرضه وانتصر عليه وتخرج في الجامعة. أستطيع القول إنَّنا كنَّا من أهالي دوما، ولم نكن من أهلها، كنَّا نعيش وسطهم كعائلةٍ من عائلات المدينة الريفيَّة، وفي الوقت نفسه لم نكن نتبع عاداتهم الثقيلة، من اللباس الثقيل للتستُّر أو تغطية الوجه، ورغم أنَّنا ملتزماتٌ دينيًّا في لباسنا على الأقل، كانوا يعدُّوننا في البلد نساءً سافراتٍ دون تغطية وجهنا، ودون أن نلبس المانطو الطويل.

عشت طفولةً سعيدةً بكلِّ المقاييس، كنَّا عائلةً لرجلٍ يحبُّ عمله ويحبُّ عائلته، ولم يكن له حياةٌ أخرى، سوى حياة العائلة، لذلك دائمًا ما كان يوم العطلة من نصيبنا كعائلةٍ، نقضيه صيفًا في بساتين دوما الجميلة. قبل أن نملك سيَّارةً، كنَّا نجتمع وبيت جدِّي وبعض عائلات أخوالي، يستأجر أبي ميكروباص صغيرًا أو أكثر من واحدٍ نركب جميعًا، ويختارون منطقةً جميلةً من مناطق الغوطة، التي غالبًا ما يختارها أبي، لأنَّه الخبير في الغوطة بحكم عمله في كلِّ مناطقها، والتي يعرفها شبرًا شبرًا، وكانت هذه النزهات أجمل أيَّام طفولتي، يسعدني فيها اللعب مع أبناء خالاتي وأخوالي. ولم نكن في ذلك الوقت نذهب لزيارة بيت جدِّي لأبي في مخيَّم اليرموك. لم أعرف السبب، كانت زياراتنا لأقاربنا من جهة أبي نادرةً، أمَّا بيت جدِّي من جهة أمِّي، فقد كنَّا عائلةً واحدةً تقريبًا. في الشتاء نتدبِّر دعوةً لأحد أخوالي أو

خالاتي أو عائلتين منهم لبيتنا، بدلًا من النزهة التي نذهب إليها في الصيف. لم يكن السبب في هذا التقارب والتباعد لكلا بيتَي جدِّي له علاقةٌ بقرب المسافة منَّا، بمعنى لم تكن العلاقة الجيِّدة فقط لأنَّنا نسكن في المكان ذاته الذي يسكن فيه بيت جدِّي لأمِّي وأخوالي وخالاتي، ويسكن أبعدهم عنَّا مسافةً لا تزيد عن ثلاث كيلومتراتٍ. بينما مخيَّم اليرموك الذي يسكن فيه أغلب عائلات بيت جدِّي لأبي، يبعد عن دوما حوالي عشرين كيلومترًا، فهو يقع في جنوب مدينة دمشق، في الوقت الذي تقع دوما في شمال شرق مدينة دمشق، وهي المدينة الأكبر في الغوطة الشرقيَّة. الخلاف بين أبي وأهله قديمٌ، فهو بدأ حياته الزوجيَّة في المخيَّم، هناك أسَّس أسرته، عندما تزوَّج أمِّي سكن في بيت جدِّي، وهناك أنجب بِكرَهُ -أخي منذر-، غادر منزل أهله والمخيَّم بسبب الخلافات العائليَّة، ولم يعد إليه. قالت أمِّي إنَّها خلافاتٌ عاديَّةٌ بين أيِّ حماةٍ وزوجة ابنها، ولا خلاف كبيرًا، لكنَّ حساسيَّة أبي والخلاف الذي جاء في أوقاتٍ صعبةٍ يمرُّ بها، جعلته يتحوَّل من خلافٍ إلى جرحٍ، لم يستطع مسامحة أهله على ما عدَّه إذلالًا له في لحظاتٍ صعبةٍ، وهو الرجل المعتدُّ بنفسه. لم يتكلَّم أبي معنا عن خلافاته مع أهله إطلاقًا، لا أيَّام كانت علاقاته بهم سيِّئةً، ولا حتى عندما أصبحت علاقته بهم أفضل. لم تكن صورتهم عندي سيِّئةً، رغم أنَّها صورةٌ ضبابيَّةٌ لجدٍّ في غاية القوَّة، كما صوَّرته أمِّي، ووافق أبي على توصيفها، لذلك في المرَّات القليلة التي شاهدته فيها، كان له هيبةٌ ووقعٌ قويٌّ في نفسي، رغم أنَّه رجلٌ عجوزٌ، فهو رجلٌ ضخمٌ، بيدين كبيرتين جدًّا، لم أرَ في حياتي يدين بهذه الضخامة، أسمرٌ بغطاء الرأس الأبيض، بملامح وجهٍ قاسيةٍ، عبر عليها زمنٌ طويلٌ وظروفٌ غريبةٌ، بابتسامةٍ خجولةٍ تُظهِرُ طقم أسنانه، وبعينه المطفأة التي تضفي على وجهه قسوةً إضافيَّةً. كنت أعتقد أنَّ هذه الصورة، هي التي كوَّنتها -وأنا طفلةٌ- عن جدِّي الأسطورة، الذي قاتل اليهود وخسر عينه، وفق روايات أهلي عن هذا الشخص الأسطوريِّ. لكن بقيَ الانطباع نفسه يجتاحني كلَّما قابلته، لم

تتغيَّر هيبته بالنسبة لي، حتَّى عندما أصبح لديَّ أطفال. والغريب أنَّ هذه الصورة التي كوَّنتها عن جدِّي لأبي، مختلفةٌ تمامًا عن صورة جدِّي لأمِّي، صاحب الملامح الناعمة، وهو يصغر جدِّي الآخر بأكثر من عشرين عامًا، لدرجة يمكن أن يظهر كأنَّه ابنه. جدَّتي لأبي امرأةٌ عجوزٌ أيضًا، قليلة الحجم، على عكس جدِّي الضخم. امرأةٌ قصيرة القامة، بملامح ناعمةٍ، بعينين جميلتين ذكيَّتين لامعتين منتبهتين، ببشرةٍ بيضاء ناعمةٍ، شعرٍ أسود فاحمٍ، لم يمسَّه الشيب رغم شيخوختها، أدهشني عندما عرفت أنَّه شعرها الطبيعيُّ وهو غير مصبوغٍ. عدم قدرتها على تحمُّل طقم الأسنان في فمها جعل تجاعيد وجهها أكثر عمقًا، لم تُخفِ التجاعيد ملامحًا تشي بأنَّها امتلكت يومًا وجهًا في غاية الجمال. ولأنَّها امرأةٌ تصاب بشعور القرف من الكثير من الأشياء، كان منعكسها الإقيائيُّ عاليًا، جرَّبت أطقم أسنانٍ عدَّةً، لم يصمد أيٌّ منها في فمها أكثر من خمس دقائق، على عكس جدِّي الذي سرعان ما تأقلم معه. أخذت جدَّتي تأكل على لثتها، فتلاشت هذه اللثة تقريبًا، وباتت تأكل على عظم الفك بسهولةٍ أكبر، ونسيت مسألة طقم الأسنان وتكيَّفت مع حياتها. لم أرَ جدَّتي تلك المرأة القويَّة التي تتكلَّم عنها أمِّي، ولم أقتنع أنَّ هذه المرأة القليلة الحجم لها من القوَّة ما يتحدَّثون عنه، لا سيَّما أنَّها لم تدخل مدرسةً ولا تعرف القراءة ولا الكتابة. ابتعد أبي عن عائلته ليبني أسرةً هادئةً بلا مشكلاتٍ كبرى، وقرَّر أن يبقى في دوما بعد سكنه فيها، مع أنَّه فكَّر بالعودة للسكن في المخيَّم، لكنَّه وجد دوما تناسبه أكثر من صخب المخيَّم، وانفتاح الحياة الاجتماعيَّة التي تُفقِدُ كلَّ إنسانٍ خصوصيَّته هناك، وهو ما كان يزعج أبي قبل الخلاف مع بيت جدِّي والخروج من المخيَّم. كلُّ الأحاديث عن تجربة العيش في المخيَّم سمعتها من أمِّي ولم يحبَّ أبي الخوض فيها، لأنَّه أراد إبعادنا عن هذه الخلافات التي لا يجب أن نحمل وزرها. ومثل أيِّ بنتٍ، أصابني الفضول لمعرفة كلِّ شيءٍ عن حياة أمِّي وأبي السابقة، كيف تزوَّجا؟ وكيف هي علاقتهما؟ وما الأشياء التي اختلفا عليها؟

لم يكن ذلك من أجل معرفة أسرار هذه العلاقة فحسب، وهو ما كنت أحبُّ معرفته، ولكن من أجل معرفة إلى أيِّ عائلةٍ أنتمي، وأن أتعلَّم من تجربتهم. لم تكن روايات أمِّي لحياتهم السابقة مقنعةً، ليس لأنَّها اختلقت القصص، وهو ما لم تفعله، بل لأنَّ قدرتها على رواية الأحداث تفتقد إلى الجاذبيَّة ولا تشدُّ المستمع، وهو يعود إلى طريقتها المتردِّدة في الحديث، ما يجعل جملها مفكَّكةً وغير مقنعةٍ. في طفولتي أردت صورةً مثاليَّةً لعائلتي، عائلةٌ من الملائكة، لا يختلفون ولا يتصارعون، ويساندون بعضهم البعض، أي أنَّها صورةٌ لعائلةٍ لا وجود لها إلَّا في خيالي. مع الزمن عرفت أنَّ هذه العائلات ليست في الواقع، وأنَّ الخلافات والصراعات هي جزءٌ من الواقع، لا بُدَّ للمرء أن يعالجها أو يتكيَّف معها. صحيحٌ أنِّي كنت طفلةً متسامحةً، لكنِّي لم أسكت يومًا عن حقِّي، وهذا ما سبب الصراعات بيني وبين إخوتي، أو بيني وبين زميلاتي بالمدرسة. وبدأت أعرف أنَّ الصراع جزءٌ من الحياة، وأن نكون متسامحين مع الآخرين هذا لا يعني انتهاء الصراع، لأنَّه ببساطةٍ جزءٌ من الحياة. كنت أحبُّ إخوتي أكثر بعد شجارنا معًا، وكنت أحاول أن أفعل ذلك مع زميلاتي في المدرسة، دون أن أنجح مثل البيت؛ في المدرسة زميلاتي لَسنَ مجبراتٍ على استمرار العلاقة معي، فهناك خياراتٌ واسعةٌ في علاقات الصداقة، وهي علاقاتٌ غير ملزمةٍ. أمَّا الأخوَّة علاقةٌ غير اختياريَّةٍ، لأنَّ في العلاقة معهم ليس هناك أيُّ خيارٍ، الأخوَّة علاقةٌ لا يمكن إنهاؤها بقرارٍ كعلاقة الصداقة، حتَّى عندما نختلف مع أخوتنا، لا يمكن أن يذهب كلُّ واحدٍ في اتجاه، لأنَّ اتجاهاتنا واحدةٌ مهما كانت صعبةً. عندما تعرَّفت على الحياة، تعرَّفت على صعوباتها، وكنت دائمًا أستعين بالله لإنجاز ما عليَّ إنجازه، ليس بمعنى الاستعانة بالله دون العمل على هذا الإنجاز، كما يفعل البعض، فيحصلون على يريدون دون أن يبذلوا أيَّ شيءٍ سوى الاستعانة بالله، وأنا على قناعةٍ، أنَّ الاستعانة بالله من أجل الفوز تأتي بعد أن يبذل المرء الجهد اللازم لإنجاز ما يريد، وهنا عندما يستعين بالله يرى الله يعينه،

فالله لا يريد أن يضيّع جهد أيِّ إنسانٍ على هذه الأرض. وأيُّ تقصيرٍ يعني أنِّي لم أبذل الجهد اللازم لاستكمال المهمَّة، وبذلك يكون العيب فيَّ أنا، وليس بإرادة الله في مساعدتي. ولأنِّي أقوم بذلك طوال عمري، وأستعين بالله بعد أن أؤدي ما يجب عليَّ القيام به، لذلك لم يخذلني ربِّي ولا مرَّة في حياتي.

أنا الوحيدة بين إخوتي التي درست الفرع العلميَّ، لأنِّي رغبت فعلًا في أن أكون مهندسةً، ولم يكن ذلك مجرَّد أحلام أطفالٍ سرعان ما تتغيَّر. ولم يكن أهلي يتوقَّعون أن أكمل مشواري هذا، لأنَّ لا أحد في محيطي يعمل مهندسًا حتَّى يكون مثلًا ملهمًا لي. منذ كنت طفلةً، سُحِرتُ بالمباني وعلوِّها، وشعرت أنَّ من يبنون البيوت يخلقون العالم ويرتِّبونه، لم أدرك أنَّه ليس شخصًا واحدًا من يبني، إنَّما هو نتاج جهود مجموعةٍ من البشر. كان يغريني لأنَّه نوعٌ من الخلق على نمطٍ معيَّنٍ، وهذا قبل أن أدرك، أنَّ هناك مهندسٌ لا يمكن أن يُنَافَس، مهندسٌ خلق الكون كلَّه بأدقِّ تفاصيله، خالقٌ رائعٌ، لا يمكن سوى الانحناء له وعبادته، ولم يخلق كلَّ شيءٍ فقط، بل خلقنا نحن أيضًا على أحسن وجه. وحبِّي للهندسة جعل إيماني بالله أقوى وأعمق، نحن الذين نحاول أن نكون ما أراد الله منَّا أن نكون، مؤمنون به صادقين مع أنفسنا ومع الآخرين. درست بجدٍّ لأثبت أنِّي أستطيع تحقيق أحلامي، وفي الصف العاشر، وهي السنة التي يحدِّد فيها الطالب هل سيدرس الفرع الأدبيَّ أو العلميَّ، عندما سألني أبي: «شو بدِّك تدرسي علمي ولا أدبي؟»، استغربت السؤال وقلت: «بابا، أنت بتمزح، أنت عارف شو بدِّي أدرس من زمان؟!»، قال متراجعًا: «كنت بدِّي أتأكَّد. الله يوفقك، وينولك اللي ببالك»، كانت الدراسة هي همِّي الرئيسيُّ في الحياة، أردت تحقيق حلمي، لأثبت لنفسي أوَّلًا أنِّي قادرةٌ على اتخاذ قراري، وثانيًا التحكُّم بحياتي لتحقيق طموحاتي، وتنفيذ قراراتي. لم تكن الدراسة مجرَّد طموحٍ بالنسبة لي فحسب، بل كانت تمرينًا على الحياة العمليَّة أيضًا.

اتخذت قراري وأنا في المرحلة الإعداديَّة بأنِّي سأعيش حياتي كامرأةٍ مؤمنةٍ، وسأسعى بقدر ما أستطيع ألَّا أغضب ربي، وذلك بالتزامي بما يمليه إيماني عليَّ، ليس بالمعنى الشكليِّ لمفهوم الإيمان الذي يتعلَّق باللباس وتأدية الفروض بوصفه أضعف الإيمان، وتركه في الوقت ذاته خارج حياتنا الفعليَّة، أي أنَّ الإيمان مجرَّد طقوسٍ تلزمنا، وليس حياةً نعيشها يحكمها إيماننا بالله. نحن بشرٌ غير معصومين، نحاول أن نكون مؤمنين ملتزمين بما يمليه هذا الإيمان. لم يكن الإيمان بالنسبة لي مسألةً شكليَّةً، إنَّما هو طريقة حياةٍ للتقرُّب من الله. كنت أنفر من بعض طرق التديُّن التي تتبعها صديقاتٌ عرفتهنَّ، وكنَّ بإيمانهنَّ يستهدفن الاحتيال على الله - أستغفر الله على هذا التعبير - لأنهنَّ يردن إقناعه بأنَّهنَّ مؤمناتٌ لأنهنَّ يرتدين الحجاب ويُؤدِّين الصلوات الخمس، وما عدا ذلك ليس في حياتهنَّ أيُّ شيءٍ آخر له علاقةٌ بالإيمان، فالإيمان عندهنَّ ينتهي عند الشكليَّات، وكأنَّ هذه التفاهة تمرُّ على العزيز القدير. أمَّا بالنسبة لي، فقد كنت أرى الله في كلِّ تفصيلٍ من تفاصيل الحياة، وبنيت حياتي كلَّها على أنَّ الإيمان طريقة حياةٍ، ليس فقط لإرضاء الله وهي غايةٌ كبرى، بل ولإرضاء نفسي، لأنِّي أعتقد عندما أكون راضيةً عن نفسي، أستطيع إرضاء الله. لذلك كنت أرى اختبار إيماني في كلِّ تفاصيل الحياة، ليس في المحن الكبرى، وليس في الالتزامات التي يفرضها الدين فحسب، بل حتَّى في التعامل الحسن مع الآخرين، كأن أجعل طفلًا باكيًا يضحك، أو أقف مع مسكينٍ في مساعدةٍ أستطيعها، أو أقف إلى جانب صديقةٍ بحزنها لأنَّ أهلها منعوها من الذهاب إلى المدرسة. كانت كلُّ هذه التفاصيل اختبارًا لإيماني وصبري. وكانت المحنة الكبرى في صغري مرض أخي فراس الذي هزَّني من الأعماق، كنت طفلةً، وكنت أرى نظر أخي يتراجع، وبعد فترةٍ قصيرةٍ أخذ يتراجع بسرعةٍ، لم أعتقد للحظةٍ أنَّ هذا الطفل الجميل سيصبح أعمى بعد وقتٍ قصيرٍ، ولم أكن أتوقَّع أنَّ الله العادل سيترك أخي الطفل الجميل يذهب إلى العمى، ويحوِّل حياته إلى ظلامٍ مستمرٍّ. لم

يُفقِدني المرض الذي ألمَّ بأخي وأوصله إلى العمى إلى الشكِّ في عدالة الله، إنَّما جعلني أتأمَّل هذا الدرس القاسي، صحيحٌ أنِّي لم أعرف الحكمة من وراء مرض أخي وعماه، لكنِّي كنت واثقةً من وجود هذه الحكمة الإلهيَّة حتَّى عندما لا أدركها شخصيًّا. أن يفقد أخي الصغير الجميل بصره، كانت تجربةً قاسيةً بالنسبة لي، وقد اتخذت قراري، بأن أقوم بكلِّ ما يرغب به، ليس شفقةً عليه، بل واجبًا يمليه عليَّ إيماني وحبِّي لأخي. ولم يكن هذا يقتصر على أخي، بل على كلِّ محتاجٍ لي، سواءً كان الشخص محتاجًا إلى المال عندما يتوافر معي، أو كلمةً طيِّبةً أو مساعدةً صغيرةً لرجلٍ كبيرٍ أو امرأةٍ عجوزٍ. وبثُّ على قناعةٍ أنَّ الإيمان بالله يعني أمرين أساسيَّين في الحياة، وكان هذان الأمران الناظم الأساسيَّ لحياتي، الأمر الأوَّل: ألَّا أكون يومًا مع الظلم، والأمر الثاني: أن أساعد كلَّ من أستطيع مساعدته دون انتظار مقابلٍ منه. كان هذا الهدف المثاليُّ بالنسبة لي، ولأنَّني بشرٌ من لحمٍ ودمٍ، وكلُّ بني آدم خطَّاءٌ، لم أكن مثاليَّةً طوال الوقت، حاولت ذلك، استطعت أن أكون ما أشتهي بعض الوقت، وفشلت في أن أكون كذلك كلَّ الوقت، وأرجو أن يسامحني الله على أخطائي وذنوبي التي ارتكبتها، وكلِّي ثقةٌ بعدالته ورحمته.

زاد إيماني بالله وزاد خوفي من عذابه مع مأساة أخي فراس، لم يأتِ إيماني خوفًا من العقاب فحسب، بل أتى من المحبَّة أيضًا، الخوف والمحبَّة عملا إلى جانب بعضهما، الحبُّ جعلني أتعلَّق بالعبادة أكثر، والخوف جعلني أمتنع عن فعل المحرَّمات خوفًا من العقاب. ولأنَّ تديُّني لم يكن شكلًا، ولم يكن أبي متعصِّبًا ليفرض علينا اللباس الذي ترتديه نساء دوما، ارتديت الثياب العادية مع حجابٍ تقليديٍّ، أي أنَّني لم أغطِّ وجهي ولا يديَّ، وهي أجزاء الجسد الذي سمح الدين بظهورها، لأنِّي لست مقتنعةً بالتفسيرات المتشدِّدة للدين، التي تريد حبس المرأة في المنزل وتغطيتها كاملةً عندما تخرج من البيت ويرافقها محرمٌ. فهذه السلوكيَّات لم يتبعها النبيُّ محمد ﷺ في التعامل مع النساء، كما قرأت في الكثير من المراجع

الدينيَّة. ولأنَّ الوجه لا يعدُّ عورةً فلا يجب تغطيته، وأنا أعرف أنَّ موضوع الكشف عن الوجه واليدين محلُّ خلافٍ بين الفقهاء المسلمين، لكنِّي لا أعتقد أنَّ هذا الموضوع يستحقُّ كلَّ هذا النقاش، طالما أنَّ المرأة تلتزم بالقواعد الدينيَّة للسلوك، وهو الأهمُّ بالنسبة للمرأة، وهو ما قرَّرت الالتزام به طوال حياتي، إذ ارتديت الملابس العاديَّة المحتشمة مع غطاء الرأس، دون أن أزيد على ذلك. لكن على مستوى السلوك، وضعت القواعد الأساسيَّة المستندة إلى المحرَّمات الدينيَّة، وعلى رأسها ألَّا أنفرد برجلٍ وحدنا مهما كانت الأسباب، وألَّا أصافح رجلًا، وأن تبقى حدود العلاقة مع الرجال على مستوى الحديث المعلن. دون ذلك كنت سأحطِّم طموحي الشخصيَّ في العمل كمهندسةٍ، التي لا يناسبها على الإطلاق أن أغطِّي وجهي ويدي، وأمارس عملي مع مراجعين رجالٍ، وأن أذهب لتفقُّد أماكن العمل. التزمت قواعد التعامل مع الرجال منذ كنت في الإعداديَّة. وكنت أراعي الحرمات، فأنا لا أرتدي أيَّ غطاء رأس أمام خالي أو عمِّي، أمَّا أولادهم، فلا أظهر أمامهم دون الغطاء، ولم أكن أقول كما يقلن زميلاتي، إنَّهم أقاربنا وقد شاهدونا ونحن صغيراتٌ، ومن المبالغة ارتداء الحجاب أمامهم. كنت أرتدي الحجاب حتَّى أمام زوج أختي، وعندما يقولون لي: «إنَّه رجلٌ محرَّمٌ عليكِ»، أجيب: «حرمةٌ مؤقَّتةٌ».

لم أكن طفلةً مثاليَّةً، كنت مثل كلِّ الأطفال أتشاجر مع إخوتي على الكثير من الأشياء، ونتآمر على بعضنا البعض، وألعب مع البعض على حساب الآخر. كانت حياةً بين الأخطاء والذنوب، بعضها مجرَّد شغبٍ طفوليٍّ وبعضها أفعالٌ أندم عليها إلى الآن، وأرجو أن يسامحني ربي على ما فعلت بيدي. مثل كلِّ الفتيات في جيلي، أعجب بعض الصبية بي، وأنا أعجبت بأحدهم، لكنَّ خوفي منعني من تجاوز هذا الإعجاب إلى لقاءٍ أو شيءٍ من هذا القبيل، ومنعني من التعبير عنه خارج نفسي، وبقي داخلي ومات هناك، لأنِّي خفت من ارتكاب فعلٍ يُغضِبُ الله، خفت من ارتكاب

الحرام. كان التعويض الأساسيُّ تركيزي على دراستي، اخترت أن أكون مهندسةً تحديًّا للظروف التي عشتها، وأردت هذه المهنة لأنَّها ذكوريَّةٌ، وأردت أن أثبت أنَّ المرأة المتديِّنة تستطيع أن تكون في كلِّ مكانٍ، وأن تديُّنها لا يمنعها من ممارسة عملها، مهما كانت الانتقادات لهذا العمل. لذلك لم يكن أنسب من هذه المهنة الذكوريَّة لإثبات قدراتي، مع كوني امرأةً متديِّنةً. نصحتني الكثيرات بألَّا أمضي قدمًا في المهنة التي اخترتها لأنَّها ذكوريَّةٌ، أي أنهنَّ أردن منِّي ترك هذه المهنة للسبب ذاته الذي جعلني أختارها. في البيت لم يعترض أحدٌ على خياري، فهي في النهاية حياتي وأنا أقرِّر كيف وبأيِّ اتجاهٍ سوف تذهب. لذلك وقف أبي وأمِّي وإخوتي معي طوال الوقت. احترموا تميُّزي، وعاملوني على أساس أنِّي واحدةٌ منهم وموقع فخرهم، لم يبخلوا عليَّ بالمساعدة مهما كانت. في الثانوية العامَّة احتجت إلى مجموع علاماتٍ كبيرٍ من أجل الدخول إلى الفرع الذي اخترته، لم يكن الاجتهاد كافيًا، كان الوضع بحاجةٍ إلى مساعدة مدرِّسين خاصِّين لتحسين المواد العلميَّة الرئيسيَّة حتَّى أستطيع الوصول إلى طموحي. وهذا لم يقتصر على سنة الثالث ثانوي، فهذا الصفُّ في المواد العلميَّة يعتمد على الصفوف التي سبقته، كان عليَّ أن أكون مجتهدةً جدًّا في المواد العلميَّة، وهي المواد التي تشكِّل الكتلة الكبيرة من العلامات المطلوبة. درست بجدٍ، درست حتَّى لا أخذل نفسي ولا أخذل أبي وأمِّي الواثقين من قدرتي على تحقيق ما قلته. عندما تقدَّمت إلى المفاضلة الجامعيَّة لم أكن واثقةً أنَّ علاماتي يمكنها أن تمنحني دراسة الهندسة، وبقيت طيلة فترة الانتظار على أعصابي، وعندما خرجت النتائج إلى النور، وقُبِلتُ في الكليَّة التي طالما رأيت نفسي فيها، شعرت أنِّي لم أخذلهم، ولقد جمعت العلامات اللازمة لدخول الكليَّة، لا زيادة ولا نقصان، ولا شكَّ بأنَّ الحظَّ ساعدني على تخفيض علامات الكليَّة درجتين أساسيَّتين، ولولا هذه المصادفة، لاضطررت لإعادة الامتحان من جديدٍ في السنة التالية من أجل الدخول إلى الكليَّة ذاتها. كان الفرح في

نجاحي أكبر فرحة نجاحٍ في البيت، وهذا لا يعني ليست هناك أفراحٌ أقيمت من أجل الآخرين، فقد أقام أبي لكلِّ واحدٍ منَّا هذه الحفلة، لكنَّ حفلتي كانت الأكبر التي قرَّرها أبي، ولم يعترض عليها إخوتي، فالكلُّ عدَّني حقَّقت إنجازًا يستحقُّ الاحتفال. ثقة أهلي بي أعطتني ثقةً بنفسي، أعني بالثقة أن أعرف ما أريد، ولا أعني بها كما سادت عند بعض الناس، بأنَّ الثقة تعني الوقاحة وإجابة الناس إجاباتٍ قاسيةً تجعلهم يفكِّرون جيِّدًا قبل أن يتعاملوا معنا. هذه ليست ثقةً من وجهة نظري، هذه أقلُّ ما يقال إنَّها وقاحة. أنا امرأةٌ أخجل من الآخرين، وأعمل الحسابات حتَّى لا يفهموني خطأ أو حتَّى لا أتسبَّب لهم بأيِّ أذًى أو إزعاجٍ، وأتسبَّب لنفسي بهذا الأذى، لأنِّي عندما أكون وقحةً مع الآخرين، لا أؤذيهم فحسب، بل أؤذي نفسي أيضًا. والثقة بالنفس عندي تتعايش مع صفاتٍ أخرى، مثل الخجل والأدب واحترام الآخرين... وهي صفاتٌ ليست متناقضةً مع الثقة بالنفس وفرض الاحترام على الآخرين. هناك مفاهيم تسود بين الناس لا أعرف من أين أتت؟! هي سائدةٌ لدرجةٍ لا يمكن مقاومتها، وإلَّا أَعدُّ من يقوم بذلك يمشي عكس التيَّار، وهو قادمٌ من عالمٍ آخر، لا يعرف ما يجري في هذا العالم. وأحيانًا أفكِّر أنَّه من الطبيعي في زمنٍ يصعب العيش فيه أن تولد مثل هكذا أفكار، التي تحاول تبرير ما هو رديءٌ في هذا البلد، وتجد المبرِّرات لأكثر السلوكيَّات شذوذًا. صحيحٌ أنَّه من المفهوم أن يُقدِمَ شخصٌ ما بتصرُّفاتٍ ما بسبب الضيق، كأن يأخذ موظَّفٌ رشوةً لأنَّ راتبه لا يكفي احتياجاته، وليس من المفهوم بالنسبة لي، أن تصبح الرشوة هي القاعدة، وتؤخذ علنًا، ويتعامل معها بوصفها حقٌّ طبيعيٌّ مثلها مثل الراتب. إنَّ مثل هذا السلوك، يُفسد القيم، العدالة واضحةٌ والظلم واضحٌ، وعندما يُخلَطُ بينهما بذريعة تحويل الظلم إلى عدالةٍ، وتحوُّل السلوك الفاسد إلى سلوكٍ طبيعيٍّ لأنَّه سائدٌ، لا تصبح المشكلة في الظلم والسرقة والرشوة والسلوك الشاذِّ وغير القانونيِّ، بل تصبح المشكلة في القيم ذاتها التي تتحطَّم، ما يعني

تحطُّم المجتمع ذاته، فلا ناظم معياريًّا لسلوكه، ويتحوَّل البلد إلى غابةٍ رديئةٍ، الحياة الأفضل للأقوى وللأكثر فسادًا. في أثناء دراستي الجامعيَّة، ظننت أنَّ العالم مكانٌ للفضيلة، والشرُّ فيه محدودٌ، يقوم به أصحاب النفوس الضعيفة، لم أفهم ما يجري حتَّى دخلت العمل. ولأنِّي مهندسةٌ وموظَّفةٌ في البلدية وفي قسم التراخيص، كان عليَّ أن أشاهد عالمًا آخر، غير ذلك الذي كنت أظنُّه وأنا طالبة. وأنا القادمة الجديدة إلى العمل، سأحافظ على العمل النظيف حتَّى تصبح البلد أفضل، لن أقترب في عملي ممَّا حرَّم الله على عباده الصالحين. وكنت أعتقد أنَّ ما سيحكم وظيفتي القوانين وضميري الحيُّ، لا شيء آخر. في الممارسة العمليَّة عرفت أنَّ ما ظننته الأساس في الحكم على عملي، لا يعني شيئًا في الواقع. في عملي عرفت أنَّ القوانين في هذه البلد وُضِعَت لِتُخالف، وأنَّ الضمير مسألةٌ فائضةٌ عن الحاجة في المواقع الرسميَّة، التي يمكن للموظَّف فيها أن يتقاضى المال كرشوةٍ مقابل الخدمات التي يُسهِّلها، سواءً كان تلقِّي هذه الخدمات قانونيٌّ أم لا؛ على مُتلقِّي هذه الخدمة أن يدفع رشوةً للحصول على حقِّه الطبيعيِّ. لم أستطع أن أكون جزءًا من هذه القذارة، ولم أكن قادرةً على إيقافها والعمل ضدَّها. وأصبحت جزءًا منها رغمًا عني، ليس بموافقتي طبعًا، لكن بتحايل الآخرين عليَّ، لم أكن قادرةً على التحوُّل إلى موظَّفةٍ مرتشيةٍ، حتَّى لو أدَّى هذا إلى فصلي من عملي، أو حتَّى قتلي. لم يكن ذلك خوفًا من القانون، فمخالفته لم تكن تخيف أحدًا، طالما أنَّ الذي خالف القانون على علاقةٍ جيِّدةٍ مع رؤسائه، وهذه المخالفة في سياق فائدة الجميع. ما كان يردعني هو مخافة الله، ولم أكن قادرةً على خيانة ضميري والتسبُّب بضررٍ بمصالح البلد التي أنا مؤتمنةٌ عليها. رغم ذلك قُبِضَت مبالغ ماليَّةٌ باسمي، ليست مباشرةً. بمعنى لم يكن المرتشي يطلب المال لي شخصيًّا، لم يجرؤ على ذلك، إنَّما كان يطلبه بناءً على أنَّه استطاع إقناعي بتجاوز القانون في هذه المعاملة من أجله، مع أنِّي لست من خالف القانون، إنَّما دُبِّر أمر المعاملة في

غيابي، أو بتوقيع مديري المباشر مستغنيًا عن توقيعي. أي أنِّي لم أكن جزءًا من الفساد المستشري القائم، ولكن حُوِّلت إلى جزءٍ منه، رغم إرادتي ورغم عدم استفادتي من هذا الفساد بالمطلق، مع أنَّه يمارس باسمي بشكلٍ أو بآخر.

حطَّم دخولي الحياة العمليَّة بعد التخرُّج في الجامعة عالمي المثاليّ، الذي كنت أعيشه خلال فترة دراستي. صحيحٌ أنِّي تعرَّفت على البلد أكثر في أثناء الدراسة، لا سيَّما في فترة الدراسة الجامعيَّة، لكن بقيت الصورة المثاليَّة عن الحياة هي السائدة عندي، وكنت أعرف أنَّ هناك فسادٌ وفقرٌ ومشكلاتٌ كثيرةٌ، لكنَّها على هامش الصورة التي عندي عن البلد. صورتي عن البلد جاءت من عائلتي ومن صديقاتي الأقرب، وكانوا كلَّ عالمي، صحيحٌ أنَّه توجد مشكلاتٌ هنا وهناك، عدَدتُها ضمن الإطار الطبيعيِّ للخلافات بين أشخاص يجمعهم أكثر ممَّا يفرِّقهم، وعلى رأس ما يجمعهم مخافة الله. مع الحياة العمليَّة، عرفت أنَّ أفكاري ومحيطي الصغير لا يصلح مقياسًا لما يحدث في البلد. أحاطني عالمي الصغير بالكثير من عوامل الحماية حتَّى لا أصطدم بهذا الواقع القاسي، ومنعتني هذه الحماية من تعلُّم كيفيَّة التعامل مع هذا العالم القاسي؟! وكان عليَّ أن أتعلَّم من تجربتي الشخصيَّة، وعند أوَّل خطأٍ في عملي استُغِلَّ على نحوٍ لم أقصده، لكنِّي انتبهت إلى ما يمكن بناءه على خطأٍ صغيرٍ. عندما عُيِّنتُ في القسم الفنيِّ في بلديَّة دوما، كُلِّفتُ أحيانًا باستلام بعض الإصلاحات التي تحتاجها الشوارع أو غيرها من الأبنية في البلد. وكان متعهِّدٌ فاسدٌ حصل على تعهُّدين صغيرين، في المكان نفسه، واحدٌ للكهرباء وآخر للماء. وعندما قدَّم كشفه، ادعى أنَّه اشتغل الشغل ذاته مرَّتين، كما ينصُّ العقدان. رغم أنَّ الأعمال كانت في الوقت ذاته، إلَّا أنَّ العقدين كانا منفصلين، فادَّعى أنَّه سوَّى الأرض ورصف المكان بعد أن اشتغل على الكهرباء، قبل أن يحفره مرَّةً أخرى من أجل الماء ويسوِّيه ويرصفه من جديدٍ. أي أنَّه تقاضى المبالغ مرَّتين. ولم تقتصر القصَّة

على التعهُّدات الصغيرة، ففي التعهُّدات الكبيرة هناك فسادٌ أكبر والشركاء أكثر، وتتدخَّل بها مراتب أعلى لأنَّ حصَّة السرقة أكبر. لم أستطع التعامل مع هذه القضايا، حلمت خلال الدراسة الجامعيَّة أنِّي سأبني مدنًا أفضل تنظيمًا وأكثر سعةً. عندما بدأت الشغل العمليَّ في البلدية، سرعان ما ذهبت أحلامي أدراج الريح. لا بنايات مهمَّةً، ولا تخطيط مدنٍ، ولا مشاريع مدنٍ كبرى، ولا ما يحزنون. كان عليَّ أن أقاوم فسادًا ينخر في كلِّ مكانٍ في البلدية وفي البلد، وهذا ما جعل رؤسائي يجنِّبونني العمل في المواقع التي تريد شخصًا فاسدًا، حتَّى «تمشي أموره ويمشِّي أمور غيره» كما هو سائدٌ، لذلك وجدت نفسي بعد حوالي العام ونصف أخرج من الوظيفة عمليًّا، وأحال إلى أرشيف الخرائط. أنا المهندسة التي تخرَّجت بتقدير جيِّدٍ، أجد نفسي بعد مسارٍ متعثِّرٍ بسبب الفساد في قسم من البلديَّة، يصلح خرِّيج مدرسةٍ ابتدائيَّة لشغل الوظيفة والقيام بمهامها على أكمل وجه. وقتها شعرت أنِّي عاقبت نفسي بدراسة الهندسة المدنيَّة، لأجد نفسي أبحث في خرائط قديمةٍ يعلوها الغبار. لم تكن القضيَّة خيارًا بين وبين، كانت المسألة إجباريَّةً، أمَّا الذهاب إلى هذا القسم، أو الانخراط بالفساد مع الفاسدين، ولأنِّي أخاف ربِّي وأراعي ضميري، كان من الطبيعي أن أصل إلى هذا المصير، شخصٌ غير مرغوبٍ فيه يعمل في خرائط لا أحد يراها، بين الخرائط القديمة وتحت غبارها دفنت أحلامي المهنيَّة. تمنَّيت لو أنِّي درست أيَّ اختصاصٍ آخر، كأن أصبح مدرِّسةً كأخواتي، كان هذا أجدى لي وللطلَّاب، فهناك أستطيع أن أقدِّم شيئًا، حتَّى لو كان متواضعًا، أمَّا بين الخرائط، فلا أحصد سوى الغبار الذي يثير الحساسيَّة التي أعاني منها.

كنت كلَّما تقدَّمت في دراستي في الكليَّة أدرك البنية الهشَّة والقبيحة للمدينة التي أعيش فيها، تكاد مدينة دمشق تكون مدينة عشوائيَّاتٍ، فوضى البناء لا تحتاج إلى مهندسٍ ليرَ فجاجتها وقبحها، فأيُّ ناظرٍ لمباني المدينة لا يرى القبح فقط، بل ويرى الأوساخ المتراكمة والسواد الذي يغطِّي

المباني منذ سنواتٍ، والذي يزداد بشاعةً مع المطر الذي يحوِّل السواد إلى خطوطٍ عموديَّةٍ غير متماثلةٍ. عندما قالوا لي إنَّهم نظَّفوا مبنى محطَّة الحجاز، وهو مبنى جميلٌ وسط دمشق، يعود بناؤه إلى فترة الحكم العثمانيِّ، وهو ما عُرِفَ وقتها بالخطِّ الحديديِّ الحجازيِّ، الذي يربط بين دمشق والمدينة المنوَّرة، والذي بدأ العمل به في العام 1900 وافتتح في العام 1908. وبعد تنظيفه، لم تترك بعض الفراغات في الجدران على حالها، أو مراعاة إغلاقها بنوعيَّة المواد التي تستخدم لذلك، بل أُغلِقت هذه الفراغات الصغيرة بالإسمنت الأبيض، في الأيام الأولى بدا المنظر معقولًا، لكن بعد أشهرٍ قليلةٍ ومع هطول المطر تغيَّر لون البقع الإسمنتيَّة، وتحوَّل منظر المبنى إلى حالةٍ أبشع من الحالة التي كان عليها، عندما كانت تكلِّله الأوساخ. وحالة مبنى محطَّة الحجاز أقلُّ بشاعةً من المباني القديمة المهملة التي تعود إلى فتراتٍ تاريخيَّةٍ متفاوتةٍ. ومثال البشاعة الأكبر في مدينة دمشق، هو الجامع المعروف باسم جامع «يلبغا»، الذي يعود إلى العهد المملوكي، والذي بُني إلى جواره مجمَّعٌ تجاريٌّ ضخمٌ وبشعٌ بارتفاع ثلاثة عشر طابقًا، بقي هذا المبنى الضخم على الهيكل لما يزيد على الخمسين عامًا كتلةً إسمنتيَّةً ضخمةً وبشعةً، مانحًا قسمًا من ساحة المرجة في وسط دمشق تشويهًا منقطع النظير.

في كلِّ الأماكن التاريخيَّة، ودمشق مدينةٌ تاريخيَّةٌ بامتيازٍ، فهي أقدم مدينة مأهولةٍ بالسكَّان، رغم ما مرَّ عليها من غزاةٍ وفاتحين. وفي الكثير من المباني التي تعود إلى عهودٍ تاريخيَّةٍ مختلفةٍ، كانت أغلب هذه الأماكن مهملةً عمدًا، ومزروعٌ فيها أو إلى جوارها مبانٍ في غاية البشاعة. والاهتمام منصَّبٌ فقط على أكثر المعالم شهرةً، مثل الجامع الأمويِّ، وقصر العظم، وخان أسعد باشا، وبعض الجوامع والكنائس التاريخيَّة، مثل الكنيسة المريميَّة في باب توما وغيرها، ومدينة دمشق داخل الأسوار، والتي شُوِّهت وتحوَّل الكثير من بيوتها الشاميَّة القديمة إلى مطاعم. وإذا كانت مدينة

دمشق نموذجًا للقباحة المعماريَّة، وهي عاصمة البلد، ويبدو أنَّ قبح المدينة لم يحدث بالمصادفة، إنَّما جاء بفعل فاعلٍ، يكره المدينة وأهلها. وإذا انتقلنا إلى الأماكن البعيدة والضواحي، نصبح أمام كتلٍ من الأحجار المتراكمة التي تسمَّى بيوتًا، أمَّا العشوائيَّات فهي كارثةٌ حقيقيَّةٌ، ترى أنابيب المياه وكبلات الكهرباء تتسلَّق الجبل إلى البيوت البائسة المبنيَّة على طرف هذا الجبل، والوصول إلى البيوت في غاية الصعوبة، لا أحد يعرف أيَّ خدماتٍ تُقدَّم لهذه المساكن البائسة. ليست كلُّ العشوائيَّات على السويَّة نفسها، لأنَّ خدماتها تتحسَّن وفق الانتماء الطائفيِّ للسكَّان. عندما كنت أنظر إلى مدينة دمشق من جبل قاسيون في الليل، فأرى المدينة الجميلة ممتدَّةً بأضوائها إلى مسافاتٍ بعيدةٍ، بتقسيمات شوارع تبدو جيِّدةً بتقاطعاتها في وسط المدينة. كنت أعرف أنَّ الليل يغطِّي عيوب المدينة الكثيرة، وأنَّ وسط المدينة الذي يبدو أفضل تصميمًا، وهو القسم الذي خَطَّطه الفرنسيُّون عندما احتلُّوا البلد. وأنَّ الأضواء الساحرة من جبل قاسيون هي أضواءٌ خادعةٌ، لأنَّ مباني المدينة لا جمال فيها، إنَّها مدينةٌ مخرَّبةٌ جماليًّا، ولا أحد ينظر إليها، لأنَّ جدرانها لا تستحقُّ النظر فهي جدرانٌ منفِّرةٌ. ومدن الضواحي ليست أحسن حالًا، صحيحٌ أنَّ فيها مناطق جديدةٌ أكثر من دمشق، لكنَّ القبح هو القبح في كلِّ مكانٍ، وعلى هامش كلِّ مدينةٍ من مدن الضواحي، هناك منطقة عشوائيَّاتٍ ومخالفاتٍ جماعيَّةً، يسكنها أكثر الناس فقرًا في المنطقة، أو القادمين إليها من مناطق أخرى. علَّمونا في كليَّة الهندسة أنَّ المدن تُبنى ابتداءً من البنية التحتيَّة للخدمات، أي تُمَدُّ المجاري والمياه والكهرباء وتخطَّط الشوارع وأماكن الأبنية، ثمَّ ينفَّذ هذا المخطَّط. قلَّما ينفَّذ هذا في البلد، هناك أماكن قليلةٌ يُبنَى بهذه الطريقة، أمَّا أغلبيَّة المناطق السكنيَّة، فهي مبنيَّةٌ ضدَّ القواعد والأسس الهندسيَّة التي درستها. لأنَّ البداية تكون مع بناء الأبنية بطوابقها الكاملة، ولأنَّ الرشى الفاعل الأكبر في البلد، تُبنَى أبنيةُ كاملةٌ بطبقاتٍ عدَّةٍ دون

ترخيصٍ، ترخيصها يأتي من دفع أصحابها الرشى إلى المسؤولين. وبناءٌ إلى جانب بناءٍ في أرضٍ زراعيَّةٍ، بعد وقتٍ قصيرٍ تصبح ضاحيةً، وهذه الضاحية تحتاج إلى بنيةٍ تحتيَّةٍ، فتجرُّ المياه والكهرباء إليها، وتصمَّم الشوارع على واقع حال المباني القائمة مسبقًا، ومجاري الصرف الصحيِّ كذلك. لا تحتاج هذه الأبنية إلى مهندسين، فعامل الباطون هو الذي يقدِّر حجم الحديد الذي يحتاجه البناء حتَّى يحمل خمسة طوابق مثلًا، كما يحدِّد حجم الإسمنت المستخدم، وصاحب البناء هو الذي يصمِّم الشقق، موقع الغرف والحمام والمطبخ، وبذلك يصبح المهندس فائضًا عن الحاجة، ودراسته أصلًا لم يكن لها حاجةٌ، وبذلك كرهت كلَّ المهنة، وكأنِّي أؤدي عملًا لا يمتُّ بصلةٍ لما درست. علَّمتني كليَّتي معنى الهندسة، لكن ما تعلَّمته في الكليَّة لا يلزم أحدًا، لأنِّي المهندسة التي درست خمس سنواتٍ، وخسرت جزءًا من نظري في التحديق، لا ألزم أحدًا، وبعد كلِّ هذه المسيرة الطويلة، أجد نفسي «حارسة غبار الخرائط» وهو اللقب الذي أطلقته على نفسي، والذي يضحك زملائي منه.

في كثيرٍ من الأحيان، حمدت ربِّي على وجود اهتمامٍ آخر لي، وكان ملزمًا لي، حتَّى لو جاء على حساب دراستي، لم يكن هذا الالتزام يزعجني، ولم أنتبه إلى أهميَّة ما أقوم به من أجل نفسي سوى متأخِّرة. كنت أعتقد أنِّي أساعد أخي فراس على كسر وحدته والتغلُّب على العمى عندما قرأت له الكتب، ولم أنتبه إلى أنَّ هذه الكتب التي كسرت دراستي النمطيَّة في مواد كليَّة الهندسة، في الرياضيات والفيزياء وحساب الكميَّات وغيرها من المواد، لم تساعد فراس فقط، بل ساعدتني شخصيًّا في الوقت ذاته على توسيع آفاقي ومعرفتي أيضًا، رغم أنَّها لم تكن منتظمةً، لا أعني هنا بالمنتظمة أنَّها لم تكن دوريَّةً، إنَّما أقصد بغير المنتظمة، أنَّها لم تكن قراءة الكتب من الجلدة إلى الجلدة، إلَّا فيما ندر. لأنَّنا كنَّا في العائلة نتناوب على القراءة لفراس النهم، الذي يريد قراءة كلِّ شيءٍ، ولأنَّ ليس هناك الكثير من الكتب

بلغة بريل، فإنَّنا في العائلة نعوِّض له ما يريد قراءته بما نقرأه نحن له. لذلك كنت أقرأ أجزاءً من الكتاب وإخوتي يكملون الأجزاء الأخرى، لأنَّ فراس يقضي أغلب وقته يستمع إلى قراءتنا للكتب. طبعًا كانت القراءة مهمَّتنا نحن البنات، لأنَّ فراس لم يكن يحبُّ أن يقرأ منذر له، وكان منذر نفسه ملولًا ولا يحبُّ القراءة، حاول مرَّاتٍ عدَّةً، لكنَّه في النهاية أقلع حتَّى عن المحاولة. كان أبي يقرأ بين الحين والآخر، لأنَّه يرغب في البقاء مع فراس، ويريد محاورته في الكثير من القضايا، وفي كلِّ مرَّةٍ يخرج أبي مدهوشًا من سعة اطلاع فراس، ويشعر بالحسرة لما جرى لابنه ولرفض فراس اقتراحه بالزواج وبناء أسرةٍ. وكانت حجَّة فراس أنَّه لا يريد أن يظلم أولادًا ينجبهم. قرأت لفراس أجزاءً من كتبٍ مختلفةٍ ومتفاوتةٍ وليس هناك من جامعٍ بينها، كتبٌ تنتمي إلى العديد من فروع المعرفة التي لا يربط بينها رابطٌ. قرأت له كتبًا في الدين، على تفاوت معالجة الدين فيها، من كتاب «فتاوى ابن تيمية» و«معالم على الطريق» لسيِّد قطب، وغيرها من الكتب الدينيَّة المتنوِّعة، إلى الكتب المعادية للدين، مثل كتاب «نقد الفكر الدينيِّ» لصادق جلال العظم، وكتاب «نقد الشعر الجاهليِّ» لطه حسين، وكتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق، وكتاب «الفتنة ، جدليَّة الدين والسياسة في الإسلام المبكر» لهشام جعيط وهو كتابٌ أدهشني، رغم أنِّي لم أوافق على تفسيراته للصراعات الدائرة في تلك الفترة، وقد قرأت لفراس أغلب هذا الكتاب، كما قرأت له أجزاءً من كتاب «النزعات الماديَّة في الإسلام» لحسين مروة، وغيرها الكثير من الكتب التي لا أتذكَّر عناوينها، والتي تتكلَّم عن الإسلام وتاريخه. وكذلك الحال، بالنسبة للثقافة الغربيَّة، قرأت له كتبًا كثيرةً انطلاقًا من اليونان، كتاب «خطب شيشرون» وكتاب «محاورات أفلاطون» وكتابي «الالياذة» و«الأوديسة» وكتبًا من عصورٍ أوروبيَّةٍ مختلفةٍ من «أمير» ميكيافيلي مرورًا بكتبٍ مثل «العقد الاجتماعيِّ» و«أصل التفاوت بين البشر» لجان جاك روسو و«روح القوانين» لمونتنتسكيو وكتبٍ لماركس مثل

«بؤس الفلسفة» و«البيان الشيوعي» وغيرها من الكتب، وصولًا إلى الكتب الحديثة مثل «نقد العقل السياسيِّ» لريجيس دوبرية، وغيرها الكثير من الروايات والمجموعات الشعريَّة، وبالطبع كتب كليَّة الحقوق التي درسها، ولا يخلو الأمر من كتبٍ في العلوم حتَّى في الفيزياء، واهتمَّ جدًّا في فهم النظريَّة النسبيَّة لأنشتين، ولم يكن أحدٌ غيري في العائلة مطلعًا عليها، فوقع على عاتقي مهمَّة شرح هذه النظريَّة المعقَّدة في فهمها لعلاقة الزمن والسرعة مع المادَّة لفراس. ولا أعرف إن استطعت إيصال أفكارها له على نحوٍ صحيح، أم يوافق على أنَّه فهم ما أقول حتَّى لا يُشعرني بأنِّي فشلت في شرح شيءٍ معقَّدٍ له. طبعًا، لم أكن أفهم كلَّ ما أقرأ، وفي كثيرٍ من الحالات كنت مجرَّد آلةٍ تنطق الكلمات التي تراها في الكتب التي أمامها. ولكن هذا لم يمنع من التأثُّر بعمقٍ في بعض الكتابات التي قرأتها، صحيحٌ عدَدتُ نفسي حياديَّةً عند قراءتها، لكن في العمق كانت تؤثِّر فيَّ وتطرح أسئلةً لم أكن لأطرحها على نفسي دون هذه القراءات التي شعرت، إنَّها وسَّعت مداركي ومعارفي دون أن تؤثِّر على إيماني بالله الذي لا يمكن أن يهزَّه شيءٌ في هذه الدنيا. حتَّى أنَّ هذه القراءات عزَّزت إيماني، ولم يبقَ إيماني ساذجًا كما كان من قبل، وأنَّ هناك أشياءً في هذا الدنيا غير الدين الذي أنا مقتنعةٌ به حتَّى العظم. حتَّى الروايات التي قرأتها، وأخجل من إكمال القراءة عندما يتصادف في الصفحات مشاهد حميميَّةً، لم أكن قادرةً على قراءتها، أقرأ بداية المشهد أو الحدث وأقول لفراس «أنت عارف الباقي» وهو يفهم ما أقصد، وقد صادفني هذا في العديد من الروايات، حتَّى شعرت أنَّ هذه المقاطع في الروايات تنتظر أن أقرأ أنا لفراس حتَّى تظهر مباشرةً على صفحات الرواية، حدث هذا في رواية ألبرتو مورافيا «امرأةٌ من روما» وفي رواية «إحدى عشر دقيقة» باولو كويليو وفي رواية «الياطر» لحنا مينة و«عمارة يعقوبيان» لعلاء الأسواني، وغيرها الكثير من الروايات التي صادفتني هذه المقاطع التي اضطررت لتجاوزها، لعدم قدرتي على قراءتها.

علَّمتني الروايات أنَّ هناك قسوةً في هذه الحياة يجب تأمُّلها، وأنَّ الإنسان تحكمه الشروط التي يجد نفسه فيها، وكلُّ الكلام عن الإنسان الذي يتحكَّم بحياته مجرَّد أمانٍ، وأنَّ حقيقة الحياة هي خضوعنا في تجاربنا الإنسانيَّة للشروط المفروضة علينا، والتي تُسيِّر حياتنا أكثر ممَّا نُسيِّرها نحن. وعرفت عن الألم البشريِّ المتراكم، وأنَّ صمودنا يجب ألَّا يكون مؤقَّتًا، وأنَّ معركتنا مع الحياة معركةٌ مستمرَّةٌ طالما نحن أحياءٌ.

كان فراس بالنسبة لي مثالًا ملهمًا للبطولة ولاختراع الحياة، لقد صنع عالمه بنفسه، ولم يستسلم لعاهته التي أقعدته في المنزل، لأنَّه رغب بذلك، لا لأنَّ أهلي منعوه من الخروج. عندما انطفأت عيون فراس وهو طفلٌ، انطفأ البيت، لم أقبل ذلك وأنا الطفلة التي تكبره بأربع سنواتٍ فقط، لقد أصبح فراس همِّي وأنا في الثامنة من عمري، لم يُلقِ أحدٌ مسؤوليَّته عليَّ، ولم يُقصِّر أهلي، ولا سيَّما أمِّي بالعناية به. أنا شخصيًّا من اتخذ قرار تحمُّل المسؤوليَّة عن هذا الطفل الجميل، الذي شاء الله أن تنطفئ عيناه الجميلتان. اتخذت هذا القرار لأنِّي عدَدتُ نفسي الوحيدة التي شعرت بما يشعر به، عندما كبرت، اكتشفت أنَّ كلَّ أفراد العائلة اتخذوا القرار ذاته، كلُّ واحدٍ على طريقته. لكنَّ الأهم في هذه التجربة، أنَّنا كنَّا نعتقد أنَّنا نساعد فراس على العيش، أو نعلِّمه كيفيَّة العيش في هذا العالم. أدركت متأخِّرةً أنَّه الذي علَّمنا معنى الحياة، وقدَّم لنا دروسها، وعلَّمنا أكثر ممَّا علَّمناه نحن. أدرك بحكم وضعه الخاصِّ الأشياء والقضايا بطريقةٍ مختلفةٍ عنَّا، ورآها من زوايا لم نكن نحن قادرين على رؤيتها، لذلك كانت له آراؤه الخاصَّة المنطقيَّة أحيانًا، الصادمة أحيانًا، العنيفة أحيانًا، والسلسة أحيانًا أخرى. كنَّا نملك البصر ونرى الأشياء ولا نرى عمقها، كان هو يملك البصيرة، لا يرى الأشياء لفقدانه نظره، لكنَّه يرى عمقها ببصيرته. حاولنا إخراجه من حالة العزلة التي اختارها لنفسه، فشلنا في ذلك، والأسباب عديدةٌ، فلم يكن قادرًا على إقامة علاقةٍ مع أمثاله الذين لا يرون، فهو لم يرَ أنَّه ينتمي إلى

عالمهم، هم لا يرون، أمَّا هو فقد عدَّ نفسه يرى، فقد اعتقد أنَّ الرؤية ليست النظر، فهناك الكثير من الطرق التي تجعل المرء يرى وهو فاقدٌ البصر. ولم يكن قادرًا على إقامة علاقةٍ مع المبصرين، لأنَّ شروط العلاقة معهم تحتاج إلى تنقُّلٍ، ولا يمكنه مجاراتهم في هذا الأمر، ولا يستطيع أن يراهم يساعدونه، لأنَّه يعدُّ بذلك عالةً عليهم، لذلك تجنَّبهم. فلا هو انتمى إلى عالم فاقدي البصر، ولا انتمى إلى المبصرين، وكان في منزلةٍ بين منزلتين، وفي هذه المنزلة اخترع عالمه الذي أحبَّه رغم معاناته. لم يكن بلا أصدقاء نهائيًّا، بل كان عنده صديقين وفيَّين، وبقيا كذلك حتَّى آخر أيَّامه، وهؤلاء كانوا يزورنه دومًا، ولم يزرهم ولا مرَّةً، وكانوا يتفهَّمون ذلك.

عندما تزوَّجت وغادرت العائلة إلى بيت زوجي، حزنت لفراق العائلة، كان لفراق فراس طعم المرارة، لا أعرف لماذا عدَدتُه بركتنا. وكانت زياراتي لأهلي نوعين، واحدةٌ من أجل أهلي، وأخرى من أجله. عندما أخبرتني أمِّي أنَّ فراس مريضٌ بالسرطان لم أصدِّق ذلك، فهذا الشاب الجميل واللطيف لا يستحقُّ ذلك. لم أكن قادرةً على زيارته وقتها، كنت محاصرةً مع زوجي في زملكا، تمنَّيت زيارته والاطمئنان عليه، وعندما اشتدَّ عليه المرض تمنَّيت أن أحتضنه، وأن أقول له إنِّي أحبُّه من كلِّ قلبي. لم أكن أملك سوى الدعاء له بالشفاء، بعد كلِّ صلاةٍ أصلِّيها أدعو له بالشفاء، وبعد أيِّ آياتٍ أقرأها من القرآن أدعو له بالشفاء، وفي حصار الغوطة الصعب، كنت أقضي الوقت في قراءة آياتٍ من القرآن يوميًّا، وعندما لا تتوافر إضاءةٌ في الليل، أقرأ ممَّا أحفظه من كتاب الله. ولطالما شعرت أنَّ قراءة القرآن تجعلني هادئةً وتساعدني على تحمُّل الظروف الصعبة. وأنا امرأةٌ مؤمنةٌ بقضاء الله وقدره، لكنَّ موت فراس كان صعبًا عليَّ، رغم الظروف القاسية التي كنَّا نمرُّ بها في تلك الحرب القذرة على الغوطة التي كانت تنسيني أيَّ شيءٍ. شعرت أنَّ وقع موت فراس جاء أصعب من موت أختي منى قبل انفجار البلد، وهو الموت الذي فجعنا جميعًا، لأنَّ هذه الفتاة صاحبة الاثنين والعشرين عامًا،

والجميلة التي تتباهى بصحَّتها الكاملة، تسقط فجأةً ميتةً على حضن أمِّي، كأنَّها تمزح، كما اعتقدت أمِّي عندما تمدَّدت على حضنها، كأنَّها تريد العودة إلى الحاضنة الأساسيَّة في رحم الأم. فجَعَنا الموت المبكر لأصغرنا، والأولى بيننا ماتت وهي في ذروة تألُّقها وفي أجمل سنٍّ. رغم ذلك كان موت فراس أقسى عليَّ. كذلك الحال عندما ماتت أختي غدير، بذات الطريقة التي ماتت بها أختي منى، فجأةً ودون وسابق إنذارٍ، ودون أيِّ مرضٍ. كان موتها مفجعًا، لأنَّه جاء في وقتٍ رهيبٍ على أهلي بعد وفاة فراس بأربعة أشهرٍ، حطَّم هذا الموت المتكرِّر أمِّي وأبي، مع اللجوء وحالة الضيق المتفاقمة وخوفهم عليَّ من أوضاع زملكا الخطرة، زاد من قسوة الموت المتكرِّر لأبنائهم، الذين أرادوهم أفضل البشر في هذا العالم. لم أملك في تلك اللحظات سوى الدعاء لأمِّي وأبي، وأدعو الله أنَّ يكونوا من الصابرين على آلامهم. وكان موقفي متناقضًا، بين عدم وجودي في دمشق، والوقوف مع أمِّي وأبي في هذه المحنة الكبرى، أحيانًا شعرت بالضيق لأنِّي يجب أن أكون معهم هناك، وأستطيع التخفيف عنهم، أو على الأقل يشعرون بتعاطفي معهم. وأحيانًا أقول، الحمد لله أنِّي كنت مجبرةً على أن أكون بعيدةً، لم أكن لأتحمل كلَّ هذا الألم الذي تحمَّله أبي وأمِّي، لا قدرة لي على تحمُّل فقدان أحبَّتي أمامي بهذه الطريقة وبهذه الظروف، ولم أكن أعرف هل كنت قادرةً على التصرُّف والتخفيف عن أهلي لو كنت هناك فعلًا، وهل أستطيع التحمُّل؟ عندما سألت هذه الأسئلة، كنت أقول لنفسي «الجحيم اللي شفتُه بزملكا، أرحم عليّ من إنِّي أشوف موت إخوتي»، لقد حدث كلُّ هذا وأنا غير قادرةٍ على زيارتهم، وهم غير قادرين على زيارتي، لم أستطع احتضان أمِّي وبكاء موت أحبَّتنا معًا، ولا احتضنت أبي لأخفِّف آلامه الكبيرة. كنت بعيدةً مع أنِّي قريبةٌ بالمسافة، كان لقاءنا ممنوعًا. لم أتوقَّع أن تمضي هذه السنين وأنا على مقربة كيلومتراتٍ عدَّةٍ منهم، وغير قادرةً على عناقهم، الذي كنت بحاجةٍ إليه، كما كانوا هم بحاجةٍ إليه أيضًا، كما عبَّرت أمِّي كثيرًا على

الهاتف عندما نتحدَّث معًا. فأنا لم أقابلهم منذ غادروا دوما إلى مخيَّم اليرموك وتنقَّلوا من بيتٍ إلى بيتٍ في دمشق، خلال أكثر من ست سنواتٍ. كنت قريبةً منهم جدًّا جسديًّا، لكن فعليًّا كنت في عالمٍ آخر بعيدٍ جدًّا، بفعل القنَّاصة والقذائف والصواريخ والبراميل المتفجِّرة وخطر الاعتقال. توقَّعت أن يعودوا إلى دوما وأقابلهم بعد سقوط النظام، والذي لم أتوقَّع أن يبقى، وأن يعودوا إلى نصف بيتٍ، وأنا أغادر مع المقاتلين في زملكا إلى إدلب بالاتفاق مع النظام، قبل أن يعودوا هم إلى بقايا بيتهم.

عندما تزوَّجت محمد، عدَدتُ نفسي امرأةً محظوظةً، لأنَّ الله أكرمني برجلٍ يشبهني، رجلٍ كما يجب أن يكون الرجال. لم أتعرَّف عليه خلال دراستي الجامعيَّة، فقد كان يسبقني بسنتين في الكليَّة. وقد تخرَّجت في الكليَّة دون أن يكون هناك شابٌّ في حياتي يصلح زوجًا كما أتصوَّر الزوج، ولم أفكِّر في قبول رجلٍ فيه بعض الصفات التي تصلح للعيش فقط. لم أرغب بالزواج من رجلٍ غير متديِّن، وفي الوقت نفسه، لم أرغب بالزواج من رجلٍ متشدِّدٍ. لطالما تمنَّيت أن أجد الرجل المتديِّن المتنوِّر، الذي يعطي للأشياء حقَّها، وبذلك نستطيع أن نتفاهم وأن نصنع حياةً جميلةً بإمكانيَّاتنا البسيطة، ولم أملك أحلامًا أكثر من أجل العيش السعيد في بيتٍ صغيرٍ، كلُّ ما أحتاجه رجلٌ يفهمني ويحترمني. مثل كلِّ الفتيات، جاءني الكثير من الخطَّاب، لم يكن لأيٍّ منهم صفات الحدِّ الأدنى التي تجعلني أوافق عليه. لذلك، بعد عامين من استلامي عملي في بلديَّة دوما، أصابني اليأس من العثور على الشخص المناسب، وبذلك اتخذت قراري بالعيش وحيدةً، وأن ألغي مبدأ الزواج من حياتي، لأنَّ الزواج من رجلٍ لا يناسبني، سيحوِّل حياتي وحياته إلى جحيمٍ. رضيت بما كتبه الله لي من مصيرٍ، وأخذت أرتِّب حياتي بعيدًا عن الزواج، أو على الأقل، لم أعد أنتظره. ولطالما قالت صديقاتي، أنَّ شروطي في الزواج صعبةٌ، من أين نأتي لك برجلٍ متديِّنٍ وصادقٍ وليس متشدِّدًا ويقبل بالقليل ويحترم المرأة...الخ من تصوُّري عن

الرجل المناسب لي؟! بدت مطالبي المتواضعة في شريك حياتي كأنَّها شروطٌ تعجيزيَّةٌ، أضعها حتَّى أرفض كلَّ عروض الزواج التي تأتيني، وهذا ليس صحيحًا، كنت أطلب الحدَّ المعقول من التفاهم، حتَّى أصنع مع الرجل الذي أريد الزواج به حياةً تناسبنا، وألَّا نقضي الوقت في صراعٍ مضنٍ.

عندما ظهر محمد في مبنى البلدية حيث أعمل، لم يكن بالنسبة لي سوى مراجعٍ عاديٍّ، لم يلفت الرجل نظري مطلقًا، ليس فيه ما هو لافتٌ، وأنا لست امرأةً تقع في الحبِّ من أوَّل نظرةٍ. لذلك مرَّت مراجعته للبلديَّة كأيِّ مراجعةٍ، مرَّ على قسم الخرائط ليعرف مكان مشروعٍ أعلنت عنه البلديَّة لبناء خزَّان ماءٍ في منطقةٍ متطرِّفةٍ في دوما. وبحكم عملي أرشدته إلى مكان المشروع كما هو مبيَّنٌ في إعلان المناقصة الخاصَّة بالخزان. حتَّى أنِّي لم أعرف أنَّه مهندسٌ، فقد كان الكثير من المتقدِّمين إلى تنفيذ المشاريع التي تعلن البلدية عن مناقصاتها متعهِّدين يعملون في البناء، وكان القلَّة منهم مهندسين يعملون في التعهُّدات، ولم أعرف أنَّه واحدٌ منهم إلَّا بعد حينٍ. على مدى أشهر راجع عملي مرَّاتٍ عدَّةً من أجل أعمالٍ في البلدية، وخلالها عرفت أنَّه مهندسٌ ترك وظيفته في مؤسَّسة الإنشاءات العسكريَّة، لأنَّه لم يكن قادرًا على تحمُّل الفساد المستشري في تلك المؤسَّسة. وبعدها افتتح مكتبًا هندسيًّا، حيث يسكن مع أهله في زملكا، وهي بلدةٌ تتبع منطقة دوما التي تتبع بدورها محافظة ريف دمشق، وهي تبعد عن دوما حوالي عشرة كيلومتراتٍ حيث أسكن، وتبعد عن دمشق حوالي عشرة كيلومترات أيضًا، أي أنَّها تتوسَّط الطريق إلى دمشق عبر الغوطة الشرقيَّة. لا يسلك القادم من دوما هذا الطريق لأنَّ هناك طريقٌ مباشرٌ بين دوما ودمشق يختصر المسافة، وهو طريقٌ أوسع. رغم زيارات محمد المتكرِّرة إلى عملي لأسبابٍ تتعلَّق بالعمل، لم يخطر ببالي، أنَّ هذا الرجل ضئيل الحجم سيربطني به علاقة زواجٍ بعد حينٍ، وكنت اقتلعت فكرة الزواج من رأسي، لذلك لم أفكر بالرجل الذي يناسبني، سواءً هو أو غيره. أصبح كلُّ الرجال

سواسية، كلُّهم لا يصلحون للزواج من وجهة نظري. كان أهلي يشجِّعوني على الزواج، وعندما أقول: «ما بدِّي أتجوَّز، رميت هاي الفكرة من راسي»، اعتقد أهلي أن موقفي هذا هو تضامنٌ مع أختي غدير، التي أقلعت عن فكرة الزواج بعد تجربتها في الخطبة الفاشلة، التي كانت من شابٍ يعيش في ألمانيا، والتزمت بقرارها حتَّى وفاتها. وحاول أهلي إقناعي، ألَّا مشكلة عند غدير أن أتجاوزها وأتزوَّج قبلها، فأهلي لا يريدون التصديق، أنَّ اثنتين من بناتهما لا يعيبهما شيءٌ ستبقيان تعيشان معهم. لذلك لم يصدِّقوا موقفي الرافض للزواج، مع أنَّهم تفهَّموا موقف غدير، وبقي موقفي بالنسبة لهم مجرَّد موقفٍ تضامنيٍّ مع غدير. عندما زادت مراجعات محمد عن الوضع الطبيعي، شعرت أنَّ شيئًا أكثر من العمل يجعله يأتي إلى البلديَّة، لم أعرف ما هو هذا الشيء بالضبط، ولأنِّي امرأةٌ غير فضوليَّةٍ لم أتدخَّل بالثرثرة التي لا تنتهي بين الموظَّفين. وعندما أخبرتني خديجة زميلتي بالعمل أنَّ أخت محمد زارتها لتسأل عنِّي وعن أوضاعي، وهل أنا امرأةٌ متزوِّجةٌ أم لا، وما هي مواصفاتي، وكانت تربط العائلتين قرابةٌ بعيدةٌ. بعد معرفتي بأنَّه يسأل عنِّي، بدأت أخجل منه عندما يأتي للمراجعة، مع أنَّه لم يحاول أن يذهب بالحديث إلى ما هو أبعد من العمل. أصبحت أنتبه إلى نظراته التي لم تكن حياديَّةً، لكنَّها لم تكن وقحةً مثل نظرات الكثير من الرجال الآخرين. لم أتوقَّع تسارع العلاقة، ولم أكن أعرف كيف أستطيع جمع المعلومات عنه، رغم ذلك سألت عن المهندس محمد النداف بطريقةٍ غير مباشرةٍ، وعرفت أنَّه رجلٌ متديِّنٌ نظيف اليد. وهو لم يتركني لأخمِّن، وبعث أخته مرَّةً أخرى لزيارة خديجة التي أخبرتني أنَّ الرجل يحمل نيَّةً حسنةً تجاهي، فهو يريد الزواج على سنَّة الله ورسوله، ولا ينوي إقامة أيِّ علاقةٍ تسبق الزواج، لكن يرغب في مقابلتي حتَّى يستطيع أن يعرف موقفي منه، ولا يرغب في طرق باب أهلي ليأتي الجواب بالرفض، أو يشعر أنَّه يضعني في موقعٍ حرجٍ. وعندما اقترحت خديجة أن أقابله، قلت بحدَّةٍ:

«أنا ما بشوف رجال غُرباء»، ولكن السؤال الذي طرحته خديجة كان مفحمًا، عندما قالت: «وهو شو يعمل ليتعرَّف عليكِ، ويعرف إنكو مناسبين لبعضكم، يروح لعند أهلك؟!»، أجبتها: «ما بعرف»، حيَّرني سؤالها، وهو سؤالٌ محقٌّ، وسألت نفسي: «فعلًا، كيف رح يتعرَّف علي هذا الرجل أو غيروا، وأنا مسكرة على حالي، وما بدي شوف حدا، ولا أتعاطى مع أي رجل؟!»، رغم ذلك بقيت على موقفي، لكنَّ الزيارة التي قامت بها خديجة ومريم أخت محمد إلى بيتنا جعلتني أغيِّر موقفي، وما سمعته من أخته عنه، وهي امرأةٌ حضورها جميلٌ وملامحها ناعمةٌ متناسبةٌ مع قصر قامتها، الذي لا يقلِّل من جمالها، وهي معلِّمة رياضيات في ثانويَّة زملكا، وحديثها في غاية السلاسة، وسنتحوَّل إلى صديقتين مقرَّبتين بعد هذه الزيارة، بصرف النظر عمَّا ستؤول إليه العلاقة مع محمد، وهذه الشهادة جعلتني أفكِّر في الموضوع. فهي قالت: «شهادتي بمحمد مجروحة، مو لإنُه أخوي، هو أكثر من أخوي، هو صديقي. محمد رجل صادق جدًّا، ومتديِّن، لطيف، بعرف شو إلُه وشو عليه، عندُه سوء تكيُّف مع الوضع بالبلد، لإنُه مش قادر يعيش وسط فساد ما بقدر يكون جزء منُه. بدوِّر على شريكة حياتُه، تكون من نفس المواصفات، مو تكون نسخة عنُه، بس حدا يقدر يتفاهم معُه، ويكونوا أسرة سعيدة في هذا الزمن الصعب. ما بدي أحكي كتير وأدلِّل عليه، فيكي تسأل أي حدا عنُه. بس هو بدُه تحكو مع بعض أوَّل، ورح يجاوبك بصدق عن كل سؤال بتسأليه. واللقاء بكون وين ما بدك ومين ما بدك بكون معك أو معكو»، لم يكن في الكلام أيُّ شائبةٍ، وقرَّرت مقابلته، دون أن أبني أيَّ أحكامٍ أو أحلامٍ أو أوهامٍ مسبقةٍ. تعاملت مع الموضوع بحذرٍ، فأنا لم أقع في حبِّ محمد من أوَّل نظرةٍ، ولم أكن خفيفةً لدرجة أنَّ أحبَّ شخصًا لأنَّه أراد الزواج منِّي، أو هو معجبٌ بي. كان الوضع أقرب إلى الامتحان، ليس له فحسب، بل ولي أيضًا، وعلينا أن ننجح في هذا الامتحان معًا، وإذا رسب واحدٌ منَّا فيه، فإنَّنا سنرسب معًا. كان اللقاء الأوَّل غريبًا، لم أستطع أن

أسأل الأسئلة التي أريدها، خجلت من طرح الأسئلة من المرَّة الأولى، رغم ذلك لم يكن اللقاء سلبيًّا، كان انطباعي إيجابيًّا عن الرجل، لكن هذا لا يكفي لأن أكون زوجته. قال دون تبجُّحٍ: «أنا رجل بدِّي كمل نص ديني. وأنا عشت حياتي بالنور وما عندي شيء أخبِّيه، وأنا لما شفتك حسيت إنُه إنت المرأة المناسبة إلي، حبيت أجي من الباب»، قلت: «أنا مبسوطة إنِّي تعرَّفت عليك، بس ما بكفي موافقتي على لقائك، حتَّى تكون هي موافقة مبدئية على الزواج، هذا قرار بحاجة إلى الكثير من التفكير، لإنُه قرار مصيري. وأنا امرأة تبدو مطالبها صعبة في هذا الزمن، مع إنِّي ما بدِّي غير أعيش بسلام ببيت سعيد، أحافظ فيه على قناعتي، وعلى علاقتي بربِّي، دون أن تمسها القذارات الكثيرة المحيطة بنا»، قال: «مش طالب منك تجاوبي بسرعة، خذي وقتك، قصدي تعطيني فرصة، وتأكَّدي تمامًا إنِّي ما رح آذيكي، أبدًا»، قلت: «أوَّلًا، ما في شي أخاف منُه، منشان هيك إنت ما فيك تآذيني، وأنا في الآخر ما رح أعمل غير اللي برضي ضميري»، تعرُّفي على محمد ببطءٍ كان ضروريًّا، حتَّى لا أخسر هذه العلاقة بسرعةٍ، لأنِّي امرأةٌ أنفر من الرجال سريعًا. مع البطء رأيت محمد بصورةٍ أوضح، أخذت الوقت الذي أحتاجه لأتأكَّد من أنَّنا نستطيع أن نبني بيتًا صالحًا معًا. تعرَّفت على رجلٍ شهمٍ، واثقٍ من نفسه، يثق بشريكته في الحياة، لم يكن رجلًا بوجهين، كان رجلًا صادقًا يحافظ على كلمته في بلدٍ تعجُّ بالأكاذيب. لأنَّ العلاقة أصبحت في الطريق الصحيحة، طلبت منه أن يتقدَّم لخطبتي من أهلي، ونكمل تعارفنا خلال الخطبة. وهذا ما كان، لم يجادل أهل محمد بأيٍّ من طلبات أهلي، لأنَّه عرف أنِّي لا أريد منه شيئًا، في حال لم تنجح علاقتنا معًا، سأترك له كلَّ حقوقي الزوجيَّة، فأنا أشتري رجلًا، وإذا لم أجد هذا الرجل في حياتي، فلن أحمل منه أيَّ شيءٍ يذكِّرني به. إعجابي بمحمد نما ببطءٍ، ولكن بثباتٍ، وعدَدتُ أنَّه منحةٌ ربانيَّةٌ لي، وزوجٌ كما أردت الزوج أن يكون. لذلك سرعان ما تزوَّجنا، وانتقلت للعيش في بيته في زملكا. في حفلة زفافي كنت حزينةً

من أجل أختي غدير التي تكبرني بسنواتٍ عدَّةٍ، فأنا أتزوَّج قبلها، ولم يسعفها حظُّها بزواجٍ مناسبٍ، واتخذت قرارها بعدم الزواج. تمنَّيت من قلبي أن تتزوَّج، أفرح بعرسها، لكنَّ هذا لم يحصل، وهي التي احتفلت بزواجي، وكان فرحها صادقًا، مع ما شابه من إحساسٍ بالحسرة على نفسها، وهي حسرةٌ مفهومةٌ.

عندما انتقلت للعيش في زملكا، لم أكن وحيدةً، فقد أصبحت أنا ومريم أخت محمد صديقتين عزيزتين قبل زواجي، بصرف النظر عن قرابتها معه، وكانت هذه العلاقة خاصَّةٌ بمريم التي لها مكانٌ كبيرٌ في قلبي، ولم تكن علاقتي بإخوته الباقين سيِّئةً. مريم امرأةٌ في غاية الطيبة، تشبهني لحدٍّ كبيرٍ، ليس بالشكل طبعًا، بل بالطبيعية، وتتفوَّق عليَّ بحضورها المرح الذي أحبُّه ولا أجيده. لذلك عندما انتقلت إلى زملكا، وجدت نفسي بين نساء جميلاتٍ، كُنَّ صديقات مريم، واللواتي سرعان ما أصبحن صديقاتي، لأنَّها أصرَّت أن تعرِّفني عليهن، وهذا ما جعلني أصبح بسرعةٍ واحدةً منهنَّ، رغم أنِّي امرأةٌ غريبةٌ، وأهل زملكا كانوا أكثر محافظةً وانغلاقًا من مدينة دوما التي جئت منها. وما خفَّف من تعرُّض نساء زملكا لي، وأنا القادمة من دوما، وهي المكان الذي تعدُّه النساء في الغوطة الشرقيَّة مكان النساء المنافسات لهنَّ، لأنَّ مدينة دوما يُضرَب بها المثل في جمال نسائها، فهنَّ الأكثر جمالًا بين جميع نساء الغوطة الشرقيَّة، إذا لم يكن في كلِّ مدينة دمشق. ما أعفاني من غيرة النساء في عائلة محمد وصديقات مريم، صحيحٌ أنَّني قادمةٌ من دوما، لكنِّي لم أكن دومانيَّةً أصليةً، كنت فلسطينيَّةً أعيش في دوما. هذا ما جعل علاقاتي معهنَّ علاقةً جيِّدةً. فأنا اللاجئة في دوما، ألقى الترحاب في زملكا. عدَدتُ نفسي محظوظةً بزواجي من محمد، لم يكن ملاكًا، هو بشرٌ من لحمٍ ودمٍ، وأنا كذلك، لطالما اختلفنا على الكثير من الأشياء وتشاجرنا، لكن بقيت شجاراتنا في حدود الاحترام المتبادل، ولم يفقد ثقته بي يومًا، بصرف النظر على الموقف بيننا، سواءً كنَّا على وئامٍ أو خصامٍ،

بقي رجلًا يحترم نفسه ويحترمني طوال الوقت، وهذا ما جعلني أتعلَّق به أكثر وأحبُّه أكثر. ولم يختلف الوضع بعد إنجابنا لأولادنا، بنت وولدين أنجبناهم خلال أربع سنواتٍ وقرَّرنا التوقُّف عن الإنجاب، حتَّى يأخذ الأولاد حقَّهم في الاهتمام، فكلَّما زاد الأولاد قلَّت حصَّتهم من اهتمام أهلهم، هذه كانت قناعتي وقناعة محمد أيضًا.

عندما بدأت الاحتجاجات في البلد، كنَّا قد بنينا أنا ومحمد حياةً راضين عنها، مع أنَّنا لم نكن راضين عن أيِّ شيءٍ في البلد، التي احتلَّها الفساد، وأصبح كلُّ ما يلمسه المرء فاسدًا ويلوِّثه، وفي هذه الأجواء كان علينا أنا ومحمد أن نعيش حياةً نظيفةً، وما أصعب الحياة النظيفة في مستنقعٍ من القاذورات تحيط بنا من كلِّ جانبٍ. وما زاد الوضع سوءًا، أنَّنا نعمل في القطَّاع الهندسيِّ، وهو من أكثر القطَّاعات فسادًا في البلد. لم أكن قادرةً على استلام أيِّ منصبٍ هندسيٍّ في أيِّ بلديَّةٍ لأنَّ المطلوب من الموظَّف في هذا المنصب أو ذاك أن يكون فاسدًا، والترفيع الوظيفيُّ ذاته مرتبطٌ بفساد الموظَّف، كلَّما كان فاسدًا أكثر، فإنَّ فرصته في صعود الهرم الوظيفيِّ تزداد، وصولًا إلى القمَّة التي تدير السياسة، بوصفها تنظيمًا للفساد وتوزيع عائداته على الأزلام والتابعين، لذلك كان من الطبيعيِّ أن يكون مصيري قسم الخرائط المنسيِّ في بلديَّة دوما. للأسباب ذاتها لم يقبل محمد الاستمرار في وظيفة الدولة، فاستقال من وظيفته وافتتح مكتبه الهندسيَّ الخاصَّ، وهو ما اعتقد في البداية أنَّه أفضل له، في الواقع بقي في المكان ذاته، لم يغادر المستنقع القذر، الذي أينما ذهب المرء في البلد يجده أمامه، ويشدُّ به حتَّى يضمَّه إليه، ومقاومة هذا الواقع يحتاج إلى ثقةٍ استثنائيَّةٍ بالنفس، وقوَّةً هائلةً ورضًا عن النفس، وإلَّا كلُّ شيءٍ يدعو إلى الانغماس في الفساد الذي يعمُّ البلد، وهناك الكثيرون الذين تساءلوا: «ما فائدة أن تكون نظيفًا في عالمٍ قذرٍ؟!»، لم يكن الجواب صعبًا على من يريد أن يجيب إجابةً حقيقيَّةً على هذا السؤال، المسألة ليست العالم القذر، فمن السهل أن يكون الواحد

منَّا جزءًا منه، المسألة الأنا الشخصيَّة، هل أستطيع أن أكون جزءًا من عالم الفساد، وأكون راضيةً عن نفسي، ومُرضِيةً ربِّي. هذا السؤال الأساسيُّ بالنسبة لي ولمحمد، أنَّه سؤال النظافة وليس سؤال القذارة. لم يكن من الصعب على موظَّفةٍ مثلي أو مثل محمد الانغماس في مستنقع الفساد وجمع ثروةٍ، لكن عندما يحصل هذا نكون قد أصبحنا شخصين آخرين، آخر ما يمكن أن نشعر به هو الرضا عن النفس. في الوقت الذي نعيش متاعب لا تنتهي في العمل، نعود في نهاية الأمر إلى سريرنا، ونحن راضيان، ننام ملءَ جفوننا، أمَّا لو كنَّا غير ذلك، لما استطعت شخصيًّا النوم وأنا آخذ أموالًا لا أستحقُّها. هذا الواقع الغريب عنَّا، جعل أوضاعنا الماليَّة متواضعةً مقارنةً بزملاء لنا بنوا ثرواتٍ من وراء وظائفهم، لم أحسدهم على ما هم عليه، كنت أشفق عليهم، لأنِّي أعتقد لا شيءٌ في هذا العالم يستحقُّ أن يبيع المرء ضميره من أجله. لكن يبدو أنَّ الناس الذين لا ضمير عندهم أكثر ممَّا نتوقَّع. كان وضعنا أنا ومحمد معقولًا، لأنَّنا بدخلين، راتبي ودخله من عمله في المكتب، الذي كان في جميع الحالات أفضل من دخل الوظيفة، رغم محاربته من الآخرين، زملاء وموظَّفين، في كلِّ مكانٍ حصل به على مناقصةٍ متواضعةٍ، لأنَّ كلَّ المشاريع والمناقصات الكبيرة كانت محفوظةً للفاسدين، والذين يعرفون بالمشروع وتفاصيله والمبالغ المقبولة في مناقصته قبل التقدُّم إليه، لذلك كانت المشاريع التي ترسي على محمد مشاريع صغيرةٌ، وليس فيها من المال ما يستحقُّ أن تُخاضَ معركةٌ من أجله، وطالما ألَّا مال وفير من ورائها، يتركها كبار الفاسدين. رغم كلِّ هذه الصعوبات، كنَّا راضين عن حياتنا الصغيرة وعائلتنا الصغيرة التي نحبُّها، تعوِّضنا عن مصاعب ومتاعب العمل خارج المنزل لوقتٍ طويلٍ. لم نملك طموحاتٍ كبرى، كلُّ ما كنَّا نطمح إليه أن نعيش ببعض الراحة، وأن يحصل أولادنا على تعليمٍ جيِّدٍ. وأن نستطع الاستمرار في حياتنا دون أن نتلوَّث في العالم القذر المحيط بنا.

عندما طلب محمد منِّي أن أتقدَّم بطلبٍ للحصول على الجنسيَّة السوريَّة، لم يكن الموضوع قد خطر على بالي، ولم أشعر يومًا أنِّي بحاجةٍ إلى هذه الجنسيَّة حتَّى أشعر أنِّي أنتمي إلى البلد، فأنا وُلِدتُ فيها وعشت وسط ناسها، لم أشعر يومًا أنِّي غريبةٌ. طبعًا، لم أكن أخجل من فلسطينيَّتي، فلم أشعر يومًا أنَّ هناك تناقضٌ بينهما، مع أنَّني لم أهتمَّ يومًا بالسياسة، لم أنتبه إلى أنَّ هناك ما يعيدك كلَّ مرَّةٍ إلى الأسئلة المنسيَّة. لم أملك اللهجة الفلسطينيَّة يومًا، جاء ارتباطي بفلسطين من خلال قصص أبي عن فلسطين، وتجربة اللجوء وهو طفلٌ يذكر رحلة اللجوء كطيفٍ بعيدٍ، ومن خلال حديثه عن الحروب التي خاضها أو حضرها، وبعد ذلك من الكتب التي قرأتها ومن دراسة التاريخ في المدارس، ومن الكتب التي قرأتها لنفسي وتلك التي قرأتها لفراس. ولم أعتقد يومًا أنَّ حقِّي في فلسطين ينتقص من إحساسي بسوريَّتي، التي أعيشها في الواقع دون تبريرٍ، حتَّى لهجتي كانت غارقةً في سوريَّتها، وفي محليَّتها أيضًا. طلب محمد جعلني أشعر بغربتي التي لم أحسَّ فيها من قبل. لجأ الفلسطينيُّون إلى سورية مثلما لجأوا إلى الدولة العربيَّة الأخرى بعد حرب العام 1948، التي خسروا فيها أرضهم، وتشرَّدوا في الدول العربية، وقامت إسرائيل على أرضهم وسلبتهم بيوتهم التي تركوها كما هي، لأنَّهم اعتقدوا أنَّهم سيعودون إليها بعد أيَّامٍ، وطالت هذه الأيَّام لسنواتٍ ولعقود. وخلال هذه الفترة احتفظوا بصفتهم لاجئين، ولم يمنحوا جنسيَّة البلدان التي عاشوا أعمارهم فيها، وبقيت الوثائق التي تثبت وجودهم في هذا العالم، عبارةً عن «بطاقة إقامةٍ مؤقَّتةٍ للاجئين الفلسطينيِّين»، كما كُتِبَ على بطاقات التعريف الخاصَّة بالفلسطينيِّين، والتي كانوا يسمُّونها «هوية» تجاوزًا. كان الاعتبار الذي جعل دولةً مثل سورية ولبنان تمتنع عن إعطاء اللاجئين الفلسطينيِّين جنسية البلد، أنَّهم يريدون أن يحافظ الفلسطينيُّون على «حقِّهم بالعودة إلى بلدهم»، وكأنَّهم أحرص من أصحاب الحقِّ على حقِّهم. مع أنَّهم في بلدٍ مثل الأردن، مُنِحَ

الفلسطينيُّون جنسيَّة البلد دون أن تسقط السماء. في سورية يستحيل على الفلسطينيِّ الحصول على الجنسيَّة السوريَّة، إلَّا في حالةٍ واحدةٍ، وهي حالة المرأة الفلسطينيَّة التي تتزوَّج من سوريٍّ، وبموجب هذا الزواج تتقدَّم بطلب الحصول على الجنسيَّة السوريَّة، وكأنَّ الجنسيَّة السوريَّة تساوي الجنسيَّة السويسريَّة! والرجل الفلسطينيُّ عندما يتزوَّج من سوريَّةٍ لا يملك هذا الحقَّ، يبقى فلسطينيًّا، وينجب أولادًا فلسطينيِّين، أمُّهم سوريَّةٌ، سوريَّة أمِّهم لا تغيِّر شيئًا في وضعهم القانونيِّ في البلد. مسَّ طلب التقدُّم إلى الجنسيَّة السوريَّة وترًا حسَّاسًا لم أعرف أنَّه عندي، لم تكن هذه الحساسية عندي من قبل، في الكثير من الحالات ذُكِّرتُ بأنِّي فلسطينيَّةٌ، مثلما كان يحصل أيَّام الانتخابات، وعلى تفاهة الانتخابات في البلد، لم يكن يحقُّ لي المشاركة فيها. وعندما نريد التقدُّم إلى الوثائق نكتشف أنَّنا نذهب إلى أماكن أخرى ونحصل على وثائق أخرى، غير تلك التي يحصل السوريُّون عليها. «ليش أقدِّم عليها، ما إحنا عايشين بلاها»، قلت هذا ردًّا على طلب محمد. قال: «أفهم مشاعرك، هذا ما بخليكي تغيري شي»، قلت: «محمد. مش هذا الموضوع. مش عارفة شو أقول. نادرًا ما حسيت إنِّي مش بنت البلد، وما بعرف ليش هذا الموضوع بخلِّيني أحس إنِّي غريبة، بحاجة لشهادة تقول إنِّي مش هيك»، قال: «مش قصدي، إن الجنسية السورية أفضل من فلسطينيتك، بس المشكلة ما حدا بعرف شو ممكن يصير معنا، بنظل، بنسافر، بنهاجر. على الأقل التعامل مع جواز السفر أهون من الوثيقة»، قلت: «بفهم قصدك، وأنا ما بشكِّك فيك، بس حاسة الموضوع نفسُه مستفز إلي. على كل حال، ما هي نهاية العالم رح أعمل زي ما بدك، رغم إنِّي مش مقتنعة»، عندما تسلَّمت هويتي السوريَّة، شعرت بالحزن فجأةً، أحسست أنِّي خسرت فلسطينيَّتي التي لم تكن ملحَّةً عليَّ، وأنِّي بخسارتي لبطاقة إقامتي المؤقَّتة، خسرت شيئًا من نفسي ومن تاريخي الشخصيِّ، ومن تاريخي العائليِّ، صرت بنت أبي أقلَّ من السابق، لم أعرف أنَّ

هويتي طبقاتٌ متراكمةٌ داخلي، وأنَّ فلسطينيَّتي أكثر عمقًا ممَّا اعتقدت، وأنَّ خسارتها حتَّى في أوراق لا قيمة لها، أشعرني بالحزن الشديد. شعرت أنَّ صورة المرأة على الهوية التي كتب عليها «بطاقةٌ شخصيَّةٌ» وتحمل اسمي ليست صورتي، إنَّما صورةً لامرأةٍ أخرى لا أعرفها، وأنَّ قيمة بطاقة الإقامة المؤقَّتة للفلسطينيِّين أكبر عندي من هذه البطاقة الشخصيَّة التي مُنِحَت لي بعد حصولي على الجنسيَّة السوريَّة. شعرت أنِّي ممزَّقةٌ، وأنَّ شرخًا في هويتي الشخصيَّة قد حصل جرَّاء هذا الإجراء الإداري. مع الوقت بدأت أُقنع نفسي أنِّي أبالغ في ردِّ فعلي على حدثٍ صغيرٍ، وأنَّ ما جرى مجرَّد إجراءٍ إداريٍّ، وأنِّي أنا رشا ذاتها التي كانت قبل الجنسيَّة وهي ذاتها بعدها، وأنَّ الأوراق مهما كانت لا تستطيع أن تغيِّرنا وتغيِّر هويَّتنا التي كوَّناها خلال حياتنا. تراجع إحساسي بالخيبة مع الوقت، ويعود هذا الإحساس للظهور كلَّما اضطررت لاستخدام أوراقي الشخصيَّة في دائرةٍ حكوميَّةٍ، أو في مراجعةٍ رسميَّةٍ. أصبحت امرأةً سوريَّةً بموجب أوراقي الرسميَّة، ولم يكن في ذلك أيُّ ميزةٍ بالنسبة لي، ولم يغيِّر ذلك من هويتي في عائلة زوجي، بوصفي «الفلسطينيَّة مرت محمد» وكأنَّ لا اسم يميِّزني، ما يميِّزني صفةٌ تأتي من انتمائي لجماعةٍ غريبةٍ عنهم، أعرف أنَّهم لا يقصدون ذلك، ولكن هذا ما شعرت به. هناك الكثير من الأوجاع لا يشعر بها سوى صاحبها.

عندما انطلقت المظاهرات في البلد احتجاجًا على الأوضاع والمطالبة بالحريَّة والعدالة، كان هناك ألف سببٍ يجعل محمد واحدًا من طليعة المتظاهرين والهاتفين للحريَّة. لم يكن عندي شكٌّ في ذلك، وكنت معه في كلِّ ما يفعل، كان من حقِّه ومن حقِّي ومن حقِّ الجميع في البلد أن يطالبوا بحياةٍ أنظف وأفضل وأكثر عدالةً. منذ عرفته وهو يشعر بالقهر والظلم، لم يستطع الحصول على الفرصة التي يستحقُّها في هذا البلد، بلده، حتَّى أنَّه لم يحصل على فرصة منافسةٍ متكافئةٍ، يخسر فيها هذه المنافسة، وعندها لا مشكلة لأنَّ المنافسة تكون عادلةً، أراد أن يشعر أنَّه يخسر في منافسةٍ

شريفةٍ، ولو لمرَّةٍ واحدةٍ. كلُّ هذا لم يحصل، شعر بالظلم في كلِّ زاوية من زوايا حياته، ولم يجد مقابلًا أفضل من الفتات للجهد الكبير الذي بذله في حياته. لم يكن حالي أحسن، فأنا طالبة الهندسة المجتهدة التي طمحت لتغيير مفهوم الهندسة في البلد، أعرف أنَّ هذا الطموح كبيرٌ ومن الصعب تحقيقه، وما لم أكن أتوقَّعه، أن أغادر مهنة الهندسة عندما أحصل على فرصة عملٍ، وبدل من استخدام معارفي التي كسبتها خلال دراستي في وظيفتي، وجدت نفسي أجلس في غرفةٍ جدرانها كالحةٌ لِقِدَمِ الطلاء، ومكاتبها قديمةٌ صدئةٌ، بنوافذ لا تطلُّ على مكانٍ، أحرس غبار الخرائط، وأتحوَّل من مهندسةٍ إلى عاملة أرشيف، في الوقت الذي ذهب أسوأ طلَّاب كليَّة الهندسة إلى أعمالٍ هندسيَّةٍ تفوق إمكاناتهم، وهذا ليس بسبب الموهبة والمقدرة، بل بسبب المحسوبيَّات والولاءات. لم يكن محمد ليترك فرصة التعبير عن غضبه عندما سنحت الفرصة. ولم يخفِ ذلك عنِّي، وما حصل كان متوقَّعًا بالنسبة لي. فمنذ انفجار الاحتجاجات في تونس ومصر، ومحمد المصاب بالدهشة من الحدث الكبير، ينتظر انتقال عدوى الثورة إلى سورية، وكان يقول: «إحنا بحاجة للثورة أكثر منهم»، لا أعتقد أنَّه انتظر هذا الانتقال، بل عمل عليه، صحيحٌ أنَّه لم يخبرني بكلِّ شيءٍ، ولم أكن أطلب منه ذلك حتَّى لا يزيد قلقي عليه. وعرفت بعد ذلك، أنَّه ومن قبل انطلاق المظاهرات في البلد، شكَّل مع أصدقائه في زملكا مجموعةً للنقاش حول ما يجري في بلدان الثورات العربيَّة، وما الذي يمكن فعله في البلد. وهي المجموعة التي كانت نواة التنسيقيَّة المحليَّة لبلدة زملكا التي أدارت مع مجموعاتٍ أخرى الاحتجاجات في البلدة في مواجهة النظام. وسرعان ما ردَّ النظام على المظاهرات على أساس أنَّها نشاطاتٌ إرهابيَّةٌ مسلَّحةٌ مدعومةٌ من الخارج لتخريب البلد. لم يتأثَّر محمد وأصدقاءه بهذا الكلام، أرادوا إرسال رسالة مطالب بأن يُصلِحَ النظام نفسه، ولكنَّ الرسالة لم تصل، وهذا ما جعلهم يتجهون إلى وجهةٍ أخرى. كانت المظاهرات وسليتهم للتأثير على

النظام، وردَّت عليها الأجهزة الأمنيَّة بإطلاق النار على المتظاهرين لإعادتهم إلى بيوتهم، لكنَّ إطلاق النار على الناس العزَّل زاد من غليان البلدة، وهو ما دفع إلى تصعيد الاحتجاجات. سقط الشباب برصاص الأجهزة الأمنيَّة يوميًّا، وأصرَّ أصدقاؤهم على الردِّ على القتل بالتصعيد، ولأنَّ تصعيد المظاهرات لم يكن كافيًا بالنسبة للشباب المتحمِّس، ولا يمكن من وجهة نظرهم أن يتصدَّوا للرصاص بصدورٍ عاريةٍ، لأنَّه نوعٌ من الانتحار. واقتنعوا أنَّه لا يمكن للعين مقاومة المخرز، وبذلك سيكون الردُّ من النوع ذاته، سيُرَدُّ على الرصاص بالرصاص. عندها بدأت المجموعات العسكريَّة بالظهور في المدن السوريَّة، والبداية من حمص، بانشقاق بعض العسكريِّين، وهو ما شكَّل فاتحة انشقاقاتٍ كثيرةً بعد ذلك. في البداية أخذ الشباب الغاضبون يلتحقون بمجموعة أبي علي الدوماني في دوما، التي لم تكن سمعتها جيِّدةً، فقد تشكَّلت من مجموعةٍ رجالٍ زعران، وهي الصفة التي عُرف بها أبو علي في دوما، فقد كان معروفًا كرجل مشاكل في المدينة التي تربَّيت فيها. لكنَّه لاقى تأييدًا بين السكَّان في دوما وفي الغوطة الشرقيَّة لدور مجموعته في التصدِّي للنظام، وإبداء شجاعةٍ في هذه المواجهات، ما دفع العديد من الشبَّان إلى الالتحاق به، لأنَّهم فقدوا صبرهم على الوحشيَّة التي قابلت بها السلطة المظاهرات السلميَّة، والتي قمعتها وفقًا لخطابها السائد، يقوم مدسوسون بهذه المظاهرات، ومدسوسون آخرون يطلقون النار على المتظاهرين السلميِّين.

بدأت المظاهرات في زملكا في جمعة الغضب في نيسان من العام الأوَّل للثورة. كانت أعداد المتظاهرين بالمئات، ولم يتمكَّن المتظاهرون من إكمال تظاهراتهم، سرعان ما تدخَّل رجال الأمن وأعوانهم الذين فاقت أعدادهم أعداد المتظاهرين، وانهالوا بالضرب عليهم لتفريقهم. مع الأيَّام زاد عدد المتظاهرين، وكانت أيَّام الجمعة ذروة المظاهرات التي تعمُّ كلَّ البلد، خارجةً من المساجد بعد صلاة الجمعة. ومنذ الجمعة الثانية للتظاهر،

سقط القتلى في زملكا برصاص رجال الأمن، سمعت إطلاق النار على المتظاهرين من بيتي الذي يبعد حوالي ثلاثمئة مترٍ عن الجامع الذي تخرج منه المظاهرات، وهو ما سمح لي بمشاهدة المظاهرات التي تعبر من أمام البناية من برندة بيتي في الطابق الثالث. في كلِّ يوم جمعة كنت أسمع صوت إطلاق النار على المتظاهرين، أفتح ذراعي وأدعو ربي ألَّا يُصاب أيٌّ من شباب زملكا بهذه الطلقات. وتنتصر الطلقات على دعواتي ويسقط القتلى والجرحى جرَّاء إطلاق النار. مع الوقت ازداد عدد القتلى، لأنَّ رجال الأمن باتوا يصابون بالذعر والجنون من استمرار المظاهرات، فيطلقون النار على نحوٍ هستيري على كلِّ من هو في الشارع، وكلَّما سقط شبابٌ أكثر في المظاهرات، كلَّما زاد عدد المشاركين فيها. ومع استمرار القتل، دعا الشبَّان الغاضبون إلى حمل السلاح لردع المجرمين، حاولت اللجان التي تتعاون في تنظيم التظاهرات في المدينة الوقوف في وجه تسليح المظاهرات، وردَّ الشبَّان المتحمِّسون بالتسلُّح، وشكَّلوا المجموعات الخاصَّة بزملكا، ونسَّقوا مع المجموعات المسلَّحة في البلدات المجاورة، لا سيَّما مجموعات دوما وجوبر. لم يستطع العقلاء في البلد منع التسلُّح مقابل مطالب التسليح المتصاعدة وتسلُّح المناطق المجاورة. تزايدت المجموعات المسلَّحة بسرعةٍ مع بدء طرد قوَّات النظام والمخابرات من بلدات الغوطة الشرقيَّة. صحيحٌ أنَّه في بداية العام التالي أصبحت البلدة تحت سيطرة الجيش الحرِّ بسهولةٍ، وطُرِدَ أفراد المخابرات وأزلامهم من البلدة، لم يدم هذا سوى أيَّامٍ عدَّةٍ. وعاد جيش النظام للهجوم على البلدة. في تلك الفترة تحاصرنا في البلدة ولم يعد الخروج أو الدخول ممكنًا. أرعبني القصف على البلدة، لا سيَّما بغياب محمد عن البيت. لم أكن أعرف ماذا أفعل مع الأولاد، أجمعهم في مدخل البيت المحميِّ بجدران مزدوجةٍ، خوفًا من سقوط قذيفة داخل البيت تؤدِّي إلى مقتلنا جميعًا، لم يكن أمامي في لحظات القصف العنيفة، سوى الدعاء من أجل سلامة أولادي، وأقول: «يا رب أنا مؤمنةٌ بكرمك، ما بدي

شي غير تحمي لي ولادي. قادر يا كريم يا رب»، كلَّما مرَّت قذيفةٌ وسمعت صفيرها فوق المنزل، أحضن أولادي وأقول: «الله يحميكن» منتظرةً انفجارها. شرح لي محمد، أنَّ القذيفة التي نسمع صفيرها، لن تؤذينا، فهي تكون قد عبرت فوقنا وهي ذاهبةٌ إلى مكانٍ آخر، علينا الخوف من القذائف التي لا نسمع صوتها. كنت أعرف هذا دون شرح محمد، ورغم شرحه ومعرفتي، فقد كنت أشعر أنَّ القذيفة التي أسمع صفيرها ستنفجر في بيتي، أضمُّ أولادي وأشرع في البكاء منتظرةً انفجارها بعيدةً أو قريبةً من منزلنا. كان انفجار القذائف يصيبني بالرعب، فأذهب إلى البكاء، أمَّا أولادي عندما يسمعون الانفجارات المدوية التي تصمُّ الأذن، كانوا يغرقون في حالة هلعٍ، لا أعرف كيف يمكنني إخراجهم منها، ولعجزي عن فعل شيءٍ كان يزداد بكائي وخوفي. لست امرأةً شجاعةً، ولست مصمَّمةً لخوض الحروب، كنت أخاف من كلِّ شيءٍ، ولا أريد من الدنيا سوى تركي وأولادي نعيش بهدوءٍ، وهذا لم يحصل. أراد جيش النظام استرداد البلدة التي جاءتها المساعدة من البلدات المجاورة، ولطردهم قصف جيش النظام البلدة بوحشيَّةٍ مستخدمًا مدافع الهاون والصواريخ والطائرات المروحيَّة، قذائف تسقط بكثافةٍ على البلدة ومحيطها.

عندما بدأ القصف، طلب محمد منِّي أخذ الأولاد والذهاب إلى بيت أهلي في دوما، فهناك الوضع أكثر أمانًا من زملكا. قال محمد: «رشا شو رأيك تروحي عند أهلك، لحتَّى يبيِّن الوضع هون؟»، لم أفكِّر في الجواب، وسرعان ما قلت له: «أبدًا ما رح روح محل، المحل اللي رح أروح عليه هو المحل اللي بتروح عليه إنت. وأنا والأولاد باقين معك. اللي بصير عليك بصير علينا»، قال: «بس يا رشا، الوضع خطير على الأولاد، ورح يصير أخطر»، قلت: «الخطر بكل مكان، وين ما رحت اليوم في البلد الخطر هو هو»، لم يتوقَّع محمد منِّي هذا الموقف، دُهِشَ من موقفي الراسخ بالبقاء معه. في وسط المعارك قال لي: «ما كنت بعرف إنُّه عندك هاي الشجاعة»، في الحقيقة لم

يكن هناك أيُّ شجاعةٍ في الموضوع، كلُّ ما في الأمر أنِّي قرَّرت وبكامل جُبنِيَ المعروف أن أبقى مع محمد مهما حدث. قرَّرت التكيُّف مع خوفي، الذي فهمه شجاعةً، كان نوعًا من الحماية بالتكيُّف مع الخوف، والظهور بمظهر الشُجاعة. قرَّرت بكلِّ ما أملك من عنادٍ، وبالرغم من خوفي الشديد على أولادي، أن أبقى مع محمد إلى نهاية المشوار، داعيةً ربي طوال الوقت أن ينجينا من الموت وأن نعبر هذا الوضع الصعب معًا، دون أن يصاب أيٌّ منَّا بأذًى، أو أفقد أيًّا من عائلتي. أرعبتني فكرة أن أفقد أحدًا من عائلتي، لم أتصوَّر الحياة دون أحد أولادي أو دون زوجي. لم أنتهِ من الأزمة التي سبَّبها موت أختي منى لي، فإلى هذا اليوم لا أصدِّق أنَّ منى ماتت، رغم كلِّ السنين التي مرَّت، ورغم الموت الذي يحيط بنا من كلِّ جانبٍ. اشتدَّ القصف على المدينة، القذائف في كلِّ مكانٍ، وأخذ بعض أهالي زملكا يهربون من القصف إلى المناطق المجاورة، ناجين بأرواحهم وأرواح أولادهم. توقَّع محمد تحت وطأة القصف القاسي، أن يدفعني خوفي على الأولاد لأغيِّر رأيي بالخروج. كان يخاف عليَّ وعلى الأولاد، ولذلك أرادنا أن نخرج ويبقى وحده في البلدة، معتقدًا أنَّ هذا أكثر أمانًا بالنسبة لنا. أنا نفسي لم أتوقَّع أن أصمد في الظروف التي عشناها بعد ذلك، ولم أتصوَّر حتَّى في كوابيسي أنَّنا سنعيش الأوضاع التي عشناها في حصار الغوطة. في ذلك الوقت، فكَّرت في تغيير رأيي والخروج من زملكا، عندما سقطت القذيفة في البناية الملاصقة لبنايتنا، واهتزَّ البيت وأطاح الانفجار بنصف زجاج المنزل، وعشنا أنا والأولاد حالة هلعٍ لم أعرف كيف أتعامل معها. ولولا عودة محمد سريعًا إلى البيت، لما عرفت ماذا سأفعل. عاد محمد وقتها بسيَّارته، ونقلنا إلى بيت أخيه مصطفى في منطقةٍ محميَّةٍ أكثر من القذائف. وأولادي يمسكون بي ويصرخون وبالكاد أسمعهم، لأنَّ انفجار القذيفة أطاح بسمعي، وأنا أبكي وأحتضن الأولاد، وهي الحالة التي جاء محمد ووجدنا عليها. سألت نفسي: «أنا شو بعمل هون؟ وليش بعرِّض ولادي لخطر الموت؟»، ألحَّ

السؤال عليَّ وأنا في حالة الهلع التي عشتها في تلك اللحظات، ولا سيَّما أنَّ القذائف استمرَّت بالسقوط على محيط المنزل، لكن بمسافاتٍ أبعد، تسبَّب دويُّ الانفجارات بصراخ أولادي طوال الوقت. هدأت قليلًا بعد أن شاهدت محمد أمامي، احتضنني وأحتضن الأولاد، وسرعان ما طلب منِّي الخروج من المنزل، وكنَّا قد حضَّرنا حقيبةً فيها مستلزماتنا الضروريَّة، في حال غادرنا فجأةً مثلما فعلنا في تلك اللحظة. نزلت أنا والأولاد ومحمد يحمل الحقيبة، بين صفير القذائف وانفجارها، وأصوات الطلقات القادمة من مكانٍ بعيدٍ، وكأنَّ هذه الأصوات قادمةٌ من مدخل البلدة. عدت للتفكير بضعفي الذي جعلني أفكِّر بالخروج من زملكا أنا والأولاد، وشعرت بالخزي من خوفي، وأنا أعرف أنَّه خوفٌ طبيعيٌّ، ويجب ألَّا يملي عليَّ تصرُّفاتي. فأنا امرأةٌ مؤمنةٌ، وأعرف أنَّ كلَّ شيءٍ في النهاية بيد الله، وما سيحصل معنا هو المكتوب لنا، وبما أنِّي امرأةٌ مؤمنة لا يجب أن أخاف ممَّا هو مكتوبٌ. قلت هذه الكلمات تشجيعًا لنفسي من أجل الحفاظ على بعض الشجاعة والبقاء في البلدة. علَّمتني الحرب وقسوتها، أنَّ التناقض هو الحالة الطبيعيَّة للشخص الذي يشعر بتهديد الموت له ولأحبَّته، وهذا لا يمكن التعوُّد عليه مهما طالت الحرب. تبقى قدرة الحرب على إخافتنا مفتوحةً ومتجدِّدةً. وبعد تلك المحنة باقتحام البلدة، التي كانت بداية تجربتي بالعيش في ظلِّ شروطٍ في غاية القسوة، وفي ظلِّ إذلالٍ لا ينتهي. لم نستطع الخروج من المبنى بسبب القصف العنيف، فعدنا إلى بيتنا بانتظار أن يتوقَّف القصف. عندما خرج الجيش الحرُّ من البلدة تحت وطأة القصف الشديد، لم يعنِ هذا انتصار قوَّات النظام التي أخذت تنكِّل بالناس، وتذلُّ الآباء والأمهات أمام أولادهم. عندما توقَّف القصف، وأردنا الخروج، وجدنا أنَّ جيش النظام أصبح منتشرًا في شارعنا. أخذ جيش النظام يفتِّش البلدة، دخلوا كلَّ بيتٍ وفتَّشوه. انتشر الجيش بكثافةٍ في الشارع الرئيسيِّ الذي نسكن به، وانقسم إلى مجموعاتٍ، كلُّ مجموعةٍ تدخل بنايةً لتفتيشها، وعندما دخلوا شقَّتنا،

فهمنا أنَّ ما يجري هو إذلالٌ للبلدة وسكَّانها وليس تفتيشًا عن مقاتلين أو أسلحةٍ. عندما صعد الجيش إلى الطابق الثالث الذي نسكن فيه. طرق الجنديُّ الباب بأداةٍ قاسيةٍ، ولم يرنَّ على الجرس الكهربائي، وأعتقد أنَّه طرق الباب بكعب بندقيَّته. وعندما فتح محمد لهم الباب، قال: «خير، شو فيني أخدمكم؟!»، قال أحد الجنود والذي يبدو عليه أنَّه مسؤول المجموعة بلهجته الساحليَّة: «اخرس يا كر، بلد مجرمين. إحنا جاين نفتِّش»، قال محمد: «تفتشوا على شو؟!»، قال الجندي: «اخرس مو شغلك»، رفع البندقيَّة في وجهه وقال: «وجهك على الحيط وإيديك لفوق»، امتثل محمد لأوامر الجنديِّ. وعندها قلت: «ما في عنَّا شي تفتشوا عليه»، قال الجندي ذاته: «اخرسي يا شرموطة. إحنا بنعمل شغلنا»، التفت محمد إليَّ وأشار بعينه أن أسكت، فسكتُّ. احتضنت أولادي الذين أخذوا يبكون عندما شاهدوا الجنود مدجَّجين بالسلاح ويصرخون على أبيهم. حاولت إسكاتهم، ولم أنجح. وبين الحين الآخر، يهدِّد مسؤول المجموعة: «خرسي الأولاد، أحسن ما خرسك وخرسكون وأخرِّس هذا الحيوان اليوم»، ويقصد زوجي، وهو ما زاد من صراخ الأطفال، وأفشل محاولاتي في معالجة الموقف. عبثوا بالبيت كلِّه، كلُّ مالٍ أو ذهبٍ وجدوه سرقوه، لأنَّنا توقَّعنا ذلك أخفينا أموالنا وبعض المقتنيات الذهبيَّة المهمَّة في مكانٍ خاصٍّ. مزَّقوا الكثير من الملابس وحطَّموا بعض الأثاث وألعاب الأطفال. سرقوا بعض الساعات وبعض الأقلام الثمينة الموجودة في الخزانة، رموا ملابسنا في كلِّ مكانٍ، وجعل الطين العالق في أحذيتهم الثقيلة البيت متسخًا، وبحاجةٍ إلى تنظيفٍ. تمالكت نفسي من أجل ألَّا أبكي ثانيةً، وما إن خرجوا من المنزل، شعرت بحملٍ ثقيلٍ ينزل عن كتفي، فشرعت في البكاء من جديدٍ. كنت أبكي نفسي، وأبكي إحساس محمد بالعجز أمام الإذلال الذي مارسه الجنود بصفاقةٍ ضدَّه، ورغم أنِّي خفت أن يفعلوا أكثر من ذلك، بأن يضربوا محمد أو يطلقوا النار عليه أمام أولاده، لا أن يكتفوا بشتمه، وهو ما فعلوه في

الكثير من البيوت الأخرى في البلدة. لم يستطع محمد بعد التفتيش أن ينظر إليَّ، شعر بالخجل من صمته على الإذلال الذي تعرَّض له، وقد فعل الموقف الصحيح. فهم كانوا يشتمونه وينتظرون منه ردَّ فعلٍ أكبر حتَّى يضربوه أو يقتلوه. لم أرَ فيما جرى ما ينتقص من رجولة محمد، ولم أرَ مبرِّرًا لما شعر به من عارٍ. فكَّرت في فتح الموضوع معه، لأخفِّف عنه، شعرت أنَّ فتح الموضوع، سيفعل العكس، وسيشعر بإذلالٍ أكبر، قلت سأترك هذا للزمن، وهو الوحيد القادر على معالجة الجراح. لم يعد محمد بعد الحادثة مثلما كان قبلها، لقد تغيَّر، لم أكن قادرةً على تحديد ما الذي تغيَّر فيه، كان تأثير الحادث عليه كبيراً، حتَّى قناعته ببلدٍ أفضل للجميع، وأنَّ المستقبل أفضل والأمل بعالمٍ أكثر عدالةً تغيَّرت. والموقف من السلاح الذي وقف ضدَّه مناديًا بسلميَّة الثورة، بوصف هذه السلميَّة سلاحها الأقوى قد تغيَّر بعد ذلك. لقد أذلُّوا الجميع في البلدة بعد استعادتها من الجيش الحرِّ، وأوغلوا في إذلال الناس في بيوتهم وأمام أولادهم، وسرقوا بيوتهم أمام أعينهم، دون أن يتمكَّن المسروق من الدفاع عن بيته، أو الاحتجاج على انتهاك بيوتهم وسرقتها أمام أعينهم، ومن احتجَّ إمَّا ضُرِبَ أمام عائلته، وإمَّا اعتُقِلَ أو قُتِلَ بتهمة الانتماء «للعصابات الإرهابيَّة المسلَّحة» بلغة النظام.

قبل ذلك عاشت البلدة حوالي ثلاث أسابيع متحرِّرةً من قبضة النظام، ومارست حريَّتها بأجمل طريقةٍ في المظاهرات والتعبير عن الرأي. مع عودة قوَّات النظام إلى البلد، شعر أهلها أنَّهم عادوا إلى إذلالٍ أكبر. وإذا كان الإذلال الذي مارسه النظام على العباد قبل المظاهرات يهدف إلى السيطرة على الناس وإخضاعهم. أمَّا ما جرى بعد السيطرة الجديدة، فهو إذلالٌ عارٍ وفجٌّ لأهالي البلدة، إذلالٌ عقابيٌّ لا يهدف إلى السيطرة فقط، بل ويهدف إلى استعباد الناس وإفهامهم أنَّهم بلا قيمةٍ أيضًا، أي مجرَّد «جراثيم» كما جاء على لسان رئيس البلد، ليس من مهمَّةٍ للنظام سوى القضاء عليهم وعلى بيئتهم الحاضنة، أي القضاء على الجميع. فهم أهل البلدة الدرس، وقد

تعلَّموه على جلودهم، والذين كانوا معارضين للتسلُّح، عادوا عن رأيهم بفعل ما اختبروه في فترة سيطرة النظام على البلدة من جديدٍ، وعدُّوا أنَّه لا يمكن ردع هؤلاء المجرمين سوى بالردِّ عليهم بالمثل، وبقوَّةٍ أكبر. وبات الناس توَّاقين لعودة الجيش الحرِّ والخلاص مرَّةً أخرى من قوَّات النظام ومخابراته وإذلالهم للناس. وهو ما حصل بعد أسابيع عدَّةٍ، فعاد الناس إلى احتجاجاتهم ومظاهراتهم السابقة، محاولين التغلُّب على الظروف الصعبة التي يمرُّون بها، وباتت البلدة واحدةً من أهمِّ البلدات التي تعمل ضدَّ النظام، وبَنَت شبكة علاقاتٍ وتحالفت مع جميع وحدات الجيش الحرِّ في بلدات الغوطة الشرقيَّة، والتي أخذت تسقط الواحدة بعد الأخرى بقبضة الجيش الحرِّ، ومع بقاء جيش النظام على مشارف الغوطة الشرقيَّة محتلًّا بعض أطرافها، فرض الحصار على بلدات الغوطة واستمرَّ بالقصف المتنوِّع على هذه البلدات، بالمدفعيَّة والطيران والصورايخ البعيدة ومدافع الهاون. واستمرَّت الهجمات والتسلُّل إليها، ولم تنجُ زملكا من هذه الهجمات، التي كان من نصيبها واحدةٌ منها، التي تمكَّن فيها ما يُعرَفُون «الشبِّيحة» التابعين للنظام، من التسلُّل إلى البلدة وقتل عبد الهادي الحلبي، وهو الصديق المقرَّب لفايز شقيق زوجي محمد، وهو شابٌّ كان من أوائل من التحقوا بالمجموعات المسلَّحة للجيش الحرِّ، وكان يحظى باحترام الأهالي، والذين خرجوا بكثافةٍ في جنازته تقديرًا للرجل.

غاب محمد عن البيت في الليلة السابقة للجنازة وحضر إلى البيت قبل الجنازة بقليل، انتظر أن يأتي المشيعون بالجثمان من بيت الرجل إلى جامع التوبة القريب من بيتنا والذي لا يبعد عنه أكثر من ثلاثمئة متر حيث ستخرج جنازته. عندما دخل البيت، وبعد السلام، قال: «حاسس حالي وسخ، بدي أتحمم» دخل إلى الحمام، وأنا حضرت له ملابس نظيفة، وعندما خرج من الحمام وشرع يرتدي ملابسه، قلت لمحمد: «خلينا حطلك أكل، انت من امبارح ما أكلت شي»، قال: «ما إلي نفس على الأكل. لا تغلبي حالك»،

قلت: «ما بصير هيك، لازم تاكل شي، ما بصير تظل على معدة فاضية»، رن هاتفه المحمول، رد على الهاتف وقال: «خمس دقائق بكون عندك»، وأضاف متحدثًا إليّ: «الجنازة صارت جنب الجامع، صار لازم روح»، قلت: «الله معك حبيبي... الله يحميك من كل شر»، خرج محمد من البيت، وانتظرت حتى صار في الشارع، ألقيت نظرة عليه من البرندة، نظر إلى الأعلى، شاهدني، لوح لي بيده، لوحت له بيدي، وتابع سيره باتجاه الجامع، الذي التفت باتجاهه فشاهدت الجموع قادمة من الجهة المقابلة من الشارع. عندما سمعت صوت هدير المشيعين وتكبيراتهم القادمة من جهة الجامع، سرت القشعريرة في جسدي، ولم أتمكن من البقاء على البرندة، فدخلت إلى البيت وأنا أبكي.

بعد حوالي عشرة دقائق من خروج محمد للمشاركة في الجنازة، دوى انفجارٌ هائلٌ هزَّ البيت، شعرت بالبناية تتأرجح، شرع الأولاد بالبكاء، لم أسمع صوتهم، صرخت: «محمد»، ركضت باتجاه البرندة، نظرت باتجاه الجامع الذي ستخرج منه الجنازة، شاهدت عمودًا من الدخان الأسود يصعد إلى السماء. صرخت مرَّةً ثانيةً: «محمد»، ركضت حافيةً، نزلت الدرج كالمجنونة، عندما وصلت الشارع، كانت الناس تركض بالاتجاهين، هناك من يركض مثلي باتجاه الجامع، وهناك من يركض آتيًا من جهته. ركضت وأنا أبحث في الوجوه عن محمد، أريد أن أراه، أريد أن أعرف أنَّه ليس بين القتلى، أريد أن أعرف أنَّه ليس جريحًا. أركض وأدعو ربِّي: «يا رب، احميلي محمد. يا رب، خليه بخير، أنت الكريم يا رب»، عندما وصلت عند الجامع، كان المشهد مروِّعًا، الحطام في كلِّ مكانٍ، الدماء في كلِّ مكانٍ، قذف الانفجار أشلاء المشيِّعين القريبين من السيَّارة التي انفجرت أمام الجامع إلى أماكن بعيدةٍ، حمل بعض الشباب الأبواب التي اقتلعها الانفجار من مكانها، واستخدموها أسرَّة إسعافٍ لنقل الجرحى والقتلى الذين أُصيبوا، حدَّقت بالمسعِفين والمسعَفين بحثًا عن محمد، الغبار ملأ المكان ولم تكن الرؤية

واضحةً، كنت أصرخ: «محمد»، ولا أسمع جوابًا. عندما شاهدت محمد يجلس على الأرض، وهو يبكي ويحتضن نصف جسدٍ لقتيلٍ تطايرت بقاياه بفعل الانفجار، لم أعد قادرةً على الوقوف، سقطتُ في مكاني مغمًى عليَّ.

عندما غادرت المنزل كالمجنونة، وتركت الباب مفتوحًا ورائي وأولادي يبكون، خرجت جارتنا أم سامر على صوت بكاء أولادي، وأخذتهم عندها، وهدَّأتهم بانتظار أن تعرف مصيري. عندما أفقت وشاهدت أولادي جانبي لم أصدِّق ما يجري. شاهدني محمد عندما سقطت مغميًّا عليَّ بالقرب منه وأنا أنظر إليه. شاهدت عينيه من مسافةٍ كافيةٍ قبل أن أسقط، شاهدت فراغًا مخيفًا فيها، وهذا الفراغ هو الذي أصابني بالرعب، ينظر إليَّ ولا يراني، بعد ذلك عرفت أنَّه عندما شاهدني أسقط مغميًّا عليَّ ترك الجثَّة التي يحتضنها، وركض نحوي، ولا أعرف كيف أعادني إلى البيت، لأجد نفسي عند أولادي وأم سامر تتفقَّدني بين الحين والآخر حتَّى تطمئن عليَّ. عندما أغمي عليَّ لم أعرف أن بقايا الجثمان الذي بين يدي محمد، ما هو إلَّا أخوه فايز، الذي كان يحمل جثمان صديقه الذي يشيِّعونه في الجنازة، والذي قُتِلَ بالرصاص، وجاء الانفجار ليجعله هو وجثمان صديقه أشلاءً، اختلطت مع بعضها ومع أشلاء آخرين، كانوا قريبين من السيَّارة التي انفجرت. قتل الانفجار عددًا هائلًا من المشيِّعين، كانت مذبحةً حقيقيَّةً، قدَّروا عدد الشهداء بحوالي ثلاثمئة قتيلٍ، وأُصيب أكثر من أربعمئة شخصٍ بجروحٍ، وأصاب الهلع كلَّ أهالي البلدة.

بعد هذه المذبحة، لم يعد محمد كما كان قبلها، لأيَّامٍ عدَّةٍ لم أسمع صوته، ولم يسمع أحدٌ صوته، وكأنَّ الصدمة التي عاشها بمقتل أخيه وحمل أشلاءه بيديه أصابته بالخرس. خفت عليه، ولم أعرف كيف أساعده على تجاوز الصدمة الهائلة التي يشعر بها، والتي جعلته رافضًا لكلِّ شيءٍ، شعرت أنَّه أصبح يملك رغبة بالانتحار أو الاختفاء من الحياة بفعل ما جرى. كانت أيَّامًا صعبةً عليه وعلينا، لم يقتصر عزاء فايز وبقيَّة القتلى في الانفجار

على زملكا، التي سقط أكثر القتلى في الانفجار منها، ما حوَّل كلَّ البلدة إلى بيت عزاءٍ كبيرٍ في تلك الأيَّام، ليس في كلِّ حيٍّ فيها، بل وفي كلِّ بيتٍ أيضًا. بل وامتدَّ إلى البلدات المجاورة، التي حضر الكثير من رجالها من أجل المشاركة في الجنازة التي شهدت الانفجار، وسقط العديد منهم، ما عمَّم الموت على البلدات المحيطة، وأصبحت شريكةً لزملكا بالدم في ذلك اليوم القاسي. لم يعد محمد إلى طبيعته بعد ذلك اليوم، اعتقدت أنَّ الوقت سيحلُّ المشكلة، وسيعود كما كان، رغم أنَّ ما مرَّ به لم يكن سهلًا، كانت تجربةً في غاية القسوة، في بلدٍ كلُّ يومٍ يتحوَّل القتل فيه إلى مسألةٍ عاديةٍ، لأنَّ القتل اليوميَّ يجعل الناس تتعوَّد عليه، ولا يعود يسبب الألم ذاته الذي يسبِّبه عندما يكون نادرًا. محمد ليس من النوع الذي يمكن أن يتعوَّد على القتل، لذلك، خلال سنوات الحرب كلِّها درَّب نفسه على ألَّا يعتاد القتل، رغم الكثير الذي شاهده. قرَّر الانضمام إلى مجموعات الجيش الحرِّ في المدينة، والتي عُرِفَت باسم «فيلق الرحمن»، لم يرغب أن يكون له دورٌ عسكريٌّ مباشرٌ، ولم يرغب قادة الفيلق بذلك، فقد كان النقيب عبد الناصر قائد الفيلق يعرف محمد من أيَّام المدرسة، فهو أيضًا من أبناء زملكا ومن جيل محمد. اختار عبد الناصر الذهاب إلى الكليَّة الحربيَّة، وذهب محمد إلى كليَّة الهندسة المدنيَّة، لم يكونا صديقين في الثانوية، لكنَّهما يعرفان بعضهما جيِّدًا. اقتصرت مهمَّات محمد على مهمَّاتٍ هندسيَّةٍ، فقد خدم عسكريَّته أصلًا كضابطٍ مجنَّدٍ في كتيبة الهندسة في الفرقة السابعة، المتمركزة حول مدينة قطنا.

بعد المجزرة التي تسبَّب بها انفجار السيَّارة بين المشيِّعين، زادت الاشتباكات في المنطقة من أجل إخراج جيش النظام ومخابراته وشبِّيحته من الغوطة. وباتت المعادلة في البلدات القريبة من زملكا، إمَّا إخراج هذه القوَّات بالقوَّة، أو الاستمرار بالتعرُّض للقتل على يد عناصره. ولم يدم الوضع طويلًا وأخذت البلدات تسقط الواحدة بعد الأخرى بيد الجيش الحرِّ، وهو

ما أثار حفيظة النظام، إذ باتت الغوطة خارج سيطرته، وتهدِّد وجوده في مدينة دمشق، قصف الجيش الحرُّ قلب دمشق بين الحين والآخر بقذائف الهاون ردًّا على قصف قوَّات النظام لبلدات الغوطة الشرقيَّة. وبعد أشهرٍ عدَّةٍ من الاشتباكات والتقدُّم والتراجع بين قوَّات الطرفين هنا وهناك، استقرَّت مناطق التماس، وقرَّر النظام محاصرة الغوطة الشرقيَّة، وليس فقط لمنعها من التزوُّد بالسلاح، بل ومنعها من التزوُّد بالطعام والدواء، ووقف تزويدها بالكهرباء. وكلَّما حاولت مجموعات الجيش الحرِّ اقتحام دمشق في هذا الموقع أو ذاك، يحوِّل النظام الغوطة الشرقيَّة إلى جحيمٍ بالقصف الشديد، وكان لزملكا النصيب الأكبر في كلِّ أنواع القصف.

في فترة مبكرة من الحصار، جُمِعَت عائلاتنا التي تنتمي إلى أهل محمد في بيتين متجاورين في البلدة القديمة الأكثر حمايةً بسبب تقارب الأبنية فيها. كنت أنا وأولادي وزوجة المرحوم فايز وأولادها نعيش عند حماتي في بيت العائلة، ومصطفى وأولاده وأخته مريم وأولادها عند أخوهم مسعود في البناية المجاورة. لم تكن مريم قادرةً على البقاء في مكانٍ واحدٍ لوقت طويل، وكثيراً ما كانت تختلق الأعذار من أجل جلب بعض الأغراض من منزلها الذي يبعد عن منزلي حوالي أربعمئة مترٍ فقط. ولم يكن القصف الشديد يردعها عن هذه التنقُّلات، وعندما أقول لها: «خلص اهدي، لازم ما تتحرَّكي كثير»، تقول لي ضاحكةً: «ليش، هو القذائف بتميِّز الماشي من القاعد»، على عكسي، لم تكن تخاف من الموت، كانت على يقينٍ، عندما يأتي قدرها لن يستطيع أيُّ شيءٍ أن يردَّه، لا سقف ولا جدار ولا حتَّى ملجأٌ فولاذيٌّ. أقنعت نفسها أنَّ الحرب مسألةٌ في غاية العاديَّة، وأنَّ المرء يستطع أن يتكيَّف مع مخاطرها، هي تقرِّب الموت البعيد، بذلك لا تفعل شيئًا سوى أنَّها تنفِّذ إرادة الله، وبالتأكيد هي لا تعترض على إرادة الله، فهي امرأةٌ مؤمنةٌ بالله وبعدالته وحكمته، فليس هناك في هذه الحياة ما يحصل عبثًا، إنَّما يحصل بأمر الله واستجابةً لإرادته وتنفيذًا لحكمة نستطيع إدراكها

أحيانًا، وأحيانًا تكون أكبر من قدرتنا على إدراكها، ولكنَّها ليست عبثيَّةً، إنَّما هي لحكمةٍ إلهيَّةٍ ندركها بعد حين. لذلك، كانت تتحرَّك في زملكا وبرفقة أولادها في كلِّ الأوقات، ولا تتوقَّف عن ذلك، إلَّا حينما يشتدُّ القصف ويمنعها من السير في الشوارع، وقتها كانت إمَّا تتوقَّف عن الذهاب إلى بيتها، أو تترك أولادها عندنا وتذهب وحدها لتفقُّد بيتها، وهي الذريعة الثابتة للخروج من البيت، وهي الذريعة التي كانت تستخدمها أيضًا للانفراد بزوجها عماد عندما يعود بإجازةٍ من أماكن القتال، إذ انضمَّ هو الآخر لفيلق الرحمن، وعلى عكس محمَّد، رغب في الوجود في أكثر الأماكن سخونةً، فاختار القتال على جبهة جوبر. تبقى مريم طوال الوقت قلقةً على زوجها، رغم تسليمها بقضاء الله وقدره. اعتقدت أنَّها لن تستطيع العيش من دونه. قالت لي مرَّةً: «شو رح يصير بحالي أنا والولاد إذا صرلُه شي؟!»، قلت لها: «صلِّي على النبي، إن شاء الله ما بصير عليه شي، وبتخلص الحرب وكل واحد برجع على بيتُه»، قالت: «الله يسمع منك»، كنت أتواطأ معها عندما تريد أن تنفرد بعماد، وكنت أرحِّب بأن تترك الأولاد عندي، فمن حقِّها أن يكون لها لحظات فرحٍ في بحر الألم الذي نعبره، ومريم شخصٌ يستحقُّ الفرح، لأنَّها أحد الأشخاص القلائل الذين أعرفهم ويملكون القدرة على صناعته. كنت أخاف على محمد أكثر من خوف مريم على زوجها، ولا أعرف إذا استطعت إخفاء مشاعري أمام الآخرين أم لا، ولم أعدَّ مشاعر خوفي على محمد تُعيبني؛ دائمًا حاولت إخفاؤها حتَّى لا أحرجه. كان انضمام رجالنا إلى المجموعات المسلَّحة نوعًا من الهرب، لم يكن شخصٌ مثل زوجي محمد قادرًا على البقاء في البيت والنظر في عيوننا والبلد يشتعل، وكذلك حال زوج مريم، وهو الشخص المعتزُّ برجولته. وكان تجميعنا نحن النساء والأطفال في بيت العائلة وبيت الأخ الكبير القريب من بيت العيلة سببًا إضافيًّا لهذا الغياب، فلم يكن أيٌّ منهم قادرًا على البقاء بين كلِّ هؤلاء الأطفال ولا يشعر بالخجل. كما كنت أتواطأ معها في الانفراد مع زوجها،

كانت تتواطأ معي في الانفراد بمحمد، لكنَّه لم يكن يرغب بذلك، وكان يريد أن يرانا معًا، بصرف النظر عن عدم قدرتنا على ممارسة الجنس بوجود الأولاد، أو فشلنا في ذلك، فهذا لم يكن يهمُّ محمد، بقدر ما يهمُّه رؤية الأولاد والشبع منهم، ولم يعرف إذا كان سيراهم مرَّةً ثانية أم لا. وأنا قدَّرت رغبته، لأنِّي أعرف تعلُّقه المجنون بالأولاد، وأعرف أنِّي بقيت في زملكا بالضدِّ من رغبته، لأنَّه رغب في أن أغادر الغوطة قبل الحصار خوفًا على الأولاد. رفضت الفكرة وقرَّرت البقاء معه، وحاول مرَّاتٍ عدَّةً بعد ذلك أن يفتح الموضوع، من أجل خروجنا أنا والأولاد من الحصار، كنت أغلق الموضوع قبل أن يبدأ الحديث فيه.

في تلك الليلة، كانت مريم سعيدةً، كما لم أرها من قبل خلال فترة الحصار، قالت لي: «اتصل عماد، وقال إنُه جاي اليوم بالليل، عشان نحتفل بعيد ميلادي، جايبلي هدية حلوة إلي وهدايا للأولاد بمناسبة عيد ميلادي»، وكان عيد ميلادها يصادف الواحد والعشرين من أب/ أغسطس وفي هذا اليوم ستكمل الثالثة والثلاثين من عمرها. وإنَّها أوَّل مرَّةٍ ستحتفل بها بعيد ميلادها بعدما انفجرت الأحداث في البلد. أراد عماد كسر حالة الحزن والألم المسيطرة على البلد، وعلى جميع أفراد العائلة بفعل مقتل فايز المحزن الذي فطر قلوبنا جميعًا. أراد إخراج مريم من حزنها، ومن الحالة التي نعيشها، لم يعرف متى سيموت على الجبهة، ولأنَّه مجاورٌ للموت، كلَّما ودَّع عائلته يودِّعها وكأنَّه ذاهبٌ ولن يعود. أراد لها أن تعيش لحظاتٍ طبيعيَّةً لبعض الوقت في جنون الحرب، أن يسرقا لحظات فرحٍ في زمن الألم. وهي أرادت إسعاده. في كلِّ مرَّةٍ تودِّعه يسقط قلبها، وتحاول إخفاء دموعها عنه، وتدَّعي أنَّها متماسكةٌ وراضيةٌ بإرادة الله، وقابلةٌ في خياره بالوجود بأكثر المواقع اشتعالًا، كانت تعرف أنَّه يحاول الانتحار لسببٍ غامضٍ لا تعرفه، عندما يذهب إلى موقعه تنكشف هشاشتها، وتأتي عندي لتبكي على صدري، أشعر بألمها الذي هو ألمي في الوقت ذاته، أحضنها وأبكي معها حالها وحالي.

في ذلك اليوم، أرادت إسعاده لأنَّه أراد إسعادها، فلا ضمانة لحياة الذين يعيشون تحت القصف الذي استباح مناطقهم وبيوتهم حتَّى غرف نومهم. لم ترغب في الانتظار إلى اليوم التالي، وقالت لي: «رح روح، زبِّط البيت، خلينا نحتفل على النظيف»، قلت لها: «بكرة بتروحي الصبح، وبتنظفي قبل ما يجي»، قالت: «لأ يا إختي. بخاف ما ألحق، ويقوم يجي وأخرِّب يومي ويومُه. خلينا هذا اليوم نعيش برة الحرب»، قلت لها: «زي ما بدك»، قبل أن تذهب، قلت لها: «انتظري»، ذهبت إلى خزانتي وأخرجت زجاجة عطرٍ كانت دائمًا تبدي إعجابها برائحتها. مددت يدي بالزجاجة، وقلت: «هاي إلك»، عندما شاهدتها بيدي، قالت: «لا رشا، بعرف إنِّك بتحبِّيها، ما رح آخذها»، قلت: «بس ما بحبها أكثر منِّك، وإذا بدك تزعلني ما تأخذيها. وبعدين إذا احتجتها بتعيريني رشة»، ضحكَتْ وضحكتُ، أخذت الزجاجة واحتضنتني، وكان جسدها يرتجف من التأثُّر.

كنت سعيدة من أجلها، في ذلك اليوم كانت القذائف والصواريخ تسقط هنا وهناك، وانفجارها يقوى ويضعف، يبتعد ويقترب، وهو ما أصبح روتيننا اليوميَّ. يزداد خوفي من القذائف والصواريخ كلَّما اقتربت وعلا صوتها. لم يكن ذلك اليوم أسوأ أيَّام زملكا، ولم يكن من أحسنها، كان يومًا عاديًّا من أيَّام أب/ أغسطس اللاهبة. بعد غياب الشمس وقبل أن تغطِّي العتمة المدينة، ذهبت مريم إلى بيتها. أخذت ابنها محمد البالغ عشر سنواتٍ وابنتها دعد البالغة ثماني سنواتٍ معها. وهي من الأيَّام القليلة في الحرب التي شاهدتُ فيها مريم مرتاحةً، إذا لم أقل سعيدةً. غمرتها سعادةٌ غريبةٌ في ذلك اليوم. عندما خرجت، التفتت إليَّ وقالت: «رشا، منشان الله ادعيلي. أنت مرة قلبك أبيض»، قلت على مسامعها: «الله يوفقك، وينولك كل اللي بدك إيَّاه، قادر يا كريم»، كرَّرت ورائي: «قادر يا كريم»، وأضافت: «الله يخليلي إياكِ حبيبتي رشا»، خرجت من عندي،

دخلت ودَّعت أمَّها، وخرجت تحمل كيسًا كبيرًا، جمعت فيه كلَّ ما يصلح للاحتفال في ذلك اليوم.

إنَّه يومٌ عاديٌّ، حارٌّ ومغبرٌّ. قصفٌ عاديٌّ دون ضحايا، الأولاد وشغبهم الصيفيُّ، حماتي وشكواها من مرض السكري، الذي يستمرُّ بالارتفاع بسبب القلق الذي لا ينتهي على أولادها الباقين، والذي ترافق مع مرض القلب بعد الموت المفجع لابنها فايز. مللٌ من طبخ الطعام الذي يتيسَّر، إطعام الأولاد، والعمل المجهد على إبقاء الأولاد في البيت، وهم يصرُّون على الذهاب إلى الشارع للعب، فالبيت مملٌّ دون تلفزيون، ولا تلفزيون مع انقطاع التيَّار الكهربائيِّ نهائيًّا عن المنطقة، والمولِّدات تعمل في أوقاتٍ محدودةٍ. يومٌ عاديٌّ، يعني يومًا مُنهِكٌ لنقص كلِّ الأشياء، ومع انخفاض درجة الحرارة في المساء وتحوُّل جوِّ البيت إلى مقبولٍ، تأتي بعض النسائم من البساتين المحيطة بزملكا، تزيد من رطوبة المساء، ومع تقدُّم ساعات الليل، يسقط الأولاد الواحد بعد الآخر في فخِّ النوم، وأخيرًا أسقط نائمةً، وأنا أسمع شكوى حماتي من أوجاعٍ لا تنتهي.

لم أعرف كم من الوقت قد نمت، عندما صحوت على صوت انفجارٍ هائلٍ، استيقظ الأولاد فزعين أيضًا، لم يكن انفجارًا قريبًا، عندما نظرت إلى الموبايل الموضوع جانبي، كانت الساعة تشير إلى الثالثة إلَّا خمس دقائق صباحًا. تلا الانفجار الأوَّل انفجاراتٌ عدَّةٌ متتاليةٌ، اختلفت أماكن سقوطها، كما دلَّ على ذلك بُعد الصوت أو قربه. كان من الغريب إطلاق الصواريخ والقذائف في مثل هذا الوقت من الليل، في العادة يكون هذا الوقت هادئًا لحدٍّ كبيرٍ على الجبهات. بعد دقائق شعرت بضيق نفسٍ، وشرعت بالسعال دون سببٍ، لم أشتمَّ رائحة شيءٍ، لا رائحة غريبةً، شعرت برغبة في التقيُّؤ ذكَّرتني بأيَّام حملي الصعبة بأولادي، بدأت دموعي تسيل وحدها، وصداعٌ رهيبٌ يشقُّ رأسي، وأنفي يسيل. كلُّ هذه الأعراض عليَّ، أشعرتني أنَّ شيئًا خاطئًا في شعوري، يبدو أنِّي مريضةٌ، وعندما ذهبت إلى الغرفة الأخرى

لأطمئنَّ على حماتي، كانت تعاني من ذات الأعراض، وبوهنٍ أكثر منِّي. عندها انتبهت، أنَّ هذه الأعراض، هي أعراض غاز السارين الذي قرأت عنه أنا ومحمد عندما جاءت بعض الأخبار أنَّه استُعمِلَ في بعض مناطق حمص وحماة، فورًا قلت لجميع من في البيت الذين استيقظوا على صوت الانفجارات، أصعدوا إلى الجيران في الطابق الأخير. قال لي سهيل ابن مصطفى أخو زوجي وهو في الرابعة عشرة من عمره: «مرت عمِّي، بقولوا لما بصير قصف، لازم الواحد ينزل لتحت، مو يطلع لفوق»، قلت له: «اخرس وروح ساعد ستَّك تطلع لفوق»، سكت وذهب لينفِّذ ما قلت. ونحن صاعدين للأعلى، دقَقتُ الباب على الجيران وقلت لهم، أنَّ عليهم الصعود إلى الأعلى. هناك من استجاب وهناك من قال: «هاي وحدة مجنونة»، وذهبوا ليختبئوا في الأقبية. لا وقت للجدل. عندما وصلت إلى الطابق الأخير. طرقت باب الجيران في الشقق الثلاثة، وأخبرتهم بسرعةٍ ما يجري وأنَّ عليهم استقبال جيرانهم الذين في الأسفل لحمايتهم من الغاز. لم يعترض الجيران، وأخذوا ينفِّذون ما أقول. طلبت منهم نزع ملابس الأطفال، وغسل أجسادهم لا سيَّما العيون. كنت أقول كلماتي وأنا في غاية الوهن والسعال لا يفارقني. تجمَّع أغلب سكَّان البناية في الطابق الأخير. وقد أخذني الوقت في غسل أطفالي، وكان على الشباب الصغار أن يجلبوا الماء من خزَّانات الطوابق السفلى، لأنَّ خزَّانات الطابق العلويِّ مع شحِّ الماء لم تكفِ. لم أستطع أنا والنساء نزع ملابسنا، لكنِّي تخلَّيت عن حجابي للمرَّة الأولى الذي أكون دونه أمام غرباء منذ وضعته على رأسي. لم يكن ممكنًا البقاء فيه، فقد شكَّل خطرًا عليَّ وعلى النساء، اللواتي طلبت منهنَّ نزعه، هناك من استجبن وهناك من رفضن القيام بذلك، عوضت عن نزع الملابس بالاستمرار بغسل وجهي بكميَّاتٍ قليلةٍ من الماء.

بعد ساعاتٍ، ما إن شعرت أنَّ الوضع استقرَّ وأنَّ الخطر زال، حتَّى تذكَّرت مريم التي ذهبت إلى بيتها، قلت لأمل زوجة مصطفى: «أمل، ديري

بالك على الولاد، رايحة شوف مريم»، قالت: «لا تروحي، بعدين..»، وقبل أن تكمل كلامها، كنت قد تركت البيت، نزلت الدرج راكضةً. كانت الناس من كلِّ الأعمار تركض بكلِّ اتجاهٍ، الكلُّ يسعل، وبعضهم يحمل أطفالًا، وبعضهم ينقل كبار السنِّ بالسيَّارات إلى مكانٍ آمنٍ بعيدًا عن الغاز. ركضت باتجاه بيت مريم، وأنا أدعو الله أن تكون هي وأولادها بخيرٍ. عندما وصلت كان الباب مغلقًا، طرقت الباب، لم يجب أحدٌ. طلبت من شباب الجيران تحطيم الباب، لأنَّ صاحبة البيت في الداخل، فحطَّموه. لم أصدِّق عينيَّ، ابنها محمد قام من مكانه وذهب باتجاه الباب الخارجيِّ، لكنَّه لم يصل إليه، سقط مغمًى عليه في وسط الصالة ومات هناك. دخلت غرفة مريم، وجدتها تنام هي وابنتها في السرير ذاته. دعد الصغيرة تنام على جانبها وكأنَّها تنظر إلى أمِّها قبل أن تغفو. مريم مبتسمةٌ وتغرق في نومٍ لذيذ، وتفوح من الغرفة رائحة العطر التي أهديتها عبوته قبل ساعاتٍ، تنتظر مريم النائمة موعدها مع عماد بعد ساعاتٍ، نظَّفت البيت ورتَّبت كلَّ شيءٍ، واستحمَّت، وتعطَّرت، وانتظرت عماد من أجل لحظة فرحٍ. في مساحة الانتظار هذه لم تسعفها الصواريخ التي جلبت الموت، انتظرت موت زوجها على الجبهات، جاء الموت إليها، ليفعل بها ما لم تفعله الحرب بزوجها. لم أصدِّق عينيَّ، عندما شاهدت مريم ودعد على هذا الوضع صرخت، وأخذ العالم يُظلِمُ، أغلقت عينيي على مريم المبتسمة في انتظار موعدها محاطةً بعطرٍ أحبُّه وتحبُّه، سقطت لأصحو في مكانٍ آخر. عندما صحوت وجدت زوجي محمد أمامي، سألته: «اللي شفته، كان حقيقة ولا كابوس؟!»، قال وهو يبكي بكلماتٍ واضحةٍ: «مريم وولادها ماتوا»، تحطَّم شيءٌ كبيرٌ داخلي، لم يعد العالم كما كان، عالمٌ يقتل مريم بهذه الطريقة ليس عالمي الذي تركته قبل أن يغمى عليَّ. سقط مئات القتلى الذين في البلدة في ذلك اليوم، وجدوا القتلى في كلِّ بيتٍ في المنطقة التي سقطت فيها الصواريخ التي وزَّعت الموت على بلدات الغوطة بشرقها وغربها. الذين هربوا من الموت

واختبأوا في الأقبية، لحقهم الغاز إلى مخابئهم وقتلهم. لم أكن أنا وحدي من تغيَّر في تلك الليلة، كلُّ سكَّان المكان تغيَّروا، ولم يعودوا كما كانوا قبل تلك الليلة الرهيبة، ولم يعد أحدٌ في البلدة، يذهب للاحتماء بالأقبية عندما تأتي القذائف.

بعد مذبحة غاز السارين، التي سقط فيها من زملكا وحدها أكثر من سبعمئةٍ من الأطفال والنساء والشيوخ، وأكثر من ثلاثة آلافٍ في الغوطة كلِّها، زاد الحصار علينا، حتَّى أصبح خانقًا، لا طعام ولا دواء ولا كهرباء في الغوطة الشرقيَّة، سقطت البلدات الواحدة بعد الأخرى في يد مجموعات الجيش الحرِّ، وباتت كلُّها تقريبًا بيده، من مطار دمشق الدولي جنوبًا، حتَّى منطقة عدرا شمالًا، ومن طريق المطار والمتحلِّق الشمالي وطريق حمص غربًا، إلى البادية واللجاة بالقرب من السويداء شرقًا. وبقيت المناطق التي تحمي مدينة دمشق والطرق منها وإليها، مثل طريق المطار وإدارة الدفاع الجويِّ وما حولها في المليحة، ومنطقة القابون والعباسيِّين، وبعدها مبنى أمن القوى الجويَّة في حرستا وما حوله، وصولًا إلى مدينة عدرا العماليَّة لحماية الطريق إلى الشمال السوريِّ. وبرأي محمد الذي كان يروي لي هذه المعلومات، أنَّ النظام قرَّر التخلِّي عن ريف دمشق بشقَّيه الشرقيِّ والغربيِّ، والتمركز في مدينة دمشق مع حماية الطرق إليها، والمواقع التي تحميها. بوصف أنَّ هذا يُسهِّل الدفاع عن مدينة دمشق الصغيرة، بدل نشر قوَّاته في ريف دمشق الواسع وتصيُّد الجيش الحرِّ لعساكره. وكان من الضروريِّ البدء بكسر هذا الحصار، فحاول جيش الإسلام ذلك من خلال التقدُّم باتجاه المدينة العمَّاليَّة التي اقتحمها مرَّاتٍ عدَّةً، واعتقل العديد من الناس هناك، رجالًا ونساء وأطفالًا، وجلبهم إلى دوما، لكنَّه لم يستطع أن يسيطر على المكان، ولم يستطع السيطرة على أيِّ جزءٍ من الطرف الغربيِّ لطريق دمشق-حمص. وكانت مجموعة أحرار الشام تحاول اختراق هذه الطوق عند مبنى المخابرات الجويَّة في حرستا، دون أن تنجح كذلك في السيطرة

على الموقع، والوصول إلى الجانب الآخر من الشارع وقطع طريق دمشق-حمص في نقطة حرستا. أمَّا فيلق الرحمن، فأخذ على عاتقه الخرق في موقعين، موقع إدارة القوى الجويَّة في المليحة، والدخول إلى دمشق من جوبر والقابون. وصلت مجموعات الفيلق إلى إدارة القوى الجويَّة، بعد معارك شرسةٍ للسيطرة على معمل تاميكو للأدوية. الذي يبعد مئات الأمتار فقط عن مباني إدارة القوى الجويَّة. ولم يكن ممكنًا الوصول إلى دمشق دون تجاوز هذه المباني المحصَّنة. استفاد الجيش الحرُّ من خبرات محمد العسكريَّة والهندسيَّة في معاركه التي حاول فيها الدخول إلى دمشق عبر محورين. الأوَّل: تجاوز تحصينات إدارة القوى الجويَّة للوصول إلى دمشق، وعندما سأل عبد الناصر قائد الفيلق محمد عن رأيه، قال محمد: «مش ممكن اختراق هذه التحصينات، غير من تحت»، سأله: «شو بتقصد؟»، قال محمد: «حفر خندق تحت المبنى»، قال عبد الناصر: «بس إحنا ما عنَّا آلات حفر!»، قال محمد: «في المليحة الأرض ترابية، حفرها سهل، بس في خوف ينهار النفق منشان هيك بدو تدعيم عند حفرُه»، قال عبد الناصر: «بفكِّر في الموضوع»، ناقشوا الموضوع في قيادة الفيلق طويلًا، وناقشوا خياراتٍ أخرى لم تكن ممكنةً، ما جعلهم يعودون إلى هذا الخيار من جديدٍ، ويوافقوا عليه. استدعوا محمد ليشرح لهم آليَّة الحفر وما يجب عليهم فعله، وفي أيِّ اتجاه سيحفرون. احتاج النفق إلى أربعة أشهرٍ من الحفر المتواصل، وانهار مرَّاتٍ عدَّةً، قبل أن يصبح جاهزًا للاستخدام، وفُخِّخَ المبنى الرئيسيُّ الذي دُمِّرَ، لتسقط إدارة الدفاع الجويِّ بيد الفيلق، وليغنم من الموقع كمًّا هائلًا من الأسلحة والذخائر والعربات. وليعتقد الفيلق أنَّ الطريق إلى دمشق باتت على بعد أقلَّ من ثلاثمئة مترٍ فقط من المبنى الذي يسيطرون عليه، لكن هذه الثلاثمئة مترٍ، تحوَّلت إلى الجحيم من خلال القصف المستمرِّ من النظام بكلِّ أنواع الأسلحة، حتَّى لا يصل الجيش الحرُّ إلى مدينة دمشق.

المرة الثانية التي استعين بمحمد، كانت في جوبر وهي النقطة التي وصل إليها الجيش الحرُّ وتمركز فيها، وكان يقترب من ساحة العباسيِّين، أي إلى داخل دمشق. وعلى هذه الجبهة دارت معارك شرسةٌ لسنواتٍ، معارك كرٍّ وفرٍّ بين الجيش الحرِّ وجيش النظام، وكان التقدُّم من الطرفين بطيئًا. عندما استعصى التقدُّم على مجموعات الجيش الحرِّ التي شاركت جميعها في القتال في جوبر لمحاولة كسر الحصار على الغوطة من جهةٍ، والتقدُّم إلى داخل دمشق من جهةٍ أخرى. كان فيلق الرحمن القوَّة الرئيسيَّة المشاركة في المعارك، مع دعم كلٍّ من جيش الإسلام وحركة أحرار الشام، ومجموعاتٍ إسلاميَّةٍ أخرى. استدعى عبد الناصر قائد الفيلق زوجي محمد، سأله إذا كان يمكن فعل شيءٍ لكسر حالة الجمود العسكريِّ القائمة مع كلِّ التحصينات التي يقيمها جيش النظام هناك، ويعمل بكلِّ قوَّةٍ حتَّى لا يتقدَّم الجيش الحرُّ باتجاه ساحة العباسيِّين، التي لا يفصلهم عنها سوى منطقة القابون. بعد معاينة منطقة القتال وخطوط التماس وتموضع الأبنية في المنطقة، قال محمد: «الموضوع بدُه شوية دراسة»، قال عبد الناصر: «ادرسُه زي ما بدك، بس ما تتأخَّر، الوضع صعب زي ما إنت شايف»، انشغل محمد بالتفكير بما يمكن فعله في هذه الحالة، وكانت الثقة به عاليةً، بعد العمل الذي قام به في إدارة الدفاع الجويِّ في المليحة. وانتظر الجيش الحرُّ أفكارًا عمليَّةً للخروج من حالة المراوحة بالمكان. وبعد دراسة المنطقة من كلِّ الجهات، اقترح محمد أن يُحفَرَ نفقٌ من معمل كراش للمياه الغازية حتَّى معمل الصابون على الجهة الأخرى بالقرب من كراجات العباسيِّين، وهذه المرَّة يُستعان بشبكة المجاري المالحة للحصول على عملٍ أسرع، وتخفيض زمن الحفر، لا سيَّما وأنَّ الجيش الحرَّ قد حصل على حفَّاراتٍ أفقيَّةً من إدارة الدفاع الجويِّ في المليحة، ما يساعد في إنجاز المهمَّة بسرعةٍ، والتي قُدِّر أنَّها ستحتاج إلى عشرةٍ أيَّامٍ إذا لم تواجه عوائق توقفها، أو إذا لم تحصل انهياراتٌ أرضيَّةٌ في النفق الذي سيحفر. لم يكن

هناك حلٌّ آخر، فكلُّ محاولات اقتحام الجيش الحرِّ للمناطق التي يسيطر عليها النظام من فوق الأرض باءت بالفشل، وكلَّفتهم الكثير من القتلى، وأصبحت المعركة تستنزفهم. لم تعانِ عمليَّات الحفر من مشكلاتٍ كما كان الحال في المليحة، وقد أُنجِزَ النفق بتأخير يومين. وبعد أن أُنجِزَ النفق وزُرِعَت كميَّةٌ كبيرةٌ من المتفجِّرات، فُجِّرَ معمل الصابون الذي هزَّ مدينة دمشق كلَّها، وبعد التفجير اخترق رجال الفيلق وحلفاؤهم خطَّ الجبهة الذي استعصى لأشهرٍ طويلةٍ. وانتقل الرجال إلى الجهة الثانية من الشارع، الذي يعني أنَّهم تجاوزوا منطقة القابون باتجاه كراجات العباسيِّين، ويعني أنَّهم باتوا في قلب مدينة دمشق. ارتبكت قوَّات النظام وانسحبت من مواقع التماس، وأصبحت الطريق إلى دمشق سالكةً بعد هذا الخرق في القابون. ما إن انتقل الرجال إلى الجهة الأخرى من الشارع، وُعدَّ هذا بمنزلة النصر. قبل أن تمضي ساعةٌ من الزمن، كانت قوَّات النظام قد تماسكت، وبدأ الطيران والمدفعيَّة والصواريخ تنهال على خطِّ التماس. استخدمت قوَّات النظام سياسة الأرض المحروقة، وأشعلت المنطقة طوال الوقت لتمنع تقدُّم المجموعات المسلَّحة إلى داخل دمشق، وهو تكرارٌ لما حصل عندما تمت السيطرة على إدارة الدفاع الجويِّ، التي هُدِمَت منعًا لتقدُّم الجيش الحرِّ باتجاه الدويلعة والدخول إلى دمشق من منطقة باب شرقي، التي تبعد عن ساحة العباسيِّين حوالي ثلاثة كيلو متراتٍ.

عندما يحكي محمد عن تجربته، وقلَّما يحكي، يتكلَّم بحرقةٍ وحزنٍ شديدين، يأتي الحزن من انهيار الحلم الذي اندفع الثوَّار من أجله لمحاصرة دمشق، على أساس أنَّ محاصرة دمشق يعني محاصرة النظام. ومن الطبيعي أن تحاصر الغوطة بشرقها وغربها المدينة التي تقع وسطها، وهذه البداية لسقوط النظام كما اعتقد الجميع. في الواقع حدث العكس، النظام الذي يُفترض أنَّه محاصرٌ في مدينة دمشق، هو الذي حاصر الغوطة بشرقها وغربها حصارًا خانقًا، وحوَّل حياتنا إلى جحيمٍ لا يرحم. للفترة الأولى للثورة

زخمها، كان الشباب على يقينٍ أنَّ المستقبل القريب سيكون بلا هذا النظام في البلد، وأنَّهم واثقون من إسقاطه، وأنَّ هذا الإسقاط يستحقُّ التضحيات التي تدفعها البلد. مع العام الثاني بدأ اليقين بالاهتزاز، وبات هناك إمكانيَّةٌ لسقوطه إذا تحقَّقت شروطٌ محدَّدةٌ. خاف الكلُّ من القول ماذا سيحدث إذا لم تتحقَّق هذه الشروط؟! ولأنَّ الأسئلة التي لا نجيب عليها، يتكفَّل الواقع بالإجابة عليها، أصبح من الواضح في العام الثالث، أنَّ النظام باقٍ، وأنَّ حالةً من التوازن قائمةٌ بين الطرفين، وبدءًا من العام الرابع بدأت الحرب تميل لصالحه.

لم أستطع التعوُّد على أيَّام الحصار، رغم طولها، والذي جعل الكثيرين يعتادون عليه، أو على الأقل يتكيَّفون مع واقعٍ غير قادرين على تغييره. لم أستطع التكيُّف مع القسوة والألم والجرائم التي ترتكب، رغم كثرتها، وكنت أشمئزُّ من جرائم القتل بصرف النظر عن الطرف المسؤول عنها. الجرائم التي ارتُكِبَت بحقِّ الغوطة لا تُعدُّ ولا تُحصَى، لم يبقَ سلاحٌ لم يستخدم ضدَّها، من إطلاق النار على الناس وقنصهم عن بعدٍ، إلى القصف بالمدفعيَّة، إلى القصف بالهيلوكوبتر والصواريخ والطائرات الحربيَّة التي قصفت حتَّى الناس الواقفة على طوابير الخبز أمام الأفران، إلى إلقاء البراميل المتفجِّرة ذات الأوزان الثقيلة وهدم المباني فوق رؤوس سكَّانها، إلى اعتقال الرجال والنساء على الحواجز، اغتصاب النساء الداخلات أو الخارجات من الغوطة عند حاجز مخيَّم الوافدين، وغيرها من الحواجز التي تحاصر الغوطة، وصولًا إلى إطلاق صواريخ السلاح الكيمياويِّ على بلداتنا وعلى بلدات حزَّة وعين ترما وغيرهما من البلدات، مطلقةً غاز السارين الذي لاحق الناس في نومهم ومخابئهم، لم يترك امرأةً أو رجلًا أو طفلًا، حتَّى الحيوانات نفقت بفعل هذا الغاز، البقر والأغنام والدجاج والكلاب وقطط المنازل. المصائب والآلام والأوجاع والنزف والخوف والرعب الذي عاشه أهالي المنطقة أكثر من أن تُحصَى. للخوف أثرٌ تراكميٌّ لا يزول.

عندما لا تعرف من أين سيأتي الموت، وإلى أين سيلاحقك تفقد القدرة على الإحساس بالأمان النسبيِّ، فلا شيء يستطيع أن يردَّ الموت عنك، لا الملاجئ ولا الجدران، ولا رحمة القاتل الذي يريد استئصال الجميع. كوى الخوف قلوبنا، لم نعد نحتمل المزيد منه، خوفنا على أنفسنا، وخوفنا على أولادنا، وخوفنا على أزواجنا، وخوفنا على أقاربنا وعلى أحبَّتنا وعلى أصدقائنا وعلى جيراننا، الذين يتناقصون كلَّ يومٍ ويغادر المزيد منهم البلد، هربًا من الموت الذي لا يوفِّر أحدًا، يريدون النجاة بأولادهم، فيهربون إلى أماكن أخرى، ومنهم من ذهب بعيدًا إلى بلاد أبعد من الجوار.

لم تكتفِ الغوطة بالجحيم الذي تلقيه عليها أسلحة النظام المتنوِّعة، التي أدمت الغوطة وحوَّلت أجزاء ومناطق كثيرةٍ منها إلى ركام. وكان على الفصائل المسلَّحة المحاصرة في الغوطة أن تسهم في جعل المكان أكثر جحيمًا على الناس الباقين فيه، التي لم تجد مكانًا تهرب إليه. أذاقت اشتباكات الفصائل المسلَّحة فيما بينها المرارة للسكَّان فوق الحصار والرعب والقتل الذي وزَّعه النظام على الغوطة الشرقيَّة.

بدأ جيش الإسلام التصفيات في دوما بعد أن أصبح القوَّة الأكبر هناك، فكان أن قضى على جيش الأمَّة. هذا القضاء الذي أحزن زوجي محمد على الرجل، فهو لم يتوقَّع أن يُعدِم جيش الإسلام أبا علي الدوماني وأربعةً من جيش الأمَّة معه. لم يكن معجبًا بالرجل، لأنَّ محمد رجلٌ صادقٌ مع نفسه، أقرَّ للرجل بالفضل في تحرير دوما، فهو الذي شكَّل أوَّل المجموعات المسلَّحة، وقاتل في كثيرٍ من الأماكن في دمشق ومحيطها، ودخل الشام مسلَّحًا ووصل مع مجموعته المسلَّحة إلى حي الميدان في محاولةٍ لاقتحام مدينة دمشق. صحيحٌ أنَّ هناك مآخذ على الرجل، لكن لا يمكن إنكار دوره ودور مجموعته في حماية الثورة وتحرير دوما وحماية أهلها من تسلُّط وعسف رجال الأمن. لقد قاتل الرجل قوَّات النظام قبل ولادة جيش الإسلام، وقبل أن يولد لواء الإسلام الذي شكَّل جيش الإسلام فيما بعد.

صلب رجال جيش الإسلام الملثَّمين الرجل على شاحنةٍ، وبعد أن قرأ أحدهم حكمًا ركيكًا على الرجل، يتّهمه بأنَّه مفسدٌ بالأرض، يتاجر بالمخدِّرات، ومارس تجارة الجنس واللواطة، وتآمر على جيش الإسلام... إلخ من الاتهامات، ليأتِ حكم الهيئة القضائيَّة التابعة لجيش الإسلام بإعدام الرجل بعد أشهرٍ من اعتقاله. وبعد أن انتهى الرجل الملثَّم من قراءة الحكم الركيك، أطلق ملثَّمٌ آخر ثلاث طلقاتٍ على رأس أبو علي من الخلف، ناثرًا دماء الرجل ودماغه على حاضري تنفيذ الإعدام. واستعرض جيش الإسلام جثَّة الرجل المصلوب في شوارع دوما وغيرها من بلدات الغوطة الشرقيَّة، التي يسيطر عليها لجعله عبرةً للآخرين. لا يستحقُّ الرجل هذا الإعدام، ولا هذه التهم السخيفة من اللواطة والزنا وتجارة المخدرات ومبايعته لداعش، وعَدِّه مفسدًا في الأرض. لقد اعتقل جيش الإسلام الرجل قبل أشهرٍ من إعدامه، وكان يمكنه أن يبقيه معتقلًا، كما قال محمد، هاجس السلطة وتصفية المجموعات المعارضة كان وراء ذلك برأيه، فقد أصبح جيش الإسلام يقلِّد جيش النظام، ويريد أن يحكم الغوطة بأساليب النظام.

لم يتوقَّع أحدٌ مثل هذه النهاية لهذا الرجل. لقد اعتقله جيش الإسلام في حملةٍ ضدَّ كلِّ من رفض الانضمام إلى القيادة العسكريَّة الموحَّدة في الغوطة الشرقيَّة، التي ترأَّسها قائد جيش الإسلام. وجيش الأمَّة الذي أسهم أبو علي في تأسيسه، كان آخر ما تبقَّى من فصائل الجيش الحرِّ في الغوطة الشرقيَّة، ضمَّ في صفوفه لواء شهداء دوما، الذي يقوده أبو علي، وهو أهم كتائبه، إضافةً إلى لواء أسود الغوطة، وحظي هذان الفصيلان بإجماعٍ شعبيٍّ، بأنَّهما من قاما بتحرير مدينة دوما، في وقتٍ لم يحرِّر فيه لواء الإسلام، الذي أصبح لاحقًا جيش الإسلام، إلَّا حاجزًا وحيدًا في تلك المعارك. لا أحد من المقاتلين يشكُّ ببسالة الرجل الذي تعرَّض إلى الكثير من السخرية. كان شجاعًا في المعارك التي خاضها، ويعزو أعداؤه شجاعته إلى تعاطيه المخدِّرات وليس إلى ميزةٍ في الرجل.

يقول محمد، لا شكَّ بأنَّ الرجل أرعنٌ ومتهوِّرٌ، ولا يمكن توقُّع تصرُّفاته، يكون أحيانًا في غاية الطيبة وأحيانًا في غاية القسوة. لا يمكن عدَّه صعلوكًا أو رجلًا متعفِّفًا. فهو يحمل كلَّ التناقضات التي تعيشها البلد، والتي زرعها استبداد حكم البلد أكثر من خمسين عامًا. في الوقت الذي أعطى أبو علي فيه مبالغ طائلةً من المال لمسنٍّ فقيرٍ أو امرأةٍ بثيابٍ رثَّةٍ يراها في الشارع، لم يكن يتورَّع عن سرقة كلِّ ما تستطيع يداه الوصول إليه. ويروي محمد عنه قصَّةً سمعها من شاهد عيانٍ، أنَّ امرأة وقفت في دوما تبكي وتدعو عليه، لأنَّ عناصر الحاجز التابع لجماعته بالقرب من مخيَّم الوافدين، حيث يتاجر مع رجال النظام ويُدخِلُ المواد التي يبيعها في الغوطة بأسعارٍ غاليةٍ. ادعت المرأة أنَّ رجال الحاجز أخذوا منها المؤن التي جلبتها معها لتعين عائلتها في الحصار. ووفق الشاهد، ظلَّ أبو علي يسأل ويبحث عنها حتَّى وصل إليها وأعطاها مبلغًا كبيرًا. لكنَّ عناصر حاجزه ظلوا يأخذون قسمًا من البضائع التي يدخل بها أيُّ شخصٍ من دمشق إلى الغوطة. عندما اشتدَّ التوتُّر بين جيش الإسلام وجيش الأمَّة، وأرسل قائد جيش الإسلام رسالةً إلى أبي صبحي قائد جيش الأمَّة، يبلِّغه فيها بأسماء المطلوبين من جيش الأمَّة الواجب تسليمهم إلى جيش الإسلام، ومن بينهم قائد جيش الأمَّة ذاته وأبو علي وغيرهم، وإلَّا فستكون الحرب بعد ثمانيةٍ وأربعين ساعةً، جمع القائد قياداته لمناقشة الرسالة. وجاء رأي أغلبهم، ومن بينهم أبي علي، أن يتصدَّوا لجيش الإسلام إذا هَجَمَ عليهم. لكنَّهم استخفُّوا بقدرات جيش الإسلام، التي كانت تفوق قدراتهم بكثيرٍ. لم يفعلوا شيئًا وعادوا للنوم في بيوتهم على نحوٍ عاديٍّ. وبعد انتهاء المدَّة، حشد جيش الإسلام قوَّةً كبيرةً في دوما، بما فيها دبَّاباتٌ ومضادَّات طائراتٍ وأسلحةٌ متوسِّطةٌ وخفيفةٌ، واعتقل معظم قادة وعناصر جيش الأمَّة من بيوتهم. وكان أبو علي أكثرهم مقاومةً، واستطاع الهرب والاختباء في أحد البيوت ضمن المدينة. سال لعاب من أخفاه على المكافأة التي وصلت إلى عشرة آلاف دولار لمن يسلِّمه، فسلَّموه منتظرين

المكافأة التي حرمهم جيش الإسلام منها، لأنَّه عرف أنَّهم ذاتهم من وفَّر له المخبأ، وبدلًا من المكافأة، اعتُقِلوا للتحقيق معهم في صلتهم مع أبي علي، وبقيَّة قيادات جيش الأمَّة.

لم تكن تصفية جيش الإسلام لجيش الأمَّة مسألة صراعٍ ثنائيٍّ، فقد كانت الحرب بين الفصائل المسلَّحة في الغوطة قد بدأت قبل هذه التصفية، وكان محمد يخاف أن يكون هذا مدخلًا لنقل هذه المعارك بين الفصائل إلى مستوًى أكبر، بعد فشلهم المتكرِّر في تحقيق تقدُّمٍ لكسر الحصار أو اقتحام دمشق. فكانت الحرب مع الآخرين للسيطرة على الغوطة وعلى أسلحة ودخول الفصائل الأخرى للاستمرار بالبقاء، تحقَّقت نبوءة محمد الذي كان يقول: «هاي مش نبوءة، هذا المكتوب مبين من عنوانه»، لم تكن أحلام السيطرة على البلد أحلام قادة جيش الإسلام التي تبدأ في السيطرة على الغوطة فحسب، بل كانت هاجس الفصائل المسلَّحة جميعها، التي خاضت حربًا مؤسفةً ضدَّ بعضها البعض، لم يكن من نتيجتها سوى إضعاف الفصائل جميعًا، والتسبُّب في جعل أوضاع المحاصرين في الغوطة الشرقيَّة أسوأ من الجحيم.

لم تكن الحاجة التي خلَّفها الحصار عند الناس الباقين في الغوطة المحاصرة أقلَّ رعبًا من القذائف والصواريخ التي تنفجر هنا وهناك. الحاجة عجزٌ، ليس تجاه الذات فقط، فهذا عجزٌ سهلٌ، العجز الأصعب، هو عجزنا عن إطعام أطفالنا، الذين لا ذنب لهم سوى أنَّنا أنجبناهم. عندما كنت أرى الحاجة في عيون الناس، أرى الرعب فيها، ومع الوقت، أصبحت أنا في قلب الرعب. ماذا أستطيع أن أطعم أولادي، وأنا ليس لديَّ أيُّ نوعٍ من أنواع الطعام صالحةٍ للأكل. لم تكن هذه صورةً مجازيَّةً للأوضاع في الغوطة، بل واقعًا معاشًا، كلُّ من خاض تجربة الحصار، شاهده بعينيه وعلَّمَ على جلده بفعل القسوة. أصبحت معاناة القصف أهون بكثيرٍ، القذيفة تأتيك، تسمع صوتها، فتسقط بعيدةً عنك، تتماسك بعد قليل، تتفقَّد أطفالك وتتحسَّس

أجسادهم الصغيرة بحثًا عن إصابات، وعندما تعرف ألَّا إصاباتٍ في الجسد الصغير، ينتهي الخطر مؤقَّتًا، وتنتظر القذيفة التالية. أمَّا الجوع فمعاناةٌ أخرى، فهو ليس فسحةً بين قذيفتين، إنَّه ألمٌ مستمرٌّ، ألمٌ لنفسك، وألمٌ لأحبَّتك، لا سيَّما الأطفال. عندما أفشل أنا ومحمد بتدبير الطعام لأطفالنا، الذين كنَّا نعدُّهم خطًا أحمر لا يمكن الاقتراب منه. يأتي الواقع الجديد ويحطِّم خطوطك الحمراء، لأنَّ الجوع لا ينتظر، فهو مؤلمٌ، وعندما يبكي أطفالنا ويتألَّمون من الجوع، تعرف أن وقع القذائف وانفجارها الذي يمهِّد إلى ما بعدها من هدوءٍ هو لا شيءٌ مقارنةً بالجوع، الذي لا يعطي أيَّ استراحةٍ للجائع، وعندما لا يكون هناك ما يسدُّ الرمق، يصبح الجائع باحثًا عن القذيفة لتنهي حياته، فهي الحلُّ الوحيد والسريع للخلاص من الجوع، أن تنفجر فيه وتُنهي ألم الجوع الذي لا ينتهي، والذي أصابنا بالرعب. عندما رأيت أولادي جوعى، أُصِبتُ بالرعب والشلل معًا، لا يمكن التحايل على الجوع كما في حكاية طبخة البحص، حكاية الأمِّ الفقيرة التي تصبِّر أولادها حتَّى ينضج الطعام على النار، وهو بحصٌ لن ينضج، لكنَّ الأمل بطعامٍ ناضجٍ يجعل الأطفال يصبرون على جوعهم. حتَّى هذا الأمل لم يكن موجودًا في الغوطة في ذروة الحصار. أخافني الجوع كما أخافتني القذائف، كلَّما نقصت كميَّات الطعام، كلَّما أجريت المزيد من التقنين، عصرني قلبي كلَّما شاهدت أولادي يعانون الجوع ويطلبون الأكل، أبكي من عجزي، ومن قدرٍ أذلَّنا هذا الذلَّ، أدعو ربي أن يخلِّصنا من هذا العذاب الذي لا ينتهي، أو يأخذ روحي ويخلِّصني من هذا الرعب الذي أعيشه كلَّ يومٍ على أولادي. أعطيهم حصَّتي من الطعام، وأسمع أصوات معدتي التي لا تهدأ، وأشاهد هزلي في المرآة وعيوني الغائرة ووجهي الأصفر. يسألني محمد: «إنت مريضة؟»، أنفي ذلك، لأجعله يشعر براحة الضمير. ماذا أقول له؟ مريضةٌ حتَّى أكاد أسقط من طولي، مريضةٌ لدرجةٍ لا طاقة في جسدي، أولادي هم ما يجعلني أسير على قدمي. ماذا أقول له، ليس جسدي المريض

وحده، روحي مريضةٌ ومتعبةٌ أيضًا، وليست قادرةً على الأمل بالغد. ماذا أقول له، لم يبقَ لي سوى الدعاء لأولادي بالنجاة، والدعاء على نفسي بالموت للخلاص من رعبٍ ومرارةٍ وعجزٍ لا ينتهون. كنت أقدِّر وضع محمد، وأعرف أنَّه ليس المسؤول عن الجرائم التي نعيشها، أنا بشرٌ، وفي لحظات الغضب، انفجر فيه. نعم هو المسؤول عن الوضع الذي وصلنا إليه. أقول له: «كل هذا بسببك، إنت اللي وصَّلتنا لهون»، يستغرب الكلام ويردُّ: «ليش بتقولي هيك، شو اللي عملتُه؟! أنا اللي محاصر الغوطة؟!»، أقول: «لأ، مش إنت اللي محاصر الغوطة، بس إنت اللي خلِّيتنا نظل فيها، كان فينا نطلع»، قال: «رشا، أنا ما طلبت منك تبقي معي، وميت مرَّة قلتلك اطلعي، روحي عند أهلك. إنت اللي رفضتي وقلتي، ما بطلع، بدي ظلني معك»، قلت: «وإنت ليش ما طلعت، وإنت بتعرف أنا ما بطلع لحالي. ليش ما قلت، تعالي نطلع مثل ما الناس بيطلعوا، إحنا عنَّا ولاد صغار»، قال: «ما بدي كل مرة أرجع لنفس المكان، ونتخانق لنفس الأسباب. كانت غلطتي إني تركتك معي، كان لازم أطلعك أنت والولاد غصب عنك»، قلت: «هلأ بتحكي هذا الحكي، وإحنا بنموت من الجوع، كان طلعنا من الأول»، قال: «منشان الله رشا، أنا مش ناقص»، قلت: «مش ناقص شو؟»، صرخ: «خلص، يا الله موتني وريحني من هالذل»، صفق الباب وخرج من البيت. شرعت بالبكاء عليَّ وعليه وعلى أولادنا. كانت كلماته مجبولةً بالعجز، لم أرغب في رؤيته عاجزًا يومًا، ولم أحبَّ نفسي في هذا الموقف. يأتينا الإذلال من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، لم يكن هذا مسؤوليَّته، وأنا التي قرَّرت البقاء، مع الضيق نكفر بكلِّ شيءٍ، صحيحٌ أنِّي قرَّرت البقاء، لكنِّي لو قدَّرت أنَّنا سنمرُّ برحلة العذاب هذه التي لا تنتهي لخرجت مع أولادي قبل أن يطلب منِّي محمد ذلك. لم أتصوَّر حتَّى في كوابيسي أن نصل إلى حافَّة الموت جوعًا. سألت نفسي مليون مرَّةٍ، ما الذنب الذي ارتكبناه، حتَّى نلاقي هذا المصير؟ ما ذنب أولادنا، الذين ما زالوا أصغر من أن يرتكبوا أيَّ ذنبٍ؟ لم يكن يصيبني إحساسٌ بعدم العدالة

والظلم فقط، بل إحساسٌ بقهرٍ عميقٍ يحفر في داخلي ثقوبًا سوداء أيضًا. أولادي أبرياء لا يستحقُّون أيَّ عقابٍ، لكن من يسمع كلمات امرأةٍ تتضوَّر جوعًا هي وأولادها في بلدةٍ منسيَّةٍ من بلدات الغوطة الشرقيَّة، نسيها العالم، تبكي فيها نساء وأطفال من الجوع وقذائف الموت، دون أن يسمعهم أحد حتَّى الله.

مواجهة حرب الجوع أصعب من مواجهة القذائف والصواريخ والأسلحة الكيماويَّة، كان علينا أن ننتصر عليه كلَّ يوم، وعندما أسمع خبرًا عن موتٍ أحدهم جوعًا، أرتعب، أخاف أن يكون هذا مصير أحد أولادي. كان عليَّ ومحمد أن نفعل أيَّ شيءٍ حتَّى لا يواجه أولادنا هذا المصير. عندما نعرف أنَّ الأمم المتحدة أدخلت بعض المساعدات إلى الغوطة، نذهب لنحصل على حصَّةٍ ما، أحيانًا نفشل وأحيانًا ننجح، لكنَّ هذه المساعدات مُنِعَت من الدخول لفتراتٍ طويلةٍ. وعندما نعرف أنَّ أحدهم استطاع إدخال بعض الطعام ويريد بيعه، يذهب محمد للشراء حتَّى تحت القصف، ينجح أحيانًا بالعودة ببعض الطعام، وأحيانًا يصل إلى هناك بعد نفاذه. كنا نقنِّن الحصص الشحيحة التي يحصل عليها محمد من فيلق الرحمن الذين يعمل معهم، لكنَّها لم تكن كافيةً. لذلك لم نترك بيتًا من بيوت الأصدقاء الذين غادروا منازلهم لم نفتِّشه تفتيشًا دقيقًا بحثًا عن الطعام المتروك فيها، طلبنا من بعضهم الإذن على الهاتف، حين أمكننا ذلك، وحطَّمنا أبوابهم حتى حين لم نستطع الاتصال بهم، لنعود ونعتذر منهم، عندما نحصل على اتصال. قال الأصدقاء الذي تسنَّى لنا الاتصال بهم، لكم ما تريدون من بيوتنا، ومن كان يحتفظ بالطعام دلَّنا عليه، ومن لم نستطع الوصول إليه بحثنا عن الطعام في بيته بمعرفتنا. وكان علينا أن نعيد تصليح أقفال البيوت التي نحطِّمها، على أساس أوهامنا التي تقول لعلَّ هذا القفل يحمي ما تبقَّى في البيت. وجدنا طعامًا جافًّا، طحين وسكر ورز وبرغل وعدس وسميد ومكسَّرات وشعيريَّة ومعكرونة، وزيوت وشوكولا وبسكويت

بكميَّاتٍ مختلفةً، ومكدوس ومربَّيات مختلفة الأنواع والأحجام ومعلَّبات بعضها منتهي المدَّة، وغيرها من الأشياء الغريبة. استطاعت هذه الحملة، أن تنقذنا لبعض الوقت، لم نجد كميَّاتٍ كبيرةً، ولم نكن وحدنا من يريد أن يأكل، تقاسمنا ما وجدناه مع جميع الذين نعيش معهم في بيت أهل زوجي وبيت أخيه. كانت كافيةً لتنقذنا من أسوأ فترات الجوع وأكثرها سوادًا في تجربة الحصار، التي وصل الآخرين فيها لأن يطبخوا الأعشاب التي لا تصلح للأكل لملء معدةٍ لا تهدأ بعد نفاذ كلِّ أنواع الطعام.

في أوضاع الرعب التي عشتها، لم يكن ينقصني سوى الخبر المدمر، الذي خبأه عني أهلي لبعض الوقت، ولكن لم يعد من الممكن إخفاءه. عندما سألت عن أخي فراس، ولماذا كلما أتصل لا تتركوني أتكلم معه، وعندما أتصل على هاتفه المحمول يكون خارج التغطية؟ لطالما عدَدتُ أخي فراس بركتي، ورغم أنه غير متدين، لم أعدَّ ذلك يغيِّر من كونه رجلًا مبروكًا، لذلك كلَّما شعرت بخطر ما، أو بخوف من امتحان أو مقابلة، أو خطر ما في الحرب المجنونة التي نعيشها، كنت أطلب منه أن يدعو لي، لم يكن يرفض طلبي، يدعو لي وهو غير مقتنعٍ أنَّ لدعائه معنًى، كان يدعو لمعرفته كم أحتاج هذا الدعاء، ويريد إرضائي، فيفعله من أجلي. لم تشعر غدير أنَّها قادرةٌ على الاستمرار في إخفاء السرِّ. فجعني خبر أنَّ فراس مصابٌ بسرطان البنكرياس ومن النوع الشرس. لم أصدِّق ما أسمع، فراس؟! ولماذا فراس الطيِّب المسكين المبروك. أصبحت أحاول الاتصال به، وهو لم يقبل الردَّ على مكالمتي عندما يكون متعبًا ويعاني من أوجاعٍ مهولةٍ لا يمكن احتمالها، كما وصفتها غدير لي، حتَّى لا يزيد من همومي الكثيرة في الحصار. جاءت أخبار أهلي الرهيبة في تلك الأيام لتزيد حصاري مأساويَّةً، وعندما مات فراس أصابتني حالٌ من الهستيريا، حاولت غدير التخفيف عنِّي بالقول: «إنَّه ارتاح من أوجاعٍ لا يمكن لبشر احتمالها»، لم يقنعني هذا الكلام، بقيت أشكو غياب فراس ومتاعبي في الحصار لغدير، حتَّى خذلتني

هي أيضًا وماتت بعد أشهرٍ قليلةٍ من موت فراس. شعرت أنَّ موتها كاذبٌ، هي بكامل صحَّتها، فجأةً تموت بلا أيِّ عارضٍ مرضيٍّ، شيءٌ لا يمكن تصديقه، في الوقت الذي لم أكن قد استوعبت موت فراس بعد. جاء خبر موت غدير يد ليسبِّب لي صدمةً قويَّةً، جعلتني أفقد الشعور، كنت أحتاج هذه الحالة من الفراغ التي نقلتني إليها الصدمة، فخبر مرض فراس كان فاجعًا، وموت غدير كان القشَّة التي قسمت ظهري، لم أحتمل كلَّ هذا الألم، فهو أكبر من طاقتي. استغربت أن يتبلَّد إحساسي لهذه الدرجة، وكأنِّي ذهبت إلى عالمٍ آخر، عالم يقع في مكانٍ آخر، أو هو اللا مكان البعيد عن كلِّ الأشياء التي سبَّبت لي الألم، مكانٌ الإحساس فيه حياديٌّ، إحساس اللا مبالاة تجاه كلِّ شيءٍ، جميلها وقبيحها. تلاشت أهميَّة الأشياء، وتلاشى الإحساس بالخوف، وباتت المسائل متشابهةً، حتَّى إحساس الجوع الذي كان يعضُّني تبخَّر فجأةً. رقدت في الفراش بلا حراكٍ، لا أنا بالمريضة ولا السليمة، حالٌ حياديَّةٌ أيضًا تجاه جسدي. كنت كمن غاب عن الوعي بعيونٍ مفتوحةٍ. لم أفهم ما جرى معي، سوى بعد حينٍ، بقيت مستغربةً من الحال التي مرَرتُ فيها، وخرجت منها رويدًا رويدًا، أستعيد حياتي، التي لم تعد يومًا كما كانت قبلها. عندما استعدت توازني إلى حدٍّ ما، وعدت إلى نشاطي، وتحسَّن وضع الطعام في البلدة. وفي يومٍ من أيَّام القصف الشديد، التي تعرَّضت له البلدة، خرجت مع أخي زوجي لمساعدة جارٍ لهم، كانت القذيفة قد سقطت في الغرفة التي يقطنها فيها، ولم يقدر على الهرب، فقطعت القذيفة ساقيه، عندما نقلناه إلى سيَّارة الإسعاف، كنت مستغربةً أنَّ الرجل لا يعاني من الألم، رغم أنَّ جراحه رهيبةٌ. لم يصمد الرجل، فقد تُوفِّي في اليوم التالي من إصابته، لكن بقيت صورة الرجل وإصابته تلحُّ عليَّ يوميًّا، وكان سؤالي كيف تحمَّل الرجل كل ذلك الألم دون أن يصرخ. بعد الحادثة بأيَّامٍ عدَّةٍ، جاءت الطبيبة فرح التي أسعفت الرجل، والتي كنت تعرَّفت عليها سابقًا وأصبح بيننا علاقةٌ من نوعٍ ما، لمعاينة حالة حماتي المتدهورة. وعندما

انتهت وسألتها عن حالة حماتي، التي كانت وفق رأي الطبيبة، حالًا عاديَّةً في ظلِّ هذه الأوضاع الغذائيَّة الرديئة. بعد ذلك سألتها عن الرجل، لماذا لم يشعر بالألم عندما أصابته القذيفة وبُتِرَت ساقيه. شرحت الطبيبة فرح قائلةً: «في الصدمات الكبرى والمهولة بتصيب البشر بأكبر درجات الألم. فيزيولوجيًا، بيفرز الجسم في هذه الحالة كميَّات كبيرة من المواد الكيماوية من الغدد تشبه المورفين في عملها، وبسمُّوها العلماء المورفين الداخلي. هاي المواد بتساعد الإنسان على امتصاص وابتلاع حالة الصدمة وآلامها بشكل عجيب، لدرجه إنها بتحط دماغُه في حالة «فراغ». فيزيولوجيًا، هذا هو اللي ببقي الإنسان على قيد الحياة، لولا هاي العملية بيموت الإنسان من شكة دبوس. علميًا، هذا الفراغ كيمائي المنشأ، كيمياء يدافع فيها الجسم عن بقائه في وجه الأخطار، كيمياء بتفعل فعلها في وقت الإصابات والصدمات الكبرى حتى نبقى أحياء»، لم يجب كلامها عن الحالة التي مرَّ بها الجريح الذي تحدَّثنا عنه، شعرت أنَّها تصف حالتي التي مرَرتُ بها بدقَّةٍ، ولم أكن أجد لها تفسيرًا.

تدهورت الحياة في كلِّ اتجاهٍ، قسوة الحرب فاقت حتَّى كوابيسي، كلُّ يومٍ أقول إنَّنا وصلنا للأسوأ، وفي اليوم التالي، أكتشف أنَّه أسوأ من الذي قبله، وشعرت أنَّ الأسوأ لا قاع له. شعرت أنَّ الزمن الذي يفصلني عن الزمن العادي الذي عشناه قبل الحرب، زمنٌ طويلٌ، يكاد يفصلني عنه مئة عامٍ من الموت في بلدةٍ قرَّرت البقاء فيها بإرادتي، وتحوَّل البقاء إلى حصارٍ بغيرٍ إرادتي، وليس لإرادتي معنًى في البقاء أو الرحيل، لأنَّ الكلمة الأخيرة لمن يحاصرنا، وليس لنا. الموت الذي شهدته في هذا السنوات، لم أتصوَّره حتَّى في كوابيسي. ولم يكن الموت هو الشيء الأكثر إيلامًا في هذه الحرب، فقد كان هناك الكثير من الأشياء أكثر إيلامًا من الموت. كانت حياتنا منتهكةً قبل الحرب، مع الحرب، أصبح الانتهاك لا حدود له، ولم يترك رجال النظام وسيلةً لم يسعوا فيها إلى إذلالنا نحن المحاصرين في الغوطة، إضافةً للقصف

بكلِّ أنواع الأسلحة بما فيها الأسلحة الكيميائيَّة، جُوِّعنا، فسرقوا حتَّى مساعدات الأمم المتحدة، ليعودوا ويبيعوها لنا عبر السماسرة في الغوطة بأغلى الأسعار، أسعارٌ لم يكن من تبقَّى في الغوطة قادرًا على دفعها. وكانت حواجز النظام التي تحاصر الغوطة تستولي على أيِّ شيءٍ يحمله أيُّ أحدٍ يحاول الدخول إلى الغوطة، ولم يكن يُسمَح للشخص الذي يريد الدخول إلى الغوطة بحمل أكثر من ربطتي خبزٍ، والقليل من المواد الغذائيَّة، وكلُّ ما عدا ذلك يستولي عليه الجنود على الحواجز، ودفعت النساء ثمنًا مضاعفًا. أطلق المحاصرون على حاجز مخيم الوافدين القريب من دوما وهو حاجزٌ رئيسيٌّ للداخلين إلى الغوطة اسم «حاجز الرعب» مئات من نساء الغوطة اغتُصِبنَ على هذا الحاجز، وكلَّما سمعت أنَّ امرأةً خارجةً أو داخلةً إلى الغوطة عن طريق هذا الحاجز، أُصَابُ بالرعب من أجلها. بعد ما جرى مع صديقة عمري على الحاجز، صرت أصاب بالرعب عندما يُذكَرُ أو عندما أتذكَّره. خديجة أقرب شخصٍ إليَّ في عملي والحياة، كانت الصديقة التي تأتمنني وأأتمنها على كلِّ شيءٍ، ولم تنقطع العلاقة بيننا يومًا، مع أنَّها تراجعت بفعل الحرب، وبقيت أنا وهي نتصل ببعضنا كلَّما سنحت الفرصة أو كان هناك اتصالاتٌ في شبكة الهاتف المحمول، وأخذت هذه الاتصالات تتباعد، بفعل المصائب المتزايدة لكلِّ واحدةٍ منَّا. وعندما قُتِلَ زوجها في قصفٍ عنيفٍ على دوما، طلبت من محمد أن يقلَّني إلى دوما بأيِّ ثمنٍ، لن أترك خديجة وحدها في تلك المأساة. تركت أولادي عند حماتي، وذهبت عندها لثلاثة أيَّامٍ، كانت مدمَّرةً تمامًا مثل بيتٍ سقط سقفه وتحوَّل إلى ركامٍ. كانت تبكي في الليل وتكاد تكون غائبةً عن الوعي وهي تقول: «رشا شو رح يصير فيني وبالأولاد بعد هيك؟!»، قلت لها: «الله كبير يا خديجة، الله ما بنسى حدا. اصبري. قضاء الله ووقع»، قالت: «كيف يا رشا بدي أصبر، وأنا ما ضللي حدا؟!»، كانت كلماتها سكينًا تمزِّق قلبي، وأنا عاجزةٌ عن فعل أيِّ شيءٍ، فما أصابها حدثٌ جللٌ، ولا كلماتٍ تنفع في مثل هكذا وضع. لم

يعد لها ما تعيش من أجله سوى أولادها، رغم يأسها، تعلُّقها بأولادها منحها القدرة على الاستمرار بالحياة. وعندما مرض ابنها الكبير بعد عامٍ من موت والده، لم يكن أمامها خيارٌ سوى الذهاب إلى دمشق لجلب الدواء لابنها الذي لم تستطع أن تجده في الغوطة، ولم يكن أحدٌ في الغوطة مهتمٌّ بابنها ومرضه، لكن خديجة قرَّرت إنقاذ طفلها بأيِّ ثمنٍ، لم تكن قادرة على تحمُّل المزيد من الخسائر، ولن تسمح بأن يقضي المرض على ابنها مع أنَّ دواءه موجودٌ. نجحت في الخروج من حصار الغوطة إلى دمشق، ونجحت في الحصول على الدواء، وكان هذا إنجازًا كبيرًا، شعرت بالفخر من نفسها، لأنَّها استطاعت فعل ذلك، وبات عليها العودة إلى دوما. كانت متلهِّفةً للعودة لتعلن انتصارها على مرض ابنها وعلى ظروفها القاهرة، على الأقل شعرت أنَّها انتصرت في معركةٍ صغيرةٍ خاضتها. لم يُسمح لها بالفرح بهذا الانتصار الصغير.

هناك على حاجز مخيَّم الوافدين، في أثناء دخولها إلى الغوطة، اصطحبها جنديَّان إلى غرفةٍ جانبيَّةٍ، اعتقدت أنَّهما يريدان تفتيش أغراضها، ولكن هذا الاصطحاب كان لسببٍ آخر، رموها على سريرٍ عسكريٍّ في الغرفة، أزاحا الحجاب عن رأسها، وشرعا بنزع ملابسها بعنفٍ، وعندما لم ينجحا، شرعا في تمزيق المانطو وهي تحاول الحفاظ عليه وعلى نفسها. شتماها وهي تحاول حماية نفسها منهم، قال أحدهم: «هلأ بدك تعملي حالك علينا شريفة يا شرموطة. كلكن إنتو نسوان الغوطة شراميط»، قالت: «منشان الله لا... منشان الله، إذا بتخاف على خواتك، لا»، قال أحدهم: «بتفكري حالك مثل أختي يا شرموطة. فشرتي»، وصفعها بقوَّةٍ على وجهها، وشرع في نزع بنطالها. لم تستطع مقاومتهما، وهما يهدِّدانها بإطلاق النار عليها، تناوبا على اغتصابها، وطرداها. حاولت استعادة دواء ابنها، رجتهم أن يعطوها الدواء، قالت: «منشان الله، ابني بموت، بس أعطني الدوا، ما بدي شي ثاني... بس الدوا... الله يخليلك إمَّك، أعطني بس الدوا»، قال: «الدوا

منشان ابنك يا شرموطة، ولا الدوا منشان إرهابي بنيكك يا شرموطة»، قالت: «والله ابني بموت، منشان الله أعطني الدوا»، ألحَّت، استجدتهم وانحنت على أحذيتهم لتقبيلها لإعطائها الدواء. رفضا ذلك، وأطلقا النار في الهواء لإخافتها، خافت وغادرت الحاجز.

لم تعرف كيف وصلت إلى بيتها، إحساس الذلِّ والهزيمة كانا يجلِّلانها، في الوقت الذي اعتقدت أنَّها انتصرت على مرض ابنها، وجدت نفسها تُهزمُ وتتحطَّم. لم ينتهكوها ويغتصبوها فحسب، بل سرقوا منها نصرها الصغير على المرض أيضًا. عندما اتصلت، وسمعتُ صوتها المرعوب، أصابتني الدهشة، قبل عودتها بساعاتٍ وفي المكالمة الأخيرة التي تحدَّثنا فيها معًا كانت في غاية السعادة، لأنَّها عثرت على دواء ابنها بعد طول عناءٍ، وهي عائدةٌ للانتصار على المرض. قبل الذهاب إليها في دوما، كان عليَّ اصطحاب الدكتورة فرح، فذهبت إلى المشفى المؤقَّت الذي تعمل فيه القريب من بيتنا، وهناك قابلتها، طلبت منها مرافقتي إلى دوما لمعاينة خديجة، تردَّدت، وأخذت تفكِّر. قلت: «يا دكتورة، مرة مغتصبة، وأنت بتفكري تروحي؟!»، قالت: «في مرضى كثير هون، والكل بحاجتي، مش معقول أتركهم وأروح على دوما!»، صرخت: «بقلك، مرة مغتصبة، وأخذوا منها دوا ابنها»، قالت: «طولي بالك، خلص، رايحين»، كان محمد قد تدبَّر لنا سيَّارةً تقلُّنا إلى دوما وتعيدنا. طوال الطريق وأنا أفكِّر بخديجة، أنفض رأسي ولا أريد أن أصدِّق ما حدث معها، سألتني الدكتورة فرح: «من بتكون إلك هذه المرة؟»، نظرت إليها باستغرابٍ، شعرت أنَّ سؤالها وقع في مكانٍ خاصٍّ من قلبي جعله ينقبض. أنا كرَّرت سؤالها بصوتٍ مسموعٍ: «مين بتكون إلي هاي المرة؟»، قلت: «بتعرفي دكتورة، ولا مرة خطرلي هذا السؤال، مين خديجة؟ هذا مو سؤال، خديجة قطعة من روحي، هي شخص طيِّب وهش وحساس، كثير مرَّات حسيت إنَّها بنتي مو صاحبتي. بكت كثير على صدري من أشياء كبيرة، ومن أشياء صغيرة، أصغر شغله كانت بتبكيها، قلبها الأبيض ما

بتحمَّل، ما قادرة أتخيَّل جرائم الحرب بتصيب هاي المرة الوديعة. شو بتكون لي، يمكن بنتي، لإنُه لما بصيبها شي، بقلق عليها، مثل بنتي رهف»، نزلت دموعي وأنا أقول كلماتي الأخيرة، أدرت وجهي خارج السيَّارة أنظر للأشجار التي تمشي عكس السيَّارة المسرعة على الطريق، دون أن أشاهدها. كان الموقف أصعب من تحمُّلي، عندما فتحت سلوى أخت خديجة باب بيتها في دوما، ودخلنا، شاهدتني خديجة من بعيدٍ، شرعت بالبكاء، ركضت عليها، احتضنتها وشرعنا في البكاء معًا، وهي تقول من بين دموعها: «شفتي شو صار فيني يا رشا؟! ليش أنا، إنت أكثر حدا بعرفني بالدنيا، شو عملت بحياتي حتَّى أستاهل هذا العذاب؟!»، كوتني كلماتها، أصابني الخرس، لم أجد كلمات أواسيها فيها، سوى المزيد من الدموع. عندما أرادت فرح فحصها، قالت خديجة: «ما في داعي يا دكتورة، ما قتلُوا جسمي، جسمي سليم، قتلوا روحي، وقتلوا ابني. أنا قرفانة من حالي، ما عبقدر أتحمل جسمي بعد ما عملوا فيني اللي عملوه، وسَّخوني، وما رح أنظف طول عمري»، دخلنا كلنا في بكاءٍ مرٍّ، كان جوُّ الغرفة ثقيلًا يحمل ثقل الحرب وجرائمها وعلاماتها القاسية علينا كلنا، كضحايا معذَّبةٍ، لكنَّ خديجة الأكثر عذابًا بيننا، ولأنِّي أعرف الطفل داخلها، أعرف ما قتلوه داخلها عندما اغتصبوها، لا أجد الكلمات التي أصف فيها القهر والظلم المتراكم في تلك الغرفة بعد خمس سنواتٍ من القتل والانتهاك الذي لا ينتهي، والذي أصاب كلَّ واحدٍ منَّا وإن بمستوياتٍ مختلفةٍ، كان النصيب الأكبر لخديجة. عاينت فرح الطفل أيضًا، هزَّت رأسها استنكارًا لحالته المتردِّية. في طريق العودة، لم نقل أنا وفرح الكثير من الكلمات، قالت فرح بصوتٍ في غاية الحزن: «صدمتها كبيرة كثير، الله يحميها وتتجاوزها، هاي حالة صعبة، لا شفاء منها».

لم يترك الألم خديجة في حالها بعد كلِّ ما تعرَّضت له من جرائم، لم تكفِ آلام الاغتصاب الجسديَّة والروحيَّة، لأنَّ الاغتصاب سيحمل آثارًا أسوأ

منه. لم تكن حالتها تسمح بأن تتذكَّر تواريخ دورتها الشهريَّة، وتسبَّب القرف الذي تشعر به تجاه جسدها بعد الاغتصاب بالتقيؤ المستمرَّ. لم يتحسَّن الوضع، بل زاد سوءًا عندما اكتشفت خديجة بعد حوالي الشهر أنَّها حامل. جُنَّت عندما سمعت الخبر، كنت أتكلَّم مع خديجة كلَّ يومٍ تقريبًا، وأتصل بأختها، لأطمئنَّ وأعرف منها ما لا تريد خديجة إخباري به. وقالت أختها لي، بعد معرفتها أنَّها حامل، حاولت الانتحار مرَّاتٍ عدَّةً. شعرت بغضبٍ شديدٍ، لماذا كلُّ هذه القسوة مع هذه المرأة. وضعت نفسي مكانها، كدت أجنُّ من الفكرة، كيف لو كنت مكانها، وأيُّ واحدةٍ منَّا في الغوطة أو في البلد كان يمكن أن تكون مكانها. قلت لن أقف مكتوفة اليدين. ذهبت عند الدكتورة فرح، قلت لها: «بدي منك خدمة؟» قالت: «خير، تكرم عيونك إذا كنت بقدر» قلت: «بتتذكري خديجة اللي زرناها بدوما؟» قالت: «طبعًا، هاي ما ممكن أنساها أبدًا»، قلت: «طلعت حامل من اللي اغتصبوها»، شهقت الدكتورة، وضعت يدها على فمها وهي تقول: «يا الله. مش معقول»، وأضافت: «أنا شو فيني أعمل؟» قلت: «بدي منك تسقطي الولد بعملية كورتاج»، قالت: «إنت شو بتقولي، أنا مو اختصاص نسائية»، قلت: «شو بهم؟» قالت: «ممكن أقتلها بالعملية»، قالت: «قتلوها ميت مرَّة لما اغتصبوها، وأنت بتنقذيها من إنُه تموت ألف مرَّة»، قالت: «شو بتحكي أنت؟»، قلت: «شو شايفة أنت، هاي المرة إذا بتخلف هذا الولد، كل لحظة رح يقتلها، هذا الولد رح يذكرها كل يوم باللي صار، ويذكر كل الناس، شو صار مع هاي المرة»، قالت: «بس اللي صار مو ذنبها»، قلت: «روحي اقنعي الناس إنُه ما ذنبها، وإنُه هذا الولد يعيش طبيعي بينكم، ولا تعاملوه ابن حرام، ولإنُه ما ذنبُه ومو ذنب أمُه. هذا الكلام وين بصرفُه يا دكتورة. أنت عارفة، وأنا عارفة بأي عالم وسخ بنعيش»، قالت: «والله يا رشا، حاسة بالمرة، وحاسة فيكي، بس مش قادرة أتحمَّل فكرة إنُه المرة يمكن تموت بين أيدي. وأنا حالفة يمين»، قلت: «ماشي أنت حالفة هذا اليمين البطيخ، أنا مش

حالفة، أنا ما بهمني، أنا رح أحاول، وما رح أندم ولا لحظة، حتى لو ماتت. لإنُه إذا بقي اللي ببطنها، رح تموت مليون مرة»، قالت: «شو بدك تعملي؟»، قلت: «بدي إياها تجهض، طالما إنت ما بدك تعملي العملية، دبريلنا حبوب الإجهاض. وأنا رح أتكفَّل بالباقي»، قالت: «أنت شو بتقولي؟»، قلت: «مثل ما سمعتي، إذا فيكي تساعديني، قولي. وإذا ما بدك تساعدني قولي كمان، منشان دبر حالي»، قالت: «رح أحاول، أدبرهم»، قلت: «إذا بدك بتدبريهم، وإذا ما تدبروا معك خبريني، أنا بتصرف»، رغم قولي هذا، لم أكن أملك بديلًا أفعله، فانتظرت أن تخبرني فرح بما سيحدث معها. لم تتأخَّر الدكتورة في إحضار الدواء. وعندما طلبت منِّي الحضور لأخذه، أخبرتني كيفيَّة استخدامه. هو عبارةٌ عن حبَّتين، واحدةٌ تؤخذ عن طريق الفم، والأخرى تؤخذ عن طريق المهبل بعد حوالي اثنتا عشر ساعةً، وشرحت لي كيف تعمل، ولم يهمَّني هذا، المهم أن تنجح في إبعاد هذا الجنين عن حياة خديجة. لم أكن أستطيع الذهاب إلى دوما لعمل ذلك هناك، لأنَّه يحتاج إلى وقتٍ، ولم أكن قادرةً على إرسال الدواء، لأنِّي أعرف، ألَّا أحد يستطيع إقناع خديجة بفعل ذلك غيري. اتصلت بأختها سلوى، وقلت لها ما أنوي فعله، وأنَّ عليها أن تساعدني بإحضار خديجة إلى زملكا للقيام بذلك. وافقت أختها على المساعدة، وقلت لها: «كلما عملنا هذا أسرع، بكون أفضل لخديجة. حاولي تدبري سيارة، هاليومين، وإذا ما تدبرت، خبريني أنا بدبرها. وإذا بتحبي تظلي معها تساعديني هذا منيح، وإذا ما قدرتي، وصليها وأنا بتكفل بالباقي»، قالت: «رح أساوي اللي بقدر عليه، وإن شاء الله بنكون عندك بكرة»، أخبرت محمد القصَّة، وطلبت أن يبقيها سرًا بيننا، وأن يساعدني في الأولاد في الفترة التي أستضيف فيها خديجة ريثما تتحسَّن، قلت: «رح أستضيفها ببيتنا، ما رح أقدر أعمل شيء في هذه الحشود اللي عند أهلك»، أسف لحال خديجة التي يعرفها، وقال: «الله يكون بعونك... اعملي اللي بدك إياه، وشو بدك منِّي مساعدة أنا جاهز».

في اليوم التالي أحضرت سلوى أختها إلى زملكا، وقالت: «مش رح أقدر أستنى، ما في حدا عند ولادي وولاد خديجة، وابن خديجة مريض كثير، لازم أكون هناك»، قلت: «الله يعطيكي العافية، ولا يهمك بس تتحسَّن خديجة إحنا بنرجعها»، كانت خديجة في غاية الوهن هذه المرَّة، امرأةٌ تائهةٌ، تنظر ولا ترى، متعبةٌ ومنهكةٌ حتَّى أقصى درجات الإنهاك. دمَّرتني حالتها، ودعيت الله أنَّ ينقذها ممَّا هي فيه. تمنَّيت أن يكون هناك دواءٌ للنسيان، أعطيها حبَّةً منه وتنسى كلَّ ما حصل معها، لكن للأسف مثل هكذا دواء ليس موجودًا. ساعدتها أنا وسلوى للوصول إلى شقَّتنا في الطابق الثالث، التي سبق أن حضرت بنفسي ونظَّفتها، سألتها: «بدك شي؟ أجبلك شي؟» قالت بصوت واهن: «أنا تعبانة» قلت: «سلامتك، بكرة بتصيري أحسن»، في مساء اليوم ذاته أعطيتها الحبَّة الأولى من الدواء الذي جلبته فرح، وهذه الحبَّة توقف عمل الهرمون الذي يثبِّت الجنين بالرحم، وتساعد على فقدانه بجعل بطانة الرحم تنهار. بعد حوالي الساعتين أخذت حرارتها بالارتفاع، وأخذت تشعر بمزيدٍ من الوهن، وشعرت برغبةٍ بالتقيُّؤ والغثيان، لم تستطع النوم في تلك الليلة بسبب ضعف جسدها وتأثير الحبَّة القويِّ عليها. ولم أستطع أنا النوم أيضًا من أجل مراقبة حالتها، انتظرت حتَّى التاسعة صباحًا، وأعطيتها الحبَّة الثانية التي أخذتها في المهبل، والتي تتسبَّب بانقباضاتٍ وتقلُّصاتٍ تساعد على سقوط الرحم، ولم يتأخَّر المغص في القدوم، أحسَّت بمغصٍ رهيبٍ، أخذ يزداد، ويزداد معه النزف، الذي خرج معه الجنين بعد أربع ساعاتٍ من المعاناة المهولة التي عانتها خديجة. بعد أن تأكَّدت من أنَّها أجهضت، استمرَّ النزف، اتصلت بالدكتورة فرح، وطلبت منها أن تأتي، لتلقي نظرةً عليها. لم تتأخَّر بعد نصف ساعةٍ كانت في بيتي، وبعد فحصها، قالت: «وضعها سيِّئ، بس مش خطير، وهذا برجع لأنَّها ما بتاكل منيح من زمان. بدها راحة وشوية أكل، وبترجع منيحة. بس إنت بتعرفي الصدمة اللي بتعاني منها»، أعطيتها حبَّتين من المسكِّن، وبعد أن غادرت الدكتورة، غرقت

خديجة في نومٍ عميقٍ. بعدما نامت خديجة، رنَّ هاتفي المحمول، كانت سلوى على الخطِّ تبكي، قلت مباشرة: «خير، شو في؟!» قالت: «ابن خديجة المريض، مات»، رميت الهاتف، لعنت وشتمت وصرخت، وبكيت. قرَّرت ألَّا أخبر خديجة بوفاة ابنها، سأنتظرها لتتحسَّن، وأرسلها إلى بيتها، وأترك عبء إخبارها على أهلها، فليس لي القدرة أن أحمل لها خبراً بهذا السوء في حالتها الرهيبة. تحسَّنت ببطءٍ، أو هكذا اعتقدت، وعندما أمَّن محمد سيَّارةً لنقلها إلى دوما، اتصلت بأختها سلوى، وقلت: «خديجة بالطريق إلى دوما، وأنا ما خبرتها إنُه ابنها مات»، قالت: «الله يسامحك، والله لبكرة تجن أكثر ممَّا هي جانة»، معها حقٌّ، كان عليَّ إخبارها، ومساعدتها على إلقاء النظرة الأخيرة على ابنها. كنت أجبن من فعل ذلك، لم يكن ذلك خطأً، بل حماقةً منِّي، رغم أني فعلت ذلك من أجل حمايتها. لم يعد الأمر قابلًا للإصلاح، لقد دفنوا الطفل، ولا يمكن العودة إلى الوراء. وكما هو متوقَّعٌ، عندما عادت إلى دوما، أوَّل ما فعلته سألت عن ابنها المريض، وعندما ارتبكوا بالإجابة عرفت أنَّه تُوفِّي. وكما تروي سلوى: «كان هدوءها غريبًا، كإنُه عارفة ابنها مات، ما بين عليها إنَّها متأثَّرة، ما كان في شي يدل على حزن جديد بكلامها، صحيح عيونها زايغة، بس هذا مش جديد عليها. على وجهها ابتسامة صفراء. ما كانت ترد عليّ لما بحكي معها، ولما خبَّرتها ابنها مات، ما تحرَّكت ولا عضلة بوجهها، كأنها ما سمعتني، أو الموضوع لا يعنيها، حياد غريب سيطر عليها. ما عرفت شو بدي أعملها. عرضت عليها أكل، ما أكلت، حاولت جرها لحديث، أي حديث، ما استجابت. ما ظل عندي غير أتركها ترتاح وتنام. نامت على جنبها فاتحة عيونها، لما غمضت، قلت لحالي، بروح بعمل كم شغلة عند إمِّي وبرجع لعندها. ما تأخَّرت عند إمِّي، ولما رجعت كانت فاتحة عيونها، سألتها: «بدك شي؟» قالت، لا بهزَّةٍ من راسها. حسيتها تحسنت بعد ما نامت، قلت لحالي منيح، بكرة بتصير أحسن وبترجع زي ما كانت أوَّل. نمت عندها بالليل، وعندما عادت للنوم مرَّةً أخرى، نمت أنا

مباشرةً بعدها، كنت تعبانة كثير. الصبح لما فقت، ما لقيتا بمطرحها، دوَّرت عليها، لقيتها ممدَّدة بالحمام على بطنها. توقَّعت إنُه مغمى عليها، بسبب قلَّة الأكل، بس لما قلبتها، كان الزبد يسيل من طرف فمها إلى الأرض، حطيت أيدي على انفها، ما كان في هوا، حطيت داني على صدرها، ما سمعت دقات قلبها. عرفت إنُه ماتت. بس ما عرفت، إنها ماتت موت رباني، ولا لاقت شي شربتوا موتها وطلع الزبد من تمها؟ ما كان مهم الجواب على السؤال، المهم إنُه صار اللي تمنتُه، لإنُه بعد اللي صار معها، ما عادت قادرة تعيش مع جسمها، هي قرَّرت تموت، إن كان استهلكت جسمها، أو أمرتُه يموت، أو رحمة الله نزلت عليها وموَّتتها، لأن اللي شافتُه خديجة، ما بقدر حدا يتحملُه، حتى اللي ما بعرفوا تفاصيل اللي صار معها، قالوا: ارتاحت. لإنُه الموت بعد كل اللي صار فينا، صار راحة، واللي ببقى حي، هو اللي بتعذَّب. صار مطلب الكل، الكل بدُه يموت ويخلص. الله يرحمها، وينوِّلها ثواب على قد ما تعذَّبت»، عندما تلفَّظت سلوى بمفردة الموت، شعرت بالهزيمة وبكمِّ الحبِّ والشفقة اللذين أكنُّهما لها، لقد خضت معركتي من أجل إنقاذ خديجة، فهي ضحيَّةٌ لا ذنب لها بما جرى، وهي تستحقُّ الحياة، وحياةً جميلةً تليق بها. كنت أتعرَّف على نفسي ببراءة خديجة، هذه المرأة الطفلة التي لم تكبر، لكن ما جرى، أفقدها براءتنا، وانتهكها حتَّى الموت، الذي كان الحلَّ المنطقيَّ الوحيد، لحالة التلوُّث الروحيِّ والجسدِّي اللذين أحسَّت بهما طوال الوقت، ومنعوها من الاستمرار في حياتها، التي لم تعد قابلةً للاستمرار، بمنطق البراءة الذي تربَّت عليه. لقد حطَّمني موتها مزيدًا من التحطيم، فقد راهنت على قدرتي بأن أكون مفيدةً، بأن أحمي أعزَّ صديقةٍ بعدما جرى معها من اغتصابٍ، شعرت أنِّي الوحيدة التي يمكنها إعادتها إلى حياتها الطبيعيَّة، أو ما يقترب من هذه الحياة الطبيعية. ولم أعرف أنَّ مغادرة الحياة الطبيعيَّة في زمن الحرب القذرة لا عودة منها إلى الطبيعيِّ. حطَّمتنا الحرب، لم تكسر روحنا فقط، بل

حطَّمت كلَّ التفاصيل الصغيرة التي بنيناها هنا وهناك، والتي راهنَّا عليها وعلى المستقبل، تحطَّمت كلَّ التفاصيل، انخسف الكون على رؤوسنا وحولنا إلى أشلاء غير مرئيَّةٍ، أشلاء لا تعني أحد، حتَّى لم تعنينا نحن أنفسنا، الذين أصبحنا غرباء حتَّى عن أنفسنا. أخذ موت خديجة أو انتحارها معه آخر أملٍ صغيرٍ، كان يجعلني أرى هذا العالم لا زال قادرًا على بناء الأفضل، ويمكن أن يشفى من جروحه، إذا منحناه الاهتمام والرعاية، كنت واهمةً، فجروح خديجة كانت أعمق من أن تشفى، وكلُّنا خديجة بشكلٍ أو بآخر. عندما أفكِّر بما مررنا به من تجربةٍ قاسيةٍ، وأتأمَّل مصائر الذين حولي، وأنظر إلى أطفالي الثلاثة، الذين عبرت الحرب بهم بالخوف والرعب بين القذائف والغازات السامَّة والصواريخ، إنَّها الحرب التي أفقدتهم طفولتهم قبل الأوان، صراخهم من القذائف، كان يُخيفني أكثر من القذائف نفسها، وأصاب بالرعب عليهم كلَّما اقتربت منا. عندما فكَّرت بمصير خديجة وغيرها الكثير من النساء اللواتي دفعن ثمنًا غاليًا للحرب، خفت أن يكون مصيري مثل مصيرهنَّ. أسأل: ما الذي سأفعله لو تعرَّضت لما تعرَّضت له خديجة؟ لقد كان مصيرًا محتملًا لي مثلما كان لها، عند ذلك أصاب بالرعب وأخاف من القادم الأكثر سوادًا الذي تبشِّر به تلك الأيَّام. زاد من رعبي وخوفي ما ردَّ به مقاتلو «جيش الإسلام» على وحشيَّة النظام في الغوطة. فقد اقتحموا المدينة العمَّاليَّة في عدرا، وأسروا عشرات العائلات من العلويِّين الذي يسكنون في المنطقة، بوصفهم مؤيِّدين للسلطة، ولم يكتفوا بذلك على بشاعته، فصنعوا حوالي مئة قفصٍ حديديٍّ، ووضعوا في كلِّ واحدٍ منها سبعةً من هؤلاء ووزَّعوهم على دوما والبلدات المحيطة فيها، لتجنُّب قصف النظام لهذه المناطق. طبعًا، لم يتوقَّف القصف، ولم يكترث من يقصف دمشق بهؤلاء الضحايا. من البشع أن يُستَخدَم البشر كدروعٍ في مواجهة المجرمين، فهؤلاء غير معنيِّين بمصائر المساكين، حتَّى لو كانوا من الطائفة ذاتها. «شو الذنب اللي ارتكبتوه النسوان حتَّى ينحطُّوا بأقفاص ويتعرَّضوا

للموت، وإذا كانوا علويَّات بصيروا مجرمات؟! اللي بعملوا هيك مفكرين حالهم أحسن من اللي بقصفوا الغوطة؟!»، قلت هذا الكلام صارخةً في وجه محمد، الذي قال: «بفهم مشاعرك، بس شو بنقدر نعمل؟» قلت: «لأ، أنت مش فاهم، مش أنت اللي بتغتصب حتَّى يهينوك ويهينوا كل عيلتك الصغيرة والكبيرة. مش أنتو الرجال اللي بتدفعوا ثمن الحرب، أحنا والولاد الصغار اللي بندفعوا. أنتو بس بتقتلوا، وإحنا بس بننقتل، لإنُه إحنا الأضعف، والحرب بتاكل الضعفا»، ودخلت في موجةٍ من البكاء، حاول تهدئتي، لكن دون فائدةٍ، شعرت أنَّ سكِّينًا مغروسًا في قلبي، كلُّ يومٍ تزداد انغراسًا فيه ويزداد ألمها.

لا مستقبل مع كلِّ هذا الموت في الغوطة، الأحلام الورديَّة التي حملناها في بداية الاحتجاجات، تحوَّلت إلى كابوسٍ يُسيلُ دماءً لا تنتهي، لا شيء نفعله سوى أن ننتظر مصيرنا بين موتٍ موزَّع على محيطنا إذا أصابنا، يريحنا من تعب الحياة، وإذا أجَّلتنا الصواريخ والقذائف نذهب إلى أيَّامٍ أسوأ. لم يكن ما مرَّ عليَّ في الغوطة مجرَّد سنواتٍ، شعرت أنَّ قرونًا في غاية الصعوبة عشتها هناك، لم يكن الزمن عاديًّا، ولم أعرف ثقل الزمن الرهيب قبل الحرب، لكنَّ هذه الحرب علَّمتني أنَّ حياة البشر أرخص شيءٍ عند الجميع، فهي لا تهمُّ أحدًا. وزاد من هذا الرخص أنَّ الموت الذي توزِّعه الصواريخ بات أثقل وأقوى مع مجيء الطائرات الروسيَّة لقصفنا. الصاروخ الذي هدم طابقًا قبل قدوم الروس بات يهدم البناء كلَّه بالصواريخ الروسيَّة. مع قدوم الروس خيمة الموت باتت أوسع، وبات مصيرنا أسود لا محالة، لكن أيُّ درجةٍ من السواد هذا ما لم نكن نعرفه. بتُّ أنظر إلى المدينة المحطَّمة وكأنَّها امتدادٌ لروحي المحطَّمة، لم أعد أرى من الأشجار المحيطة بنا، سوى تلك التي ماتت، أو التي اقتلعها القصف، كلُّ شيءٍ في مهبِّ الريح، أوَّلها حياتي وحياة أولادي، لا مستقبل أنتظره في هذه البلد، الموت بأبشع الطرق هو المستقبل الذي ينتظرنا هنا. تبدَّدت الأحلام، هزمنا

وتحطَّمنا، وننتظر النهاية الحزينة لحياتنا المحطَّمة. بعد جبال الألم التي عانيناها، كانت الباصات الخضر في انتظارنا.

أذكر الباصات الخضر في بداية الأحداث، هذه الباصات التي استُخدِمَت لجلب مئات عناصر الأمن لقمع المظاهرات في زملكا وغيرها من بلدات الغوطة، وعندما تنتهي مهمَّة الاعتداء على المتظاهرين وقمعهم، تعود هذه الباصات بعناصر الأمن، مع تفريغ باصٍ أو أكثر لنقل المعتقلين من هذه المظاهرات إلى الفروع الأمنيَّة. قبل نقلهم من المكان كانت هذه الباصات تستخدم كسجونٍ متنقِّلةٍ، يُحشَرُ فيها المعتقلون الذين يلُتقطون من المظاهرات، إذ يكدَّسون فيها، شبابًا وشابَّاتٍ، أيديهم مقيَّدةٌ إلى الخلف، ورؤوسهم منخفضةٌ، وهراواتٌ تنهال على الرؤوس والأجساد بالضرب المبرح، حيث تتحوَّل الباصات إلى غرفة تعذيبٍ مؤقَّتةٍ إلى حين الوصول إلى مراكز الاعتقال حتَّى آخر النهار حيث يحملون إلى السجون. مع اشتداد الصراع مع الدم المسال في البلد في العام الثالث للثورة، نجحت سياسة النظام في خنق وإدماء الأماكن الثائرة، ودفعها إلى الاستسلام، تحوَّلت وظيفة هذه الباصات، إلى أداة تهجيرٍ رئيسيَّةٍ للمناطق التي وافقت على التسوية مع النظام، وكانت البداية من أحياء مدينة حمص القديمة، التي فُرِضَ عليها التهجير وبإشراف الأمم المتحدة. ومنذ ذلك الوقت اعتُمِدَت الباصات الخضراء كراعٍ حصريٍّ للتهجير، الذي أخذ يتزايد في الأماكن المحاصرة، التي شهدت عمليَّات تهجيرٍ منطقةً بعد أخرى. في كلِّ مرَّةٍ تجري تسويةٌ تظهر الباصات الخضراء لأداء بالمهمَّة، وعادت الباصات للظهور في حي الوعر في حمص، حيث هُجِّروا إلى ريف إدلب. وكرَّت السبحة بعدها في العام التالي، الذي أُطلق عليه «عام التهجير»، إذ أُخلِيت الفصائل المسلَّحة من داريًا ثمَّ المعضميَّة والتل وقدسيًا والهامة وخان الشيح في الغوطة الغربيَّة.

في الغوطة الشرقيَّة بعد طرد قوَّات النظام منها، استولى المقاتلون على حوالي عشرين باصًا من الباصات الخضراء، التي كان رجال المخابرات

يتنقلون فيها، شُغِّلَت هذه الباصات على خطوطٍ داخل الغوطة الشرقيَّة لنقل الطلَّاب والموظَّفين بين بلدات الغوطة الشرقيَّة، لكنَّ هذه الخطوط توقَّفت مع اشتداد القصف الروسي على بلدات الغوطة، ما جعل التنقُّل في هذه الباصات خطرًا على ركَّابها. كان الجحيم الذي يصنعه القصف الروسيُّ الوحشيُّ على بلدات الغوطة الغربيَّة هو الذي دفع هذه المناطق الوصول إلى تسوياتٍ لخروج المقاتلين منها، وانتقالهم إلى أماكن أخرى، وتسليم مناطقهم لقوَّات النظام، وكانت الباصات الخضراء، التي نقلت المقاتلين من كلِّ هذه الأماكن، علامة على هزيمة الثورة ضدَّ النظام. في البداية عَدَّت المجموعات المسلَّحة في الغوطة الشرقيَّة ما قام به هؤلاء خيانةً للثورة، وتقديم تنازلاتٍ مجانيَّةٍ للنظام. هذا اللوم تراجع بعد أشهرٍ، لأنَّ الجحيم ذاته ذاقته الغوطة الشرقيَّة، من خلال سياسة الأرض المحروقة التي اعتمدها الطيران الروسيُّ في الغوطة، بدأت مفاوضاتٌ مع الروس، من أجل تسوية الأوضاع التي لم تعد تطاق في المناطق المحاصرة، وقد اتخذ فيلق الرحمن الموقف ذاته في البحث عن تسوية مع النظام، بعد تكرار الفشل في الحصول على أيِّ إنجازٍ عسكريٍّ ضدَّ النظام، وضيق الحال، ونقص الأسلحة، وفقدان الأمل في المستقبل، وهو ما كان يعني تكرار ما جرى في الغوطة الغربيَّة. لم يعد من الممكن الاحتمال أكثر، فالبلدات في الغوطة تكاد تكون فارغةً، وتعاني من نقصٍ في كلِّ شيءٍ. استنفذ الناس كلَّ قدرةٍ على الصمود على مدى أكثر من خمس سنواتٍ من حصارٍ متفاوتٍ بين حصارٍ قاسٍ وحصارٍ مدمِّرٍ، لذلك باتت التسوية خيارًا وحيدًا أمام المقاتلين للحفاظ على ما تبقَّى من الأهالي في الغوطة. فوافق فيلق الرحمن على تسويةٍ مع النظام، تقضي برحيل المقاتلين إلى إدلب لمن لا يريد أن يسلِّم سلاحه، ويقوم بمصالحة مع النظام ويبقى في البلد مقابل الالتزام بالشروط التي يفرضوها عليه.

بعد الاتفاق على مغادرة المقاتلين، أصبح السؤال الملحُّ، ماذا سنفعل؟ هل نرحل مع الراحلين إلى إدلب أم نجري مصالحةً مع النظام ونبقى في البلد، بصرف النظر عن الشروط التي سيفرضها النظام علينا، بل على محمد تحديدًا. اختلفت مع محمد على البقاء أو الرحيل، هو أراد البقاء، لأنَّ لا شيء نفعله في إدلب، وكان محقًّا في ذلك. قال: «شو رح أعمل هناك؟! أنا بفضِّل نظل هون، واللي بصير على الناس بصير علينا»، استغربت كلامه، وقلت: «يا محمد شو بتقول، أنت بتقدر اليوم بعد كل اللي صار تلتحق بجيش النظام، مثل ما طلبوا من مناطق ثانية من المتخلِّفين عن الالتحاق بالجيش أو بالاحتياط»، قال: «ممكن نلاقيلها حل؟»، قلت: «أي حل؟! محمد من الآخر، أنا ماني واثقة بوعود النظام، وما بدي حدث جديد يحطِّمني أكثر ممَّا أنا محطمة. شفنا الأمرين بالحصار، واليوم مش قادرة أتصوَّرك معتقل أو قتيل، وهذا مش بعيد عن النظام. بفضِّل أروح على آخر الدنيا وإنت معي، على أن أبقى بالجنة وإنت مش معي»، قال: «بنشوف شو رح نعمل»، عرفت أنَّ كلامي أثَّر به، فما جرى معنا خلال السنوات الماضية يهدُّ الجبال، وأعرف أنَّه محطَّمٌ أكثر منِّي، بما خسره من أحبَّةٍ وأصدقاء في هذا الصراع. قلت لن أعود للنقاش معه في الموضوع ذاته، ليقرِّر ما يشاء، وأنا سألتزم قراره، مع خوفي الشديد عليه من بطش النظام، والذي سيتركني أرملةً مع أطفال أيتامٍ، سواءٌ قُتِلَ محمد أم اعتُقِلَ، الحالتان لا تختلفان في أوضاع البلد، فليتخذ القرار الذي يريد. لم أعد إلى سؤاله عن الموضوع، شعرت أنَّه متردِّدٌ، فقرَّرت ألَّا أحاول التأثير عليه، متمنِّيةً ألَّا يختار البقاء والقيام بمصالحة مع النظام، قلت رأيي مرَّة ولن أكرِّره، فقد قاسى مثل ما قاسيت، وكأنَّ لعنةً أصابتنا وأصابت البلد. بعد تفكيرٍ طويلٍ، وتردُّدٍ، ومحاولات سؤالي المرَّة بعد الأخرى، وقولي: «أنا حكيت اللي عندي، والقرار عندك»، شعرت وأنا أقول هذا الكلام، أنِّي أتخلَّص من عبءٍ وألقيه على محمد، عبءٌ ثقيلٌ انسحب منه. هو لا يستطيع أن ينسحب منه، عليه أن

يقرِّر البقاء أو الرحيل. لم يكن الأمر سهلًا، خياران أحلاهما مرٌّ، ولا يتعلَّق بمصيره وحده، بل بمصيرنا كعائلةٍ، وأنا أعرف كم يحبُّ عائلته. شعرت أنِّي قاسيةٌ بعدم مشاركتي بالنقاش، وتركه تحت أعباء اتخاذ قرارٍ صعبٍ. في النهاية قرَّر أن نغادر إلى إدلب مع المغادرين. لم يستطع المغامرة بالبقاء والمصالحة. كان علينا أن نرتِّب أغراضنا القليلة التي سنأخذها معنا إلى عالمنا الجديد المجهول تمامًا بالنسبة لي. وعندما جاءت الباصات الخضراء لنقلنا، سقط قلبي، وهذه المرة لم تكن وحدها، لأنَّها لم تكن تكفي للآلاف الذين قرَّروا المغادرة، فاختلطت الباصات الخضر بغيرها من ألوان الباصات الأخرى، لتعلن أنَّ الهزيمة باتت أكبر، وأنَّ المجهول هو ما ينتظرنا في الأرض التي سنحطُّ رحالنا فيها.

عندما غادرت الباصات زملكا، انخلع قلبي، لم يجلس محمد إلى جانبي لأنَّه عرف أنِّي سأبكي، حتَّى لا يصاب بعدوى البكاء، أَجلس أولادي إلى جانبي وذهب بعيدًا ليُخفِ دموعه عنِّي. فهمت ما يفعل، لأنَّ الجميع في الباص رجالًا ونساء كانوا يبكون ويحاولون إخفاء دموعهم عن بعضهم البعض. عيون الجميع تائهةٌ، لا أحد يعرف ما الذي سيفعله عندما تتوقَّف الباصات في الأرض الجديدة. الآلاف الذين تحملهم الباصات كان أملهم في عالمٍ أفضل قد حطَّمته الطائرات بصواريخها التي هدمت بيوتهم وحياتهم، واليوم يذهبون إلى المجهول بلا أملٍ. لم تكن رحلة سفرٍ، بقدر ما كانت رحلة عذابٍ لا تنتهي، بدت مدينة إدلب أبعد من الصين في رحلة الذلِّ التي خضناها وصولًا إلى الأرض الجديدة. عندما وصل باصنا إلى أريحا، وأخذنا نخرج أغراضنا من صندوق الباص ونضعها على الأرض، جال في رأسي، شعر لمحمود درويش، كنت قرأته لفراس يومًا ما، من بين ما قرأت له من كتب، يقول: «...وحين/ التفتنا إلى الشاحنات رأينا الغياب/ يكدِّس أشياءه المنتقاة/ وينصب خيمة الأبديَّة حولنا.»، لا أذكر في أيِّ ديوانٍ قرأت هذه الكلمات، وقتها لم أفهم المجازات في هذا الشعر تمامًا، فما معنى أنَّنا

نرى الغياب يكدِّس الأشياء المنتقاة. عندما أنزلنا أغراضنا في أريحا من الباص، كان الواقع يشرح هذا المجاز الذي لم أفهم كلماته، جاء هذه المرَّة ليشرح نفسه بالتجربة المرَّة التي نعيشها. عندها، عرفت أنَّ اللاجئين يكرِّرون التجارب والخبرات ذاتها، وما كنت أفعله على أرض أريحا الضاحية التابعة لإدلب، وأتحوَّل إلى لاجئةٍ بهذه الأغراض التي انتقيتها من بيتي لضرورة الرحلة ومن أجل أطفالي على نحوٍ رئيسي، كانت جدَّتي قد قامت بالأمر ذاته قبل سبعين عامًا بالتمام والكمال، عندما تحوَّلت إلى لاجئةٍ قادمةٍ من فلسطين إلى دمشق بعد حربٍ سلبتهم كلَّ شيءٍ، سوى أشياء قليلةٍ، التي ذكَّرتها طوال عمرها أنَّها لاجئةٌ في أرض الآخرين، وهو ما أصبحت عليه أنا، لاجئةٌ في أرضٍ ليست لنا.

غادر جسدي دمشق، لكنَّ روحي بقيت هناك، لم أفهم ما يجري معي، خرجت محطَّمةً من هناك، لكنِّي لم آلف المكان هنا. أصبحت أستمع إلى أخبار المكان الذي غادرته، أكثر من الوقت الذي كنت أعيش فيه. هناك روابط في حياتنا لا نكتشفها ونكتشف أهميَّتها إلَّا عندما نبتعد عنها، وأنا التي عشت حياتي في مدينة دمشق، لم أكن أعرف ما تعنيه لي إلَّا عندما انتقلت إلى أريحا، التي أشعر فيها أنِّي عمياء، لا أرى شيئًا فيها، ولست قادرةً على تعلُّم جغرافيَّتها. أخبار دمشق التي تأتي كلَّ يومٍ أسوأ من الذي قبله. «جيش الإسلام» في دوما الذي رفض المصالحات، وعَدَّ خروجنا من زملكا والمناطق الأخرى خيانةً له وللإسلام، لم يصمد كثيرًا، وتوصَّل إلى اتفاقٍ مع النظام، يخرج بموجبه من المناطق التي يُسيطر عليها في الغوطة. مهدَّ هذا الخروج لبعض العائلات من العودة إلى منازلهم في بعض الأماكن. وُلِدَ الأمل عند أبي أن يعود إلى بيته، الذي تفقَّده بعد خروج «جيش الإسلام» من دوما وسماح النظام للناس بزيارة بيوتها دون الإقامة فيها. وجده نصف مدمَّرٍ، أغراضه مسروقةٌ، عَدَّه قابلًا للإصلاح، وبذلك يتخلَّص من أجرة المنزل الذي يسكنه، والذي لم يعد قادرًا على دفع أجرته. لم تجرِ الأمور بالسرعة

التي أرادها أبي، لكنَّهم سمحوا للبعض بإصلاح منازلهم، وأصلح أبي نصف البيت وعَدَّه كافيًا لعيشه وأمِّي. لم يكن سعيدًا بالعودة إلى دوما، ولكنَّه عدَّ الوضع الجديد أفضل له من البقاء في بيوت الإيجار التي لا تتوقَّف أجرتها عن الصعود الجنونيِّ. كان يقول: «أعيش بنص بيت إلي، أحسن ما أعيش ببيوت الناس، وأنا كل يوم خايف ما أقدر أدفع الأجرة»، وكان العيش في هذه الأماكن مع عدم وجود كهرباء وماء وخدماتٍ، صعبًا للغاية، فهذا الوضع أعرفه جيِّدًا، وعلَّم على جسدي وجسد أولادي، لكنَّه كان خياره الأقلَّ سوءًا بين خياراتٍ كارثيَّةٍ. كنت أشعر بالأسى من أجل أبي، الرجل صاحب النفس العزيزة، الذي بنى حياته بمجهوده الشخصيِّ كما يريد، وشاهدها تتحطَّم أمامه، بموت أولاده الذين كانوا كلَّ حياته، وبفقدان ما تعب من أجله. منذ هجرتنا إلى إدلب، وأنا أتصل به كلَّ يومٍ لأسمع صوته وصوت أمِّي وأطمئن عليهم، فأنا أشتاق لهم كثيرًا، لم أقابلهم منذ أكثر من ست سنواتٍ، ونحن نعيش في البلد ذاتها. في ذلك اليوم الذي اتصلت بأبي ولم يرد، اتصلت بأمِّي، التي قالت لي: «أبوكي طلع من البيت من امبارح، ولهلأ ما رجع. وأخوكي منذر أخذني عندوا، ما بدُه إياني أظل لحالي»، عندما سمعت كلامها سقط قلبي، وشعرت بالرعب. أبي لم يفعل ذلك طوال عمره، كان من أكثر الناس التزامًا في المنزل، وأطول فترةٍ قضاها خارج المنزل كانت يوم ذهب إلى الحجِّ وأمِّي، ورغم أنَّه انتظر رحلة الحجِّ طويلًا من أجل عبادةٍ قريبةٍ جدًّا من الله، إلَّا أنَّه شعر نفسه مخنوقًا بعيدًا عن بيته، الذي شعر بسعادةٍ غامرةٍ عندما عاد إليه. عندما أغلقت الهاتف مع أمِّي. اتصلت مباشرةً مع أخي منذر، لأفهم الوضع. قلت: «فهِّمني. شو صاير مع أبوي؟ ووينُه؟»، قال: «والله يا خيتا، أنا مثلك، مش فاهم شي. أبوكي من امبارح طلع من البيت. اتصلت إمِّك، ورحنا أنا وخالك يوسف. وما خلِّينا محل بدوما وما دورنا، وما خلينا حدا وما سألناه. ما إلُه أثر»، قلت: «شو يعني؟» قال: «خيتا، ما بعرف. ما بعرف شو بدي أعمل؟ ولا وين أدور؟ ولا

مين أسأل؟»، وكانت غصَّة البكاء واضحةً في صوته، أمَّا أنا فلم أستطع إمساك نفسي، فبكيت وأنا أقول: «يا الله خلص، تعبت، تعبت... تعبت... تعبت»، سمعت صوته على الطرف الثاني يبكي.

كنت أتصل مرَّةً واحدةً في النهار للاطمئنان على أهلي، وبعد اختفاء أبي، صرت أتصل مرَّتين، مرَّةً مع أمِّي أطمئن عليها، وبدل ذلك هي تحاول طمأنتني بالقول: «لا تخافي حبيبتي، وين بدُه يروح أبوكي، رح يرجع، لا تخافي. أنا بعرف إنُه رح يرجع»، كنت أخاف من ثقتها بعودته. رغم هذه الثقة، إلَّا أنَّ أبي لم يظهر في الأيَّام التالية. بحثوا عنه في كلِّ مكانٍ، في المشافي، في المعتقلات، في فروع الأمن، لم يظهر له أيُّ أثرٍ.

مع اختفاء أبي، شعرت أنَّ سقفًا يحميني تحطَّم فجأةً وبتُّ في العراء. لم أعد قادرةً على تحمُّل المزيد من الخسارات، والخسارات الكبيرة لا تتوقَّف عن لطمي المرَّة بعد الأخرى. كان اختفاؤه صعبًا، لا أعرف، هل هو حيٌّ أو ميتٌ؟! وإذا كان حيًّا، أيُّ حياةٍ يعيش، وفي أيِّ ظروفٍ، هل فقد الذاكرة؟ هل اعتُقِلَ؟ هل جُنَّ ولم يعرف أين يذهب؟ هل مات؟ وإذا مات، هل وُجِدَ من دفن جثَّته، أم بقيت في العراء؟ هل اتكأ على جدارٍ في زاويةٍ مخفيَّةٍ، ومات هناك، ولم يعثر أحدٌ عليه؟ يخطر لي ألف سؤالٍ أبشع من بعضها البعض حول مصير أبي. مع اختفاء أبي، عرفت أنَّ المفقود حالةٌ أصعب من الموت، فالميت تعرف أنَّ حياته انتهت، أنَّه بات بين يدي ربِّه، أمَّا المفقود تأخذك أسئلة الحياة والموت إلى كلِّ التصوُّرات المرعبة، وترجع خالي الوفاض سوى من القلق الذي يأكلك.

منذ اختفى أبي، كلَّما صلَّيت أدعو ربِّي أن يعيده لنا سالمًا، لعلَّ خبرًا مفرحًا يأتي بعد سنواتٍ من الأخبار السيِّئة التي حطَّمتنا.

الفصل الرابع:
عيون جميلة مليئة بالعتمة
(فراس بن سعد بن أحمد خليل)

«اترك الضو، فراس نازل على الدرج»... «اتركي الضو، أخوكي بيأكل»، ... «اشعلي الضو، فراس قاعد بالعتمة»، ... كثيرًا ما سمعت أبي وأمِّي وأخوتي يقولون لبعضهم مثل هكذا تعابير. كانوا ينسون أنَّني أعمى، ولا يشكِّل الضوء فارقًا بالنسبة لي، سواءً أُشعِلَ أم أُطفِئ، فأنا في كلِّ الحالات، أبقى غارقًا في عتمتي. أقول هذا لأدلِّل على أنَّ أهلي الذين أعيش بينهم، ويعرفون عاهتي جيِّدًا، ووقفوا معي وساعدوني طوال الوقت، لم يكونوا قادرين على فهم عالمي، بقيَ عالم المبصرين هو العالم الذي يعبِّرون عنه حتَّى بالتعامل معي أنا ابنهم الأعمى. عالمي غريبٌ مهما حاولت شرحه لهم، وغرابته تأتي من أنَّ أدواتي لمعرفة هذا العالم مختلفةٌ عن أدواتهم، لذلك تبدو لغة التواصل بيننا مقطوعةً في كثيرٍ من الحالات. أريد أن أكون أنا، أن أعبِّر عن عالمي بأدواتي، أن أكون أنا كما أعرف نفسي. أريد الحديث عن نفسي، عن حالات الضيق التي عشتها وأعيشها، عن حالات الفرح والحزن والبكاء والشوق والمحبَّة والكراهيَّة التي تعتمل داخلي. أريد أن أدوِّن صراخي وبكائي وضحكي. أريد أن أصرخ ضدَّ الظلم والحرب.

لم أولد أعمى، لكنِّي لا أذكر شكل الأشياء، أذكر الألوان كطيفٍ يأتي من بعيدٍ ومن أشياء غريبةٍ، طيفٍ غريبٍ يأتي من داخلي لا من الخارج، لا أعرف هل هذا الشكل للألوان الذي أتخيَّله يأتي من ذاكرة طفولتي عندما كنت أبصر، أم هو ترجمةٌ متخيَّلةٌ للكلمات التي تعلَّمتها بعد ذلك والتي تصف الألوان؟

لا أذكر متى أصبت بالعمى، ولا أذكر أنِّي كنت أبصر. يقول أهلي إنَّ عيوني انطفأت تمامًا وأنا في سنِّ الرابعة. لم تنطفئ دفعةً واحدةً، تراجع نظري رويدًا رويدًا منذ طفولتي الأولى، حتَّى غرقت في الظلام. ويقولون كنت أتحرَّك في البيت بعيونٍ مفتوحةٍ وألتقط الأشياء، وأرميها في الأماكن التي يريدون، أمشي وأتنقَّل في البيت بكلِّ ثباتٍ ولا أصطدم بالجدران. كنت طفلًا «كامل المواصفات» كما تقول أمِّي.

يقول البعض إنَّه يذكر نفسه عندما كان في سنِّ الرابعة وحتَّى قبل ذلك، ويذكر أحداثًا وقعت في ذلك الوقت. أنا متأكِّدٌ أنَّه من غير الصحيح أنَّ المرء يمكنه تذكُّر أحداثٍ وقعت عندما كان في مثل هكذا سنٍّ، لأنِّي شخصيًّا لا أذكر ما كنت عليه عندما كانت عيناي تبصر وأنا طفلٌ صغيرٌ. تقول أمِّي: «كنت بتشوف مثل كل الأولاد، ولما تعلَّمت المشي، كنت بتزيح عن الأشياء اللي بطريقك، مثل أي واحد فينا، صحيح كنت بتوقع، بس بتوقع مثل كل الأولاد اللي بتعلموا المشي»، طبعًا أنا ما بتذكر لما تعلمت المشي إلَّا من كلام أمِّي، الذي تحوَّل إلى ذاكرةٍ صنعتها لذاتي مع الوقت. فصرت أتذكَّر نفسي منذ اليوم الأوَّل لولادتي، أذكر هذا من رواية الآخرين، أمِّي، أبي، جدَّتي، خالاتي، أخواتي، أخي. لكنَّ الذكرى الأولى التي أتذكَّرها دون أن يكون أحدٌ رواها لي. هي تعثُّري على الدرج، والتسبُّب بإيذاء نفسي بجرحٍ قويٍّ، ترك ندبةً على جبهتي، أحبُّ أن أتحسَّسها بين الحين والآخر، بوصفها بداية ذاكرتي الخاصَّة، التي لا أستعير معلوماتها من أحدٍ آخر، كنت في الخامسة من عمري عندما وقعت الحادثة.

أذكر ذلك اليوم جيِّدًا، كنت قد فقدت نظري ودخلت في الظلام، تعرَّفت على العالم الذي حولي بخبراتي الحسيَّة، باللمس والسمع. بعد فقدان نظري تمامًا، قرَّر أهلي إبقاء كلِّ الأشياء ثابتةً في أماكنها، وعدم تحريكها وتغيير هذه الأماكن، وهو ما ساعدني على الحركة بسهولةٍ في البيت. حفظت أماكن كلِّ الأشياء في المنزل، موقع المفروشات، وموقع الجدران، وموقع الأبواب، وبتُّ أتحرَّك بسهولةٍ مقدِّرًا أماكن الموانع على نحوٍ صحيح. طبعًا تعثَّرت المرَّة بعد الأخرى، حتَّى ألفت الحركة في المكان، لدرجة لم أعد أحتاج مساعدةً داخل المنزل عندما أريد التحرُّك، أو إيجاد الأشياء الموضوعة في أماكنها الصحيحة التي أعرفها. رغم محاولات إخوتي تسليتي طوال الوقت، إلَّا أنَّهم في كثيرٍ من الأحيان كانوا ينشغلون عنِّي، فأشعر بالملل من عتمتي التي لا تنتهي. حتَّى أنتهي من هذا الضجر الذي يصيبني، طلبت من أهلي أن يحضروا لي قطَّةً، فهي لن تنشغل عنِّي، وهي كائنٌ مسلٍّ، يحبُّ البيت ولا تخرج منه إلَّا نادرًا. لم يرفض أهلي طلبي، وبعد أيَّامٍ جلب أبي قطَّةً بيضاء ومرقَّطةً بالرماديِّ وفق وصفهم، عمرها حوالي الشهر، حجمها صغيرٌ. سعدت بالقطَّة، وأصبحنا على علاقةٍ وثيقةٍ مع بعضنا، لأنَّنا أكثر كائنين يقضيان وقتًا بين جدران المنزل. كنت أشرف على إطعامها بمساعدة إخوتي طبعًا، وتعوَّدت على قضاء حاجتها في البرندة، حيث وضع أهلي لها القليل من الرمل في علبةٍ من الكرتون، يبدِّلون الرمل فيها بين حينٍ وآخر للتخلُّص من فضلاتها. عندما أسمع مواءها من تلك الجهة، أعرف أنَّها تريد قضاء حاجتها، أفتح لها باب البرندة إذا كان مغلقًا، تقضي حاجتها، وأعود لإغلاقه عندما تعود للداخل. كبرت بسرعةٍ دون أن أنتبه، لأنِّي كنت أقيسها بيدي وأقدِّر وزنها كلَّ يومٍ، إخوتي الذين يبصرون، قالوا لقد كبرت القطَّة كثيرًا خلال الشهرين المنصرمين. كان تركض في كلِّ أرجاء البيت، وفي كثيرٍ من الأحيان تختبئ منِّي، أبحث عنها، حتَّى أجدها، سواءً بسماع خرير صدرها، أو عندما تدعس على شيءٍ يصدر صوتًا، فأعرف

في أيِّ جهةٍ هي، فأركض باتجاهها. اصطدمنا مرَّاتٍ عدَّةً، وعندما تكون بين قدمي، أتعثَّر بها وأقع. كانت سقطاتٍ خفيفةً.

في تلك المرَّة، كنت أركض وراءها في البيت، شعرت أنَّها بالقرب من الباب الخارجيِّ للمنزل، ركضت بكلِّ قوَّةٍ، وعندما شعرت بها بين قدمي، لم أستطع تمالك نفسي، كنت مندفعًا بسرعةٍ، ولم أعرف أنَّ باب المنزل الخارجيِّ مفتوحٌ، تعثَّرت، واندفاعي راكضًا أخذني خارج البيت ليصطدم رأسي بحافَّة جدار الدرج المنخفض، لتنشقَّ جبهتي، وأتابع سقوطي على جزء الدرج المقابل لباب البيت، لأستقرَّ عند انعطافة الدرج. عندما اصطدم رأسي بجدار الدرج صرخت، وشعرت نفسي أتدحرج على الدرج، أصبت بالرعب، لا أعرف ما الذي يحدث، وعندما وصلت إلى نهاية الدرج، كان قد أغمي عليَّ.

هذه الذكرى، كانت بداية ذكرياتي الحزينة والسعيدة، فلم يكفِ أنِّي سقطت وحصلت على ندبةٍ في جبهتي، احتاجت إلى ستة قطبٍ في المستوصف القريب من المنزل، بل خسرت أجمل ما كان لديَّ في ذلك الوقت، خسرت قطَّتي. عدَّ أهلي أنَّ ما حصل كان بسبب القطَّة، وهذا يمكن أن يتكرَّر، ما يشكِّل خطرًا عليَّ. لا تدرك القطَّة أنِّي لا أرى، فهي تعاملت معي مثل الآخرين الذين يبصرون، في الوقت الذي يراها الآخرون عندما تتقافز هنا وهناك، ويتجنَّبونها، أمَّا أنا فلا أراها، ما يجعلني أتعثَّر به، حدث ذلك مرَّاتٍ عدَّةً، دون أن يكون هناك خطورةٌ عليَّ. أمَّا بعد ما حصل والإصابة الصعبة التي أصبت بها والسقوط المدوِّي على الدرج، لا سيَّما أنَّ أهلي في البداية اعتقدوا أنِّي تحطَّمت بسبب ذلك التدحرج والسقوط. وعندما عرفوا أنَّ الإصابة مقتصرةً على جرح جبهتي وبعض الرضوض، حمدوا ربَّهم على أنَّ الإصابات وقفت عند هذا الحدِّ، ولم تتسبَّب لي بعاهةٍ أخرى غير العمى. فكان على القطَّة الرحيل من المنزل، وأن أدخل أنا في حزنٍ شديدٍ عليها.

كنت أبصر، وفقدت بصري، لذلك كان عليَّ أن أعيد التعرُّف على عالمي من جديدٍ. تقول أمِّي كنت أتفرَّج على التلفزيون كثيرًا، وكلَّما خفَّ نظري أكثر، أقترب منه أكثر، وعندما انعدمت الرؤية عندي، صرت أميل بأذني لأسمع ما يقوله التلفزيون، ولا أنظر إليه بعيني. لا أعرف متى تعرَّفت على صوت التلفزيون، قد يكون ذلك عندما كنت أرى، لم يشرح أحدٌ لي أنَّ هذا الصوت الذي أسمعه يأتي من الصندوق الخشبيِّ، الذي واجهته محدَّبةٌ وناعمةٌ من زجاجٍ، وخلفيَّته عريضةٌ وتتضاءل كمخروطٍ، وموصولٍ بالكهرباء، نستطيع أن نرى أناسًا صغارًا يتحرَّكون داخله. لا أذكر أنِّي تفقدت التلفزيون بيدي حتَّى أعرف كلَّ هذا، يمكن أن أكون احتفظت بهذه المعلومات، منذ كنت أبصر، لأنَّ خبرتي مع البصر قصيرةٌ، فلا أدرك تمامًا ما الذي علَّمني إيَّاه، وما الذي تعلَّمته بعد أن فقدته، لم أشعر أنَّ بصري ساعدني في أن أتعرَّف الأشياء، لأنِّي فقدته قبل أن أعيها. لم يكن التلفزيون مسلِّيًا بالنسبة لي، فهو يعتمد على الصورة، طوال الوقت تتغيَّر برامجه، وبذلك تتغيَّر الأصوات والمعاني التي يتحدَّث عنها الصوت الجديد، ما بين أصوات مسلسلاتٍ، لا أفهم سياقها لأنِّي لا أرى كيف يتحرَّكون على الشاشة، فيسقط الكثير منِّي ما يجعلها غير مفهومةٍ، ويجعل التلفزيون تعذيبًا. أمَّا الإذاعة فهي شيءٌ آخر، ليس هناك ما يُرى في الراديو، لذلك كان على المذيع، أو المسلسل الإذاعيِّ أن يقول ويشرح كلَّ شيءٍ بالصوت، فلا عرض يراه الآخرون وأنا لا أراه. مع الإذاعة كان مثلي مثل المبصرين، أو المبصرون يصبحون عميانًا مثلي في المسلسلات الإذاعيَّة أو في الأغاني، هم يتابعون بآذانهم التي أملك مثلها، فأشعر أنِّي مثلي مثلهم.

عندما بدأ إخوتي يعلِّموني القراءة بلغة برايل للمكفوفين، لم أقبل أن أتعلَّم مواقع النقط البارزة التي تتشكَّل منها حروف هذه اللغة، وهي عبارةٌ عن ستة نقط على عمودين، تبدأ بالنقطة الأولى أعلى العمود اليساري، وهو يعني الحرف ألف، والنقطتين في الموقعين واحد واثنين تعني

حرف الباء، وصولًا إلى حرف الياء، وهو نقاطٌ تأتي في الموقعين اثنين وأربعة، وعلى عكسه التاء المربوطة، التي تأتي في الموقعين واحد وستة، وحرف الظاء هو الأكمل لأنَّه يحتاج النقاط الست جميعها على العمودين. طلبت مع تعلُّمي هذه اللغة، أن يعلِّموني أشكال الحروف العربيَّة، أي أن يرسموا شكل الحروف بيدي في الهواء، حفظت شكل كلِّ حرفٍ من حروف اللغة بحركات يدي، فأصبح عندي حرفين، حرفٌ بالنقاط أتحسَّسه بيدي، وحرفٌ تعلَّمت يدي أن ترسمه في الهواء، وبعد ذلك صرت أرسمه في خيالي وأنا أقرأ بلغة برايل. وأوصل أحرف الكلمات في سماء خيالي المظلمة، حركات هذه الحروف وتشكيلاتها، حروفٌ، وكلماتٌ، وجملٌ، ونصوصٌ. لم يتذمَّر إخوتي من طلباتي، كانوا يمسكون يدي بكلِّ حنانٍ، ويرسمون الأحرف العربيَّة في فضاء الغرفة، بعد ذلك استخدموا حروفًا عربيَّةً نافرةً حتَّى أتعرَّف على الحروف حسيًّا على نحوٍ أفضل، وفعلوا الشيء ذاته بعد ذلك مع الأحرف الإنكليزيَّة. لم ينتظروا حتَّى أذهب إلى مدرسة المكفوفين لأتعلَّم القراءة، ولأنَّهم يعرفون المدارس في البلد، قرَّروا ألَّا يتركوني أعتمد عليها، بل أخذوا على عاتقهم تعليمي. «مدارس البلد مش قادرة تعلِّم اللي بشوفوا»، كما كانت تقول أختي غدير، فكيف الحال بواحد أعمى مثلي. أخذوا على عاتقهم مسألة مستقبلي، وأنا ممنونٌ لهم ما قدَّموه لي من وقتهم الثمين. فالأعمى لا يستطيع الاعتماد على نفسه، حتَّى من غير المسموح له محاولة ذلك، لأنَّ هذه المحاولات تُحاصَر بشفقة الآخرين، إذ يمنعون الأعمى من المحاولة شفقةً عليه، ويعتقدون أنَّ هذه رحمةٌ له، مع أنَّها في كثيرٍ من الأحيان تؤذيه بدل أن تساعده، وتزيد من اعتماده على الآخرين حتَّى في قضايا يستطيع إنجازها وحده. لم أكن وحدي في التجربة التي مرَرتُ بها، أهلي كانوا معي في كلِّ وقتٍ، نجحوا معي حين نجحت، ونجحوا حين رسبت، لم يقصِّروا يومًا، درسوا معي، وتقدَّموا للامتحانات معي، وكنت

أشعر بفرحهم عند نجاحي، حتَّى قوَّة القبل كانت أكبر، سواءً أنا صغير أو أنا كبير.

حياتي وحياة كلِّ أعمًى ليست سهلةً، ويزيدها المبصرون صعوبةً، في محيطٍ لا يتركنا وحدنا عندما نحتاج ذلك، كأنَّ العمى مبرِّرٌ لتدخُّل الجميع في حياتي وانتهاك خصوصيَّتي. ولأنِّي كأعمًى أعتمد على الآخرين بما يقارب تسعين في المئة من حياتي، فلا حياة شخصيَّة لي، لا حياة شخصيَّة للعميان، تأتي الانتهاكات من كلِّ عابر سبيلٍ في الشارع الذي أسير فيه، سواءً كنت وحدي أو برفقة أحدٍ من عائلتي. أنا شاكرق لعائلتي التي حاولت قدر المستطاع حفظ خصوصيَّتي، دونهم كانت حياتي ستتحوَّل إلى جحيم، يشكِّل العمى جزءًا من هذا الجحيم، كما عرفت من تجارب عميان آخرين. عندما ذهبت إلى مدرسة العميان لأيَّامٍ معدودةٍ، عرفت أيَّ حياةٍ يعيشها الآخرون. لم أبقَ هناك سوى أربعة أيَّامٍ كانت كافيةً لمعرفة قسوة العالم خارج منزلنا. لم تكن مدرسةً، بقدر ما كانت سجنًا لبشرٍ غير مرغوبٍ بهم، بشرٌ عالةٌ على الآخرين، يأتون بهم إلى هذا المكان، لا ليتعلَّموا كما يفترض في المدرسة أن تكون، إنَّما يأتي أهلهم بهم إلى هذا المكان، حتَّى يستريحوا منهم ومن عبئهم لبعض الوقت، ويستخدمهم المعلمون وسيلة انتقامٍ لحياتهم البائسة من هؤلاء المساكين، وكأنَّنا نحن العميان سبب أوضاعهم الصعبة. في الأيَّام التي قضيتها هناك، عرفت أنِّي في الجنَّة مقابل الجحيم الذي يعيشه الآخرون، يعاقبون على عاهةٍ أصابتهم لم يكن لهم يدٌ فيها. عندما سمعت علي، الطفل الذي جلس إلى جانبي في أيَّامي المحدودة في المدرسة، لم أعرف ما أقول له لأخفِّف عنه. قال لي: «ما بدِّي روح على البيت، بخاف من إخواتي»، سألت ببراءة الطفل: «ليش بتخاف من إخواتك؟» قال: «كلهم بضربوني»، استغربت قوله، سألته: «إمَّك بتعرف؟» قال: «بتعرف، بتدعي عليهم، الله يكسر إيديكم، وبتهدِّدهم. بس ما بردُّوا عليها»، شعرت بالشفقة على ولدٍ يشبهني، وأعرف ما يعاني. لم أكن مرتاحًا في المدرسة، كنت خائفًا منذ

اللحظة التي أوصلني أبي إليها. حظيت باللطف أمام أبي، بعد مغادرته لم أسمع سوى الصراخ، صراخٌ على الجميع، وصراخٌ على أسماء بعينها، أسمع صوت صفعاتٍ على الوجه، في البداية استغربت هذه الأصوات، التي تترافق مع بكاء أطفال في الصف. عندما سألت علي: «شو هذا الصوت؟»، قال: «ضرب كفوف»، قلت: «الولاد بالصف بضربوا بعض»، سمعت ضحكة علي المكتومة، وقال بسخرية: «هما ما بشوفوا ليضربوا بعض؟»، قلت: «شو بصير؟»، قال: «المعلمة بتضرب الولاد»، قلت: «شو عرَّفك؟»، قال: «أنا انضربت مثلي مثلهم»، لم أصدِّق ما قاله، عدَدتُه خيال طفلٍ أعمى، يخلق عالمًا لا وجود له، سوى في ظلمته التي يحاول تلوينها بقصصٍ مأساويَّةٍ بدل الألوان. في اليوم الرابع، عرفت أنَّ رواية علي ليست خيالًا، إنَّما حقيقةٌ، عندما أسقطت كتابي مرَّتين على الأرض، ونزلت أتحسَّس الأرض بحثًا عنه. ظنَّت المعلِّمة، أنَّني أتصنَّع إسقاط كتابي بقصد إزعاجها. جاءت الصفعة كالصاعقة، شيءٌ لم أعرفه في حياتي، يدٌ كبيرةٌ تلطم خدي، فأفقد توازني وأهوي على الأرض، وأنا أسمع المعلمة تقول: «دير بالك على أغراضك يا حمار»، لم أفهم ما يجري، إلَّا بعد حين. أصبت بالصدمة، وشعرت بالرعب، الرعب من أن تتكرَّر صفعةٌ لا مجال لتوقُّعها لأنِّي لا أعرف تعابير وجه المعلِّمة ولا أرى ما تقوم به، بذلك لا مجال لتفاديها. أصبح وجهي مستباحًا، بكيت بحرقةٍ، فجاء أمر المعلِّمة «اخرس» فخرست خوفًا، وبكيت بكاءً مكتومًا.

قبل هذه الصفعة المدوِّية، لم تلمس يدٌ وجهي، سوى أيدٍ حنونةٍ، تربِّت أو تقرص وجهي تضامنًا أو تحبُّبًا، كانت المرَّة الأولى في حياتي التي أتعرَّض لصفعةٍ، وصفعةٍ عنيفةٍ. لم أستطع الصمت بعد عودتي إلى المنزل، انتصرت على خوفي، وأخبرت أختي غدير بما حدث. انفعلت، وغضبت وشتمت المدرسة والتعليم والدولة، وقالت لي: «ولا يهمك حبيبي، والله لألعنلك أبو أبوها بكرة»، سمعت غدير تتحدَّث مع أمِّي مع حرصها ألَّا

أسمع جوهر الحديث، كما تحدَّثت مع إخوتي، ولم أسمع فحوى الحديث أيضًا. عندما جاء أبي، كانت غدير بانتظاره. وبعد أن استراح وتناولنا طعامنا. قالت غدير لأبي: «بدي أحكي معك بموضوع»، عندما دخلا الغرفة، وأغلقا الباب، أدارا الحديث وهما يعتقدان أنِّي لا أسمع حديثهما. قالت غدير لأبي: «بابا، هاي المدرِّسة، رح تحطِّم فراس، من بكرة ما عاد يروح على المدرسة. وما بدنا نبعثُه على مدرسة تعلمُه الخوف أكثر ما هو بخاف. حكيت أنا وأخواتي وأمِّي، إحنا رح نهتم فيه، ونعلمُه، وما بدنا هاي المدرسة، اللي مستخسرين يدهنوا حيطانها، لأنهم عميان حاطينهم بمكان ما بصلح حتَّى زريبة للحيوانات»، قال أبي: «شو القصَّة؟»، قالت غدير: «كل القصة، أنُه المعلمة، ضربت فراس بالكف على وجهُه، وهو ما مصدَّق لهلأ، شو صار»، قال أبي: «العمى، إحنا باعثين الولد يتعلَّم ولا ينضرب؟!»، قالت غدير: «بابا، إنت عارف من زمان بهاي البلد وبمدارس المفتحين ما في تعليم، لتلاقيه بمدارس العميان»، أصيب أبي بالصدمة جرَّاء ما سمع، كان يعرف أنَّ المدرسة سيِّئةٌ قبل أن يرسلني إليها، كان دافعه الأساسيُّ أن أخرج من البيت، وأن أعيش بين الآخرين، حتَّى لو كانوا عميانًا، أراد أن أخرج من وحدتي، وأتعرَّف على الخارج أكثر، وأتعرَّف على أصدقاء من خلال هذه المدرسة. ما قالته غدير جعله يعجز عن الردِّ، قال: «خلص إنتي بتعرفي، أنا بعثت فراس لهناك، منشان يستفيد وما يضل لحالُه، مو عشان يتحطَّم فوق اللي بعاني منُه. حبيبتي اعملوا اللي بدكم إيَّاه. إنت بتعرفي أنا ما بدِّي غير مصلحة فراس».

في اليوم التالي، اصطحبتني غدير إلى المدرسة، قالت: «هاي آخر مشوار على المدرسة، وهذا أهم مشوار، ولازم تروح معي. وبعد هيك ما في مدرسة، رح ندرس سوا بالبيت»، لم أفهم، لماذا عليَّ أن أذهب إلى المدرسة، طالما أنِّي سأتركها وسأدرس في البيت، إلَّا عندما أصبحنا في المدرسة. هناك، سألت غدير عن المعلِّمة التي صفعتني في اليوم السابق، وعندما وجدتها،

هاجمتها مباشرةً ولم تترك لها فرصةً للردِّ، وقالت: «أنت وحدة حقيرة، لو فيك ذرة إنسانية، ما كنت بتمدِّي إيدك على فراس، أو غيرُه من الطلاب المساكين. ولك أنت شو جنسك، معقول في حدا بضرب ولاد من هذا الشكل؟!»، قالت المعلمة بصوتٍ خائفٍ: «أنا ما ضربت حدا، هذا كلام كذب»، قالت: «كمان كذابة، فراس أصدق منك ومن كل عيلتك. على كل حال، أنا جاي أقلك، إنُه إحنا تاركينلك الإسطبل، وهو أنسب مكان لأمثالك. بس يا حسرة على الولاد المساكين»، عندما بدأ الشجار بين غدير والمعلِّمة شعرت بالخوف، واستغربت كيف تحوَّلت المعلمة التي كانت بالأمس تصرخ وتصفعنا إلى كائنٍ وديعٍ خائفٍ. لعلَّها اعتقدت أنَّ وراء هذه الفتاة التي جاءت لتتشاجر معها شخصًا مهمًّا، فخرست. لكن بعد الخوف الأوَّلي، شعرت بالراحة، لأنَّ غدير لم تترك حقِّي يضيع مع هذه المعلِّمة الظالمة، وشعرت بالأمان لأنَّ عندي عائلةً تحميني كلَّ الوقت. شعرت بالانتصار وأنا أمشي إلى جانب غدير التي تمسك يدي ونحن نغادر المدرسة عائدين إلى البيت. انتصرت على المعلِّمة بفضل شجاعة وجرأة أختي غدير. الأيَّام القليلة في المدرسة، كانت فرصةً للتعرُّف على عالم الآخرين الذين تشبه ظروفهم ظروفي ويعانون من عاهتي نفسها، وكان يمكنني أن أحصل على مجموعة أصدقاء من خلال المدرسة، لكنَّ التجربة لم تكتمل، ولم أختبر إذا كانت هذه الإمكانيَّة حقيقيَّةً أم مجرَّد وهمٍ في رأسي؟ وأظنُّ أنَّ أهلي كانوا على حقٍّ، فضرر هذه المدرسة أكبر من الفائدة منها في ظلِّ الأوضاع التي يعاني منها من يرتادونها. لذلك اقتصرت علاقاتي على عائلتي وأقرب الأقارب. صحيحٌ أنِّي خسرت تجربة الخروج إلى العالم الخارجي، لكنِّي لم أشعر أنَّها خسارةٌ كبيرةٌ، لأنَّ عودتي إلى البيت كانت ضروريَّةً لحمايتي من الخارج، الذي ظنَّ أهلي لوهلةٍ أنَّه مناسبٌ لي، وتبيَّن أنَّه معادٍ، والخارج العدوانيُّ لا يلزمني، فأصبحت أسير المنزل، لا أذهب إلى الخارج إلَّا في حالاتٍ معدودةٍ،

مثل الذهاب إلى الطبيب، أو الذهاب إلى الامتحانات المدرسيَّة أو الجامعيَّة، وهي الامتحانات التي كنت أحضِّر موادها المطلوبة وأنا في البيت.

ناسبني خيار الدراسة في البيت، فهناك أتحرَّك براحتي في المكان الذي أحفظه عن ظهر قلب. أقضي وقتي بين قراءة إخوتي موادي الدراسيَّة أو القصص لي، وبين قراءتي كتبي الخاصَّة المملَّة بلغة المكفوفين، وبين الاستماع للتلفزيون أو الراديو أو الموسيقى والأغاني، وقضاء حاجاتي، ولعب إخوتي معي. في المساء، يأخذني منذر أو إحدى أخواتي لأمشي خارج البيت أذرع الطرقات لحوالي الساعة، نتحدَّث بأحاديث أحيانًا مملَّةٍ وجميلةٍ جدًّا أحيانًا. نمرُّ على أبي في مكتبه في ساحة دوما، نلقي عليه السلام، يحتضنني ويقبِّلني ويجلسني مكانه، يتحدَّث معي بعض الوقت. وعندما لا يكون أبي في المكتب، يكون أخي منذر، الذي دائمًا ما يشتري لي شيئًا ما من البقَّاليَّة المجاورة للمكتب حتَّى عندما كبرت، كنت آخذها وأضحك، وأحتفظ بها حتَّى يزورنا مع أولاده، فأمنحهم ما اشتراه لي والدهم. لم يقتصر اهتمامي على الدراسة، أعجبتني الروايات أكثر من كتب الدراسة، وكنت أطالب بالمزيد منها، وعندما لا يتوافر جديدٌ منها، أطلب إعادة قراءة الروايات القديمة. أعجبتني الحكايات التي تمنَّيت أن أسمعها بالطريقة التي سمعها أبي ورواها لي، كما كانت جدَّته ترويها له، حكايات نص نصيص والغوليَّة وغيرها من الحكايات المرعبة وطريقة جدَّته الأكثر إرعابًا في ليالي حيِّ الأمين الشتويَّة بلا كهرباء، مع قليلٍ من الريح في الخارج، ما يجعلهم ينامون خوفًا من بقيَّة الحكاية، كما روى أبي لي. لم تكن جدَّتي لأمِّي تحكي الحكايات، ولا أعرف إذا كانت جدَّتي لأبي تحكيها، فهي بعيدةٌ عنَّا، ولم أكن أرغب في مرافقتهم عندما يذهبون إلى المخيَّم لزيارتها. امتلكت الرغبة الشديدة للذهاب إلى هناك، لكنِّي خجلت من عاهتي، وخفت من ارتكاب الأخطاء هناك وإحراج أهلي، لذلك كنت أرفض الذهاب هناك، أو الذهاب في أيِّ زيارةٍ عائليَّة أو غير عائليَّةٍ خارج المنزل. أمَّا عندما يأتي الضيوف إلى بيتنا،

أكون أكثر راحةً وأقلَّ خوفًا، لأنِّي لا أرتكب الأخطاء في بيتنا. عندما كانت تزورنا جدَّتي لأبي، أوَّل ما تطلبه هو أن تراني. وكانت بلهجتها المحبَّبة، تسألني: «كيفك يا ستي؟» تحضنني وتقبِّلني، أشعر بنعومة خدَّيها، رغم التجاعيد التي أعرفها، والتي أتفحَّصها بيدي أكثر من مرَّة وأسألها عنها. وكانت تجيب: «العمر يا ستي. والسنان، أنا مليش سنان يا حبيبي»، لم أفهم، ماذا يعني أنَّها بلا أسنان. وعندما سألت أبي عن معنى ذلك. شرح لي أنَّ جدَّتي، قلعت كلَّ أسنانها، ولم تستطع أن تضع طقم أسنانٍ بديلٍ في فمها، فاستغنت عنه، وأخذت تأكل على فكِّها من دون أسنانٍ، الذي تصلَّب مع الوقت، وبقيت بلا أسنانٍ صناعيَّةٍ، وهذا ما زاد من تهدُّل وجهها مع التقدُّم بالعمر.

يحمل صوت جدَّتي رنَّةً غنائيَّةً، لم أسمعها في أصوات غيرها من الذين سمعت أصواتهم، أحببت صوتها، ففيه الكثير من الدفء، كنت أسمعها ولا أعي ما تقول، رغم ذلك، كانت رنَّة صوتها وطريقة حديثها تجعلني مشدودًا لسماع صوتها. ولا أعرف لماذا يذكِّرني بترتيل القرآن، الذي طالما شدَّني الاستماع إليه، رغم أنِّي لم أكن أفهم معاني الآيات، فقد كان لصوت المقرئ وقعًا قويًّا عليَّ، وكأنَّ صوت الله يتجلَّى ترتيلًا في الأصوات الجميلة. كنت أصاب بالإحباط الشديد إذا كانت جودة قراءة القرآن منخفضةً، بأصواتٍ لا تملك الجمال، وكنت على قناعةٍ -وأنا طفلٌ- أنَّ القرآن إمَّا أن يُقرَأَ بصوتٍ جميل وإمَّا أن يُترَكَ بحاله. من له صوتٌ قبيحٌ ويريد قراءة القرآن، فليقرأه قراءةً صامتةً، أو ليقرأه في غرفةٍ يغلقها على نفسه وليسمع صوته وحده، فقارئ كلام الله يجب أن يسمو مع كلمات الله حتَّى أقصى درجات التجلِّي المقدَّس لكلام القرآن العميق والموسيقيِّ.

ارتبط القرآن عندي بالموسيقا، فليس هناك موسيقا أرفع من الموسيقا في سورة الرحمن، وقد لجأت في كثيرٍ من الأوقات إلى سماع ترتيل سور القرآن لأشعر بالسكينة. فكان عندي تسجيلٌ على سي دي لترتيل عبد

الباسط عبد الصمد لكامل القرآن بصوته الساحر الذي منحني السكينة في كثيرٍ من الأوقات. وكانت هذه النسخة إلى جانب الكثير من الأقراص الموسيقيَّة لمطربين ومطرباتٍ ومقطوعاتٍ موسيقيَّةٍ مرتَّبةٍ ومرقَّمةٍ، وعليها عناوينها بأحرفٍ وأرقامٍ نافرةٍ، حتَّى أستطيع استخدامها دون مساعدةٍ من أحد. فالموسيقا هي الأداة التي استخدمتها لسدِّ الفراغ عندما أغرق في التفكير. فعندما يستغرق المبصر في التفكير، يسدِّد نظره إلى أشياء دون أن يراها، فيعرف الآخرون أنَّه لا يرى ما ينظر إليه لأنَّه غارقٌ في التفكير وهو ما تدلُّ عليه عيونه التائهة. هذا ما عرفته من كتبٍ عدَّةٍ قُرأت لي. أمَّا الأعمى يفكِّر وهو مغمض العينين، يقوم بذلك لأنَّه لا يملك نظرًا يسدِّده إلى مكانٍ محدَّد. كثيرًا ما كنت أغمض عينيَّ عندما تشغلني قضيَّةٌ أو أفكِّر فيها على نحوٍ عميقٍ، كان أهلي يعدُّونني نائمًا، فيغطُّونني في الأيَّام الباردة حتَّى لا أصاب بالمرض. بعد أن أهدى لي أبي قارئ أقراص محمول ورتَّبت أقراصه الموسيقيَّة بمساعدة أخوتي. أصبحت أضع سمَّاعات قارئ الأقراص وأستمع إلى الموسيقا أغلب الأوقات، عندما أستمع إلى الموسيقا في الحالة العاديَّة أضع سمَّاعةً واحدةً، وأُبقي الثانية بلا سمَّاعةٍ، حتَّى أبقى على صلةٍ بالعالم الخارجيِّ من خلال الأذن الثانية. أمَّا عندما أستغرق في التفكير، أضع السماعة الثانية وأخرج من العالم، وأشعر نفسي أسبح في الفراغ، والموسيقا وحدها تكون صلتي مع العالم الحقيقيِّ.

ليست الكتب الدراسيَّة هي الكتب الأهم التي قرأتها، أو بالأصح التي قرأها لي إخوتي، وكوَّنت وجهة نظري في الحياة. صحيح أنِّي أنجزت واجباتي الدراسيَّة المقرَّرة ونجحت فيها، وجزءٌ كبيرق من المعلومات القانونيَّة التي درستها ما زال عالقًا في ذاكرتي، لكنِّي عدَدتُها كتبًا للتمرين على قراءة الكتب الحقيقيَّة. فكتب التعليم، سواءٌ أكانت التعليم الأساسيَّ وصولًا إلى الثانويِّ أو التعليم الجامعيِّ، تفتقد إلى الروح. الكتب لها روحٌ، الكتب المدرسيَّة والجامعيَّة منزوعة الروح، كتبٌ تعوم على سطح الحياة وعلى

سطح الذاكرة، كتبٌ بلا عمقٍ، وتحاول الإجابة على أتفه الأسئلة. أمّا الكتب التي تملك روحًا، هي الكتب العميقة، التي تهزُّنا عندما نقرأها، ونشعر أنَّها كائنٌ حيٌّ يؤثِّر بنا، وأحيانًا يغيّر حياتنا. الكتب الحقيقية هي التي نصبح بعدها غير ما كنَّا قبل قراءتها، حتَّى لو أنَّنا لم نشعر بهذا التغيير، لأنَّنا بعد قراءة عددٍ من الكتب نصبح بشرًا آخرين، لا نشبه أنفسنا قبلها، ولا تبقى نظرتنا إلى الحياة نفسها. تعلَّمت الحياة من الكتب، فهي كلُّ حياتي، شحنت خيالي، جعلتني أخلق عالمي الذي كوَّنته بنفسي، وهو عالمٌ لا يشبه العالم في الواقع، الذي يعاني من نقصٍ حادٍّ في العدالة، أمَّا عالمي المتخيَّل فهو عالمٌ مثاليٌّ، العنوان الأوَّل فيه هو العدالة، والعدالة المطلقة، عالمٌ بلا عميان، ولا معوَّقين، ولا مجرمين، ولا أناس حاقدين، عالمٌ من الطيِّبين فقط.

عندما سمعت وأنا طفل مسلسل «حكم العدالة» الإذاعي، الذي كان يُكتَب من ملفَّات القضاء، أي من مشكلاتٍ حصلت في الواقع، شدَّني المسلسل وتعلَّقت به، كما تعلَّق الكثير من الناس به، في كلِّ يوم ثلاثاء في وقت بثِّ المسلسل الإذاعيِّ، لا تمرُّ في شارع أو بمحاذاة بنايةٍ إلَّا وتسمع جهاز راديو هنا أو هناك وضع مؤشِّره على الإذاعة المحليَّة لسماع المسلسل وبصوتٍ مرتفعٍ. لقد سحرني المسلسل منذ طفولتي، لأنَّه ببساطةٍ لا يحتاج بصرًا مثل المسلسلات التلفزيونيَّة التي كانت تزعجني عند الاستماع إليها، حتَّى عندما يملأ لي إخوتي الفراغات بشرح المشاهد وتحويلها إلى كلامٍ. لم أكن أحتاج مع حكم العدالة إلى أيِّ شرحٍ، شعرت أنَّه مسلسلٌ إذاعيٌّ مصمَّمٌ للعميان أساسًا، فهو يحتاج إلى أذنين فقط ولا لزوم للبصر للاستمتاع به، فقد كان المسلسل يجعلني أرى. أسرتني حبكته، هيبة القاضي، المساعد جميل منتزع الاعترافات من المجرمين الذين يعذِّبهم، المحامون الملاعين القادرون على إثبات براءة موكِّليهم، قضاة التحقيق الأذكياء الذين يديرون عملهم واستجواباتهم للجناة بكفاءةٍ يدفعون بها المجرم للاعتراف بجرائمه، فيخرُّ صريعًا أمام قوَّة منطقهم، ويعترف، فيثبتون للمحكمة أنَّه المجرم. من

هذا المسلسل الإذاعيِّ، وُلِدَت عندي الرغبة بأن أصبح محاميًا، لأوقع بالمجرمين. شعرت أنَّ المحامي، أهمُّ بطلٍ من أبطال المسلسل، كلُّهم يؤدُّون أدوارهم بما فيهم القاضي بفعل وظائفهم، إلَّا هو يؤدِّيه بفعل ذكائه وكفاءته، لذلك يختار الدعاوى الصعبة حتَّى يثبت إمكانيَّاته وموهبته كمحامٍ، يهابه حتَّى قضاة المحاكم. مع الوقت لم يعد هذا السبب الذي دفعني لأدرس المحاماة. ما دفعني لأدرس الحقوق، هو الظلم التي يسود العالم، مع الكمِّ الهائل من الحديث الكاذب عن الضمانات الحقوقيَّة للبشر المتساوين أمام القانون. لكنَّ هذا الكلام الفارغ لم يكن حقيقةً واقعةً، فالبشر ليسوا سواسيةً أمام القانون، هناك من يُطوِّعون القانون لمصلحتهم، وهناك من يقلبون الحقائق رأسًا على عقبٍ لتحقيق مصالحهم، ومن خلال إفساد ورشوة مؤسَّسات القانون نفسها. وبذلك ليس من الصعب الوصول إلى قناعةٍ، أنَّ آخر ما يحكم هذا العالم هو القانون، القانون لا يُطبَّق سوى على البؤساء، لأنَّ هناك الكثيرين في هذا العالم فوق القانون، ويحتقرونه، لأنَّه وُضِعَ ليخرقوه وينجون بفعلتهم، ويخضع المساكين له. فالقانون من صنع بشرٍ لهم مصالحهم، ويصنعون هذه القوانين وفق مصالحهم، وعندما لا ينفع المدخل القانونيُّ الرسميُّ لوصول البشر إلى حقوقهم وتحقيق العدالة، تُكسَرُ عدالة القانون بأدواته، ويصبح القانون ذاته ضدَّ العدالة.

ندمت لدراستي القانون، اعتقدت أنَّني سأبصر يومًا وأعمل محاميًا، فليس هناك أيُّ مهنةٍ أخرى مرتبطةٌ بهذا الفرع الدراسيِّ يمكنني العمل بها دون أن أكون مبصرًا. هل كان كلُّ ما قمت به من أجل مجرَّد وهمٍ أم من أجل طموحٍ حقيقيٍّ؟ بالنسبة لي كأعمى ليس هناك فرقٌ بين الطموح والوهم، ففي حالتي الوهم هو الذي يُنتج الطموح، ودون الوهم لا طموح، لأنَّ من يطمح يجب أن يملك كلَّ المقومات حتَّى يصل لتحقيق طموحه. أمَّا أنا كأعمى، أعرف مسبقًا، ليس من حقِّي أن أطمح، لأنَّ أيَّ طموحٍ عندي يصطدم بجدار العتمة الذي يفصلني عن العالم، ويجعلني غريبًا عنه، عالمٌ

لا يعترف بي. لذلك إذا تعاملت مع هذا الواقع الحقيقيّ لدرجة الفجاجة، فعليَّ ألَّا أفكِّر في أيِّ طموحٍ أو أعمل عليه، لا سيَّما الطموح للعمل في مهنٍ تحتاج مبصرين لا عميانًا. في واقع العتمة المستحيل لا يمكن البدء سوى من الوهم، وهو كفيلٌ بتوليد طموحٍ يعمل الأعمى على تحقيقه، آملًا أن يأتي يومٌ وتحدث معجزةٌ ويضع منجزه موقع التنفيذ. طبعًا، تدفع النماذج التي يذكرها التاريخ، لتحويل هذا الوهم إلى طموح، بوصول عميانٍ إلى مواقع تأثيرٍ لم يصلها المبصرون. والأمثلة كثيرةٌ، من هوميروس وجون ميلتون وهيلين كيلر إلى بورخيس وغيرهم. وهناك الكثيرين من العرب مثل شَّار بن برد وأبي العلاء المعري وطه حسين وسيِّد مكاوي والشيخ إمام وعمار الشريعي وغيرهم. دفعت هذه النماذج التي عرفتها ليتحوَّل الأمل إلى طموحٍ مستحيل التحقيق، أشعر أنِّي فعلت ما في وسعي، وأنِّي على الأقل حاولت هذا المستحيل الذي لم أصل إليه طبعًا، رغم معرفتي أنَّ هذه النماذج هي الاستثناء، وعندما أتذكَّر ذلك يصيبني اليأس.

يجعلنا اليأس نبحث عن التميُّز حتَّى في العاهة التي نحملها، ونفضِّلها لبعض الوقت بوصفها ميزةً، ولكن ميزةً بالنسبة لماذا؟ بالنسبة لعاهةٍ أخرى. أعجبني لبعض الوقت ما ورد في كتابٍ تراثيٍّ يتحدَّث عن العمى. فهو يقول: «من الناس من قال إنَّ السمع أفضل من البصر، لأنَّ الله تعالى عندما ذكرهما في القرآن قدَّم السمع على البصر، والتقديم دليل الفضيلة. لأنَّ السمع شرط النبوَّة، بخلاف البصر، لذلك لم يأت في الأنبياء من كان أصمًّا، وجاء منهم من طرأ عليه العمى. فالسمع كأنَّه سببٌ لاستكمال العقل بالمعارف والعلوم. وهو متصرِّفٌ في الجهات الستِّ، والبصر لا يتصرَّف إلَّا فيما يقابله من المرئيَّات. ولأنَّ السمع أصل النطق، لهذا لا ترى الأخرس إلَّا أصمًّا».

وأعجبت أيضًا، بمحاولات بشار بن برد الأعمى الذي كان يتصرَّف كمبصر. فعندما جاءه رجلٌ وسأله عن منزل رجلٍ يبحث عنه، حاول بشار

أن يدلَّه بالكلام، لكنَّ الرجل لم يفهم. فأخذه من يده، وقاده إلى حيث يريد، وهو يقول:

أعمًى يقود بصيرًا لا أبا لكمُ   قد ضلَّ من كانت العميان تهدِيه

فلما وصل به إلى منزل الرجل، قال له: هذا منزله يا أعمى.

ويروي ابن قيم الجوزيَّة في كتابه «أخبار النساء»، حكايةً عنه تقول: وكان بشار الأعمى يرتع، فبلغ امرأته ذلك، فعاتبته مرارًا فحلف لها. وأنَّها سألت عن المكان الذي يمضي إليه فدلَّت على امرأةٍ تجمع بين النساء والرجال، فبذلت لها شيئًا وسألتها إذا جاءها بشار أن تبعث إليها. ففعلت، وقالت: أبشار قد وقعت اليوم امرأةٌ من أجمل النساء ووصفتها له فطرب إليها، فلما خلا بها وخالطها ضربت بيدها على لحيته وشتمته، وقالت: أين أيمانك الفاجرة؟ فقال لها: لعنك الله ألَّا تركتني حتَّى أقضي حاجتي، فوالله ما رأيت أبرد منك حلالًا، ولا أطيب منك حرامًا!!

يقابل أصحاب العاهات بالاعتراف والانبهار، لأنَّهم يتمكَّنون من القيام بأشياء تقترب من البشر الطبيعيِّين، ولا يُعتَرَف بهم كبشرٍ عندما لا يقوموا بمثل هكذا أعمالٍ. فلا مكان للمعوَّقين في مجتمعنا، مكفوفين أو صُمٍّ أو بُكمٍ في الثقافة السائدة، والتي لا ترى الطبيعيَّ سوى بالمكتملين، أمَّا أصحاب العاهات فهم شيءٌ هامشيٌّ وفائضٌ عن الحاجة، وأنا واحدٌ منهم.

أعترف أنَّ الطموح غيَّر حياتي، صحيحٌ أنِّي لم أحقِّقه، لكنِّي في الطريق إليه أصبحت رجلًا آخر، رجلًا حاول أن يكون شيئًا ما في هذه الحياة التي رمته على هامشها، ولم يجعل عاهته عقبةً أمامه، وحاول التخلُّص من الإحساس بأنَّه شخصٌ فائضٌ عن الحاجة. ماذا كان يمكن أن أكون؟ دفعني هذا الطموح دائمًا إلى المزيد من المعرفة. صحيحٌ أنِّي لم أستطع وضع هذه المعارف في المكان الذي طمحت إليه، لكنَّه جعلني أفهم العالم الذي أعيش فيه على نحوٍ أفضل، وكذلك أفهم الآخرين، وأفهم نفسي أيضًا. صحيحٌ أنَّ هذه المعرفة، في بعض فترات حياتي، جعلتني أكثر حيرةً وقلقًا وعدم فهم،

وفي هذه المراحل كنت أحسد الذين لا يفقهون شيئًا، لأنَّهم لا يعانون من قلق الأسئلة التي يطرحها الوعي على العارف، بينما يستقرُّ غير العارف في يقين جهله. ما زاد الطين بلَّةً، أنَّ الأسئلة المعقَّدة عن الذات والبشر، والأسئلة التي لم أجد إجابةً لها، أو التي ليس لها إجابةٌ أصلًا، أوقعتني في حفرةٍ عميقةٍ من الشكِّ والحيرة، وجعلت عماي يزداد ظلمةً. في المحصِّلة لم تكن المعرفة سيِّئةً، حتَّى في حالتي التي كنت فيها إلى حدٍّ بعيدٍ أسير البيت، وبقيت شخصًا فائضًا عن الحاجة، رغم كلِّ محاولاتي للتفوُّق على نفسي، والبحث عن قبولٍ لي في المجتمع، كشخصٍ نافعٍ على الأقل، إن لم أكن مساوٍ للآخرين. رغم كلِّ المعرفة التي حصلت عليها، إلَّا أنَّ هذه المعرفة بقيت قاصرةً في موضوعٍ لم أكن قادرًا على شرحه للآخرين، إنَّه العمى.

لم أستطع يومًا شرح ماذا يعني أن يكون المرء أعمى، ليس بمعنى أنَّه لا يبصر الأشياء، بل بمعنى: كيف أصف عالم العميان؟ أيُّ عالمٍ يعيشون فيه؟ وكيف يمكن شرحه للمبصرين؟ فليس من الصعب وصف عالم العمى للعميان، فهم يدركونه بتجربتهم المرَّة، فهم يتحسَّسونه في حياتهم اليوميَّة، عندما تقول لأعمى لا معنى لتعاقب الأيَّام، فكلُّ الأوقات سواسيةٌ، يفهم الأعمى الغارق في العتمة ذلك دون شرحٍ. يفتقر عالم العميان إلى الثبات، إنَّه عالمٌ رجراج وهشٌّ وسريع الزوال، فهذا العالم مصنوعٌ من الأصوات التي تأتي وتذهب كلَّ الوقت. هناك وجود للعالم مع صدور الصوت، ويختفي هذا العالم باختفائه. وعندما يمتدُّ هذا العالم، يمتدُّ بصدى باهتٍ للصوت الأصليِّ. بالنسبة لي حتَّى الوجه مجرَّد مكانٍ يأتي منه الصوت، مثل القطار والسيَّارة والطائر المغرِّد. يستعصي الأمر على المبصرين الذين لا يستطيعون أن يدركوا، كيف يكون عالم العتمة، فعندما تقول لمبصرٍ لا معنى لتعاقب الأيَّام، يقول أفهم ذلك، لكنَّه لا يفهم، فهو يرى تحوُّلات اليوم أمامه، واليوم يتغيَّر بين الضوء الذي يولد في الصباح ليعلن بدء النهار، والذي يغيب لتحلَّ العتمة محلَّه معلنًا قدوم الليل. هذا ليس في حياة الأعمى، نهاره عتمةٌ

وليله عتمةٌ، حتَّى أكثر أيَّام السنة توهُّجًا، هو يشعر بحرارتها على جسده، لكنَّه لا يراها، فلا يدرك الفارق بين الليل والنهار، وهو ما لا يستطيع المبصرون إدراكه، فهم يحصلون على معارفهم في عالم الضوء، في الضوء يعرفون كلَّ شيءٍ، وفي العتمة تغيب كلُّ الأشياء التي يعرفونها، بغيابها تتجسَّد حياة الأعمى.

يجهل المبصرون عالم العميان، لذلك، يشبِّهون حالة عدم المعرفة لأحدهم أو جهله بالعمى، ويقولون «لا يعرف، مثل الأعمى»، بمعنى أنَّنا -نحن العميان- عنوانٌ للجهل بالنسبة للمبصرين، أفهم ذلك، لأنَّ كلَّ شيءٍ في عالم المبصرين مرتبطٍ بالبصر. لم أجد مثلًا لشرح الأمر أفضل من نونبز في قصَّة «مدينة العميان» لهربرت ويلز، وهي قصَّة المبصر الذي يجد نفسه في مدينةٍ لا يعيش فيها سوى العميان الذين لا يعرفون ماذا يعني البصر. يحاول نونبز أن يشرح للعميان الذين سقط وسطهم ما يرى في العالم، لا يصدِّق العميان ما يقوله نونبز عن السماء والألوان والليل والنهار، إنَّه يرى، وعليه فإنَّ عنده عضوًا فائضًا عن الحاجة، وهو ما يعدُّونه مرضًا يحتاج للعلاج، والعلاج واضحٌ جدًّا، وهو استئصال العيون الفائضة عن الحاجة التي يملكها، والتي تجعله أقلَّ ذكاءً من الآخرين في مدينة العميان. العميان الذين صنعوا عالمهم على مقاس مدركاتهم وحواسِّهم المستعملة، ليسوا قادرين على تصديق عالم المبصرين وغير قادرين على التعرُّف عليه. وكما في قصَّة ويلز الخياليَّة، فإنَّ الواقع الذي نعيشه عكسها، فالعميان لا يستطيعون شرح عالمهم للمبصرين، الذين يعدُّونه محض خيالٍ. إنَّ نقص حاسَّة البصر عند الإنسان لا تجعله مختلفًا فحسب، بل وتجعله يصنع عالمه من حواسِّه الأخرى، يصنعه من مواد مختلفةٍ، ويتعرَّف على عالمه الخاصِّ من خلالها، عالمه الذي لا يعرفه الآخرون، وهذا لا يعني أنَّ عالمه ناقصٌ، بل هو عالمٌ في غاية الكمال، أمَّا المبصرون فهم يعانون من نقصٍ في فهم هذا العالم الذي لا يكون البصر جزءًا أساسيًّا من تكوينه. لأنَّ المبصرين يقيمون

عالمهم على الضوء والصورة، وذاكرتهم تعمل على استدعاء الصور، أمَّا العميان فعالمهم بلا صورٍ مستمدَّةٍ من الواقع المرئيِّ، إنَّه عالمٌ مصنوعٌ من الخيال المحض، خيالٌ في قلب العتمة، لذلك هو عالمٌ أغنى وأوسع من عالم المبصرين. وأحيانًا أتساءل: هل كانت الأوديسة تعبيرًا عن خيال العميان الغنيِّ، وعن رغبة هوميروس الأعمى في الإبحار في الخيال الخاصِّ للعمى والضياع واكتشاف العالم وتقديمه للمبصرين كأسطورةٍ لا تقبل الموت؟ وما لم يستطع هوميروس فعله في الواقع، قام به في خياله واخترع حرب طروادة الرهيبة ورحلة أوديسيوس الأكثر رهبةً والخطرة والممتعة بالضياع لمدَّة خمسة عشر عامًا في البحر في طريق العودة إلى إيثاكا بعد غضب الآلهة عليه، ليرَ كلَّ العجائب التي تمرُّ خلال رحلات الأوديسة؟ هل وضع في الكتاب أقصى أحلامه في الحياة ومنحها لأوديسيوس المبصر؟ وهل كان لمبصرٍ القدرة على كتابة هكذا عملٍ عظيمٍ؟!

الصوت واللمس كلُّ عالمي، أرى بالصوت واللمس، أتحسَّس الأشياء بيديَّ وأستطيع معرفة شكلها وأكوِّن ذاكرتي من لمسها، وهي حاسَّةٌ تساعدني على الاستمرار في الحياة، ملمس أصابعي يصنع شكل الأشياء في ذاكرتي. الأصوات قصَّةٌ أخرى، هي التنوُّع الهائل للحياة، أصواتٌ صاخبةٌ، أصواتٌ هادئةٌ، أصواتٌ نشاز، أصواتٌ تأتي من الأعلى، أصواتٌ تأتي من الأسفل، أصواتٌ بعيدةٌ، أصواتٌ قريبةٌ، أصواتٌ حديد، أصواتٌ بلاستيك، أصوات لحمٍ حيٍّ، صوت قطار، صوتٌ غاضبٌ، صوتٌ مرحٌ، أصواتٌ متداخلةٌ تلغي بعضها البعض، إنَّه الضجيج... أرغب بإمساك كلِّ صوتٍ، ففي ظلمتي تزيد الأصوات عالمي تنوُّعًا وغنًى. لا يدرك المبصرون مدى اعتماد اللغة على الصور البصريَّة، فاللغة تأتي عندهم من الرؤية، لذلك عندما يتكلَّمون معنا نحن العميان، يكون هناك معنًى مفقودٌ في الكلام الذي يقولونه لنا، فالعالم الذي يصوِّرونه بلغتهم بوصفه عالـمًا من الصور والألوان والأبعاد، هو غير موجودٍ في عالمنا نحن العميان الذين نفتقد لرؤية الأشياء التي تعتمد عليها

اللغة الملوَّنة. إنَّ لغتنا مشتقَّةٌ من السواد، لذلك نبدو جاهلين بلغة المبصرين، التي تعتمد البصر، بينما تعتمد لغتنا على الأصوات. تلك الأصوات التي جلبت لي عوالم الكتب، وهي التي جعلتني أجول في العالم في رحلاتٍ لا تنتهي من خلال الكلمات، مستغنيًا عن البصر الضروريِّ للبشر عندما يرغبون بالذهاب في رحلاتٍ سياحيَّة. كانت الكلمات عبر أصوات أهلي رحلاتي لأصنع عالمي الخاصِّ، عالمٌ لا يشاركني فيه أحدٌ، عالمي السحريُّ الخاصُّ الذي حلَّ محلَّ أيِّ عالمٍ آخر.

لم تكن محبتي لأصوات أهلي متساويةً، رغم أنِّي ممنونٌ لهم جميعًا، لأنَّهم خصَّصوا لي الكثير من وقتهم، كنت نهمًا للكتب، لا أريد التوقُّف عن سماع القراءات ولا لحظةٍ واحدةٍ. أقلَّ الأصوات تفضيلًا، كان صوت أمِّي. أحبُّ صوتها في الحياة اليوميَّة، في الدعاء لي، في السلام عليَّ، أحبُّ حشرجة البكاء في صوتها كلَّما تحدثت معي وانتبهت لعاهتي. صحيحٌ أنِّي لا أملك عيونًا تعمل لأراها حتَّى أستطيع مواساتها، لكنَّ هذا الصوت الحنون والعطوف الذي طوَّق حياتي لم يكن قادرًا على إقناعي بأنَّه يستطيع أن يقرأ نصوصًا من كتابٍ. كان ارتباكها بالقراءة ومدَّ صوتها المبالغ فيه يجعلاني أنفر من قراءتها، فللكتب إيقاعٌ آخر غير الكلام العاديِّ الذي نتداوله.

أخي منذر، الثاني في الترتيب الذي لم أحبَّ قراءته لي. فهو يَعدُّ هذه القراءة نوعًا من التعذيب له، لكنَّ محبَّته لي جعلته يتبرَّع بالقراءة عندما لا يكون هناك من يملك الوقت ليقرأ لي، وهذا ما جعلني أقبل، فليس هناك أهمُّ من القراءة، حتَّى لو أتت مع التأتأة وتحطيم قواعد اللغة، حتَّى البسيطة منها. لطالما تهرَّب منذر من القراءة عندما يكون هناك من يقرأ لي، وعندما لا يوجد من يقرأ، لم يكن يقبل أن يتركني لعتمتي، وهو لم يتوانَ عن مساعدتي يومًا.

كان صوت كلٍّ من أختي سلام وغدير مقبولًا، وليس لي عليه اعتراضٌ، حاولتا أن يكون صوتاهما أقرب لأصوات المذيعات، صحيحٌ كان صوتًا

متصنِّعًا، لكنَّه يتموَّج مع المعاني التي تحملها الكلمات، ينجحن أحيانًا، ويفشلن أخرى.

صوت أختي رشا، يشعرني بتموُّجات الأصوات العميقة للنصوص الدينيَّة، كان قويًا، دافئًا، واثقًا من نفسه، صوتٌ يأتي من الأعماق ويدخل إلى القلب مباشرةً، كنت أحبُّ أن تقرأ لي الشعر، تموُّجات صوتها مذهلةٌ، لم أسمع أحدًا يملك الكلمات ويمسكها بقوَّةٍ عندما يلقي الشعر مثلما تملكها رشا، كنت أشعر أنَّها تقرأ كلماتها التي تخترعها في وقت قراءتها، ولا تقرأ من كتابٍ مفتوحٍ أمامها. فهي تطحن الكلمات والمعاني والصور والمجازات والاستعارات، وتعيد تصنيعها بصوتها المليء بقوَّة الشجن وسحر لمسة القلب، الشعر على لسان رشا أكثر من شعرٍ، كان يقترب من نصوص القرآن الساحرة، مثل سورة الرحمن، ودراما سورة يوسف، جعلني صوتها أشعر بالتصالح مع العالم ومع نفسي ومع عاهتي، لبعض الوقت على الأقل، شاعرًا أنَّ العالم مجموعة مجازاتٍ شعريَّةٍ بصوتٍ هائل القوَّة يحوِّل حياتي إلى جماليَّاتٍ موسيقيَّةٍ، وعندما تنتهي من القراءة، يضربني الحزن الشديد، لأنِّي سأغادر هذا العالم السحريَّ الذي ينقلني صوت رشا إليه.

كان صوت منى أحبُّ الأصوات إليَّ في قراءة الروايات، صوتها نسيجٌ وحده، إنَّه التنوُّع الأمثل للتعبير عن دراما الرواية، في صعودها وهبوطها، في تلوُّنها في وصف الفصول، في تمثيل أصوات الشخصيَّات الحزينة والسعيدة، في التعبير عن الفرح الطفوليِّ، كان صوتها حادًّا بريئًا، ووحشيًّا في التعبير عن العدوانيَّة، غاية الرقَّة في التعبير عن الحبِّ، ويصبح خشنًا مع صوت مجرمٍ في الرواية. كانت درجات الصوت صعوده وهبوطه، عمقه وسطحيَّته، اهتزازاته الحزينة والفرحة، تجعل الرواية واقعًا مجسَّدًا في أجمل تعبيرٍ، التعبير عن التنوُّع في الحياة، بساطتها وقسوتها، ظلمها وعدالتها، فسادها وصلاحها، أجمل ما في الناس وأقبح ما عندهم.

صوت منى لوَّن حياتي بأجمل الألوان، عندما توقَّف قلبها فجأةً وماتت، وهي ما تزال في أجمل سنوات شبابها، لم أصدِّق أنَّها فعلتها ورحلت، كان عليها الانتظار من أجلي، لأنَّها تعرف كم أحبُّها، وكم أنا متعلِّقٌ بها. عندما ماتت، مات جزءٌ كبيرٌ من عالمي الجميل، وسقط شيءٌ داخليٌّ، وشعرت أنِّي لست قادرًا على متابعة الحياة. كان موتها قتلًا لي، قتلًا للقطعة الأجمل في عالمي، الذي كانت منى جوهرته. لم أعد راغبًا بشيء، كان بكاء أمِّي المكتوم على منى في الليل، الذي يصل مسامعي سكِّينًا تذبحني ألف مرَّةٍ كلَّ يومٍ، وتذكِّرني بأنِّي خسرت أجمل ما أملك، ملاكي الصغير وصانعة أحلامي، الفتاة الجميلة التي لوَّنت حياتي المظلمة، والتي سرعان ما غادرت، وغادرت روحي معها.

لم أصدِّق أنَّ منى ماتت، قالوا لي إنَّها ماتت، وقلت لنفسي إنَّها تمزح، رغم أنَّها ليست طريقتها في المزاح. سيعودون بعد قليل ليقولوا لي انتهت المزحة السخيفة، أو أسمع صوتها تناديني وقد أحضرت لي بعض الشوكولا. لم يقل أحدٌ لي شيئًا، ولم أسمع صوتها يناديني. أمسكت أختي غدير بيدي، وقادتني إلى السرير الذي سُجِّيت منى عليه في غرفتها. قالت وهي تبكي: «لازم تودِّعها، لازم تشوفها لآخر مرَّة»، لم تنتبه لما قالت عندما استخدمت لغة المبصرين مع أعمى. عندما يموت شخصٌ يقولون لكلِّ القريبين منه: «عليك أن تلقي النظرة الوداع الأخيرة» على من تحبُّ. لكنَّ هذا التعبير ثقيل الظلِّ لا يعني شيئًا لأعمى لا يستطيع النظر. شعرت بالقهر من التعبير وليس من غدير التي أخطأت، شعرت بالقهر لأنِّي لا أستطيع إلقاء نظرة وداعٍ أخيرةٍ على أختي الحبيبة مثل الآخرين. وقفت أمام السرير لا أعرف ماذا أفعل. ويبدو أن وقوفي أنا الأعمى أمام جثَّة أختي الشابَّة المتوفاة قبل ساعاتٍ كان مشهدًا مروِّعًا، فتح جروحًا إضافيَّةً عند أمِّي وأخوتي وقريباتي الموجودات في الغرفة، ما جعل صوت النواح والبكاء في الغرفة يصبح أعلى. اقتربت ببطءٍ حتَّى لامست ركبتاي طرف السرير،

جلست على حافَّته، مدَدتُ يدي فأمسكت بأصابعها الباردة. تركت يدها، وأخذت أتحسَّس وجهها، جبهتها كما تحسَّستها آخر مرَّةٍ، كانت كلَّ أشهرٍ عدَّةٍ تطلب منِّي أن أتحسَّس وجهها وأحفظ ملامحها، تسألني إن لاحظت أيَّ متغيِّراتٍ. تحسَّست عينيها المسبلة برموشها الطويلة، خدودها الباردة، التي لم تكن يومًا كذلك، أنفها وهذه المرَّة لم تخرج منه أنفاسها الحارة، شفتاها المتيبِّستان، ذقنها، غمَّازتها التي تشبه غمَّازتي. مسَّدت شعرها، قرَّبت شفتي من جبهتها وقبَّلتها. تحسَّستها وأنا أبكي بكاءً مكتومًا، دموعي التي لم أستطيع مسكها نزلت وحدها، شعرت أنِّي ووجه منى وحدنا في الغرفة، وعويل النساء يأتي من مكانٍ بعيدٍ وليس من حولي. لم أصدِّق أنَّ جسد منى أصبح بهذا البرود، لمستي الأخيرة لها جعلتني أفقد طاقتي. عندما أمسكت غدير بيدي لتبعدني عن السرير، كنَّا غارقين بالبكاء، قادتني وأنا منهكٌ إلى صالة البيت. تحسَّست الأرض بقدميَّ وصولًا إلى الدرج الداخليِّ الذي يؤدِّي إلى غرفتي، صعدت الدرج، عندما وصلت إليها، تحوَّل حزني وقهري إلى غضبٍ جامحٍ، بكيت كما لم أبكِ من قبل. أمسكت بالكرسي الموضوع إلى جانب سريري، صرخت بأعلى صوتي: «لا»، وضربت الكرسي باتجاه جدار الغرفة، اصطدم الكرسي بالنافذة الزجاجيَّة وتحطَّم الزجاج وانهار على الأرض مُصدِرًا صوت انفجارٍ. انهرت على الأرض باكيًا. بعد لحظاتٍ سمعت صوت أبي وهو يمسك بيدي ويساعدني على النهوض، ويسألني: «شو صار؟»، لم ينتظر جوابًا، لأنَّه عرف ما الذي حدث، حضنني وشرع في البكاء وبكيت بحرقةٍ بدوري على صدره.

لم تكن المرَّة الأولى التي أسمع فيها أبي يبكي، لكنَّها المرَّة الأكثر حرقةً. لطالما سمعت بكاءه عندما يخبره الأطباء، لا أمل في أن أستعيد بصري بما يوفرِّه الطبُّ. أبي رجلٌ حسَّاسٌ، مع أنَّ حساسيَّته لا تتناسب مع تاريخه. فهو قصَّة رجلٍ شجاعٍ، التحق بالعمل الفدائيِّ في شبابه، أصيب بشظيَّةٍ قاتلةٍ في بطنه بقصفٍ للطيران الإسرائيليِّ على معسكرٍ للفدائيِّين، عندما كان أبًا

لولدٍ واحدٍ. بعد أن ترك العمل الفدائيَّ ذهب لأداء خدمته العسكريَّة ضابطًا مجنَّدًا في سلاح المدفعيَّة، وبقي عالقًا فيها حتَّى حرب العام 1973، التي خاضها مع وحدته بوصفه قائد سريَّة مدفعيَّةٍ، خاض في أوحال الجبهة الجنوبيَّة محطَّمًا هو ورفاقه خطَّ آلون الإسرائيليِّ الدفاعيِّ وصولًا إلى بحيرة طبريا. وسرعان ما تراجعوا أمام الضربات الإسرائيليَّة بعد انتهاء فعل المفاجأة، وخسروا ما كسبوا من الأرض وأكثر، وعلقوا لأشهرٍ طويلةٍ في حرب استنزافٍ، ظهرت وكأنَّها بلا نهايةٍ، كما قال يومًا. جاءت اتفاقات فكِّ الارتباط مع إسرائيل لتنهي الحرب، حصل على وسام البطولة وسُرِّح، وعاد إلى بيته.

لا أريد أن أروي سيرة أبي، مع أنَّها تستحقُّ أن تروى في كتابٍ، أريد القول إنَّ قسوة الحرب لم تجعل منه رجلًا قاسيًا، إنَّه يملك حساسيَّة فنَّانٍ، قالت أمِّي كان فنَّانًا فعلًا وهو صغيرٌ. لم أصدِّقها، سألته، ضحك وقال: «ما تصدِّق، شوية ألوان على أفيشات الأفلام، وتخطيط كم قارمة لكم دكَّان في المخيَّم، وهذا ما بيعني إنِّي صرت فنان»، كلَّما عرفت تفاصيل أكثر عن حياته، أُعجَب به أكثر. لقد حارب ظلمتي بكلِّ ما استطاع، عدَّها حربه الأهمَّ، حتَّى أهمَّ من تلك التي خاضها على الجبهة، لم يسامح نفسه على عتمتي، رغم أنِّي لم أتَّهمه يومًا بالتسبُّب بها.

لم يترك طبيبًا لم يأخذني إليه، كان واثقًا من انتصاري وانتصاره على عتمتي، عندما لا يجد حلًا، أحزن على نفسي وعليه، عدَّني عقابًا إلهيًا، وتساءل في لحظة غضب، إذا كان يستحق هو هذا العقاب على ذنب ارتكبه، فلا ذنب لي لأعاقب معه. لم أوافقه الرأي، إن ما أصابني ليس عقابًا إلهيًا، فالمرض موجود في هذا العالم، يصيب البعض بأذاه وينجو البعض منه. لم يرَ ذلك في لحظات يأسه مع أنه رجل مؤمن، وفي تناقض مع تلك اللحظات كان يعتقد أن رحمة الله سوف تشملني وأعود للرؤية، كان واثقًا من ذلك، لكن هذا لم يحصل.

منذ كانت منى طفلة زيَّنت حياتي، لم تزيِّنها بدافع الشفقة كما فعل الآخرون، إنَّما فعلت ذلك بدافع الحبِّ، كانت تقاسمني أشياءها وهي طفلةٌ صغيرةٌ، كنت أقبل أن آكل أيَّ شيءٍ من يدها الملوَّثة، ولم أحتج، وعندما تحاول إطعامي شيئًا وتخطئ فمي لأنِّي لا أرى ما تفعل، فلا أصحِّح اتجاه فمي باتجاه يدها، أمسك يدها وأضع ما في يدها في فمي مهما كان دون تردُّدٍ. وعندما كانت تراني حزينًا، تسألني: «أنت زعلان منِّي؟»، فيصبح عليَّ أن أغيِّر ملامحي سريعًا حتَّى لا ترى حزني، لا منها ولا من غيرها. حتَّى بعد أن أدركت عاهتي، لم يتغيَّر تعاملها، ولم تتعامل معي بدافع الشفقة، بقي الحبُّ هو العلاقة الأجمل معها، لا سيَّما وأنَّها حتَّى وفاتها، بقيت تلك الطفلة البريئة التي تقاسمني الأشياء الصغيرة. إذا أكلت قطعةً من الشوكولا في الجامعة، فهي تحتفظ بقطعةٍ منها لي، لا تشتري لي قطعةً كاملةً مغلقةً، إنَّما تحتفظ لي بجزءٍ من القطعة التي أكلت منها، وإذا عثرت على شيءٍ لذيذٍ لأوَّل مرَّةٍ، يجب أن تحضره لي، وإذا عثرت على كتاب تعتقد أنَّه يهمُّني تجلبه لي دون أن تسألني. كانت تهتمُّ لكلِّ أشيائي، دراستي، مواعيد الطبيب، تختار ملابسي عندما أحتاج الخروج لسبب ما. تُخرجني لنمشي معًا عندما أكون في حالةٍ سيِّئةٍ، تذكِّرني أيَّام امتحاناتي بكلِّ التفاصيل، وتدعو لي من كلِّ قلبها لأن أحصل على أعلى العلامات. لم تملَّ القراءة لي، ولا تتوقَّف عن القراءة سوى عندما أقول لها ذلك. عندما أشعر أنَّها تعبت أطلب منها التوقُّف، فهي لم تقل لي إلَّا ما ندر، ما قاله الآخرون: «تعبت». عندما يكون هناك خبر مُفرحٌ، يجب أن تقوله لي أوَّلًا. وعندما تذهب إلى الامتحان، تطلب منِّي الدعاء لها، لا أرفض لها طلبًا، كنت أدعو لها بالنجاح من كلِّ قلبي، رغم أنِّي لم أقتنع بفعاليَّة الدعوات يومًا. هي اقتنعت أنَّها تنجح بفعل دعواتي، وأنا مقتنع أنَّها هي الفتاة المجتهدة التي تحصد نتائج عملها. كنت مستودع أسرارها، عندما تكون محبطةً تأتي إليَّ لتشكوا حالها، عندما تفرح تشاركني فرحها، عندما تحتاج إلى استشارةٍ في قضيَّةٍ تحيِّرها

تلجأ إليَّ. عندما أصبحت عاشقةً، أنا من سمع قصَّة حبِّها وكنت سعيدًا من أجلها، وبقي حبُّها سرَّنا الصغير في العائلة. عندما كانت تتحدَّث عن الحبِّ، يختلف صوتها عنه عندما تتحدَّث عن الأشياء الأخرى. تحدَّثت عن الحبِّ وفي صوتها غصَّة بكاء الفرح، بكاء عدم التصديق من أنَّ هذا يحدث في حياتها، أخيرًا قلبها الصغير يتحرَّك من أجل شابٍّ، تمنَّتْ لي أن أقع في الحبِّ، لأنَّه ليس هناك شعورٌ آخر يماثله، وعدَّت أنَّني أكثر من يستحقُّ الحبَّ في هذا العالم. هي امرأةٌ رقيقةٌ لدرجةٍ خفت عليها من الحبِّ، خفت أن يكسرها، فهي أرقُّ من أن تتحمَّل عذاباته، وكنت مخطئًا، لأنَّها لم تكن تحبُّ كالكبار الذين يحطِّمون بعضهم البعض، كانت طفلةً عاشقةً وقلبها بقي قلب طفلٍ، وحبُّها يشبهها، بريءٌ من كلِّ ما يعكِّر صفوه، لم يدم هذا الحبُّ طويلًا، لأنَّها رحلت قبل أن تختبره، وقد يكون من حظِّها أنَّها رحلت وهي عاشقةٌ.

لم أتعرَّف على الشابِّ الذي سرق قلبها، وحسدته على حبِّها البريء، حسدته عليها. حزنت عليه عندما تُوفِّيَت أيضًا، لأنَّه حُرِمَ من إلقاء النظرة الأخيرة عليها. تخيَّلته شخصًا يشبهها، طفلًا يعشق طفلةً تشبهه، لن يُصدِّق أنَّها تركته ورحلت فجأةً، وإذا كان كذلك، لا بُدَّ أنَّ قلبه تحطَّم بوفاتها. لم أتعرَّف عليه في حياتها، رغبت أن تعرِّفني عليه في أوَّل فرصةٍ، لم يسعفها الزمن وتقدِّمني له. وأنا لم أرغب بالتعرُّف عليه بعد موتها، لأنِّي لا أريد أن أرى شخصًا محطَّمًا بفعل القدر الأحمق الذي خطف منه أجمل العاشقات، وأكثر من أحبُّ. لم أكن قادرًا على سماع أشياء عنها، لأنَّ ذكراها تدفعني إلى البكاء كلَّما تحدَّث أحدٌ عنها، وكلَّما خطرت على بالي، فكيف سيكون الحال، إذا حدَّثني عنها بحبٍّ كبيرٍ كما كانت تحدِّثني عنه؟ في هذه اللحظات، أمسح دموعي وأنا أتحدَّث عنها. منى أكثر شخصٍ عرفني وعرف قناعاتي في الحياة والعيش والبشر والقيم والمعاني والحبِّ والكره ... و ... كنَّا نتناقش في كلِّ شيءٍ، وهي الوحيدة التي قلت لها قناعاتي حتَّى نهاياتها دون حسابٍ أو

حاجزٍ أو خجلٍ. حتَّى عندما لم تفهم ما أقول، كانت تقول: «مش فاهمة، بس حاسة فيك»، كنت أقول: «كيف يعني؟»، قالت: «ما بعرف كيف أشرحها، أنت بتحكي بطريقة بتخلِّي الكلام مغمَّس بالمشاعر والأحاسيس. حتَّى لما ما بفهم الكلام اللي بتقولُه، بحس بالمشاعر المحمول عليها، مثل الحب والفرح والحزن، كلُه بطلع بصوتك، حتى لما تكون بتحكي كلام فلسفة».

أسأل نفسي، هل كنت كذلك برأيها، أم أنَّها كانت تواسيني وتحاول إقناعي أنِّي تفوَّقت على عاهتي، وأنِّي لست رجلًا فائضًا عن الحاجة، كما كنت أقول عن نفسي؟! أحيانًا أشكُّ بذلك، وأحيانًا أشعر أنَّها عاملتني كمبصرٍ طوال الوقت. أبهرتني عندما شرحت لي ماذا تعني الألوان، لقد شبَّهت الألوان بدرجات الصوت، قالت: «إذا اعتبرنا اللون الأسود أكثر الألوان ظلمةً وقتامةً، فهو الصوت الصاخب، المزعج، كصوت المطرقة، طاخ طاخ طاخ. وعلى الطرف الآخر من الألوان، هناك اللون الأبيض، والذي يمكن تشبيهه بالأصوات الناعمة، كهسيس نسمةٍ، وزقزقة عصفورٍ قادمةٍ من بعيد هس هسهس. فإنَّ الألوان بينهما تهبط أو تصعد أصواتها حسب قربها أو بعدها من الأبيض أو الأسود، البني الأقرب إلى الأسود، نستطيع تشبيهه بصوت الاصطدام بشيء، بم بم. أمَّا السماوي الأقرب إلى الأبيض، نشبِّهه بصوت العصافير الجميل. والكحلي كصوت قطارٍ بعيدٍ، والأحمر كصوت هديل الحمام، والرمادي كمواء القطِّ، والأخضر كصوت حفيف الأشجار، والأصفر كصوت الماء»، كانت تشرح فكرتها وأنا أضحك، وأقول: «من وين جبتي هالفكرة؟!»، لكنَّ الغريب أنَّ الألوان ارتبطت بذاكرتي بالأصوات التي قرَّرتها منى، وعندما كان أحدهم يتحدَّث عن لونٍ، مثلًا عن اللون السماوي، أتذكَّر صوت العصافير، وعندما يذكر اللون الرمادي، أتذكَّر مواء القطِّ. كنت أرى بعيونها، وتراني أنا المبصر، لذلك كانت تسألني عن كلِّ شيءٍ، وتأخذ رأيي في كلِّ شيءٍ، وتستمتع بالنقاش معي. وكان هذا يسعدني

أيضًا، سألتها مرَّةً بدهشةٍ «إنت ليش بتسألني عن رأيي بأشياء بتخصَّك؟»، وجاء سؤالي بعد نقاشٍ طويلٍ سببه سؤالها لي، عن كيف يمكن للإنسان أن يعيش حياته، وما عليها هي شخصيًّا أن تفعل بحياتها. كان جوابها غريبًا، قالت: «أنت أحسن واحد بتشوف من اللي بعرفهم»، كان لفظها لكلمة «بتشوف» صادمًا لي، وأعرف ما كانت تقصده، من أنِّي الوحيد الذي يعطي رأيًا أفضل من الآخرين، لكنِّي لم أتوقَّع أن تستخدم هذه الكلمة للدلالة على التفضيل، إنَّها لغة المبصرين، لغة منى الطفلة التي لم تكبر ولم ترني أعمى يومًا.

طلبت مرَّةً من منى أن تصف شكل وجهي، وكنت جديًّا في سؤالي، لأنِّي أريد بناء صورةٍ عن نفسي. قالت: «ما بعرف أوصفك، هاي شغلة صعبه»، قلت لها: «بدي أعرف شكلي وما في حدا أشطر منك يوصفني»، قالت: «ذنبك على جنبك»، قلت: «يا ستي ذنبي على جنبي، بس إنت قولي»، قالت بعد تردُّد: «وجهك مدوَّر، جبينك عريض، فوقُه شعر أسود ناعم وسبل بغطِّي نص الجبين، على الجبين حاجبين عاقدين مع بعضهما، بنصهم عقدة الشعر مش كثيفة. ذقنك مبوَّز لحد ما، بس اللي مخليها تبيِّن غير هيك الغمازة اللي بنص ذقنك، ذقنك خفيفة الشعر. خدودك مرفوعة وإلها كراسي بترتفع كثير لما بتضحك. ثمك بشفتين مكتنزتين للتحتانية تشقُّقات تزيد من جمالها، ووراء الشفتين صف أسنان كامل وجميل وبياضه طبيعي. إنفك مستقيم، مثل إنف التماثيل اليونانيَّة. بشرتك حنطية فاتحة وناعمة ما فيها ولا خطأ. رموشك طوال كثير، عينيك وساع وبياضهم رايق وسوادهم بلمع، عيون ذكية ولماحة. أنت شب حلو، لو ما كنت أخوي كنت تجوَّزتك»، أنهت وصفها وضحكت. استمعت لكلامها بانتباهٍ، وتذكَّرت ملامحي، كما أحفظها بالصورة التي كوَّنتها عن طريق لمسها، لم يكن فيما قالته أيُّ زيادةٍ لا أعرفها، لكنَّ كلامها جعلني أتخيَّل نفسي عن طريق السمع، بعد أن كوَّنت صورةً عن طريق اللمس. قلت بتحبُّبٍ: «ولي منى،

عنجد أنا وسيم؟»، قالت: «شو يعني عبكذب عليك، ولا بحاول أزبطك عريس؟ إنت وسيم ونص كمان»، سألت نفسي بعد هذا الحديث مع منى: «هل حقًّا أنا رجلٌ وسيمٌ؟»، وعرفت ألَّا معنى للسؤال، فعلى الرجل الوسيم أن يمتلك كامل حواسه، وفقدان حاسة البصر، تطيح بأيِّ وسامةٍ، فلا معنى للوسامة عند شخص يملك عيونًا جميلةً مليئةً بالعتمة، ولا تتكلَّم لغة العيون مع الآخرين.

كانت خسارتي فادحةً برحيل منى، خسرت ضحكات الفرح الطفوليِّ التي تطلقها عندما تكون سعيدةً، وخسرت النقاشات الذكيَّة حول الكثير من القضايا، خسرت الأسرار الجميلة، خسرت الاطمئنان الدائم عليَّ، خسرت الضحكة الرنَّانة، خسرت قطع الشوكولا الألذ، خسرت جزءًا من روحي. لم أكن قادرًا على فعل شيءٍ بعد صدمة وفاتها، صدمةٌ فاقت كلَّ احتمالٍ، وفاتها جعلت حياتي أكثر ظلمةً، وعليَّ أن أتعايش مع هذا العالم المظلم الذي اختفت منى منه. وهو الشيء الذي كان صعبًا عليَّ، قبل أن تقع البلد في دوَّامة الحرب المجنونة المشتعلة، التي لا تريد أن تتوقَّف، ومنذ بدأت وأنا أفتقدها.

لم أحتَج لمنى مثلما احتجتها في الحرب، لكنَّها للأسف كانت قد غادرت الحياة وتركتني وحيدًا غير قادرٍ على فهم العالم الذي حولي، لأنِّي لم أكن قادرًا على الحصول على ما يكفي من المعلومات لأفهم ما يجري، لم يرغب أحدٌ في الشرح لي، أو لا أحد يملك الوقت حتَّى يشرح لي. ولو كانت منى حيَّةً لما عانيت من هذه المشكلة، ربَّما أواسي نفسي بهذا الكلام، فلو استمرَّت في الحياة، لكانت تزوَّجت من الشابِّ الذي أحبَّته أو من غيره، وفي كلِّ الحالات ستكون بعيدةً عنِّي وغير قادرةٍ على حلِّ المشكلات التي أفترض أنَّها كانت ستساعدني في حلِّها لو بقيت على قيد الحياة، سيكون لها مشكلاتها المعقَّدة مع الحرب، قد تكون بوفاتها نجت من الحرب التي علقنا فيها وطحنتنا.

تحمَّست للمظاهرات عندما بدأت في دوما، رجوت أخي منذر أن يأخذني للتظاهر مع من يتظاهروا، أو على الأقل أن أسير معهم وأشعر بهذه القوَّة التي يشعرون بها عندما يهتفون بالشعارات التي تريد إسقاط النظام. في الماضي كان الخوف يقتل الناس عندما يسمعوها، لم يسمحوا لأنفسهم بأن يحلموا بمثل هذه الشعارات. مع المظاهرات أخذوا يهتفونها مُحطِّمين خوفهم. شعرت بالقوَّة التي تمنحهم إيَّاها الهتافات من الصوت الواثق الذي يصرخون به من أجل حريَّة البلد، التي لم تعد قابلةً للعيش كما كانت من قبل.

لم يقبل منذر اصطحابي، وقال: «المظاهرات خطرة وأنا بخاف عليك. والأمن بطخ الناس كيف ما كان»، كرَّرت المحاولات مع منذر دون جدوى. عندما طرحت الفكرة على أبي، أصيب الذعر، وقال: «يابا، إنت شو بتحكي؟!»، ورفض رفضًا قاطعًا. بعد انطلاق المظاهرات، لم أستطيع الخروج من المنزل، ولا أحد يرافقني في جولاتي خارج المنزل، لأنَّها ليست ممكنة. خافوا عليَّ. فلا أحد يعرف من أيِّ مكانٍ تنطلق المظاهرات، ولأين سيطلق رجال الأمن النار على المتظاهرين. صحيحٌ أنَّ المظاهرات الكبرى كانت تنطلق من الجامع الكبير بعد صلاة الجمعة، لكنَّ المظاهرات لم تقتصر على يوم الجمعة، انطلقت المظاهرات من كلِّ الأماكن وفي كلِّ أيَّام الأسبوع في دوما. وكنت أسمع إطلاق النار القادم من مناطق مختلفةٍ، سواءً البعيدة أو القريبة من بيتنا، أسمع إطلاق نارٍ يأتي من كلِّ مكانٍ في دوما، طوال أيَّام الأسبوع.

رفض منذر الشديد لاصطحابي إلى المظاهرات جعلني أشكُّ أنَّه يشارك فيها، ولا يريد لأهلي أن يعرفوا. لم يكن لديَّ دليلٌ، ولم يقل أحدٌ لي أنَّه شاهده في المظاهرات. ما جعلني أكاد أكون واثقًا من ذلك، هو موقف منذر الحاسم من المظاهرات، وهو شيءٌ جديدٌ عنده، لطالما كان متردِّدًا في كلِّ شيءٍ، لا سيَّما معي، يتردَّد كثيرًا قبل أن يتخذ القرار في أصغر الأشياء. مع

المظاهرات في دوما بات أكثر حسمًا، ورفضه لاصطحابي هو رفضُ من يعرف المخاطر من المشاركة في المظاهرات. وزاد شكِّي، عندما قلت له: «احكي لي عن المظاهرات»، قال بشيءٍ من النفور: «شو بدك بهالشغلة، المظاهرات شغلة بلا طعمة»، كان يقول كلماته كأنَّه ينفي التهمة عن نفسه. قلت: «ما بدي شي، بس بدي أعرف شو بصير بالبلد»، قال: «شو بصير، بلد ولعت مثلها مثل غيرها»، لم يكن منذر يريد التكلُّم معي عن المظاهرات جديًّا، فهو يعرف أنِّي أتوق للمشاركة، ولولا عاهتي لكنت شاركت من اللحظة الأولى، فهي فرصتي لأن أقول لا لكلِّ شيءٍ، حتَّى لا للعمى الذي أعاني منه، وأتصرَّف كمبصرٍ له الخيار في أن يقول: لا للسلطات وأن أكسر خوفي كما كسر المتظاهرون في الشارع خوفهم. الكلُّ تجنَّب الحديث معي عمَّا يجري، حتَّى لا يجعلوني أكثر خوفًا.

أختي رشا هي الوحيدة التي حدَّثتني عمَّا أريد في زياراتها السريعة إلى دوما، والتي أصبحت أقلَّ بفعل قطع الأمن للطرقات بين دوما وزملكا بسبب المظاهرات، وبعد ذلك بسبب من الاشتباكات المسلَّحة التي أخذت تتصاعد بين رجال الأمن والمنشقِّين عن الجيش. حدَّثتني رشا عن بشرٍ اكتشفوا أنفسهم، وأحسُّوا أنَّهم يستطيعون صناعة حياتهم، وأن يتركوا خوفهم وراءهم. وسيصبح العالم أجمل عندما يستطيع حدثٌ كبيرٌ أن يُخرِجَ من الناس أجمل ما فيهم، رغم الدم المسال الذي يحاول القتلة من خلاله قتل حلم الناس بالحريَّة. تحدَّثت رشا بحماسٍ لم أسمعه منها من قبل. ولم تتأخَّر في أن تسرَّ لي، أنَّ زوجها محمد يشارك في المظاهرات منذ بدايتها، وأنَّه يعمل على مستقبلٍ أفضل للبلد، فهو وأمثاله من الحالمين المجتهدين، لم يجدوا الفرصة في البلد بحكم المحسوبيَّات والوساطات والفساد والرشى، ويعتقد أن مشاركته ضروريَّةٌ لتنظف البلد من الوسخ الذي علق بها خلال العقود الأخيرة. وهي لم تعارض مشاركته في المظاهرات، على العكس قالت إنَّها ستدعمه، وعاهدت نفسها على أن تبقى معه مهما كانت الظروف التي

ستمرٌّ عليهم. كانت تتكلَّم بحماسٍ، وكأنَّ المستقبل الجميل أدخل على صوتها رنَّة المنتصر، أو الواثق من نصره. تمنَّيت أن تتحقَّق أحلام رشا ومحمد.

لم أستطع تكوين تصوُّرٍ عن إطلاق النار على الناس، أرعبتني الفكرة. بشرٌ يحملون أسلحةً ويوجِّهونها إلى آخرين أمامهم، بشرٌ مثلهم من لحمٍ ودمٍ ويطلقون النار عليهم ويُردُونَهم قتلى. كتلةٌ معدنيَّةٌ صغيرةٌ يطلقها رجل أمنٍ من بندقيَّةٍ، تذهب بسرعةٍ باتجاه الجسد، ترتطم به فتتفتَّت المنطقة التي ترتطم بها، وإذا كانت المنطقة مهمَّةً جدًّا مثل الرأس أو القلب، تقتل الجسد. وإذا كانت منطقةً أقلَّ أهميَّةً قد تتسبَّب الطلقة لمن ارتطمت بجسده عاهةً دائمةً. لم أفهم لماذا اخترع البشر البندقيَّة، ولماذا اخترعوا الأسلحة، وأيُّ شيءٍ في هذا العالم يستحقُّ أن يقتل الإنسان إنسانًا آخر. بالطبع ليست هذه قناعة من يُطلِقُ النار، لذلك تمنَّيت أن يُصاب بالعمى كلُّ مطلقي النار على الآخرين. أصبحت أخاف كلَّما سمعت صوت طلقةٍ، وبعد انطلاقها، أشعر أنِّي أسمع أزيزها، وأتمنَّى ألَّا ترتطم بجسدٍ بشريٍّ. لم أكن أعرف أيَّ الطرق تسلك هذه الطلقات القاتلة، لكنَّها أخافتني دائمًا. لم يولد قتل البشر للبشر في زمن الاحتجاجات في البلد، فالقتل موجودٌ منذ قتل قابيل هابيلَ، وانطلقت من هناك الصراعات الدمويَّة بين البشر، وعندما يكون القتل بالقرب منَّا، ويمكن أن يأخذنا في طريقه، تختلف النظرة إلى الموت كحالةٍ كريهةٍ تقع بفعل مجرمٍ من جنسنا ذاته. وبالانتقال إلى وسائل قتلٍ أكثر حداثةً وعنفًا واتساعًا، مثل القصف المدفعيِّ وانفجارات القذائف والصواريخ، صرت أصاب بالهلع، فإذا كنت متأكِّدًا أنَّ الطلقات لن تصل إليَّ في البيت، فلا ضمانة ألَّا تصل هذه القذائف العمياء مثلي إلى الغرفة التي أجلس وأجترُّ نفسي وخوفي وحزني فيها، فنحن نسكن الطابق الأخير من البناية، وكما فهمت فإنَّ الطوابق الأخيرة غير محصَّنةٍ ضدَّ قذائف مدافع الهاون التي يمكنها اختراق الأسطح. هناك أزيزٌ أسمعه، لا أعرف من

أين يأتي، قد يكون من الطلقات، أو من المروحيَّات، لم أعرف من أين يأتي هذا الصوت الذي يذكِّرني بصوت الحشرات التي كنت أصطادها في غرفتي، كنت أميِّز أصوات الحشرات من طنينها، هذا دبوُّرٌ، وهذه نحلةٌ، وهذه ذبابةٌ، وهذه ناموسةٌ. عندما تدخل ذبابةٌ أو ناموسةٌ إلى غرفتي، كنت أحاول اصطيادها، أنجح أحيانًا وأفشل أخرى. عندما أصطاد ذبابةً، أستطيع أن أعرف ذلك، لأنِّي أستطيع الشعور بوزن جثَّتها على يدي. أمَّا الناموسة، فلم أكن أعرف هل استطعت اصطيادها أم لا، لأنِّي لم أكن أشعر بوزنها على يدي، فهي أقلُّ من أن أشعر بها رغم أنَّ أذاها أكبر من الذبابة.

لم أفهم لماذا يُقتَل هؤلاء الناس، وهل الردُّ بقتل المحتجِّين يحلُّ المشكلة! لم أخف في حياتي، مثلما خفت من صوت الطلقات، ومن الدم الذي يسيل في كلِّ مكانٍ في البلد. القذائف العمياء تأخذ الأبرياء في طريقها، إنَّها عقابٌ للأبرياء على ذنبٍ لم يرتكبوه. حماستي للثورة فَتَرَت، لأنِّي على قناعةٍ ألَّا شيء في هذه الحياة يستحقُّ الموت ولا حتَّى الثورات الكبرى. كنت أعرف أنَّنا نعيش في بلدٍ فاسدٍ وقاسٍ وظالمٍ. عندما درست القانون ظننت أنَّ القانون يمكنه أن يحلَّ المشكلات بين الناس، وأنَّ التزام الناس به يحميهم ويحمي مصالحهم ويعيد لهم المسلوب منها. كنت أعتقد أنَّ القانون يعمل وحده، ويحمي حقوق المواطنين، الذين يلجؤون إلى السلطات القضائيَّة للحصول على حقوقهم المسلوبة إذا لم يستطيعوا الحصول عليها بالتراضي. كنت أعتقد أنَّ القانون هو الشيء المركزيُّ في كلِّ القضايا في العالم، وأساس كلِّ شيءٍ. إنَّه الاختراع البشريُّ الملائم لحلِّ كلِّ المشكلات، وعندما لا يحلُّها، يستطيع تطوير نفسه للوصول إلى حلٍّ مهما كان عصيًّا. هذا ما دفعني إلى دراسة الحقوق، رغم معرفتي أنِّي لن أستطيع العمل في مهنةٍ تنتمي إلى هذه الدراسة يومًا ما، تمنَّيت حصول معجزةٍ ما تقلب الوضع وأستطيع فعل ذلك، لم تقع المعجزة، وبقيت حبيس العتمة وأدرس من أجل لا شيء. طبعًا، عرفت فيما بعد أنَّ القانون لا يسري في البلد على الجميع، ولا يُلجأُ

إليه ولا يُطبَّق، وأنَّه ليس سوى قشرةٍ شكليَّةٍ، وهو لا يسري سوى على الناس المساكين. لكن هناك أشخاصٌ فوق القانون، يتجاوزونه وقت يشاؤون، ويعدُّون أنفسهم يملكونه وهم من يضعونه، وعليه فإنَّ من حقِّهم أن يمزِّقوه بأفعالهم وليس عليهم حرجٌ، وليس هناك من يحاسبهم على خرقهم له. وعرفت في أثناء دراستي للحقوق أنَّ رجال المخابرات في البلد محميِّين من المحاكمة عن الجرائم التي يرتكبونها في أثناء تأديتهم الخدمة، ولا يمكن محاكمتهم، سوى بعد موافقة مسؤولهم المباشر، وطبعًا هو الذي يأمرهم بما اقترفوه من جرائم، فلن يوافق على إحالتهم إلى المحاكم. بعد الدراسة، ومع القتل الوحشيِّ الذي عمَّ البلد، أصبح القانون تفاهةً، لا يمكن حمله على محمل الجدِّ. لقد تحوَّلت البلد إلى مسلخٍ خارج كلِّ قانونٍ وخارج كلِّ منطقٍ.

لم أدرس القانون وحدي، فليس لكتب كليَّة الحقوق في جامعة دمشق نسخةٌ بلغة برايل، وليس لها نسخٌ صوتيَّةٌ، فكان على كلِّ العائلة أن تدرس القانون معي، قرؤوا المقرَّرات لي عامًا بعد عامٍ، ليصبح الجميع عارفًا بمنهاج الجامعة وكلُّ واحدٍ منهم يعرف الجزء الذي درسه معي من المقرَّر. قرؤوا قانون العقوبات والقانون التجاريَّ والقانون الإداريَّ، والقانون الرومانيَّ، وقانون الأحوال الشخصيَّة، والقانون المدنيَّ، والقانون الدستوريَّ، وقانون أصول المحاكمات، والقانون الدوليَّ، وغيرها من مقرَّرات الجامعة، بما فيها مقرَّرات اللغة الانكليزيَّة واللغة العربيَّة، والمقرَّر الأكثر تفاهةً في الكليَّة، وهو مقرَّر الثقافة القوميَّة، الذي لا ينتمي إلى الكليَّة لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ، مقرَّرٌ يكرِّر ما يقوله الحزب الحاكم في البلد من تفاهاتٍ.

أحبَّ إخوتي بعض المواد مثل قانون العقوبات والأحوال الشخصيَّة لقرب المقرَّرين من حياة البشر، وكانوا يتسابقون لقراءة هذه المقرَّرات لي. وكانوا يكرهون موادًا مثل القانون الإداريِّ والقانون المدنيِّ، فهي مواد مملَّةٌ وبعيدةٌ عن حياة البشر اليوميَّة، وهو ما جعلهم يتهربون من قراءتها

ويرمونها على بعضهم البعض، أو يقرؤونها على مضضٍ. لذلك في الوقت الذي يقرؤون لي المقرَّرات التي أحبُّوها من أربع إلى خمس مرَّاتٍ، كانوا بالكاد يقرؤون المقرَّرات التي لا يحبُّونها مرَّةً واحدةً. وهذا ما جعل علامتي الجامعيَّة في الأولى عاليةً وفي الثانية منخفضةً. لقد درست من أجل التفوُّق على نفسي، درست لأنِّي يجب أن أدرس، أن أشعر أنِّي بشرٌ مثل الآخرين، وأنِّي قادرٌ على إحراز بإنجازٍ مهمٍّ لا يستطيع الكثير من المبصرين إنجازه. أن أتخرَّج من الجامعة، في الوقت الذي يترك الكثير من المبصرين مدارسهم لأنَّهم غير قادرين على إكمالها، كان هذا إنجازًا بالنسبة لي، كما شعر أهلي أنَّ هذا إنجازًا لهم أيضًا. وكما يحصل كثيرًا في الحياة، نكتشف أنَّ إنجازاتنا المهمة، لم تكن سوى تفاهاتٍ رفعناها لمرتبة الإنجاز، هذا ما عرفته عندما أخذ القتل يسود البلد، القانون تفاهةٌ صرفت على دراسته سبع سنواتٍ من عمري، لأعرف من الدم الذي يسيل في البلد أنَّ ما درسته في الجامعة مجرَّد تفاهةٍ، وأنَّ القانون لا يضعه رجال القانون، إنَّما يضعه من يتحكَّم بفوهات الدبَّابات وصواريخ الطائرات، ومن يملك رجال المخابرات والجيش والقتلة من القنَّاصين الذين يتسلَّون بتمزيق أجساد البشر.

تحوَّل فضولي لسماع شعارات المظاهرات عن قربٍ إلى خوفٍ مع إطلاق النار على المتظاهرين، ومع تزايد إطلاق النار، تحوَّل خوفي إلى رعبٍ، وعرفت أنِّي كأعمًى أستطيع التعامل بصعوبةٍ مع واقع الحياة في الأيَّام العاديَّة. ففي الأيَّام العاديَّة هناك متَّسعٌ من الوقت لسؤال الآخرين، وتوضيح حالتي، حتَّى يساعدونني لأتجاوز أيَّ مأزقٍ أجد نفسي فيه. لكن في حالة الاشتباك والتوتُّر الشديد وإطلاق النار، لا وقت للسؤال، ولا وقت للشرح، كلُّ واحدٍ مشغولٌ بنفسه، كلُّ واحدٍ مشغولٌ بالفرار من الطلقات القاتلة. ماذا لو وجدت نفسي وسط اشتباكٍ؟ ما الذي سأفعله في مكانٍ لا أعرف أين يتموضع مطلقو النار فيه ولا أعرف الجهات؟ لذلك، لا أعرف ماذا أفعل؟ وبأيِّ اتجاهٍ أهرب؟ وما هي العوائق أمامي؟ وسأكون بالضرورة

ضحيَّة هذا الاشتباك. ما عاد السؤال افتراضيًّا، بعد ما حدث عند حاجز مدخل دوما عندما كنَّا عائدين أنا وأبي وأمِّي من زيارة الطبيب، بعد أن أصرَّ أبي على هذه الزيارة التي رفضتها، لكنَّه لم يستمع لرفضي لمعاينة عينيَّ للمرَّة الألف، تحت حجَّة لعلَّنا نجد حلًّا عند هذا الطبيب الذي أوصى به صديقٌ لأبي، طبعًا هي الحجَّة ذاتها تكرَّرت في كلِّ مرَّةٍ. في المرَّات الأولى، بنيت الأمل في كلِّ زيارة طبيبٍ لعلَّه يستطيع أن يجد علاجًا لما لم يجد زملاؤه علاجًا له. لا أعرف عدد المرَّات التي بنيت فيها الأمل، ولكنِّي مع تكرار مراجعات عددٍ كبيرٍ من الأطبَّاء، حتَّى أطبَّاء الأعشاب، وأحيانًا الشيوخ لفكِّ السحر عنِّي، كما فعلت أمِّي مرَّاتٍ عدَّةً، تحت حجَّة أنَّنا لن نخسر شيئًا لنجرِّب، ولم أرفض لها طلبًا، ولكنَّهم لم يعرفوا أنِّي مع الوقت فقدت كلَّ أملٍ، وتحوَّلت زيارات الطبيب إلى تعذيبٍ حقيقيٍّ لي.

كانت هذه المرَّة أسوأها، ليس لأنَّ الطبيب قال: «لا علاج» وهذا ما كنت أتوقَّعه، ولم يكن ليؤثِّر فيَّ بعد مئات المرَّات الفاشلة. ما جرى على الحاجز في ذلك اليوم كان أسوأ ما وقع لي في حياتي. عندما عدنا إلى دوما من زيارة الطبيب، أوقف أبي السيَّارة في الرتل الذي ينتظر على الحاجز عند مدخل المدينة ليأتي دوره في التفتيش والتأكُّد من الهويات. ولأنِّي كنت محبطًا من زيارة الطبيب، والجوُّ حارٌّ في صيف العام التالي لبدء المظاهرات، جلست في المقعد الخلفيِّ للسيَّارة، خلف أمِّي مباشرةً، وقد أنزلت زجاج نافذة السيَّارة، ووضعت ساعدي على الشبَّاك فوق بعضهما، وأرخيت ذقني على ساعديَّ، ووجهي باتجاه الخارج. لا أعرف كم من الوقت بقيت على هذه الحالة، سمعت صوتًا يقول: «لا تطلع لهون يا خرى، دير وجهك»، لم أعرف ما سبب قول رجلٍ لرجلٍ مثل هكذا كلام، ولم أعرف من يقول هذا الكلام، ولمن، وعلى ماذا يختلف الرجلان. لكنَّ الرجل ذاته، كرَّر كلامه، مضيفًا: «ما بتفهم يا حمار، رح أفهمك باللغة اللي بتفهمها»، شعرت أنَّ شجارًا ما سيبدأ في المكان، ولم أفهم لماذا يصرُّ الرجل الآخر على النظر إلى

هذا الرجل واستفزازه. ما إن أكمل الرجل كلماته، حتَّى شعرت بصفعةٍ قويَّةٍ على وجهي، لا أعرف من وجَّهها لي، ولا لماذا. كانت صدمتي كبيرةً أن أتعرَّض لصفعةٍ قاسيةٍ ومهينةٍ، وأنا لم أفعل شيئًا. سمعت صوت أمِّي تصرخ: «الله يكسر إيدك، ما شايف الولد أعمى»، وقتها فهمت أنَّ هذا الرجل من رجال الحاجز وظنَّ أنِّي أنظر له باستخفافٍ، وكان يهدِّدني أنا، ولا يتحدَّث مع رجلٍ آخر. صرخ أبي على العسكريِّ قائلًا: «ليش ضربتُه، شو عمل، ولا بس تبلِّي، حاسس حالك قوي لأنَّك حامل سلاح؟!»، قال العسكري: «اخرسوا، ولا بتشوفوا شي ثاني»، قال أبي: «شو بدنا نشوف أكثر من هيك؟»، في هذا الوقت سمعت صوت رجلٍ آخر يسأل: «شو في؟»، شرح أبي له الموقف سريعًا. قال الرجل الذي يبدو أنَّه ضابطٌ للعسكريِّ: «عسكري، انقلع من هون»، وأضاف لأبي: «حقَّك علي يا عم، ازرعها بدقني هالمرَّة»، وتوجَّه بالحديث إلي: «أنا آسف يا أخي، أنا رح أحاسب العسكري الحمار، حقَّك علي»، وصرخ بصوتٍ عالٍ: «افتحوا الطريق»، قاد أبي السيَّارة باتجاه البيت، وساد الصمت في السيَّارة.

لم أصدِّق أنِّي أنال صفعةً بلا سببٍ، حتَّى لو كنت أرى وأنظر إليه، ما الجريمة التي ارتكبتها بحقِّه؟ شعرت بالإهانة والذلِّ من هذه الصفعة الثانية التي أتعرَّض لها في حياتي. لقد استطاعت أختي غدير أن تنتقم لي ردًّا على الصفعة الأولى، وشعرت بالاعتزاز جرَّاء ما فعلت بعد أن كنت ذليلًا، لأنَّ معلمةً قرَّرت ضربي، لأنَّ سلوكي لم يعجبها. مع صفعة العسكريِّ الوضع مختلفٌ، هناك شيءٌ داخليٌّ تحطَّم. سمعت صراخ أمِّي واحتجاج أبي، لم أشعر أنَّ ذلك كسر العسكريَّ وردَّ اعتباري، كما كانت الحالة مع غدير والمعلمة. صحيحٌ أنَّ الضابط حاول إصلاح الموقف باعتذاره، لكن هل يُصلِحُ الاعتذار ما انكسر داخلي. لم أشعر أنَّ الاعتذار حقيقيٌّ، لأنَّ الرجل يعتذر من موقع القوَّة، وهو يمنُّ علينا باعتذاره. لا يعتذر اعتذار الخجول من فعلٍ سيِّئ أتاه، كان عليه ألَّا يأتيه. لم أشعر أنَّ أبي قادرٌ على حمايتي من هؤلاء

المسلَّحين، ولم أشعر أنَّ صراخ أمِّي عليهم يمكن أن يردعهم. قد تكون أفعالهم سببًا في تفاقم المشكلة، كأن يكون الضابط على الحاجز أكثر فجاجةً ويعتقلنا، من سيسأل علينا نحن المساكين، أو حتَّى يطلق النار علينا، كما أُطلِقت النار على الآلاف في البلد، ويعدُّوننا من «الإرهابيِّين» أعداء الوطن. شعرت بالصفعة تنتهك حياتي وحياة عائلتي وتهدِّد حياتي، وأن لا حدود لهذا الانتهاك، طالما أنَّ الطرف الذي ينتهك طرفٌ مسلَّحٌ قادرٌ على إيذاء الناس المساكين دون أن يملكوا الوسائل لردعه. شعرت أنِّي مكشوفٌ مثل كلِّ البلد، وأنَّ الأذى قد يأتي من أيِّ جهةٍ، ولأنِّي لا أعرف الجهات، أدخلتني تجربة الصفع في حالةٍ من الرعب الدائم، ليس من صفعةٍ جديدةٍ، لكن ممَّا هو أكبر من الصفعة، كطلقة قنَّاصٍ، أو قذيفةٍ طائشةٍ، أو برميلٍ متفجِّرٍ، أو اعتقالٍ تعسُّفيٍّ. وأصبح خوفي يصل إلى درجة الهلع عند الحواجز العسكريَّة التي أصبحت موجودةً في كلِّ شارعٍ في البلد، وأصبح السؤال المتكرِّر الذي يلحُّ عليَّ يوميًّا، هل سأنجو وينجو أهلي من القتل الذي لا يوفِّر أحدًا؟!

بعد صفعي على الحاجز، تردَّى الوضع الأمنيُّ في دوما سريعًا، وسادت الاشتباكات المسلَّحة في المنطقة. دفع التردِّي أبي إلى اتخاذ قرارٍ بمغادرة دوما، وكانت الوجهة المخيَّم، حيث يسكن أعمامي وعمَّاتي. لم يختلف أهلي على الخروج من دوما في انتظار ما سيحدث، وقد شمل قرار الخروج أخي منذر وعائلته، الذي لم يعترض أيضًا على قرار المغادرة. أبي المتفائل دائمًا، اعتقد أنَّنا سنغيب لبعض الوقت، ثمَّ نعود بعد أن تهدأ الأمور. قال لأمِّي: «خذي الأغراض الضروريَّة بس»، لم تعرف أمِّي وغدير ما الذي تأخذانه وما الذي تتركانه. وعندما كانتا تسألان أبي، كان يرتبك ويغضب، ويقول: «مش مهم، أي شي بتنسوه، بنشتري غيرُه، أو برجع وبجيبُه»، استعجل أبي المغادرة، لم يكن قادرًا على تحمُّل الوضع الصعب، خاف أن يصاب أحدٌ منَّا بمكروهٍ، من طلقةٍ طائشةٍ أو صاروخٍ ضلَّ طريقه. خرجنا نحن وعائلة أخي منذر إلى المخيَّم، وخرجت أختي سلام وعائلتها إلى منطقة ركن الدين،

حيث يسكن أهل زوجها. بقيت رشا في زملكا، حاول أبي إقناعها بالخروج هي والأولاد معنا إلى المخيَّم، وجميعنا طلبنا منها ذلك، حتَّى أنا، عندما اتصلت ونحن نحضِّر للخروج، طلبت منها أن ترافقنا هي والأولاد، وقلت لها: «أنا بخاف عليكي كثير. وكمان أنا مشتقلك»، قالت: «والله يا فراس. وأنا مشتقتلك ومشتقتلكم كلكم خير الله. بس إنت بتعرف، وحكينا كثير، أنا قرَّرت أبقى مع محمد، شو ما صار»، قلت: «بعرف، وبعرف إنُه من حقِّك تظلي معه، بس فكري بحالك وبالأولاد»، قالت: «فراس حبيبي، إذا ما وقَّفت مع جوزي بهذا الوقت الصعب، إيمتى بدي أوقف معُه؟!» كانت محقَّةً، وكنت خائفًا عليها. اتصلتْ كلَّ يومٍ وجدتْ فيه تغطية موبايل في زملكا لتطمئن علينا، وكلَّما اتصلت، تطلب أن تتحدَّث معي، وتقول: «ادعيلنا خيَّا»، كانت كلماتها تخيفني وتربكني، أدعو لها كما تريد، لم أكن أردُّ لها طلبًا، لكنِّي أسأل نفسي، هل تردُّ دعواتي القذائف والصواريخ والطلقات عنها وعن أولادها وزوجها وعن أهالي زملكا؟! لو كان الأمر كذلك، لبقيت أدعو الله حتَّى لا يبقى أيُّ إطلاق نارٍ ولا انفجار أيَّ قذائف أو صواريخ في البلد كلِّه.

لم يكن لي الخيار أن أرفض أو أوافق على اللجوء إلى المخيَّم، فقراري ليس بيدي، ولم يسألني أحد عن رأيي، كنت تحصيل حاصلٍ، مثل أيِّ غرضٍ في المنزل قرَّروا أن يأخذوه معهم، لا أن يتركوه ينتظر في المنزل. لم ينتبه أحدٌ إلى ضرورة سؤالي، ولو من باب المجاملة. الحروب تحطِّم اللياقات الاجتماعيَّة وتذهب للأساسيِّ. هناك خطرٌ على الجميع الذهاب، من يخدم نفسه يستطيع أن يبدي رأيه. من لا يستطيع خدمة نفسه مثلي لا يملك حقَّ المناقشة، فأنا لست مساعدًا في هذا الرحيل، إنَّما عبءٌ على عائلتي. ولا أحد يسأل العبء، هل تبقى أم تذهب معنا؟ فهو خارج المعادلة. طبعًا حزنت لأنَّهم لم يسألوني، وحزنت أكثر لأنِّي في هذا النوع من الأزمات أصاب بالشلل تمامًا، حتَّى أفقد القدرة على الكلام، حتَّى لا أعيقهم أقف في زاويةٍ

محدَّدةٍ، وأنتظر الأوامر إلى أيِّ جهةٍ أذهب، أو أنتظر يدًا ما تأتي لتصطحبني إلى حيث يجب عليَّ الذهاب. تمنَّيت في لحظة الرحيل لو أنِّي غير موجودٍ، تمنَّيت الموت على أن أبقى عبئًا على أهلي ينقلوني من مكانٍ إلى مكانٍ مثل أثاث المنزل. وكنت خائفًا من تجربة الانتقال إلى المخيَّم، مثلما خفت من إطلاق النار والصواريخ. لم أكن معتادًا على مخالطة الآخرين، لقد تكيَّفت مع عالمي الصغير في غرفتي المعزولة على سطح بيتنا منذ سنوات. اليوم باللجوء إلى المخيَّم، ليس لي غرفةٌ خاصَّةٌ، ولا أعرف تفاصيل المكان الذي سأعيش فيه، ممَّا يعني صعوبة التحرُّك في المكان. عليَّ تحسُّس الأثاث من جديدٍ حتَّى أتعرَّف أماكنه، فلا أصطدم به وأَعُدُّ خطوات اتجاهاتي، كم خطوةً باتجاه الحمَّام، وكم خطوةً باتجاه المطبخ، وكم خطوةً باتجاه الباب الخارج، وكم درجةً سوف أصعد... وكم... وكم. ولا أعرف ما الذي أستطيع عمله، عندما أتشارك العيش مع الآخرين. وهذا ما جعلني متوجِّسًا من التجربة القادمة، كنت سعيدًا لأنِّي هربت من دوما التي بات وضعها سيِّئًا للغاية والانفجارات فيها لا تهدأ، وكنت خائفًا من تجربة اللجوء إلى المخيَّم، والتعامل مع أناسٍ لم يسبق لي التعامل معهم.

لا أذكر هل زرت المخيَّم وأنا صغير أم لا؟ فأنا لا أملك ذاكرةً تتعلَّق بالمخيَّم سوى أحاديث أهلي عنه. وكلَّما جاء الحديث على زيارته، كان أبي يطلب منِّي الذهاب معهم. كنت أرفض العرض وأبقى في البيت، ليس لأنِّي لا أريد الذهاب إلى هناك، بل لأنِّي طالما شعرت أنَّ أبي لا يرغب في ذهابي إلى هناك، وعندما يدعوني للذهاب معهم في الزيارات المتباعدة التي يذهب فيها وحده أو مع العائلة، كنت أشعر أنَّها دعوةٌ شكليَّةٌ وغير جادَّةٍ، وأنَّه لا يرغب فعليًّا أن أرافقهم. ليس لأنَّه يخجل بي، إنَّما لأنَّه لا يريدني أن أسمع أيَّ تعليقٍ من أيٍّ من أقاربه يجرحني أو يحرجني، لا سيَّما أنَّ علاقات أبي مع عائلته كانت متوتِّرةً. ولا يريد أيضًا أن يسمع كلماتٍ أو تلميحات شماتةٍ لما أصابني، وكأنَّه عقابٌ إلهيٌّ على ذنبٍ ارتكبه هو. كنت أشعر

بذلك، وكنت أنفِّذ رغبته المقموعة، ولم يقتصر ذلك على الذهاب في زيارات المخيَّم فقط، بل كنت أحتجب في غرفتي ولا أخرج منها عندما يأتي أيُّ ضيفٍ من المخيَّم، ولا أريد أن أرى الزائر أيضًا، إلَّا إذا اقتحم الضيف غرفتي، عندها لا أستطيع فعل شيءٍ حيال ذلك. جعلتني الصورة المسبقة عندي عن المخيَّم أشعر أنَّه تجمُّعٌ من الشامتين، إذا لم أقل من الأعداء، كان المخيَّم في طفولتي مكانًا مبهمًا وغامضًا، مكانٌ يتحدَّث أبي عنه بتناقضٍ غير مفهومٍ، أحيانًا بالحبِّ والحنين لذكريات الطفولة والشباب الأوَّل، وأحيانًا بالكراهية الشديدة لما تعرَّض له من ظلمٍ، دون أن يحدِّد هذا الظلم عندما يتحدَّث أمامي. أمَّا أمِّي فتتحدَّث عنه بوصفه تجربةً مرَّت بها بحلوها ومرِّها، وأنَّها أصبحت من الماضي ولا تحمل ضغينةً تجاه أحدٍ، حتَّى جدَّتي التي كانت حماتها القاسية في تلك الأيام. تكلَّمت أمِّي المتسامحة عن أقسى تجاربها في المخيَّم وهي تضحك، وهذا ما كان يستفزُّ أبي مفرط الحساسيَّة. منعني الكلام المتناقض عن المخيَّم من تكوين صورةٍ حقيقيَّةٍ عنه، ولم أتخلَّص من كون المخيَّم مكانًا معاديًا لي شخصيًّا، وهذا ما جعل خوفي أكبر من تجربة اللجوء إليه قبل بدئها. وكان السؤال: ماذا سأفعل بين من يتصيَّدونني؟

في ظلِّ هذه المشاعر الشخصيَّة، وفي أجواء الاشتباكات في دوما، لجأنا إلى المخيَّم وأنا أحمل خوفي من أناسٍ لا أعرفهم قبل وصولي إلى هناك. في البداية أقمنا في بيتٍ صغيرٍ لعمَّتي بيان، ولأنِّي حبيس جسدي، فكلُّ الأماكن صغيرها وكبيرها سَواءٌ طالما أعيش داخل عتمتي. وفي هذا البيت لم يكن لي مكانٌ خاصٌّ لأهرب إليه، فكان عليَّ أن أسلِّم على كلِّ من جاء للسلام علينا، وأن أستمع إلى كلِّ الأحاديث، لم أكن لأستمع لها لولا هذا اللجوء. مع الزيارات المتكرِّرة والأحاديث المتشعِّبة، ومع حرص الجميع على السلام عليَّ، وتبادل أطراف الحديث معي، ولو بكلماتٍ فارغةٍ، لا سيَّما أنِّي الوحيد من أخوتي الذي لم يقابله أولاد أعمامي وعمَّاتي. الأحاديث التي دارت في الأيَّام

الأولى أشعرتني بأنَّه لا مبرِّر لحذري وخوفي منهم، فأنا لم أسمع أحاديث عدائيَّةً أو شامتةً، على العكس سمعت أحاديث التضامن الحقيقيِّ مع نكبتنا، عرض الجميع المساعدة الصادقة. وكما بدأ هؤلاء بالتعرُّف عليَّ، بدأت أنا بالتعرُّف عليهم، وتمييزهم من أصواتهم. هذا عامر ابن عمِّي خليل، وهذه أمينة ابنة عمَّتي بيان، وهذا صادق ابن عمِّي منير، وغيرهم الكثير.

عندما طلب منِّي أحمد ابن عمِّي خليل أن أرافقه إلى بيتهم، الذي لم يكن يبعد عن بيت عمَّتي بيان في المخيَّم أكثر من خمسمئة مترٍ كما قدَّرت، تمنَّعت في المرَّة الأولى والثانية، في الوقت الذي شجَّعتني أمِّي على الذهاب. في المرَّة الثالثة وتحت إلحاح أمِّي وإلحاح فضولي قرَّرت الذهاب معه رغم خوفي من التجربة. كانت المرَّة الأولى التي أخرج من البيت مع أحدٍ ليس من عائلتي الصغيرة. عندما خرجنا من المنزل، وضع يده بيدي، وأصبحنا نمشي كتفًا لكتفٍ، حالما خرجنا من مدخل البيت، بدأت أصوات السيَّارات وصوت الناس تأتي من بعيدٍ. يقع البيت الذي خرجنا منه في حارةٍ تطلُّ على شارع اليرموك، ويبعد عنه أربعين خطوةً، أي حوالي عشرين مترًا تقريبًا. وعندما أصبحنا في الشارع الرئيسيِّ، أصبح الضجيج يأتي من كلِّ اتجاهٍ، لا تدلُّ أصوات السيَّارات على ازدحام الشارع فقط، بل والناس أيضًا، أسمع أصواتهم يتحدَّثون ويصرخون ويشتمون، وفي ذلك اليوم اصطدمت بعددٍ هائلٍ من الناس خلال الخطوات التي مشيتها من بيت عمَّتي بيان وصولًا لبيت عمِّي خليل. الضجيج يحيط بي، وصوت أحمد يحاول شرح الوضع الذي نحن فيه بالقول: «هو الشارع بكون مليان بهذا الوقت من المسا، لإنُه الشارع تجاري، وما في محل تحط رجلك. وهلأ ملان أكثر، لإنُه كثير من اللاجئين سكنوا المدارس والجوامع، وبناموا محل بعض، وما في محل يروحوا عليه، ما في قدامهم، غير يمشوا بهذا الشارع رايح جاي»، كان ضجيج الشارع رهيبًا، لم أشعر بمثل هذا الضجيج بحياتي، عدد الأحذية التي تطرق الأرض

من حولي وأسمعها كان فظيعًا، الأحاديث الكثيرة التي يتحدَّثها الناس من حولي، والتي لا أستطيع فرزها عن بعضها، وأصوات السيَّارات التي تعاني من الازدحام، والأبواق التي تنطلق بين الحين والآخر، والشتائم التي تنطلق من هذه الجهة أو تلك من حولي، وأزيز أضواء المحلَّات، وصراخ الأطفال وبكاؤهم بين الحين والآخر، كلُّ هذا جعلني مذهولًا في المكان المزدحم الذي أمرُّ به، حتَّى إنِّي شعرت بحرارة الأجساد التي تصطدم بي بين الحين والآخر. إنَّه عالمٌ لم أختبره من قبل، لم أكن يومًا بين الجموع كما كنت في ذلك اليوم، وكانت شروح أحمد تضيف إلى الازدحام الذي أمرُّ به تفاصيل تجعله أكثر إثارةً وإدهاشًا. منذ خرجنا من المنزل، هو يشرح لي: «هذا صامد مقابلنا، وهو محل ببيع تطريزات وشغلات فلسطينيَّة، وهذا محل مفروشات، وهذا على شمالنا محمصة منيحة، اسمها محمصة اللحام، وهاي على يمينا مؤسسة الكهرباء، وهاي صيدلية السلطي، وهاي أحسن بياع كنافة، النابلسي بعمل كنافة مثل ما بعملوها بفلسطين، بتحب نفوت ناكل كنافة؟»، قلت: «شكرًا أحمد، غير مرَّة»، وعاد إلى الشرح: «هذا محل نظارات الكرمل صاحب عمَّك، وهاي بيت جدك. بتحب نفوت نسلم على عمتك؟»، قلت: «خلِّيها غير مرَّة»، وعاد إلى الشرح: «وهذا محل فلافل المنى قبال بيت جدَّك، أطيب فلافل بالمخيَّم، وهذا بزورية، وهذا محل حمادة ببيع جبنة ولبنة، وجنبُه فرن حمدان لخبز الصمون. وهلأ بدنا نلف على اليسار منشان نروح على بيتنا»، انعطفنا، وبدأ صوت الضجيج يخفُّ، وصمت أحمد عن الشرح، وأخذ يسألني عن أهلي، تبادلنا بعض الكلمات، عندما قال: «هاي بيتنا، وصلنا».

فتح باب الحديد الخارجيِّ الذي سمعت صريره، قال: «تفضَّل. انتبه في درجة»، تحسَّست الدرجة بقدمي، وأمسكت بطرف الباب بيدي وهو خلفي يمسك بيدي الأخرى، صعدت الدرجة، مشينا خطواتٍ عدَّةً، قال: «هذا درج»، أمسكت بطرف الدرج وأخذت أصعد، صعدت درجين، عندما

فُتِحَ بابٌ آخر، وسمعت صريره أيضًا، وقال: «تفضَّل هذا بيتي، بس انتبه في عتبة صغيرة»، تحسَّست العتبة بطرف قدمي ودخلت، قادني من يدي، وقال: «هاي صوفا، تفضل، ارتاح»، جلست وتحسَّست الصوفا التي أجلسني على طرفها بالقرب من مسندها. وقال بصوتٍ عالٍ: «وين أهل البيت. تعو سلموا»، سمعت صوت أقدامٍ، وصوتًا ناعمًا لامرأةٍ تقول: «أهلا وسهلا، نوَّر البيت. أهلًا فيك ببيتك»، مددت يدي للسلام، أمسكت يدي بيديها الاثنتين، شعرت بلمسة تضامنٍ، صوت سهيلة زوجة أحمد فيه الكثير من الحنان، وابنته هبة لها نفس طريقة كلام أمِّها، دون أن يكون لها ذات الصوت. أمَّا ابنته هيفاء، فكان لها صوتًا مختلفًا فيه رنَّةٌ غنائيَّةٌ غريبةٌ. أمَّا ابنه مهنَّد الذي في الرابعة من عمره، فكان له صوتٌ صاخبٌ طوال الوقت، يحكي وينتقَّل من مكانٍ إلى آخر، وعندما اقترب منِّي قال أحمد لابنه: «سلم مثل الرجال وبوسه»، شعرت أنَّه يقف أمامي في المكان الذي أجلس فيه، مدَدتُ يدي، أخذ يدي، وقرَّب وجهه وقبَّلني من خدِّي وقبَّلته من خدِّه مرَّتين مثل الكبار. ضحكت من سلوكه الطفوليِّ وتمثيله الجديَّة، بعد لحظاتٍ عاد إلى صخبه.

خلال دقائق عرف الكلُّ في البناية أنِّي في بيت أحمد، فأولاد عمِّي الذكور جميعًا وعمِّي يسكنون في البناية ذاتها. في البداية جاء عدنان وزوجته وأولاده، وبعدها جاء عامر وبعده بقليلٍ جاءت زوجته وأولاده. دخلت امرأةٌ تقول وهي داخلةٌ: «زارتنا البركة، كيفك يا خالتي؟»، شعرت بها إلى جانبي، أمسكت يدي وقبَّلتني، وهي تقول: «أنا مرت عمَّك حبيبي»، وتوجَّهت بالكلام لأحمد قائلةً: «وله، كيف بتجيبُه لهون قبل ما تجيبُه على بيتنا»، قالت موجِّهةً الكلام لي: «أهلا وسهلا فيك، كل البيوت بيتك حبيبي. هاي عمَّك جاي وراي يسلِّم عليك»، قلت: «تسلم البيوت وصحابها. خالتي أنا بروح سلم على عمِّي»، قالت: «لا، هو براسُه بجي بسلِّم عليك. بس عبيكحي مع أبوك شوي»، بعد قليلٍ دخل عمِّي خليل وهو يقول

بالفصحى: «فراس في ديارنا، يا مرحبا... يا مرحبا»، عندما سمعت صوته، وقفت لأسلِّم عليه، أخذني في الأحضان وهو يقول: «كيفك حبيبي»، قلت: «الحمد لله»، قال: «حكيت مع أبوك، اليوم رح تتغدَّى عنَّا. ما فيك تقول لأ»، قلت: «طبعًا، عمِّي ما فيني أقلك لأ»، غادر الأطفال بعد السلام، حتَّى عمِّي وزوجته غادرا إلى بيتهم، على أن يكون الغداء عندهم. وبقي أبناء عمِّي الثلاثة عامر وعدنان وأحمد.

دارت أحاديث متنوِّعةٌ، ونكاتٌ لا تنتهي، نسيت نفسي، ونسيت خوفي، ونسيت الحرب. كنت محمومًا والدموع تريد السقوط من عيني وأمسكها بصعوبةٍ وقلبي يرتجف بطريقةٍ غريبةٍ، لم أكن سعيدًا في حياتي كما كنت في ذلك اليوم. أنا وحدي دون مرافقٍ بين أناسٍ أكون معهم لأوَّل مرَّةٍ، يبدِّدون خوفي بعد دقائق. لم أصدِّق ما أنا فيه، ولم أصدِّق أنَّني أستطيع أن أفرح كلَّ هذا الفرح. وكأنَّني انتظرت حدثًا من هذا النوع لأعرف أنَّ هناك عالمٌ أستطيع أن أكون جزءًا منه، ويكون متعاطفًا معي، دون خوفٍ من وضعي. أفقدتني الحرب القليل من الثقة بالنفس التي كانت عندي، ولأنَّ الحرب قذرةٌ، جعلت خوفي أكبر وحوَّلته إلى رعبٍ، الذهاب وحدي إلى بيت عمِّي في المخيَّم، أعادت لي الثقة، ليس بنفسي فحسب، بل بالعالم الذي أعيش فيه أيضًا. فكما ينتج البعض الخوف والرعب مثل الحرب، هناك آخرون يستطيعون أن يمنحوننا التضامن في مواجهة الحرب القذرة. عندما طُرِحَت فكرة اللجوء خفت وتوجَّست من الانتقال إلى عالمٍ غريب لا أعرفه. مع التجربة جاء الواقع مختلفًا عمَّا تصوَّرت. هناك آخرون يفتحون أذرعهم لي على الرغم من عاهتي، والتي لم أعد أخجل منها بعد ساعةٍ من وجودي في بيت ابن عمِّي أحمد، ضحكت من كلِّ قلبي على قصص أحمد، وعلى الحكايات المضحكة التي تحصل مع عدنان وأحمد اللذين يحبَّان الصيد، وقد وعدني أحمد أن يصطحبني في رحلة صيدٍ عندما تهدأ الأوضاع في البلد. مضى الوقت سريعًا، غيَّرنا مكان جلوسنا إلى بيت عمِّي من أجل تناول

الغداء، وأكلت دون عقباتٍ بمساعدة الجميع الذين أرادوا مساعدتي بأيِّ شكلٍ. أصبح الوقت مساءً عندما اتصل أبي ليأتِ ويأخذني، قال له عمِّي: «لا تشغل بالك الأولاد بيوصلوه»، كان يومًا غريبًا، لم أعرف مثله من قبل. صحيحٌ أنِّي كنت أذهب أحيانًا عند بيت جدِّي لأمِّي في دوما، لكنِّي كنت أذهب إلى مكانٍ أعرف من فيه، وكانوا يأتون عندنا دائمًا، جدِّتي وجدَّي وأخوالي وخالاتي. وكان يرافقني أحدٌ من إخوتي أو أمِّي في تلك الزيارات. أمَّا في هذه المرَّة، كلُّ شيءٍ جديدٌ، أشخاصٌ لا أعرفهم من قبل، أقابلهم لأوَّل مرَّةٍ، يبدِّدون خوفًا متأصِّلًا عندي من الآخرين، زادته الحرب.

وافقت على هذه الزيارة على مضضٍ، وبعدها قلت لنفسي من الجيِّد أنِّي لم أرفض الذهاب، لكنت خسرت الكثير. فهي كانت شيئًا مختلفًا بالنسبة لي، وهي ما سيجعل حياتي في المخيَّم على قصرها مختلفةً عن الحياة التي عشتها سابقًا. عندما أعادني أحمد إلى بيت عمَّتي بيان. سألني في طريق العودة: «فراس، ليش ما بتتجوَّز؟» قلت: «ما ملاقي سبب لأتجوَّز»، قال: «أنا عندي صديق أعمى، بعزف عود وبغنِّي. تجوَّز وخلَّف ولاد زي الفل»، قلت: «ما بدي أظلم حدا معي»، قال: «ليش بتقول هيك؟ أنا بدبِّرلك أحلى عروس»، قلت: «أبوي حاول يقنعني بالزواج، بس أنا مش مقتنع»، قال ملمِّحًا وهو يشدُّ على يدي تضامنًا: «فراس أنت عندك مشكلة، أنت خربان شي؟»، ضحكت، كان يقصد إذا كان عندي مشكلةٌ جنسيَّةٌ، وأنِّي غير قادرٍ على ممارسة الجنس. قلت: «لا، ما عندي مشكلة»، قال: «خلص يا زلمة، ما دامك شغال، معناها لازم تتجوَّز»، ضحكت من جديدٍ، وقلت وأنا أضحك: «خلص، حسمت الموضوع؟»، قال: «عنجد، ليش ما بتتجوَّز؟»، قلت: «بصراحة أحمد، فكَّرت بالموضوع كثير، أكيد عندي رغبة أتجوَّز مثل كل الرجال ويكون عندي ولاد. بس ما قادر أظلم حدا معي، لا مرة، ولا ولد أخلفوا. أنت بتعرف، إنُه عماي رح يبقى وصمة عار على جبين ابني أو بنتي طول عمرهم. وأنا ما بقبل هذا الشي. هذا ما جناه عليَّ أبي، وما جنيت على

أحد. زي ما قال المعري. ما بقدر أقول هذا لأبوي. بس كمان مش قادر أخلِّف ولد، أظلمُه وأنا عايش، ويظل مظلوم حتَّى بعد ما أموت»، لأوَّل مرَّة أشرح موقفي من الزواج دون حساباتٍ، مثل تلك التي أحسبها عندما يحدِّثني أبي أو أمِّي في الموضوع. عندما وصلنا وعدني أحمد أن يأتي كلَّ يومٍ، ليأخذني في جولةٍ، وأنا وافقت. وعندما عدت، سألتني أمي: «كيف كان مشوارك؟»، قلت: «ممتاز»، قالت: «الحمد لله، خفت ما يعجبك وتتضايق»، قلت: «عمِّي وولادُه ما في منهم».

لم يخلف أحمد موعده، حضر في اليوم التالي واصطحبني. مشينا في شارع اليرموك المزدحم، وكان المشي فيه صعبًا عليَّ، فالحارات تقطع رصيفه كثيرًا، عند كلِّ حارةٍ يتقطَّع الرصيف ليبدأ من جديدٍ بعد أن تنتهي الحارة، أي عليَّ النزول عن الرصيف عند كلِّ حارةٍ، والعودة إليه من جديدٍ، وهو ما ينبِّهني إليه أحمد، ما جعل الحديث بيننا مُتقطِّعًا. نعود بعد أن نقوم بجولة مشي، ونجلس مع الذين يجلسون أمام دكَّانهم، فقد توقَّفت أعمالهم في مكبس الخشب الذي يملكونه وباتوا عاطلين عن العمل. فبعد أن شهدت البلد حركة بناء مخالفاتٍ كثيرةً في بداية الاحتجاجات. توقَّف البناء فجأةً، لأنَّ الناس شعروا أنَّ الصراع ليس له نهايةٌ قريبةٌ. كان يجتمع أمام محلِّهم أناسٌ مختلفون من بعض الجيران والأصدقاء والأقارب. وتدور أحاديث مختلفةٌ حول البلد وما يجري فيها، وحول قضايا بعيدةٍ كلَّ البعد عمَّا يجري. بين الحين والآخر نسمع صوت إطلاق نارٍ أو انفجار قذيفةٍ بعيدٍ. في الأيَّام الأولى كنت مستمعًا عندما يكون عدد الجالسين أمام المحلِّ كبيرًا. وعندما لا يكون هناك أحدٌ من الضيوف أمام المحلِّ، ندخل إلى بيت أحمد أو إلى بيت عمِّي، حيث تجتمع كلُّ العائلة عنده في المساء. تطوَّرت العلاقة بيني وبين أحمد بسرعةٍ، مبكرًا عرفت مبالغاته، كما عرفت طيبته أيضًا، ولأوَّل مرَّةٍ شعرت أنِّي أملك صديقًا حقيقيًّا، وليس ابن عمِّي فقط. لم يعد يحرجني الخروج معه كما في المرَّات الأولى، أصبحت أنتظره كلَّ يومٍ،

وعندما لا يأتي أتململ، فالخروج يوفِّر لي حريَّةً لم أعرفها من قبل. أستطيع التحدُّث مع أحمد، وحتَّى مع أصدقائه بحريَّةٍ، لم أشعر بها عندما أتحدَّث مع أهلي وإخوتي، معهم أشعر أنَّ حدودًا وحواجز يجب الوقوف عندها. وهناك أحاديث لا أستطيع إدارتها معهم، خاصَّة النكات حول الجنس التي سمعت الكثير منها في تلك الجلسات.

شكَّل أحمد عالمي في المخيَّم، لولاه لكانت المدَّة التي قضيَّتها هناك تعادل الجحيم. كما أنَّه استمتع بمرافقتي والحديث معي. روى لي مغامراته، في طفولته وشبابه، وفي أثناء خدمته العسكريَّة، وفي الصيد والشغل. لم يكن يبالغ وحسب، بل وكذب أيضًا مخترعًا بطولاتٍ مستحيلةً، ادَّعيت التصديق، حتَّى لا أخسر صداقته، وأخسر الفسحة التي يوفِّرها لي بحرصه على مرافقتي. كنت أعرف أنَّ كذبه أبيض، وأنَّه يدَّعي بطولاتٍ ليجعل لحياته معنًى. وهو المعنى الذي وجده في انطلاق الاحتجاجات في البلد، إذ عمل على نقل الهاربين من الأماكن المشتعلة في محيط المخيَّم إلى أماكن الإيواء في المدارس والجوامع، حيث ينتظرهم مع أصدقائه في المواقع التي تفصلها عن المخيَّم، وعندما يصلون ينقلونهم بسيَّاراتهم، أو يساعد في نقل المساعدات إلى أماكن تجمُّع اللاجئين. منعت الحادثة التي جرت أمام بيتهم أحمد من المجيء لاصطحابي لأيَّامٍ عدَّةٍ، فقد أصيب بطلقةٍ في فخذه عندما قُتِلَ جارهم على يد أحد حرَّاس المبنى المقابل لبيتهم. لم تكن الإصابة خطرةً، كان ألم مقتل جارهم وصديقهم أكثر من ألم الجرح السطحيِّ الذي تسبَّبت به الطلقة. عندما عرفت أنَّه أصيب بطلقةٍ طلبت من أخي منذر اصطحابي لزيارته، وهذا ما كان. هناك روى لي ما حدث من شجارٍ وإطلاق نارٍ، وكان حزينًا على جارهم الذي قُتِلَ، وفقد روح الدعابة التي تمتَّع بها. قدَّمت له التعازي، وقلت له: «إنَّ الحياة ستستمرُّ في النهاية»، كانت الأيَّام التي قضيتها دون أن يأخذني أحمد مملَّةً. لم يطل غيابه، بعد حوالي أسبوع،

سمعت صوته في البناء حيث نقيم، شعرت بالسعادة، فأنا لن أبقى عالقًا في هذا الازدحام بفضله.

لم يكن أحمد متنفَّسي فحسب، بل وكنت متنفَّسه أيضًا، وعرفت أنَّ ما يسرُّه لي لا يقوله لأحدٍ آخر، فنحن دائمًا بحاجةٍ إلى من نلقي عليه ثقل أسرارنا، وأنا الشخص الذي اختاره أحمد لأن يبوح لي بأسراره. تحدَّث عن مشكلاته مع أبيه وأخيه في الشغل، عن قصَّة حبِّه الطويلة مع سهيلة قبل الزواج، وتحدَّث عن مشكلاته معها، وأنَّها بالرغم من قصَّة الحبِّ التي عاشاها، إلَّا أنَّها لا تفهمه مثل الآخرين، وكان يقول: «ما حدا فاهمني. ما حدا بقدر اللي بعملُه»، عدَّ نفسه مظلومًا بين إخوته، وأنَّ كلَّ ما يفعله لا يرضي أباه، وأنَّ أيَّ شيءٍ يفعله إخوته الآخرين ينالون مقابله الرضا منه. سألني عن رأيي في المشكلات التي يقولها، ولم أكن أجامله، كنت أقول رأيي بصراحةٍ، طبعًا ليس بطريقةٍ جارحةٍ. كان بحاجةٍ ليتحدَّث عن أوجاعه، ومن يريد التحدُّث يريد من يستمع إليه، لا من يقدِّم له النصح، وأنا كنت المستمع حتَّى يشرح أحمد مشكلته لنفسه بصوتٍ عالٍ. وأنا أيضًا كنت بحاجةٍ لأن أشرح نفسي، لم أمرَّ بهذا الاختبار من قبل، لم أجرِّب أن أشرح معنى حياتي بالشكل الحقيقيِّ للكلمة من قبل، أحمد منحني هذه الفرصة، واكتشفت أنِّي كنت بحاجةٍ لأن أشرحها لنفسي بصوتٍ عالٍ أيضًا، وكان أحمد وسيلتي لفعل ذلك.

«ما بعرف إذا كنت راضي عن نفسي ولا لأ؟ أحيانًا، حسيت برضا كبير وبتشجيع من أهلي، لأنِّي قدرت أقوم باللي قمت فيه. وأحيانًا أخرى، حسيت بأنُه ما في جدوى، شو يعني يدرس واحد مثلي ويتخرَّج في الجامعة، وهو ما رح يقدر يشتغل باللي درسُه في نهاية المطاف، كأنِّي مشيت بطريق عبثي واشتغلت عليه منشان أرضي غروري. حتَّى الدراسة ما كانت إنجازي فعليًّا، لو كان عندي عائلة مختلفة ومش متفهِّمة ومش متضامنة معي، ما كنت قدرت أساوي شي من اللي ساويته. إخوتي هم اللي درسوا وسهروا

معي الليالي يقرأوا لي كتبي الجامعية المملة، وغيرها من الكتب. كان بدهم ياني أنجح منشاني، وأنا كان بدي أنجح منشانهم. لهيك أنا ممنون إلهم، لهاي الحياة اللي عشتها واللي خلتني قادر على تحمُّل وضعي، وإنُه أقضي وقت ممتع وأنا أستمع للكتب التي بقرأوها إلي»، هكذا اختصرت حياتي لأحمد. في البداية، سأل الكثير من الأسئلة، كنت أردُّ عليها بالكثير من التحفُّظ، حتَّى لا أقول شيئًا لا أرغب به، أو لا يرغب هو به. بعد فترةٍ قصيرةٍ تركت نفسي أشرح نفسي وأقول ما أشاء دون تحفُّظٍ، شعرت أنِّي مرتاحٌ بالتحدُّث عن حياتي دون حسابات. لم يهمَّني تناقضي، أردت رسم صورةٍ لنفسي أمام نفسي، منحني أحمد هذه الفرصة. بدأت ضرورة هذا الشرح، عندما سألني أحمد عن الزواج، صحيحٌ أنِّي أجبته وقتها بمقولة المعرِّي عن عدم رغبتي في ارتكاب جنايةٍ تجاه أحدٍ بجلبه إلى هذه الحياة. كان هذا تبسيطًا للقضيَّة التي شرحتها له فيما بعد بالقول: «والله يا أحمد، أنا مثلي مثل كل الرجال، بدِّي أتجوَّز وأخلِّف ولاد وأعمل عيلة كمان. بس بحس إنُه مو من حقِّي أعمل هيك. أحيانًا بكذب على حالي، وبقول أنا أحسن من المفتحين. بس الحقيقة، إنُه الأعمى ما بقدر يعمل عيلة لألف سبب وسبب. لو بقدر أعمل هيك، على الأقل، كنت حسيت حالي مفيد بشي شغلة، على الأقل خلفت ولاد رح يحملوا اسمي، مثل كل الناس. بس أنا مش مثل كل الناس لأعمل هيك، وهذا مش ميزة، هذا عيب فيني. ما بعرف إذا كانوا صحاب العاهات الأخرى بينسوا عاهاتهم في وقت ما. أنا أعمى وما بقدر أنسى إني أعمى وأقوم أركض من مكاني، لأنِّي رح أصطدم بألف شيء، قبل ما أخطو ثلاث خطوات»، قال: «إنت ليش مكبِّرها، إذا لقيت وحدة راضية فيك، ليش تعذِّب حالك وتظلَّك بلا زواج وبلا عيلة. في كثير بنات بقبلوا فيك. وبعرف عميان وأصحاب عاهات تجوَّزوا وعملوا عائلات وعايشين مبسوطين»، قلت: «ما بعرف كيف هدولون اللي بتحكي عنهم قادرين يكونوا مسؤولين عن عيلتهم. يمكن اللي بتقولُه صحيح، بلاقي

اللي بتقبل فيني. بس أنا بسأل حالي، لو كنت أنا مرة، بتجوز واحد أعمى؟ جوابي قطعًا، لا. منشان هيك، ما بقتنع إنُه زواجي من مرة ممكن، وأكثر من هيك، ماني مقتنع أخلِّف ولاد، يشفقوا على أبوهم العاجز، أو يستحوا فيه»، قال: «أنا فاهمك، بس الواحد بالحياة بدُه يطنِّش كثير أشياء حتَّى تمشي الحياة»، قلت: «والله يا أحمد، بطنِّش كثير، بس في حالتي في كثير شغلات ما فيني طنِّشها. بعدين، إنُه الواحد يعمل عيلة، مانُه شغلة كبيرة، كل الأغبياء بقدروا يعملوا عائلات. أنا أخذت قراري، العيلة ما بتنفع إليّ، هذا قرار اتخذتُه من زمان. وبقدر الواحد يعيش بدون هذا الهم»، قال: «طيب شو اللي بدك تعملُه؟» فاجأني السؤال، ليس لأنِّي لم أفكِّر فيه، بل لأنَّه عاملني كشخصٍ طبيعيٍّ. قلت: «ما رح أعمل شي. واحد مثلي شو ممكن يعمل غير انتظار فرج ما رح يجي. أنا ما عندي أوهام، أنا ما عملت شي بحياتي، ولا رح أعمل شي بعد هيك. أنا مو شخص فائض عن الحاجة وبس، أنا عبء على أهلي كمان. صحيح إنِّي درست، بس ما تأهَّلت لأي نوع من أنواع الشغل، ما حدا بياخذ أعمى ليشتغل عندُه. يمكن الأعمى يشحد وبقدر يلم مصاري من ورا الشحدة، ويعيش من وراها، يعني يعيش من ورا تضامن الناس معُه وشفقتهم عليه ورأفةً بعاهتُه. بس الإنسان ما بقدر يشتغل دون بصر، يمكن الأطرش والأخرس ومقطوع الرجلين يشتغلوا، بس الأعمى لا، حكمت عليه عاهتُه يبقى عالة على الآخرين حتَّى يموت»، شعر أحمد أنَّ بحَّة بكاء في صوتي، وبات الحديث مؤلـمًا بالنسبة لي، فتوقَّف، وقال: «أنا بعتذر عمِّي فراس، فتحتلك جروحك»، قلت: «ولا يهمك، ما في داعي للاعتذار، لإنُه الجروح ما سكَّرت أصلًا لتفتحها».

لم تقتصر علاقاتي في المخيَّم على بيت عمِّي خليل وأولاده، بل تعرَّفت على الجميع، وعلى عكس المبادرة التي أقدم عليها أحمد باصطحابي، كان الآخرون يزوروننا حيث نقيم، في البداية في بيت عمَّتي بيان، وبعد سفر عمَّتي وداد انتقلنا للإقامة في بيت جدِّي الذي كانت تشغله قبل سفرها إلى

السعودية. يبدو أنَّ خلافًا وقع بشأن إقامتنا في بيت جدِّي، كأنَّ عمَّتي وداد عارضت الفكرة. لم يحدِّثني أبي عن الخلافات العائليَّة، وتجنَّب الحديث فيها أمامي، وكان إخوتي يوافقونه الرأي، وهم أيضًا يتجنَّبون الحديث معي عن هذه المشكلات إذا ما عرفوا بها، لأنَّ أبي لم يكن يحبُّ الحديث بشأن هذه المشكلات حتَّى أمام إخوتي، إلَّا عندما يضطر لذلك. ليس ذلك ممكنًا بعد لجوؤنا إلى المخيَّم، وليس بمقدور أبي تجنيبي وإخوتي معرفة الخلافات في العائلة، بقي أبي بعيدًا في دوما لأنَّه أراد الابتعاد عن خلافات العائلة، وأن يُجنِّبنا -نحن أولاده- هذه الخلافات، لذلك أخفاها عنَّا. بدأت أسمع عن هذه الخلافات والصراعات مع تفجُّر الخلاف على السكن في بيت جدِّي، كان أبي حزينًا، فطوال عمره لم يحتج من أهله شيئًا، وعندما احتاج اللجوء المؤقَّت إلى المخيَّم عُومِلَ بهذه الطريقة المحرجة. شعر بظلمٍ يضاف على الظلم الذي شعر به منذ زمنٍ طويلٍ، جرحٌ لم يلتئم عنده، وأتى تصرُّف عمَّتي وداد قبل سفرها وإغلاق شقَّة بيت جدِّي وعدم دعوتنا للعيش فيها ليفتح الجرح من جديدٍ، رغم أنَّ المشكلة حُلَّت وفتح أبي البيت بعد سفرها بطلبٍ ورجاءٍ منها. عدَّ أبي سلوك عمَّتي استمرارًا للنبذ والكراهية التي تعامل أهله معه بها عندما خرج من منزل العائلة أوَّل مرَّةٍ قبل أكثر من أربعين عامًا، ويستثني من هذا الوضع عمِّي خليل الذي وقف معه في محنته، وعمَّتي بيان التي وقفت معه إلى حدٍّ ما، وكانت في الوقت نفسه لا تريد أن تصطدم مع بيت جدِّي. الخلاف مع عمَّتي وداد فتح كلَّ الخلافات السابقة، ليس بين أبي وأهله، بل بين الجميع، وعرفت أنَّ عالم بيت جدِّي لأبي الذي أغلقه أبي أمامنا، وهو عالمٌ مليءٌ بالحكايات والخلافات والشجارات والمؤامرات والدسائس والنميمة، شعرت أنَّ حربًا تدور في هذه العائلة، تهدأ أحيانًا، وتشتعل أحيانًا أخرى، تحصل هدنٌ، وتتغيَّر التحالفات، وتنتقل الجبهات، وتختلف الأسلحة، والحرب تبقى دائرةً في كلِّ الحالات.

منذ بدأت الأحداث، أخذت القراءة لي تتراجع، لم تعد رشا تأتي لتقرأ لي كما كانت تفعل، حتَّى بعد أن تزوَّجت، لأنَّ التنقُّل بين بلدة زملكا حيث تعيش مع زوجها وبين بلدة دوما حيث كنَّا نسكن باتت محفوفةً بالخطر، وبعد ذلك أصبحت محاصرةً، واقتصرت أحاديثنا على الهاتف. لم يبقَ معي في البيت سوى غدير، التي باتت تملُّ من القراءة مع بدء الأحداث، وأصبحت متقطِّعةً. أمَّا بعد أن لجأنا إلى المخيَّم، لم يعد هناك من يقرأ لي نهائيًّا. صحيحٌ أنِّي خسرت القراءات في الحرب، لكنِّي لم أعرف أنَّه ينتظرني عالمٌ من القصص الحقيقيَّة سيعوِّض غياب القراءة. لم أتعمَّد الاستماع إلى الكثير من القصص التي سمعتها بسبب ضيق المكان، واضطرار أفراد العائلة لنقاش هذه القضايا على مسامعي. أُحرِجَ أبي من هذه القصص التي أخفاها عنَّا، أو التي لم يكن يعرفها أصلًا لعدم اهتمامه بالعائلة وأخبارها والبعد عنها. لم أسمع قصص الخلافات داخل العائلة الكبرى فحسب، بل سمعت الكثير من الخلافات داخل العائلات الصغيرة أيضًا، وأحيانًا انتابني فضولٌ لمعرفة المزيد من القصص، لا سيَّما عن الشخصيَّات الغامضة في العائلة. شغلني جدِّي كثيرًا، فهو شخصيَّةٌ غريبةٌ وغامضةٌ، وشعرت أنَّه يشبهني بمعنًى أو آخر، ليس لدرجة القرابة بيني وبينه، ولا لأنَّه فقد عينه في حرب فلسطين، بل لأنَّه اختار العزلة الإراديَّة وسجن نفسه فيها. سمعت عنه قصصًا كثيرةً ومتناقضةً. كان رجلًا بقوَّة هرقل كما قالوا، لم أصدِّق ذلك، لولا أنَّ الجميع شهد على ذلك، ليس بالأقوال المنقولة، بل بالمشاهدات والأفعال. قال عمِّي خليل، كان جدِّي رجلًا قاسيًا، وضربه ضربًا مبرحًا، فقد كان عمِّي خليل يُخرِّب حذاءه دائمًا عندما يلعب كرة القدم مع أولاد الحارة في حي الأمين، ولأنَّ عمِّي فَقَدَ مشط رجله بسبب لغمٍ انفجر به وهو ولدٌ صغيرٌ في البلدة في فلسطين، كان يحطِّم الحذاء كلَّما ضرب الكرة بقدمه المعطوبة بقوَّةٍ، ولأنَّ حذاءه خاصٌّ ومكلفٌ، يُفَصَّل له شخصيًّا، وهو ما كان يستفزُّ جدِّي، فيضربه. عمِّي خليل يحبُّ رواية حكاية الحذاء المكسور، والجميع

سمعها منه مرَّاتٍ عدَّةً. قال عمِّي خليل: «بس كنت صغير، كنت بموت رعب من أبوي»، عمَّتي بيان عكس عمِّي خليل، تحبُّه وقالت عنه: «أحنُّ أبٍ في العالم»، كان يحبُّها كثيراً، عندما ضربها عمِّي خليل في شبابهم، لم يقبل جدِّي أن تُضرَبَ ابنته المدلَّلة وهو على قيد الحياة. عندما عاد إلى المنزل، وأخبرته عمَّتي بما جرى. قام بصفع عمِّي خليل، ما أدَّى إلى كسرٍ في فكِّه بسبب تلك الصفعة القويَّة، التي أقعدته شهرًا كاملًا في المنزل. لم يكن رجلًا متزمِّتًا كما قالت عمَّتي بيان، كان أكثر تحرُّرًا من أولاده جميعًا، لقد ذهب معها لمدَّة عامين إلى القنيطرة قبل احتلالها في العام 1967 عندما حصلت على وظيفة مدرِّسةٍ في الأونروا، لم يجد في عمل ابنته أيَّ عيبٍ، كما رأى الآخرون من جيله. أبي يرى عكس ذلك، إنَّه ذهب مع عمَّتي لأنَّها كانت استثمارًا جيِّدًا له، لم يكن يظهر في الصورة، كان يسعد بالمال، الذي يقول: «أعطوه لأمِّكم، أنا ما بدِّي منكم شي»، وقال أبي: «إمِّي ما كانت بتقدر تتصرَّف بشي بدون موافقة منُه. كنَّا أربعة موظَّفين، بندفع بالبيت، غير شغلُه هو، كل الناس عرفت تستثمر مصاريها، إلَّا هو، كان معنا مصاري، وما عرفنا نستعملها»، ويعرِّج على الخلاف العائلي الذي جعله يخرج من المنزل، قال: «كان يمكن لأبوي حل المشكلة ببساطة، بإنُه يشتري بيت قريب، ويقولي، روح واسكن هناك»، وعندما علَّقت عمَّتي بيان: «ما كان معُه مصاري»، قال أبي: «لا يا ستِّي، ما كان معُه حق بيت بس، كان معُه حق أربع بيوت»، ولما سألتُه: «ليش ما عمل هيك؟»، أجاب أبي دون تردُّدٍ: «لأنُه أناني» كانت علاقات أعمامي وعمَّاتي مع جدِّي متفاوتةً وآراءهم فيه مختلفةً جدًّا.

من مفارقات القصص العائليَّة أنَّ عمِّي سعيد الأقرب إلى أبي بالعمر، وهو أصغر منه بنحو العامين والنصف، لم يقف معه في خلافه مع بيت جدِّي، أي أنَّه لم يدعمه ولا حتَّى ماديًّا، رغم أنَّه كان يعمل مدرِّسًا. تفسير ذلك، أنَّه أراد الخلاص من أبي ليتزوَّج في المكان الذي تركه أبي، فهو وفق

تقييم الكلِّ له، شخصٌ أنانيٌّ ولا يحبُّ سوى نفسه. وهو طوال عمره كذلك، وسمعت أجزاءً من قصَّة اختفاء ذهب جدَّتي بعد وفاتها لبعض الوقت، وفهمت أنَّ عمِّي سعيد المسؤول عن هذه الحادثة التي خلقت مشكلةً بين أعمامي وعمَّاتي جميعهم. حاولت أن أفهم ما جرى، سألت أبي، الذي تجاهل سؤالي. سألت عمِّي خليل، الذي رفض التحدُّث عن الموضوع، قال: «قصَّة وراحت بحالها»، كذلك الحال بالنسبة لعمَّتي بيان وعمَّتي نوال اللواتي تحفَّظتا على الحديث عن الموضوع. عمَّتي نوال قالت: «حكي فاضي. ما في شي منُه»، فهمت أنَّ عمَّتي وداد، كانت تخجل بجدِّي، عدَّت نفسها أهمَّ وأكثر رقيًّا من العائلة التي تنتمي إليها. لم أسمع رأي عمَّتي وداد منها شخصيًّا، لأنِّي لم أقابلها سوى مرَّةٍ واحدةٍ عندما جاءت للسلام علينا بعد أن لجأنا إلى المخيَّم، وكنَّا ما نزال نسكن في بيت عمَّتي بيان. بعد ذلك، سافرت ولم يتسنَ لي التعرُّف عليها وعلى بناتها عن قربٍ، ولم أستطع سماع رأيها بالآخرين. ما سمعته عن رأيها بجدِّي والعائلة سمعته من الآخرين. عمِّي عمر، كان يدافع عن جدِّي، لأنَّه رجلٌ طيِّبٌ، وصاحب قلبٍ حنونٍ، فهو لم يقصِّر مع أحدٍ، لا سيَّما معه هو الذي احتضنه طوال الوقت. عندما أسمع رأي الآخرين بعلاقة عمِّي عمر بجدِّي، أبي وعمِّي خليل وعمَّتي بيان يتفقون على أنَّ جدِّي وجدَّتي كانا السبب في فشل عمِّي عمر في حياته. فهما اللذين أصرَّا على حمايته مع كلِّ تصرُّفاته غير اللائقة، أوَّلها الفشل الدراسيُّ، فهو واحدٌ من اثنين في العائلة فشلوا فشلًا دراسيًّا، ولم يستطيعا تجاوز الشهادة الثانوية، هو وعمِّي الكبير عبد الرحمن. رعيا وموَّلا فشله، وهو استمرأ هذه العلاقة، فكلَّما ارتكب حماقةً، ذهب إليهما ليحلَّا له المشكلة، وكانا يفعلان ذلك. عمَّتي نوال لم يكن لها رأيٌ بأيِّ شيءٍ، طوال الوقت مشغولةٌ في الرفع من شأن أولادها، دون مبرِّرٍ. عمِّي منير كان حالةً خاصَّةً بين أعمامي أيضًا، تحدَّثت معه مرَّاتٍ عدَّةً، خاصَّة وأنَّه عدَّني زميل دراسةٍ، فنحن خريجي الكليَّة ذاتها، وعندما قلت له مازحًا: «أنا بدي

أتدرَّب عندك على المحاماة»، قال لي: «نصيحة، شوف محامي ثاني. إذا بدك تتدرَّب عندي، رح تظل محامي فقير. إذا بدك تصير محامي غني، شوف غيري»، وكان يقول ذلك ساخرًا من مهنته التي لا يحبُّها، وهذا ما كان يقوله على الملأ. كنت أرغب في التعرُّف عليه أكثر، فهو شخصيَّةٌ تستحقُّ التعرُّف عليها، لتجربته خصوصيَّةٌ مختلفةٌ عن كلِّ أعمامي. لكنَّ الوقت لم يسعفني، فهو غادر دمشق إلى القاهرة، بعد حوالي ثلاثة أسابيع من وصولنا إلى المخيَّم لاجئين. عندما سألته عن رأيه بجدِّي، سمعت أغرب صورةٍ تُرسَمُ لرجلٍ، قال: «أبوي طفل، بصورة رجل قوي، ما كان بقدر يقنع حدا بقوتُه، ترك إمِّي ترسملُه الصورة، وهو هرب منشان ما يخرِّب الصورة. ظلت إمِّي تهدِّدنا بأبوي غير الموجود في الواقع، إحنا صدَّقنا صورة إمِّي، ونسينا أبوي اللي بالواقع. وبس تعرَّفت عليه وهو كبير، عرفت إنُه رجل ساذج، خبرتُه بالحياة بسيطة، يمكن تكون معدومة كمان. بس صورة البطل والرجل القوي اللي اخترعتها إمِّي عجبتنا، وصرنا نعيدها بعدها، حتَّى نقنع أولادنا إنُه جدهم رجل خارق، رجل أسطورة، وكان صورة جميلة، منشان هيك ثبَّتناه على هاي الحال»، الحالة الغريبة في العائلة أيضًا، كانت عمِّي عبد الرحمن، المعادي لجدِّي وجدَّتي، «لأنهم خربوا بيتي، جوَّزوني وأنا صغير، وسرقوا أرضي اللي أعطتني إيَّاها الوكالة»، كما قال لي. أعمامي يقولون أنَّ روايته ليس لها أصلٌ. عمِّي خليل قال: «أنا شاهد كيف تجوَّز، غصب عن أهلي، وابتزهم ليوافقوا على الزواج وأنا كتبت رسائل الغضب تبع أبوي لإلُه. وهو اللي قال لأبوي ما بدي أرض الوكالة».

لم تكن قصص أعمامي وعمَّاتي وخلافاتهم هي القصص الوحيدة التي سمعتها في الأشهر القليلة التي عشتها في المخيَّم، بل عشرات القصص الأخرى عن خلافتهم مع أولادهم، وخلافات أولادهم مع بعضهم البعض، قصصٌ لا تنتهي، أنستني في كثيرٍ من الأحيان الحرب التي تدور حولنا، والتي كانت تذكِّرني بنفسها كلَّ يومٍ بأصوات القذائف أو إطلاق النار البعيد أو

القريب. كنت أنتصر على الحرب والخوف بسماع القصص، الكلُّ يحكي القصص في المخيَّم، حتَّى من لم يقصَّها من قبل، بات يقصُّها في زمن الحرب، التي لا أحد يعرف متى ستنتهي، بعد أن كان الكلُّ يعتقد أنَّها ستنتهي قريبًا لصالح أحد الطرفين، لكنَّها طالت، وستطول أكثر كما باتت قناعة الآخرين، دون أن يعرف أحدٌ نهايةً لهذا النفق. وبجلوسي مع أصدقاء وجيران أولاد عمِّي أمام دكَّانهم، صارت القصص أوسع لم تبقَ قصص العائلة، أصبحت قصص المخيَّم، وقصص البلد. لم أشعر بالغربة وأنا في المخيَّم، أصابني إحساسٌ أنِّي عشت عمري فيه. ولم يقتصر الأمر عليَّ أنا، بعد جلساتٍ عدَّةٍ مع من كانوا يجلسون أمام محلِّ أبناء عمِّي، أصبحوا يعاملوني وكأنِّي واحدٌ منهم. لم أسمع قصص المخيَّم مع المظاهرات فقط، بل سمعت قصَّة المخيَّم مع العمل الفدائيِّ أيضًا، وسمعت قصص النجاح والفشل والإحباط، قصصٌ غرائبيَّةٌ تحتاج إلى من يوثِّقها، قصصٌ وجدتها أجمل من كلِّ ما قُرِأَ لي من أعمالٍ أدبيَّةٍ، شعرت أنَّ الأدب يرتمي على الطرقات في المخيَّم، لكنَّه يحتاج إلى من يلتقطه ويشذِّبه ويضعه في قالبٍ، فنكون أمام عملٍ آسرٍ.

عندما قرَّر أبي اللجوء إلى المخيَّم، لم أفكِّر سوى في تفاصيل التكيُّف، كم خطوةً سيكون بين الباب الخارجيِّ وبين الغرفة التي سأنام فيها، ما هو عليه الطريق إلى الحمام، كم خطوةً من الباب حتَّى أصل إليه؟ وبعد خطواتٍ عدَّةٍ إلى أيِّ اتجاهٍ أنعطف لأجد الحمَّام؟ ما هي المفروشات التي في البيت، وكيف سأحفظها حتَّى أتجنَّب الاصطدام بها؟ هل سأجد خزانةً خاصَّةً، فأستطيع أن أعرف أغراضي كما أعرفها في بيتنا؟ حيث ترتِّب غدير أو أمِّي ملابسي، وتقولان لي ترتيبها في العلاقات من جاكيتات وقمصان، وهي لم تكن كثيرةً، وأيضًا البنطلونات، وما هو ترتيب ألوانها، وإلى جانبها تقف مكتبةٌ صغيرةٌ مليئةٌ بالكتب، مماثلةٌ لطول الخزانة، وأستطيع أن أعدَّ كلَّ الكتب التي فيها عن ظهر قلبٍ، من أوديسة هوميروس وديوان المتنبي

والفتوحات المكيَّة لابن عربي، مرورًا بالروايات، أبله ديستويفسكي وبؤساء هيجو وخميائي كويللو وأولاد حارتنا نجيب محفوظ وغيرها من الروايات، وصولًا إلى جداريَّة درويش وشيفرة دافنشي. مكتبةٌ ضيِّقةٌ تتسع لحوالي خمسين كتابًا، قرأها إخوتي لي، اخترتها لتبقى لأنِّي أحببت أن أعود إليها. أحبُّ حفظ أماكن الأشياء في غرفتي، كاليد المعدنيَّة المزيَّنة بالخرزة الزرقاء المعلَّقة على باب غرفتي من الخارج، والتي أتأكَّد من وجودها بتحريكها بيدي كلَّما دخلت إلى الغرفة أو خرجت منها. كما أتحسَّس بأصابع قدميَّ سجَّادتي الحمراء في أرض غرفتي الموشَّاة بورودٍ زرقاء وإطارات بيج، وهي التي أهدتني إيَّاها أختي رشا، ووصفتها لي بالتفصيل، حتَّى شعرت أنِّي أراها رغم عتمتي. إلى سريري أسود اللون والذي تغطِّية أغطيةٌ رماديَّةٌ، إلى جانبه طاولةٌ صغيرةٌ وبجانبها كرسيٌّ وحيدٌ بمقعدٍ من قماشٍ رماديٍّ وبظهرٍ حديديٍّ أسود. خزانتي البيضاء مقابل السرير، التي في وسطها مرآةٌ، أغرتني فكرة المرآة وانعكاس صورتي فيها، وتعاملت بعض الأحيان وكأنِّي أستخدمها للغرض الذي أُعِدَت له، بأن أقف قبالتها وأمثِّل أنِّي أعدِّل ملابسي وشعري مقابلها، وأزيل الشعر عن كتف سترتي، وكأنِّي شخصٌ مبصرٌ. كانت منى تحلف الأيمان، وتقول لو أنَّ أحدًا ما شاهدني من النافذة وأنا أرتِّب ملابسي وأصفِّف شعري أمام المرآة لما صدَّق أنِّي شخصٌ لا أبصر. كانت بنايتنا الأعلى في محيطها، ونحن نسكن الطابق الأخير، وتقع غرفتي فوق شقَّتنا، ولم يكن هناك من يستطيع رؤيتي من أيِّ مكانٍ، لأخدعه ويعتقد أنِّي مبصرٌ. على حائط الغرفة اليساريِّ لوحةٌ لسفينةٍ بأشرعةٍ تقاوم عاصفةً شديدةً وسط البحر، اللوحة كلُّها مشغولةٌ بتدريجات الأزرق، وهي لوحةٌ أهدتني إيَّاها أختي منى من أوَّل راتبٍ تسلَّمته من وظيفتها، كنت أحبُّ تحسُّس اللوحة وألوانها النافرة يوميًّا، وبعدما تُوفِّيت منى، أصبحت كلَّما لمست اللوحة، يجتاحني الشوق إلى منى، ويمسُّني حزنٌ حادٌّ، لم تتراجع حدَّته، موت منى لا يصدَّق وأنا لم أصدِّقه إلى الآن. عُلِقَت هذه اللوحة على الحائط المقابل

للنافذة المطلَّة على البساتين الكثيفة التي تقع بعد الطريق خلف البنايات التي تشكِّل بنايتنا إحداها، والتي أسمع منها هدير السيَّارات والشاحنات التي تمرُّ بالاتجاهين، أعرف اتجاهها بمعرفة أيَّ جهةٍ يذهب الصوت، يخفُّ ويختفي. وعلى سريري دبٌّ باندا قماشيٌّ كبير الحجم باللونين الأسود والأبيض، أهدتني إيَّاه أمِّي في عيد ميلادي الثالث عشر، وبقي على سريري منذ ذلك الوقت، حتَّى مغادرتنا البيت.

رغبت في اصطحاب الدبِّ عند لجوئنا أوَّل مرَّةٍ، لكنِّي خجلت، فهو كبير الحجم ويشغل مكانًا كبيرًا، ولا فائدة ترجى منه في اللجوء. كان هذا الدبُّ صديقي في كثيرٍ من الليالي القاسية التي مرَّت عليَّ في حياتي منذ اقتنيته. تحدَّثت معه عن كلِّ ما ضايقني في البيت والدراسة والحياة دون حرجٍ. شكوت له عن حاجتي الملحَّة للنساء وشوقي للمسهنَّ، إلى مسك لحمهنَّ بيدي، إلى تذوُّقه بلساني، إلى شمِّه، وإلى اختراق هذا اللحم وإطفاء النار التي تشتعل في دمي في هذا اللحم الأنثويِّ، بدل أن أطفئها بيدي وحيدًا ومحبطًا وحزينًا في عتمتي التي لا تنتهي. حدَّثته عن خوفي من تجربةٍ مع النساء لم أخضها، عن حبِّي لرائحة العطر النسائيِّ، وكم أتمنَّى أن أشمَّها من أعناقهنَّ. حدَّثته عن رغبتي في استئجار عاهرةٍ حتَّى أطفئ رغبتي وأعرف أيَّ التحامٍ يكون بين جسدين بشريَّين حتَّى ولو بالأجرة، وهي تجربةٌ لم أجرؤ على خوضها. تحدَّثت معه عن أحلامي وطموحاتي، عن فشلي وإحباطي. تحدَّثت معه كثيرًا عن عتمتي التي لا أستطع أن آلفها. بكيت على صدره ليالي طويلةً. تشاجرت معه، وعدَدتُه قاسيًا لأنَّه لا يحسُّ بمعاناتي، ولا يقدِّم لي النصائح التي أحتاجها. في كثيرٍ من الأحيان شعرت أنَّه يكلِّمني، يفهمني، ويبدي ملاحظاتٍ ثاقبةً تخفِّف آلامي. اشتقت له منذ تركت المنزل فأنا أريد الحديث معه عن الكثير من الأشياء التي حدثت معي منذ غادرنا المنزل، وقد اشتقت إلى غرفتي وأغراضي هناك.

غرفتي التي صنعت عالمي الخاص في بيتنا كانت أجمل ما منحه أبي لي. لم أصدِّق عندما قال لي: «رح أعمِّر غرفة إلك على السطح»، جاء ذلك عندما تقاسم سكَّان بنايتنا سطح المبنى الذي نسكن فيه، ولأنَّنا نسكن في الطابق الأخير، استطاع أهلي بناء غرفةٍ على حصَّتهم من السطح، مزوَّدةٍ بدرجٍ يُصعَدُ لها من داخل شقَّتنا، ومزوَّدةٍ ببابٍ ونافذةٍ يطلَّان على حصَّتنا من السطح. أهلي وحدهم من بنى غرفةً على السطح، لأنَّنا نسكن الطابق الأخير. كانت تجربة الانتقال للعيش في غرفةٍ مستقلَّةٍ جديدةً عليَّ. منحتني بعض الاستقلاليَّة، بات يمكنني البقاء وحيدًا لساعاتٍ طويلةٍ، أصرخ، أضحك، أغنِّي، أركض في مكاني حتَّى لا أصطدم بالأشياء فيها، صحيحٌ أنَّهم كانوا يسمعون الأصوات التي أصدرها، يقلقون، فيتفقَّدونني بين الحين والآخر، سابقًا كانوا معي طوال الوقت، لم يتركوني وحيدًا، إلَّا فيما ندر.

كنت سعيدًا منذ اللحظة التي أخبرني أبي فيها أنَّه سيبني لي غرفةً خاصَّةً مع مرحاضٍ لي وحدي على السطح، و«وحدي» تعبيرٌ ساحرٌ بالنسبة لي أنا صاحب الحياة المنتهكة دائمًا. وصف أخي منذر لي تطوُّرات بناء الغرفة، لم أكتفِ بوصفه، كنت أطلب تفقُّد الغرفة في أثناء بناءها بنفسي، والتأكُّد ممَّا يخبرني به منذر. تحسَّست كلَّ زاويةٍ فيها منذ كانت جدرانًا عاريةً، وقست مساحة النافذة والباب بكفِّ يدي. تحسَّست أرض الغرفة بقدمي، التي اصطدمت هنا وهناك ببعض بقايا البناء. تفقَّدت البناء بأصابعي كلَّ يومٍ، تحسَّست الجدران العارية، وعندما أصبحت ملساء بعد أن طُيِّنَت، وشعرت بنعومة الدهان عندما طُلِيَت. تحسَّست النافذة عندما كانت جرداء، وعندما رُكِّبَ الرخام، استمتعت ببرودة الرخام الناعم على حواف النافذة. وبعد ذلك تحسَّست نافذة الألمنيوم التي رُكِّبَت على الرخام، تحسَّست زجاج النافذة المحجَّر من الداخل والخارج، فتحت النافذة وأغلقتها مرَّاتٍ عدَّةٍ. تحسَّست البلاط منذ جاء بلاطاتٍ منفردةً وفي كلِّ مراحل تركيبه. تحسَّست الأبواب الخشبيَّة للغرفة وللمرحاض المجاور

لها. عندما رُكِّبَ الدرج الداخليُّ للغرفة، صعدت ونزلت أكثر من مئة مرَّةٍ، ليس تمرينًا على الصعود والهبوط، بل احتفالًا بعالمي الجديد. مع المفروشات أخذت أقيس الأبعاد عن الجدران والأبواب، ست خطواتٍ أماميَّةٍ من الباب عند الدرج الدائريِّ، ثمَّ ثلاث خطواتٍ إلى اليسار، أصبح عند حافَّة السرير اليمينيَّة، الموضوع في زاوية الغرفة، من السرير مباشرةً سبع خطواتٍ، أصبح أمام الباب المطلِّ على السطح، ويصبح إلى يميني الكرسيُّ الوحيد بالقرب من النافذة، وبالقرب منه الطاولة الصغيرة. الخزانة والمكتبة الملتصقة بها، هما على يمين الباب القادم من الدرج الدائريِّ، مفروشاتٌ بسيطةٌ وقليلةٌ حتَّى لا تكون عقبةً أمامي. بانتهاء بناء الغرفة، غرفتي، أصبح بإمكاني أن أقفل غرفتي على نفسي، مع أنِّي لم أفعل ذلك مطلقًا.

لم يكن الانتقال إلى الغرفة الجديدة، انتقالًا مكانيًّا، بل كان انتقالًا إلى عالمٍ جديدٍ، كانت غرفتي الصغيرة في شقَّة أهلي داخليَّةً، تحجب عنِّي أصوات العالم الخارجيِّ، التي تصبح ضعيفةً عندما أخرج من غرفتي إلى الصالة. خلقت الغرفة الجديدة لي علاقةً جديدةً مع العالم، الذي أصبح صوته أوضح في الصلة المباشرة بين غرفتي والعالم الخارجيِّ الذي يتصل بها مباشرةً. كانت الأصوات الجديدة كثيرةً في هذا الانتقال. في شتائي الأوَّل، استمتعت بمراقبة صوت المطر، عرفت تحوُّلات المطر، الحبيبات الصغيرة للماء التي تُصدِرُ أصواتًا متفاوتةً وفق حجمها، والمكان الذي تسقط عليه، فصوتها على سقف الغرفة، مختلفٌ عنه على زجاج النافذة، ومختلف عنه على سطح الطاولة البلاستيكيَّة المركونة في الخارج أو الزينكو الذي يغطِّي طرف باب الغرفة العلويِّ المطلِّ على السطح. كلَّما اختلف صوت المطر على هذه السطوح، أفتح الباب الخارجيَّ، أقف أمامه، أمدُّ يدي تحت المطر لأتحسَّس حجم الماء في قطرة المطر مقارنةً بقوَّة صوتها.

عندما تمطر أكون سعيدًا، فهي لحظاتٌ تسمح لي بالتأمُّل. لا يحتاج المبصرون للصوت حتَّى يتأمَّلوا حياتهم، أمَّا نحن العميان، لا عالم لنا بلا صوتٍ، العدم هو ما نتأمَّله دون وجود الصوت. مع المطر يعلن العالم عن وجوده طوال الوقت، يختفي العدم في أثناء هطول المطر، يجعل الصوت المستمرُّ لهطول المطر تأمُّلي جميلًا، مع جلوسي على الكرسيِّ المجاور للمدفأة الكهربائيَّة التي أشعر بحرارة توهُّجها على جسدي، بينما أستمع إلى موسيقا المطر تعزف سيمفونيَّتها من الأصوات المختلفة عبر طرقات المطر على النافذة والأصوات الحادَّة القادمة من سقوطها على لوح الزينكو، وتلك الخافتة القادمة من سطح الغرفة والتنوُّع القادم من تلك على الطاولة البلاستيكيَّة في الخارج. واجتماع الأصوات يجعلها أكثر جمالًا، في حال وجود ريحٍ تتلاعب بالمطر تكون الأصوات أكثر تنوُّعًا. يرى المبصرون التنوُّع في الصور والألوان التي يرونها، لكنِّي أرى التنوُّع في الأصوات التي أسمعها.

كانت الريح التجربة التي تعرَّفت عليها على نحوٍ أفضل في عالمي الجديد، النسائم طفلة الريح بلا صوتٍ، وهي الأجمل، الإحساس بها منعشٌ وهي غير مسموعةٍ. أمَّا عندما تملك الريح صوتها تتحوَّل إلى صفعٍ للوجه، وعندما يعلو صفيرها تصبح مخيفةً، مع اشتدادها أشعر صفيرها يتحوَّل إلى عواءٍ. عندما أسمع صفير الريح القادم من قلب عتمتي، الذي يدور حول الغرفة ويُسقِطُ الأشياء هنا وهناك أو يقتلعها، كنت أشعر برهبةٍ وخوفٍ تجاه عواءها الذي يفتح هوَّةً إضافيَّةً في عتمتي.

مع تزايد سقوط القذاف على دوما، خسرت غرفتي، فهذا المكان الذي خلق عالمي على مدى سنوات، أصبح خطرًا عليَّ. مع سقوط القذائف العشوائيِّ، بات هناك إمكانيَّةٌ أن تسقط واحدةٌ على غرفتي، تخترقها، وتمزِّقني. لذلك قرَّر أهلي أن أعود للعيش معهم في الشقَّة، المحميَّة أكثر من

غرفتي المكشوفة على السطح. خسرت غرفتي، ثمَّ بيتنا، وذهبنا في رحلة اللجوء.

أستطيع وصف عالمي الصغير بكلِّ تفاصيله في غرفتي، صحيحٌ أنَّ الآخرين هم من وصفوا لي الأشياء الموجودة فيها، لكنِّي امتلكت وصفي الخاصَّ للمكان، وأضفت إليه مشاعر الحبِّ التي أكنُّها لأشيائي، وأحيانًا مشاعر الضيق من المكان، الذي كان موقفي منه بطبيعة الحال متناقضًا، بين كونه مكان حبسي، والمكان الذي أخترع فيه عالمي من الظلمة في الوقت ذاته. في أثناء اللجوء إلى المخيَّم تحرَّرت من الارتباط بالأشياء، واستبدلته بالتعلُّق بالأشخاص، أحببت أصوات الناس أكثر، ليس الذين أقابلهم وأحادثهم فقط، بل أحببت ضجيج الناس في الشوارع وقت الازدحام أيضًا. صحيحٌ أنا لا أفهم ما يقولون، وعندما أفهم لا أعرف في أيِّ سياقٍ يقولون كلامهم، لكنِّي أحببت أصواتهم أكثر، أحببت ضجيج الصوت البشريِّ المختلط بأصوات محرِّكات السيَّارات وأبواقها المستعجلة، أحاديث الشجار والخلاف، أحاديث الألفة والحبِّ، وأحاديث الكراهية والحسد والتعالي والترجِّي، كلُّها أحاديث بشريَّةٌ، مهما كانت قسوتها أو رقَّتها. عرفت أنَّ هناك حياةً خارج الغرفة التي قضيت جلَّ حياتي فيها، وعرفت أنَّ الناس يبنون حياتهم ويحطِّمونها خارج الغرف. الحقيقة أنَّ الحياة تقع خارج الغرف، حتَّى لو كنت أعمى هذا لا يغيِّر حقيقة العالم، المعزولون لا يصنعون الحياة، يصنعها من ينطحن فيها، لا من ينتظرها في غرفته الباردة المعزولة. هذا ما أدركته في المخيَّم وتعلَّقت به، وتعلَّقت بمعارفي الجدد المتحلِّقين في دائرةٍ أمام ورشة النجارة المغلقة بسبب الحرب الدائرة، يثرثرون حول كلِّ شيءٍ، الحرب، والحبِّ، والجنس، والكراهية، والظلم...

تجربة اللجوء التي خفت منها لم تكن بالسوء الذي توقَّعته. بالتأكيد، كان من السيِّئ أن يغادر أعمى مكانه المعتاد، تغيَّر من الصعب التكيُّف معه، كيف إذا كانت هذه المغادرة لجوءًا بسبب صراعٍ مسلَّحٍ، وليس انتقالًا

طبيعيًّا من مكانٍ إلى آخر. كانت أمِّي حزينةً بسبب هذا اللجوء، الذي أعادها إلى المكان الذي غادرته قبل أكثر من أربعين عامًا، بنت خلالها عائلةً تحبُّها وسكنت في بيتٍ تحبُّه. لم تكن مرتاحةً لهذا الانتقال، ما عزَّاها، أنِّي لم أشعر بالانزعاج من هذا اللجوء. كانت تضبطني وأنا سعيدٌ، وعندما تسألني هل أنا سعيد حقًّا، أجيبها بالإيجاب، وهو ما يعزِّيها دون أن يجعلها تغادر تفكيرها بالقادم من الأيَّام المجهولة، وخائفةً على أبي الذي دمَّرت الحرب حياته بعد التقاعد، تخاف عليه أكثر ممَّا تخاف على نفسها. كانت تشعر أنَّ غيابه يقتلها، لم تكن تعرف ما الذي يمكن أن تفعله، ولا تتخيَّل الحياة دونه. تزوَّجته طفلةً، ولا تعرف من العالم سوى ذلك الجزء الذي عرَّفها هو عليه، رضيت به، وعاشت حياتها على أنَّه ثابتٌ في حياتها.

عندما أفكِّر في تجربة المخيَّم، أشعر أنَّ الانشغال بقصص الآخرين، هو الغطاء الذي حجب الحرب عن تفكري، كان يجب على الحرب أن تختفي، حتَّى أستطيع الاستمرار في الحياة. أخفيتها وبدأت أرتِّب ذاكرتي بقصصٍ أخرى، عندما داهمتني الحرب مرَّةً أخرى، وقالت كلمتها إنَّ هذا العالم الذي اختبأت وراء قصصه يتبدَّد من جديدٍ، كما تبدَّد عالمي الصغير الذي تركته في دوما من قبل، وغادرت أكثر خوفًا، لأنَّ عالم العميان أكثر هشاشةً من عالم المبصرين، فهم يخافون أكثر منهم. صحيحٌ أنَّنا نحن العميان نرى العالم أقلَّ قبحًا ممَّا يراه المبصرون، لكنَّ هذا لا يجعل العالم الحقيقيَّ يعاملنا على نحوٍ أفضل من المبصرين بوصفنا أناسًا معاقين. على العكس العالم من الانحطاط لدرجةٍ يجعل الضعفاء والمعوَّقين يدفعون ثمنًا أكبر في الحروب، والتي هي أقذر أحداثٍ عرفها التاريخ البشريِّ. كان علينا مغادرة المخيَّم، وعليَّ أن أخسر الغطاء الذي وجدته في المخيَّم في مواجهة الحرب.

انتهت إقامتنا في المخيَّم، بعد قصف الطائرات الحربيَّة له ودخول الجيش الحرِّ من الحجر الأسود والتضامن. قرَّر أبي الخروج من المخيَّم مثلما قرَّر أهالي المخيَّم تركه. سمعت الأحاديث بين أبي وأمِّي عن الوجهة بعد

الخروج من المخيَّم، لم يكن هناك وجهةٌ محدَّدةٌ، حديثٌ جديدٌ عن ضياعٍ جديدٍ، ويتكرَّر هذا الحديث المرَّة بعد الأخرى، وفي أحاديث الضياع اكتشف أنِّي لست الأعمى الوحيد، فالضياع نوعٌ من العمى أيضًا. ما دمَّرني وفي كلِّ رحيلٍ، ليس عدم قدرتي على المساعدة فحسب، بل وتحوُّلي إلى عبءٍ على أهلي على نحوٍ كاملٍ أيضًا. في المخيَّم امتلكت إمكانيَّة أن أغيب عنهم، وكان هذا يريحهم ويريحني. وفي المخيَّم اخترعت لنفسي تجاهل الحرب، وكأنَّ البلد أصبحت بلا حربٍ والحديث يدور عن حربٍ تقع في بلدٍ آخر. الحرب التي أخفيتها عادت لتهاجمني بشراسةٍ وعاد لي الإحساس المدمِّر بالخوف الذي تسبِّبه، وزاد الإحساس سوءًا مع الرحيل، وها نحن أمام رحيلٍ جديدٍ. وهناك الكثير من الأشياء التي لم يستطع أهلي فعلها لأنِّي أُقيِّدهم، وعليهم أن يراعوا في تنقُّلاتهم وفي هربهم من جحيم الحرب المرَّة بعد الأخرى أنَّ ابنهم أعمى. في ذلك اليوم شعرت نفسي في غاية الثقل على أهلي، لا سيَّما وهم يخفضون أصواتهم عندما يتحدَّثون عني. ولم يعرفوا أنَّه يكفي أن يخفِّضوا أصواتهم، سواءً سمعت ما يقولوه أم لا، لأعرف أنَّ الحديث يدور عنِّي، ولا يريدون أن أسمع ما يقولون مراعاةً لمشاعري، وكانت هذه المراعاة تؤذي مشاعري أكثر من سماعي ما يقولون بشأني. عندما بدأت أمِّي وأختي غدير جمع الأغراض، عرفت أنَّنا سنغادر المخيَّم، وعندما قالت لي غدير: «فراس، بكرة ماشين»، كنت أعرف ذلك، فهززت رأسي بالموافقة، دون أن أقول كلمةً واحدةً.

لجوءٌ جديدٌ إلى مكانٍ جديدٍ، سيتغيَّر عليهم كلُّ شيءٍ من جديدٍ، أمَّا أنا سأحمل عتمتي معي أينما ذهبت. كان طلب أبي التقليديُّ، التخفيف من الأغراض، فنحن لا نستطيع حمل كلِّ شيءٍ، طلب من أمِّي أن تترك الأشياء الأقلَّ أهميَّةً على أن يعود لإحضارها إن أمكن. قال ذلك عندما كنَّا في دوما، ولم يتمكَّن من العودة بعد خروجنا. أمِّي وأبي وأختي غدير مستغربون من مراكمتنا للكثير من الأشياء خلال الوقت القصير الذي قضيناه في المخيَّم، مع

أنَّ الجميع اتخذ قراره بألَّا يقتني سوى الضروريِّ في أثناء لجوؤنا، وها هما أمِّي وأختي تشتكيان من جبل الأغراض الذي راكمناه خلال أشهرٍ قليلةٍ من وجودنا في المخيَّم، والذي لا نستطيع أخذه معنا. بقيت تصفيةُ الأغراض قائمةً طوال الليل، لاستبعاد الأغراض التي لن نأخذها معنا. وما كان يجري هو تكرار لما جرى في دوما، هو إشغال النفس حتَّى اللحظات الأخيرة، حتَّى لا يقع المحظور، وتطرح الأسئلة الحقيقيَّة نفسها، وتبدأ جولةٌ من البكاء لا تنتهي، بالانشغال المفتعل ستؤجَّل هذه الجولة من البكاء إلى ما بعد الرحيل عن المخيَّم. هذا ما جرى في دوما، وهذا ما كرَّر نفسه في المخيَّم. بقيت تصفية الأشياء مستمرَّةً خلال القصف الذي لم يهدأ طوال الليل، إذ تصدر أمِّي وأختي صرخات الخوف عندما يكون انفجار القذيفة قريبًا. وبقيت أنا أسمع حوارهما في استثناء الأغراض الأقلَّ أهميَّةً بشرودٍ، لأنِّي كنت مشغولًا طوال الليل بمراقبة انفجارات القذائف، التي يرتجف جسدي عند سماعها، سواءً كانت الأصوات قريبةً، والتي أقدِّر أنَّها كانت على بعد أقلَّ من خمسين مترًا، وبين القذائف البعيدة التي أسمع صفيرها أحيانًا وتنفجر بعد حين، كلَّما كان فرق الوقت بين صفير القذيفة وانفجارها أطول، أعرف أنَّها أصبحت أبعد. لكن هناك قذائف تنفجر ولا أسمع صفيرها، وهذا يعني أنَّها لم تمرَّ من فوقنا. بقيت الانفجارات وفرز الأغراض حتَّى الصباح. فجأةً، توقَّفت القذائف، والفرز لم يتوقَّف، إذ استُثنيت أشياء في اللحظات الأخيرة، واستمرَّ أبي يحتجُّ على كثرة الأغراض. حتَّى وهم ينقلونها إلى السيَّارة استعدادًا نهائيًّا للرحيل.

سمعت أصوات الناس في الشارع قبل نزولنا من بيت جدِّي لنركب السيَّارة ونغادر، سمعت أطفالًا يبكون، رجالًا ونساءً ينادون أولادهم، أبواق سيَّاراتٍ، أصوات عجلات عرباتٍ منزليَّة، وغيرها. عندما قادتني غدير إلى السيَّارة وأجلستني في المقعد الأماميِّ، لأنحشر بين أبي الذي يقود السيَّارة وأمِّي التي تجلس بالقرب من الشبَّاك، اختلفت الأصوات، من همهمات

الناس في الشارع عرفت أنَّ الشارع مزدحمٌ. السيَّارة تسير ببطءٍ، والأصوات في غاية الوضوح، بكاء نساءٍ، رجلٌ يسأل أولاده: «وين أختكم؟»، ولدٌ يردُّ: «بابا، هاي هي معنا»، الرجل: «الله يلعن الشيطان، الواحد ما عاد شايف»، امرأةٌ تصرخ على ابنتها: «ولك، ألف مرَّة صرت قايلة، امسكي إيد أخوكي»، البنت: «والله يا إمِّي ماسكيتها منيح»، صوت حديدٍ يقع على الأرض، صوت رجلٍ: «انتبه يا حمار، هاي ثالث مرة بتوقِّع غطى الطنجرة»، صوت بكاء طفلٍ، الأم: «لك منشان الله اسكت صرعتني»، رجلٌ عجوزٌ: «والله يابا ما عاد قادر أمشي. خلص خذي ولادك وكملي، تركيني هون برجع على البيت وبدبِّر حالي»، يردُّ صوت المرأة: «يابا، وين أتركك، رجلي على رجلك»، ولدٌ صغيرٌ يبكي: «ليش فيقتيني من النوم، ما بدي أروح»، صوت امرأةٍ: «اخرس وله، بدك بد وسيف حد»، سعال رجلٍ، وصوت امرأةٍ: «يابا، منشان االله امشي، مش وقت التدخين»، امرأةٌ تسأل: «وين بدنا نروح يا رجال؟!»، صوت رجلٍ يجيب: «والله ما بعرف، الله بيسِّرها»، ولدٌ يهدِّد: «والله لأذبحك» صفعة تسكته، وصوت رجلٍ: «اخرس، لا تحكي هيك مع أخوك الكبير»، امرأةٌ تقول: «نسيت المصاري بالخزانة، تعا نرجع نجيبهم»، الرجل: «يلعن دينك ودين النسوان، حملتي كل الزبالة، وتركتي المصاري. شو دين ربك إنت»، كانت الأحاديث مؤلمةً، أخافتني مثلما أخافتني القذائف، تمنَّيت وقتها لو أنِّي لا أسمع أيضًا، فدموعي لم تستأذن بالنزول، كنت أسمع هذه الحوارات، بين بكاء أمِّي المكتوم على يميني، وتنهيدات أبي الحارقة على يساري. لم يجدا خلال الطريق لمغادرة المخيَّم أيَّ كلامٍ يتبادلانه. عندما أوقف أبي السيَّارة إلى جانب الطريق، واتصل بهاتفه المحمول بمحمود ابن عمِّي منير، وقال: «عمِّي اطلعوا، ما في حاجز، وما في حدا عند الطابة، الطريق سالك»، عرفت أنَّنا خرجنا من المخيَّم، وأنَّه يخبر أبناء عمِّي منير أن يخرجوا من المخيَّم.

انتقلنا من المخيَّم إلى شقَّةٍ في جرمانا بواسطة صديق لأبي أعاره إيَّاها مؤقَّتًا. لم تطل إقامتنا هناك، بقيت أغراضنا مجمَّعة في زاوية من صالة البيت، ولم نستخدم منها سوى الضروري. بحث أبي وأخي منذر عن بيتٍ للأجرة حتَّى ننتقل إليه. وفعلًا لم تطل إقامتنا في جرمانا، بعد ثلاثة أسابيع وجد أبي بيتًا في ركن الدين، وانتقلنا إليه تاركين جرمانا وراءنا، التي قضيت فيها ثلاثة أسابيع أجترُّ أحزاني.

عندما أصبحنا في ركن الدين، شعرت بآلامٍ شديدةٍ في بطني، تجاهلتها لكنَّها لم تتجاهلني، حاولت أن ألهي نفسي عنها، لعلَّها تذهب بحالها، لم أنجح، أخفيت أوجاعي عن أهلي، لا أريد أن أقلقهم وأن أزيد وضعهم سوءًا، استطعت تحمُّل الآلام لأكثر من عامٍ. بدأت هذه الآلام تؤثِّر على شهيَّتي وتمنعني عن الأكل، كنت أحاول إجبار نفسي على الأكل، حتَّى لا ألفت انتباه أهلي، لكنَّ هذا لم يوقف انخفاض وزني. لفت هزال جسدي انتباههم، فطلبت أمِّي منِّي أن أذهب إلى الطبيب، وهو ما كرَّره أبي وإخوتي. في البداية رفضت الذهاب إلى الطبيب، فأنا لا أريد أن أضيف أعباءً ماليَّةً جديدةً على أهلي، قلت: «هذا عادي، بنزل شوي، وبعدين برجع وزني بطلع»، ألحَّ أبي عليَّ بالذهاب إلى الطبيب، لكنِّي هذه المرَّة قرَّرت ألَّا أستجيب لإلحاحه. بعد أيَّامٍ داهمتني موجة ألمٍ شديدةٍ، لم أستطع إخفاءها، لأنَّ أوجاع بطني كانت مرعبةً، كأنَّ سكِّينًا مثلَّمةً انغرست في بطني، وأحدهم يديرها باتجاهاتٍ متعاكسةٍ. صرخت صراخًا أرعب كلَّ من في البيت، وهكذا كان عليَّ الذهاب إلى الطبيب رغمًا عنِّي، والذي رفضته بإرادتي ذهبت إليه مرغمًا وبحالةٍ إسعافيَّةٍ، أعطاني الطبيب إبرة مسكِّنٍ، وكتب لي بعض الأدوية، وقال لأبي: «لازم يراجع طبيب باطنية»، اصطحبني أبي إلى طبيب أمراضٍ باطنيَّةٍ في المنطقة، الذي شخَّص حالتي بأنَّها أوجاعٌ مصدرها نفسيٌّ، وأنَّها تصيب الكثيرين أوقات الحرب، وتعرُّضهم للخطر لفتراتٍ طويلةٍ، وهي تتسبَّب بأوجاعٍ شديدةٍ وفقدان شهيَّةٍ، ما يجعل

المريض يفقد بعضًا من وزنه. صحيحٌ أنِّي أخاف الحرب، وأصاب بالرعب من القذائف والبراميل المتفجِّرة، حتَّى عندما تكون بعيدةً. لكنِّي أعرف نفسي، هذا الآلام التي أعانيها حقيقيَّةٌ وليست عارضًا نفسيًّا من أعراض الحرب. كتب الطبيب وصفةً فيها بعض المسكِّنات والفيتامينات، ودواءٌ ضدَّ الاكتئاب. وطلب من أهلي أن أتحرّك أكثر، فالحركة تساعدني على الشفاء كما ادَّعى.

التزمت وصفة الطبيب من أجل أبي، وليس لقناعتي أن تشخيص الطبيب صحيحًا. كنت أخرج مع أبي أحيانًا، وأحيانًا مع أخي منذر، وأغلب الأحيان مع أختي غدير. كان الخروج تعذيبًا لي، فلم تكن ركن الدين مثل دوما أو المخيَّم أو جرمانا، أرضًا منبسطةً، يكفي أن أمسك يد مرافقي حتَّى أمشي بكلِّ سهولةٍ. فهي تقع في سفح الجبل، وهذا يعني أنَّ الأرض غير مستويةٍ، وهو ما أخافني لأنِّي لا أستطيع التحكُّم بنفسي، ولا أستطيع التنبُّؤ بالخطوة التالية، التي يمكن ألَّا تكون على مستوى ما قبلها، ما عرَّضني لخطر السقوط، لذلك أصبحت أجرُّ قدميَّ جرًّا تجنُّبًا للسقوط. حاولت أن أوحي بأنِّي أتحسَّن بفضل الدواء والخروج من البيت، لكنَّ وزني استمرَّ بالانخفاض. لطالما عانيت من بعض السمنة بسبب قلَّة الحركة، وهذه السمنة سرعان ما خسرتها. لم يتوقَّف وزني عن الانخفاض، استمرَّ بالهبوط السريع، ما أقلق أهلي، وسرعان ما هاجمتني الآلام مرَّةً أخرى بطريقةٍ أشرس من السابق، ما جعل أبي يأخذني إلى طبيبٍ آخر، وأدخلني رحلة تحليلاتٍ جديدةً، أسفرت عن أنِّي مصابٌ بمرض السكَّري، الذي أعاده الطبيب الجديد إلى ضغوط الحرب أيضًا. أضفت دواءً جديدًا إلى الأدوية القديمة.

بعد أسابيع أصبحت أشعر بالإرهاق الشديد كلَّما خرجنا للمشي، وأشعر أنِّي غير قادرٍ على حمل نفسي على قدميّ. وبات التعب يظهر على وجهي، وأمِّي تسألني بقلق: «ماما حبيبي، ليش وجهك أصفر؟!»، أحتار

بالإجابة، فأقول: «ما بعرف، أنا مو حاسس بشي»، عدنا إلى جولةٍ جديدةٍ عند الأطباء، أسفرت عن تشخيص حالتي، بوصفها التهابًا حادًّا بالبنكرياس. وأصبحت أتناول دواء الالتهاب مع الأدوية الأخرى. لم تعجب أبي الحالة، فاصطحبني إلى عددٍ من الأطبَّاء، كانت تشخيصاتهم متقاربةً. كلُّ هذا لم يُحسِّن من حالتي، فقد زادت الأوجاع، ولم أكن قادرًا على كتمها، لأنَّها عندما تأتيني أشعر أن سكِّينًا تمزِّق أحشائي، فأصرخ من الألم الشرس، وأدخل في موجة بكاءٍ مرٍّ، وأنا أتلوَّى من أوجاعٍ رهيبةٍ في بطني. في زيارتي الأخيرة للطبيب الذي يعالجني، أخذ الطبيب أبي بعيدًا عنِّي، وعندما قدَّر أنِّي لا أسمع حديثه، قال لأبي: «والله يا أبو منذر، أظن صار ضروري تعرض فراس على طبيب أورام»، سمعت ما قاله، رغم أنَّ الطبيب حاول أن يقول هذه الكلمات لأبي دون أن أسمعها. خفت عندما سمعت شكوك الطبيب، لكنِّي استبعدت أن يكون السرطان قد بدأ ينهش جسدي، سمعت الطبيب ينصح أبي بالدكتور سعيد الساطي.

لم يستطع أبي أن يحصل على موعدٍ قريبٍ عند الطبيب، فأصبحنا نذهب إلى العيادة وننتظر هناك، لعلَّ أحدهم يتخلَّف عن موعده. في المرَّة الأولى انتظرنا أكثر من ثلاث ساعاتٍ، شعرتهم دهرًا، قتلني الملل ولم أتحمَّل الانتظار، فطلبت من أبي المغادرة، لم يرفض، فغادرنا. وكذلك الحالة في المرَّتين التاليتين، إذ انتظرنا ما يقارب الأربع ساعاتٍ بلا جدوى، وبعدها غادرنا. في المرَّة الرابعة كنت مرهقًا، لم أنم الليلة السابقة من الأوجاع التي هاجمتني ومنعتني من النوم رغم كلِّ المسكِّنات. وجدت نفسي أنام من التعب في عيادة الطبيب. لأصحو على صوت السكرتيرة تقول لأبي: «يا عم بتقدروا تفوتوا على الدكتور»، دخلنا عند الطبيب، شرحت له الأوجاع الهائلة التي تمزِّق بطني وتلوي أمعائي التي أشعرها تتقطَّع. طلب الطبيب صورة موجاتٍ فوق الصوتيَّة. بعد أيَّامٍ عدنا إلى الطبيب مع الصورة. عندما شاهد الطبيب الصورة ساد الصمت، ولم أسمع في الغرفة سوى صوت

أنفاس أبي القلقة، أصابني القلق بالعدوى. سأله أبي: «خير يا دكتور، طمِّني؟»، قال الطبيب: «بدنا نعمل تنظير حتَّى نتأكد أنُه الحالة سليمة»، قال أبي: «بنعمل كل شي، بس فراس يتحسَّن»، ذهبنا إلى المشفى وأجرينا التنظير هناك، وبعد أيَّامٍ عدنا إلى الطبيب الذي انتحى مرَّةً أخرى بأبي، وقال: «ما بحب أقلك هذا الخبر السيئ، بس هذا واجبي. ابنك مصاب بسرطان البنكرياس، وهي حالة غريبة، لأنُه هذا المرض عادةً ما بيصب المريض غير بعد سن الستين، وحالة نادرة أن يصيب شاب بالخمسة وثلاثين مثل ابنك»، عندما سمعت كلام الطبيب عرفت أنِّي هالكٌ لا محالة. كنت أعرف ذلك من أوجاعي، وأشعر أنَّ عمري اقترب من نهايته، لكنِّي كذَّبت نفسي. الآن مع تأكيد الطبيب، أنِّي مصابٌ بسرطان البنكرياس، وهو مرضٌ نادرٌ بالنسبة للشباب كما قال، ما يعني أنِّي محظوظٌ بكلِّ الأشياء النادرة، طبعًا الأشياء النادرة السيِّئة وليس الحسنة. عندما قال أبي: «قوم حبيبي نروح»، كان مدمَّرًا من الخبر الذي سمعه من الطبيب قبل قليل. لم يخبر أبي أمِّي وإخوتي بمرضي، وعندما سألوني، قلت: «لا أعرف»، أخذني أبي إلى أطبَّاء آخرين، متمنِّيًا -كما تمنَّيت أنا- أن يكون التشخيص الأوَّل للطبيب خاطئًا، لكن للأسف أكَّد الآخرون بناءً على الصور والتنظير ما قاله. بعد أن أكَّد الجميع أنِّي مصابٌ بالسرطان، لا قدرة لأبي على إخفاء هذه الحقيقة، فأخبر أمِّي، التي نزل عليها الخبر نزول الصاعقة. ركضت باتجاهي، وفجأةً وجدتها تعانقني وتبكي، بكيت، وبكى كلُّ من في البيت، حتَّى أنِّي سمعت بكاء أبي المكتوم، الذي حاول إخفاءه.

خضعت لمجموعةٍ من الكشوفات والتحاليل والتصوير والخزع الطبيَّة، لمعرفة مستوى الإصابة ونوع السرطان الذي أعاني منه. بدأنا ننتظر التحليلات لنعرف مستوى المرض، وهل يمكن إجراء جراحةٍ لاستئصال الورم أم لا. تمنَّيت أن يكون هناك عملٌ جراحيٌ قادرٌ على تخليصي من مرضي وأوجاعي، رغم أنَّ الحالات القليلة التي نجت من هذا المرض، وهي

الحالات التي اكتُشِفَ فيها المرض مبكرًا. لم تأتِ النتيجة كما تمنَّيت، قدَّر الأطبَّاء أنَّ عمليَّة الاستئصال متأخِّرةٌ، وأنَّ وضعي متفاقمٌ، لدرجة أنَّ التدخُّل الجراحيَّ، سيجعل الوضع أسوأ. وهذا يعني أنَّني سأدخل دوَّامة العلاج بالكيماوي والإشعاعي.

لم يكن المرض جديدًا عليَّ، لقد مرضت وأصبت بالعمى، وتابعت حياتي، صحيحٌ أنَّها لم تكن حياةً سويَّةً، لكنَّها حياةٌ استطعت أن أخوضها وأعيشها بحلوها ومرِّها. لم يكن العمى على قسوته مرضًا قاتلًا، لذلك تعايشت معه كلَّ هذه السنوات متمنِّيًا أن أستعيد بصري بمعجزةٍ إلهيَّةٍ أو طبيَّةٍ. مع مرض السرطان لم أستطع التعايش، لأنِّي أعتقد أنَّ الإنسان لا يمكن أن يتعايش مع موته. مرض السرطان هو إعلان موتٍ مبكرٍ، فالموت يضع نقطة النهاية وبعدها لا يمكن الاستمرار. كلُّنا في النهاية سوف نموت، ولكن لا أحد يصدِّق أن الموت سيقترب منه، كلُّ الآخرين سيموتون إلَّا أنا، هكذا يولد الوهم البشريُّ في خلود الأشخاص، صحيحٌ أنَّه وهمٌ، لكنَّ البشر يصدِّقونه طالما هم أصحَّاء، مع المرض المميت يواجهون حقيقة الموت، وعندها تسقط الأوهام. السرطان كمرضٍ فتَّاكٍ يستطيع أن يقتل حتَّى الوهم، ويبدأ الإنسان يرتِّب لموته، السرطان يقول للمرء إنَّ حياتك انتهت، هالة المرض ووقعه النفسيُّ والإحساس بالموت الذي بات مزروعًا في جسدي أصعب وأكثر تأثيرًا من المرض نفسه.

خلال فترة الفحوصات، كان هناك تواطؤٌ بيني وبين أبي ألَّا نتحدَّث عن المرض، لا أعرف من أين جاء هذا التواطؤ ولماذا. كان هو الوضع الأفضل خلال هذه المرحلة، لأنَّ كثرة الكلام فيه يجعله أصعب عليَّ وعليه، لذلك كان التواطؤ بالتجاهل هو الحلُّ الوحيد لتمرير الوقت الصعب لمعرفة حقيقة المرض. عندما سألني عن المرض لأوَّل مرَّةٍ، تماسكت، وقلت: «مش فارقة، كلُه مثل بعضُه»، لم تكن هذه حقيقة ما أشعر به، كنت خائفًا، وشعرت أنَّ الموت حفرةٌ سوداء تشبه العمى تتسع لتبتلعني. قلت كلماتي

كرجلٍ شجاعٍ يواجه خطرًا لم يتسبَّب به لنفسه، وهو يثبت رجولةً في لحظاتٍ صعبةٍ من حياته. كان عليَّ أن أفعل ذلك حتَّى لا أزيد من آلام أهلي، وأردت أن أبدو لامبالٍ، كأنَّ المرض حادثٌ عابرٌ في حياتي، كتعثُّرٍ فجائيٍّ في طريقي إلى الحمَّام، لأنَّ أحدهم أزاح شيئًا من مكانه، فتعثَّرت به، وكذلك مرض السرطان حادثٌ عرضيٌّ، وينتهي وأنتهي معه من حياةٍ صعبةٍ عشتها مع عتمتي.

آلام السرطان وحشٌ لا يمكن التعامل معه، لطالما حاولت تحمُّل آلامي وكتمها، لكنَّ وحش الألم استمرَّ بغرز أنيابه الطويلة والحادَّة عميقًا في جسدي، تحمَّلت لبعض الوقت، لا ألبث أن أخسر قدرتي على التحمُّل، فأصرخ من الألم صراخًا أخاف أنا نفسي منه، وأعرف كم يكون وقعه سيِّئًا على أهلي، لا سيَّما أمي. حاولت كثيرًا التكيُّف مع أوجاعي كما تكيَّفت مع عتمتي، لكن شتَّان ما بين الاثنين. لا يمكن التكيُّف مع آلامٍ شديدةٍ، وهذه الآلام التي لا يمكن معالجتها والتخفيف منها سوى بالمورفين والكيماوي؛ محاولةٌ لوقف تمدُّد الموت في جسدِّي، والمخدِّر القوي لجعلي أتحمَّل قوَّة الألم التي يسبِّبها هذا الوحش الذي وُلِدَ داخلي. أنهك المخدِّر القويُّ مع العلاج الكيماويِّ جسدي، وهو ما جعله غريبًا عنِّي، وبتُّ غير قادرٍ على استخدامه أو حتَّى التحكُّم به، ولست قادرًا حتَّى على خدمة نفسي والذهاب إلى الحمام، شعرت أنَّ جسدي لا ينتمي إليَّ، ولا يستجيب لأوامري، يعمل ذاتيًّا، وضدَّ أوامري أغلب الوقت. وهو ما جعل الآخرين يعتنون به ويصحِّحون الأخطاء التي يقوم بها، مثل التبرز والتبوُّل اللا إراديَان بفعل العلاج الكيماويِّ وإنهاكه المدمِّر للجسد. عندما سقط شعري بفعل العلاج الكيماوي أيضًا، كانت تجربةً غريبةً، أن أجد خصلات شعري، تسقط خصلةً وراء خصلةٍ، أمسكها بيدي، أتحسَّسها وأبكي. عندما لم يبقَ سوى القليل منها، التي يبدو شكلها مشوَّهًا كما قدَّرت، طلبت من أبي أن يحلق شعري نهائيًّا، حتَّى لا يكون منظري مشوَّهًا أمام إخوتي. وقتها

عدَدتُ العمى ميزةً حتَّى لا أرى شكلي وأنا على هذه الحالة المزرية في المرآة، لا سيَّما بعد أن تحسَّست وجهي الذي بدأت عظامه في البروز بفعل انخفاض وزني الكبير. تحسَّست رأسي الذي لم يبقَ فيه ولا شعرةً، ولا جذر شعرةٍ. في عتمتي كنت حبيس وحدتي، أستطيع أن أخلق عالمي بمساعدة عائلتي. السرطان صنع العكس، حطَّم وحدتي، وهو ما جعل المرض يتسبَّب في انتهاك هذه الوحدة، وانتهاك حياتي كلِّها. كنت معاقًا وبحاجةٍ إلى المساعدة دون أن أصاب بالسرطان، ومعه أصبحت مسلوب الإرادة ومنتهك الجسد، الذي حوَّلته الإبر والمعالجات إلى غربالٍ، وحوَّلته الآلام إلى قطعة قماشٍ باليةٍ.

عندما عرفت أنِّي مصابٌ بمرض السرطان، خفت لأنِّي اقتربت من الموت، وبتُّ أشاهد أختِّي منى في أحلامي ويقظتي وهي تلوِّح لي بيدها وأسمع صوتها تقول لي: «عجِّل فراس عبنتظرك»، لا أعرف كيف أراها في أحلامي مع أنِّي أعمى. لقد رأيت منى الميتة وسمعت صوتها كثيرًا، وكأنَّه جرس الإنذار بالرحيل. شعرت بالضيق لأنِّي تسبَّبت لأهلي بالمزيد من الآلام والتكاليف في زمن الحرب التي لا تنتهي. كانت حياتهم صعبةً من دون مرضي، ومع مرضي أصبحت أكثر صعوبةً. والآلام التي تصيبني، لا تصيبني وحدي، بل تصيبهم معي. أشعر آلامي تنتقل إليهم، وأحيانًا يتألَّمون لألمي أكثر ممَّا أتألَّم أنا. مع تحوُّل الألم إلى شيءٍ لا يحتمل، وكلَّما ازداد وضعي سوءًا تبدَّد خوفي من الموت، فقد باتَ الموت حلًّا لآلامي التي لا تنتهي. كانت صرخاتي الرهيبة التي أستيقظ من هولها تخيف أهلي، الذين شرعوا يدعون لي بالخلاص من الحالة التي أعاني منها، وتعني دعوة الخلاص معنَيين. الأوَّل، أن أشفى من مرضي بمعجزةٍ. والثاني، أن أموت وأنتهي من أوجاعي. لم أعرف أيَّ المعنيين قصد أهلي، وسواءٌ قصدوا هذا أو ذاك، فهم يريدون لي الخلاص من آلامي. وأنا نفسي مع توحُّش ألمي الرهيب وفقدان قدرتي على التحكُّم بذاتي، لم أعد خائفًا من الموت، لأنَّ الآلام الرهيبة التي

تداهمني أسوأ من الموت. وأنا اليوم أنتظر موتي في ظلِّ آلامٍ لا تنتهي، أتصالح مع الموت ليخلِّصني من آلامي الرهيبة.

القسم الرابع:
العائلة الأميركيَّة
(عائلة وداد أحمد خليل)

الفصل الأوَّل:
غربةٌ لا عودة منها
(وداد أحمد خليل)

في تلك الليلة لم أصدِّق أذنيَّ وأنا أسمع أمِّي وأبي يتشاجران حول البقاء أو الخروج من المخيَّم، سمعتهما وأنا في الحلم، وعندما استيقظت بقيت أسمع صوتهما يأتيان من بعيدٍ، وكأنَّه صدًى لصوتٍ في مكانٍ جبليٍّ. لم أكن قد حلمت بأيٍّ منهما منذ زمنٍ بعيدٍ. اليوم أتياني في الحلم معًا، وهي المرَّة الأولى التي يكونان معًا في أحلامي، لطالما حلمت بهما وأنا في أمريكا، كلُّ واحدٍ بمفرده. سمعت كلَّ الحديث الطويل الذي دار بينهما، وبقيت أسمع صوتهما حتَّى بعد الحلم، ولم أعرف هل كنت أسمعهما حقيقةً أو كان صوتهما وهمًا في رأسي.

قبل ذلك، وفي نهار ذلك اليوم، سمعت الخبر المحزن، قصفت الطائرات المخيَّم بالصواريخ، وبدأ السكَّان بترتيب أغراضهم من أجل الخروج. اتصلت بإخوتي في المخيَّم، وتأكَّدت من الخبر، ولم أعرف ما أقول لهم، وهم يستعدُّون للجوءٍ جديدٍ، وأنا أعرف كم هو صعبٌ ما هم مقدمون عليه، رغم أنِّي لم أعشه، لكنِّي عشت آثاره وأنا طفلة.

قبل خمسة أشهرٍ من قصف الطائرات للمخيَّم، غادرت المخيَّم مع بناتي، لنقضي العطلة عند زوجي في مدينة الرياض حيث يعمل هناك في مستشفى الملك فيصل، ولم أُقدِّر حينها أنِّي لن أعود إلى دمشق مرَّةً أخرى. قدَّرت أنَّها عطلةٌ أخرى نقضيها ثمَّ نعود، رغم أنَّ المظاهرات قد بدأت في البلد في العام السابق لمغادرتنا. وقد قضينا الإجازة السابقة في السعودية وعدنا إلى دمشق، كلُّ ذلك والمظاهرات مشتعلةٌ في البلد. كانت المرَّة الثانية مختلفةً، فقد تردَّى الوضع كثيرًا في البلد، خاف فؤاد عليَّ وعلى البنات، ورفض على نحوٍ حاسمٍ عودتنا إلى دمشق.

بعد غياب أكثر من ثلاثين عامًا في الغربة في أربع بلدانٍ، عدت إلى دمشق لأقيم فيها، ولم أتوقَّع أنِّي سأضطر إلى الخروج منها مرَّةً أخرى، والبدء في مسيرة غربةٍ جديدةٍ، لن يكون فيها عودةٌ أخرى إلى دمشق، ولا حتَّى على سبيل الزيارة. صحيحٌ أنَّه عندما عدت للاستقرار في دمشق، لم تكن المدينة التي تصوَّرتها، أو المدينة كما جمَّلتها ذاكرتي في غربتي. لكنَّها في الحسابات العقلانيَّة، تبقى المكان الأفضل لي للاستقرار نهائيًّا بعد غربةٍ متعبةٍ وطويلةٍ في ثلاث قارَّاتٍ. فأنا لم أعد تلك الشابة التي غادرت دمشق لتتزوَّج وتعيش في أميركا، ولم يعد أهلي وصديقاتي ومعارفي هم أنفسهم أيضًا، لكنَّهم يبقون الأقرب إليَّ، ببساطةٍ في الغربة كلُّ الناس بعيدةٌ عنك. لذلك، عندما غادرت دمشق في الشهر السابع من العام 2012 بعد حوالي عامٍ ونصفٍ من انطلاق الاحتجاجات، لم أصدِّق أنَّ شيئًا كبيرًا يحدث في البلد، لذلك تعاملت مع الموضوع كأنَّ الوضع عاديٌّ، حتَّى عندما غادرت، كنت قد خسرت منير أقرب أخٍ لي. اختلفنا عندما طلب منِّي أن أعطي مفتاح بيتي لأخي سعد اللاجئ من دوما بعد تردِّي الوضع الأمنِّي هناك، وزيادة الخطر على أولاده، لم أفعل ما طلبه منِّي لحساسيَّاتٍ سابقةٍ، لم أكن قادرةٍ على نسيانها. أخذت مفاتيحي معي هذه المرَّة، والتي تركتها معه في المرَّات السابقة التي سافرت فيها، بعد الخلاف لم يعد تركها معه ممكنًا.

كنت في حالة إنكارٍ، لا أريد أن أصدِّق أنَّ البلد التي طالما فكَّرت في العودة إليه والاستقرار به ولأقضي فيه شيخوختي أصبح مكانًا غير صالحٍ للعيش، ليس لي فحسب، بل حتَّى لأصحابه، الذين بدأوا يهربون منه.

بعد عودتي إلى دمشق، سكنت بيت أهلي الفارغ في المخيَّم، فقد تُوفِّيَت أمِّي التي سكنت البيت قبل عودتي بحوالي العام. وكان يُفترض أن أسكنه مؤقَّتًا، ريثما أكمل بناء البيت الذي اشتريته عند مدخل منطقة صحنايا وأذهب للاستقرار النهائيِّ فيه، وعندما يبلغ فؤاد سنَّ التقاعد بعد أعوامٍ قليلةٍ، ينضمُّ إليَّ فيه، وتكون ابنتاي قد أنهتا دراستهما، ووجدتا طريقهما إلى المستقبل. هذه كانت الخطَّة التي لم ترَ النور، وتحطَّمت في منتصف الطريق، بعد انفجار المظاهرات، ثمَّ الصراع المسلَّح في البلد.

بسبب الاشتباكات العنيفة في دوما ترك أخي سعد بيته ولجأ إلى المخيَّم. في البداية أقام وأسرته عند أختي بيان في بيتها في المخيَّم. عندما كنت أرتِّب أغراضي من أجل مغادرة دمشق، طلب أخي منير منِّي أن أعطي المفتاح لأخي سعد ليقيم في البيت لحين عودتي. رفضت الاقتراح بشدَّة، فأنا لا أريد أن يستعمل أحد أغراضي التي شحنتها من السعودية من أجل الاستقرار في دمشق. بسبب هذا الرفض، خرج منير غاضبًا من عندي، حتَّى أنَّه لم يعد بعدها لوداعي قبل مغادرتي، ولأنِّي اختلفت معه لم أترك مفاتيح بيتي وسيَّارتي معه، فلم يعد في البلد من أثق به. استأجرت محلًا وتركت فيه سيَّارتي وأقفلت بابه، حتَّى أعود بعد ثلاثة أشهر، وأخذت المفاتيح معي. تعاملت مع ما يجري في البلد وكأنَّه شيءٌ عاديٌّ، قرأته برغباتي، مع أنَّ كلَّ من له عينين في رأسه يرى الأوضاع تزداد سوءًا يومًا بعد يومٍ، لم أرغب بالاعتراف بذلك، وخطَّطت للعودة قريبًا. وكأنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام، غطَّت غشاوةٌ عيني وعقلي ولم أعد أفهم شيئًا، ولا أرغب في تصديق أنَّ البلد الذي خطَّطت على مدى ثلاثين عامًا من أجل العودة للعيش فيه يحترق، وعليَّ العودة إلى غربتي من جديدٍ، وأرتِّب حياتي فيها.

بعد وصولنا إلى الرياض بيومين، حدَّثت زوجي فؤاد بما جرى معي في الأيَّام الأخيرة في دمشق، وأنِّي اختلفت مع أخي منير، لأنِّي لم أترك مفتاح البيت لأخي سعد ليقيم فيه حتَّى عودتي. انفعل فؤاد، وقال: «كيف بتعملي هيك؟! وليش ما أعطتيه المفتاح؟! مش لإنُه البيت مش بيتنا. أنت ما شفتي شو بصير بالبلد؟ كان لازم تعطيه المفتاح من دون ما يطلبوا»، تساءلت: «ليش شو عمبيصير؟! شوية مظاهرات وبكرة بتخلص»، قال فؤاد: «إنتي ما رح تبطلي التفكير برغباتك وتصابي بالعمى عن الواقع الحقيقي. كل الذبح والدم اللي عمبيصير، بعدُه بالنسبة لك مجرد شوية مظاهرات»، صمت ونظر إليَّ نظرة غضبٍ، لم أستطع مواجهتها، أكمل قائلًا: «ما عندي رغبة أناقشك، الحكي معك ما فيه فائدة. بس هلأ، ومباشرة، اتصلي بسعد واعتذري منه، وقوليلُه يأخذ المفتاح من عند منير»، قلت: «بس المفتاح معي، ما تركته هاي المرة مع منير!»، صرخ في وجهي: «يكسر الباب»، لم أرغب في النقاش معه، ولا أريده أن ينفعل أكثر وهو الرجل المريض بالسكري، الذي وصل قبل عامٍ إلى الفشل الكلويِّ. بقي واقفًا أمامي يتابعني بنظراته الغاضبة حتَّى أنجزت ما طلبه منِّي. اتصلت بأخي سعد، واعتذرت منه، وقلت له لم أقصد الإساءة، وأنَّ البيت بيتك، وأنَّك تستطيع كسر الباب وتبدِّل القفل، وعَدَّ الأغراض أغراضك. ولم أكمل كلامي حتَّى شرعت في بكاءٍ مكتومٍ داخلي لم أشعر به من قبل، بكاءٌ مختلفٌ عن كلِّ بكاءٍ سابقٍ. لم يكن حزنًا، لم يكن فقدًا، لم يكن خسارةً، كان بكاءً على سنوات حياتي الماضية، اجتاحني البكاء عندما أدركت أنَّني لن أستطيع العودة إلى دمشق مرَّةً أخرى، وأنَّ كلَّ الخطط والأحلام التي حلمتها، وحاولت إنجازها في السنوات الأخيرة تبخَّرت. رمى فؤاد الحقائق التي لم أرغب في رؤيتها في وجهي، وهي الحقائق التي يراها حتَّى الأعمى إذا أراد أن يرى. حلمت بالعودة، ولم أرغب أن يُخرِّب هذه العودة، حتَّى غضب الناس من الظلم وثورتهم عليه. زال غضب فؤاد، وحاول تهدئتي، ولم يفهم

حالة البكاء المحتقن التي دخلت فيها. شاهدني أبكي كثيرًا، شعر أنَّ هذه المرَّة مختلفةٌ، وهي تشبه موجات البكاء المرِّ التي كانت تصيبني، في بداية زواجنا عندما انتقلت إلى أميركا للعيش معه هناك.

عندما انتقلت للعيش في أميركا، كنت قد كرهت كلَّ شيءٍ في دمشق تقريبًا، وهذا السبب الذي جعلني أوافق على الزواج من رجلٍ لا أعرفه، وأذهب إلى بلادٍ لا أعرفها، في مغامرةٍ ليس فيها أيُّ ضمانةٍ لنجاحها. عندما قرَّرت الزواج من فؤاد، اخترت طريق الهرب من مكانٍ لم أعد قادرةً على العيش فيه. قبل سنواتٍ من الموافقة على هذا الزواج، حبست نفسي في غرفتي، ولم أخرج منها في زياراتٍ خارج المنزل إلَّا نادرًا. انحصرت حركتي بين مكان عملي كمدرِّسةٍ في مدرسة تاج النساء الابتدائيَّة، وهي إحدى مدارس الميدان للبنات، وبين البيت في المخيَّم، حيث لي غرفتي الخاصَّة، التي لا يشاركني أحد فيها، وحصلت عليها بعد عيشٍ طويلٍ مع إخوتي الصغار في الغرفة ذاتها لسنواتٍ. قضيت فيها جلَّ وقتي وحيدةً، أقفل الباب على نفسي وأشرع بتدخين سجائر لا تنتهي. أصبح كلُّ شيءٍ غير مناسبٍ لي في العالم الذي أعيش فيه. المكان الوحيد الذي شعرت فيه أنَّني أفضل حالًا هو مدينة بيروت. كانت الامتحانات التي ذهبت إليها في بيروت مرَّتين في العام متنفَّسي الأجمل في تلك الأيَّام، رغم الحرب الأهليَّة التي كانت مشتعلةً هناك. بعد انتهائي من دراستي في معهد إعداد المدرِّسين في دمشق، وحصولي على وظيفةٍ في مكانٍ قريبٍ من المخيَّم، بعد أن خدمت عامين في مناطق ريف دمشق، وهي الخدمة التي على كلِّ مدرِّسٍ جديدٍ أن يؤدِّيها قبل انتقاله إلى العمل في مكانٍ قريبٍ من سكنه الأصليِّ. لم أشعر نفسي راضيةً عمَّا أنا عليه، فقرَّرت ألَّا أكون أقلَّ من إخوتي، وأن أحصل على شهادةٍ جامعيَّةٍ. فسجَّلت كطالبةٍ في جامعة بيروت العربيَّة في كليَّة الأدب العربيِّ. وكانت دراستي بسبب عدم قبولي بوضعي، وفرصةً من أجل الخروج من الروتين الذي أعيش فيه في الحياة المدرسيَّة وأيَّامها المتكرِّرة والمملَّة.

لم أشعر نفسي يومًا أنِّي ابنة المخيَّم البائس، لم أحبَّ المكان، ولم أحبَّ عائلتي، ولم أستطع إقامة علاقات صداقةٍ مع أخرياتٍ كثيراتٍ في شبابي المبكر، كانت عائدة ابنه أخي عبد الرحمن صديقتي المقرَّبة، رغم أنِّي لم أكن على وفاقٍ مع أبيها، ويبدو عدم وفاقها معه أيضًا جعلنا أقرب لبعضنا، لا سيَّما أنَّه لم يكن في البلد، كان يعمل في السعوديَّة وعائلته في المخيَّم. تراخت هذه العلاقة بعد انتقالهم للسكن خارج المخيَّم. وبعد ذلك لم يبقَ لي سوى صديقةٍ وحيدةٍ تعرَّفت عليها في معهد إعداد المعلِّمين، وصمدت علاقتنا لزمنٍ طويلٍ، سهى كانت جارتي إلى حدٍّ ما، فبيتهم لا يبعد عن بيتنا أكثر من خمسمئة مترٍ، هي الصديقة الوفيَّة ومتنفَّسي الوحيد للسنوات اللاحقة. كانت الشخص الوحيد الذي استطعت التعبير عن غضبي وحزني وفرحي وسعادتي أمامه، ودون صداقتها كانت حياتي في المخيَّم ستكون أصعب بكثير. أمَّا غير هذه الصداقة، فلم يكن في المخيَّم ما يستحقُّ العيش من أجله، وعدَدتُ العيش فيه نوعًا من عقابٍ إلهيٍّ على ذنبٍ لم أرتكبه.

لم تكن طفولتي سعيدةً في المخيَّم حين انتقلنا إليه، كنت طفلةً متأنِّفةً في مكانٍ كانت قابليَّة العيش فيه أفضل من المخيَّم، فحيُّ الأمين الذي كنَّا نسكن فيه قبل انتقالنا إلى المخيَّم كان الجنة بالنسبة للمخيم. في المخيَّم حاولت أن أكون الطفلة النظيفة في محيطٍ من القذارات، لم أحبَّ الغوص في طين المخيَّم في أثناء الذهاب إلى المدرسة. منذ وطأت قدماي المخيَّم، نفرت من المكان، ليس لأنَّه استقبلني بسقوطٍ تسبَّب بكسرٍ ليدي، بل لأنِّي شعرت بالاختناق منذ اللحظة التي انتقلنا فيها للعيش في تلك المنطقة الموحشة. كان المخيَّم منطقةً خارج المدينة، ذهب الناس إليها لأنَّ لا خيار لهم، وطنهم الذي فقدوه قبل سنواتٍ، واعتقدوا أنَّهم سيعودون إليه خلال أسابيع، وجدوها سنواتٍ تجرُّ سنواتٍ، يكبر الأولاد، يتزوَّج الشباب، والحياة ستستمرُّ ولن تنتظر أحدًا، ولم يعد العيش في بيوتٍ مؤقَّتةٍ صالحًا، لذلك

انتقلوا إلى مكانٍ موحشٍ، لكنَّه قد يؤمِّن لهم استقرارًا أفضل من أجل انتظارٍ أطول لوطنٍ لن تتحقَّق العودة إليه قريبًا.

بعد أشهرٍ من انتقالنا بدأت بالذهاب إلى المدرسة، فقد بلغت حينها السادسة من عمري وهي السنُّ التي يدخل فيها الأطفال إلى المدارس في سورية، وبات عليَّ الخروج من البيت إلى المدرسة يوميًّا. أسعدني الخروج من المنزل، كنت سعيدةً بوجود الكثير من الطفلات حولي، لكنَّ إحساسي تجاه المكان لم يتغيَّر. وبسبب نفوري من كلِّ شيءٍ في المكان كانت المدرسة مخرجًا، لم أستطع إقامة علاقات صداقةٍ كثيرةٍ مع الأخريات، وتجنَّبت علاقات العداء معهنَّ، وحاولت طوال فترة دراستي في مدارس المخيَّم أن أكون دبلوماسيَّة معهنَّ، حتَّى لا تفكِّر إحداهن في إيذائي. حاولت في بعض الأوقات إقامة علاقاتٍ حميميَّةٍ، زرت بعض زميلاتي في الصف في بيوتهنَّ، وزارتني بعضٌ منهنَّ في بيتنا، خضعن لتحقيقات أمِّي المطوَّلة عن أهاليهنَّ، وحافظت على هذه العلاقات، التي تحوَّل القليل إلى علاقاتٍ حميميَّةٍ. كنت أشعر كأنَّ هناك شيءٌ ما في المكان أو فيَّ شخصيًّا، لا أستطيع تحديده، جعلني غير قادرةٍ على حبِّ المكان، أو كأنَّ أحدهم قد صنع لي حجابًا عند أحد الشيوخ ليمنعني من حبِّ المكان، أو حتَّى قبوله.

تحسَّن الحال قليلًا عندما انتقلت للدراسة الثانويَّة في مدرسة بهجت البيطار في الميدان، فلم يكن في ذلك الوقت مدرسة ثانويَّةً للبنات في المخيَّم، وأيُّ بنتٍ تريد دراسة الثانويَّة عليها التسجيل في مدرسةٍ خارج المخيَّم. وهذا ما جعلني أخرج من المخيَّم، طيلة أيَّام الأسبوع. وكنت في بعض الأحيان أعود إلى البيت مشيًا على الأقدام إذا وجدت رفيقة طريقٍ من الطالبات اللواتي يدرسن في المدرسة وتسكن في المخيَّم، حتَّى ولو لم تكن في صفِّي، كلُّ ذلك من أجل أن أطيل فترة بقائي خارج المخيَّم. كانت مدرستي الثانوية تبعد عنه حوالي ثلاثة كيلومتراتٍ فقط، وعلى هذا الطريق الطويل ما بين المدرسة والمخيَّم، دارت مع الفتيات التي في مثل سنِّي

أحاديث لا تنتهي عن الحبِّ والحياة والأحلام. وكلنا كنَّا ننتظر فارس الأحلام الذي سيأتي لينقذنا من أوحال المخيَّم التي لا تنتهي، لنذهب إلى مكانٍ آخر نعيش فيه كبشرٍ عاديِّين، نسكن في أماكن عاديَّةٍ، ونأكل أكلًا عاديًّا وليس مساعدات الأونروا، ونمشي في شوارع عاديَّةٍ، وليس في نهرٍ من الطين شتاءً، وعاصفةٍ من الغبار صيفًا. حلمت مثل كلِّ فتيات جيلي أن يأتي فارس أحلامي ويخلِّصني من المخيَّم، لا سيَّما من عذاب يوم الاستحمام في الشتاء، الذي أنتظر فيه دوري حتَّى أستطيع غسل جسدي كما أرغب، لم أحظَ بالفرصة، لأنَّ أمِّي تستعجلني، فهناك إخوتي الصغار ينتظرون دورهم في الاستحمام. وإذا كنت أستطيع الاستحمام كلَّ يومٍ في الصيف بالماء البارد، أنشل بعض الماء من البئر في صدر البيت، وأستحمُّ بسرعةٍ، وأغسل العرق والغبار الذي تراكما على جسدي طوال اليوم. لكنَّ ذلك لم يكن ممكنًا في الشتاء. لم نكن نملك حمامًا في بيتنا في ذلك الوقت، وكنا نستحمُّ في المطبخ، المكان الوحيد المتاح للاستحمام بعيدًا عن أنظار إخوتي. أردت الخلاص من حفلة تعذيب الغسيل، الذي أضطر فيه لمساعدة أمِّي وأختي بيان في غسيل العائلة الذي لا ينتهي، عقابٌ إلهيٌّ آخر على ذنبٍ لم أرتكبه. أردت الخلاص من جنون نهاية الصيف، والحريق الذي يشتعل في كلِّ المخيَّم، الذي يجنُّ أهله من أجل صناعة مربَّى البندورة ومربَّى المشمش في حارات المخيَّم، فوق أخشابٍ مشتعلةٍ يجمعها سكَّانه طيلة العام من أجل ذلك اليوم، الذي يتحوَّل فيه المخيَّم إلى تجمُّعٍ للحرائق، لأنَّ الأهالي يمارسون هذا الطقس معًا كنوع من التعاون. لم أشارك أطفال المخيَّم في حفلة رمي البصل والبطاطا في جمر النار تحت عصير البندورة الذي يغلي ليصبح مربَّى والتقاطها ساخنةً، ولم أكن أحبُّ أدوات المنزل المنشور بها المربَّى على الأسطح من أجل أن يجفَّ، والمغطَّى بقماشٍ من الشاش لإبعاد الحشرات عنه. كانت كلُّ تفاصيل المخيَّم، تدفعنا نحن الفتيات، لانتظار فارس الأحلام الذي ينقذنا منها، بما فيها تدفئة الشتاء على البريموس الذي تلتفُّ حوله كلُّ

العائلة للتدفئة، والذي يجب أن نطبخ عليه ونعمل عليه الشاي والقهوة وأشياء أخرى أيضًا.

رغم أنِّي كنت فتاةً حالمةً، ولم أكن فتاةً محافظةً أو متديِّنةً، لم يكن حظِّي من الحبِّ مثل حظِّ صديقاتي، اللواتي ذهبن وراء حبِّهن، واللواتي لم تجدن الحبيب، جاءهن نصيبهنَّ السعيد، أو هكذا اعتقدت حينها. لم أصادف الرجل الذي يهزُّ قلبي وأعيش تجربة حبٍّ قادمةٍ من أغاني عبد الحليم حافظ ساحر جيلي من الفتيات، كنت مستعدَّةً لدفع حياتي ثمنًا لمثل هذا الحبِّ، لكنِّي لم أعثر عليه، فأعفاني هذا من دفع الثمن، لم أعرف حينها، ليس على الفتاة انتظار الحبِّ، بل عليها صناعته، فالحبُّ لا يبحث عن المحبِّين في الأزقَّة والحارات، بل على المحبِّين أن يجدوا الحبَّ في حياتهم.

لا حبيب لي، ولا فارس أحلامٍ، فلم يبقَ عندي فكرةٌ عن الرجال سوى مهمَّاتهم كأزواج، فبقيت أفكِّر فيهم بوصفهم أشخاص صالحين أو غير صالحين كأزواجٍ. هذا لا يعني أنِّي كنت معاديةً للحبِّ، أبدًا، ولطالما تمنَّيت خوض تجربة حبٍّ عاصفٍ ومغامرٍ أحطِّم فيها كلَّ الحواجز، تنتهي بالزواج مثل كلِّ الأفلام الرومانسيَّة التي كانت سائدةً في ستينيَّات القرن الماضي، إذ كلُّ فتاةٍ من جيلي تمنَّت أن يكون لها تجربة فيلمٍ سينمائيٍّ من تلك الأفلام الرومانسيَّة، قد تكون هذه الممثِّلة فاتن حمامة أو هند رستم أو شادية، وقد تحرَّك قلبي مرَّاتٍ عدَّةً، لا سيَّما في مراهقتي، لم يكن تحرُّكًا جديًّا، لم يهزَّني من الأعماق. لا أعرف لماذا لم أحظَ بعلاقة حبٍّ كما اشتهيت. قد يعود ذلك لخوفي وجبني من الإقدام على مغامرةٍ فاشلةٍ، لا أحصد منها سوى الفشل وتحطم قلبي وتلويث سمعتي في مجتمعٍ محافظٍ. ولأنَّ الحبَّ يمكن أن يفشل، شعرت أنِّي لا أستطيع تحمُّل هذا الفشل، فهي تجربةٌ قاسيةٌ، لا سيَّما أنِّي أصاب بالرعب من أقلِّ فشلٍ أعاني منه، كيف إذا فشلت بالشيء الذي أعدُّه أهمَّ شيءٍ في الحياة، وقتها تكون الكارثة قد وقعت. خوفي من الحبِّ وعليه ومن خدش صورته أبقاني بعيدةً عنه وحصَّنت

نفسي ضدَّه. ولم يبقَ أمامي للخروج من المخيَّم سوى البحث عن زواجٍ من شخصٍ خارج المخيَّم. لم أفكِّر في الذهاب إلى أميركا أو غيرها من البلدان، قرَّرت أنِّي لن أتزوَّج أيَّ شخصٍ من المخيَّم، رغم تقدُّم الكثيرين من شبَّان المخيَّم لخطبتي، رفضتهم جميعًا، ليس لأنَّهم سيِّئون، على العكس كان منهم أفضل شباب المخيَّم، لم أرغب في البقاء في المخيَّم بأيِّ ثمنٍ، هدفي الوحيد الخروج منه عن طريق الزواج.

عندما أفكِّر بسبب كرهي للمخيَّم ورفضي العيش فيه بعد كلِّ هذه السنين، لا أجد مبرِّراتٍ مهمَّةً لعدوانيَّتي تجاه المكان، التي انعكست عدوانيَّةً تجاه أهلي أيضًا. يبدو أنِّي حمَّلتهم مسؤوليَّة تلك الحياة التي عدَدتُها قاسيةً عليَّ، مع أنَّ هذا ليس من صنع أيديهم، لم يديروا حياتهم بطريقةٍ سيِّئةٍ أوصلتهم إلى العيش في مكانٍ سيِّئ. إنَّهم عائلةٌ من مئات آلاف العائلات التي كانت ضحيَّة عدوانٍ أكبر منها سلبها وطنها ووسائل عيشها وطردها من بلدها. لم أفهم وقتها أنَّ لومي لأهلي هو لومٌ للضحايا الذين لم يكن لهم ذنبٌ فيما آلت إليه حياتهم كبشرٍ مساكين، وجدوا أنفسهم لاجئين في بلاد الآخرين بعد حربٍ دمويَّةٍ انتزع عدوَّهم وطنهم منهم خلالها. رغم كرهي الشديد للمكان وأنا أعيش داخله، إلَّا أنَّ نظرتي له اختلفت عندما غادرت إلى أميركا، وعائلتي التي كنت أخجل بها وأعدُّها عائلةً قاسيةً، أخذت صورتها بالتغيُّر عندما غادرت البلد، وبدأت بإعادة أنسنتهم وأنا في الغربة، بعد أن شيطنتهم وأنا في المخيَّم. عندما كنت أعيش هناك، لم أرَ سوى ما هو سلبيٌّ في المكان والعائلة، وذلك تعزيزًا لكراهيَّتي للمخيَّم وانفصالي عنه بالمعنى النفسيِّ. وبهذا الفعل الدفاعيِّ، كنت أرفض رؤية أنَّ العيش في المخيَّم فيه الكثير من الأشياء الجميلة. وأنِّي عشت لحظاتٍ كنت أُحسَدُ عليها من الأخريات، فقد عشت في عائلةٍ أكثر انفتاحًا من العائلات الأخرى، وهذا ما ساعدني على استمرار دراستي، وتنمية كراهيَّتي للمخيَّم، دون تدخُّلٍ من الآخرين، وكنت حرَّةً في حدود سقف

الحريَّة في المخيَّم، وهذه الميِّزات لم تتوافر للكثيرات من صديقاتي وزميلات الصفوف الدراسيَّة، اللواتي فرض أهلهنَّ عليهنَّ ترك المدرسة، وزوجوَّهن صغيراتٍ، وصرت أقابل صديقاتي القدامى في الشارع، وهنَّ يجرجرن وراءهنَّ أطفالًا عدَّةً، وكنت أشعر أنهنَّ كبرن عشرات السنوات. أبي الأمِّي حماني من تعسُّف إخوتي، لا سيَّما أخي سعيد، لم يحاول أن يفرض عليَّ شيئًا لا أريده، ولم يحاول إرغامي أو إقناعي بأحد المتقدِّمين للزواج منِّي، عندما أرفض رجلًا تقدَّم للزواج بي، يحترم رغبتي، ولا يسألني عن السبب. وقف أبي معي، حين أراد أخي سعيد أن يفرض عليَّ لبس إيشارب، كما كان سائدًا بين العديد من بنات المخيَّم، رفضت ذلك، ورفضت أيَّ تدخُّلٍ منه في حياتي وفي لبسي، قلت له: «ما إلك سلطة علي وأبوي عايش، أبوي الوحيد اللي ممكن يقلي شو بيصير وشو ما بصير»، قلت هذا الكلام ولم أكن واثقةً من موقف أبي ومن ردَّة فعله على الموضوع، رميت تلك الحجَّة في وجهه من أجل التخلُّص من مضايقاته، لأنَّنا تشاجرنا على الموضوع مرَّاتٍ عدَّةً، دون أن أستطيع ردعه عمَّا يريد. رفضت، وقلت له «قول لمين ما بدك، ما رح أرد عليك، وما رح أعمل غير اللي براسي، أنت ما الك علاقة فيني»، طبعًا قلت ذلك وأنا خائفةٌ جدًّا من أبي، فهو رجلٌ غامضٌ بالنسبة لنا، وهو ربُّ العائلة الغائب الحاضر، والمجهول من أبنائه، أبي الرجل الغامض قويُّ البنية يخيفني بعينه الجامدة، فلا أجرؤ على النظر في عينيه، لدرجة كنت أشعر أنِّي أنسى ملامحه من رفضي للنظر في وجهه مباشرةً. لم ينتظر أخي سعيد مثل التهديدات السابقة، في الليل، عندما عاد أبي من عمله، ذهب إليه وشكاني لأنِّي لا أرتدي الإيشارب. استمع أبي له بكلِّ هدوءٍ، رغم أنَّ سعيد شرح بانفعالٍ شديدٍ وغضبٍ حرصه على شرف العائلة الذي يدفعه للتدخُّل في حياتي. هدَّد وتوعَّد بإخبار أبي ليفرض عليَّ ارتداء ما لا أرغب به، حتَّى أحمي سمعة العائلة من أقوال الناس. عندما انتهى، قال أبي: «نادوا وداد»، جاءت نوال أختي الصغيرة إلى غرفتنا ونادت عليَّ، وأنا كنت قد سمعت كلَّ

الحوار الذي دار بينهم من الغرفة المجاورة، لأنَّ صوت أخي وصل إلى سابع جار، وليس إلى الغرفة المجاورة فقط. عندما جئت إلى الغرفة كان أبي يجلس على الأرض وبقايا طعام العشاء ما زالت أمامه، ويجلس أخي سعيد إلى جانبه وفي عيونه فرحه الشماتة والانتصار. خفت من هذه المواجهة، فأنا عمليًّا لم أواجه أبي ولا مرَّةً من قبل، كان دائمًا طيفًا مخيفًا أمِّي تهدِّد به، أكثر منه وجودًا حقيقيًّا في البيت، لدرجةٍ يمكنني معها القول إنَّ أبي الذي نعرف، هو اختراع أمِّي، وليس الرجل الذي يعيش في الحياة فعليًّا، هي التي رسمت شخصيَّته وأعطته صورته، وهو لم يحاول أن ينفيها، لأنَّ علاقته بنا كانت ببساطةٍ في الحدِّ الأدنى، نادرًا ما نراه، رغم أنَّنا كنَّا نعيش تحت سقفٍ واحدٍ. المواجهات السابقة معي لم تكن تستدعي الخوف، لأنَّها كانت على أشياء عاديَّةٍ وأسئلةٍ عاديَّةٍ، وهو لم يسألني ولا مرَّةً عن العرسان، وكان يترك المهمَّة لأمِّي. عندما نظرت إليه، لم ألحظ على وجهه أيَّ علامات غضبٍ وهذا ما زاد من خوفي، فلم أعرف في أبي ميزة إخفاء مشاعره. نظرت إليه، سرعان ما أشحت بوجهي عنه، فقد زادت عينه المفقودة من خوفي. قال: «قعدي»، قلت بارتباكٍ وخوفٍ: «ما بدي أقعد»، أحسَّ بخوفي عندما سمع صوتي. قال «زي ما بدك، بدي أسألك سؤال واحد..»، بين هذه الكلمات وبين الزمن القصير الذي فصلها عن السؤال، شعرت أنَّها دهرًا، أيُّ سؤالٍ سيسألني. جاء السؤال: «إنت بدك تحطِّي الإيشارب على رأسك؟»، لم أعرف ماذا أقول ردًّا على السؤال، شلَّني الخوف، وسمعت ضربات قلبي بأذني، رغم أنِّي لا أذكر أنَّ أبي ضرب واحدةً منَّا نحن البنات، مع أنَّه ضرب إخوتي الشباب. سألت نفسي هل سأكون أوَّل بنتٍ يضربها من بناته؟ استجمعت قوتي وقلت: «ما بدي أحطُّه على رأسي»، ابتسم أبي وقال: «خلص يابا، زي ما بدك، روحي، وما تحطِّيه على رأسك»، شلَّتني الدهشة، ما الذي يجري؟ عندما سألت: «بعد في شي ثاني يابا»، ابتسم وقال: «لا، هذا كل شيء»، في البداية لم يستوعب سعيد ما جرى، كان مصدومًا، وعندما

استوعب الحديث، اختفت نظرة الشماتة والانتصار في عينيه، وتحوَّلت إلى خيبةٍ وانكسارٍ. انفعل، وقال لأبي: «هذا ما بصير، شو بدهم يقولوا الناس عنَّا؟!»، نظر أبي إليه نظرةً حازمةً وقال له: «اسمع، أنا ما بهمني الناس، أنا بهمني بنتي. أختك ما بدها تلبسُه، وأنا ما بجبرها، ما بدي بنتي تطلع من البيت وحاططُه على راسها، ولما تطلع برَّة الحارة تشيلُه، وترجع تحطُه لما تصير قريبة من البيت. أنا بدي بنيتي مثل ما بتطلع من بيتي ترجع عليه. فهمت؟»، بهذه الكلمة أنهى أبي النقاش مع أخي ولم يعد إليه فيما تبقى من حياته. شعر أخي سعيد بالخيبة من النتيجة التي حصل عليها بعد الشكوى لأبي، وشعرت أنا بالانتصار عليه والشماتة به.

لم أحظَ بغرفتي الخاصَّة في منزلنا طيلة فترة طفولتي ومراهقتي، وعليه فإنِّي لم أحظَ بالخصوصيَّة التي يمنحها المكان الخاصُّ للمرء. كنَّا دائمًا في البيت أكثر من عدد الغرف، لذلك هناك من شاركني مكاني، فعليَّ الدراسة مع وجود آخرين في المكان، وعليَّ تغيير ملابسي مع وجود أحدٍ ما في المكان، ولم أستطع أن أجلس وأتأمَّل شيئًا من حياتي، دون أن يسألني أحدٌ كبيرٌ أو صغيرٌ عمَّا أفعل، وهذا ما جعلني أشعر أنَّ حياتي الخاصَّة منتهكةٌ من الآخرين صغيرهم وكبيرهم. جاء الاستقلال بحياتي الشخصيَّة متأخِّرًا وترافق مع انتهاء دراستي في دار المعلِّمين واستلامي أوَّل وظيفةٍ أقبض منها راتبًا، وهذا ما عزَّز استقلاليَّتي، فلم أعد أحتاج إلى أخذ المال من أهلي أو من إخوتي الكبار، وتحديدًا من أختي بيان، وأخي خليل الذي لم يبخل عليَّ ولم يرفض لي أيَّ طلبٍ، وكان يُلبِّي كلَّ احتياجاتي، لا سيَّما الدراسيَّة. لم تكن الغرفة التي استقلَّ فيها مكافأةً على النجاح، بل جاءت نتيجة توسُّع البناء في منزلنا، إذ أصبحنا نملك طابقين بدلًا من واحد، نصف الطابق الأرضي محلَّاتٌ، ونصفه الآخر سكنٌ بما يعادل خمسة غرفٍ وصالتان في الطابقين، أي بزيادةٍ عن الوضع السابق بغرفةٍ وصالتين، لأنَّ بيتنا قبل البناء كان عبارةً عن أربع غرفٍ على طرفي قطعة أرضٍ مستطيلةٍ، تفصل بينهما فتحةٌ

سماويَّةٌ. وكان عددنا على مدى السنوات السابقة قد تناقص، فمنذ انتقلنا إلى المخيَّم ثلاثةٌ من إخوتي تزوَّجوا في المخيَّم، فقد تزوَّج أخي خليل أوَّلًا، وذهب للعيش في بيت حماته، لأنَّ هذا كان شرط زواجه، فليس لحماته سوى هذه الابنة، وقرَّرت خديجة البقاء مع أمِّها إذا أرادت الزواج، فلم تكن لترضى أن تعيش أمُّها وحدها، وهي التي عاشت من أجلها، ولم تتزوَّج بعد خروجها من فلسطين بعد وفاة زوجها، واقتصرت حياتها على رعاية ابنتها وتعليمها حتَّى لا تلقى مصيرها ذاته. من أجل كلِّ هذا، كان شرطها للموافقة على الزواج من أخي خليل أن يعيشا معها، وأخي لم يرفض، محترمًا رغبتها، ومتسامحًا معها، فهو وقع في حبِّها. صحيحٌ أنَّ هذا الوضع، غير عاديٍّ في المخيَّم، امتلك خليل الجرأة لأن يفعل غير العادي في ذلك الوقت، فتزوَّج من خديجة وسكنا مع حماته. هذا الوضع لم يعجب أمِّي وأبي، لكنَّهما سرعان ما خضعا للأمر الواقع، حتَّى لا يصطدما مع خليل، وهو صاحب مواقف حادَّةٍ في حياته يعرفانها جيِّدًا. أمَّا أختي بيان فقد تزوَّجت بعد أخي خليل بأشهرٍ عدَّةٍ فقط. فعندما انتهت بيان من دراستها في دار المعلِّمين وهو المكان ذاته الذي درست فيه أنا بعد سنواتٍ طويلةٍ، عُيِّنت أوَّلًا في منطقة البطيحة في الجولان بالقرب من بحيرة طبريا. لم يقبل أبي أن تذهب أختي بيان إلى هناك وحدها، ولم يقبل أن تترك الوظيفة، فرافقها هو للعيش معها هناك حتَّى تنتهي وتنتقل إلى دمشق. وفي الوقت ذاته كان ابن عمَّتي عبد الرؤوف قد عُيِّن مدرِّسًا في البلدة ذاتها قبل بيان بعامٍ، وهناك وقعا في الحبِّ، فقد قدَّم لهما كلَّ الخدمات الممكنة من جلب الأغراض وغيره حتَّى يُرضي خاله، ويبقى بالقرب من حبِّه على ضفاف بحيرة طبريا قبل أن تحتلَّها إسرائيل بخمس سنواتٍ. وهو الحبُّ الذي أصرَّت بيان على نفيه طيلة حياتها. ولكن بعد أن انتقلا من البطيحة إلى دمشق، وكان هذا قبل حرب حزيران واحتلال إسرائيل للجولان بحوالي ثلاثة أعوامٍ، تقدَّم عبد الرؤوف لخطبة بيان، وافق أبي، وتمنَّعت أمِّي لأنها لم تكن على وفاقٍ

مع عمَّتي والدة عبد الرؤوف، لكنَّها رضخت لقرار أبي. وتزوَّجا بعد أشهرٍ عدَّةٍ، واستأجرا بيتًا في المخيَّم وانتقلا إليه. تزوَّج أخي سعد بعد حرب حزيران، وسكن معنا في البيت، فقد قسَّم أبي البيت بجدارٍ له بابٌ، لكن لم يُركَّب بابٌ فعليٌّ مكانه، بقي مجرَّد فتحةٍ في الجدار. أصبح هناك غرفتان في كلِّ طرفٍ، منح أبي لأخي سعد قسمًا من البيت، ونحن البقيَّة مجتمعين عشنا في القسم الثاني منه. بعد إصابة سعد في القصف الإسرائيليِّ على معسكرٍ للفدائيِّين في الهامة بالقرب من دمشق، وقد كان جرحه خطيرًا، ما أجبره على قضاء فترة نقاهةٍ طويلةٍ في البيت، تصاعدت خلالها الخلافات مع أهلي لكنَّه استطاع احتمالها، لا سيَّما وأنَّه ترك العمل الفدائيَّ وعاد إلى عمله في السجل العقاريِّ. مع التحاقه بالخدمة العسكريَّة وغيابه الطويل عن البيت عادت الخلافات للاشتعال بين زوجته فتحيَّة وأمِّي، وفَقَدَ قادرته على احتمال هذا الوضع، فخرج من البيت ووضع زوجته عند أهلها في مدينة دوما حتَّى يحسمه. إضافةً لأخي عبد الرحمن الذي غادر إلى السعودية قبل انتقالنا إلى المخيَّم بوقتٍ قصيرٍ وتزوَّج هناك.

أصابت موجة بناءٍ كبيرةٌ المخيَّم بعد حرب العام 1973، فقد تحسَّنت أوضاع المخيَّم قليلًا، كان تحسُّنًا كبيرًا بالنسبة للمكان وأوضاعه المأساويَّة، وأوَّل تحسُّنٍ هو وجود شبكة صرفٍ صحيٍّ للمخيَّم، بعد أن كان لكلِّ بيتٍ حفرته الخاصَّة لتصريف مياهه العادمة. والعيش بالقرب من بئرٍ صغيرٍ من الخراء كان يشعرني بالقرف طيلة الوقت، لذلك استحقَّت شبكة الصرف الصحيِّ احتفالاتٍ من سكَّان المخيَّم، وكما تحسَّنت الكهرباء لحدٍّ ما، وتحسَّن إسفلت الشوارع وتراجع الطين في الشتاء وتراجع الغبار في الصيف، مع بقاء الشوارع بلا أرصفةٍ. مع هذه التحسينات شعر سكَّان المخيَّم أنفسهم أكثر راحةً واطمئنانًا من السابق. كما أنَّ أهالي المخيَّم العاملين في دول الخليج تحسَّنت أعمالهم مع ارتفاع أسعار النفط بفعل الحرب نفسها ما زاد من مساعداتهم لأهلهم، وزاد من رغبتهم في شراء بيوتٍ في المخيَّم،

أو بناء بيوتهم السيِّئة وجعلها أكثر قوَّةً وحداثةً. أخي خليل الذي غادر إلى السعودية ليُحسِّن أوضاعه، اشترى قطعة أرضٍ خلف تجمُّع المدارس، وهو الذي يعيش مع زوجته عند حماته. كما اشترت أختي بيان وزوجها في الوقت ذاته قطعة أرضٍ على شارع اليرموك قريبةٍ من بيتنا، وهي التي سكنت في بيت أجرةٍ على الشارع ذاته. أوضاع الجميع في تحسُّنٍ، حتَّى أبي الذي نقل عمله إلى محلٍّ في بيتنا ذاته، تحسَّنت أوضاعه، لذلك لم يكن بحاجةٍ إلى مساعدتي الماليَّة عندما تسلَّمت وظيفتي. لم أكن سعيدةً بانتقال دكَّان أبي إلى بيتنا بعد أن كانت بعيدةً، وهذا ما زاد من كراهيَّتي للمكان. شعرت أنَّ مشهد أبي البائس بثيابه المتسخة دائمًا، بعينه المفقودة التي لا يخفيها خلف نظارةٍ، تشعرني بالحرج مع صديقاتي. عندما عمل بعيدًا عن البيت كنت أفضل حالًا، لأنِّي تجاهلت أنَّه موجودٌ في حياتنا، وكنت أعتقد أنَّ هذا التجاهل يكفي ليختفي من حياتي، أمَّا مع وجوده بالقرب منَّا طول الوقت، ليس ممكنًا إخفائه بالتجاهل مثلما كان الوضع السابق. عندما عبَّرت عن استيائي من أبي أمام أمي، نظرت إليَّ نظرةً فيها الكثير من المعاني، وهي نظرة حملت أكثر من اللوم، قالت وهي تهزُّ رأسها غضبًا: «ليش شو في أبوكي شي عيب، أبوكي أب بترفعي راسك فيه، مو بتستحي فيه. الحمد لله ما مدِّينا إيدنا لحدا، لا لإلك ولا لغيرك، وطول عمره أبوك رجل شغل. بس يا عيب على اللي ما بقدِّر النعمة»، استغربت هذا الكلام من أمِّي التي تنتقد أبي دائمًا وعلى الكثير من الأشياء، لم أنتبه إلى أنَّ أمِّي التي تنتقد أبي بقسوةٍ، وتقول كلامها أمامه دون خوفٍ منه أو خجلٍ، ودون أن يلغي هذا الانتقاد احترامها له، وأنَّها امرأةٌ لا تخجل بزوجها الذي يخجل بنفسه، مع أنَّ هناك الكثير من الأشياء التي لا تحبُّها فيه. كنت أشعر بالقهر عندما أسمع كلامها، وأشعر أنَّ لسان أمِّي الحادُّ يستهدفني بأقصى ما عندها من قوَّةٍ وحدَّةٍ، لا سيَّما عندما تسخر من احتقاري وترفُّعي على المخيَّم وعلى

عائلتي. وكنت أشعر أنَّها تحتكر انتقاد أبي كحقٍّ لها وحدها، وليس من حقِّ الآخرين أن يمارسوا مثل هذا النقد.

لم يكن التوسُّع وحده ما منحني غرفتي الخاصَّة، إنَّما حصلت عليها لسببٍ آخر، وهو أنَّ أخي سعيد الذي أنهى خدمته العسكريَّة بعد حرب الاستنزاف التي تلت حرب العام 1973، فكَّر في الزواج، وكان يرسم للاستئثار بالسكن في الطابق العلويِّ الجديد. وأمِّي وأبي لم يمانعا ذلك، كان هذا الاستيلاء غير عادلٍ. فلم يكن من العدل أن يسكن شخصان في ثلاثة غرفٍ وصالةٍ، أي هو وزوجته. ونسكن نحن الأربعة الباقين في البيت مع أمِّي وأبي في غرفتين وصالة. فكان قرار أبي أن أحصل على غرفةٍ في الطابق الجديد، وعندما يتزوَّج سعيد يأخذ هو وزوجته ما تبقَّى من البيت. لم يتزوَّج سعيد سريعًا، لقد احتاج أكثر من خمس سنواتٍ ليفعلها، وكانت زوجته أوَّل محجَّبةٍ تدخل العائلة. ولأنِّي على غير وفاقٍ معه ومنذ حصلت على الغرفة وقبل أن يتزوَّج، أغلقت الباب الذي بين غرفتي والصالة التي تخصُّهم نهائيًّا، ولم أستعمله مطلقًا، وأصبحت حياتي اليوميَّة مع الطابق الأرضي الذي يسكنه أهلي. وبابٌ آخر على البرندة نادرًا ما استخدمته تحاشيًا لأيِّ احتكاكٍ.

زاد ضيقي من العيش في البيت بعد زواج أخي سعيد، أصبح البيت بالنسبة لي سجنًا قبيحًا ومكانًا للتدخين المتواصل، عندما أخرج منه أتمنَّى ألَّا أعود إليه. طيلة الوقت أقفل باب غرفتي على نفسي، ولا أريد رؤية أحد، وعلاقاتي القليلة أصلًا مع العالم الخارجي باتت معدومةً، وصديقاتي نادرًا ما يزرنني. لا أعرف لماذا أثَّر زواج أخي سعيد فيَّ. وهذا لم أعرفه عندما تزوَّج أخي سعد، فقد تزوَّج سعد بامرأةٍ في مثل سنِّي قبل عشر سنواتٍ. كنت وقتها في السادسة عشرة من عمري، لم يضايقني الأمر، وكنت على علاقةٍ جيِّدةٍ مع فتحيَّة زوجة سعد وسرعان ما أصبحنا صديقتين، كنا طفلتين تهتمَّان ببعضهما البعض، هي تركت المدرسة بعد زواجها من أخي وحصولها

على الشهادة الإعداديَّة، وأنا بقيت في المدرسة، لم أملك ضدَّها أي ضغينة، بل على العكس، كنت أقف معها ضدَّ أمِّي خلال المدَّة التي أقاموا فيها معنا في البيت، لم تكن مدَّةً طويلةً فهي لم تتجاوز العامين. كانت علاقتي مع فتحية قويَّةً، لأنَّ سعد يقضي وقتًا طويلًا في العمل خارج المنزل، ما سمح لي قضاء وقتٍ أطول معها، وسرعان ما أنجبت طفلًا جميلًا بات لعبتنا. كان الوضع مختلفًا مع هيفاء زوجة سعيد، رغم أنَّها من عمري أيضًا، لكنَّ هذا الزواج وقع بعد عشر سنوات من الأوَّل. قد يعود السبب إلى أنَّ علاقتي مع سعد مختلفةٌ تمامًا عن علاقتي بسعيد. وقد تكون بسبب التقدُّم في السن، وقتها أصبح عمري ستة وعشرين عامًا، شعرت أنِّي أصبحت امرأةً عانس، وهو ما زاد من عدوانيَّتي اتجاهها، وبات البيت بالنسبة لي لا يطاق، أصبح الجحيم بعينه. صحيحٌ أنِّي أغلق باب غرفتي على نفسي، ما يعطيني بعض العزلة، لكنَّ هذه العزلة لا تمنحني الراحة. تفصلني جدران الغرفة عن الآخرين في البيت، لكن تحوِّلني هذه الجدران إلى سجينة نفسي مع سجائري، التي كثيرًا ما أدخِّنها متعاقبةً. كانت خطبتي الأولى من شابٍّ فلسطينيٍّ يعيش في ألمانيا، لم أعرف عنه شيئًا، ولكن عندما سأل إخوتي عنه، تبيَّن أنَّه رجلٌ متعصِّبٌ دينيًّا، المتديِّن آخر رجلٍ يمكن أن يناسبني. لم أستطع التأكُّد من صحَّة هذه الادعاءات، لم يكن هذا الرجل بالنسبة لي أكثر من صورٍ عدَّةٍ أرسلها لأهله ليبحثوا له عن عروسٍ ويعرِّفون عنه من خلال هذه الصور. لذلك، قرَّرت عدم خوض هذه المغامرة وتعريض نفسي لتجربةٍ أقسى من التجربة التي أعيشها، فلا شيء مستعجلٌ في زواجي، فأنا لست عبئًا على أحد. صرفت النظر عن الموضوع، وأخبرت الوسطاء «لا نصيب للرجل عندنا»، لم أكن معجبةً بالخطبة التقليديَّة، كنت أشعر نفسي في معرضٍ للأدوات المنزليَّة، وهناك من يبحث عنِّي لكي أكمل مطبخه، كنت أرفض الفكرة، لكن لم يكن هناك طريقةٌ أخرى للزواج طالما لم يضربني مخلب الحبِّ.

ازداد الوضع سوءًا بالنسبة لي، شعرت أنَّ البيت يضيق عليَّ أكثر فأكثر، لم تكن زوجة أخي الجديدة مرتاحةً أيضًا، هناك شيءٌ خاطئٌ في طريقة العيش، في بيتٍ من طابقين، موزَّعين بطريقةٍ غريبةٍ كأنَّها خطوط حربٍ. ولم يكن من المناسب لامرأةٍ محجَّبةٍ العيش في بيتٍ تعيش فيه شابَّتان سافرتان، في الوقت الذي تختفي هي خلف حجابها. لم أكن أنا ولا أختي نوال التي تصغرني بسنواتٍ عدَّةٍ متديِّناتٍ، وكنَّا نخرج بملابس الموضة السائدة بين الشابَّات في ذلك الوقت. وكنت أجلب جلَّ ملابسي معي من بيروت عندما أسافر هناك من أجل الامتحانات، وكانت كلُّ مدَّخراتي تذهب عليها، في فصل الشتاء على الثياب الشتويَّة، وفي فصل الصيف على الثياب الصيفيَّة. وكنت أرتدي بنطلونات الجنيز الضيِّقة والقمصان الضيِّقة، مثل الفتيات في المخيَّم، وكذلك أختي الصغيرة نوال. لم تكن هيفاء مرتاحةً لهذا الوضع، وهي الفتاة التي ترغب في أن تكون متخفِّفةً من ملابس تثقلها، فالحجاب والجلباب تعذيبٌ حقيقيٌّ في الصيف. فهمت من حديثها أنَّها حاولت إقناع سعيد أن تتخفَّف على الأقل من جلبابها، وتحتفظ بحجابها، على أن تلبسه على ملابس عاديَّةٍ محتشمةٍ مثلما تفعل الكثيرات من النساء، لكنَّه رفض بشدَّةٍ، ومع هذا الرفض، بات الوضع يزداد توتُّرًا في المنزل، ولم يعد سعيد عنده القدرة على التدخُّل في حياتنا، مثلما هو الوضع عندما كان عازبًا. وبسبب هذا الوضع المتوتِّر دائمًا في البيت، عرضت هيفاء على أخي سعيد الخروج من المنزل، رفض الفكرة. ولم يكن هناك سببٌ لهذا الرفض سوى أنانيَّته، فهو عبَّر عن هذه الأنانيَّة طيلة حياته، لم يكن كريمًا مع أيٍّ منَّا في يومٍ من الأيَّام، على عكس إخوتي الباقين، الذين شهدت لهم مواقف تضامنٍ وكرمٍ معي ومع غيري في العائلة، أمَّا هو فلم يشهد أحدٌ له مثل هكذا موقفٍ. كان من الغريب الإصرار على العيش في هذا الوضع غير المريح، رغم أنَّه قادرٌ على تغيير الوضع، وأوضاعهم الماليَّة تسمح لهم باستئجار بيتٍ مستقلٍّ دون أن يتأثَّر مستوى حياتهم، كان هو وزوجته يعملان

مدرِّسان في مدارس الأونروا، أي كان دخلهما ممتازًا في ذلك الوقت. بقيت هيفاء تبحث عن حلٍّ آخر للوضع غير المريح الذي تعيشه بيننا، وبعد أن أعيتها الحلول، وكانت قد أنجبت ابنهما الأوَّل، تقدَّمت بطلب توظيفٍ لمدرِّسين في العربيَّة السعوديَّة، وحصلت على الوظيفة، وبات أمام أخي خيار الذهاب إلى السعودية مع زوجته كمحرمٍ، أو الخروج من منزل أهلي لأنَّها ليست قادرةً على البقاء فيه. لم تشعر هيفاء أنَّها واحدةٌ منَّا، كما شعرن زوجات إخوتي الأخريات، رغم خلافاتهن مع أمِّي. شعرت دائمًا أنَّها غريبةٌ لكونها زوجة الأخ غير المحبوب، وأمِّي لم تقصِّر بدور الحماة التقليديَّة. وكلُّ هذا كان لسببٍ آخر أكثر تأثيرًا وهو تديُّنها، واختار أخي المتعصِّب أن تكون زوجته امرأة متديِّنةً ومحجَّبةً ومجلببةً، ونحن لم نكن عائلةً متديِّنةً، ما جعلها تشعر نفسها شخصًا نافرًا وغريبًا في عائلتنا، وهذا ما زاد من انعزالها، وبنى جدران عاليةً بيننا وبينها. فكان الذهاب إلى السعوديَّة للعمل حلًا ومهربًا. ولم يكن أخي قادرًا على الرفض بعد أن ولد ابنه البكر.

خلال فترة تحضيرهم للسفر إلى السعوديَّة، أتى أهل فؤاد لخطبتي لابنهم المقيم في الولايات المتحدة، الذي درس الطبَّ هناك، والذي يرغب بالزواج من امرأةٍ عربيَّةٍ متعلِّمةٍ، وإنَّه مستعدٌّ للقدوم لأتعرَّف عليه في حال الموافقة وإكمال الإجراءات واللحاق به إلى أميركا. كنت خائفةً من الزواج والذهاب إلى بلدٍ أجنبيٍّ، خائفةٌ أن أذهب لمدَّةٍ قصيرةٍ وأعود مطلَّقةً، وأنا غير قادرةٍ على تحمُّل وضعي في المكان وأنا عزباء، فكيف الحال وأنا مطلَّقةٌ؟! ولكنَّ كراهيَّتي للمكان الذي أعيش فيه كانت أقوى من خوفي، فقرَّرت إذا ما وافقت على الزواج، ولم يكن الرجل المناسب لي، فلن أعود إلى دمشق مهما كانت الكلفة. وافقت موافقةً مشروطةً بحقِّي بالتراجع عند مقابلة الرجل إذا لم يعجبني، ولم يعترض أهل فؤاد، وقالوا هذا من حقِّك ولست ملزمةً على تقديم ضمانةٍ. لم يفرض أبي أو أمِّي عليَّ أيَّ شروطٍ بهذا

الموضوع، كان أبي يقول لي «إنَّها حياتك وأنت بتقرِّريها. الله يبعتلك اللي فيه الخير»، شعرت أنَّ كلامه نوعٌ من الهرب من المسؤوليَّة من جانبه وليس إعطاء الحريَّة لي حتَّى أستطيع عيش حياتي كما أريد. فهو يعرف كلَّ بنات جيلي تزوَّجن، وكنت أشعر أنَّه مصابٌ بحسرةٍ على ابنته التي بلغت السابعة والعشرين من عمرها ولم يأتِ نصيبها بعد، رغم أنِّي شابَّةٌ لا ينقصني لا الجمال، ولا اللباقة، ولا الحضور، ولا الأهل المحترمين. فسرَّ أبي عدم موافقتي على طلبات الزواج الكثيرة التي جاءتني، كنوعٍ من الغرور والتعالي على الآخرين. أبي لم يعرفني، ولم يعرف أيًّا منَّا. منذ ولدت، لا أذكر أيَّ حديثٍ أو نقاشٍ أو حتَّى جلسة طعامٍ مشتركةٍ بيننا وبينه، لم يكن يرغب في الاختلاط بنا، كنت أشعر أنَّه يخاف من هذا الاختلاط معنا، يشعر نفسه أضعف وأقلَّ من أولاده، ويخجل أمامهم بعينه المفقودة. وأنا أيضًا لم أعرفه، كان رجلًا مغلقًا على نفسه، ليس من السهل فكُّ أسراره، وأستطيع أن أقول: لا أحد منَّا نحن أولاده عرفه جيِّدًا في يومٍ من الأيَّام، أمِّي هي الوحيدة التي عرفته. كانت تستخدمه ضدَّنا كفزَّاعةٍ وتهدِّدنا به طيلة الوقت، كنَّا نخافه جدًّا، إنَّه الرجل القويُّ الحاضر/ الغائب بيننا. لم أتعرَّف عليه إلَّا في أواخر سنوات حياته، وفي هذه السنوات، تفكَّكت الصورة التي رسمتها أمِّي له، صورة الرجل القويِّ الصارم القادر على فعل أيِّ شيءٍ، لا سيَّما قدرته على العقاب القاسي لأولاده، تفكَّكت صورة الرجل الذي بلا قلبٍ، رغم أنِّي لا أذكر أنَّه عاقب أيًّا من أولاده عقابًا صارمًا. مع التعرُّف عليه، تعرَّفت إلى شخصٍ رقيقٍ وخجولٍ جدًّا، مرتبكٍ لا يعرف التعبير عن أفكاره جيِّدًا، يخجل من الجرح الذي أفقده عينه، بدل الفخر به لأنَّه نتاج عملٍ بطوليٍّ لم يذكره يومًا في حياته، فهم أنَّ عليه القيام بمهام الأب الذي يؤمِّن قوت العائلة، وعلى زوجته أن تقوم بباقي الأعباء وتدير حياتهم كما تريد. لا أعرف إذا كان هذا تواطؤً أو اتفاقًا صريحًا، ضمن تقسيم العمل بينهما، أو هي رغبة أمِّي في إبعاده عن العائلة، لعدم ثقتها بقدرته على

التصرُّف بحكمةٍ؟ كانت تقول إنَّه يخرِّب كلَّ شيءٍ يقترب منه، لذلك أفضل شيءٍ أن يبقى بعيدًا، وهذا ما كان.

العائلة التي ظهرت للخارج بوصفها نموذجًا للعائلة المتماسكة والمحترمة، التي أنجز أبناؤها ما أنجزه قلَّةٌ من اللاجئين، الذين عانوا الأمرَّين خلال السنوات الأولى التي تلت خروجهم من فلسطين، هي في الواقع عائلةٌ مفكَّكةٌ، تحاول الحفاظ على صورتها المثاليَّة أمام الآخرين، والعلاقات بين أفرادها سطحيَّةٌ وشكليَّةٌ. والأخوة الذين تزوَّجوا سرعان ما أداروا ظهرهم للعائلة، والتفتوا للاهتمام بعائلاتهم وكأنَّهم مقطوعون من شجرةٍ. حصلوا على وظائف جعلتهم قادرين على مغادرة العائلة، التي يبدو أنَّهم باتوا يحتقرونها، بعد أن شعروا أنفسهم ينتمون إلى مكانةٍ اجتماعيَّةٍ أفضل من عائلتهم. حتَّى أخي سعد الذي سكن معنا في بداية حياته الزوجيَّة، سرعان ما غادرنا بعد خلافاتٍ مستمرَّةٍ بين أمِّي وزوجته، وأنا لم أفهم سرَّ المشكلات المستمرَّة بين أمِّي وزوجات أبنائها، هل هو أحساس الحماية ودورها التقليديُّ في اضطهاد زوجات الأبناء، أم هو أكثر من ذلك. ولماذا تختلف أمِّي مع فتحية الطفلة المسكينة التي أهلها بعيدين عنها، التي لم تعد تطيق السكن معنا تحت وقع المشكلات مع أمِّي. ما دفع أخي سعد إلى أخذها معه إلى مكان عمله في الزبداني، حيت استأجر بيتًا صغيرًا هناك. وعندما ذهب لأداء الخدمة العسكريَّة لم يُعِدهَا لتسكن معنا، بل أعادها لتسكن في دوما عند أهلها، ريثما تنتهي خدمته العسكريَّة التي طالت إلى ما بعد حرب العام 1973، ولم يزرنا في البيت بعد أن خرج من المنزل، إلَّا خلال الحرب ذاتها، التي خاضها في التشكيلات القتاليَّة التي حاربت على الجبهة الجنوبيَّة. بعد عودته لزيارة أهلي، بقيت علاقته معنا علاقةً شكليَّةً، لا نعرف عنه شيئًا تقريبًا، وهو لا يعرف عنَّا أيَّ شيءٍ أيضًا. لم يتدخَّل في حياة أحدٍ منذ ذلك الوقت، كان يزور المخيَّم كديكورٍ اجتماعيٍّ، عند الخطبة، أو عندما يقدم واجب التعزية عند الحاجة. اختار العيش في مدينة

دوما حيث يعيش أهل زوجته. أصبح المكان يناسبه أكثر مع تحوُّله إلى شخصٍ محافظٍ دينيًّا، يعدُّ المخيَّم مكانًا للفساد ولخراب الأولاد. أخي خليل، لم يكن أحسن حالًا، فقد تزوَّج وذهب إلى العيش عند حماته في المخيَّم. وسرعان ما غادر إلى السعوديَّة ليعمل معلمًا هناك، ويترك زوجته عند أمِّها، وبذلك تحوَّلت علاقته معنا إلى علاقةٍ شكليَّة، تقوم على زيارتنا لمرَّةٍ واحدةٍ عندما يأتي من السعوديَّة مع بعض الهدايا. وتنتهي العلاقة عند هذا الحدِّ. عندما تزوَّجت أختي بيان حاولت الحفاظ على علاقةٍ أفضل معنا، كانت أفضل من زاوية الشكل، أمَّا هي لم تكن تحاول أن تتدخَّل لحلِّ مشكلاتٍ جديَّةٍ تعاني منها العائلة، لقد شعرت بالنجاة من العائلة، لذلك لم ترد التورُّط بمشكلاتٍ معنا ومع أبي وأمِّي خاصَّةً. أخي سعيد، يدير حياته بالمعنى الأنانيِّ، يحاول أن يستولي على كلِّ شيءٍ، وهو عازبٌ كان يشتري الأشياء ويخبِّئها بوصفها أشياءً لبيته، وكأنَّه لا يعيش معنا. كان إخوتي الصغار مشغولين بطفولتهم، وبالخرجيَّات اليوميَّة التي تجمع لأيَّامٍ وأسابيع ويستولي عليها أخي عمر ليذهب بها إلى السينما. إضافةً إلى هذا الوضع الرديء، كانت أمِّي طيلة الوقت تُسمعني كلامًا من نوع «ما بدك تبطلي تكبي راتبك على الشرايط والدخان»، لم تكن أمِّي تطيق أن أشتري أيَّ قطعة ملابس، وتعدُّ ذلك شيئًا فائضًا عن الحاجة، لأنَّ لدي الكثير من الملابس، ولا تطيق رؤيتي أدخِّن السجائر، وأنا كلَّما سمعت مثل هذا الكلام منها أزيد من تبذيري للمال القليل الذي أملكه نكايةً فيها، لم أعطها أيَّ جزءٍ من راتبي لأنَّها سوف تضيفه إلى أموالها المخزونة. مهمَّتي الوحيدة الخروج من هذا الجحيم، قرَّرت أن أقبل فؤاد زوجًا، مهما كانت صفاته قبل أن يأتي، وعندما جاء لم أنتبه للكثير من الأشياء، رأيت مواصفاته العامَّة مقبولةً، رجلٌ مثل كلِّ الرجال، يلبس نظاراتٍ ويميل قليلًا إلى السمنة، ككلِّ عائلته. وافقت، فكان هذا القرار المنعطف الكبير في حياتي.

انصبَّ رفضي على عيشي في مكانٍ لم أحبَّه وفي عائلةٍ أشعر فيها بالغربة، وكانت احتجاجاتي على هذا الوضع نوعًا من الترف، فأنا أملك حريَّة الاحتجاج، وأملك عملي ودخلي الماديَّ، الذي أتصرَّف به كما أشاء دون تدخُّلٍ من أحدٍ، أي كنت أملك ميِّزاتٍ لم أنتبه إليها في حينها. عرفت معنى الغربة في أميركا عندما خسرت الميِّزات التي أملكها، وأصبحت في بلدٍ غريبٍ لا أعرف أحدًا فيه، ولا أعرف لغته جيِّدًا، وهاربةً من شيءٍ لا أعرف ما هو. وعرفت في أمريكا أنَّه لا شيء في المخيَّم أهرب منه سوى أوهامي. وشعرت أنَّ هذا الهرب لا عودة منه. لم أقف أمام المشكلات التي حصلت قبل سفري، لا سيَّما من عبد الرحمن أخي الكبير وزوجته، اللذين أرادا أن يخبراني شيئًا عن زوجي المقبل، والذي كنت سأسافر إليه بعد أيَّامٍ. قبل سفري بأيَّامٍ قال لي: «رح أعطيكي رسالة، بس ما تفتحيها إلَّا وإنت بالطيَّارة»، كيف ذلك؟ أيُّ شيءٍ سوف يخبرني به عن زوجي المقبل بعد صعودي إلى الطائرة؟ وإذا كان الموضوع هامًّا لهذه الدرجة، لماذا لا يخبرني به قبل سفري؟ بل عندما أصعد إلى الطائرة، تصبح إمكانيَّة العودة ومعالجة المشكلة التي سيكتب عنها أصعب بكثيرٍ، ما الذي يريده هذا الرجل الذي هو أخي؟ هل يريد تخريب زواجي؟ إذا كان هذا ما يريده، عليه أن يقول ما عنده قبل سفري، أمَّا أن يقوله وأنا على متن الطائرة إلى قارَّةٍ أخرى ولا أعرف ما ينتظرني فيها، هذا يعني أنَّه يريد تخريب حياتي وليس زواجي فقط. كنت متأكِّدةً أنَّ الأذى الذي يقوم به ليس من تخطيطه، إنَّما هو مجرَّد أداةٍ تنفيذيَّةٍ بيد زوجته. ولم أفهم إذا كان لها ثأرٌ ما مع أمِّي، لأنَّها حماتها وقد تكون قست عليها، أو ثأرٌ معي، مع أنِّي لم أتسبَّب لها بأيِّ أذًى، لماذا تريد الانتقام منِّي وأنا لم أفعل لها أيَّ شيءٍ؟ إنَّه الانتقام الذي يعمي العيون، والذي يقع أذاه على أشخاصٍ لم يرتكبوا أيَّ خطأٍ بحقِّنا. رغم معرفتي بكذب ما كان مكتوبٌ في الرسالة التي رفضت أخذها، إلَّا أنَّ كلامه أثَّر فيَّ، وزاد من قلقي وخوفي ممَّا أنا مقدمةٌ عليه. وإذا

كنَّا في كثيرٍ من الأحيان، لا نعرف الناس الذين نعيش معهم في المنزل ذاته، فكان من الطبيعيِّ أن أخاف من السفر إلى رجلٍ لا أعرفه لأعيش معه ما تبقَّى من عمري، والكلام عن أنَّ الرجل عنده مشكلاتٌ، يعقِّد القصة ويوقظ كوابيس كانت نائمةً. رغم قلقي وخوفي، وعلى عكس ما أراد أخي وزوجته، دفعني هذا التصرُّف لأن أعرف أنَّ ما أقوم به هو الصواب بعينه، بالابتعاد عن هذه العائلة اللعينة التي لا يأتيني منها سوى الأذى. أخذت بنصيحة أختي بيان ولم آخذ الرسالة منه، فما يجب أن أعرفه سأعرفه بنفسي، لا أحتاج لمن يُعرِّفني عليه. سأترك هذا العالم خلفي، ولن أنظر خلفي بعد اليوم الذي ستغادر به الطائرة مطار دمشق.

لم يختلف ويتناقض تصوُّري وتقديراتي لواقع ما، مثلما تناقض واختلف مع واقع التجربة الأميركيَّة. ما تصوَّرته عن الحياة هناك شيءٌ، والحياة الواقعيَّة شيءٌ آخر. نيويورك مدينةٌ مدهشةٌ ومذهلةٌ، مدينةٌ ضخمةٌ وساحرةٌ، مدينةٌ تختصر العالم، كلُّ العالم هناك، بملامح سكَّانه، وطرق لباسهم، ولغاتهم، وتجمُّعاتهم، ليس هناك بقعةٌ في العالم لا تجد جزءًا منها في نيويورك. خفت من المدينة، خفت من الضياع فيها، لا يمكن لشخصٍ أن يعرف عالم هذه المدينة، ولا يمكن لأحدٍ بمفرده أن يعرف خريطة العالم، وكذلك لا يمكن لأحدٍ أن يعرف نيويورك وعالمها المعقَّد. ولا يمكن لأحدٍ يسكن نيويورك إلَّا ويحبها، وألَّا يخافها في الوقت ذاته. اجتمع خوفي من المدينة مع خوفي من تجربتي الجديدة في العالم الجديد مع رجلٍ لا أعرفه. كانت مخاوفي من الفشل مشروعةً، سألت نفسي وأنا في دمشق: «ليش بدُه يجي رجل من آخر الدنيا حتى يؤذيني؟»، كنت أستبعد مخاوفي، فليس هناك من يتكلَّف عناء القدوم من عالمٍ آخر من أجل أن يؤذيني، فهذا شيءٌ غير معقولٍ. قد تحصل خلافاتٌ بيننا، كما تحصل بين البشر، تزيد أو تنقص، قد لا نتفق، قد لا نصلح لبعضنا، لكن لا سبب لأذيَّتي. بهذه الطريقة من التفكير كنت أبعد مخاوفي، أنجح لبعض الوقت، لكنَّها سرعان ما تعود

وتطفو على السطح. أعود وأجيب نفسي، بالتأكيد لا يرغب هذا الشخص في أذيَّتي. بعد وصولي إلى أميركا، لم يطل عيشي مع مخاوفي، فقد استطاع فؤاد تبديد هذه المخاوف منذ الأيَّام الأولى، لأنَّه ببساطةٍ كان يعرفها، وكان يقدِّر مشاعر امرأةٍ تزوَّجت من رجلٍ لا تعرفه، وسافرت آلاف الكيلومترات لخوض تجربةٍ ليست مضمونةً. كان رجلًا لطيفًا ونبيلًا بكلِّ معنى الكلمة، وهو ما بدَّد مخاوفي منه، وبتُّ متأكِّدةً أنَّ هذا الرجل لن يستطيع إيذائي، حتَّى لو فشلت تجربة زواجنا، وهذا ما جعلني أشعر بالأمان. أردت بكلِّ قوَّتي الداخليَّة أن تتبدَّد مخاوفي، لأنَّ الطريق الذي سلكته إلى أميركا لا رجعة منه. حتَّى لو كان فؤاد أسوأ رجلٍ في العالم، لن أعود إلى المكان الذي جئت منه ومعي وصمة عار «مطلَّقة». رضيت بالحدِّ الأدنى المقبول، أي قبلت برجلٍ في غاية العاديَّة أعيش معه ما تبقَّى من حياتي، ومن أجل عدم التفكير بالعودة من حيث أتيت. أخذ فؤاد إجازةً من عمله لمدَّة أسبوعٍ، حاول خلالها أن يعرِّفني على المدينة التي نعيش في ضواحيها، عرَّفني عليها كما يشاهدها بعينيه، وعلى أماكن لها تاريخٌ في تجربته في أميركا، أماكن ارتبطت بأحداثٍ سعيدةٍ، وأخرى ارتبطت بأحداثٍ حزينةٍ. تحدَّث عن المدينة بحبٍّ كبيرٍ، كانت عيناه تلمع بالفرح وهو يتحدَّث عن شيءٍ متأكِّدٍ من معرفته في مدينةٍ تبعث ضخامتها على الخوف. تكلَّم عنها وكأنَّه وُلِدَ فيها، فالمدينة «أعطتني حقِّي، ما في أي محل ثاني بالدنيا، أعطاني مثل ما أعطتني» كما قال فؤاد.

نيويورك التي تعرَّفت عليها وعشت فيها، لا تشبه إلَّا نفسها، شاهدت الكثير من المدن بعد ذلك، أيٌّ منها لم يترك انطباع الضخامة والغرابة والحميميَّة والغربة والتناقض والحبِّ والنفور والخوف، حتَّى الرعب مثل الذي تركته نيويورك عندي. مدينةٌ في غاية الغرابة، تحمل كلَّ التناقضات، فيها الكثير من الجماليَّات، وفيها الكثير من القبح في الوقت نفسه. مدينةٌ قاسيةٌ لا ترحم، وعلى النقيض متسامحةٌ غاية التسامح. خفت من المدينة

الضخمة، وتضاءلت أمام هذه الفخامة، من الغريب أنِّي لم أقارنها بدمشق البائسة. وفي نيويورك وفي أثناء تعرُّفي على المدينة، اكتشفت أنِّي لا أعرف دمشق التي عشت فيها حياتي كلَّها.

كما عرَّفني فؤاد على أصدقائه في المدينة، ولم يكن يملك عددًا كبيرًا من الأصدقاء المقرَّبين، عائلتان شابَّتان، واحدةٌ فلسطينيَّةٌ مثلنا، الزوج الشابُّ يعمل مدرِّسًا في جامعة نيويورك، وزوجته تعمل في مكتبة المدينة. وعائلةٌ مصريَّةٌ، الزوج يعمل مع فؤاد طبيبًا في المشفى ذاته، وزوجته ربَّة منزلٍ. وصديقٌ أعزب من الأردن، كان يحضِّر للدكتوراه في معالجة نفايات المشافي. وعددٌ آخر من الأصدقاء، لكنَّهم لم يكونوا بذات القرب من فؤاد. أعطاني لطف أصدقاء فؤاد صورةً عن الرجل الذي تزوَّجته، وعرفت الكثير عنه من هؤلاء الأصدقاء الذين يكنُّون له محبَّةً كبيرةً. انقضى الأسبوع بسرعةٍ وعاد فؤاد لعمله. طبعًا، لا يكفي أسبوع للتعرُّف على هذه المدينة، حاول فؤاد أن يُعرِّفني على الأماكن الأكثر شهرةً من تمثال الحريَّة إلى مبنى التجارة العالميِّ الذي فجَّره رجال القاعدة بعد عشرين عامًا من وصولي إلى المدينة التي وصلتها في ربيع العام 1981 إلى مبنى الأمم المتحدة إلى غيرها من الأماكن في قلب جزيرة مانهاتن. كلُّ الأسبوع تقريبًا قضيناه في تلك المنطقة، لم نكن نسكن هناك، إنَّما في الضواحي.

عاد فؤاد إلى عمله، فاكتشفت وحدتي الحقيقيَّة. ومباشرةً وجدت نفسي في مواجهة سؤال: ما الذي أفعله هنا وما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟ فجأةً وجدت نفسي أعيش في الفراغ، انتزعت نفسي من حياتي السابقة دون أن أملك حياةً أخرى، عندها اكتشفت أن حياتي في دمشق لم تكن فارغةً كما اعتقدت سابقًا. من أميركا رأيت حياتي في دمشق مختلفةً عن تلك التي كنت أنظر فيها لحياتي وأنا في المدينة. هناك في دمشق وعلى رغم كراهيتي للمكان ورفضي للعائلة واحتجاجاتي المستمرَّة، كان لي حياةٌ، كان لي مكانةٌ ما، إنَّها حياتي بياء الملكيَّة، لا تعجبني هذا صحيح، لكنَّها حياتي، عملي،

قناعاتي، رفضي، كراهيتي، محبَّتي، مدرستي، طلَّابي، إخوتي، أمِّي وأبي، صديقاتي... إلخ. كلُّ هذا كان لي وكان لي الحقُّ في أن أحتجَّ عليه، أرفضه، أقرف منه، أشيح وجهي عنه، أُسقط مشاعري على الأشياء التي لي. إنِّي أملك مجتمعي الذي يعجبني والذي أكرهه. هنا في نيويورك، لا شيء لي، ولا أعرف هذه الأشياء، حتَّى أرفضها أو أقرف منها، كلُّ الأشياء غريبةٌ بالنسبة لي، وأنا كنت نكرةً لا أحد يعرفها، ولا أحد يراها وسط زحمة المدينة التي يركض فيها الجميع وراء شيءٍ ما لا يعرفونه، وكنت مجهولةً بالنسبة إلى الذين يركضون في المدينة ولا يعرفون حتَّى أنفسهم. ما بدأت أشعر به عندما أصبح العيش في أميركا واقع حالي، لم يخطر لي عندما كنت أعيش في دمشق وأخطِّط للسفر إلى أميركا. عرفت أنَّ أفكارنا عن الواقع شيءٌ، والواقع شيءٌ آخر. انتظرت الوصول إلى آخر مكانٍ في العالم، لأعرف أنَّ معاناتي في دمشق كانت ترفًا. هناك كنت أجد من أسرُّ له بمتاعبي، مشاعري، احتجاجاتي، قرفي، صحيحٌ أنِّي لم أملك الكثير من الصديقات، لكنِّي لم أعترف بقيمة ما كنت أملك قبل الوصول إلى أميركا. حاول فؤاد التخفيف عنِّي بالكثير من الطرق، رغم انشغاله، قال لي: «بعرف شعورك، ودائمًا الفترة الأولى صعبة، مع الوقت كل شي بصير أسهل بكثير. رح تعتادي الوضع، حتى لو ما حبيتيه. بعرف الفراغ اللي حاسة فيه، فراغ كبير. مع الأولاد رح تنتهي من هذا الفراغ. كل شي بنحل مع الوقت، إذا بدك ممكن ندور لك على شغل تتسلي فيه، المسألة بدها شوي صبر بس»، كنت أتجنَّب البكاء بوجوده، حتَّى لا أزيد متاعبه، وأشعره أنَّ ما أقدم عليه من الزواج من امرأةٍ من دمشق كان خاطئًا، خفت من الهوَّة في داخلي التي سبَّبها الانتقال إلى أميركا، هوَّةٌ رهيبةٌ، هوَّةٌ تبتلع كلَّ حياتي، وكأنِّي شخصٌ لم يكن له حياةٌ. هنا تحوَّلت إلى لا شيء، لا أحد يسألني عن حالي، لا أحد أحتجُّ له أو عليه، وأعبِّر عن استيائي من الوضع، وما كنت أستطيع فعل ذلك مع فؤاد. فكَّرت في العمل من أجل الخروج من حالتي، لكنِّي وجدت نفسي أجبن من فعل

ذلك، بلغتي الانكليزيَّة الركيكة، وبشهادتي الجامعيَّة في الأدب العربي التي لا تلزم أحدًا في أميركا.

بدت دمشق من نيويورك مختلفةً تمامًا، الحياة البائسة التي عشتها في دمشق، أصبحت مليئةً بالحيويَّة والذكريات الجميلة لحياةٍ لم أكن أرى فيها سوى الألم. ليست طفولتي بالسواد الذي تصوَّرته عنها، كانت طفولةً جميلةً في جانبٍ كبيرٍ منها، أقلُّ شقاءً من حياة إخوتي الآخرين الذين وُلِدُوا في فلسطين وعاشوا تجربة النكبة والرحيل عنها بكلِّ تفاصيلها القاسية. فقد وُلِدتُ في حيِّ الأمين في دمشق بعد ثمان سنواتٍ من النكبة، تحسَّنت خلالها أوضاع عائلتي الماليَّة، لأنَّ أبي لم يستكن لواقع اللجوء المؤلم، وسرعان ما غيَّر مهنته، نسي ذلك الفلاح الذي كان يحرث أرضه على سفح جبل الكرمل، وبدأ في دمشق مهنة المعماريِّ، ساعده على اكتسابها سريعًا بنيته البدنيَّة القويَّة جدًّا. كان هذا بديله عن الاستكانة للشكوى من الظلم الذي وقع تحته من خسارته لبيته وبلده، كما فعل الكثيرون من أبناء جيله الذين استسلموا للشكوى والانتظار. أبي وأمِّي بقيا يحلمان بالعودة إلى بلدتهم في فلسطين، لكنَّ هذا لم يمنعهم من محاولة إعادة بناء حياتهم من جديدٍ. اشتغل أبي في البناء، وهو الذي قضى كلَّ عمره فلَّاحًا يعمل في الحقول، إنَّه الفلَّاح الذي تحوَّل إلى عامل بناءٍ رغمًا عنه، بدأ كمساعدٍ بنَّاءٍ، وهو في السابعة والثلاثين من عمره تقريبًا. لم يكن هذا كافيًا، فقد أخذت أمِّي تجلب السكاكر من معملٍ قريبٍ، لنغلِّفها مقابل مبالغ زهيدةٍ، لقد قمت بهذا العمل كمساعدةٍ لأمِّي وجدَّتي وأختي الكبيرة، كتسلية قبل دخولي المدرسة، لم تجبرني أمِّي على العمل، ولم تكن تمنعني، كانت المبالغ الزهيدة التي تجمعها أمِّي من وراء أبي من هذا العمل تستخدمه من أجل تحسين أدواتنا وملابسنا المدرسيَّة في ذلك الوقت. لم يقبل أبي بهذا العمل لأمِّي وجدَّتي، عندما عرف أبي طلب من أمِّي الكفَّ عن جلب السكاكر للمنزل. قالت أمِّي له «زي ما بدك، ما عاد أجيبها، هاي آخر مرة»، استمرَّت بجلبها،

وتجنَّبت أن يعرف، وكانت تخفي السكاكر عندما يقترب وقت عودته من العمل، وتتوقَّف عن العمل حتَّى ذهابه إلى العمل في اليوم التالي. لقد عرف أنَّها ما زالت تجلب السكاكر، لكنَّه تظاهر بأنَّه لا يعرف، من أجل ألَّا يصطدم معها.

حكايات الليل عن الشاطر حسن ونص نصيص والغول وغيرها التي روتها جدَّتي لوَّنت طفولتي بألوان جميلةٍ وشحذت خيالي. عندما انتقلنا إلى المخيَّم، كنت قد بلغت السادسة وبدأت الذهاب إلى المدرسة التي أحببتها، لأنَّها سمحت لي أخيرًا بالخروج من بيتنا، صحيحٌ أنَّها كانت قريبةً منه، لكنَّ قضاء ساعاتٍ طويلةٍ خارج المنزل، كانت تجربةً جديدةً بالنسبة لي. ورغم محبَّتي للمدرسة، فقد كرهت لباسها الأسود، شعرت أنَّه يخنقني، لم أحبَّ هذا اللون يومًا، إنَّه يزعجني، وطيلة حياتي تجنَّبت شراءه وارتداءه. وقليلةٌ هي الملابس السوداء التي اشتريتها في حياتي. أراه لونًا جميلًا على الأخريات ولا أشعر برغبةٍ في اقتنائه أو ارتدائه. أدهشتني المدرسة، أوَّل مرَّةٍ أرى هذا الكمَّ الهائل من الفتيات من مختلف الأعمار اللواتي يجتمعن في مكانٍ واحدٍ. تعلَّمت بعض الكتابة والحساب قبل الدخول إلى المدرسة. كانت أختي الكبرى بيان تُحضِّرني إلى المدرسة، فعلَّمتني الأبجديَّة والأرقام وعمليَّات الحساب البسيطة، وهذا ما سَهَّل عليَّ المدرسة والدراسة، وسَهَّل عليَّ أيضًا إقامة صداقاتٍ مع البنات في صفِّي اللواتي لم يعرفن الكتابة من قبل، واللواتي أخذت في مساعدتهنَّ، ما جعلني على علاقةٍ حسنةٍ مع الكثيرات، دون أن تصل للحميميَّة.

توقَّفت أمِّي عن جلب السكاكر للفِّها قبل الانتقال إلى المخيَّم، حصل ذلك عندما نال أخي خليل شهادته الثانوية بتفوُّقٍ، وتقدَّم لوظيفة وكيل مدرِّسٍ في الأونروا. وعمل محاسبًا في شركةٍ تجاريَّةٍ في انتظار أن يحصل على تعيينه في مدراس الأونروا. عندها طلب من أمِّي التوقُّف عن جلب السكاكر، وأنَّه سيسدِّد ما يجلبه العمل المضني مع السكاكر من راتبه، وإلَّا

لن يبقَ يومًا واحدًا في البيت إذا استمرَّ ذلك. استجابت أمِّي لطلب خليل، ليس لأنَّه هدَّدها، بل مكافأةً له على نجاحه الذي طالما حلمت به؛ أن ترى ابنها في وظيفةٍ محترمةٍ ويدرس في الجامعة، وهذا ما حقَّقه لها خليل، وافتتح مسار التعليم في العائلة بعد رفض أخي عبد الرحمن إكمال دراسته رغم كلِّ محاولات أمِّي لإقناعه. هذه المرَّة، لم تقل شيئًا وتفعل آخر، لأنَّها تعرف عناد خليل، في حال فعلت ذلك سيخرج من البيت ولن يعود، فهو ينفِّذ ما يقول حرفيًا، وهو يملك عناد ثورٍ كما نعرف كلُّنا. حصل خليل على الوظيفة التي أرادها، وريثما رُتِّبَ تعيينه كنَّا قد انتقلنا إلى المخيَّم. بذلك انتهت علاقتنا مع السكاكر، التي كرهتها منذ ذلك الوقت، واستبدلته بحبِّي للشوكولا. استخدم أبي المال الذي جمعته أمِّي خلال السنوات التي تلت اللجوء من فلسطين في بناء البيت الجديد في المخيَّم، حيث منحته مؤسَّسة اللاجئين قطعة أرضٍ هناك، وانشغل في بناء البيت بنفسه بمساعدة إخوتي الأصغر، عمليًّا هو الذي بنى البيت كلَّه، باستثناء الأعمال المهنيَّة الأخرى التي لا يعرفها، مثل نجارة الأبواب أو صناعة شبابيك الحديد، ما يعني أنَّه خلال فترة عمله في بيتنا هو من صبَّ أحجار البناء وحفر الأساسات وعمَّر الجدران، وصنع السقوف من العمدان الخشبيَّة التي تغطِّيها ألواحٌ خشبيَّةٌ وفوقها طبقةٌ من الباطون... إلخ من الأعمال التي جعلته يتوقَّف عن العمل، وبذلك بات بلا دخلٍ، ولكنَّ ذلك كان أقلَّ كلفةً من أن يأتي بعمَّالٍ آخرين لبناء البيت. مساحة البيت البالغة حوالي مئة مترٍ مربَّعٍ تقريبًا على شكل مستطيلٍ، لذلك كان تصميمه في غاية البساطة، غرفتان في كلِّ طرفٍ من طرفي البيت القصيرين من المستطيل، وفي منتصف الضلع الطويل باب البيت المطلُّ مباشرةً على الشارع العام مقابله البئر لاستخراج الماء، وفي الزاوية اليمنى للبيت مطبخٌ ويستخدم كحمَّامٍ عند الحاجة، والمرحاض ملاصقٌ للباب الخارجيِّ، وبين الباب الخارجيِّ والغرفة الشماليَّة امتدت داليتين صُنعت لهما عريشةٌ لترتفعا عن الأرض، وتصنعا ظلًّا جميلًا في أيَّام

الصيف الحارَّة، وفيما تبقَّى من المساحة كان هناك ثلاثة شجرات تفَّاحٍ موزَّعةٍ في ثلاثٍ من زوايا البيت، والكثير من الورود المزروعة هنا وهناك. في الفترة الأولى من انتقالنا إلى المخيَّم شعرت ببعض الحريَّة، فلم أعد محبوسةً في غرفتين صغيرتين معتمتين، وكلَّما تحرَّكت تصرخ أمِّي عليَّ أن أهدأ حتَّى لا أخرِّب شيئًا. في البيت الجديد كان هناك مساحةٌ للركض والتسلُّق على الشجيرات واللعب تحت ظلالها. حتَّى أنَّ أختي بيان صنعت لي ولأخي الأصغر أرجوحةً على الغصن الأقوى من شجرة التفاح الأكبر. كان البيت بمنزلة مساحةٍ هائلةٍ للركض والنطِّ والصراخ بالنسبة لطفلةٍ مثلي، مساحةٍ واسعةٍ من الحريَّةٍ جلبت لي السعادة، التي افتقدتها في حيِّ الأمين.

مع الطريق الموحل إلى المدرسة القريبة من بيتنا، بدأت أكره المكان، لم أكن أستطيع تجنُّب الطين مهما حاولت، فهو يوسِّخ أغراضي، وأنا لا أحبُّ أن تكون أغراضي متسخةً. عندما يلوِّث الطين لباسي المدرسيَّ الأسود يجعله في غاية البشاعة، كرهت المطر لأنَّه يصنع الطين، والطين يُوسِّخ ملابسي، وأمِّي تصرُّ على وصاياها بعدم توسيخ ثيابي، كيف أفعل ذلك في ظلِّ بحرٍ من الطين؟ لم أعرف. وعندما غيَّروا لون اللباس المدرسيِّ بعد أربع سنواتٍ إلى اللون الترابيِّ، أعجبني التغيير، لأنَّ اللون الجديد أكثر تحمُّلًا للأوساخ التي لا تظهر عليه، لا سيَّما الطين الذي لا يظهر عليه نهائيًّا عندما يجفُّ. أمَّا اللون الأسود فكان سريع الاتساخ، وكان الشيء المُقرف في هذا اللباس أنَّ الكثير من الأولاد في المدرسة المجاورة كانوا يمسحون مخاط أنوفهم التي تسيل بسبب البرد بأكمامهم، وعندما تجف الأكمام تصبح لامعةً بفعل المخاط، وتتحوَّل إلى مشهدٍ مقرفٍ، وعندما كنت أرى هذا المشهد أشعر برغبةٍ في التقيُّؤ.

واحدةٌ من الأشياء الأكثر غرابةً في المخيَّم، هو أنَّه تجمُّعٌ للبؤساء الذين لا يعرفون أنَّهم بؤساء، وعندما يعرفون لا يريدون الاعتراف بهذا الواقع، لأنَّهم لا يعرفون غير العالم الذي يعيشون فيه، والذي يحيلهم إلى الجنَّة

التي فقدوها، وسيعودون لها في القريب العاجل. ومن هذا العالم المحدود بحدود المخيَّم، كان هؤلاء يصنعون حياتهم الفقيرة ويجعلونها أكثر غنًى، ويخلقون جماليَّاتٍ تتفوَّق على ضيق المكان وفقره وبؤسه. منهم من يسعدون بعضهم لينتشلوا أنفسهم من واقعهم بإنتاجهم حياةً أفضل بتعاونهم. ومنهم من يحاول الخروج من هذا الواقع من خلال الاصطدام بالآخرين، وبدل أن ينجوا معًا، يجرُّون بعضهم إلى بؤسٍ أقسى وأعمق. حياة المخيَّم حياةٌ رتيبةٌ، بطيئةٌ، قاسيةٌ، التغيُّرات التي شهدها هي الزيادة في عدد سكَّانه، أي في تراكم البؤس على البؤس، بؤساء يجلبون بؤساء يشبهونهم، كما تجلب صواني الحلويَّات المكشوفة الذباب. وكانت صراعات البؤساء في غاية القسوة والعنف، فلا شيء يسقطون عليه غضبهم سوى بعضهم البعض. يحاولون اختراع حياةٍ من العدم، اختراع الأمل باسترداد المفقود، العودة إلى الفردوس المفقود، ولأنَّهم ضائعون، شكَّل الوطن الضائع البوصلة التي تهدي كلَّ تائهٍ مطرودٍ في عتمة الغربة، إنَّه حلم العودة إلى ذلك المكان، مكاننا، الذي سرقوه منَّا. كان هذا الأمل يصعد ويهبط وفق الحال، مع الوصول إلى العام 1967 تحطَّم هذا الأمل باحتلال إسرائيل لما تبقَّى من فلسطين وأراضٍ عربيَّةٍ أخرى. فرح المخيَّم بأخبار الانتصارات التي بثَّتها الإذاعات العربيَّة، فرح سكَّان المخيَّم بأكاذيب أحمد سعيد القادمة من القاهرة مبشِّرًا بالنصر. لم تطل الأكاذيب، وسرعان ما تبيَّن كذب الانتصارات التي ادعتها الإذاعات العربيَّة. وكان الحقيقة أنَّنا مُنِينَا بهزيمةٍ شنيعةٍ أمام إسرائيل، وهو ما حوَّل الفرح الأوَّلي بأكاذيب النصر في المخيَّم إلى مأتمٍ كبيرٍ استمرَّ لأشهرٍ.

شيءٌ ما إضافيٌّ انكسر خلال هذه الحرب في أهالي المخيَّم، من الواضح أنَّ الناس انتظرت من الحرب نتائج معاكسةً لما جرى في الواقع. خطب عبد الناصر عن تحرير فلسطين وعن العرب والعروبة واستعادة القوَّة من أجل استرجاع الحقوق، وكان البعث في سورية يزايد على عبد الناصر في شعارات

التحرير والوحدة، أمَّا الحرب الحقيقيَّة فقد أطاحت بالأحلام التي بناها الفلسطينيُّون على هذه الشعارات، وباتت فلسطين أبعد ممَّا كانت عليه قبل الحرب. كنت حينها في الصف السابع وفي منتصف العام الدراسيِّ، بعد الحرب تغيَّر المخيَّم، كنت أشعر بهذا التغيُّر دون أن أعرف ما الذي تغيَّر بالضبط، هناك شيءٌ في علاقات الناس وتحرُّكاتهم تغيَّر، تراجعت الثرثرة لبعض الوقت، وخيَّم شيءٌ غامضٌ على الجميع ولا يجدون الكلمات ليعبِّروا عنه. سمعت نقاشاتٍ في السياسة هنا وهناك بين شبَّان المخيَّم عن المسؤوليَّة عن الهزيمة في الحرب، لم أكن أفهم ما يقولون، لكنَّ الحرب بقيت لسنواتٍ تلقي بظلِّها على المخيَّم.

في الصف التاسع وصلت كراهيتي للمخيَّم أقصاها، وارتبطت تلك الكراهية بحادثةٍ بقيت مطبوعةً بذاكرتي كأنَّها حدثت بالأمس. الحادثة تتعلَّق بحسن ابن عمِّي، رفض عمِّي الانتقال إلى المخيَّم وعدَّه مكانًا أقلَّ من مستواه، وهو الذي كان قد استأجر بيتًا في حيِّ الأمين وبقي ساكنًا فيه حتَّى وفاته في نهاية السبعينيَّات. كان ابنه يكبرني ببضعة سنواتٍ، وعندما كنَّا نعيش في حيِّ الأمين كنَّا كثيرًا ما نقضي الأوقات عندهم أو عندنا، لا سيَّما وأنَّ زوجة عمِّي هي خالتي في الوقت ذاته. وكان لديها بنتٌ في مثل عمري، وكان هو يكبرنا بثلاثة سنواتٍ، ولأنَّه ولدٌ مجتهدٌ دخل المدرسة في الخامسة، وبقي مجتهدًا طيلة حياته. كان يلاعبنا أنا وأخواته عندما كنَّا صغارًا، كنت أشعر بالراحة معه لا أعرف مصدرها. وسمعت مرَّةً خالتي تقول لأمِّي «سأخطب وداد لابني بس يكبروا»، أمِّي لم تعلِّق سوى بـ «إن شاء الله»، وانتهى الحديث عند هذا الحدِّ، لكنَّه بقي مطبوعًا في ذاكرتي، وكلَّما كبرت، اختلفت نظرتي له، تراجعت لقاءاتنا بعد أن انتقلنا إلى المخيَّم، وبقيت عائلة عمِّي تسكن في حيِّ الأمين. وكلَّما قابلت حسن شعرت قلبي يخفق بشدَّةٍ، أخفي مشاعري، وأشيح بوجهي حتَّى لا تنفضح. أعجبني الشاب النحيل الخجول صاحب الابتسامة الدائمة على وجهه. كان في غاية

اللطف، بعيونه العسليَّة الواسعة التي ورثها عن أبيه وبشعرٍ فاتحٍ ورثه عن أمِّه، التي كانت شقراء على عكس أمِّي التي كان شعرها أسودَ فاحمًا. كان الفرق بين أبي وعمِّي مفهومًا بالنسبة لي، فهما ليسا من الأمِّ ذاتها، وإن كانا من أبٍ واحدٍ. كان يذهلني الفرق الكبير في الشبه بين أمِّي وخالتي رغم أنَّهما من أمٍّ واحدةٍ. وهو ورث أجمل ما في أبيه وأجمل ما في أمِّه، وكان مطابقًا لفتى أحلامي، وعندما كنت أفكِّر بفتى أحلامي، أفكِّر به، وأتذكَّر كلام أمِّه عن زواجنا، وأطير فرحًا. عندما زرت بيت عمِّي آخر مرَّةٍ، قابلته هناك وكان قد بدأ الدراسة في كليَّة الطبِّ، وسعيدٌ بهذه البداية، ويتحدَّث عنها بفخرٍ، أو هكذا حاول أن يوحي على الأقل. بعد هذه الزيارة بأشهرٍ عدَّةٍ، عدت من المدرسة إلى بيتنا، وكنت أصبحت طالبةً في المرحلة الثانوية، ومدرستي خارج المخيَّم. الجوُّ حارٌّ جدًّا، فنحن في الصيف واقتربنا من العطلة الصيفيَّة، التي كنت أكرهها لأنِّي لا أعرف ما الذي سأفعله فيها دون مدرسة. عندما وصلت إلى البيت كنت عطشى وأتوق لشرب الماء البارد من الصنبور الذي رُكِّبَ بالقرب من البئر. دخلت البيت راكضةً وفتحت الصنبور وبدأت الشرب منه مباشرةً. وأنا أشرب سمعت صوت قراءة قرآنٍ آتٍ من آلة تسجيل كاسيت، عندما كنت خارج البيت اعتقدت أنَّ الصوت يأتي من بيت الجيران. عندما صرت في البيت عرفت أنَّ صوت القرآن يأتي من الغرفة في بيتنا، وعندما أصغت السمع، سمعت أيضًا أصوات بكاء نساءٍ تعلو وتهبط. ذهبت باتجاه الغرفة التي يأتي الصوت منها، وكان بابها مفتوحًا بسبب الحرارة، لم أرَ شيئًا من بعيدٍ، بسبب فرق الإضاءة بين الغرفة المعتمة والفتحة السماويَّة التي تضربها الشمس، والتي أنظر منها إلى الغرفة. سمعت صوت أزيز الذباب والزلاقط والنحل التي تحوم على بقايا عناقيد العنب المتيبِّسة على الداليتين في باحة البيت، نظرت إلى شجرات التفاح الثلاثة لأتأكَّد أنِّي في بيتنا. منذ سمعت صوت القرآن وأصوات البكاء الآتية من الغرفة، عرفت أنَّ أحدًا ما في العائلة قد مات، وأنا أسير خطواتي باتجاه

الغرفة كنت أستبعد من لا أرغب بموتهم، وأبي وأمِّي على رأس من تمنَّيت ألَّا يكون أحدهما قد تُوفِّي. عندما وصلت إلى باب الغرفة بدأت ملامح النساء الموجودات فيها تتضح، لأميِّز خالتي وبناتها وأختي بيان وأمِّي وبعض النساء اللواتي لا أعرفهن. نظرت وسط الغرفة، فوجدت جثَّةً ممدَّدةً على حصيرةٍ من البلاستيك ومحاطةٍ بألواح الثلج ومغطَّاةٍ بشرشفٍ. أوحى بكاء خالتي وبناتها أنَّ الميت عمِّي، وعندما رفعت خالتي الشرشف لتتأكَّد ممَّا ترى، رأيت حسن جثَّةً ممدَّدةً تحت الغطاء. لم يخطر لي أنَّ الجثَّة تحت الشرشف له. عندما شاهدت الجثَّة، صرخت بأعلى صوتي، شعرت بنفسي أسقط على الأرض وغبت عن الوعي. بعدها دخلت حالةً من الهذيان المرضيِّ، حرارةٌ عاليةٌ، شعرت ببردٍ شديدٍ، جسدي يرتجف، يتعرَّق، يعود للارتجاف. لا مدرسة، لا أصدقاء، لا أعرف كم من الوقت بقيت على هذه الحالة. عندما بدأت أدرك ما يجري حولي كان عزاء ابن عمِّي قد انتهى من بيتنا. كان حسن أوَّل شخصٍ أراه ميتًا، وهو ما سبَّب لي صدمةً، لم أنتهِ منها إلى الآن، لم أتوقَّع أن يسرق الموت الشابَّ الأجمل والأذكى بيننا، أن يسرق النموذج الذي تحلم كلُّ فتاةٍ به، لم أعتقد أنَّ الموت قادرٌ على قتل كلِّ هذا الجمال، لقد كان فتى أحلامي الذي سرقه الموت وهو زهرةٌ في عزِّ تفتُّحها. ليس أصعب على الفتاة من أن تشاهد فتى أحلامها جثَّةً هامدةً. الشابُّ الجميل الذي أتى في أحلامي وواقعي كفتًى لا مثيل له، فجأةً يبتلعه الموت. وتحوَّلت أحلامي إلى كوابيس، وفتى الأحلام الذي كان يأتيني في الحلم ليسعدني، أصبح يأتي ليخيفني، وليذكِّرني بموته، فأصحو من نومي فزعةً. منذ ذلك اليوم، تحوَّلت فكرة فتى الأحلام إلى كابوسٍ، أسارع إلى طرده كلَّما خطر على بالي.

لم أعرف كيف تُوفِّيَ حسن الشابُّ الجميل والخجول قليل الكلام وطالب كليَّة الطبِّ المجتهد، والعارف لما يريده في المستقبل، الذي لم يستطع الذهاب إليه. تفاوتت الأقاويل، بين من قال إنَّ حسن مات بمرض

السلِّ، ولم يستطع النجاة منه لأنَّ جسده النحيل الذي يعاني من سوء تغذيةٍ بسبب قلَّه أكله لم يتحمَّل قسوة المرض وشراسته. هناك روايةٌ أخرى، تقول إنَّ عمِّي كان في غاية الفرح عندما استطاع ابنه الالتحاق بكليَّة الطبِّ، وكان فخورًا بهذا الإنجاز، لذلك عامل هذا الابن على نحوٍ مميَّزٍ عن الآخرين. الولد الذي كان سعيدًا بإنجازه، لم يعد كذلك عندما التحق بالدراسة فعليًّا، فهناك وأمام دروس التشريح، لم يكن الشاب الحسَّاس قادرًا على تحمُّل رؤية الدم، ولم يكن قادرًا على تشريح الأرانب ليتعلَّم مهنته، في كلِّ مرَّةٍ يُغمَى عليه، فإذا كان يغمى عليه من دم الأرنب، كيف الحال مع دماء البشر؟! وجد حسن نفسه بعد أشهرٍ غير قادرٍ على إكمال دراسته في كليَّة الطبِّ، وشعر أنَّه لن يكون طبيبًا يومًا من الأيَّام في ظلِّ حساسيَّته الشديدة تجاه الدم. فقرَّر تغيير دراسته، وعندما أخبر والده بذلك شعر الوالد بالخيانة والدمار، وشعر أنَّ فخره السابق بابنه تحوَّل إلى ذلٍّ وعارٍ. لم يحتمل الفكرة، انقلب على ابنه، وحبسه في غرفةٍ في المنزل، ما تسبَّب بمرضه، وعندما شاهده أبوه كذلك اعتقد أنَّ ابنه يمثِّل المرض، فمنع عنه حتَّى الأطبَّاء ليعود إلى رشده. بعد أسابيع عندما انتبه إلى مرض ابنه الجدِّي كان المرض قد نهش جسد الولد. هدف عمِّي من الحبس إعادة حسن إلى عقله ليعود إلى الدراسة في كليَّة الطبِّ، وهو ما لم يكن حسن قادرًا عليه. وعندما أخذ المرض الولد إلى الموت، لم يتحمَّل الأب مسؤوليَّة تسبُّبه بموت ابنه الأغلى عليه، بعد شهرٍ لحق بابنه ومات هو أيضًا، وجاءت جثَّةٌ أخرى إلى بيتنا.

لسنواتٍ بقيت أتخيَّل أنِّي أرى جثَّة حسن ممدَّدةً في الغرفة مكانها كلَّما مرَرتُ بالمكان، صحيحٌ أنَّها أخذت تتباعد، لكن لم أتخلَّص من هذه الحالة سوى عندما أعاد أبي بناء المنزل بعد خمس سنواتٍ، وأصبحت هذه الغرفة جزءًا من المحلَّات التجاريَّة. انطبعت صورة حسن الأخيرة التي شاهدته فيها ميتًا في ذاكرتي ومحت صورة الشابِّ الجميل، ورافقتني صورة

الجثَّة طيلة حياتي. بعد وفاة عمِّي وحسن، وتشييعهم من بيتنا، بات البيت بالنسبة لي، أقرب لبيت الأشباح، وهذا ما زاد كراهيتي للمكان. لذلك عندما أنهيت دراستي الإعداديَّة، وأصبحت مدرستي خارج المخيَّم شعرت بالراحة. سنوات الدراسة سرعان ما انتهت، ثلاث سنواتٍ في الثانوية وعامين في دار المعلِّمين مرًّا بلمح البصر، لأجد نفسي معلِّمةً تبدأ حياتها العمليَّة وهي في الحادية والعشرين من عمرها. كان عليَّ قضاء سنتي خدمةٍ إجباريَّةٍ في واحدةٍ من أكثر قرى ريف دمشق وحشةً وتخلُّفًا. عندما تنتقل من مدينة دمشق إلى ريفها، لا سيَّما ريفها البعيد، كأنَّك تنتقل بين عالمين لا صلة بينهما. كانت بلدة الرحيبة هي المكان الذي عُيِّنت فيه، وهي المكان الذي قضيت فيه سنتين من عمري، في منطقة القلمون على طرف البادية، وهي من أشدُّ المناطق جفافًا في سورية. الرحيبة لا هي بلدةٌ فلاحيَّةٌ ولا هي بدويَّةٌ، هي خليطٌ من الاثنين، كانت مقالع الرخام هي الأشهر في المدينة، ومنه الرخام الذي يستخدم في المطابخ وبلاط البيوت وحواف الأبواب والشبابيك، والذي يستخرج من أرضها ويسمى باسمها «رخام رحيباني»، وفي بداية انتقالي إلى هناك شاهدت بعض السيَّارات الفخمة التي تحمل لوحاتٍ خليجيَّةً، اعتقدت أنَّهم أبناء القرية المغتربين هناك، لكن عندما سمعت من البعض اللهجة الخليجيَّة، استغربت أن يأتي هؤلاء إلى تلك المنطقة المعزولة، التي ليس فيها أيٌّ من الملامح السياحيَّة، ولا ملاهي ونوادي ليليَّةٍ في الجوار، وكانت هذه الأماكن تجتذب الخليجيِّين في دمشق غالبًا، أمَّا أن يأتوا إلى الرحيبة، هذا ما أثار فضولي، وعندما سألت، عرفت أنَّهم يأتون من أجل شراء نوعٍ من الصقور يدعى الطير الحرُّ، وهو موجودٌ في المنطقة، والعديد من أهالي المنطقة يربُّونه ويتاجرون به، وهو نوعٌ مرغوبٌ عند الخليجيِّين يأتون إلى الرحيبة تحديدًا من أجل شراء أفضل الأنواع منه.

لم تكن تجربة السفر إلى الرحيبة سهلةً على فتاةٍ بعمري، هي لا تبعد عن دمشق أكثر 50 كيلومتر، لم أكن أستطيع الذهاب والعودة كلَّ يومٍ، لأنَّ الموصلات بينها وبين دمشق المدينة شحيحةٌ ورديئةٌ، هذا يعني أنَّني سأنام وحدي لستة أيَّامٍ وأعود إلى البيت فقط مساء الخميس لأعود إلى مدرستي صباح السبت، إذ كانت العطلة يومًا واحدًا في الأسبوع في ذلك الوقت. ولأنِّي خائفةٌ، فكَّرت ألف مرَّةٍ أن أترك هذا العمل، وهذا كان غير ممكنٍ، لأنَّ كلَّ الذين ينتسبون إلى معهد إعداد المدرِّسين مجبرين على القيام بذلك، لأنَّهم كانوا يتقاضون راتبًا في أثناء الدراسة، وبناءً عليه هم ملزمون بخدمةٍ إجباريَّةٍ لمدَّة عامين، وإلَّا سيقع الطالب تحت مساءلة القانون، وعليه ردُّ ما تسلَّمه من رواتب خلال فترة الدراسة أيضًا. ولأنَّ المحاكم كانت تخيفني، وقع عليَّ هذا الكلام وقوع الصاعقة، فقد كنت أفهم أنَّ المساءلة القانونيَّة تعني السجن، وهذا يصيبني بالرعب. فكان عليَّ قضاء هذه الفترة الصعبة في هذا المكان النائي. منذ وصولي إلى البلدة، ومشاهدتي نمط اللباس التي ترتديه النساء هناك من حجابٍ، ونظرات الرجال إليَّ التي تكاد تلتهمني وأنا أرتدي الدارج من الملابس في تلك الفترة من بنطال جينز وبلوزةٍ ضيِّقةٍ، وهو شيءٌ غير مألوفٍ في تلك البلدة، شعرت أنَّها ستكون فترةً صعبةً عليَّ.

وصلت إلى البلدة وأنا أشعر بالضياع، عندما قابلت المديرة وهي امرأةٌ في غاية الطيبة، كانت تعرف تمامًا ما أشعر به، لا سيَّما وأنَّها خاضت ذات التجربة قبلي بسنواتٍ عدَّةٍ، وقعت في الحبِّ في هذه البلدة النائية، أحبَّت البلدة، لأنَّها أحبَّت رجلًا، بقيت فيها من أجله. وكان رجلًا بكلِّ معنى الكلمة. وعندما ألقيت عليها السلام، وقدَّمت نفسي، قامت واحتضنتني، وقالت: «بعرف مشاعرك كثير منيح، الخوف حالة طبيعية في مثل حالتك، لا تخافي، أهل البلد ناس طيبين، وأنا بعرفهم منيح بعد عِشرة طويلة»، قلت: «شكرًا، بس أنا هاي أوَّل مرَّة بحياتي إلي بطلع فيها من الشام، ومش عارفة شو بدي أعمل»، قالت: «لا تشغلي بالك، رح يكون زي ما بدك وأكثر»،

عرفت منها أنَّها منذ تسلَّمتُ قرار تعيني في المدرسة كانت قد أجرت اتصالاتها، واتفقت مع أخي زوجها، على أن أسكن في غرفةٍ مستقلَّةٍ مع حمَّامٍ ومطبخٍ له مدخلٌ مستقلٌّ عندهم في البيت، وأنِّي يجب ألَّا أقلق بهذا الشأن. وفعلًا بعد أن شربنا القهوة، ذهبنا إلى المكان، تعرَّفت على سعيد المفلح وزوجته سعدة، قال الرجل مع عدم النظر إليَّ مباشرةً: «البيت بيتك، وأنت من اليوم أصبحت جزءًا من عائلتي»، وخرج من المكان الذي نجلس فيه، كان رجلًا بمثل عمر أبي، وله ابنةٌ بمثل عمري، تدعى حسنة، تعرَّفت عليها وستبقى أجمل رفيقٍ في ليالي الرحيبة الموحشة صيفًا وشتاءً. كنت ذاهلةً ممَّا يجري، ولم أكن أعرف ما سأفعل دون مساعدة مديرتي سعاد. وبعد أن أخذت أستوعب ما يجري حولي. فهمت أن ما قاله الرجل ليس ترحيبًا فحسب، بل هو حمايةٌ لي أيضًا، أي أنِّي لا أسكن عنده مستأجرةً، بل أسكن عنده كواحدةٍ من أفراد العائلة، وأنَّ أيَّ شخصٍ يتعرَّض لي، كأنَّه يتعرَّض لابنته، وهو أهمُّ رجلٍ في عائلته التي هي عائلةٌ مرهوبةٌ، ليس في الرحيبة فحسب، بل وفي المنطقة كلِّها. كانت سعاد بمنزلة أختٍ لكلِّ المدرِّسات، لقد عملت ست سنواتٍ في التعليم في ثلاثة مدراس، لم أعرف مديرةً وامرأةً مثل سعاد، ليس بالنسبة للمدرِّسات فحسب، بل وبالنسبة للطالبات أيضًا، لم أرها يومًا تضرب أو تؤنِّب طفلةً من التلميذات في المدرسة، كانت دائمًا تشجِّعهنَّ، وتشجِّع أهلهنَّ على إكمال بناتهم لتعليمهنَّ. كانوا يحترمونها، يهزُّون رأسهم موافقين لكن قلَّةٌ قليلةٌ سمحت لبناتها بإكمال تعليمهنَّ، بالذهاب إلى الثانوية خارج البلدة، التي لم يكن فيها مدرسةٌ ثانويةٌ سوى في القطيفة التي تبعد عن البلدة حوالي عشر كيلومترات. لم تكن سعاد على قناعةٍ أنَّ كلامها يُسمع من الأهالي، لكن كانت تقول: «إذا قدرت أقنع الأهالي إنُه تدرس بنتهم سنة إضافية فقط ولو بدافع التخجيل، رح يكون هذا إنجاز»، لقد بقيت سعاد في ذاكرتي مثالًا للمرأة القويَّة والطيِّبة، نموذجًا لا يتكرَّر. التجربة التي خفت منها كانت

أجمل أيَّام حياتي. سكني في بيت سعيد المفلح حماني من أيِّ تحرُّشٍ، ليس هذا وحسب، إنَّما أيضًا عرفت كم تقدِّر الناس البسطاء المدرِّسين. بمعنى كان عندي حصانتين، واحدةٌ تأتي من المهنة التي أشغلها، فأنا أدرِّس بناتهنَّ، وهم عليهم أن يحافظوا على صورتهم أمام المدرِّسة التي لا تعلِّم البنات المعرفة فحسب، بل وتعلمهنَّ الأخلاق أيضًا. كنت خائفةً من طريقة لبسي، لكن سعاد التي تعيش في البلدة، لم تكن تلبس مثلما ألبس على الموضة، إنَّما كانت حاسرة الرأس، وكان الجميع يحترمها ويقدِّرها، وهذا شكَّل مفارقةً بالنسبة لي، فأنا في نهاية المطاف، ستنتهي مدَّتي الإجباريَّة وسأعود إلى دمشق، لكنَّها هي باقيةٌ تعيش هناك. لم أشعر أنَّ لديها مشكلةٌ، هي تعيش وفق قناعاتها، ولذلك يبدو أنَّها لم تفكِّر بالشكل الذي أفكِّر فيه، وكانت متصالحةً مع نفسها ومع المكان ومع مهنتها، حسدتها وتمنَّيت أن أكون مثلها.

كانت حسنة المتعة الحقيقيَّة في تجربتي في تلك البلدة، سكني في منزلهم، جعل إمكانيَّة الوصول إليَّ في أيِّ وقتٍ ممكنًا، ليلًا ونهارًا، خارج أوقات المدرسة. كانت شابَّةً في غاية الحيويَّة، سمح أبوها لها أن تدرس في الجامعة ولم يجبرها على الزواج، كانت في مثل عمري في الحادية والعشرين من عمرها، سمراء بأنفٍ دقيقٍ وعيونٍ وواسعةٍ، تملك صفًّا من الأسنان في غاية الجمال. تقدَّم الكثير من أفضل شباب البلدة من أجل خطبتها، من أجل جمالها وليس من أجل مكانة والدها، تمنَّى كلُّ شابٍّ في الرحيبة الحصول على حسنة، التي ينطبق اسمها عليها تمامًا. كانت تحبُّ أبوها جدًّا، وكانت تعيش قصَّة حبٍّ مع شابٍّ مسيحيٍّ من درعا، لم تكن حسنة تداوم في الجامعة، كانت تزورها لتأتي بالملخَّصات، وتذهب فقط في أيَّام الامتحانات، تسكن عند عمِّها في دمشق في ذلك الشهر، فقد اختارت كليَّة الحقوق للدراسة وكان هذا الخيار مثار استغراب والدها، لم يرفض، لم يفهم لماذا على فتاة أن تدرس ما يجب على الرجال دراسته. ولم يفهم أحدٌ في

عائلتها، لماذا وافق أبوها على هذه الدراسة، وكانت الموافقة مثار استغرابهم. ليالٍ كثيرةٌ تكلَّمت بهيام عن حبيبها الذي تنتظر من فصلٍ دراسيٍّ إلى آخر حتَّى تراه، يجلسان معًا مرَّاتٍ عدَّةٍ وهي في غاية الخوف أن يراها أحدٌ من بلدتهم. عندما سألتها هل تفكِّر هي وهو في الزواج، قالت: «هو مستعد أن يعلن إسلامه من أجلي، لكن هذا مش رح يقنع أبوي، ومنشان هيك مش رح يوافق على هذا الزواج»، سألتها: «ممكن تهربي معُه؟»، قالت: «أعوذ بالله»، قلت: «بتخافي تعملي هيك؟»، قالت «أبدًا، مش خوف، أنا مستحيل أفكِّر أكسر أبي ولا حتَّى بيني وبين نفسي، هذا الرجال اللي وثق فيِّ، ما ممكن أخذله وأجلب له العار قدام أهل الرحيبة. مش أنا اللي بتعمل هيك؟! بعرف إنُه هذا الحب محكوم عليه بالإعدام، قلبي تحرَّك مش بإيدي، تحرَّك غصب عني، هذا شي، وإنُه أقوم بتحطيم أبي بإيدي هذا شي تاني. بقتل حالي قبل ما أعمل فيه هيك»، اعتدت على الاستمتاع بالحديث عن هيام الحبِّ الذي تعيشه، وفي الشتاء تتغزَّل في رذاذ المطر الذي يشعل أشواق حبِّها، في الصيف تتغزَّل بالنسائم الآتية من الجبال التي تشعل أشواق الحبِّ ذاتها. عندما انتهت فترة خدمتي في الرحيبة، كانت حسنة قد اتخذت قرارها بقطع صلتها بحبيبها وكانت تعاني من آلام الانفصال القاتلة، حزنت عليها، حزنت على حبٍّ يموت لأسبابٍ لم يقترف طرفاه أيُّ ذنبٍ. يموت لأسبابٍ خارجةٍ عنهما وعن الحبِّ.

بعدما انتهت فترة خدمتي الإجباريَّة في الريف، وعدت إلى دمشق وباشرت عملي في مدرسة في الميدان القريبة من المخيَّم، شعرت بحنينٍ شديدٍ للرحيبة، وشعرت بشوقٍ شديدٍ لمديرتي السابقة، لا سيَّما بعد أن عرفت نموذجًا آخر للمديرات، النموذج المتعجرف والمدَّعي، والذي يعتقد أنَّ الإدارة تعني سلطة أن تُلقي المديرة الأوامر على الأخريات فقط لا غير. هذا النموذج الذي تعرَّفت عليه في عملي الجديد، رفع مكانة سعاد عندي إلى الذروة، رغم أنِّي لم أشاهدها مرَّةً أخرى إطلاقًا بعد انتهاء عملي هناك.

فكَّرت المرَّة بعد الأخرى بالذهاب إلى هناك لزيارتها ولزيارة حسنة، كلُّ مرَّةٍ أؤجِّل، ومع الوقت تراخت همَّتي ولم أقم بهذه الزيارة نهائيًّا. وهي لم تأتِ لزيارتي، رغم وعدها لي، ورغم أنِّي أعطيتها عنواني وتمنَّيت عليها أن تزورني، وهي قالت لي: «بيتي مفتوح إلك إيمتى ما جيتي، وبسعدني تجي تزوريني»، في لحظات الوداع الأخيرة، وجدت نفسي أعانقها وأبكي بحرقةٍ. طيلة طريق عودتي الأخيرة من هناك تمنَّيت أن تكون مديرتي الجديدة شبه سعاد. حسنة هي الشخص الآخر الذي افتقدته وبكت على كتفي وبكيت معها لحظة الوداع، حسنة التي رأيتها كلَّ يومٍ من حياتي في الرحيبة، ونامت معي في غرفتي في هذه الفترة أكثر ما نامت في غرفتها، ولم يكن والدها يمانع في ذلك. لم تخسر حسنة وحدها بغيابي، بل أنا خسرت أجمل صديقةٍ عرفتها أيضًا.

في طريق عودتي إلى دمشق، عرفت أنَّ العامين المنصرمين كانا فترةً مناسبةً لي كحالة هربٍ من المخيَّم، ويوم الجمعة الذي أعود فيه إلى بيتنا، لم يعنِ لي شيئًا، لا سيَّما أنَّه وقتٌ قصيرٌ بالكاد كنت أرتِّب وأشتري ما أريده لمعيشتي في الرحيبة. وكانت العطل الطويلة مثل العطلة الانتصافيَّة أو العطل الصيفيَّة تثقل كاهلي. وهذا ما فاجأني، في أوَّل عطلةٍ انتصافيَّةٍ. كان عليَّ قضاء أسبوعين كاملين في بيت أهلي، قبل أن تبدأ كنت في غاية الشوق لها، في اليوم الرابع من العطلة شعرت بالملل، وشعرت بالشوق الشديد لحسنة ولزميلاتي المعلِّمات، وشوقٌ خاصٌّ لمديرتي. استغربت مشاعري، بتفضيل المكان النائي، الذي شعرت في البداية أنَّه بمنزلة عقوبةٍ على المكان الذي عشت فيه جلَّ حياتي. وقتها عرفت أيَّ كراهيةٍ أحملها للمكان، كراهيةٌ ليس لها تفسيرٌ عندي. كرهت المكان ولم أكن قادرةً على تغيير هذه المشاعر تجاهه بصرف النظر عن أسباب الكراهية التي لا أعرفها. وعندما عدت للسكن في المخيَّم بعد عامين، شعرت بمزيدٍ من الغربة، كأنِّي غبت عن المكان عشر سنين.

استمرَّت الحياة، ودخلت روتين العمل والتسوُّق وبعض الدراسة، لأنِّي كنت سجَّلت بجامعة بيروت العربيَّة قسم اللغة العربيَّة، لطالما أردت أن أحصل على شهادةٍ جامعيَّةٍ. وكانت زيارات بيروت في الامتحانات واحدةٌ من الأشياء المثيرة التي تكسر جمود حياتي، رغم أنَّ المدينة كانت تعيش حربًا أهليَّةً، وكنت أموت رعبًا في كلِّ زيارةٍ، لا سيَّما عندما تندلع اشتباكاتٌ على خطوط التماس بين الأطراف المتقاتلة. كنت أرتِّب هذه الزيارة مع صديقةٍ لي من المخيَّم، أخوها يعمل مع المنظَّمات الفدائيَّة، وعندما كنَّا نذهب إلى هناك، يترك لنا شقَّته قرب الملعب البلديِّ في بيروت القريبة من الجامعة وينام عند أصدقائه لحين انتهاء امتحاناتنا، يزورنا بين الحين والآخر ليرى إن كنَّا بحاجةٍ شيءٍ.

كلَّما غادرت المخيَّم كنت أشعر بالراحة، وعندما أعود إلية ينقبض قلبي. لازمتني هذه الحالة حتَّى مع دوام المدرسة الذي يبلغ أربع ساعاتٍ فقط. في أميركا انقلب كلُّ شيءٍ. تحوَّلت كراهية المخيَّم إلى حبٍّ له، والمكان الذي لم أشتَق إليه وأنا أعمل بالقرب منه في الرحيبة، بتُّ في غاية الشوق له، وإخوتي وأمِّي وأبي الذين احتفظت بمسافةٍ واسعةٍ معهم، شعرت بشوقٍ شديدٍ لهم. كما أنِّي لم أعرف لماذا كرهت المخيَّم، لم أعرف أيضًا كيف جرى هذا التحوُّل، لطالما سعيت للهرب من المخيَّم، وعندما هربت فعلًا وجدت نفسي عالقةً به، أو هو عالقٌ بي دون أن أنتبه. حاولت إقناع نفسي بما قاله فؤاد، إنَّها فترةٌ وأتكيَّف مع أميركا، لا سيَّما بعد أن أُنجِبَ الأولاد وأنشغل بهم. لم يحصل هذا، وجدت أميركا المكان الذي أكرهه أكثر من المخيَّم، لذلك بات المخيَّم بمنزلة الجنَّة بالنسبة لي وأنا في أميركا. لم تكن العودة للعيش في دمشق متاحةً لنا، فلا يمكن لفؤاد أن يجد عملًا يلائمه هناك، مع إصراري على عدم الاستمرار في العيش في أميركا بعد إنجابي الولد الثاني. بحث فؤاد عن عملٍ في الدول العربيَّة، وحصل على عملٍ في مستشفى الخُبَر في العربيَّة السعوديَّة، كان ذلك في العام 1987، لم تكن الخُبَر مدينةً

كبيرةً، لكن وجود أصدقاء سوريِّين وفلسطينيِّين ولبنانيِّين ومصريِّين، جعلها أقلَّ سوءًا من أميركا. وفي أثناء الانتقال إلى السعوديَّة، طلب فؤاد منِّي العودة إلى دمشق لثلاثة أشهر بينما يرتِّب الأوضاع في المكان الجديد، وكانت هي المرَّة الثانية التي أعود فيها إلى دمشق بعد حوالي ست سنواتٍ من الغياب. عندما عدت شعرت باختلاف مشاعري تجاه المكان الذي طالما كرهته، خلال ست سنوات، شعرت أنَّ المخيَّم قد تغيَّر تمامًا، ففي هذه الفترة القصيرة تحوَّل شارع لوبية الذي كان شارعًا عاديًّا ومقفرًا، واشتهر بالرجل الذي يبيع الكحول فيه والمعروف باسم «أبو رأفت»، وبمقهى متواضعٍ في منتصفه. خلال الأعوام التي غبتها تحوَّل هذا الشارع إلى سوق ألبسةٍ مهمٍّ ومزدحمٍ. قبل ذلك لم يكن فيه سوى محلٍّ واحدٍ لبيع الألبسة المهرَّبة من لبنان، لا سيَّما بناطيل الجينز. لم يتغيَّر المكان فحسب، بل والبشر تغيَّروا أيضًا، ويبدو أنَّ الحرب التي جرت في لبنان في العام 1982 قد أثَّرت على نحوٍ مباشر على المخيَّم. لا أعرف ما الذي جرى، فقد غادرت دمشق قبل تلك الحرب بحوالي العام، وعندما وقعت الحرب، كان فؤاد في غاية الانزعاج، غاضبًا يشتمُّ كلَّ شيءٍ حتَّى الله. وعندما خرج المقاتلون من بيروت، بكى كطفلٍ، شعر بالهزيمة الشخصيَّة. وعندما وقعت مجزرة صبرا وشاتيلا، بكينا معًا آلاف الناس المساكين العزَّل الذين قُتِلُوا بلا ذنبٍ، أولئك الناس المساكين الذين كنت أقابلهم في شوارع بيروت عندما زرتها وقت امتحاناتي الجامعيَّة، قُتِلُوا لأنَّ شخصًا اغتال الرئيس اللبنانيَّ بعبوةٍ ناسفةٍ، كان الانتقام من الفلسطينيِّين الضعفاء المتروكين بعد حربٍ مدمِّرةٍ خاضتها إسرائيل ضدَّ مقاتلي المنظَّمات الفلسطينيَّة على مدى ثلاثة أشهرٍ حاصرت فيها بيروت حصارًا خانقًا، وقصفتها بكلِّ أنواع الأسلحة، جوًّا وبرًّا وبحرًا. رغم أنَّنا كنَّا في أميركا، فقد عشنا المأساة كاملةً، وما زاد من قلقي في تلك الحرب، أخي الأصغر منير كان محاصرًا في بيروت في أثناء الحرب. أنهى امتحانات الثانوية والتحق بالمقاتلين، ولم أعرف عنه أنَّه تدرَّب في أيٍّ من

معسكرات المنظَّمات الفدائيَّة، قبل ذلك ذهب مثلما ذهب مئات الشباب غير المدرَّبين إلى حربٍ اعتقدوا أنَّها تهدِّد وجودهم. عندما عدت إلى سورية لم تكن آثار تلك الحرب ظاهرةً على المخيَّم، وأظنُّ أنَّ المخيَّم أدمجها في مآسيه المستمرَّة. كان الأهمُّ في تجربة العودة إلى المخيَّم بالنسبة لي تغيُّر موقفي من المكان، هذا لم يعنِ أنِّي لم أشعر بغربةٍ هناك. كلُّ شيءٍ تغيَّر في هذه السنوات القليلة إخوتي، صديقاتي، الجيران... أنا تغيَّرت أيضًا. شحنت كلَّ أغراضي وأغراض أولادي وملابسنا الشخصيَّة إلى دمشق في عشر حقائب كبيرةٍ. قلت لنفسي هناك سأفرزها، أترك ما لا أحتاجه إلى إخوتي، وآخذ معي ما أحتاج إليه في السعوديَّة. كنت أعرف أن أغلب ألبستي، لا أحتاجها، فما أحتاجه في نيويورك في الجوِّ البارد لا يصلح للجحيم السعوديِّ. حاولت زيارة أخي منير في السجن، لم أتمكَّن من ذلك، كانت الزيارة ممنوعةً، وهو الذي اعتقلته المخابرات لانتمائه لحركة فتح، التي كانت على خلافٍ مع السلطات السوريَّة، التي اعتقلت الآلاف من أنصاره الحركة في سورية. وقد خرج منير من السجن بعد مغادرتي إلى السعوديَّة بأشهرٍ عدَّةٍ وكان قد قضى فيه ثلاث سنواتٍ كاملةٍ.

سرعان ما انتهت الأشهر الثلاثة التي قضيتها في دمشق، لم أعرف تمامًا، هل كان البشر هكذا قبل أن أسافر ولم أنتبه، أم أنَّهم تغيَّروا في أثناء غيابي عن البلد. هناك شيءٌ ما لم أستطع التقاطه أو فهمه، وجدت نفورًا من إخوتي تجاهي، لا أعرف سببه، حاولت أن أكون في غاية اللطف مع الجميع، هناك شيءٌ في الأجواء لم أعرفه. شعرت أنَّ هناك من يحاول استغلالي معتقدين أنَّ أوضاعي الماليَّة جيِّدةٌ. رفضت طلبات المساعدة من أيٍّ كان، لم أقصد بهذا الفعل عدم الرغبة في مساعدتهم، بل قمت بهذا العمل القاسي لمنع فتح الباب أمام الآخرين لطلب المزيد من المال. لا أعرف لماذا شككت بأنَّ الجميع يريد استغلالي، كان الجميع مكتفٍ بما لديه ولا يحتاجون مساعدتي. بسبب ردَّة فعلٍ من أخواتي البنات في بعض الأحاديث، قرَّرت ألا

أترك ملابسي لهن أيضًا. في أميركا كنت متأكِّدةً أنَّني أريد إعطاء أغراضي التي لا تناسب الجوَّ في السعوديَّة إلى أخواتي فقد استخسرت أن أرميها في أميركا. الغريب أنِّي أيضًا عندما وصلت إلى دمشق، قرَّرت ألَّا أفعل ذلك. لم أتحمَّل أنَّ أحدًا آخر سيلبس ملابسي، قرَّرت أخذهم معي إلى السعوديَّة، وهناك رميتهم، لقد كلَّفوني مبلغًا كبيرًا من المال في ذلك الحين حتَّى وصلوا إلى السعوديَّة. ولكن ما الذي أفعله في معاطف الفرو والمعاطف السميكة في جوِّ السعوديَّة اللاهب، تحوَّلوا إلى عبءٍ عليَّ. ندمت على ما فعلت، وشعرت أنَّ أنانيَّتي مؤذيةٌ. ليس في اليد حيلةٌ، عندما نظرت إلى الملابس التي لن أستعملها في السعوديَّة، شعرت بالخجل ممَّا فعلت، المصيبة أنَّه لا فرصة للتراجع عن الحماقة التي ارتكبتها، وعرفت وقتها أنَّني فعلت ما فعلت بسبب الصغائر المتراكمة في نفسي تجاه إخوتي، وأنا التي اعتقدت أنِّي تخلَّصت منها بعد تغيُّر موقفي من المكان، لم يكن هذا حقيقيًّا، بل زائفًا، وعندما تطلَّب الأمر موقفًا جديًّا تعاملت كما كنت أتعامل قبل رحيلي إلى أميركا. عندما شاهد فؤاد الحقائب كما جاءت من أميركا، استغرب، وعندما سألني، لم أعرف بماذا أجيب فقلت «ما قدرت» فهم، هزَّ رأسه والغضب واضحٌ على وجهه. لم يرغب أن نبدأ أوَّل لقاءٍ في السعودية بشجارٍ. احتفظت بالملابس لفترةٍ، ولأنَّ الشقَّة صغيرةٌ، تخلَّصت منها بعد أشهرٍ عدَّةٍ. لم تدم إقامتنا في السعودية طويلًا، بعد حوالي أربع سنوات، احتل الجيش العراقيُّ الكويت، وباتت نذر الحرب على الأبواب، وكنَّا نقيم في منطقةٍ قريبةٍ من الكويت. قرَّر فؤاد أنَّنا لن نبقى وإمكانيَّة الحرب كبيرةٌ، والولايات المتحدة تحشد العالم كلَّه ضدَّ العراق. قدَّم استقالته من عمله، وحزمنا أمتعتنا وعدنا إلى أميركا من جديدٍ. عدنا إلى نيويورك، سرعان ما التحق فؤاد بعملٍ جديدٍ، وعاد روتين الحياة النيويوركيَّة القاتل بالنسبة لي، رغم أنَّها أعظم مدينةٍ في العالم إلَّا أنِّي كنت أخافها. فهي مدينةٌ مدمِّرةٌ لامرأةٍ بلا عملٍ، امرأةٌ مهنتها الانتظار، ولا تعرف ماذا تنتظر؟ وفي السنوات الأربعة

التي قضيناها هناك، أنجبت ابنتين إضافيَّتين، شغلوني أكثر، لكنَّ هذا لم يغيِّر موقفي من المدينة. عدت للاحتجاج من جديدٍ، وعاد فؤاد يبحث عن عملٍ في السعوديَّة، ولكنَّه هذه المرَّة، لم يقبل أن يتعاقد كعربيٍّ بجوازٍ أميركيٍّ، وهذه كانت خطيئته في المرَّة الأولى، إنَّما بحث عن عملٍ بوصفه مواطنًا أميركيًّا، وعندما حصل على عقدٍ مع مستشفى الملك فيصل في الرياض، جاء الأجر في العقد الجديد أكبر بثلاثة أضعافٍ وبشروط سكنٍ أفضل وتعويضات دراسةٍ للأولاد مختلفةٍ. وهذا شيءٌ غريبٌ؛ الشخص ذاته الحاصل على الشهادات الجامعيَّة ذاتها، يختلف راتبه تمامًا بين أن يكون أميركيًّا وبين أن يكون عربيًّا. هو الشخص نفسه لم يتغيَّر ولم يتبدَّل.

عدنا إلى السعودية من جديدٍ، وسرعان ما شبَّ الولدان الكبيران، وبدأ البحث من جديدٍ عن مكانٍ لدراستهم، لم أجرؤ على إعادتهم وحدهم إلى أميركا من أجل الدراسة وهم في سنِّ الثامنة عشرة ففي ذلك البلد كمٌّ هائلٌ من الأشياء التي تدفع للانحراف، وبعد بحثٍ طويلٍ ومضنٍ ونقاشٍ طويلٍ، قرَّرنا أنا وفؤاد أنَّ الجامعات الخاصَّة في مصر أفضل مكانٍ لهما. حتَّى لا نتركهم وحدهم، قرَّرنا الانتقال جمعيًا إلى مصر، وأن يبقى في السعودية وحده، وعندما نرى أنَّ الأمور يمكن أن تسير وحدها، أعود أنا والبنتان الصغيرتان للعيش معه في السعودية. كان الانتقال إلى مصر بدوره مربكًا، رغم كلِّ تناقضاته وحال الفقر المزري هناك، إلَّا أنِّي أحببت البلد. ولأنِّي وقعت بين نصابين في محاولتي استئجار منزلٍ هناك، قرَّرت شراء منزلي الخاصِّ، وهذا ما كان. بقي الأولاد يسكنون المنزل حتَّى انتهوا من دراستهم. وعندما انتهوا من دراستهم لم يعد البيت يلزمنا بشيءٍ، فبعته، وكانت المفارقة أنَّ سعره تضاعف ثلاث مرَّاتٍ خلال ما يقرب الخمس سنوات، وقد بعته قبل اندلاع الاحتجاجات المصريَّة بحوالي ثلاث سنواتٍ. خلال دراستها الطبَّ في القاهرة، وقعت ابنتي الكبرى سحر في الحبِّ، كان من المفارقة أنَّ هذا الشاب ابن عائلةٍ ميسورةٍ من حلب، وهي المدينة التي وُلِدَ فيها فؤاد

وقضى فيها طفولته وشبابه الأوَّل قبل مغادرته إلى أميركا. وفي السنة الدراسيَّة الأخيرة تزوَّجا، وأخذا يُعِدَّان العدَّة للذهاب معًا إلى أميركا.

مع ابنتيَّ الصغيرتين، لم أعتمد الحلَّ المصريَّ، لأنِّي في أثناء العيش في مصر، وصادف أن بلغت الخمسين من عمري، وهناك واجهني السؤال إلى متى سأبقى أتنقَّل من بلدٍ إلى آخر؟ ومتى سأستقرُّ في مكانٍ ما؟ كنت مللت وتعبت من التنقُّل والسفر، وآن الأوان أن أجد مكانًا نهائيًّا للعيش. فكان القرار أنَّني سأعود مع ابنتيَّ المتبقِّيتين لتدرسا في سورية، وعندما تنتهيا من الدراسة، يكون فؤاد قد تقاعد، يعود إلى دمشق لنقضي ما تبقَّى لنا من العمر هناك. رتَّبت الوضع على هذا الأساس، عثرنا لابنتي الثالثة ديانا على مقعدٍ في كليَّة الطبِّ في جامعةٍ خاصَّةٍ في دمشق، تدِّرس طلَّابها باللغة الانكليزيَّة. وبدأت ترتيبات العودة النهائيَّة إلى دمشق. لم أقدِّر حجم الخلاف بين أن تزور البلد الذي وُلِدتَ فيه بعد غياب سنواتٍ طويلةٍ، وبين أن تعود للسكن فيه من جديدٍ. كلُّ شيءٍ يصبح مختلفًا مرَّةً أخرى، في كلِّ غيابٍ طويلٍ تجري تحوُّلاتٌ لا يمكن الإلمام بها عن بعدٍ، تصيبنا الصدمة عندما نعود ونلمس هذه التحوُّلات ونُدهَشُ. في هذه المرَّة أيضًا، ليس المكان وحده الذي تغيَّر فحسب، بل والبشر أيضًا، أو أنَّ المرء على مدى غيابه ينسى الكثير من التفاصيل السيِّئة، ليحافظ على صورةٍ أجمل للمكان الذي تركه. جعلتني العودة النهائيَّة أحتكُّ أكثر مع إخوتي، الذين غبت عنهم زمنًا طويلًا. ولأنِّي لم أكن قد اشتريت بيتًا بعد، اقترح أخي منير أن نقيم مؤقَّتًا في بيت أهلي الفارغ بعد وفاة أمِّي التي تُوفِّيَت قبل عودتي إلى دمشق، كانت المفاجأة من أختيَّ اللتين لم ترغبا في سكني البيت، رغم أنَّ الشقَّة التي كانت تشغلها أمِّي عُدَّت في القسمة المؤقَّتة من حصَّة البنات، وأنا واحدةٌ منهنَّ، فظهرت حساسيَّات اعتقدت أنَّنا تجاوزناها منذ زمنٍ، والكثير منها يعود إلى ما قبل مغادرتي دمشق قبل ثلاثة عقودٍ. وهذه

الحساسيَّة بقيت حتَّى بعدما اشتريت بيتًا، وبات واضحًا أنَّ إقامتي مؤقَّتةٌ في بيت أهلي.

تظهر الكثير من المشاعر الحادَّة مترافقةً مع أحداثٍ محدَّدةٍ، دون هذه الأحداث لا يمكن لنا أن نعرف حقيقة مشاعر الآخرين تجاهنا. لكنَّ هذه المنغِّصات لم تجعلني أغيِّر رأيي بالعودة إلى دمشق وضرورتها بالنسبة لي، فهؤلاء ومهما اختلفنا يبقون إخوتي وأخواتي. مع غياب أبي وأمِّي صار الشقاق بيننا أكبر، وإذا كان موت أبي قد مرَّ دون مشكلات تذكر، رغم الخلافات على التركة بين إخوتي الذكور، التي أُجِّلت من أجل أمِّي التي أصبحت تخاف منَّا بعد موت أبي. شكَّل موت أمِّي المشكلة الحقيقيَّة في العائلة، وعزَّز شرخًا كبيرًا بين أفرادها، وهي خلافاتٌ كبيرةٌ قبل وجود ذاك الحدث الكبير، الذي ترافق مع وفاة أمِّي، أو بالأصح انكشف بوفاتها. عندما أخبروني أنَّ أمِّي تُوفِّيَت شعرت بشيءٍ هائلٍ وقع في قلبي، كنت مصدومةً وغير مصدِّقةٍ، رغم أنَّ أمِّي امرأةٌ كبيرةٌ ومريضةٌ وقاربت التسعين من عمرها، شاهدتها مُتعبةً في زيارتي الأخيرة لدمشق، رغم توقُّعي سماع خبر وفاتها في أيِّ وقتٍ، عندما جاء الخبر لم أصدِّقه. سرعان ما حجز لي فؤاد بطاقة سفرٍ، وطرت فورًا إلى دمشق، خيَّم الحزن على بيت أهلي بموت أمِّي، لم أستطع إلقاء نظرةٍ أخيرةٍ عليها لأنِّي لم أستطع اللحاق بالدفن الذي جرى ظهرًا في ذات اليوم الذي وصلت فيه مساء. شعرت أنَّ الحزن مختلطٌ بالتوتُّر بين إخوتي، دون معرفتي سبب هذا التوتُّر، قلت لنفسي: «لا بُدَّ أنَّك واهمةٌ».

بعد انتهاء أيَّام العزاء الثلاثة فهمت كلَّ شيءٍ. في اليوم الرابع كنَّا نفتِّش بيت أهلي، دون أن أعرف السبب، وبعد أن انتهى اليوم الطويل، وكنَّا قد فتَّشنا البيت كلَّه بالتفصيل. كان الإعلان الصاعق، إنَّ المصاغات الذهبيَّة التي تملكها أمِّي قد اختفت، وأعلنت أختي بيان أنَّ أمِّي قالت لها: «إنَّ ذهبها خبَّأته في مدخنة المطبخ»، وعندما فتَّشناها، لم يكن فيها أيُّ

شيءٍ، ولأنَّ بيان كانت تعرف بمكانهم، عدَّت نفسها مؤتمنةً عليهم، وعُدَّت أنَّها متَّهمةٌ بسرقتهم، رغم أنَّ أحدًا منَّا لم يشكَّ فيها وفي أمانتها على الإطلاق. لم تكن القيمة الماليَّة للذهب الذي تملكه أمِّي كبيرةً، وليس بيننا من يعاني من فقر الحال، في ظروف وفاة أمِّي تحوَّل اختفاء الذهب إلى كارثةٍ، وبات السؤال المقلق من منَّا سرق أمِّي؟ وهل سُرِقَت أمِّي قبل وفاتها أم بعد وفاتها؟ والجواب على السؤال يعني، إذا سُرِقَت أمِّي بعد وفاتها فإنَّ من سرق الذهب سرقنا أو سرقتنا نحن أخوته أو إخوتها، وفي هذه الحالة الجريمة أقلُّ بكثيرٍ ممَّا إذا تمَّت سرقة الذهب قبل وفاتها، فإنَّ من سرق الذهب في هذه الحال يكون قد سرق أمِّي وهي في أضعف حالاتها، ما يجعل السرقة جريمةً كبرى للإخلال بالأمانة من أقرب الناس لامرأةٍ عجوزٍ وعاجزةٍ تحتاج إلى المساعدة وليس إلى سرقتها من أقرب الناس إليها. وفي الحالات جميعها، سيبقى الجميع متهمًا ما لم نعرف من الذي سرق. كانت أختي بيان وأخي منير الأكثر تأثُّرًا بالحادثة، فبيان عدَّت نفسها مؤتمنةً على المعلومة التي قالتها لها أمِّي، ومنير هو الذي نام عندها ليلة وفاتها بدلًا من بيان، وبذلك عدَّ نفسه المتهم الأوَّل في السرقة ما لم نعرف من أقدم على هذا الفعل.

كانت أيَّامًا عصيبةً، تلك التي تلت وفاة أمِّي، أيَّامًا وأسابيع وأشهرًا متوتِّرةً بسبب اختفاء الذهب. عندما عدت إلى دمشق في الصيف التالي، استمرَّ موضوع اختفاء الذهب الشغل الشاغل للجميع، لأنَّ الكلَّ متَّهمون، والذي سرق الذهب هو وحده يعرف أنَّ الآخرين أبرياء من هذه التهمة، أمَّا أن يشكَّ أحدهم بأيِّ فردٍ من العائلة فهذا شيءٌ طبيعيٌّ للغاية. بين الثالث من شهر شباط وبين الإجازة السنويَّة في الشهر السابع من عام 2007 كانت فترةً مدمِّرةً لنا جميعًا، لم يبقَ احتمالٌ لم نحسبه، دوائر من الشكِّ القاتل تدور حول الجميع، سرعان ما تتبدَّد لتعود من جديدٍ. عندما عادت هيفاء زوجة أخي سعيد في الإجازة الصيفيَّة إلى دمشق. دخلنا أنا

وأخي منير للسلام عليها. وقبل أن نخرج، قال منير: «حتى ما تسمعي من الآخرين، لازم تعرفي إنُه الذهب اللي كان عند أمِّي انسرق، وإلى الآن ما بنعرف مين اللي قام بهذا الفعل الشنيع»، ظهرت المفاجأة على وجهها، لم تجد الكلمات التي تقولها، قالت: «لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، والله لا علم لي بذلك»، بعد أيَّامٍ عدَّةٍ أرسلت هيفاء ورائي أنا ومنير. وعندما دخلنا إلى شقَّتهم كانت في غاية الارتباك والتوتُّر، قالت: «والله العظيم، ما كنت بعرف أنُه سعيد هو الذي أخذ ذهب حماتي، كمان أنا ما بقدر أسكت عن هيك فعل وأتحمَّل ذنبُه، يا الله لو متت قبل ما يصير هذا الشي»، وشرعت في بكاءٍ مرٍّ، احتضنتها وقلت: «ليس الذنب ذنبك، طولي بالك»، قالت هيفاء من بين دموعها: «يا الله. والله ما نقصنا مصايب»، كانت في حال هلعٍ، وبعد أن هدأت شرحت: «من لما رجعت على الشام، لقيت سعيد مختلف ومرتبك وعلى غير العادة اللي بكون عليها. شككت بالأمر، بقيت ألح عليه حتَّى اعترف، إنُه هو الذي أخذ الذهب وخبَّاهم عند صديقه، على أساس إنهم ذهبي»، بهذا الاعتراف سقطت الاتهامات عن الجميع بعد أن عرفنا من قام بهذه الفعلة الفظيعة. لكن هذه المعرفة لم تخفِّف من شعورنا بالخجل تجاه ما فعله واحدٌ منَّا بأمِّه. لقد بقي هذا الفعل غصَّة في حلوقنا جميعًا، حتَّى بعد كلِّ هذه السنين التي مرَّت عليه وكشفت خللًا هائلًا في علاقاتنا العائليَّة، خيَّم الفعل على حياتنا العائليَّة الآخذة في المزيد من التفكُّك بعد وفاة أمِّي وقبلها أبي.

بعد عامٍ من وفاة أمِّي عدت للإقامة في دمشق مع بناتي الصغيرات، ابنتي الكبرى وابني، تزوَّجا وغادرا إلى أميركا مع أزواجهم ليعملا وليكملا دراستهم هناك. خلال هذه الفترة لم يجرِ أيُّ تغييرٍ على وضع بيت أهلي، وتمَّ التعامل مع الأمر الواقع، حتَّى الوصول إلى حلٍّ، على أن تحتسب أجور الأماكن المؤجَّرة، وعُدَّت الأماكن المشغولة، بوصفها أماكن مستأجرةً ممَّن يشغلها، وحساب كلِّ العائد الماليِّ، وتوزيعه بالحصص الإرثيَّة لكلِّ فردٍ في

العائلة، من يشغل أكثر يدفع الفرق بين أجرة المكان الذي يشغله وبين حصَّته من التركة. ومن تكون أجرة المكان الذي يشغله أقلُّ من حصَّته الإرثيَّة يقبض الفرق. من بين الترتيبات المؤقَّتة، أن نستلم نحن الإناث الشقَّة التي كانت تعيش أمِّي فيها. وهذا ما كان، أختي بيان لم تكن بحاجةٍ إلى شقَّة أمِّي، فهي تملك شقَّةً في صحنايا، وبيتها القديم في المخيَّم أعادت بناءه وبَنَت لكلِّ ولدٍ وبنتٍ من أولادها شقَّةً فيه. أختي نوال التي يملك زوجها بيتًا في المخيَّم، كانت تسكن في بيت أمِّي بين الحين والآخر، لأنَّ بيتها مظلمٌ، ولم يكن أحدٌ يعترض على ذلك. لا أعرف لماذا عندما عدت أنا للسكن مؤقَّتًا في البيت ريثما أجد بيتًا يناسبني كان الموقف منِّي مختلفًا، والأكثر غرابةً أنَّ أخواتي البنات هنَّ من وقفن ضدِّي. وقوف أخي منير معي شجَّعني على قبول العرض، رغم أنَّه لم يكن مجَّانيًّا، إنَّما كان مقابل أن أتحمَّل وحدي دفع الأجرة المفترضة لهذا البيت. ولأنِّي سأعيش في دمشق بدأت أتقرَّب أكثر من إخوتي وأخواتي. نجحت جزئيًّا مع إخوتي، وفشلت فشلًا ذريعًا مع أخواتي، كلَّما اقتربت منهنَّ نفرنَ منِّي دون أن أرتكب أيَّ خطأٍ بحقِّهن. لم أكن قد نسيت بعض الإشكالات التي حصلت مع أخواتي يوم زفاف ابنتي قبل عودتي للاستقرار في دمشق بسنواتٍ. فقد أقمت عرس ابنتي في حلب مدينة العريس، وقد دعوت إخوتي وأخواتي وتكفَّلت بتكاليف إقامتهم، استأجرت شققًا عدَّةً وبعض الغرف في فنادق حلب، حتَّى لا أكلِّفهم أيَّ أعباءٍ لحضورهم هذا الزفاف، لكنَّ ذلك لم يمنع الاحتجاجات والحرد، لماذا أنا في الشقَّة وليس في الفندق، ولماذا فلان هناك وأنا هنا، إلى آخره من الإزعاجات بلا معنى، ندمت بعدها لأنِّي دعوتهم. عندما بدأت المشكلات لأنِّي سكنت بيت أهلي، تداعت الذكريات السيِّئة، وتذكَّرت حالة الإزعاج التي تسبَّبوا بها، وهي ليست جديدةً عليَّ، ولكنَّ السؤال بالنسبة لي لماذا كلُّ هذا؟ وتذكَّرت الخلاف الذي حصل بعد وفاة أمِّي على اختفاء الذهب، ولأنَّ بيان ومنير كانا في وسط هذه الدوامة،

عندما ظهر الذهب من جديدٍ، قرَّر منير أنَّه لا يريد أيَّ شيءٍ من ذهب أمِّي، وأغلق الطريق على بيان، التي حذت حذوه بأن رفضت أخذ حصَّتها من الذهب أيضًا، في الوقت الذي أرادت فعليًا أخذه لكنَّها وجدت نفسها محرجةً من موقف منير ومن موقفها السابق، قبل ظهور الذهب من أنَّها لا تريد أيَّ شيءٍ منه، ولكن عندما ظهر اختلف الموقف، رغم أنَّ ما تنازلت عنه هو نصف ما تنازل عنه منير. أردت أخذ هذا الذهب لي ذكرى من أمِّي، ولكنَّهم قرَّروا أن يمنحوا حصَّتهم لنوال. شعرت بالجرح عندما فعلوا ذلك، ليس من أجل قيمة الذهب، بل من أجل المبدأ، طالما أرادوا التخلُّص منه لماذا لم يمنحوه لنا أنا ونوال مناصفةً، لماذا جعلوا نوال تستأثر بحصَّتهم. عندما سألت منير: «ليش تنازلت عن حصتك من الذهب لنوال، وما تنازلت عنُه إليّ؟» قال لي «ما عندي جواب» لم أكن متأكِّدةً، هل هو فعلًا لم يملك جوابًا، أم أنَّه قدَّر أنَّ جوابه سيكون جارحًا، فقرَّر ألَّا يقوله لي. لا سيَّما أنِّي سألته مباشرةً. وكنت أكثر استغرابًا لهذا الموقف لأنَّ منير صاحب فكرة أن أسكن بيت أهلي ريثما أشتري شقَّةً، أفضل من أن أستأجر شقَّةً عند الغرباء، الشقَّة موجودةٌ ولا أحد يستخدمها. وهذه الفكرة خلقت الخلاف بينه وبين كلٍّ من بيان ونوال، لأنَّهما عدَّتا أنَّه يعني وقوفه معي في مواجهتهما. هذه التداخلات جعلتني أرى صورةً أخرى، لأنَّنا في الغربة نستمرُّ في تجميل صورة المكان الذي تركناه والأشخاص الذين غبنا عنهم من أجل تشجيع أنفسنا على العودة إليه، ولكن عندما نعود، لا نكون نحن أنفسنا الذين غادرنا، ولا المكان هو المكان الذي تركناه، ولا الأشخاص هم أنفسهم الأشخاص الذين نشتاق لهم. بقرار العودة إلى دمشق لم أعد ضيفةً، لقد أصبحت مقيمةً وهذا يعني أنِّي سقطت فجأةً في قلب علاقاتٍ كنت أعتقد أنِّي أعرفها، وتبيَّن من التجربة أنِّي لا أعرف شيئًا. رغم كلِّ ذلك بقيت العودة إلى دمشق أفضل من الإقامة في الأماكن الأخرى، مثل السعودية أو مصر أو أميركا.

بعد وقتٍ قصيرٍ بدأت أصبح جزءًا من الحالة القائمة، وما كان غريبًا أوَّل ما وصلت بات عاديًّا، ويزيد الكلام ولا ينقص، وجدت نفسي في وسط خلافاتٍ مع الآخرين ووسط خلافاتِ الآخرين، وبات هذا الواقع بعد أشهرٍ جزءًا طبيعيًّا من حياتي. انتظمت دراسة البنات، ديانا في الجامعة الأوروبيَّة وسوسن تكمل دراستها الثانوية في المدرسة الباكستانيَّة في دمشق، وبدأت عجلة الحياة بالدوران في دمشق. ولأنَّ كلَّ شيءٍ قابلٌ للتغيير من حيث لا يدري المرء، فقد كنَّا بعد عامين في انتظار المتغيِّر العاصف، الذي عصف بنا كما عصف بالبلد بأكملها.

عندما انطلقت المظاهرات في درعا احتجاجًا على اعتقال أطفالٍ وعلى الأوضاع السيِّئة التي تعيشها المدينة والبلد، لم أتوقَّع أن يتهاوى الوضع في البلد لدرجة الدمار الهائل الذي عاشته. كنت في حالة إنكارٍ لما يجري، لا أريد تصديق أنَّ عليَّ مغادرة دمشق مرَّةً أخرى ونهائيًّا، فأنا لا أملك خططًا بديلةً. لا يمكن العيش مع الإنكار عندما يتحوَّل الواقع إلى خطرٍ على من تحبُّ. وعندما علقت ابنتي ديانا في اشتباكٍ في وسط دمشق، بدأت غشاوة حالة الإنكار تتصدَّع، قد أخسر إحدى بناتي في أيِّ لحظةٍ في هذه الأوضاع. أعتقد أنَّ حالة الإنكار التي سادت عندي، لم تكن في المرحلة الخطرة من الصراع الذي أخذ في الاتساع وتحوَّل إلى اشتباكاتٍ مسلَّحة في كلِّ البلد. وبعد تلك الحادثة شعرت أنَّه بات من الضروريِّ مغادرة البلد، وعندما تهدأ الأوضاع نعود إليها. وهذا كان استمرارًا لحالة الإنكار على نحوٍ آخر، أو وهمًا آخر جعلني أتمسَّك بأنَّ عودتي إلى دمشق لم يدمِّرها ما يجري في البلد. طبعًا لم نعد إلى البلد مطلقًا. بعد الصدمة التي واجهتها بأنَّ البلد ليست خيارًا، ولا حتَّى خيارًا مؤجَّلًا، شرعنا أنا وفؤاد في البحث عن أماكن بديلةٍ من أجل دراسة البنات، فكانت تركيا الخيار الأفضل الذي وجدناه.

لم تكن الخسارة هذه المرَّة مغادرتنا سورية من جديدٍ فحسب، بل ترافقت هذه المغادرة مع تفاقم مرض فؤاد الذي كان يعاني من مرض

السكَّري منذ سنواتٍ طويلةٍ أيضًا. تفاقم المرض عطَّل الكليتين، وباتَ فؤاد بحاجةٍ إلى عمليَّة غسيل لكليتيه مرَّتين في الأسبوع، وكلُّ هذا جاء مع اقتراب تقاعده من العمل. بذلك فقدنا المكان الذي قرَّرنا الاستقرار فيه، كما سنخسر دخلنا من راتب فؤاد بعد وقتٍ قصيرٍ. نعم، المصائب لا تأتي فرادى، بات حلُّ مشكلة فؤاد مرتبطٌ بإيجاد متبرِّعٍ له بكليةٍ، وهي مسألةٌ حاسمةٌ، على أساسها يتحدَّد أين سيستقرُّ بنا المقام بعد تقاعده. فإذا لم يجد متبرِّعًا، لن نستطيع تحمُّل كلفة غسيل كليتيه في تركيا، إذ يتقاضون أربعمئة دولار مقابل كلِّ جلسةٍ، وهذا ما لا نستطيع تحمُّل كلفته بعد تقاعد فؤاد. وسيدفعنا هذا الوضع لمغادرة تركيا إلى أميركا من جديدٍ. أمَّا في حال وجد متبرِّعًا، فإنَّنا سنبقى في تركيا، وبذلك يصبح الخيار الأفضل لنا. بعد بحثٍ طويلٍ ومضنٍ في بلدانٍ عدَّةٍ، استطاع فؤاد أن يجد متبرِّعًا في دمشق مقابل عشرة آلاف دولار، فأوضاع الناس باتت في الحضيض هناك، وباتت تجارة الأعضاء مسألةً عاديَّةً، فعندما تقع الحرب ويصبح القتل مجانيًّا، يصبح كلُّ شيءٍ معروضًا للبيع حتَّى أجساد البشر. وكان على فؤاد أن يعود إلى دمشق لإجراء العمليَّة، طلبت منه أن أرافقه وأبقى إلى جانبه في هذه الأوقات العصيبة، رفض ذلك بشدَّةٍ، وقال «إذا إجيتي على الشام ما رح أعمل العملية»، وطلب منه الأولاد أن يرافقه أحدهم هناك، وردَّ عليهم الجواب ذاته. عندما أجرى فؤاد عمليَّة نقل الكلية في النصف الثاني من العام 2015، كانت الأوضاع في غاية السوء، القتال في كلِّ مكانٍ، ودمشق تتعرَّض إلى القصف بين الحين والآخر من الغوطة، وهو لم يقبل أن يغامر بأحدٍ منَّا، نحن أفراد عائلته. قال: «أنا مضطر أروح، ما عندي خيار تاني، بس إنتو ما رح تعملولي شي هناك. منشان هيك ما بدي حدا معي هناك، أخاف عليه وأنا بهاي الحالة. رح أعتمد على أختي هي عايشة هناك بطبيعة الحال، لن أزيد عليها أي عبء»، كان في غاية العناد، كما لم يكن في يومٍ من أيَّام عيشنا المشترك. احترمنا خياره، وذهب إلى دمشق وحده. تكلَّلت العمليَّة

الجراحيَّة باستبدال الكلية بالنجاح، وكان هذا فاتحةً لحلِّ مشكلاتنا، وجعلنا نحدِّد موعدًا لزواج ديانا بعد ستة أشهرٍ بحيث يكون فؤاد قد استعاد صحَّته تمامًا، ما يجعل الفرحة فرحتين. ولأنَّ العائلة قد تشرَّدت، وبات عددٌ كبيرٌ منها في أوروبا، اتفقنا مع أهل العريس على أن يكون العرس في مدينة فرانكفورت في ألمانيا. وقد أرسلنا للأقارب دعوةً مبكرةً لحفلة الزفاف أيضًا من أجل ترتيب أوضاعهم للقدوم للعرس لمن يرغب. وقد بدأنا كعائلةٍ نفكِّر في كيفيَّة ترتيب أوضاعنا نهائيًّا في تركيا، بعد أن نجحت عمليَّة فؤاد. كنت أنتظر أن يأتي إلى تركيا بعد أن يتحسَّن من أجل مناقشة التفاصيل، فما يزال هناك حوالي عامٌ ونصفٌ على إكمال سوسن لدراستها، ما يعني أنَّنا باقون في تركيا حتَّى تنتهي من دراستها على الأقل.

عندما عاد فؤاد من دمشق وقد استعاد صحَّته، لم أصدِّق أنَّ كابوس مرضه قد انتهى أخيرًا. عندما قابلته في المطار بعد العمليَّة أخذته في حضني كطفلٍ صغيرٍ، ممنونةٌ له شفاءه الذي يساعدنا في ترتيب أوضاعنا من جديدٍ. لم أصدِّق أنَّ مشكلاتنا في طريقها للحلِّ، ديانا قد تخرَّجت في كليَّة الطبِّ، وستتزوَّج بعد أشهرٍ، وسوسن في طريقها للتخرُّج، وفادي وسحر في أميركا، يشقَّان طريقهما هناك. وأنا وفؤاد سنرتِّب تقاعدنا في مكانٍ معقولٍ بالنسبة لنا.

بعد شهرين من عودة فؤاد من دمشق، وأنا وسوسن في السوق لشراء بعض الأغراض تحضيرًا لعرس ديانا. فجأةً شعرت بآلامٍ شديدةٍ في بطني، شعرت آلاف السكاكين تمزِّق بطني، صرخت بأقصى ما أستطيع، سقطت وغبت عن الوعي. صحوت على نفسي ممدَّدة على سريرٍ في المستشفى. بعد فحوصاتٍ عدَّةٍ وتحليلاتٍ وصورٍ قدَّر الأطباء أنِّي مصابةٌ بسرطان الكبد، وهو ليس خطرًا، فيمكن استئصال الجزء المصاب منه دون أن تتضرَّر صحَّتي كثيرًا، فالكبد عضوٌ يمكن استئصال جزءٍ منه، ويبقى يعمل بالكفاءة نفسها. ولكن مع مزيدٍ من التحاليل والاختبارات والصور، تبيَّن أنَّ الوضع أسوأ من

ذلك بكثيرٍ. لم يكن السرطان قد أصاب الكبد، فقد تبيَّن أنَّه أصاب الكولون منذ زمنٍ طويلٍ، وقد انتشر منه إلى الكبد. وعندما عرف الأطبَّاء ذلك، قال الطبيب التركي لفؤاد: الأفضل أن تذهب إلى أميركا، هناك ستحصل على علاجٍ أفضل. لم يكن فؤاد بحاجةٍ لسماع الطبيب التركيِّ لمعرفة ذلك، فقد كان يعرف كطبيبٍ ماذا تعني إصابتي بالسرطان، وأيُّ سرطانٍ شرسٍ أصبت به. عندما أتى فؤاد إلى جانب السرير الذي أرقد عليه في المستشفى، شاهدت فيه الطفل الناجي بكليةٍ جديدةٍ الذي احتضنته في مطار اسطنبول قبل شهرين قادمًا من دمشق، كان الطفل في تلك اللحظات حزينًا وضائعًا تمامًا. عندما قال بصوتٍ متهدِّجٍ وعيونٍ زائغةٍ: «رح نرجع على أميركا»، قلت له: «ليش؟»، سألت وأنا ضمنيًّا أشعر أنَّ ما حدث مؤشِّرٌ على شيءٍ خطيرٍ، جاءت ملامح فؤاد التي لم يستطع التحكُّم فيها لتؤكِّد ما أشعر به قبل أن يتحدَّث. قال: «رح نروح أميركا منشان العلاج»، سألت: «شو طلع معي؟»، قال: «ما تخافي، إنَّه السرطان، العلاج في أميركا متقدِّم، وإن شاء الله رح تشفي وكل شيء سيكون تمام»، عندما لفظ الكلمة التي لا يرغب أحدٌ في العالم في سماعها، شعرت شيئًا يسقط داخلي، وانفجر السؤال في دماغي الذي لم أقله على لساني «لماذا أنا؟ ولماذا الآن؟»، وهاجمتني صورة أخي عمر من قلب ذاكرتي، وهو الذي تُوفِّي بالسرطان قبل ثلاثة أعوامٍ، هذا المرض الحقير والخسيس الذي لم يمهله أكثر من ثلاثة أشهرٍ، وهاجمتني صورة عائدة ابنة أخي عبد الرحمن وصديقة طفولتي والمصابة بالسرطان منذ سنواتٍ أيضًا. رغم ما أخبرني به فؤاد ودموع ابنتي سوسن التي لم تستطع التحكُّم فيها، إلَّا أنِّي لم أصدِّق أنَّني مصابةٌ بالسرطان. عدَدتُ أنَّ هناك خطأً ما في التشخيص التركي لمرضي، وعندما نعود إلى أميركا، ونجري فحوصاتٍ جديدةً، سنكتشف هذا الخطأ المريع الذي وقع فيه الأتراك. لم يدم هذا الوهم طويلًا، حالما عدنا لأميركا دخلت المستشفى وأجريت فحوصاتٍ عدَّةً أكدَّت ما قاله الطبيب في تركيا، وجاءت الفحوصات لتقول

إنِّي مصابةً بالمرض منذ مدَّةٍ طويلةٍ دون أن يكشف عن نفسه. رغم ذلك لم أصدِّق ما أكَّدته الفحوص، فهل يعقل أنَّ المرض الخبيث يأكل جسدي منذ سنواتٍ، وأنا لم أشعر به، هل تخفَّى كلَّ هذا الوقت، ليهاجمني بأوجاعٍ شرسةٍ كان يدَّخرها ليؤلمني أكثر. قلت لنفسي إنَّ هناك خطأً ما، سيظهر ولو بعد قليلٍ. لم يكن هناك الكثير ليفعلوه في ذلك الوقت، قال الأطبَّاء إنِّي سأحتاج إلى العلاج الكيماويِّ ليراقبوا ردَّ فعل الورم، هل سيتقلَّص. وبناءً إلى استجابته لجرعات الكيماوي، سيحدِّدون إذا ما كانوا سيجرون عملًا جراحيًّا لاستئصال الورم أم لا. المرض مسألةٌ لا يمكن إخفاؤها، وهو خبرٌ يعمُّ في كلِّ الأرجاء. عندما عرف أهل خطيب ديانا بحالتي الصحيَّة، اتصلت أمُّه بي هاتفيًّا، لتعلن وقوفها ووقوف عائلتها معي، متمنِّيين لي الشفاء العاجل. وقالت: «نتمنَّى شفاءك اليوم قبل بكرة، وفكرَّنا أنا ومحمد زوجي، وقلنا، إحنا وإنتو بنقدر نأجل عرس الولاد لحتَّى تقومي بالسلامة ونطمَّن على صحتك»، قلت: «شكرًا على مشاعركم النبيلة، بس مش من الحكمة تأجيل العرس، على الولاد إنُه يشقوا طريقهم في الحياة، وما رح يكون مرضي سبب يوقف في طريقهم»، سكتُّ قليلًا وأضفت: «على العكس يا عزيزتي، أنا بحاجة الفرح اليوم أكثر، وما في شي بفرِّحني في الحياة أكثر من زواج ابنتي»، قالت: «إحنا قلنا هذا تقديرًا لوضعك الصحي، أمَّا إذا كنت شايفة إنُه يبقى العرس في وقته، ما عنَّا مانع، وإحنا بنشكرك على هذا الموقف النبيل، بيشرِّفنا تكوني أم البنت اللي رح تصير زوجة ابني وواحدة من العائلة»، قلت: «وهذا بشرِّفنا كمان يا عزيزتي»، بقيت متماسكةً طيلة المكالمة التي لم تطل أكثر من خمس دقائق، لكنِّي شعرت أنَّها تكاد لا تنتهي. منذ كلماتها الأولى اجتاحتني رغبةٌ جامحةٌ للبكاء، لا أعرف كيف استطعت ردع نفسي، ما إن انتهت المكالمة، حتَّى انفجرت في البكاء. لم يعجب كلامي ببقاء موعد عرس ديانا على حاله وإصراري على الاستمرار في التحضير له فؤاد ولا الأولاد، لا سيَّما ديانا المعنيَّة بهذا الزفاف. أراد الكلُّ

تأجيل الزفاف الذي لم يتبقَ على إقامته سوى أربعة أشهر، لأنَّ وضعي الصحيَّ هو الأهمُّ، وأنا لن أحتمل السفر والإجهاد الذي يؤثِّر على مرضي. أخذ النقاش طابعًا حادًّا، كلُّه خوفًا على صحَّتي، وقالت ديانا: «ما عاد بدِّي هذا الزواج، رح أحكي مع وائل وأنهي هاي العلاقة. ماما، صحتك بالدنيا»، وشرعت في البكاء. لم يعجبني حديث الجميع الذين قرَّروا لأنفسهم الوصاية عليَّ، وما عليَّ فعله، وما عليَّ الامتناع عن فعله. نظرت إلى ديانا مباشرةً، جلت بنظري على جميع الموجودين، ابتداءً من فؤاد مرورًا بفادي وسحر وسوسن وصولًا إلى ديانا التي قلت لها: «اطلعي فيني»، رفعت رأسها من بين دموعها. نظرت لها نظرةً طويلةً، لا أعرف من أين جاءتني القوَّة والهدوء الذي تكلَّمت بهما عندما قلت: «اسمعوا، لما جيت عروس على أميركا قبل خمس وثلاثين عامًا، كنت بقفز في المجهول. ومن هداك اليوم عشت حياتي كلها ماني متأكدة من شي، قفزة ورا قفزة في المجهول، كانت بتخلِّيني أحس بالضياع أكثر. ما بعرف إذا كنت رح أعيش لبكرة ولا لأ. إنتو بتعرفوا إنِّي تمنيت أرجع على الشام وأختم حياتي هناك، وبتعرفوا بقية الحكاية، وكيف طلعنا من الشام. أنا ما اخترت مرضي، هو هجم فجأةً، يمكن إجا في الوقت الخطأ، بس أكيد ما في وقت مناسب وصحيح لمرض السرطان أو لغيرُه من الأمراض. أنا مرة ما بخاف من الموت، أنا مرة مؤمنة وأؤمن بالقدر، وأؤمن إنُه الله معي دايمًا. كلنا ماشين على هذا الطريق. وأنا كنت دايمًا مجبرة آخذ قرارات، أكثر من إنِّي أختارها بحرية، وبقدر أقول إنُه حياتي عبارة عن سلسلة إجبارات متتالية. اليوم ما عندي شي أخسره، حياتي مهددة بالمرض، وكمان قبل هيك كانت مهددة بألف تهديد وتهديد، ما حدا عنده ضمانة لحياته إذا كان كبير ولا صغير. اليوم أنا رح أختار، وما رح تتوقَّف الحياة عند مرضي، كل شيء رح يمشي زي ما لازم يمشي، والحياة ما بتنتظر حدا، وما رح تنتظرني، منشان هيك رح يبقى العرس بوقتُه وما رح نغيِّر شي. كل شي رح يكون كأنِّي ما مرضت، وكل شيء رح يكون زي ما لازم

يكون، ورح أعيش حياتي وكأنُه هذا المرض غير موجود»، شعرت نفسي أكثر قوَّةً بعد الكلام الذي قلته. همهم الجميع في الغرفة، قال فؤاد بتردُّدٍ «أوكي... أوكي... مثل ما بدك»، أمَّا ديانا، فحضنتني وغرقت مرَّةً ثانيةً في البكاء، قلت وأنا أمسِّد شعرها: «ولا يهمك حبيبتي»، فادي وسحر نظرا إلى بعضهما وهربا بنظرهما ودموعهما بعيدًا عنِّي. سارت الأمور مثلما يجب أن تسير. خضعت لجلسات العلاج الكيماوي التي قرَّرها الطبيب. كان العلاج الكيماوي تجربتي مع الألم الخالص، الألم المكثَّف، الإنهاك اللا نهائيِّ، حالةٌ من الشلل والعجز التامِّين، لست قادرةً على فعل شيءٍ، أقرأ الشفقة في عيون فؤاد والأولاد، ويزداد عجزي. ليست جلسات الكيماوي علاجًا للمرض، إنَّها جلسات تعذيبٍ قاسيةٍ، عذابٌ عميقٌ ومؤذٍ، إنَّها جلساتٌ لتحطيم البشر، شعرت نفسي محطَّمةً ومستباحةً، وقوَّتي تتبخَّر ولا أستطيع رفع يدي أو حتَّى التنفُّس، ولا أن أخدم نفسي. فكَّرت آلاف المرَّات بوقف هذه الجلسات، سرعان ما أعود عن قراري تحت ضغط فؤاد والأولاد. قبل حفل الزفاف بشهرٍ قلت للطبيب «زفاف ابنتي بعد شهر، ولا أرغب في أن أكون فاقدةً لشعري في تلك الحفلة»، قال الطبيب أفهم ذلك، وسنعمل على تأجيل العلاج، سأعطيك دواء بديلًا مؤقَّتًا، وعندما تعودين سنعود إلى خطَّتنا العلاجيَّة. وجدت في زفاف ديانا فرصتي للهرب المؤقَّت من المرض الكريه.

جاء حفل الزفاف مثلما أردت وأفضل، قاعة فندق حياة رجنسي في فرانكفورت كانت في غاية الجمال، وديانا في كامل أناقتها وتألُّقها تفتَّتح حياتها الزوجيَّة مع شابٍّ يناسبها، فرحت من أجلها، وهنَّأت نفسي على أولادي، لقد كانوا كما أردت وأكثر. مشاعر حبٍّ عارمةٍ تجاه العالم غمرت قلبي، نسيت مرضي واستسلمت للفرح، الذي استحقَّ بعد تعب سنواتٍ طويلةٍ في تربية أولادي في ظروفٍ غايةٍ في الصعوبة. لقد غمرتني أختي بيان وبعض أولادها وتحمَّلت عناء السفر لحضور الزفاف، رغم الخلافات التي

نشبت بيننا قبل مغادرتي الأخيرة لدمشق. جاء أخي منير وزوجته من السويد لحضور الحفل أيضًا. والذي لم أقابله منذ آخر لقاءٍ لنا في القاهرة في أثناء بحثنا عن متبرِّعٍ بالكلية لفؤاد. كان الموقف متوتِّرًا، حاولت أن أصحِّح موقفًا فهمه منير على نحوٍ خاطئٍ قبل قدومنا إلى القاهرة. كانت حساسيَّته مفرطةً تجاه المال، حاولت جاهدةً أن أصلح الموقف، لكنَّه كان بعناد ثورٍ كعادته، فقد عدَّ طلبي منه تحويل بقيَّة المال الذي تركته عنده من أجل تأجيل دراسة ديانا إلى أخي خليل الذي يطالبني بفرق الأجرة التي ترتَّبت عليَّ نوعًا من التشكيك بذمَّته، وعدَّه إهانةً شخصيَّةً في ظروفٍ صعبةٍ يمرُّ بها هو وعائلته. عندما علم فؤاد بالتفاصيل، لامني على تصرُّفي الخاطئ، واتصل بمنير في مصر، محاولًا تصحيح الموقف دون جدوى، راجيًا أن ينسى ما قلت من كلام. وعندما جئنا إلى مصر، لم أخبره أنَّنا في القاهرة، إنَّما فؤاد من تحدَّث معه، ولأنَّه يحبُّ فؤاد ويحترمه، وعرف بمرضه، جاء ليسلِّم عليه ويتمنَّى له السلامة. وعندما انفردت به محاولةً توضيح ملابسات الموقف له، وأشرح أنَّ الموقف لم يُقصَد به أيُّ إهانةٍ له كما فهمها، رفض كلَّ التفسيرات. وقال «كنت غلطان لما تعاملت معك بالمصاري، أنا ما عملت هيك طول عمري، ما بعرف كيف غلطت هاي الغلطة. إنت بتعرفي منيح إنِّي ما طلبت منك شي، لا مصاري ولا غيرُه. كل اللي قلتُه اتركي المفتاح لسعد ليسكن بالبيت، صرخت وسبِّيتي ورفضتي، وسافرتي وما تركتي شي. وأنت لما تركتي المصاري، تركتيها منشان بنتك، مش منشاني. وقلتي، تصرَّف باللِّي بزيد. وأنا من صغر عقلي صدَّقتك، واللي زاد بعد ما دفعنا المصاري للجامعة منشان تأجيل التسجيل، تركته لأولادي بالشام، ما توقَّعت تطلبي المصاري بهاي السرعة وكأنُه حياة فؤاد متوقِّفة على المبلغ التافه اللي زاد. ما توقَّعت تطلبي المبلغ بعد أقل من شهرين من وصولي إلى القاهرة، في ظل وضع كنت خارج فيه من البلد وخسرت كل شي في حرب طاحنة من قتل ودمار، طحنت حياتنا معها. وأنت إجيتي لتزيدي الطين بلة. على كل

حال أي نقاش في الموضوع صار وراي، وما منُه فائدة»، وبعد ذلك لم يسمع كلامي، كان مقتنعًا بما تخيَّله وعدَّه الحقيقة كاملة. بسبب التوتُّر الذي كان بيننا شعرت بالامتنان لقدومه إلى زفاف ديانا. ويومها تعرَّفت على ناديا زوجته اللطيفة، لم أكن قد قابلتها من قبل، وعندما كنَّا في القاهرة أنا وفؤاد، كانت قد ذهبت في رحلة البحر إلى السويد. شعرت أنَّها امرأةٌ قريبةٌ من القلب، امرأةٌ جميلةٌ جدًّا، بطولٍ متوسِّطٍ، بملامح في غاية النعومة، وجهها باسمٌ، وبشرتها الحنطيَّة في غاية النعومة، وفي عينيها بريقٌ غريبٌ. ومنذ رأيتها شعرت أنَّها قريبةٌ من قلبي، وحرصت على التعبير مباشرةً عن محبَّتي لها، وهي مشاعر حقيقيَّةٌ ولم تكن مجاملةً، لأنَّ هذه المشاعر التي حملتها لها فعلًا، وبقيت أحتفظ بها تجاهها، حتَّى بعد انفصالها هي ومنير. تحدَّثت معها مرَّاتٍ عدَّةً على الهاتف بعد العرس، وقد حزنت جدًّا عليها وعلى منير عندما عرفت أنَّهما انفصلا. شعرت أنَّهما لا يناسبان بعضهما فحسب، بل كان كلُّ ما فيهما يقول إنَّهما عاشقان. وعندما قابلتهما أوَّل مرَّة وعانقتها، نظرت إلى منير وغمزت بعيني، وقلت: «والله إنَّك مزوق وبتعرف تنقي..»، بكت مرَّاتٍ عدَّةً على الهاتف، حاولت مواساتها بكلِّ الكلمات التي أستطيع قولها، لكنَّ جرح الحبِّ كان أقوى. كانت تتصل لتطمئن على صحَّتي، وتحاول ألَّا تتحدَّث عن مشكلتها مع منير، ولكنِّي أنا أفتح الموضوع، لأنِّي أريد الاطمئنان عليها وعلى منير، وعندما تقول إنَّ الوضع على حاله من خلافٍ، أحزن من أجلهما. حاولت إقناع منير أنَّ ناديا تحبُّه، وأنَّ الغربة صعبةٌ، ولن يجد امرأةً تحبُّه كما تحبُّه هي، وأنَّه بحاجةٍ إلى شريكٍ في عتمة الغربة. قال على نحوٍ حاسمٍ: «بعرف بتحبني وأنا بحبها، وبعرف إنها امرأة لطيفة، إحنا ما اختلفنا على شؤون الحب، اختلفنا على قضايا أخرى»، في مرضي دعوت الله أن يصلح حاله، وكلَّما تكلَّمت معه على الهاتف، كنت أتذكَّر منير الطفل الضاحك، الذي ينتظر عودتي من المدرسة

وأنا طفلة، ويضحك لي ويرفرف بيديه يريد أن يطير إلي، وهو طفلٌ قبل المشي.

بعد عودتنا إلى أميركا من حفلة زفاف ديانا، أجريت جلساتٍ عدَّةً للعلاج الكيماوي، ووفق الأطبَّاء استجاب الورم للعلاج فقرَّروا عمليَّة جراحيَّةً لاستئصال منطقة الورم في جزءٍ من الكولون وامتداده في الكبد، وقد حدَّدوا موعد العمليَّة. خفت جدًّا من العمليَّة، وفكَّرت ألَّا أجريها، قلت لفؤاد: «ليش أعمل العمليَّة؟ الموت واحد بالعمليَّة وبدونها»، قال وبكلِّ هدوءٍ: «ما بحب اسمع لهجة الاستسلام منك، بعرفك طول عمرك مرة قوية، وإحنا ما بدنا نخسرك. إن شاء الله بتعملي العملية وبتشفي بسرعة، وبترجعيلنا مثل ما كنت وأحسن، بس بدون العملية كل شيء رح يكون أسوأ، شوفيني أنا، وين كنت وين صرت؟».

شعرت العمليَّة الجراحيَّة لاستئصال الورم فائضةً عن الحاجة، لن تقدِّم ولن تؤخِّر في النتيجة، لن يكون لها جدوى سوى أنَّها ستزيد آلامي فقط. قال الجميع إنَّ حالتك النفسيَّة ستؤثِّر في المرض، وكلَّما كانت حالتك النفسيَّة أفضل، ساعد هذا في الشفاء السريع. من السهل أن يُلقي الآخرون النصائح على المريض، ماذا يفعل؟ وماذا لا يفعل؟ وكيف يحسُّ؟ وكيف لا يحسُّ؟ الكلام سهلٌ عندما لا تكون أنت المعنيَّ بالمرض، ولست أنت من يهاجمك وحش الألم الكاسر. أمَّا إذا كنت المريض فكلُّ شيءٍ يختلف، لأنَّ الأرض تميد تحتك وليس تحت شخصٍ آخر، حياتك هي التي على المحكِّ وليس حياة أحدٍ آخر، لذلك أنت من تفقد توازنك وليس شخصًا آخر. عندما يخبرونك أنَّك مصابٌ بمرضٍ خبيثٍ تشعر بالانهيار وهو شعورٌ يصعب وصفه، فهو يمنحك شعورًا بالقهر وعدم العدالة واللا جدوى، فجأةً تتغيَّر أنت، تتغيَّر الحياة، وتسأل أيَّ وهمٍ كنت أعيشه؟ هل الحياة التي عشته منذ سنواتٍ سريعةٌ، أم هي تكثيف الألم المهول الذي يفقدك الأمل بالشفاء؟! ألمٌ لا ينتهي يأتي من هذا الجسد الواهي الذي تعيش فيه، وتسأل

نفسك، هل هو جسدك فعلًا أم إنَّ الجسد الجديد المؤلم قد احتل جسدك في غفلةٍ منك؟ تصوَّر كيف يكون الحال إذا كنت مُقدِمًا على عمليَّةٍ جراحيَّةٍ كبيرةٍ لاستئصال ورمٍ خبيثٍ متقدِّمٍ في أماكن خطرةٍ، استئصال أجزاءٍ كبيرةٍ من جسدك من دون أيِّ ضمانةٍ لخلاصك من آلامك، التي من شبة المؤكَّد أنَّها ستعود إليك، لأنَّك في مرحلةٍ متقدِّمةٍ من مرضٍ خبيثٍ يهاجم جسدك بشراسةٍ. تسأل نفسك ما جدوى الكفاح في الحياة عندما يأتي المرض على حين غرَّةٍ مقرِّرًا أنَّ يحوِّل حياتك إلى جحيمٍ قبل أن يسلبك إيَّاها؟! وأيُّ معنًى لموتٍ طويلٍ ومديدٍ ومؤلمٍ مع مرضٍ يثير شفقة الآخرين طيلة الوقت، ويصبح الآخرون هم الذين يقرِّرون لك ما عليك فعله، لأنَّك لست قادرًا على خدمة نفسك في الكثير من الأوقات التي تجد نفسك تحت تأثير العلاج الكيماوي، أو بعد استئصالٍ صعبٍ ومنهكٍ. لا تشعر أنَّ جسدك منتهكٌ فحسب، بل كلُّ حياتك تصبح منتهكةً أيضًا، ولا تملك أيَّ قرارٍ بشأن حياتك الشخصيَّة، حمايتك تستدعي استباحة حياتك وسلبك حياتك الخاصَّة.

لم أرغب في إجراء العمليَّة الجراحيَّة، عرفت أنَّ الموت دقَّ بابي بقوَّةٍ وعنفٍ ولا مجال للهرب منه، رغم ذلك لا بُدَّ لي من إجراء العمليَّة الجراحيَّة كقدرٍ لا هرب منه، واختراع أملٍ من وضعٍ يائسٍ. ذهبت إلى العمليَّة مستسلمةً تمامًا لقدرٍ شعرت به قبل أن يأتي، ولم أكن قادرةً على تفسيره وشرحه. ذهبت بشعور أنَّ جسدي ليس لي. هذا الجسد الذي سيُعبَثُ به في هذه العمليَّة الجراحيَّة لا ينتمي إليّ. مع جلسات العلاج الكيماوي شعرت أنِّي غريبةٌ عن جسدي وأنا بحاجةٍ إلى التحرُّر منه. مع العمليَّة الجراحيَّة باتت هذه الغربة مطلقةً، شعرت أنِّي غريبةٌ عن أعضائي التي عاشت معي كلَّ عمري، وشعرت أنَّ هذا الجسد الذي أعيش فيه جسدٌ مستعارٌ ولا يناسبني، وأنَّه ليس جسدي، وأنِّي أسكن جسدًا لا علاقة بيني وبينه سوى الآلام المبرحة، أتوق لمفارقته وتركه والهرب منه بأسرع وقتٍ.

عندما خُدِّرتُ في غرفة العمليَّات، ابتسمت ابتسامةً ساخرةً في وجه الأطبَّاء والممرضات. أردت أن أقول لهم: «ما تقومون به لا جدوى منه، أنا أعرف جسدي أكثر منكم. وهو يرفضني مهما فعلتم»، لم أتمكَّن من قول هذه الكلمات، لأنِّي ببساطةٍ غبت عن الوعي بسبب المخدِّر. بعد ذلك بأسابيع أخبروني أنَّ العمليَّة استغرقت ثماني ساعاتٍ تكلَّلت بالنجاح وكان استئصال الورم كاملًا، وقالت الفحوصات بعد شهرين أنَّ الورم قد اختفى ولم يعد، وكانت بشرى سارَّةً، وهذا ما جعل الأطبَّاء متفائلين باحتمال عدم عودته من جديدٍ. خلال هذه الفترة كانت علاقتي بجسدي في غاية الغرابة، والأغرب منها علاقتي بذاكرتي. جسدي الغريب عنِّي حرَّر ذاكرتي من الزمن، لم يعد لذكرياتي ترتيبٌ زمنيٌّ، باتت تخلط أزمانًا لا تنتمي إلى بعضها. أحيانًا أرى نفسي طفلةً لم أكبر بعد، ما زالت تلعب مع أخيها الصغير الذي يحاول تعلُّم المشي. أحيانًا أدخل الصفَّ وأشرح درسي لتلاميذي في مدرسة الزاهرة، طلَّابي أمامي، وجوههم معروفةٌ بالنسبة لي وهي ذاتها التي كانت قبل أكثر من أربعين عامًا، الماضي أشعر به الآن، والآن غريبٌ عنِّي، والجسد الذي أعيش فيه ضيَّق عليَّ، أشعر أنَّه يتلفُّ بسرعةٍ. أشعر أنِّي في العيد، أركب مرجوحة الخشب إلى جانب بيتنا في المخيَّم، أذهب إلى مدرستي وأنا تلميذةٌ وأخوض في وحل المخيَّم الذي أكرهه. أحيانًا يمزِّق الألم بطني، أصرخ بأقصى ما أستطيع دون أن يصدر عنِّي أيُّ صوتٍ. المشهد ضبابيٌّ كلُّ تاريخي الشخصيِّ يطلُّ من هذا الضباب ويعود ليختفي، الأشياء، الأشخاص، الأماكن، الأفراح، الأحزان، الآلام الجسديَّة، المعاناة النفسيَّة، البيوت التي سكنتها، ملابسي التي أحبُّ، سجائري التي دخَّنتها، الشوكلاته التي أحبُّها، قطَّتنا القديمة التي أخاف منها، أبي بعينه الوحيدة، أخي الذي تُوفِّيَ قبل ثلاث سنواتٍ بالسرطان أيضًا، أولادي، فؤاد، صديقاتي اللواتي نسيتهنَّ... كلُّ شيءٍ يحضر ويغيب بلمح البصر. لم أشعر بالزمن ولا بتتابع الليل والنهار، توقَّف كلُّ شيءٍ وكلُّ الماضي حضر دفعةً واحدةً. لم أعرف كم من الوقت قضيت في

المستشفى، هل قضيت ساعاتٍ أم أنِّي طيلة عمري أسكن المستشفى؟! رغم تفاؤل الأطبَّاء، إلَّا أنَّ شيئًا ما داخلي كذَّب توقُّعاتهم ويُكذِّب فحوصاتهم، جسدي الغريب عنِّي يخبرني بذلك. لم يقبل الطعام، لم أعد قادرةً على وضع أيِّ شيءٍ في فمي. جسدي يتهاوى وأخسر طاقتي تمامًا، وقد تحوَّلت إلى شبحٍ نحيلٍ عظامه ناتئةٌ. عندما وضعت ابنتي سحر المرآة أمامي لتريني الوضع المتردِّي الذي وصلت إليه، ولتدفعني للبدء بالأكل، لم أعرف نفسي في المرآة، شاهدت أمِّي في أشهرها الأخيرة في المرآة، يا إلهي كم أشبه أمِّي الذاهبة إلى موتها، لكنَّ الفرق بين عمري وعمر أمِّي عند موتها حوالي ثلاثين عامًا، هل كبرت ثلاثين عامًا خلال هذه الفترة؟ سألت نفسي. أرعبتني الصورة، وتأكَّدت أنَّ هذا الجسد ليس جسدي، فهو لا يريد أن يقبلني من جديدٍ.

بعد ثلاثة أشهرٍ من العمليَّة الجراحيَّة الصعبة التي أجريتها، عاد الورم للظهور في الفحوصات، وليس أمام الأطبَّاء طريقٌ لمحاصرته سوى العلاج الكيماويِّ المنهك. كأنَّ عودة الورم إلى جسدي، جعلته أقلَّ غربةً، وبدأ يقبل هذا الزائر المؤلم ويتعامل معه كأمرٍ واقعٍ. صورتي في المرآة التي وضعتها سحر أمامي ودموعها، دفعاني إلى البدء بغصبٍ نفسيٍّ على تناول الطعام، لكنَّه كان أقلَّ القليل. الطعام على قلَّته جعلني أتحسَّن بعض الشيء، رافقني النحول الذي تلا العمليَّة حتَّى الآن.

بعد سبعة أشهر تخرَّجت سوسن من الجامعة في تركيا، وهذا الحدث السعيد جعلني أقرِّر الخروج من عزلتي وأحضر حفلة تخرُّجها، مهما كانت الظروف، وكان قد بقي لحفل التخرُّج حوالي الشهر، وهو ما شكَّل دافعًا إضافيًّا لتحسُّني، حتَّى أستطيع السفر من أميركا إلى تركيا. نصحني الأطبَّاء بعدم السفر لما فيه من خطورةٍ على صحَّتي، كنت مصرَّةً على الذهاب بأيِّ ثمنٍ. نزولًا عند رغبتي اتخذوا الإجراءات اللازمة، وحقنوني الإبر اللازمة وزوَّدوني بأدويةٍ إضافيَّةٍ تساعدني على الصمود في سفري. كلُّ ذلك من أجل أن تكون السفرة آمنةً إلى حدٍّ معقولٍ. هذه المرَّة الأولى التي أسافر فيها

خارج أميركا منذ إجرائي العمليَّة الجراحيَّة، كان فؤاد برفقتي. استمعت إلى تعليمات الأطبَّاء وفؤاد استمع أيضًا لأنَّه سيكون المشرف على وضعي الصحي في تركيا. أنهكت الرحلة جسدي الضعيف، ما اقتضى أن أستريح أيَّامًا عدَّةً في السرير بعد وصولي إلى اسطنبول، سعادتي ساعدت جسدي على الاحتمال. عندما صعدت سوسن لاستلام شهادتها، سالت دموعي، ليست دموع الفرح تمامًا، وليست دموع الحسرة على صحَّتي المتداعية. كانت دموعًا غريبةً، خليطٌ من دموع الفرح والحزن معًا. ذاكرتي تستعرض مسار حياتي كشريطٍ سينمائيٍّ سريعٍ، رأيت حياتي أسرع ممَّا تصوَّرت، شعرت أنَّ الزمن لم يمهلني، أغلق المرض الذي ينهش جسدي عليَّ الزمن القادم، لم أعرف ما الذي سأفعله، وهل سيسعفني الوقت لأفعل ما أريد فعله.

عندما عدنا إلى البيت في اسطنبول مساءً، لم يكن فؤاد بحالةٍ جيِّدةٍ، شعر بتعبٍ شديدٍ، ارتفعت حرارته، شعر بدوارٍ طيلة الوقت. عندما عاينه الطبيب وعرف أنَّه زارع كليةً من شخصٍ آخر، قال: «يجب أن يعود إلى أميركا، هذا أفضل له»، عندما سألته: «هل هناك شيءٌ خطيرٌ؟»، أجاب «أبدًا، لكن هذا أفضل له في حال احتاج إلى الرعاية الطبيَّة الخاصَّة»، عندما غادر الطبيب، سألت فؤاد: «بتقدر تسافر لحالك، أو بتحب أسافر معك، بدي أظل كم يوم مع سوسن إذا ما عندك مانع، لأنِّي ما بعرف، إذا كنت رح أشوفها مرّة ثانية»، قال: «لا تقولي هيك، رح تشوفيها كثير. بقدر أسافر لحالي، وفيكي إنت تظلي الوقت اللي بدك إياه»، قدَّر فؤاد حالتي، لكنَّه لم يقدِّر حالته. عمليًّا لم أكن قادرةً على العناية به، لكن يجب أن أقول ما قلت. حجز رحلة الطائرة في الليلة ذاتها وغادر. اتصلت بفادي قلت له أن ينتظر والده في المطار لأنَّه مريضٌ، ويجب أن يذهب إلى المشفى. بين اسطنبول ونيويورك، ساءت صحَّة فؤاد بسبب الرحلة المرهقة، عندما وصل إلى مطار نيويورك، كان في حالةٍ إسعافيَّةٍ مستعجلةٍ. نقله فادي إلى المستشفى مباشرةً. خلال اليومين التاليين في المستشفى، فشلت كلُّ

المحاولات لإنقاذه من صدمةٍ إنتانيَّةٍ بسبب مناعته المنخفضة جرَّاء الدواء الذي يتناوله، أصابت فؤاد حالاتٌ مشابهةٌ أقلَّ حدَّةً من قبل، وكان ينجو منها. هذه المرَّة كلُّ المضادَّات الحيويَّة التي استخدموها لم تجدِ نفعًا في معالجته. لم أقدِّر أنِّي سأفقده، اعتقدت أنَّ هذه المرَّة مثلها مثل الأزمات السابقة، أيَّامٌ عدَّةٌ في المستشفى ويعود إلى البيت سالـمًا. بعد أربعة أيَّامٍ اتصل فادي بصوتٍ حزينٍ متحشرجٍ مليءٍ بالدموع ليقول: «أبي مات سريريًّا، بس الأطباء بقدروا يخلُّوه طيِّب حتَّى تجي على أميركا، بس ما بقدر يعمل شي ولا حتَّى يحكي، ومانهم متأكدين، إذا كان بسمع، هو عايش على الأجهزة الآن»، لم أصدِّق ما قاله، قلت: «ماشي، أنا جاي، خلوه طيِّب لحتَّى أجي»، لم أعرف ما يعنيه هذا الكلام، ولم أعرف أنَّ فؤاد قد مات. بعد قليلٍ اتصلت سحر غاضبةً، وهي تقول: «ماما. شو بتعملي؟! إنت بتعذبي أبوي بلا معنى»، وقتها قلت لها: «اعملوا اللي شايفينُه مناسب»، ولم أكن قد فهمت بعد، ولم أصدِّق أنَّ فؤاد قد مات قبلي.

عدت أنا وسوسن إلى نيويورك مباشرةً، وخلال الرحلة الطويلة وأنا أسأل نفسي: «صحيح مات فؤاد؟ ولا اللي بصير اختلاط ذاكرتي مع خيالاتي الكابوسية اللي بتيجي مع العلاج الكيماوي؟!»، لم أرغب بالتصديق، واقتنعت أنِّي أعيش كابوسًا، وما هي إلَّا ساعاتٌ حتَّى يتبدَّد، حال وصولنا إلى هناك، وكلُّ شيءٍ يعود كما كان، فؤاد ينتظرني هناك. منذ أجرى فؤاد العمليَّة في دمشق قبل عامين، ظننته نجا من الخطر، لم أصدِّق غياب فؤاد عن هذه الدنيا. لم أصدِّق وأنا أنتظر موتي، أن تأتي يد الموت وتخطف فؤاد منِّي، في الوقت الذي احتجته كما لم أحتَجه في حياتي من قبل. شعرت أنَّه خذلني، عندما تركني وحيدةً ومات قبلي. لم أبكِ موت فؤاد، كنت مصدومةً ومنهكةً، استغربت من نفسي، ولكن بعد أسابيع شرعت في بكاءٍ مرٍّ على غيابه. كنت أنتظر الموت مستندةً إلى فؤاد الذي لم يخذلني يومًا، اختلفنا

كثيرًا وعلى كلِّ شيءٍ تقريبًا، ولأنَّه نبيلٌ لم يخذلني يومًا. ها هو اليوم يخذلني ويتركني أنتظر موتي وحيدةً.

مع أوجاع السرطان التي تداهمني، أصبحت عائدة حاضرةً معي. فهي كانت صديقة طفولتي، وابنة أخي، تصغرني بحوالي عامين، منذ عرفنا بعضنا جيِّدًا بعد عودتهم من السعودية عندما كنَّا أطفالًا، أصبحت أعزُّ صديقةٍ لي. أعجبتني جرأتها وتهوُّرها وإقدامها على كلِّ ما تريد دون تردُّدٍ، كانت البنت التي تمنَّيت أن أكون دون أن أستطيع ذلك. أنا تزوَّجت وذهبت إلى أميركا، وهي تزوَّجت من مسيحيٍّ وقاطعتها كلُّ العائلة. عندما عدت للاستقرار في دمشق، وعرفت أنَّها مصابةٌ في السرطان، اتصلت فيها وزرتها مرَّاتٍ عدَّةً، وحاولت أن أقنع والدها، بأن يزورها بعد قطيعةٍ طويلةٍ، للأسف، لم أنجح سوى في جعله يتحدَّث معها على الهاتف.

بعد أن أصبت أنا بالسرطان وعدت إلى أميركا، بتنا صديقتين مقرَّبتين من جديدٍ. يوميًّا، يجب أن أحادثها أو تحادثني، نتكلَّم عن كلِّ شيءٍ، عن المرض الحقير المشترك بيننا وأوجاعه وكيفيَّة التعامل معه، عن طفولتنا، عن مراهقتنا، عن بساطة الحياة عندما كنَّا صغارًا، عن كرهي للمخيم، عن حبِّها للمخيم، عن تغيُّرها المستمرِّ، وتغيُّرها الكبير بعد إصابتها بالسرطان، عن العائلة، عن تجربتها في الزواج التي وجدت نفسها مدفوعةً لها دفعًا، عن ابنتها الوحيدة التي غادرت إلى كندا. حدَّثتها عن زواجي، عن حياتي، عن علاقاتي بإخوتي، عن أولادي الذي كانوا مشروع حياتي، عن الحياة القصيرة التي تفلت من بين أيدينا، عن موت فؤاد الذي تركني وحيدةً بعد أن اعتقدت أنَّه نجا. كانت المكالمة مع عائدة واحدةً من الأسباب التي تعطيني الدافع للصمود يومًا آخر من أجل سماع صوتها. عندما اتصلت فيها مرَّاتٍ عدَّةً ولم تجب، قلقت، قلت إنَّها أزمةٌ جديدةٌ أصابتها، وستعود للاتصال بي عندما تتحسَّن، فأنا أعرف فقدان الرغبة في كلِّ شيءٍ عندما يجري المصاب بالسرطان جلسات العلاج الكيماوي الحقيرة. وأعرف تمامًا ما تشعر به، لأنِّي

أتعرَّض لهذا العذاب، في كلِّ مرَّةٍ أجري فيها هذه الجلسات. هذه المرَّة، لم يأتِ اتصالها، ولم أكن قد فتحت صفحات الفيسبوك لأيَّامٍ عدَّةٍ. وعندما سألت أختي بيان لماذا لا تردُّ عائدة على الهاتف قالت: «عائدة أعطتك عمرها»، لم أعرف ما أقول، أغلقت الهاتف وشرعت في بكاءٍ لم أعرفه حتَّى عندما ماتت أمِّي، بكيت كما لم أبكِ من قبل، لا بوفاة والدي ولا بوفاة فؤاد، شعرت أنِّي لا أبكي عائدة وحدها، بل أبكي نفسي أنا المصابة بذات الداء الذي قتلها.

عندما عدنا إلى أميركا عدنا من أجلي وليس من أجل فؤاد، ما تجنَّبته طيلة حياتي وجدت نفسي أفعله رغمًا عنِّي. حاولت تجنُّب الموت في أميركا، وأنا الآن أرقد في مستشفًى أميركيٍّ في انتظار المصير المحتوم، بعد أن فشلت عمليَّة الاستئصال وعاد السرطان إلى الانتشار في أماكن أخرى، وبعد أن فقدت فؤاد الذي تُوفِّي فجأةً، وموت عائدة، أصبح الموت حولي وأنا أنتظره.

في أميركا، المكان الذي تجنَّبت الموت فيه، وجدت نفسي أنتظره على سريرٍ باردٍ بشراشف بيضاء بين وجوهٍ غريبةٍ في أحد مشافي مدينة نيويورك على مسافةٍ آلاف الأميال من مدينة دمشق، المكان الذي قرَّرت أن أختم حياتي فيه.

الفصل الثاني:
لعنة اسطنبول
(ديانا بنت وداد أحمد خليل)

لطالما حلمت بالعودة إلى أميركا للدراسة، أردت العودة إلى نيويورك المدينة التي وُلِدتُ فيها، لأنَّها عنوان الحريَّة في العالم، وأنا أريد حريَّتي بعد أن عشت في المملكة السعوديَّة، وهي مكانٌ لا حريَّة فيه ولا حتَّى حياةً أيضًا. غادرت الولايات المتحدة وأنا طفلةٌ لا ذاكرة لي هناك، رغم ذلك شعرت بانتماءٍ قويٍّ إليها. عشت بعيدًا عنها كأميركيَّةٍ، بين تجمُّعاتٍ أميركيَّةٍ وأجنبيَّةٍ في السعودية، وكذلك فيما بعد في مصر، وهما البلدان اللذان قضيت فيهما طفولتي ومراهقتي، راكمتُ معرفةً كبيرةً بها وأنا بعيدةٌ عنها، ما جعلني أعيش فيها وأنا بعيدةٌ عنها. لذلك لم أرغب الدراسة في دمشق، ولم أحبَّ هذا الاقتراح، فكلُّ ما أذكره عن البلد زيارتنا المملَّة له عامًا بعد عامٍ، لأنَّ هذا البلد مسقط رأس أبي وأمي، وأهلهما يعيشون هناك، وهما يحنَّان إلى المكان ويتوقان للعودة والعيش فيه من جديدٍ. وعندما ناقشت أبي وأمي حول أين ستكون دراستي الجامعيَّة، قلت: «بدي أدرس بأميركا»، اعتقدت أنَّه سيكون لرأيي فارقٌ ويغيِّران رأيهما، ويحترمان رغبتي. لم يكن هذا خيار أهلي، ولم تكن رغبتي بالحسبان، فهم ناقشوا الأمر وحدهم،

وأصبحنا أمام خيارين. الأوَّل، العودة مرَّةً أخرى إلى القاهرة للدراسة في الجامعة ذاتها التي درس فيها كلٌّ من سحر وفادي إخوتي الأكبر والسير على خطاهما، ثمَّ العودة إلى أميركا للتخصُّص بعد إنهاء دراسة الطبِّ في القاهرة. الثاني، الذهاب للدراسة في دمشق، بعد أن افتتحت جامعاتٌ خاصَّةٌ معترفٌ بها هناك، إذ يُعتَرَفُ بشهادتي عند العودة إلى أميركا، وأيُّ دراسةٍ غير ذلك تكون مضيعةً للوقت من وجهة نظر والداي. كان خيار أمِّي الذهاب للدراسة في دمشق، لأنِّي منذ وعيت على الدنيا أعرف أنَّها تحلم بالعودة للعيش هناك، التي وُلِدَت فيها وعاشت فيها طفولتها وشبابها الأوَّل. وعندما قلت: «بدي أدرس بأميركا»، رمقتني بنظرةٍ أعرفها جيِّدًا، المعنى الحقيقيُّ لهذه النظرة هو «اخرسي»، وأبي صمت ولم يردَّ على كلامي، وكأنَّ ما يُنقاش ليس حياتي.

قبل نقاش مصير دراستي، ومنذ زمنٍ بعيدٍ، حتَّى قبل ولادتي، أوكل أبي مصائرنا إلى أمي، هي التي تقرِّر فيها، وهو لا يتدخَّل، إلَّا في حالات الضرورة القصوى، وهذا لم يحصل ولا مرَّةً واحدةً على حدِّ علمي، على الأقل لم يحصل أمامنا. كنت سأجادل وأقول إنِّي أستطيع العيش عند أختي أو أخي، حتَّى يمكنني العمل في فترات العطلة من أجل المساعدة في مصروفات الجامعة. كلُّ هذا لم يكن مطروحًا بالنسبة لأمِّي، لا يمكننا التحرُّر من حبِّها، إلَّا عندما نتزوَّج ونذهب إلى بيتٍ آخر لنبني عائلةً أخرى. لا أقول هذا بناءً على تجربة سحر أختي الكبرى، بل حتَّى تجربة أخي فادي، علينا أن نبقى تحت أنظارها، فنحن دونها سنتصرَّف بحماقةٍ، ووجودها إلى جانبنا يجنِّبنا هذه الحماقات التي نحن بغنًى عنها لنبني حياتنا على وجهها الصحيح كما تعتقد، إنَّها الوصيَّة الحقيقيَّة على حياتنا. ليس علينا أن نتعلَّم من تجربتنا؟ عندما يقول أحدنا هذا لها، تصرخ: «وليش لازم تعملوا هيك؟!»، النقاش مع أمِّي في غاية الصعوبة، لا هي تعرف الإنكليزيَّة جيِّدًا حتَّى تستطيع التعبير عن آرائها بدقَّةٍ ووضوحٍ، فطوال حياتها بقيت لا تجيد الانكليزيَّة

جيِّدًا، وعندما كان يسألني أحد أقاربي عن انكليزيَّة أمِّي، كنت أقول: «إمِّي ما بتعرف انكليزي»، ونحن لا نجيد العربيَّة جيِّدًا، نستطيع التحدُّث بها، لكنَّنا لا نستطيع أن ندير حوارًا عميقًا فيها. تعلَّمنا العربيَّة لأنَّها أصرَّت على تعليمنا إيَّاها، وعشنا سنواتٍ طويلةً في بلدانٍ عربيَّةٍ، رغم أنَّنا درسنا في مدارس انكليزيَّةٍ وأميركيَّةٍ، وكان أصدقاؤنا من الأجانب أيضًا، وعليه فإنَّنا لم نكن نستطيع التعبير بالعربيَّة بدقَّةٍ عمَّا نريد قوله لها. غالبًا كان النقاش بيننا وبين أمِّي عبارةً عن «حوار طرشان» كلُّ واحدٍ منَّا في وادٍ، هي تصرخ بالعربي ونحن لا نفهم عليها ما تريد تمامًا، ونحن نردُّ بالإنكليزيَّة وهي لا تفهم تمامًا علينا. والحالات التي كنَّا نتفاهم فيها، هي الحالات التي لعب أبي فيها دور المترجم الفوريِّ بيننا وبين أمِّي. عندما أبديت رأيي في دارستي، كنت أعرف ألَّا رأي لي في هذا الموضوع، هي محاولةٌ يائسةٌ من المستبعد نجاحها، قلت لنفسي أرميها، لن يحصل شيئًا، لعلَّ وعسى هذه الحجرة الطائشة تنجح في إصابة هدفها، رميتها دون أملٍ، قرَّرت سلفًا أنِّي سألتزم في الخيار الذي تتخذه أمِّي عندما لا تصيب رميتي.

بعد مراسلاتٍ واتصالاتٍ لا حصر لها، حُسم الخيار لصالح دمشق. كلُّنا كنَّا نعرف أنَّ أمِّي ترغب بقوَّةٍ بهذا الخيار، وكنَّا متفقين على أنَّها تعبت من غربتها الطويلة التي لم تتكيَّف معها، وعندها حنينٌ شديدٌ لدمشق بوصفها المدينة التي تعتقد أنَّها سترتاح فيها، عداك عن كونها وُلِدَت فيها. قدَّرت مشاعرها، وبالنسبة لي دمشق في النهاية محطَّةٌ دراسيَّةٌ، حالما أُنهيها، سأذهب إلى أميركا، كما فعل إخوتي. لم أعرف دمشق، صحيحٌ أنَّني زرتها مرَّاتٍ عدَّةً مع أهلي، لم أهتم لمعرفتها، اعتقدت أنَّها محطَّةٌ عابرةٌ، عليَّ أن أمرَّ بها بين الحين والآخر، لأنَّ أمِّي تريد ذلك. كذلك، ليس لي علاقةٌ خاصَّةٌ مع الأمكنة فيها.

وُلِدتُ في نيويورك وانتقلنا منها إلى السعوديَّة وأنا طفلةٌ صغيرةٌ لم أتجاوز سنواتي الخمس حينها، ولم أكن قد وعيت الأماكن بعد. في مدينة

الرياض عشنا داخل تجمُّعٍ مغلقٍ للأجانب العاملين في السعوديَّة، والجزء الأكبر من الذين يسكنون هذه التجمُّعات من الأميركيِّين. تتمتَّع هذه الأماكن باستقلاليَّةٍ عن الأماكن الأخرى التي تقع خارجها، فهي لا تخضع لسلطة «المطوِّعين» وهي السلطة الأكثر سخافةً وتخلُّفًا في السعودية، وهي التي تركض وراء الرجال لتجبرهم على الصلاة، وتراقب أيَّ امرأةٍ يسقط حجابها، فيضربونها، رجالٌ يعتقدون أنفسهم يحمون الدين من تخريب البشر، يتدخَّلون بين البشر وربِّهم، وكأنَّهم حرَّاس الفضيلة، يدافعون عن الله، وكأنَّ الله بحاجةٍ إلى حمايتهم! هؤلاء لا يقتربون من الأماكن التي نعيش فيها، وليس مسموحًا لهم الدخول إليها. وهذه الأماكن مجهَّزةٌ وكأنَّها ليست من البلد، فيها كلُّ وسائل الراحة، من الأندية الرياضيَّة إلى المقاهي، إلى المسابح، حيث النساء يسبحن بالمايوهات، وكأنَّهن خارج البلد، وهي فعلًا أماكن خارج البلد. وفي الرياض أيضًا، لم يتسنَ لي التعرُّف على المكان وعلى أصدقاء جددٍ، حتَّى انتقلنا إلى القاهرة من أجل دراسة إخوتي الأكبر، فقد قرَّرت أمِّي مرافقتهم والعيش معهم هناك، وعليه فإنَّنا الأصغر سنًّا بطبيعة الحال سنذهب مع أمِّي، وبقينا هناك لثلاث سنواتٍ، ثمَّ عدنا إلى السعودية، لأنَّ أمِّي باتت تثق بإخوتي وبقدرتهم على إدارة حياتهم أكثر، وهذا لا يخلو من بعض الزيارات التفقُّديَّة لأوضاعهم بين الحين والآخر. تفاقم مرض السكَّري الذي عانى منه أبي، ما يعني أنَّه يحتاج أن تكون إلى جانبه أكثر من حاجة إخوتي لها. بعد أربع سنواتٍ انتقلنا من جديدٍ إلى سورية، ومع اندلاع الاحتجاجات غادرتها إلى تركيا من أجل إكمال دراستي، كما غادرتها أمِّي وأختي سوسن التي التحقت بالجامعة في تركيا أيضًا. ما أريد قوله إنَّ الانتقالات المتكرِّرة، جعلت علاقتي مع الأماكن غريبةً، فأنا لا أشعر بأيِّ تعلُّقٍ بالأماكن المختلفة التي عشت فيها، لا سيَّما وأنِّي لم أعش فترةً طويلةً في أيٍّ من هذه الأماكن. أي منذ وُلِدتُ حتَّى بلغت الثامنة عشرة انتقلت من نيويورك إلى الرياض ومنها إلى القاهرة ومن القاهرة

عودةً إلى الرياض ومن الرياض إلى دمشق ومنها إلى اسطنبول. أي بمعدَّل حوالي أربع سنواتٍ في كلِّ مكانٍ، وأعتقد هي مدَّةٌ غير كافيةٍ للتعلُّق بمكانٍ ما أو تكوين ذاكرةٍ عميقةٍ حوله، كنت أشعر أنِّي سائحةٌ في الأماكن التي عشت فيها، أكثر من كوني سكنتها. أستغرب من الذين يتعلَّقون بمكانٍ بمجرَّد زيارته لمدَّة أسبوعٍ. أظنُّ التعلُّق بحاجةٍ إلى وقتٍ طويلٍ حتَّى يصبح المكان جزءًا من الشخص ومن تكوينه، وعبر ذكرياتٍ متراكمةٍ عبر الزمن وعلى مراحل حياته الممتدَّة، إذ تصنع حياته خلالها ارتباطًا بتفاصيل المكان، فيحمل الذاكرة التكوينيَّة عنه بوصفه المكان الذي تأسَّست حياته فيه، وبنى فيه شبكة العلاقات التي تحمله وتحمل حياته. بالنسبة لي كلُّ الأماكن التي عشت فيها، لم أشعر أنَّها مكاني، ولا حتَّى أميركا التي وُلِدتُ فيها. لا أملك شعور الانتماء إلى مكانٍ محدَّدٍ، فأنا بعد كلِّ هذه التنقُّلات، والتي توقَّعت أن تكون نهايتها أميركا - حتَّى هذا التوقُّع لم يتحقَّق -فبعد رحلة التنقُّل الطويلة، وجدت نفسي أتزوَّج وائل ونذهب للعيش في مدينة فرانكفورت في ألمانيا. الأقدار غريبةٌ ومدهشةٌ، يتوقَّع المرء نفسه في مكانٍ محدَّدٍ بعد سنواتٍ عدَّةً، وعندما يصل إلى الزمن المتوقَّع، يجد نفسه في مكانٍ آخر لم يكن يخطر على باله في يومٍ من الأيَّام. طبعًا، هذا لا يعني أنَّ الأماكن التي عشت فيها لم تؤثِّر فيَّ، فأنا في النهاية مثل كلِّ البشر نتاج تجربتي الشخصيَّة، ونتاج ما تركته فيَّ من أثرٍ تلك الأماكن التي عشت فيها والأشخاص الذين عرفتهم والحوادث والمشكلات والأزمات التي مرَرتُ بها. هذا التكوين المتعدِّد المستويات والمتعدِّد الأمكنة، شيءٌ مختلفٌ عن الإحساس بالانتماء إلى المكان، بوصف المكان وطنًا يشعر المرء أنَّه ملجؤه الأخير. أنا التي وُلِدتُ أميركيَّةً في نيويورك، وأحمل جواز سفرٍ أميركيٍّ، أشعر أنِّي بلا وطنٍ. ليس لأنِّي وُلِدتُ لوالدين عاشا لاجئين في سورية طوال عمرهما، ولأنَّ عائلتيهما هُجِّرتا من فلسطين بعد حرب العام 1948، والشعور بعدم الانتماء ليس شعورًا سلبيًّا بالنسبة لي، فهذا الشعور ساعدني

في الكثير من الأحيان على التكيُّف مع أماكن لا تعجبني، لكنِّي عدَدتُها ممرًّا ومعبرًا لمكانٍ آخر وتجربةٍ أخرى ستعجبني.

لم أتصوَّر أنَّ المدَّة التي قضيتها في دمشق على قصرها، ستكون منعطفًا أساسيًّا في حياتي، يغيِّر مسارها الذي خُطِّطَت له. رغبت أن تكون دراستي الجامعيَّة في أميركا، وعندما لم يحصل، قلت سيأتي ذلك بعد التخرُّج، فلا مجال لدراسة الاختصاص في غير أميركا، ولن تكون أمِّي وقتها قادرةً على الرفض. وُلِدَت رغبتي بالذهاب إلى أميركا، ليس من محبَّة لهذا البلد، بل من رغبتي بالالتحاق بإخوتي هناك. فبعد سفرهم إلى أميركا وعودتي إلى السعوديَّة شعرت بفراغٍ قاتلٍ، وعرفت كم كان فادي وسحر مهمَّين في حياتي. والسبب الثاني، أنِّي أريد الخلاص من قيود أمِّي التي تخنقني، ليس بقمعي، بل بمحبَّتي، وهو قمعٌ أكثر جدوى وفعاليَّةً، لأنِّي لا أستطيع الاعتراض عليه. نحن نعرف كم ضحَّت أمِّي من أجلنا، لكن هذا لا يعني أنَّ تضحيتها تعطيها الحقَّ في التحكُّم بحياتي. لطالما شعرت أنِّي بحاجةٍ لعيش حياتي كما أريد أنا، لا كما تريد هي. لا سيَّما أنِّي كنت شاهدةً على حياة إخوتي الكبار والمقدار الهائل من الضغط عليهم الذي ولَّده تحكُّم أمِّي بحياتهم. كانوا ممنونين لها على كلِّ ما فعلته من أجلهم، هذا لا يعني أنَّهم لم يكونوا يختلفون معها، بل على العكس، كانوا يختلفون معها بشدَّةٍ، لكنَّهم لم يكونوا ليخالفوا إرادتها عندما يختلفون معها. تجربة أخي فادي مع علاقة الحبِّ التي عاشها مع مها، المثال الصارخ على هذه العلاقة التناقضيَّة التي تأتي في نهاية الأمر لصالحها. لقد أحبَّ فادي مها ابنة الجيران في التجمُّع السكنيِّ في الرياض عندما كان في الخامسة عشرة من عمره، ومها تكبره بسنتين. وعدَّت أمِّي أنَّها علاقة مراهقين وسرعان ما ستنتهي، لكنَّ هذه العلاقة صمدت، على عكس ما توقَّعت أمِّي. فعادت أمِّي لتوقُّعٍ أبعد، بأنَّ دراسته الجامعيَّة ستجعل من هذه العلاقة ماضيًا طفوليًّا للطبيب الذي سيكون عليه فادي بعد انتهاء دراسته، فهما سيبتعدان عن بعض لمدَّةٍ

طويلةٍ، لا سيَّما وأنَّ مها أيضًا تركت السعوديَّة إلى بيروت من أجل دراسة التمريض في الجامعة الأميركيَّة هناك. مرَّةً أخرى بالضدِّ من توقُّعات أمِّي صمدت العلاقة بينهما، وكانت العلاقة مستمرَّةً عندما قاربت دراسة فادي بمصر على الانتهاء، وبداية الإعداد للانتقال إلى أميركا من أجل دراسة الاختصاص. ارتبك فادي ما الذي سيفعله بهذه العلاقة. فبعد وقتٍ قصيرٍ سيغادر إلى أميركا، وهو لا يريد أن يُبقيها مرتبطةً به، في حال لم يستطع اصطحابها معه إلى أميركا، وفي الوقت ذاته لا يرغب في خسارتها. عندما قلت له: «ليش إنت محتار؟! بس تروح على أميركا، فيك تجيبها لعندك بموافقة ماما أو بدونها»، كان جوابه حاسمًا: «ما بقدر أعمل هيك، ما بقدر أتجوَّزها بدون ما توافق ماما. بعرف إنِّي بقدر جيبها على أميركا بدون موافقتها، بس مش رح أقدر أعمل هيك، أنا ما بتحمَّل غضب ماما منِّي»، لم أفهم استسلامه في وقتها، ولماذا عليه أن يعيش حياته وفق قرارات أمِّي، وقلت له: «لو كنت محلَّك ما تردَّدت بإنِّي أحمي حبِّي شو ما كانت الخسائر»، لقد كنت مراهقةً ومتحمِّسةً، ولكن الآن لو قالت أمِّي لي: «أما مش موافقة على وائل»، لما كنت تزوجته، لأنِّي بعد ذلك عرفت أيَّ أمٍّ هي. في النهاية، لم تترك أمِّي فادي يسافر إلى أميركا دون مها، فادي ابنها الوحيد، ولا تريد له أن يتزوَّج امرأةً أكبر منه، وعندما وجدت أنَّ معارضتها بلا فائدةٍ، طالما هو متمسِّكٌ بالفتاة، قرَّرت النزول عند رغبته، وقد يكون الخوف هو سبب هذا التصرُّف، خوفها أن يُقدِمَ فادي على هذه الخطوة بالضدِّ من إرادتها عندما يذهب إلى أميركا. أو أنَّ محبَّتها لابنها الوحيد جعلها تتراجع عن عنادها في الوقوف ضدَّ هذه العلاقة. لست متأكِّدةً أيًّا من السببين كان وراء تراجعها عن رفضها الفتاة، ولكنَّ المهمَّ أنَّها تراجعت، وتزوَّج فادي من مها، وذهبا معًا إلى أميركا.

دمشق التي لم أرغب في الذهاب إليها، خرجت منها حزينةً ومحطَّمةً، لأنِّي تركت ورائي التجربة الأهمَّ في حياتي كلِّها. لقد صنعت دمشق الفارق في

حياتي، ليس لتعلُّقي بالمكان بعد التجربة الصعبة التي مرَرتُ بها هناك، بل لأنَّها علَّمتني التفكير بطريقةٍ مختلفةٍ عن تلك التي جئت بها إليها. عندما ذهبت إلى دمشق للدراسة، كنت فتاةً أنانيَّةً، اهتماماتي شكليَّةٌ، أحصل على كلِّ ما أريده، لأنَّ أبي ببساطةٍ يحصل على أجرٍ كبيرٍ في السعوديَّة يجعلنا نعيش أعلى مستوًى من محيط أقاربنا، وما أشعرني بالتعالي على كلِّ أقاربي في دمشق، سواءً من جهة أبي أو من جهة أمِّي. ودراستي في جامعةٍ خاصَّةٍ، يكلِّف رسمها ثروةً في دمشق، لا يستطيع التسجيل فيها سوى أبناء الأغنياء، عزَّز من إحساسي بالتعالي على الآخرين. كنت فتاةً لا يهمُّها سوى مصلحتها، كلُّ شيءٍ جيِّدٍ إذا كان فيه مصلحةً لي، والذي ليس لي فيه مصلحةً لا ألتفت إليه. من أين جئت بهذه الصفة لا أعرف، فليس لأحدٍ من عائلتي صفةٌ كهذه، لا إخوتي ولا أمِّي ولا أبي. في دمشق اكتشفت أنَّ للأنانيَّة العديد من المعاني وليس معنًى واحدًا. أمِّي التي لا تمنع شيئًا عنَّا، ويمكن أن تعطينا أيَّ شيءٍ، هي في غاية الأنانيَّة مع إخوتها، الكرم معنا بخلٌ مع الآخرين، الكثير الذي لنا هو شحٌّ مع الآخرين. صورة الأمِّ المثاليَّة عندنا، التي حازتها عن جدارةٍ باهتمامها بكلِّ تفاصيلنا، جعلتنا نقدِّرها ونجلُّها ولا نستطيع أن نقول لها لا، لما فعلته من أجلنا. كلُّ هذا، جعلنا نعتقد أنَّها شخصٌ مثاليٌّ، وعندما يكون الشخص كذلك، لا يكون مثاليًا مع أبنائه فقط، فهو بطبيعة الحال سيكون كذلك مع الآخرين أيضًا. لم تكن هذه حقيقة أمِّي في تعاملها مع الآخرين. صدمتني القصص التي سمعتها عن أمِّي في دمشق، قصصٌ لا يمكن أن تُصدَّق، لولا أنَّ بعض القصص رُويت أمام أمِّي ولم تستطع إنكارها. ولم يكن هناك أيُّ فرصةٍ لأن أستمع لمثل هكذا قصص في الأماكن التي عشنا فيها سابقًا، فليس هناك من يعرف أمِّي أو أبي معرفةً عميقةً وقريبةً ليعرف ظروف حياتهما عندما كانا يعيشان في سورية قبل أن يغادرا إلى أميركا، حتَّى في زياراتنا القصيرة المتكرِّرة إلى دمشق قبل أن نقيم هناك، لم تكن المدَّة الزمنيَّة التي نقضيها في دمشق كافيةً لسماع أحاديث مطوَّلةٍ حول

التاريخ الشخصيِّ لأمِّي أو لأبي، وأنا شخصيًّا لم أكن مهتمَّةً بمثل هذا التاريخ. كنت مصدومةً، عندما سمعت خالي منير يُحمِّل أمِّي مسؤولة ضعف شخصيَّة خالتي نوال، وقال لها مباشرةً: «كل هذا بسببك، ما تعاملتي معها كأخت كبيرة وأخذتي بإيدها، كنت أنانية. عشت لحالك بغرفة بتقفلي بابك على حالك، بتجتري أحزانك وبتدخني طول الوقت. وإحنا ثلاثة، شبِّين وبنت بيعيشوا بغرفة وحدة. وما خطر على بالك يوم تقولي لأختك تعالي وعيشي معي بالغرفة؟! إنت بتتصوَّري الحرج لما كان الواحد منَّا بدُه يغيِّر ثيابُه، إن كان إحنا الشباب أو هي البنت؟! كنت قاسية عليها، ما عاملتيها بحنان الأخت»، ارتبكت أمِّي عندما سمعت كلام خالي، ويبدو وجودي أنا وأختي زاد من ارتباكها، فحاولت أن تبرِّر ذلك فقالت: «ما انتبهت لكل اللي بتقولُه، أصلًا أبوك هو اللي حطني بهديك الغرفة، حتى ما يسيطر أخوك على كل البيت في الطابق الثاني»، ضحك خالي، وقال: «بدك تقنعيني ولا تقنعي حالك؟ إحنا كنَّا صغار وما انتبهنا، بس معقول إنتي ما انتبهتي. أمَّا أبوي، فكان معُه حق. ما كان منطقي، إنُه يعيش أخوك وزوجته، أي شخصين بس في ثلاث غرف وصالة في الطابق العلوي، وإحنا الستة نعيش بغرفتين في الطابق الأرضي، وهو في النهاية بيته»، سكتت أمِّي لأنَّها لا تريد الاستمرار في الحديث حول هذا التاريخ، فغيَّرت الحديث إلى شأنٍ آخر. سمعت قصصًا أخرى، من نوع أنَّها عندما كانت تشتري قطعة ثيابٍ ولا تعجبها، لا تعطيها لأختها، بل تبيعها لها، رغم أنَّها كانت تتقاضى راتبًا كمعلمةٍ، بينما خالتي نوال، لا دخل عندها سوى مصروفها من أهلها، وهذه الحال بقيت حتَّى وهي تشتري جهاز عرسها الذي ستحمله معها إلى أميركا. كما أنَّها في المرَّة الأولى التي انتقلت إلى السعوديَّة قبل أن أولد أنا وأختي سوسن، حملت أمِّي ثيابها الشتويَّة معها من نيويورك إلى دمشق ثمَّ إلى السعودية، رغم أنَّها لا يمكنها لبسها في السعودية ذات الجوِّ الحارِّ، لكنَّها أخذتها معها ورمتها هناك. وعندما سألها خالي: «حملت سبع شناتي كبيرة

من أميركا، وشحنتيهم ودفعتي عليهم مبلغ، ليش ما وزَّعتيهم بالشام، بدل ما تأخذيهم معك على السعودية، وأنت بتعرفي ما رح تقدري تلبسيهم هناك؟»، كانت إجابتها: «أنا أصلًا كنت مفكرة أعمل هيك، بس لما إجيت لهون، اكتشفت ما حدا بستاهل»، كنت سمعت القصَّة من أمِّي، والتي قالت: «شحنت غراضي حتَّى أوزعها بالشام، كنت بقدر أرميها بنيويورك، وأوفِّر على حالي تعب نقلها ومصروفات شحنها. بالشام حسيت شي غريب، إنِّي مش قادرة أوزِّعها. ما كنت قادرة أشوف ثيابي لابسها حدا غيري. فغيَّرت رأيي، ولأنِّي ما كنت قادرة أرميها بالشام، شحنتها مرَّة ثانية على السعودية ورميتها هناك. كنت غلطانة، بس هذا اللي حصل»، كان لخالتي بيان تفسيرٌ آخر للموضوع. قالت: «خافت وداد، إذا وزَّعت ملابسها على الأخريات، حدا يستغل هاي الملابس، ويقوم يعمل سحر يخرِّب حياة عيلتها، لإنُه السحر زي ما بتعتقد إمِّك، ما بنجح إلَّا إذا عملُه من أثر الشخص اللي يُراد عمل السحر إلُه، وإمِّك بتركها الملابس، رح تترك كثير من آثارها الصالحة لعمل السحر»، وكانت هذه مفاجأةً أخرى، أمِّي تؤمن بالسحر والسحرة. في دمشق أعطتني حوارات ونقاشات أمِّي مع أخوالي وخالاتي فكرةً أكثر واقعيَّةً عنها، أمِّي كما هي في الحياة الحقيقيَّة بين أناسٍ تحبُّهم وتكرههم. لم أكن لأحظى بمثل هذه المعرفة من قبل. في دمشق عرفت أنَّ أمِّي بشرٌ وليست ملاكًا، هي مثل أيِّ شخصٍ آخر في الحياة، لها أخطاؤها وخطاياها. كنت سعيدةً بمعرفة أمِّي الجديدة وانتهاء الصورة النمطيَّة البليدة التي كوَّنتها عن الأمِّ المثاليَّة، التي هي أمِّي. طبعًا، لم يجعلني هذا آخذ موقفًا سلبيًّا منها، على العكس جعلني هذا أحبُّ أمِّي أكثر، لأنَّها ببساطةٍ من لحمٍ ودمٍ، وليست صورةً جميلةً ثابتةً في إطارٍ أنيقٍ معلَّقةً على الجدار.

قالت أمِّي إنَّ دمشق التي تركتها أجمل من دمشق التي عادت إليها بعد ثلاثين عامًا، كلُّ شيءٍ تغيَّر في المدينة، كان الناس مختلفين، كانوا أفضل وأطيب. لكنَّ الذين استمرُّوا في العيش في دمشق، يقولون الناس هم الناس،

لم يتغيَّروا، أكيد تغيَّرت الظروف بتغيُّر الناس، وكبرت المدينة التي زاد عدد سكَّانها، وكبر المخيَّم وأصبح أكثر ازدحامًا، وزادت أهميَّته. لكن بقيت نوعيَّات الناس ذاتها، زمان كان الطيِّب والنذل والنصَّاب وغيرها، واليوم ذات الأنواع موجودةٌ، وإن زادت نسبة الرداءة بينهم، فما زال الطيِّبون هم أغلبيَّة الناس. أمِّي تصرُّ على أنَّ الناس الذين تقابلهم، لم يكونوا موجودين في دمشق عندما كانت شابَّةً. يبدو أنَّها خلال سنوات غربتها الطويلة نسيت مساوئ البلد واحتفظت بالجيِّد، وباتت صورة البلد أجمل من بعيدٍ، عندما عادت إلى الواقع أنكرته لأنَّه لا يشبه ما كانت عليه البلد التي تعرفها في خيالها الأميركيِّ، رغم أنَّها كانت تكرهها عندما كانت تعيش فيها، باعترافها وبشهادة إخوتها وموافقتها على صحَّة الشهادة. لكنَّها دافعت عن نفسها بالقول: «ما كنت بعرف البلد لما كنت عايشة فيها، عرفتها وعرفت حلاوتها وإيجابيَّاتها بعد ما غادرتها، ومش عيب أعترف بخطئي؟!»، كان من الجميل أن أتعرَّف على أمٍّ أخرى، وليست أمِّي هي الشخص الوحيد الذي تعرَّفت عليه، تعرَّفت على أقاربي وعرفت من أيِّ عالمٍ أتى والداي. والأهمُّ تعرَّفت على نفسي، وعرفت أنَّ داخلي فتاةً أخرى، غير تلك الفتاة المفسَدة، بحكم عيشها في عائلةٍ توفِّر لها كلَّ شيءٍ دون عناءٍ.

عندما جئت إلى دمشق لدراسة الطبِّ، لم أكن أكملت السابعة عشرة من عمري. وكانت الصدف وحدها هي التي فعلت ذلك، وهي صدفٌ كنت محظوظةً فيها على عكس إخوتي، الذين خسر كلٌّ منهم سنة دراسيَّةً عندما انتقل أهلي من أميركا إلى السعوديَّة. أمَّا أنا فعلى العكس كنت محظوظةً، كما تقول أمِّي، لأنِّي كسبت سنةً دراسيَّةً عندما انتقلنا من أميركا إلى السعوديَّة، وكسبت واحدةً أخرى عندما انتقلنا من السعوديَّة إلى مصر عندما رافقنا إخوتي لدراستهم في القاهرة. لذلك عندما ذهبت لدراسة الطبِّ كنت أصغر طالبةٍ في مجموعتي الدراسيَّة، وعمليًّا كنت ما أزال طفلةً. كبرت في الجامعة، وفهمت فيها، وجدت نفسي بين طلابٍ أكبر منِّي،

وجدت نفسي بين أولاد أغنياء البلد، أو أغنيائها ولصوصها الجدد. في سنواتي الدراسيَّة السابقة لم أنتبه إلى ذلك، كنت أشعر أنَّ الطلاب الذين يدرسون معي متقاربون بالكثير من الأشياء. درست في مدارس أجنبيَّةٍ بين أولاد أجانب، آباؤهم إمَّا موظَّفين أجانب في البلاد وإمَّا موظَّفين في البعثات الدبلوماسيَّة، فلم أشعر بالتفاوت الكبير، لأنَّ أبناء البلدان التي درست فيها، لم يكونوا أعدادًا تذكر في المدارس التي درست فيها. في دمشق، رأيت التفاوت الهائل بأمِّ عيني، بين طلَّاب الجامعة التي أدرس فيها، وشاهدت البذخ الذي يعيشونه، وبين طلاب الجامعات الحكوميَّة، الذين يعانون الأمرَّين، وهي الجامعات التي يدرس فيها الكثير من أقاربي الشباب. افتتحت الجامعات الخاصَّة في البلد لأولاد الأغنياء حصرًا، لأنَّ الآخرين غير قادرين على دفع رسوم هذه الجامعات، فالقسط لهذه الجامعات يعادل أكثر من الدخل السنويِّ لموظَّفٍ حكوميٍّ من الدرجة الأولى. وهي في الوقت ذاته عنوانٌ لانعدام العدالة في البلد، فالذي يريد أن يدخل كليَّة الطبِّ في الجامعات الحكوميَّة عليه أن يحصل تقريبًا على علاماتٍ كاملةٍ في امتحان الشهادة الثانويَّة، وهذا ما يحصل الطموحون من أولاد متوسِّطي الحال أو الفقراء عليه عادةً، والذين يفنون حياتهم في الدراسة، لا سيَّما في السنة التي تصادف الشهادة الثانوية، فلا يستطيع الطالب أن يحصل على هكذا مجموعٍ دون أن يدرس ليلًا نهارًا ليستطيع إنجاز طموحه، ويفعل الكثيرون ذلك دون أن يتمكَّنوا من الحصول على العلامات المطلوبة لدخول كليَّة الطبِّ. أمَّا بين أولاد الأغنياء فمن المستحيل الحصول على هكذا علامات، فهؤلاء لا يملكون الجلد اللازم للحصول على هكذا علاماتٍ، كما أنَّهم واثقون أنَّ أموال آبائهم قادرةٌ على حلِّ أيِّ مشكلةٍ يتعرَّضون لها، بما فيها الطموح الدراسيُّ دون الحصول على هذه العلامات، فمع علاماتهم المتواضعة يمكنهم التسجيل في كليَّة الطبِّ في الجامعات الخاصَّة، لأنَّ المال يتكفَّل بحلِّ المشكلة. والفقراء الأكثر اجتهادًا وذكاءً منهم يذهبون إلى كليَّاتٍ بائسةٍ،

لذلك كانت الجامعات الخاصَّة واحدةً من عناوين الظلم وانعدام العدالة في البلد. كان التباهي واحدًا من العيوب الكثيرة لطلَّاب جامعتي، وأنا بطبعي أكره التباهي، وأرى الناس بعيونٍ بريئةٍ، عندما كنت طفلةً صغيرةً في الفترة الأخيرة من عيشنا في أميركا، وأذكر ذلك كطيفٍ بعيدٍ. كان لي صديقةٌ سمراء في صفِّي، حاولت أمِّي إبعادي عنها بكلِّ السبل، سألتها: «ليش؟ أنا بحبها هي صديقتي حلوة وشاطرة»، حاولت إقناعي بأسبابٍ شتَّى للابتعاد عنها دون أن أفهم لماذا. احتفظت بصداقتي معها حتَّى مغادرتي أميركا. وأنا طفلةٌ لم أفهم موقف أمِّي من الطفلة، عندما كبرت فهمت أنَّ مشكلتها كانت مع لونها، وفي السعوديَّة عرفت أنَّ العرب عنصريِّين ولهم موقفٌ مسبقٌ من أصحاب البشرة الداكنة، أغلبهم يطلق على السود تعبير «العبيد»، وهو موقفٌ عنصريٌ متأصِّلٌ لديهم، رغم أنَّ ألوان الكثير من العرب لا تبتعد كثيرًا عن الأفارقة. وكانت أمِّي تحمل هذا التصنيف للسمر من أجل ذلك حاولت إبعادي عن صديقتي السمراء. في الجامعة وجدت نوعًا آخرًا من الانقسامات بين الطلاب، هذا مسلمٌ سنيٌّ، وهذا مسيحيٌّ، وهذا علويٌّ، وهذا درزيٌّ، وهذا اسماعيليٌّ... إلخ. لكنَّ هؤلاء الذين ينحدرون من عائلاتٍ غنيَّةٍ يتوحَّدون في مواجهة الآخرين الفقراء، ويتخذون موقفًا عنصريًّا منهم، بوصفهم أسياد البلد والفقراء عبيدهم، هم فقراء لأنَّهم كسالى، وليس لأنَّ آباء طلَّاب جامعتي سرقوا البلد وسرقوا ويسرقون آباء الطلَّاب الفقراء، وليصبحوا أغنياء أفقروا غيرهم. وفق المنطق المقلوب لهؤلاء، الفقر ليس مسؤوليَّة اللصوص الذين يسرقون البلد، الفقر مسؤوليَّة المسروقين.

لم أرغب في بناء علاقاتٍ واسعةً مع الطلَّاب في الجامعة، لأنَّ أغلبهم يعانون من عقد الاستعلاء على الآخرين، والتباهي بما تملك العائلة، وما يعمل الأب، أو أيَّ شركاتٍ يملك، أو أيَّ منصب يشغل، فأنا لم أحبَّ هذا النوع من العلاقات، لذلك حاولت اختيار القليل من الأصدقاء الذين يتشابه

وضعهم مع وضعي، حتَّى لا أقع في المشكلات، لا سيَّما وأنِّي لا أعرف البلد ولا أعرف البشر فيها. كنَّا عددًا قليلًا من الطلَّاب والطالبات الذين يحملون جنسيَّاتٍ أجنبيَّةً أميركيَّةً وبريطانيَّةً وفرنسيَّةً، وعندما عرف الآخرون أنَّنا نحمل جنسيات دولٍ أجنبيَّةٍ، بتنا بمنزلة صيدٍ للشباب الذين يريدون مغادرة البلد، أصبح الطلَّاب إمَّا ألطف من المتوقَّع بكثيرٍ أو أغلظ من المتوقَّع بكثير، إنَّها الحالة المتناقضة للوصول إلى الهدف نفسه. قرَّرت إغلاق قلبي، ولن أحاول إقامة أيَّ علاقةٍ مع شابٍّ قبل أن أنتهي من دراستي في دمشق، لأتجنَّب الارتباط بشخصٍ أقابله في الجامعة. نحن نقرِّر شيئًا، والحياة تقرِّر شيئًا آخر، وتأخذنا إلى مكانٍ لم نفكِّر في الذهاب إليه. لا تخضع قلوبنا لقراراتنا، ولأنَّ لها منطقها الخاصُّ، تتمرَّد علينا، وتلقي بقراراتنا في سلَّة المهملات، وتدفعنا دفعًا إلى الأماكن التي تريدها. وهذا ما كان مع قلبي الذي تمرَّد عليَّ في دمشق وحطَّم قراراتي السابقة، وشاء أن يخالفني ويجعلني أقع في الحبِّ. وضع القدر وائل في طريقي في مكانٍ لم يخطر لي أنَّه المكان الذي سأقع فيه في الحبِّ. عندما عرَّفتني صديقتي هناء عليه بوصفه طالبًا في صفِّي، وأوضاعه مماثلةٌ لأوضاعي، في أنَّ أهله يقيمون في السعوديَّة، وهو جاء إلى دمشق من أجل الدراسة. منذ لقائنا الأوَّل شعرت أنَّ بيننا الكثير من التشابه الشخصيِّ. ليس كوننا ضئيلي الحجم فقط، وعلى صغر سننا نظهر فوق ذلك أصغر من عمرنا، شعرت أنَّ هناك شيءٌ في عيون وائل تؤدِّي إلى روحه مباشرةً. لم يحاول أن يكون ثقيل الظلِّ ولا أن يكون غليظًا، تعامل ببساطة، ولم يضيف إلى اسمه أيَّ صفةٍ، أو يذكر والده أو عائلته أو يفتخر بمنصبٍ أو ملكيَّةٍ. شعرت أنَّه مختلفٌ عن الآخرين في الكليَّة، يشبه الناس في الشارع في طيبتهم أكثر ممَّا يشبه أولاد الأغنياء. لا أقول إنِّي وقعت بالحبِّ من أوَّل نظرةٍ كما يقولون، بل أخذ الموضوع بعض الوقت. كنت أراه يوميًّا طوال أيَّام الدوام في الجامعة، واعتدت عليه، بحيث أصبح جزءًا من روتين حياتي اليوميَّة. وفي امتحانات

الفصل الأوَّل، انشغلت بالدراسة، وعندما انتهت الامتحانات، كان علينا أن نذهب أنا وأمِّي وأختي إلى السعوديَّة لزيارة أبي هناك، شعرت أنِّي أشتاق له بقوَّةٍ، وعرفت أنَّ مشاعري تجاهه قد اشتعلت.

وائل الابن البكر لمحمد عيَّاش مهندسٌ مدنيٌّ سوريٌّ، عمل خمس سنواتٍ بعد تخرُّجه وهي سنوات الخدمة التي كان خرِّيج كليَّة الهندسة مجبرًا عليها في سورية، قضاها في شركة الإنشاءات العسكريَّة. ثمَّ غادر إلى السعوديَّة للعمل بعقد عملٍ كمهندسٍ مع بلديَّة مدينة جدَّة، بعد أربع سنواتٍ من العمل هناك، غامر بترك العمل مع البلديَّة، وافتتح شركته الخاصَّة، التي تعمل بتوريد المحطَّات الكهربائيَّة للحكومة السعوديَّة والقطاع الخاصِّ بالتعاون مع شركة سيمنس الألمانيَّة، وتعمَّقت شراكته مع سيمنس، حتَّى أصبح الرجل وكيل الشركة في السعوديَّة، ثمَّ في كلِّ دول الخليج العربيِّ. وكالته عن الشركة نقلت وضعه الماديَّ إلى الأعلى نقلاتٍ كبيرةً وسريعةً، من خلال السفر المتكرِّر إلى ألمانيا وافتتاح فرعٍ صغيرٍ لشركته في هامبورغ، حصل هو وعائلته على حقِّ الإقامة في ألمانيا. لكن وفق ما يقول وائل عن والده: «ما شفت أبي يومًا بيتعامل كرجل غني، وما سمعت منُه أيَّ شي عن الفخر بإنُه معُه مصاري كثير. طول عمري حسيت إنُه متواضع وظل هيك، وعاملنا على هذا الأساس، ما أعطانا أكثر ما بيأخذ ابن عيلة متوسِّطة الحال، وحاول تربيتنا على إنُه المال مهم، بس مش أهم شيء بالحياة، ما بيستحق إنُه الواحد يفخر فيه»، يقول وائل إنَّ قناعات والده الراسخة، جاءت من خلفيَّةٍ يساريَّةٍ، ففي أثناء دراسته الجامعيَّة، كان عضوًا ناشطًا في الحزب الشيوعيِّ-المكتب السياسيُّ المعارض بشدَّةٍ للنظام، والذي دفع أعضاؤه سنواتٍ طويلةً من أعمارهم في السجون عقابًا لهم على موقفهم من السلطة. ترك الحزب بعد تخرُّجه في الجامعة، وبقي خائفًا من الاعتقال بعد تركه الحزب بأن يعترف أحد أعضاء الحزب الذين كان على صلةٍ بهم عليه، وأن يذهب بسبب ذلك إلى السجن. كان الخوف من

الاعتقال السبب الرئيسيَّ لمغادرته دمشق بعد انتهائه من خدمة الدولة. فهو يعرف أنَّ مسؤوله الحزبيَّ المباشر لم يُعتَقَل، وبقي ملاحقًا لسنواتٍ طويلةً لاحقةٍ، وكان يتخفَّى في البلد، ولم تستطع أجهزة المخابرات اعتقاله، رغم بحثها الحثيث عنه. ومن حظِّه أنَّ هذا الرجل لم يُعتَقَل وإلَّا لكان اعترف عليه، وهذا مفهومٌ بفعل قسوة المخابرات وتعذيبها الوحشيِّ. عندما غادر محمد دمشق قرَّر عدم العودة إليها، لأنَّ أحد رفاقه القدامى في الحزب، عاد إلى دمشق بعد تركه الحزب بسنواتٍ عدَّةً، فكان أن اعتُقِلَ الرجل في المطار وأُرسِلَ مباشرةً إلى السجن، فاعترف على رفاقٍ كانوا معه في الخليَّة اعتُقِلُوا أيضًا واعترفوا على محمد، ما جعل أيَّ عودةٍ إلى البلد تعني الذهاب إلى السجن. يقول وائل عن والده: «إنُه العمل السياسي تحت الأرض والتضامن مع الفقراء والضحايا هو مكوِّن أساسي من تكوين أبوي العميق، ما تأثَّر بمال ولا بغنى. بعرف إنُه ما بيرد محتاج، بس ما بيحكي وما بدُه حدا يحكي عنُه. لإنُه معرفة الموضوع بيحرج المحتاج وهو ما بدو يتبجَّح، واللي بساعدهم لازم تبقى صورتهم قوية، لإنُه الحاجة ذل، وهو ما بدُه هالشي لحدا، لإنُه هذا الذل كان يمكن يكون مصيرُه المحتمل»، يضيف وائل بحسرة: «منشان كل هذا حاول تربيتنا كبشر أسوياء قدر الإمكان... أعتقد إنه لم ينجح»، يقول جملته الأخيرة ضاحكًا. لقد أعجبت بالرجل قبل التعرُّف عليه، ويبدو أنَّه نسيجٌ وحده، نموذجٌ لم يسبق لي التعرُّف على مثله، ولا أستبعد أنَّ وائل يبالغ في وصف والده، لأنَّنا نعتقد أنَّ أبوينا من نوع الملائكة، ولكن عندما نتعرَّف عليهم من موقعٍ آخر، نكتشف أنَّ لهم صورةً أخرى كنَّا نجهلها طوال الوقت، هذا ليس تشكيكًا بالرجل، لكن أعتقد أنَّ البشر لهم كبواتهم وأخطاؤهم وخطاياهم، لأنَّهم بشرٌ وليسوا ملائكةً.

اختار وائل دراسة الطبِّ بعد حصوله على الشهادة الثانويَّة من السعوديَّة، وكانت الجامعات الخاصَّة في دمشق المكان الأنسب له. لم يختلف مع والده على مكان دراسته كما حصل معي، دمشق المكان

الأنسب باعتقاد وائل أيضًا، فهو يحبُّ الحياة العائليَّة في بيت جدِّه الواقع في ركن الدين، والتي هي ضاحيةٌ من ضواحي مدينة دمشق. صحيحٌ أنَّه غادر دمشق صغيراً مع والده إلى السعوديَّة، لكنَّ الزيارات الطويلة في العطلة الصيفيَّة دون والده وفي الجوِّ المعتدل لدمشق المختلف عن جحيم صحراء السعوديَّة اللاهب كانا يشعرانه بالحريَّة، وهو ما صنع له حياةً أخرى في دمشق، حياةٌ أحبَّها وأحبَّ أن يعود إلى دمشق لاستكمالها من خلال دراسته الجامعيَّة، فهو يشعر بانتمائه إلى دمشق أكثر ما يشعر بانتمائه إلى السعوديَّة، رغم أنَّه عاش فيها جلَّ حياته، لكنَّها بلدٌ لا تمنح الغريب الإحساس بالانتماء إليها، حتَّى لو وُلِدَ فيها، فالجميع عَمالَةٌ عند سكَّان البلد، ولو قضى عمره في خدمة البلد، عليه مغادرتها بعد انتهاء عمله، أو وصوله إلى التقاعد. لا قانون في البلد يمنح المقيم الذي يقضي سنوات عمره فيها الحقَّ في الحصول على الجنسيَّة السعوديَّة بعد عددٍ محدَّدٍ من سنوات الإقامة. لذلك يبقى الغريب غريبًا في بلد يتَّسم بالغرابة. لم يسكن وائل في شقَّةٍ خاصَّةٍ في دمشق، بل سكن عند جدَّته التي بقيت وحيدةً بعد وفاة جدِّه، وتسكن معها وتساعدها عمَّته الأربعينيَّة التي لم يحالفها الحظُّ بالزواج، وهو هبط عليهم كهديَّةٍ ثمينةٍ عندما عرفتا أنَّه سيعيش معهما خلال دراسته الجامعيَّة في دمشق. عرفت هذه الأشياء منه على مراحل، وكما تعرَّفت على عائلته من خلال كلامه، تعرَّف هو على عائلتي من خلال كلامي. وفي زيارتي القصيرة للسعوديَّة التي عرفت فيها أنِّي وقعت في الحبِّ، شعرت بالضيق طوال الوقت، في البداية لم أعرف السبب، أو حاولت تجاهل السبب، ولكن حتَّى لا أكذب على نفسي، اعترفت لنفسي بمشاعري تجاه وائل، وفجأةً داهمني السؤال: ماذا عن مشاعره؟ لم أكن واثقةً من ذلك، فمعرفة مشاعر الآخرين يتَّسم بالريبة والشكِّ بالنسبة لي، رغم عشرات الإشارات التي تقول إنَّه واقعٌ في حبِّي، والتي حاول إظهارها بأشكالٍ عدَّةً قبل إجازة منتصف السنة، لكنَّه جَبُنَ أن يقول ذلك مباشرةً

وبوضوحٍ، فعدَدتُ الإشارات السابقة مجرَّد أوهامٍ عندي. في البعد انكشفت كلُّ تفاصيل العلاقة أمامي، وكأنَّه تجلٍّ إلهيٍّ. في أثناء وجودي في السعودية تحدَّثنا مرَّاتٍ عدَّةً على الهاتف، فهو بقي في دمشق ولم يغادرها لزيارة أهله في السعودية، وكان الحديث عاديًّا، تحدَّثت معه يوميًّا، وعندما لا أتصل به أو يتصل بي، أشعر بضيقٍ شديدٍ، وهو كذلك كما قال لي فيما بعد، لم يكن لهذا كلِّه سوى تفسيرٍ واحدٍ. عدت إلى دمشق بعد الإجازة، وفي اليوم الأوَّل لوجودي في الجامعة، عندما شاهدني، لم يتمالك نفسه، ركض باتجاهي فاتحًا ذراعيه، وجدت نفسي أبادله الحركة، ففتحت ذراعيَّ أيضًا، تعانقنا دون أن ينبس أيٌّ منَّا بأيِّ كلمةٍ، ما فعلناه قال كلَّ شيءٍ. عندما وجدت نفسي في حضنه، شعرت بدفءٍ وحنانٍ لم أشعر به من قبل، كان إعلانًا مدوِّيًا لحبِّنا أمام الجميع، وبطريقةٍ لم أتوقَّع أنِّي يمكن أن أقوم بها في حياتي.

منذ بدأت الدراسة في دمشق لم أحاول التعرُّف على المدينة، لأنِّي فكَّرت فيها كمدينةٍ عابرةٍ في حياتي، سنواتٌ دراسيَّةٌ عدَّةٌ وتنتهي العلاقة، لا شيء غير الدراسة. لم أفكِّر فيها كمدينةٍ تشكِّل منعطفًا في حياتي الشخصيَّة. وعندما تعرَّفت على المدينة، تعرَّفت عليها من خلال عيون وائل، أي تعرَّفت على المدينة التي تخصُّه، مدينته. أخذني إلى كلِّ الأماكن التي أحبَّها في دمشق القديمة، وهناك اكتشفت أنَّ الكثير من البيوت الدمشقيَّة القديمة قد تحوَّلت إلى مطاعم، وهو ما يعني استنزاف المدينة القديمة وجماليَّاتها، بتحويل التاريخ إلى موائد طعامٍ. أخذني إلى الميدان، حيث الطعام التقليديُّ الأكثر شعبيَّةً، من حمص وفول ومسبَّحة، وفوارغ وشاورما وحلويَّات شرقيَّة بكلِّ بهائها. كما عرَّفني على دمشق الحديثة، أماكن المتاجر الكبيرة مثل شام سنتر والمطاعم الغربيَّة في المنطقة الأغنى والأغلى في دمشق أبو رمانة، والتي كنت أعرف جزءًا كبيرًا منها. باتت دمشق القديمة مكاني المفضَّل، لا سيَّما مطعم «اليسار» الواقع في دمشق القديمة بالقرب من باب توما،

والذي يجمع الطعام الشرقيَّ مع الغربيِّ، بأجواء شرقيَّةٍ للبيت الدمشقيِّ الجميل الذي افتتح فيه المطعم، بسقوفٍ مزيَّنةٍ بالنقوش الهندسيَّة العربيَّة بألوانها الساحرة. بمعرفتي لهذه المناطق بتُّ أعرف أنَّ دمشق ليست مدينةً واحدةً، إنَّما هي مدنٌ، فهذه الأماكن التي تعرَّفت عليها، لا يستطيع الذهاب إليها سوى قلَّةٌ من السوريِّين. ومعرفتي جاءت من مكان سكني، حيث سكنَّا في بيت جدِّي الواقع في المخيَّم، ريثما تشتري أمِّي منزلًا جديدًا دون استعجالٍ، والمخيَّم مكانٌ للبؤس، صحيحٌ فيه سوقٌ كبيرٌ جعل بعض الناس فيه أغنياء، ولكنَّ هذه الصورة خادعةٌ، لأنَّ وراء هذا السوق بالأضواء الصاخبة، والازدحام الدائم فيه، هناك أحياءٌ كاملةٌ يسكنها البؤساء، وهؤلاء لا يستطيعون الذهاب إلى تلك الأماكن، ولا يستطيعون دفع فواتيرها، وأشكُّ أنَّهم يعرفون بوجودها أصلًا، فهي مكلفةٌ جدًّا بالنسبة لهم. كان التناقض الصارخ في الإمكانيَّات الماليَّة بين المكان الذي أعيش فيه، حيث الناس تعيش الكفاف، وبين المكان الذي أدرس فيه، حيث الشباب يبذِّرون المال كيفما اتفق. إنَّه الظلم الوحشيُّ مجسَّدٌ في بشرٍ من لحمٍ ودمٍ. عندما كنت أتحدَّث مع وائل على هذا التفاوت المؤلم بين البشر، كان يقول إنَّه ساخطٌ على الأوضاع في البلد، لأنَّ الكثيرين من أقاربه وأصدقائه يعيشون أوضاعًا سيِّئةً جدًّا، وهم من أجمل الناس ومن أقربهم إلى قلبه، ويضيف: «المفارقة اللي بتوجع، إنُه أكثر هؤلاء الناس، بيرفضوا أي مساعدة، لأنهم بيعتبروها نوع من شفقة بتهينهم، وتعالي من مانح المساعدة. وبيرفضوا حتى مساعدتنا إلهم، لإنُه ما بدهم يكونوا أقل منَّا، الشباب مش أقل منِّي، والآباء مش أقل من أبوي، وبيعتقدوا إنُه المال ما بيصنع مقامات، المحترم محترم معُه مال ولا ما معُه، هيك مقتنعين. هدلون شخصيَّات ساحرة... بتعرفي أوقات بخجل من إنُه أبي معُه مصاري. أكيد ما في شيء بعيب بالغنى، بس هو بساوي مشاكل بين البشر هُمِّي بغنى عنها»، وعندما سألت أمِّي هل كان الفقراء أكثر قبل ذهابها إلى أميركا. قالت: «دائمًا، كان

في فقراء بالبلد، لما سافرت كانت الحياة أبسط بالبلد، واليوم بس رجعت تفاجأت بالغلاء وتعقيدات الحياة. أوَّل ما حصلت على وظيفتي معلمة بالمدرسة بالرحيبة كان راتبي حوالي سبعمئة ليرة، هداك الوقت، كان الواحد بقدر بهذا المبلغ يستأجر بيت صغير ويعمل عيلة، ويوفِّر شوية مصاري آخر الشهر. واليوم الرواتب حوالي خمس وعشرين ألف ليرة، بس ما بكفُّوا لتأسيس عائلة، زادت الرواتب بالأرقام، بس صارت تشتري أشياء أقل. يعني الراتب اللي كنت أقبضه في نهاية السبعينيَّات بيشتري غراض أكثر بأضعاف من الراتب اللي بقبضوا معلم مثلي اليوم»، وعندما سألتها: «من وين جاب الأغنياء أموالهم؟»، ضحكت وقالت: «ما بعرف، اسألي خالك منير»، بقولها هذا أرادت إغلاق الموضوع.

تعاطفت مع البؤساء وكان يزعجني أنِّي غير قادرةٍ على فعل أيِّ شيءٍ من أجلهم، فالبؤس في كلِّ مكانٍ، حتَّى في الجامعة التي تجمع أولاد الأغنياء، تجد البؤس في المستخدمين المساكين الذين يقومون بأعمال التنظيف. قلت لنفسي، ليس عليَّ أن أحلَّ مشكلات البشريَّة، فهذه ليست مسؤوليَّتي الشخصيَّة. عدت للالتفات لدراستي، لعلِّي في يومٍ ما أجد الوسيلة لمساعدتهم ومساعدة غيرهم من البؤساء. سارت الدراسة على نحوٍ جيِّدٍ خلال العامين الأوَّلين، وسارت العلاقة مع وائل على نحوٍ جيِّدٍ مع بعض الخلافات هنا وهناك التي لم تؤثِّر على سير العلاقة أو على تقاربنا حتَّى بالنظرة إلى الحياة.

المظاهرات التي انفجرت في العام الثالث من دراستي في دمشق، غيَّرت كلَّ شيءٍ، بالنسبة لنا جميعًا، أنا وأمِّي وأختي، وأنا ووائل. رغم توصيات أبيه الصارمة، بألَّا يشارك في المظاهرات، لم يستطع وائل تنفيذ رغبة والده. وبعد ثلاث أسابيع بدأ يشعر بالقهر، أصدقاؤه وأقاربه الشباب في المظاهرات سعداء بقدرتهم على كسر خوفهم، والمطالبة بحريَّتهم، سعداء باحتجاجهم على سنواتٍ طويلةٍ من قمع الناس ومن نهبها، ومن سرقة

فرصها في العمل والحياة. هو وجد نفسه ممزَّقًا بين الالتزام بتعليمات والده وبين رغبته في المشاركة في المظاهرات ضدَّ الظلم والظالمين. وعندما أخبرني، أنَّه يرغب بالمشاركة في المظاهرات، خاف أن يكون رأيي من رأي والده، دُهِشَ عندما قلت له: «وأنا بدِّي شارك، بس ما بعرف كيف؟»، أضفت: «بنقدر نشارك مع بعض؟»، لم يصدِّق ما سمع، قال: «إنت بتحكي جد؟! إذا بدك، يوم الجمعة الجاي بننتظر المتظاهرين اللي بطلعوا من جامع الحسن في الميدان وبنمشي معهم»، كان سعيدًا بما هو مُقدِمٌ عليه، وكنت سعيدةً وغير خائفةٍ من خوض هذه التجربة الجديدة في حياتي.

كنت مرتبكةً، عندما أخذت الأذن من أمِّي للخروج يوم الجمعة وأنا خائفةٌ من ألَّا تسمح لي، أو أن تشغلني بشيءٍ ما يعطِّلني عن الذهاب. عدَدتُ هذا الموعد من أهمِّ المواعيد في حياتي، وكان كذلك بالفعل. انتظرت وائل قبل جسر المتحلِّق الجنوبي بحوالي خمسمئة مترٍ، قبل جامع الحسن من جهة المخيَّم. عندما وصل وائل كان متوتِّرًا، كان صوت خطيب الجامع يصل إلينا، سرنا باتجاه الجامع، وعندما وصلنا بالقرب منه وجدنا مئات رجال الأمن ينتشرون باللباس المدنيِّ حول الجامع، بعضهم يحمل عصًا، وآخرون يمثِّلون دور مدنيِّين موجودين مصادفةً في المكان، ولكنَّ العصيَّ أو المسدَّسات التي يخفونها ظاهرةٌ للعيان تحت ملابسهم، كنَّا في منتصف أيَّار، ذهب البرد وبات الجوُّ معتدلًا، والناس تلبس ملابس خفيفةً، رجال الأمن يلبسون لباسًا ثقيلًا ليخفوا أسلحتهم ما يجعل مظهرهم غريبًا. لم نكن نعرف ما الذي علينا فعله، ولم نعرف إذا كان المصلُّون سيستطيعون الخروج في مظاهرة في ظلِّ هذا الحشد الكبير من رجال الأمن. لم يكن المتظاهرون يخرجون من جامع الحسن فقط، فقد باتوا يخرجون من عشرات الجوامع في دمشق وفي العديد من المدن الأخرى، وقد حملت تلك الجمعة اسم «جمعة حرائر سورية»، وقبل يومٍ واحدٍ كان الأمن قد اعتقل المئات في بانياس وحمص وحلب ودمشق، والدبَّابات تحاصر معضميَّة

الشام ودوما. قلت لوائل: «خلينا نروح على الجهة الثانية، ونلف من بين الحارات، وبنستنَّى المتظاهرين هناك. لأنهم مش رح يمرُّوا من هون، شايف ما أكثر رجال المخابرات تحت الجسر»، قال: «فكرة جيِّدة»، مشينا والتففنا من الحارات المؤدِّية إلى الميدان. وبعد حوالي عشر دقائق كنَّا على الجانب الآخر من الجامع، وبدأنا نسمع أصوات المتظاهرين التي تهتف «حرية... حرية» قادمةً من بعيدٍ من قلب الجامع، ويحاول الأمن تفريق المتظاهرين بضربهم بالعصيِّ على باب الجامع. لم ينجح ذلك، وسرعان ما تجمَّع الرجال بعد الخروج من الجامع وبعيدًا عنه بحوالي مئة مترٍ فقط، وخرج العشرات الذين ينتظرون من الحارات الجانبيَّة، ومعهم خرجت الكثير من النساء، للالتحاق بالمظاهرة، ونحن كنَّا ضمن الملتحقين. شعرت بحرارة الأجساد من حولي، أجسادٌ متوتِّرةٌ، خائفةٌ تكسر خوفها بالصراخ بشعاراتٍ معاديةٍ للنظام ومطالبةٌ بحريَّتها، الوجوه سعيدةٌ رغم الخوف، إنَّه إحساسٌ التحدِّي الذي يعطي الحرارة العالية للأجساد المتوتِّرة والمتحفِّزة التي تعيش لحظات حريَّتها المنزوعة بالقوَّة من سطوة رجال المخابرات، وهذا التوتُّر والتحفُّز أصابني بالعدوى، وأخذت أهتف مع الجموع المنتشية بحريَّتها. كانت المظاهرة حاشدةً، ولم يستطع رجال الأمن الذي يحملون العصي تفريقها. وسارت الجموع باتجاه مستشفى المجتهد والأصوات تعلو «الشعب يريد إسقاط النظام»، لم تمضِ خمس دقائق إلَّا وسمعنا إطلاق النار من البنادق مباشرةً باتجاهنا من جهة مستشفى المجتهد قبل أن نشاهد رجال الأمن الذين انتشروا هذه المرَّة بأسلحتهم الرشَّاشة، على الفور سقط شابٌ بجانبي بعد أن أصيب بطلقةٍ في بطنه، التفتُّ أليه أريد أن أنحني لأساعده، لم أنهِ التفاتتي إلَّا وكان وائل قد أمسك بيدي وقال: «اركضي»، أطلقت رجليَّ للريح وأنا أنظر خلفي، لأشاهد الشبَّان قد انحنوا وحملوا الشابَّ الجريح وركضوا باتجاه شارع جانبي، وسرعان ما غاب المشهد عن عيني. انعطفنا أنا ووائل يمينًا وبتنا نركض بلا هدفٍ في منطقةٍ لا نعرفها، ورجال الأمن

يركضون وراءنا. لم يكن لدينا خطَّة هربٍ سابقةٍ، ولم نخطِّط جيِّدًا لما كنَّا سنفعله في مثل هذه الحالة، لقد قرَّرنا المشاركة في المظاهرة وهذا كلُّ شيءٍ ولم نحسب حسابًا للاحتمالات الكثيرة التي يمكن أن تحدث، كأن يصاب أحدنا بإطلاق النار علينا، كنَّا نريد التظاهر وكأنَّنا ذاهبان في رحلة ترفيه. كنَّا على الجانب الأيمن للمظاهرة وهذا ما جعلنا نركض باتجاه حارات الميدان، وسرعان ما وجدنا أنفسنا في أزقَّةٍ صغيرةٍ تزداد ضيقًا. كان وائل خلفي ويحثُّني لاهثًا على الإسراع، كلَّ لحظةٍ قائلًا: «اركضي»، وأنا أركض دون أن أنظر خلفي، وهو يركض خلفي، انعطفت في حارةٍ ضيِّقةٍ ولم أعد أسمع صوت وائل خلفي. ركضت حوالي عشرين خطوةً، نظرت خلفي لم أجد وائل ولا أيَّ شخصٍ آخر، وقبل أن أدير وجهي وأتابع ركضي وبسرعة خاطفةٍ خرجت امرأةٌ من باب بيتٍ في الحارة، أمسكت بي وأدخلتني إليه، وقالت: «اهدئي إنت بأمان»، لم أعرف أنَّ الحارة التي دخلت فيها مغلقةً، إلَّا بعد أن شرحت المرأة لي، ولو لم تدخلني بيتها لكنت في عداد المعتقلين والمعتقلات، كما قالت. عندما جلست كان قلبي يضرب صدري كأنَّه يريد الخروج، وشعرت أنَّ قدمي ما زالتا تركضان وتحملاني في هربٍ لا ينتهي. أحضرت لي المرأة كأسًا من الماء، شربت القليل منه، وأخرجت الموبايل من حقيبتي، وأردت الاطمئنان على وائل، قالت المرأة: «لا تتعبي حالك، بقطعوا الاتصالات يوم الجمعة بهاي المنطقة، حتَّى ما حدا يقدر يبث المظاهرات مباشرةً»، فعلًا حاولت الاتصال بوائل مرَّاتٍ عدَّةً دون جدوى، كنت أسمع صوت طنينٍ طويلٍ فقط.

انتظرت حوالي ثلاث ساعاتٍ في بيت تلك المرأة التي عرفت أنَّ اسمها حياة، امرأةٌ متزوِّجةٌ، ربَّة بيتٍ وعندها ثلاثة أولاد، بنتين وولد، وزوجها يملك محلًّا لبيع الملابس في سوق الحميديَّة. دار بيننا حديثٌ طويلٌ ومتشعِّبٌ، طوال الحديث كنت ساهيةً، جسدي هناك أمام المرأة التي أجلس مقابلها وأتبادل معها الحديث، وعقلي في مكانٍ آخر يبحث عن وائل

عبثًا، أحاول كلَّ ربع ساعةٍ الاتصال به دون جدوى، وأنظر في الهاتف كلَّ نصف دقيقةٍ. غادرت بيت المرأة بعد حوالي ساعةٍ من علمها أنَّ الأمن قد انسحب من المنطقة، عن طريق اتصال هاتفٍ أرضيٍّ، قال ذلك بلغة الإشارة «أصدقاؤنا رجعوا على البيت»، وهي تعني رجال الأمن والمخابرات المنتشرين في المنطقة. عدت إلى البيت بحلول المساء، تشاجرت مع أمِّي بسبب تأخُّري عن الموعد الذي اتفقنا عليه، وقضت ساعاتٍ قلقةً، لأنَّ هاتفي خارج التغطية أو مقفل. سألتني: «ليش قفلت موبايلك؟»، قلت: «أقسم بالله ما قفلت موبايلي، المنطقة التي كنت فيها ما كان فيها تغطية»، سألت: «أي منطقة بتقصدي؟»، قلت: «وسط البلد، في شارع أبو رمانة»، لم تصدِّقني وبقيت تجادلني، لتثبت أنِّي أكذب. لم أواصل النقاش معها، قلت لها: «فكري زي ما بدِّك»، تركتها وذهبت إلى غرفتي وأغلقت الباب على نفسي. اتصلت على هاتف وائل المرَّة بعد الأخرى، مع أنِّي أدركت أنَّه اعتُقِلَ، وإلَّا لسارع هو للاتصال بي. اتصلت على الهاتف الأرضي عند جدَّته قالت عمَّته: «طلع من الصبح وما رجع»، بكيت بحرقةٍ، شعرت أنِّي تسبَّبت باعتقاله، لولا تشجيعي له لما شارك في المظاهرة ولا تعرَّض للاعتقال. رغم معرفتي للوضع، لم أرغب في تصديق أنَّ وائل معتقلٌ، حتَّى اليوم التالي عندما سألتني هناء: «بتعرفي شو صار مع وائل؟»، وأجابت بنفسها عن سؤالها: «إنَّه معتقلٌ» عندما سمعت الكلمات من هناء شعرت وكأنَّه اعتقل في تلك اللحظة، فقد تمنَّيت أن يكون قد تأخَّر في الاتصال لأيِّ سببٍ، دون أن يكون قد اعتقل، ما تمنَّيته شيءٌ، وما حصل في الواقع شيءٌ آخر.

لم يطل اعتقال وائل، خرج من هناك بعد أسبوعين من الضرب المبرح. وهذا الاعتقال وضعه أمام مصيرٍ آخر، والده غضب جدًّا ممَّا أقدم عليه وقال له: «أنت أكيد بدك تقتلني؟! رح ترجع على أوَّل طيَّارة، وجيب معك وراق الجامعة، وكلِّف حدا من صحابك يبعتلك الباقي إذا ما خلصتها إنت. ما رح ترجع على الشام مرَّة ثانية»، كان كلام والده واضحًا وحاسمًا، فهو لا

يريد أن يخسر ابنه في الصراع الدمويِّ الدائر في البلد، وكان اعتقاله جرس إنذارٍ بالنسبة لأبيه لا يمكن تجاهله. فكان عليه اتخاذ القرار الذي يخلق واقعًا جديدًا، لا يكرِّر تجربة عذاب الاعتقال والخوف على فقدان ابنه التي خبرها مرَّةً أخرى. حاول وائل مناقشته، رفض والده الاستماع منه إلى أيِّ كلمةٍ. قال لي وائل: «بفكِّر ما أسافر لهناك. ما رح يظل متحكِّم بحياتي، على أساس إنَّه خايف علي. من حقِّي أقرِّر حياتي»، كان غاضبًا من والده. حاولت تهدئته وقلت: «كل الآباء والأمهات بيعتقدوا إنُه إحنا بنبقى صغار وما بنكبر ولازم يصحِّحوا لنا حياتنا الخطأ»، قال بانفعالٍ: «ما عدت صغير»، قلت: «بعرف، وبتقدر تتجاهل كلام أبوك وتبقى بالشام، بس شو الفائدة؟»، قال: «لازم يعرف إنِّي كبرت وما عدت ولد صغير اللي بيأمرُه، وبيستجيب»، قلت: «اهدأ، الانفعال ما بحل المشكلة، فكِّر بهدوء شو بدك تعمل»، لم أحاول اقتراح أيِّ حلٍّ خوفًا من عناد وائل، رغم أنِّي بتُّ خائفةً عليه، وأفضِّل أن يغادر البلد كما يقول والده. رغم اعتراض واحتجاج وائل سار الموضوع كما أراد والده، فبعد الكلام الحاسم من والده معه، سلَّط عليه كلَّ القوى الناعمة التي يحبُّها من أمِّه وجدَّته وعمَّته، بسبب هذه الضغوط أذعن لرغبة والده، وكنت الخاسرة الأكبر، لأنِّي لن أرى وائل بعد ذلك لوقتٍ طويلٍ.

بعد مغادرة وائل، لم تطل إقامتي في دمشق أيضًا. غادرتها بعد أشهرٍ قليلةٍ، لأنَّ أمِّي وأبي قرَّرا أنَّ الاستمرار العيش في دمشق ليس ممكنًا، الأوضاع تزداد خطورةً يومًا بعد يوم، والبلد تنحدر بسرعةٍ نحو مزيدٍ من سفك الدماء. استغربت أن يتجاهل العالم ما يجري في البلد، كأنَّه لا يعرف ما يجري فيه؟ أو لا يريد أن يعرف. كنت أتابع قناة CNN الأميركيَّة على نحوٍ رئيسيٍّ لأعرف ما الذي يجري في البلد، كان الخبر السوريُّ هامشيًّا وكأنَّ البلد ليست جزءًا من هذا العالم، والوحشيَّة التي يمارسها النظام في قمع المحتجين لا تُمارس ضدَّ بشرٍ من لحمٍ ودمٍ. تسامح العالم مع النظام، رغم

التهديدات اللفظيَّة التي لم ينفِّذ منها شيئًا، سوى عقوباتٍ عاقبت الناس، أكثر ممَّا عاقبت النظام الحاكم.

أصبحت حزينةً بعد رحيل وائل، فوجدت نفسي أقرب إلى هناء، التي عرفتها أكثر في تلك الفترة، وعرفت أنَّها شخصٌ آخر في الواقع، غير صورة البنت المدلَّلة التي يأخذها المرء عنها عندما يتعرَّف عليها أوَّل مرَّةٍ. فقد كانت ناشطةً مهمَّةً في «تنسيقيَّة دمشق» التي تدير الاحتجاجات في المدينة، وعضوًا في لجنةٍ سريَّةٍ لإيصال الأدوية إلى المناطق المحاصرة في الغوطتين الغربيَّة والشرقيَّة، وكانت تغامر بحياتها للوصول إلى الأماكن التي تحتاج إلى دواءٍ عن طريق الحواجز العسكريَّة أحيانًا، وعبر طرقٍ خلفيَّةٍ تلتفُّ من خلالها على الحواجز العسكريَّة، لتصل إلى الأماكن المحاصرة. وقد كان لي تجربةٌ مروِّعةٌ مع مجموعة إيصال الأدوية. بعد أن عرفت ما تمارسه من نشاطٍ، أخبرت هناء إذا احتاجوني في مهمَّةٍ، فأنا جاهزةٌ. في مطلع الصيف وكان مضى على حصار دوما حوالي أسبوعين، جاءت هناء إلى مكان جلوسي في مقهى الجامعة، وأخذتني خارج القاعة، وقالت: «في نقص كبير بالدوا لإنُه في كثير منصابين في دوما. وضروري يكون عندهم أنواع محدَّدة من الدوا خلصت. الدوا موجود بالشام ولازم يوصل لدوما بأسرع وقت. أنا عبفكر أروح أنا وإنت لهناك بهاي المهمَّة، شو رأيك؟»، كانت خطَّة هناء بسيطة، أن ترافقني كأختٍ حامل، مريضةٍ بمرض السلِّ المعدي، وهي تحمل حقيبة أغراضي، عائدتين إلى دوما لأنَّه ليس لنا مكانٌ آخر نذهب إليه. ويوضع مكان الحمل عند بطني كميَّةً مخفيَّةً من الدواء، وفي جلد الحقيبة التي تحملها هناء يوضع قسمٌ آخر. زُوِّدنا بهوياتٍ مزوَّرةٍ تقول إنَّنا من مواليد دوما، وأحد أعضاء مجموعتها رتَّب مكياجي وجعلني في غاية الاصفرار حتَّى كدت أصدِّق أنَّني مريضةٌ وأنا أنظر إلى نفسي في المرآة. زُوِّدنا أنا وهناء كلُّ واحدةٍ بمانطو طويلٍ وحجابٍ حتَّى نبدو كنساء دوما، وتركت

هاتفي المحمول وزَوَّدُوني بهاتفٍ محمولٍ آخر وبرقمٍ مختلفٍ عن رقم هاتفي.

عند الحاجر على مدخل دوما، أوقف الجنود سيَّارة التكسي التي نركبها، وهي سيَّارةٌ تعمل على خطِّ الحاجز، أخذ السائق منَّا أجرةً كبيرةً، لأنَّ المرور والوقوف على الحواجز خطرٌ ويأخذ وقتًا والكثير من سائقي التكسي لا يرغبون في هذا العمل. أمَّا آخرون فيفضِّلونه، لأنَّه يعود عليهم بمردودٍ كبيرٍ، لأنَّهم على علاقةٍ بالضابط على الحاجز، أو يعملون مخبرين، لأنَّ الكثير من سائقي التكسي في البلد يعملون في أجهزة المخابرات، والسيَّارات نفسها تعود ملكيَّتها إلى أجهزة المخابرات. لأنِّي مريضةٌ طلب السائق مبلغًا إضافيًّا أكثر عن المعتاد، فكان له ما أراد، كان من الواضح لنا أنَّه يملك علاقةً جيِّدةً مع الحاجز. عندما وقفنا على الحاجز شعرت بالخوف، ذَبُلَت عيوني ومثَّلت بكلِّ ما أملك من قدرةٍ دور المريضة التي على وشك الموت. عندما قال العسكريُّ على الحاجز: «انزلوا من السيارة»، ويقف عسكريٌّ آخر معه يريدون تفتيشها، ركضت هناء من الجهة الأخرى للسيَّارة، أنزلتني من السيَّارة وأنا أتهالك، نظر العسكريُّ إلينا نظرة شفقةٍ. قالت هناء: «الله يخليك، أختي مريضة بالسل، مشيِّنا بسرعة، هي رح تموت. وإنت بتعرف السل مرض معدي»، ارتبك العسكريُّ عندما سمع ما قالت هناء. التفت باتجاه الضابط الذي يقف على بعد حوالي عشرين مترًا جانب الغرفة الصغيرة الموضوعة فوق لوحٍ كبيرٍ من الاسمنت، وكأنَّ الغرفة جيء بها جاهزة إلى هذا المكان، وقال بصوتٍ يشبه الصراخ: «يا سيدي، في مرة مع أختها مريضة بالسل، شو أعمل؟»، قال الضابط من بعيد: «سل! أعوذ بالله. لمستهم؟» سأل الضابط. قال العسكري: «لا. يا سيدي. بس أخذت الهويات»، قال الضابط: «رجِّع الهويات، وروح غسِّل إيديك أحسن ما تعدينا يا جحش»، خوف العسكريِّ والضابط من المرض جعلنا نعبر أسرع ممَّا توقَّعنا. والسائق الذي أعطيناه أجرًا أعلى معتقداتٍ أنَّه على

علاقةٍ جيِّدةٍ مع الحاجز، لم يكن كذلك. عندما عبرنا الحاجز، لم أجرؤ على النظر خلفي، لأنِّي بتُّ شاحبةً فعلًا بسبب الخوف، وليس بسبب المكياج. بعد عبورنا الحاجز خلال دقائق صرنا في قلب دوما. هذا يعني أنَّ الجزء الأخطر من المهمَّة أُنجِزَ، كما اعتقدت. في نهاية منطقة الكورنيش انعطفنا يمينًا، وقبل أن ندخل دوما القديمة، نزلنا أنا وهناء من السيَّارة، وأكملنا طريقنا مشيًا على الأقدام، لم يكن البيت الذي نقصده قريبًا من المكان الذي نزلنا فيه، وذلك للتمويه، حتَّى لا يعرف السائق المكان الحقيقيَّ الذي نقصده. مشينا بين الحارات حوالي عشر دقائق، ودخلنا بيتًا وسط دوما القديمة، استقبلتنا امرأةٌ، تخلَّصنا من حمولة الأدوية، استرحنا قليلًا، وأكلنا بعض اللقمات من الجبنة والزيتون والزعتر، حضَّرتها المرأة على عجلٍ. بعدها كان علينا أن نغادر عبر المنطقة التي تقع خلف دوما القديمة، بعد بناياتٍ عدَّةٍ حديثةٍ، كان هناك بعض الأبنية العشوائيَّة، كان علينا عبورها، حتَّى نصل إلى طرف المكان، لتأتِ دراجاتٌ ناريَّةٌ لتعيدنا إلى أطراف دمشق. عند العصر تقريبًا دخلنا منطقة البنايات العشوائيَّة، شاهدنا في نهاية الشارع العريض للمنطقة، جنودًا يتجمَّعون بأسلحتهم. عندما رأيناهم، ركضنا أنا وهناء ودخلنا أوَّل بيتٍ وجدنا بابه مفتوحًا، وتمنَّينا ألَّا يكون أحدٌ من الجنود قد شاهدنا. تسارعت أنفاسنا من الخوف، جلسنا في أماكننا كأمواتٍ دون حراكٍ، حتَّى لا نلفت نظر الجنود. بعد أن هدأنا قليلًا، تحرَّكت هناء باتجاه الباب الذي دخلنا منه، نظرت باتجاه الجنود، قالت: «عبركبوا السيَّارات، شكلهم رايحين» قالت كلماتها بصعوبةٍ. قلت: «إن شاء الله» دون أن تخرج كلماتي من فمي، تمتمتها بيني وبين نفسي. ساد الصمت في المكان، ولم يتخلَّله سوى أصوات الجنود القادمة من بعيد، ينادون بعضهم للتحرُّك من المكان. بعد حوالي خمس دقائق سمعنا صوت أنين امرأةٍ قادمٍ من الطابق العلويِّ للبيت الذي اختبأنا فيه، كان منخفضًا ورتيبًا. نظرت إلى هناء التي نظرت إليَّ بدورها، سألتها بصوتٍ منخفضٍ: «سامعة

إلي أنا سامعتُه؟»، قالت: «سامعة، عينك على العساكر، وأنا رح شوف شو في»، أخذت أراقب الجنود الذين يغادرون على دفعاتٍ صغيرةٍ، كلَّما تجمَّعت مجموعةٌ جديدةٌ غادرت التي قبلها، كانت المغادرة بطيئةً شعرتها دهرًا. بعد ثوانٍ عادت هناء تلهث والدموع في عينيها وهي تقول «ديانا بسرعة. فوق في مرة مجروحة وعبتنزف»، اعتقدت بما أنِّي أدرس الطبَّ أستطيع مساعدة المرأة في الأعلى. ولم أعرف أيَّ نوعٍ من الإصابة تعاني. عندما ركضت إلى الطابق العلويِّ، وجدت امرأةً في حوالي الخامسة والثلاثين من عمرها، ملقاةً على جانب سريرٍ أغطيته في حالة فوضى ومصابةٌ بطلقين ناريَّين، واحدٌ في معدتها، والآخر في كتفها، وهذا الجرح ليس خطيرًا، لأنَّ الطلقة استقرَّت في عظم الكتف والطلقة ليست نافذةً إلى الجهة الأخرى من الكتف. استنزفت الإصابة في بطنها كميَّة كبيرةً من دمها، وكانت بقعة الدم على شراشف السرير تحتها تدلُّ على ذلك، ومن غير المعروف ما خرَّبته الطلقة داخل بطن المرأة، عندما دخلت من بطنها وخرجت من ظهرها، عرفت ذلك، عندما مددت يدي خلف ظهرها لأعرف إذا كانت الإصابة نافذةً. حاولت المرأة قول شيئٍ رغم آلامها، وقبل غيابها عن الوعي، لم أفهم شيئًا ممَّا قالته، هي قالت كلماتٍ غير مفهومةٍ وحاولت أن تشير بعينيها الدامعة والتائهة والمرعوبة إلى السرير. حاولت وقف النزيف بإغلاق مكان دخول وخروج الطلقة بقطعة قماشٍ نظيفةٍ، كان الوقت متأخِّرًا. وأنا أرفع فستان المرأة من أجل الوصول إلى الجرح في بطنها، عرفت أنَّ المرأة بلا لباسها الداخلي، ولمحت لباسها بين الفوضى على السرير، الذي يشير إلى صراعٍ عنيفٍ وقع فوقه حتَّى أصبح على هذا الوضع المريع. عندما شاهدتها على هذه الحالة، فهمت ما الذي حاولت قوله. بقيت أحاول وقف النزيف، وقلت لهناء عندما جاءت لتعرف ما الوضع: «والله ما بعرف، بدها مشفى، الرصاص مخترق جسمها، وبدها دم، بحاول أوقف النزف، بس هذا مستحيل»، حاولت هناء الاتصال مع أحد أعضاء التنسيقيَّات،

حتَّى يؤمِّن المساعدة للمرأة، كلٌّ ذلك كان بلا جدوى. وبعد حوالي نصف ساعةٍ أخرى من النزف، توقَّف نبض المرأة تمامًا وتوقَّف تنفُّسها. عندها تركت المرأة وتوقَّفت عن محاولة إنقاذها. سألتني هناء: «شو الوضع؟»، قلت وأنا أغرق في البكاء: «ماتت» احتضنتني هناء وبكينا معًا، وأنا أبعد يدي عن ملابسي وملابسها حتَّى لا تتلوَّثا بدم المرأة الذي كان على يدي جرَّاء محاولتي وقف نزيفها. سألت هناء: «شو رح نعمل بالمرة؟»، قالت «ولا شيء، رح نتركها، ورح يجي حدا ويكتشف جثتها بعد ما يطلع الجيش من المنطقة، إحنا ما بنقدر نعملها شي بعد ما ماتت. وإذا بقينا هون خطر علينا، لازم نرجع على البيت اللي كنَّا فيه»، نظرت إليَّ وقالت: «روحي اغسلي إيديك، لإنُه ما بتقدري تروحي هيك والدم على إيديكي»، بحثت عن المطبخ، وأخذت القليل من سائل الجلي وغسلت يديَّ جيِّدًا. ونزلت بسرعةٍ إلى الطابق الأرضي. كانت هناء تراقب الطريق، وعندما قالت: «راحوا»، أسلمنا أرجلنا للريح في طريق العودة إلى المكان الذي كنَّا فيها. عندما طرقنا الباب، كانت المرأة ذاتها في البيت، روت هناء ما جرى باختصارٍ للمرأة التي استمعت باهتمامٍ، وشرعت في البكاء، وتمتمت بأدعية، لم أتبيَّنها بوضوحٍ. وأنا جلست على الصوفا في صالة البيت، مصدومةً غير مصدِّقةٍ أنَّ المرأة ماتت بين يدي، وهي أوَّل شخصٍ أراه يموت بهذا القرب. شعرت بالرعب، وتذكَّرت كيف فقدت المرأة حرارة جسدها رويدًا رويدًا، حتَّى استنفذت كلَّ قوَّتها في العيش، أوَّل مرَّةٍ أرى شخصًا ينطفئ، نعم، تلك المرأة انطفأت أمامي، قوَّة الحياة خبت فيها أمام عيني.

خرجت المرأة من البيت وغابت حوالي ربع ساعةٍ، وعادت من جديدٍ. قالت: «لا تخافوا... رح ترجعوا على بيوتكم اليوم»، منذ اللحظة التي شاهدت فيها المرأة مستلقيةً وتنزف في بيتها، عرفت أنَّ ما أَقدَمتُ عليه ليس لعبةً من ألعاب الانترنت أتسلَّى بها، وأذهب بعد ذلك للنوم بهدوء. أدركت أن ما أَقدَمت عليه في غاية الخطورة، وبعدها أصبحت خائفةً

ومرعوبةً، ولازمتني صورة المرأة التي حاولت قول شيءٍ وهي تشير بعينيها اتجاه السرير لا تغيب عن ذهني، إلّا لتحلَّ مكانها صورة المرأة جامدةً وباردةً بعد أن لفظت أنفاسها الأخيرة. لم أعرف اسمها، ولم يكن الوقت مناسبًا لسؤالها، حتَّى لو سألتها، لم تملك القدرة على الإجابة. بقيت صورتها ملتصقةً بذهني، امرأةٌ أشعر أنِّي أعرفها جدًّا، وتموت بين يدي ولا أعرف اسمها، إنَّها عنوانٌ فاضحٌ لجريمةٍ ارتُكِبَت بحقِّ هذه المرأة وبحقِّ غيرها، والمجرم ينجو بفعلته، ويُحتَفَلُ به بين أناسٍ آخرين من البلد بوصفه بطلًا، إنَّها عنوانٌ للظلم المرّكب، لكنَّها عنوانٌ بلا اسمٍ. تناوبت صورتا المرأة على ذهني وألحَّتا، ليس خلال الساعات التالية فقط، بل استمرَّتا تلحَّان حتَّى اليوم.

بعد عودة المرأة التي لجأنا إليها، وكانت قد أخبرت الناشطين في دوما بوضعنا، ورتَّب هؤلاء الشباب خروجنا من دوما عبر الغوطة الشرقيَّة في طرقٍ ترابيَّةٍ إلى بلدة عربين. انتظرنا حلول الظلام، عندها رافقنا أحد الشباب من المدينة، أوصلنا إلى طرف دوما من جهة طريق عدرا الداخليِّ. عند ذلك الحدِّ كان علينا قطع الشارع، الذي يبدو مكشوفًا للحاجز العسكريِّ المقام في مدخل دوما، وهو المدخل الذي عبرنا منه عندما دخلنا دوما. ولأنَّ الشارع يقع في مدى بنادق القنَّاصين المتمركزين هناك، أخذنا الشاب لنقطع الشارع عند مجرى نهر صغيرٍ جافٍّ، بُنِيَ منفذان للمياه هناك حتَّى لا تفيض مياهه على الشارع في الشتاء، وهما عبارةٌ عن مجرورين كبيرين من الاسمنت يمرَّان تحت الشارع، والواحد منهما يسمح لنا بالمرور حبوًا من خلاله إلى الطرف الثاني من الشارع. قال الشاب: «رح نقطع الشارع من هون، حتَّى ما يشوفنا القنَّاص على الحاجز»، لم يكن لنا خيارٌ أنا وهناء سوى الإذعان لأوامر الشاب، كنَّا بعد هذه الرحلة في غاية الإرهاق، والخوف، والرعب، والاستسلام. كنت أسأل نفسي: «شو بعمل إذا اعتقلوني، رح تحميني جنسيتي الأميركيَّة من تعذيبهم؟»، أجيب نفسي:

«ومين رح يعرف أصلًا إنهم اعتقلوني؟! وشو رح يعملوا فيني؟!»، وتذكَّرت المرأة المجلَّلة بالدم في ذلك البيت وهي تشير إلى السرير، لم تكن بحاجةٍ لقول شيءٍ لأعرف أنَّهم اغتصبوها وأذلُّوها، ولم يكتفوا بذلك، فأقدموا على قتلها. لقد استباحوا المكان، وعاقبوها على وجودها في المكان. لا أعتقد أنَّها أدَّت أيَّ دورٍ، ولا يبدو أنَّها قاومت، أصابها الرعب بالشلل فاستسلمت لمصيرها، ولأنَّ الوحش يقرأ الخوف في عيون ضحيَّته، استباحوا جسدها، كما استباحوا بيتها، وكأنَّها شيءٌ من هذا البيت، ككرسيٍ أو طنجرة طبخٍ. «ما في شيء ببرِّر الوحشية، ولا شيء ببرِّر اغتصاب مرة وقتلها» أقول لنفسي، حتَّى لو أعلنت للعالم أنَّ هناك جرائم ترتكب في هذا المكان، لن يسمعني أحد، لأنَّهم لا يرغبون في رؤية ما يجري. أحزن لمثل هكذا مصائر، لكنَّ حزني لم ينقذ هذه المرأة، ولن ينقذ أيًّا من الضحايا. أحكي مع نفسي ولا أحد يسمع. أقول: «شو بيصير لو مسكوني واغتصبوني؟»، ترعبني الفكرة عندما تخطر على بالي، أحاول محوها من تفكيري بهزِّ رأسي بعنفٍ، دون أن أنجح في طردها. عندما قطعنا إلى الجانب الآخر من الطريق، ومشينا حوالي خمسمئة مترٍ بين الأشجار، كانت سيَّارةٌ مطفأة الأضواء في انتظارنا، ركبنا السيَّارة مع شابَّين لم نتبيَّن ملامحهما بسبب الظلام. طمأنانا وقاد أحدهم السيَّارة دون أن يضيء الأضواء، وبقي يقود السيَّارة على طرقٍ ترابيَّةٍ، بسرعةٍ بطيئةٍ حوالي الساعة، وبعد ذلك، خرج على طريق إسفلت وزاد السرعة دون أن يضيء الأضواء. قال أحد الشبَّان «قطعنا القسم الصعب، ورح نصل بعد شوي، ربع ساعة وبتكونوا بالشام»، وبعد قليل وصلنا بالقرب من بلدة المليحة كما قال أحد الشابَّين. أنزلانا من السيَّارة وطلبا منَّا الذهاب إلى سيَّارة تاكسي تنتظر على الجانب الآخر من الطريق. قال السائق: «صرتوا بأمان»، وأضاف: «الحمد لله على السلامة»، نزلنا من السيَّارة وركبنا التاكسي التي أضاءت أضواءها، وبعد حوالي الربع ساعة كانت التاكسي تسير بنا في شوارع أخرى غير تلك التي كنَّا فيها قبل ثلاث ساعاتٍ. شوارع أخرى، يعني

عالمٌ آخر، غير ذلك العالم الذي أتينا منه، والذي ليس فيه من هو قادرٌ على الحركة، القنَّاص يقتل كلَّ شيءٍ يتحرَّك. يقتحم الجيش المناطق، يعتقل من يعتقل، ويسرق الأشياء الثمينة، ويعتدي على النساء، ويعود منتصرًا. العالم الذي وصلنا إليه، لا يشبه العالم على الجانب الآخر من الجبهة، الحياة طبيعيَّةٌ، ازدحام السيَّارات، والشوارع مضاءةٌ وتعجُّ بالناس. وكلُّ شيءٍ يبدو طبيعيًّا وعاديًّا، كأنَّنا انتقلنا من بلدٍ إلى آخر أو من عالمٍ إلى آخر. لم أصدِّق ما أشاهد هنا، كما لم أصدِّق ما شاهدت هناك. كان على سائق التاكسي أن يقلَّنا إلى وسط دمشق لأسبابٍ أمنيَّةٍ، ومن هناك أذهب أنا وهناء كلٌّ واحدةٍ إلى بيتها. عندما نزلنا من السيَّارة في وسط منطقة الحمراء في دمشق، نظرت إلى هناء التي نظرت إليَّ بدورها، وتعانقنا وشرعنا في البكاء. قبل عودتنا إلى البيت، كان علينا انتظار أحدهم بالقرب من مطعم مأكولات الحمراء للوجبات في نهاية شارع الحمراء، لنستعيد هواتفنا ونعيد الهواتف التي كانت معنا والتي لم تسعفنا في شيءٍ.

عندما استعدت هاتفي المحمول وفتحته، وجدت عشرات الاتصالات والرسائل من أمِّي القلقة عليَّ بانتظاري، لقد قلت لها: «رح أرجع الظهر»، ولم أعتد الكذب عليها، فكان تأخُّري دون اتصالٍ لطمأنتها غريبًا في الأجواء التي تعيشها البلد. سابقًا في حال تأخَّرت لأيِّ طارئٍ أتصل بها لأخبرها أنِّي سأتأخَّر. هذا التأخير لم يكن مبرَّرًا بأيٍّ من مقاييس أمِّي، وكان عليَّ أن أجد سببًا مقنعًا حتَّى أخفِّف من غضبها. لم يكن أمامي سوى القول إنِّي كنت في المستشفى مع هناء بعد أن دهستها سيَّارةٌ وهرب السائق، أعرف أنَّ هذا التبرير غير مقنعٍ، وهو لا يمنع اتصالي هاتفيًّا، إذا كان الهاتف المحمول معطَّلًا من الممكن استخدام الهاتف الأرضيِّ. وقرَّرت في حال اعترضت أمِّي، سأقول لها: «هذا اللي صار، وما بعرف ليش»، وقرَّرت ألَّا أخبرها بما فعلته ذلك اليوم مهما كان الثمن، وسيكون سرِّي الذي لن يعرفه أحد سوى هناء. والتي أخبرتها طبعًا، بما سأقوله لأمِّي، حتَّى تكون في الصورة في حال اتصلت

أمِّي لتتأكَّد من صدق كلامي. بالطبع، لم تصدِّق أمِّي ادعاءاتي، ونالني من التوبيخ ما يكفي حياتي كلَّها، وبات عليَّ أن أقدِّم خطَّة تحرُّكي التفصيليَّة كلَّ يومٍ. وسألت أمِّي في نهاية التوبيخ: «كإنك ما بتعرفي اللي بصير بالبلد؟!»، لم أردَّ عليها على غير عادتي، لأنِّي أعرف أيَّ وضعٍ كانت عليه وهي تحاول الاتصال بي المرَّة بعد الأخرى. كنت في غاية الإرهاق، أنتظر اللحظة التي تنتهي أمِّي من توبيخي حتَّى أنام. لم أكن قادرة على الوقوف، عندما قالت: «انقلعي من وجهي»، شعرت بالفرج، ركضت إلى غرفتي، وسرعان ما نمت بملابسي المتسخة، لم أكن قادرةً على فعل أيِّ شيءٍ، حتَّى على نزع ملابسي.

عندما ذهبت إلى غرفتي، كان آخر ما شاهدته أمِّي وهي تضرب كفًّا بكفٍّ لأنَّها لا تفهم ما الذي يجري معي. ما إن استلقيت على سريري حتَّى وجدت نفسي في عالمٍ آخر، هدَّني الخوف أكثر من التعب في ذلك اليوم، فنمت هربًا من خوفي أكثر منه تعبًا. بعد أقلَّ من ساعتين صحوت من نومي فزعةً، فقد شاهدت كابوسًا مرعبًا. المرأة الجريحة نفسها التي شاهدتها في دوما، وهي تقف في الغرفة ذاتها، يقتحم عددٌ من الجنود غرفتها، يسخرون منها، يعرُّونها من الأسفل، ويتناوبون على اغتصابها، لم تقاومهم فهي تحت تأثير الصدمة. وعندما ينتهون من فعلتهم ويشرعون في المغادرة، تصحو المرأة من صدمتها، وتعرف ما الذي جرى لها، فتهجم عليهم بمزهريَّة موضوعةٍ على طاولةٍ صغيرةٍ إلى جانب السرير. وقبل أن تتحرَّك من مكانها، يُطلِقُ أحد الجنود النار عليها، فتسقط على السرير مضرَّجةً بدمها. عندما دوت الطلقات، صحوت من كابوسي مذعورةً. أكمل الكابوس لأعرف ما لم تستطع المرأة قوله لي في دوما، كلُّ الدلائل في الغرفة التي شاهدتها تقول إنَّ هذا الكابوس جرى في تلك الغرفة بتعديلٍ طفيفٍ هنا أو هناك. لم تغادرني صورة المرأة المغتصبة والقتيلة طوال أشهرٍ، وتكرَّر الكابوس الذي شاهدته كلَّ أيَّامٍ عدَّةً، فأصحو فزعةً من نومي بحلقٍ جافٍّ. لم أستطيع قول ما جرى لأحد، ولا حتَّى لأختي سوسن التي تعيش معي في

البيت ذاته. ولم أستطع التخلُّص من تلك الصورة التي تلازمني إلى اليوم بين الحين والآخر. هزلت صحَّتي ومرضت خلال الأيَّام التالية، ولم أتمكَّن من الذهاب إلى الجامعة. وعندما جاءت هناء لزيارتي في المنزل، وبعد التحقيق المفصَّل الذي خضعت له من أمِّي. وجدت الفرصة لأقول ما بي، أردت أن أشرح لها ما أشعر به، فهي كانت رفيقتي في هذه الرحلة وتعرف التفاصيل، وهي الوحيدة التي أستطيع الحديث معها في الموضوع.

أمسكت بيدها وذهبنا إلى غرفتي، أجلستها على سريري وجلست مقابلها، كان وجهي متعبًا ومصفرًّا وبدا كأنَّه استمرارٌ لمكياج السلِّ الذي استخدمته من أجل الدخول إلى دوما، وقلت: «هناء، المرأة ما بتغيب عن بالي، مش قادرة أطردها من رأسي. طول الوقت، يا بشوفها بتنزف يا بشوفها ميتة. واللي بخوِّفني أكثر، أنُه بشوف العساكر وهني عبيغتصبونها، والكابوس كل يوم بتكرَّر، وهادا بصيبني بالرعب»، ربَّتت هناء على كتفي وقالت: «ولا يهمك، حاسة فيكي، وبعرف الحالة اللي بتمرِّي فيها، وضع صعب، وأنا مش أحسن حال منِّك، كل شيء رح يصير أحسن، بس بدنا شويِّة وقت»، قلت: «حاسة حالي ما رح أطلع من هاي الحالة بحياتي، بسأل شو اللي عملتُه بحالي؟! فكَّرتها مغامرة حماسية وسريعة، وبرجع على البيت بعد ما بكون سجلت اعتراض على اللي ما حابيتُه، كأنُه ما صار شي. بس عرفت إنُه الدم مسألة ثانية، سمعت عن الدم اللي بيسيل في المظاهرات، صابني إحساس بالتضامن مع الجرحى والقتلى. أما إنُه مرة بتسقط جريحة بجانبي وبتموت بين يدي، هذا شي مش قادرة أتحملُه. هناء، ما عبقدر أخلص من رعبي، بحس بكل لحظة كان يمكن أنا أكون محلها، والفكرة نفسها بتصيبني بالرعب. بتساءل، كيف بكون الحال لو تحول هذا لواقع؟! أنا عبموت من الخوف، مرضي جاي من خوفي اللي مش قادرة أتخلَّص منُه. ومش عارفة كيف عملت هيك بحالي؟!»، لم تجادلني هناء، حاولت تهدئتي فقط، وقالت: «بفهم شو بتقولي، لا تلومي حالك، اللي صار مش خطأك ولا

جريمتك، وما كنتي بتقدري تعملي شي للمرة هناك. العساكر وسيادهم هم المجرمون اللي قتلوها، ولا تلومي نفسك على محاولتك المساعدة»، قلت: «ما كان صح حط حالي بهيك موقف، وما كان لازم سوي اللي ساويته»، وكرَّرت الجملة الأخيرة مرَّةً أخرى. قالت هناء: «أنا آسفة، ما كان لازم أشركك معانا»، قلت: «هذا مش خطأك، هو خطأي أنا طلبت هالشي»، قالت هناء: «على كل حال، هذا مش رح يتكرَّر. بس اللي بدي قولُه، إنو إذا توقَّفنا إحنا هذا ما بيعني إنُه القتل رح يتوقَّف في البلد»، خفَّفت زيارة هناء عنِّي الكثير، لأنِّي استطعت الحديث عمَّا جرى، بقيت صورة المرأة ترافقني طوال الأشهر الأخيرة من وجودي في دمشق، وأخذت تتباعد بعد أن غادرت دمشق، لكنَّها بقيت حاضرةً، ولا أعتقد أنِّي سأستطيع التخلُّص منها فيما تبقَّى من عمري.

زادت الأماكن المشتعلة في البلد، وبات محيط دمشق في الغوطتين الشرقيَّة والغربيَّة مسرحًا ليس لمظاهراتٍ فحسب، بل ولاشتباكاتٍ مسلَّحةً، حتَّى في الأماكن القريبة جدًا من المخيَّم في منطقة القدم والحجر الأسود. وبات من الواضح للجميع، أنَّ الأوضاع ستزداد سوءًا. أمِّي التي أغمضت عينيها أوَّلًا عن هذه التطوُّرات وعَدَّت ألَّا شيء مهمًّا يحدث في البلد، والبلد تعيش أوضاعًا عاديَّةً، خوفًا من عودتها للترحال من جديدٍ والبحث لنا عن جامعاتٍ جديدةٍ للدراسة، فتحت عينيها على واقعٍ جديدٍ. طلب أبي من أمِّي أن نأتي جميعًا إلى السعودية لأنَّ الوضع في سورية بات خطيرًا جدًّا. كانت تقول له: «ما ترد على هذا الحكي، إشاعات، أنا عايشة هون وشايفة كل شي، ما في شي عبصير»، لكنَّ هذه المكابرة لم تصمد طويلًا، رغم ذلك الإقرار، إلَّا أنَّها تعاملت وكأنَّها ستعود بعد أيَّامٍ، فاستأجرت مكانًا لسيَّارتنا، لتخفيها هناك في أثناء غيابنا، وركَّبت بابًا من حديدٍ للشقَّة التي نسكن فيها لحمايةٍ أكبر من السرقة، حتَّى تحافظ على الأغراض التي نقلتها من السعودية، لعلَّنا نعود قريبًا، ولم تكن تتوقَّع ما سيحصل لاحقًا.

حزنت جدًّا عندما غادرت دمشق، شعرت أنَّ ديانا التي جاءت إلى دمشق قبل عامين ونصف ليست هي ذاتها التي تترك دمشق. المدينة التي ظننت أنِّي سأمرُّ بها مرور الكرام، وستكون مجرَّد مرحلةٍ انتقاليَّةٍ للوصول إلى أميركا، غيَّرتني وغيَّرت مسار حياتي كلَّه. ولم أكن أعرف أنَّ الحياة تأخذنا في الطرق التي تختارها، ولا نذهب بالطرق التي نعتقد أنَّنا نختارها. لو قال لي أحدهم: «حياتك القادمة ما رح تكون في أمريكا»، لكنت ضحكت من كلِّ قلبي، وقلت له: «أنت ما بتعرف شي، ولا بتعرف شو بدي»، صحيح أنِّي كنت أعرف ما أريد، لكنَّ الحياة أخذتني بعيدًا عمَّا أريد، ولم أمانع أن أذهب في هذا الطريق.

غادرنا دمشق على وقع خلافٍ بين أمِّي وخالي منير، الذي كانت علاقته مع أمِّي في غاية المتانة، وهو الذي أقنعها بالسكن في بيت جدِّي ريثما تشتري البيت الذي يناسبنا، طالما أنَّ البيت فارغٌ ولا أحد يسكنه. وهذا السبب الرئيسيُّ الذي جعلنا نسكن في بيت جدِّي، لأنَّ أمِّي بحثت عن بيت أجرةٍ نسكن به ريثما ترتِّب بيتًا جديدًا، لكنَّها لم تجد ما يناسبنا. جاء الخلاف بينهما، عندما طلب خالي منير من أمِّي أن تعطي مفاتيح المنزل لخالي سعد المهجَّر من دوما ويسكن عند خالتي بيان. وبما أنَّنا مسافرون من الأفضل أن يسكن خالي سعد في بيت جدِّي. رفضت أمِّي الفكرة مطلقًا، وبطريقةٍ صاخبةٍ، وسافرنا إلى السعودية دون أن يأتي خالي منير لوداعنا كالعادة. عندما تدخَّلت لأبدي رأيي قلت: «ماما، أعطي المفتاح لخالي سعد، إذا مو منشانُه، على الأقل لأنُه خالي منير طلب منك»، لم تناقشني بالموضوع، قالت: «اخرسي أنت، وما تتدخلي بالموضوع»، كلَّما جاء ذكر خالي سعد، حضر رعبي وخوفي اللذان عشتهما في زيارتي الرهيبة إلى دوما، التي جاءت قبل لجوء خالي سعد من دوما إلى المخيَّم بأقلَّ من شهرٍ، لأنَّ دوما باتت محاصرةً من كلِّ الجهات، والدخول إليها والخروج منها عن

طريق الحواجز، بات الجحيم بعينه. وتعود صورة المرأة التي ماتت بين يدي لتهاجمني من جديدٍ، وتجلب الكوابيس إلى ليلي وتمنعني من النوم.

قبل سفرنا، شعرت أمِّي أنَّها على خطأٍ، لكنَّ كبرياءها منعها من الإقرار بالخطأ والتراجع عنه، وكان غضبها الدائم المؤشِّر على ذلك، وهذا ما يكون عليه حالها عندما تقوم بشيءٍ خاطئٍ وليست قادرةً على التراجع عنه. لم تجرؤ على إخبار أبي بما جرى قبل سفرنا إلى السعودية، ولو أخبرته لكان وقع الخلاف أخفَّ، لأنَّها ستتراجع قبل أن تسافر، ولن يحتاج أحدٌ إلى تحطيم الباب للدخول إلى المنزل. لكلِّ واحدٍ منَّا حماقاته، وهذه كانت من حماقات أمِّي الكبرى وفي لحظةٍ حسَّاسةٍ ومصيريَّةٍ في بلدٍ مشتعلٍ. ما كان عليها أن تختلف مع أحدٍ، طالما أنَّنا سنسافر ولا نعرف هل سنلتقي بهؤلاء الأشخاص مرَّةً أخرى أم لا، كيف إذا كان هؤلاء الناس عائلتنا ويمرُّون في محنةٍ صعبةٍ؟! كما توقَّعت عندما شرحت أمِّي الموقف لأبي غضب بشدَّةٍ. وعندما بدأ بتوبيخها انسحبت إلى غرفتي. عرفت فيما بعد أنَّ أبي أجبر أمِّي على الاتصال بخالي سعد لتعتذر منه، وتطلب منه كسر الباب والسكن في المنزل، وكان هذا الحلَّ، لكنَّه لم يَشفِ الجروح التي تسبَّبت بها أمِّي في لحظةٍ حرجةٍ.

قضيت الأشهر الأربعة التي انتظرت فيها بدء دراستي من جديدٍ في تركيا في متابعة الأخبار القادمة من سورية، ومن دمشق تحديدًا، كما قضيت الكثير من الوقت على الهاتف مع وائل الذي سبقني وانتقل لإكمال دراسته في القاهرة. ازدادت أوضاع أبي الصحيَّة سوءًا، فقد تسبَّبت إبر الأنسولين التي يأخذها، بتعطيل عمل الكليتين عنده، وبات بحاجةٍ إلى غسلهما، بدأ بمرَّةٍ واحدةٍ في الأسبوع، وتحوَّل إلى مرَّتين. وعندما انتقلنا إلى تركيا، لم يقبل أبي أن نذهب وحدنا إلى هناك، فقرَّر أن ترافقنا أمِّي، وقال إنَّه قادرٌ على تدبُّر وضعه الصحيِّ والحياتي، واعتاد على غسل الكلى الذي يقوم به الأطباء في المستشفى الذي يعمل به. قالت أمِّي له: «إنت

محتاجني أكثر من البنات»، قال: «لا، المسألة بسيطة، لا تشغلي بالك»، منذ توقَّفت الكليتان عن العمل عند أبي، بدأ وأمِّي البحث عن حلول، لم يكن هناك سوى حلٍّ من اثنين: الأوَّل، أن يبقى يغسل الكليتين مرَّتين بالأسبوع، ويمكن أن يستمرَّ هذا لربع قرنٍ، وهو وضعٌ مؤلمٌ وصعبٌ ومملٌّ، عندما يطول كلُّ هذه المدَّة. الثاني، أن يحصل على كليةٍ من متبرِّعٍ (أي أن يشتري كليةً من أحدٍ يحتاج إلى المال) وبحث أوَّل مرَّةٍ في القاهرة لعلَّه هناك يحصل على كليةٍ جديدةٍ. عندما عرفت أنَّهم سوف يذهبون إلى القاهرة، طلبت منهم أن أسافر معهم إلى هناك، فلم يعترضوا. وعندما قلت لوائل، أنَّني سأزور القاهرة بعد شهرٍ، كاد يطير من الفرح، بعد فراق أكثر من عامٍ لم نلتقِ خلاله. وفي الاتصال الثاني، قال لي وائل: «حكيت مع أبوي منشانك، وقلت إنِّي بحبك وبدي أبقى معك طول عمري»، قال: «زي ما بدك، هاي حياتك وأنت بتقرِّر مين تكون شريكتك فيها، وبتقدر تتزوَّج كمان ما عندي مشكلة. ولما عرف أنكم جايين على القاهرة، طلب منِّي أتعرَّف على أهلك، وأطلب منهم تحديد موعد لما يرجعوا على الرياض، حتَّى يجي هو وإمِّي يطلبوا إيدك من أهلك»، طرت من الفرح، وقلت: «عبتحكي جد، ولا بتتمسخر عليّ؟» قال: «أقسم بالله عبقول الحقيقة، وما في ولا كلمة كذب»، أخبرت أمِّي بكلِّ ذلك قالت: «اتركي لي الموضوع»، أعرف أنَّها تريد أن تسأل أبي قبل أن تقول لي أيَّ شيءٍ. وبعد أيَّامٍ قالت: «أوكي، رح نقابل الشاب في القاهرة».

شعرت الوقت الذي يفصلني عن زيارة القاهرة طويلٌ جدًّا، أردت اختصاره، لكن لا أعرف كيف. لم أكن مشتاقةً للقاهرة التي عشت فيها أربع سنواتٍ من عمري، إنَّما مشتاقةٌ لوائل، الذي زاد حبُّه في قلبي بعد مغادرته دمشق، بسفره ترك فراغًا كبيرًا لم أكن أشعر به وهو بجانبي. ونحن البشر نعتاد على الأشياء في حياتنا، ولا نكتشف أهميَّتها إلَّا عندما نفقدها. وهذا ما أصابني مع وائل، كنت قد أدمنت عليه قبل مغادرته دمشق دون أن

أنتبه، وفجأةً فقدته، وبات المكان فارغًا دونه. لكلِّ هذه الأسباب جاء لقاؤنا في القاهرة عاصفًا. تفقَّدته، تفقَّدت عينيه، تفقَّدت وجهه بيدي، وأصابع يده، كنت خائفةً أن يكون شيئًا ما قد تغيَّر فيه، وجدت كلَّ شيءٍ مكانه، حتَّى مكاني عنده. ذهبنا إلى وسط البلد، وشاهدت الحسين ومقهى الفيشاوي، بعيون الشابَّة وليس بعيون الطفلة، لم أحبَّ ذلك المقهى، فأنت لا تستطيع الجلوس فيه والتحدُّث بثلاث كلماتٍ بسبب إزعاج الباعة الذين يحملون أغراضهم ليبيعوها للسيَّاح، الذين كادوا يختفون بعد ثورة 25 يناير ووصول محمد مرسي مرشَّح الإخوان المسلمين إلى الرئاسة في مصر. يحدث هذا الإزعاج من الباعة في كلِّ المقاهي المفتوحة في القاهرة، لذلك أحببت مقهى نجيب محفوظ والمغنِّي صاحب الصوت الرائع الذي يغنِّي هناك للمطربين المصريِّين الكبار من أمثال محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم، والأهمُّ أنَّ الباعة الجوَّالون لا يستطيعون دخول هذا المقهى.

قضيت أربعة أيَّامٍ رائعةً في القاهرة مع وائل، وكنت سعيدةً لأنَّ اللقاء بين وائل وأهلي جاء إيجابيًّا، وموقف الرضا واضحٌ على وجهيهما، رغم تعب أبي من مرضه. وعندما سأل وائل أبي: «بنقدر نجي أنا وأهلي عندكم في الرياض لنطلب إيد الآنسة ديانا؟»، قال أبي: «أكيد، البيت بيتكم، وبتقدروا تيجوا وقت ما بدكم، بس إلي شرط واحد، ما في زواج قبل ما تتخرَّج ديانا من الجامعة»، قال وائل: «أبي رح يحكي معك إذا ما عندك مانع لتحديد الموعد»، قال أبي: «بكل سرور»، عندما خرجنا من الفندق الذي ننزل فيه أنا وأهلي. أخذت أسخر من جدِّية وائل مع أبي. قلت له: «عجبتني كلمة آنسة... ليش ما قلت الدكتورة؟ سنعيد اللقطة وتعيد الطلب»، خبط رجله في الأرض وقال: «خلص. ما صدقت خلص الموقف قدام أبوكي، مت من الخوف، وكأني بخوض معركة»، ضحكت من كلِّ قلبي وقلت: «لنحتفل» ردَّ: «نعم، لنحتفل».

كان اللقاء الهامُّ الثاني في القاهرة هو اللقاء بين أمِّي وخالي منير، فقد غادرنا دمشق دون أن نودِّع خالي منير بسبب الخلاف بينهما. ومنذ ذلك الوقت لم يلتقيا، وكان هذا اللقاء الأوَّل الذي كسر حاجز الجليد بينهما رغم توتُّر اللقاء. بعد مغادرتنا لدمشق بأشهرٍ عدَّةً، غادر خالي منير دمشق إلى القاهرة ليعمل في وكالة أنباءٍ هناك عن طريق أصدقاء له، بعد أن توقَّفت الأعمال في دمشق. كان اللقاء عاصفًا، ولولا مرض أبي لما جاء خالي منير لرؤية أمِّي، كما قال، كان غاضبًا جدًّا من أمِّي. وهو لم يقضِ وقتًا طويلًا معنا. التقيت به عندما اجتمع مع أبي وأمِّي، كانت عندي رغبةٌ شديدةٌ لنجلس معًا، وأسمع آراءه بما يجري في البلد الذي تركناه. لم نملك الوقت الكافي للخوض في الأحاديث حول كلِّ ما أريد أن أتحدَّث معه به. انتحيت به جانبًا، وقلت له: «خالي، رح نتزوَّج أنا ووائل»، قال: «عظيم، هذا خبر مفرح. إنت بتستحقِّي الفرح يا خالي»، قلت: «رح تحضر عرسي؟» قال: «أكيد، ما رح فوِّت هاي الفرصة إذا قدرت»، خالي منير يعرف وائل منذ ذلك اليوم الذي حصل ذلك الاشتباك في وسط دمشق، وكنت هناك وعلقت. خافت أمِّي وطلبت من خالي أن يذهب ويأتي بي. حضر خالي بسيَّارة أمِّي وقتها لأنَّه أعار سيَّارته لصديقه. لم يرضَ وائل تركي أنتظر خالي وحيدةً. وعندما حضر خالي عرفته عليه. نظر إليَّ نظرةً ذات معنى، فهمت عليه، وقلت له بصوتٍ منخفضٍ بالقرب من أذنه: «مجرَّد صديق»، نظر إليَّ مرَّةً أخرى وقال: «أنا ما قلت شي»، لم يقبل خالي أن نترك وائل يذهب إلى البيت وحده. اتصل بأمِّي وقال: «ديانا صارت معي، رح نرجع على البيت بعد ما نوصل صديقتها على بيتها»، لم أستغرب عندما سمعته، قال ذلك بعيدًا عن وائل، لم يكن من المناسب أن يسألني هل قلت لأمِّي أم لا، فقال ذلك احتياطًا، وخوفًا من أن أكون أخبرت أمِّي عن موعدٍ مع صديقة وليس مع صديق، وهذا ما حدث فعلًا عندما طلبت الإذن منها للخروج مساء مع صديقتي، تجنُّبًا لأسئلة أمِّي التي لا تنتهي. قال له: «اركب. رح نوصلك على

البيت»، قال وائل: «بقدر أدبِّر حالي»، قال خالي: «هذا أمر مش مطروح للنقاش»، غمزت وائل إشارةً لينهي النقاش، صعدنا إلى السيَّارة، أوصلنا وائل إلى ركن الدين عبر طرق جانبيَّةً تجنُّبًا للازدحام. وفي طريق العودة إلى المنزل، دار آخر حديثٍ طويلٍ مع خالي، وكان وقتها قد عاد من زيارةٍ قصيرةٍ إلى القاهرة، وعرفت منه أنَّه يخطِّط للانتقال إلى هناك، إذا استطاع أصدقاؤه في القاهرة إيجاد عملٍ له، فهو بلا عمل، وأصحاب الدعاوى القضائيَّة التي عنده لا يدفعون الأتعاب. وعندما سألته عن رأيه بما يجري في البلد، قال: «الوضع راح لبعيد، إحنا هلأ بعد عام من الثورة، زاد القتل، وما حدا بالعالم بدُه يساعد السوريِّين ليتخلَّصوا من سلطتهم، وما حدا إلُه مصلحة يقوم بالمهمَّة. أعتقد، البلد دخلت نفقًا مظلمًا، منشان هيك صار لازم أغادر»، كانت المرَّة الأولى التي أسمع خالي يتكلَّم بتشاؤمٍ، كان طوال الفترة الماضية سعيدًا بالثورة، معتقدًا أنَّ الوقت قد حان للإطاحة بهذه الطغمة المجرمة التي حكمت البلد بالقتل وبالتخويف والسجن. ليس لأنَّه قضى ثلاث سنواتٍ في السجن، بل لأنَّ البشر في الأصل تستحقُّ الحريَّة، وتستحقُّ أن تدير حياتها. كان خالي منير من الأشياء السعيدة في دمشق، فقد كان مكتبه للمحاماة تحت شقَّة بيت جدِّي التي سكنَّاها، كنت دائمًا ما ألقي نظرةً في المكتب، عندما يكون وقتي شاغرًا، وليس عنده أحد الموكِّلين أو الأصدقاء، أقتحم المكتب لنثرثر في كلِّ شيءٍ بعيدًا عن أمِّي. كنت أستمتع بالنقاش معه، رغم ما يفوتني من الفهم العميق أحيانًا لما يقوله باللغة العربيَّة لعدم معرفتي العميقة بها. كانت وتيرة صوته وكلماته الواضحة تعجبني، إضافةً طبعًا لآرائه، وهو الوحيد بين أقاربي من الجهتين الذي شعرت أنَّه يملك فلسفةً خاصَّةً به في الحياة. في إحدى الزيارات التي سبقت إقامتنا في دمشق، عندما قالت أمِّي مرَّةً مازحةً: «شو رأيك تعيشي عند خالك منير؟»، قلت: «ما بدي»، وفهمت أمِّي من رأيي أنَّ هذا الحكم له علاقةٌ بأحكامي عن النظرة التقليديَّة لعائلتها للحياة الاجتماعيَّة، خاصَّةً

النساء. ضحكت أمِّي وقالت: «أنت ما بتعرفي خالك، الله ما منحُه بنت، حتَّى ما يتركها تسرح وتمرح على كيفها»، اعتقدت أنَّ أمِّي تبالغ، ولكن معرفتي به خلال إقامتنا في دمشق، عرفت أنَّ ما تقوله أمِّي ليس مبالغةً أو مزاح، خالي فعلًا كذلك.

لم تتجادل أمِّي مع خالي أمام أبي، بل تركوه وأتوا لغرفتي، التي تركتها لهم بدوري، وذهبت عند أبي ريثما ينتهيان من حديثهما. عرفت بعد ذلك من أمِّي، أنَّها اعتذرت منه، لكنَّه بقي غاضبًا منها، لأنَّ الظرف الذي تعاملت به بطريقةٍ غير لائقةٍ، لم يكن ظرفًا يحتمل الأنانيَّة والعناد الذي تمسَّكت بهما، البلد تعيش قتلًا ودمًا وفي هذه اللحظات على المرء أن يتخلَّى قليلًا عن أنانيَّته لا أن يتمسَّك بها أكثر. أمِّي قالت ما عندها وخالي قال ما عنده، وباتت القطيعة وراءهما.

المسألة الهامَّة التي لم تحدث في القاهرة أنَّ أبي لم يجد المتبرِّع المتوقَّع، حتَّى ينتهي من محنة مرضه، وهذا يعني أنَّ جولةً جديدةً من البحث سوف تبدأ في أماكن أخرى. كنت حزينةً من أجل أبي.

سارت الأحداث بسرعةٍ بعد مغادرتنا دمشق، فدمشق التي جئتها طفلةً في السابعة عشرة من عمرها، خرجت منها شابَّةً وبتجارب مؤلمةٍ بعد عامين ونصف. وهذه المغادرة لم تقطع علاقتي بالمدينة التي منحتني حبِّي وغيَّرت حياتي. حفاظًا على هذا الحبِّ، سرعان ما بتُّ فتاةً مخطوبةً تعيش في تركيا تناقش مستقبلها مع خطيبها الذي يعيش في القاهرة، أين ستأخذهما رحلتهما بعد الجامعة وفي أيِّ بلدٍ سيعيشان. ناقشنا طويلًا فكرتين. الأولى، فكرة الذهاب للعيش في أميركا، وهذا ما أستطيع أن أوفِّره كوني أميركيَّةٌ، وعليه فإنِّي أُعِدُّ معاملة لَمِّ شملٍ لوائل، ونذهب للعيش هناك كما فعل إخوتي. والثانية، فكرة الذهاب للعيش في ألمانيا، وهذا ما توفِّره لنا الإقامة الألمانيَّة التي يحملها وائل، ومسألة دخولي إلى ألمانيا تحصيل حاصلٍ. ناقشنا إيجابيَّات أميركا وسلبيَّاتها، وإيجابيَّات ألمانيا وسلبيَّاتها. اخترنا في

النهاية ألمانيا لأنَّها أقلُّ توتُّرًا وأكثر استقرارًا من أميركا، مع فتح الباب لأيِّ متغيِّرٍ في حياتنا. فأنا عشت حياتي أتنقَّل، ولن يكون صعبًا عليَّ الانتقال مرَّةً أو مرَّتين إضافيَّتين. لأنِّي أعرف عيوب التنقُّل المستمرِّ، رغبت أن يعيش أطفالي القادمين في مكانٍ واحدٍ لفترةٍ طويلةٍ، حتَّى يستطيعوا تكوين ذاكرةٍ يعتُّدون بها في حياتهم اللاحقة، لا أن تكون الأماكن مجرَّد محطَّاتٍ عابرةٍ بالنسبة لهم، سرعان ما تتحوَّل إلى شيءٍ ضبابيٍّ وتقع في النسيان.

بقيت أتابع أخبار سورية، وكثيرًا ما كنَّا أنا ووائل نتحدَّث عن الوضع هناك، وبدأت أخفِّف من متابعتي كلَّما زاد القتل والدمار. وبعد حوالي عامٍ ونصف من مغادرتي، جاءني وائل بالخبر الذي جعلني أتوقَّف عن متابعة الأخبار، ليس لأنَّها غير مهمَّةٍ، بل لأنَّني لم أعد قادرةً على المتابعة. كان الخبر الصاعق اختفاء هناء في دمشق. وفق الرواية التي توافرت والتي نقلها لي وائل. اكتشف الأمن أنَّ هناء ناشطةٌ في لجان الإغاثة، فداهم بيتهم فلم يجدها. وعندما عرفت بات عليها التخفِّي، ولأنَّ التخفِّي في دمشق في غاية الصعوبة ويكاد يكون مستحيلًا، فقد قرَّرت الذهاب للعيش في دوما التي باتت خارج سيطرة قوَّات النظام، وتحت سيطرة ما يعرف بـ«جيش الإسلام»، وفعلًا اتفقت مع أحد الناشطين الملاحقين في دمشق أن يذهبا معًا إلى هناك. اجتمعا في دمشق فعلًا، وبدأا رحلة الهرب إلى دوما. بعد ذلك اختفيا، لم يعرف أحدٌ عنهما أيَّ شيءٍ. حاول أهلها معرفة إذا ما كانت قد اعتقلتها الأجهزة الأمنيَّة، وحاولوا مع كلِّ الأجهزة، لكن لا أثر لهناء. حاول أصدقاؤها معرفة إذا ما وصلت إلى دوما أم لا أو أنَّ «جيش الإسلام» قد اعتقلها؟ كلُّ هذه الجهود لم تسفر عن أيِّ معلومةٍ، لا عن مكان هناء، ولا عن مصيرها، هل هي على قيد الحياة أم قُتِلَت؟ ورغم آلاف الأسماء والصور التي تسرَّبت عن قتل المعتقلين في السجون خلال الفترة التالية لاختفاء هناء، إلَّا أنَّ أيَّ خبرٍ عنها لم يظهر حتَّى الآن. زلزلني خبر اختفاء هناء، صحيحٌ أنَّ علاقتنا لم تدم مدَّةً طويلةً في دمشق، لكن أستطيع القول إنَّ

هناء أصبحت أقرب صديقةٍ لي، بعد رحلة الموت التي خضناها معًا إلى دوما. هذه الفتاة الهادئة الوديعة، صاحبة الملامح السمراء الطفوليَّة، لم يكن يشغلها في هذا العالم سوى العدالة، لم تكن تهمُّها السياسة، كانت تقول: «للناس حقوق من حقهم يحصلوا عليها»، وهي منحازةٌ للضعفاء هذه قضيَّتها في الحياة، التي خاطرت بحياتها من أجلها، واختفت بسببها. أصبحت غاضبةً من نفسي، شعرت أنِّي أتحمَّل مسؤوليَّة اختفاء صديقتي الجميلة، العالم أكثر قسوةً دون هناء، كانت بعيدةً عنِّي، لكنِّي أشعرها قربي طوال الوقت. وعندما أصبحت لا تردُّ على الهاتف، قلت أمرٌ طارئٌ يشغلها وستعود للاتصال بعد قليل. بقيت أتفقَّد هاتفي المحمول طوال أكثر من عامٍ، لأتأكَّد هل اتصلت هناء أم لا. واليوم، أتفقَّد موبايلي أحيانًا وأتمنَّى أن أجد مكالمةً فائتةً أو رسالةً تحمل اسمها، وأحاول الاتصال بها على رقمها الذي أملكه، لعلَّ معجزةً تحصل وأسمع صوت هناء مرَّةً أخرى، وأعرف أنَّها ما تزال على قيد الحياة، لكن هذا لم يحصل.

عندما اقتربت محطَّة تركيا من نهايتها، اتفق أهلي مع أهل وائل أن نقيم حفلة زفافنا في فرانكفورت في ألمانيا، لأنَّ جزءًا كبيرًا من أقاربي قد غادر سورية إلى أوروبا خلال الخمس سنوات التي تلت الاحتجاجات في سورية، أغلبهم ركبوا البحر في مراكب رديئةٍ أو مطَّاطيَّةٍ هربًا من الدمار الذي أوقعته السلطة في الأماكن الثائرة، وبات الخلاص الوحيد الهرب من المكان. فأصبح اللجوء إلى مكانٍ آمنٍ هدف الجميع، وبات أقاربي كما أقارب وائل منتشرين في كلِّ مكانٍ. أعدَّت أمِّي الدعوات لأقاربنا قبل أكثر من ستة أشهرٍ حتَّى يتجهَّز من يرغب خلال هذه الفترة للحضور. أرسلت أمِّي الدعوات، وطلبت من الراغب في الحضور تأكيد حضوره، ودخلنا في مرحلة الإعداد لزفافي ولانتقالي للعيش في ألمانيا، حيث قرَّرنا أنا ووائل العيش، وفي المدينة التي توافق على دراستنا الاختصاص.

وقعت أمِّي في الحيرة، أين سينتهي بها المطاف مع أبي المريض الذي قارب على التقاعد، لقد خسرت المكان الذي حلمت بالعودة للعيش فيه بعد تقاعد أبي، لقد جرفت الأحداث سورية بعيدًا، في الفترة الأولى اهتمت أمِّي بأخبار سورية، تحديدًا أخبار المخيَّم والبيت والسيَّارة في المخيَّم المحاصر. تراقب الصور القادمة من هناك، لعلَّ واحدةً منها تمرُّ على البيت وتستطيع أن تستنتج شيئًا ما، فهي لم تصدِّق ابن خالي خليل الذي بقي في المخيَّم، والذي قال: «بناية بيت جدِّي نُهِبَت كلُّها»، وهذا يعني أنَّ بيتنا واحدٌ من البيوت الثلاثة التي نُهِبَت. لم تصدِّق أمِّي لأنَّها ما زالت تحلم بانتهاء الصراع والعودة للعيش هناك، لأنَّها لا تجد مكانًا بديلًا للعيش فيه. قالت لي: «رح ننتظر ونشوف اللي رح يصير مع أبوكي»، بحث أبي عن شخصٍ يشتري منه كليةً ليتخلَّص من غسيل الكلية المضني، كنَّا نسمِّيه «متبرِّعًا» تخفيفًا لوقع كلمة شراء، لكنَّه ليس كذلك. عندما قال أخي فادي لأبي: «أنا بعطيك كلية، خلينا نعمل الفحوص»، رفض أبي الفكرة نهائيًّا، وقال: «ما رح آخذ منك قطعة، حتَّى لو مت»، أغلق أبي النقاش حول الموضوع بصرامةٍ. بالبحث عن كليةٍ للبيع، كنَّا نُقدِمُ على عمليَّة شراءٍ غير مشروعةٍ، نحاول التخفيف عنها بالكلمات، ما أقدمنا عليه هو تجارة أعضاءٍ، نسمِّيه «تبرُّعٌ» لم يكن كذلك لألف سببٍ وسببٍ، لأنَّ يبيع أعضاءه يبيعها مجبرًا، لأنَّه بحاجةٍ ماسَّةٍ للمال، ومن يتلقَّاه بحاجةٍ إلى هذا العضو، فالفقير لن يجد متبرِّعًا عندما يحتاج كليةً، فهو لا يملك المال ببساطةٍ، بينما الغني سيجد، لأنَّه يملك المال ويستطيع أن يدفع. وما جعل الموضوع مؤلـمًا على نحوٍ مضاعفٍ بالنسبة لي، أنَّ أبي وجد في النهاية متبرِّعًا من سورية بعد خمس سنواتٍ من الصراع الدامي هناك، الذي أفقر الكثيرين، وما كان أبي ليجد شخصًا في سورية كلِّها يقبل أن يبعه كليته بعشرة آلاف دولار قبل خراب البلد. إنَّه مبلغٌ زهيدٌ وتافهٌ، وأعتقد أنَّ أبي لم يكن كريمًا مع الشابِّ المضطر لبيع جزءٍ من جسده لأسبابٍ قاهرةٍ بالضرورة، والتي لم أعرفها، ولم

أرغب في معرفتها، حتَّى لا يزداد ألمي. فقطعةٌ من جسد ذلك الشاب كانت تستحقُّ أكثر من ذلك بكثيرٍ، وكان عليه أن يعطيه مبلغًا إضافيًّا، ولا أعرف كم من المبلغ سيذهب إلى السماسرة الذين سينفِّذون الصفقة القذرة. لقد وجد أبي هذا المتبرِّع في دمشق، وكانت مشاعري متناقضةً تجاه العمليَّة كلِّها، أنا أرغب بشدَّةٍ بشفاء أبي الذي أحبُّ، وفي الوقت ذاته، حزينةً جدًّا على الشاب الذي وصلت به الحال لبيع كليته. يبدو في الحروب تنعدم الخيارات أمام الناس، ما يجعلهم مضطرين للقيام بأيِّ شيءٍ ليخرجوا من الأوضاع المدمِّرة التي يعيشونها. طوال الوقت وأنا أفكِّر بالشابِّ الذي يمكن أن يكون مصيره مصير أيِّ شابٍّ من أقاربي هناك. إنَّه الظلم مجسَّدٌ، وللأسف سيبقى جاثمًا أمامي طوال الوقت. خراب الحرب جعل أبي قادرًا على الشفاء، دونها كان هذا مستحيلًا، لذلك سيبقى أبي بعد العمليَّة نموذجًا يجسِّد الظلم الإضافيَّ الذي جلبه الخراب على السوريِّين. لم يقبل أبي مرافقة أيٍّ منَّا إلى دمشق في أثناء إجراء عمليَّة نقل الكلية وما بعدها، كان يقول: «أنا مش محتاجكم هناك. أختي بالشام رح تقوم باللازم»، كان عناده غريبًا، وكأنَّه لا يذهب ليجري عمليَّةً جراحيَّةً، إنَّما يُقدِمُ على عمليَّة سطوٍ مسلَّحٍ يخاف علينا من نتائجها. رضخنا لرغبته، وانتظرنا قلقين نتيجة العمليَّة ونحن في اسطنبول. كان أسوأ انتظارٍ، ألَّا تكون في المكان مع المريض الذي يخصُّك، فهذا يخفِّف من قلقك لأنَّك تستطيع أن تسأل في كلِّ لحظةٍ، وعلى معرفةٍ بما يجري أوَّلًا بأوَّلٍ، وعندما تنتهي العمليَّة الجراحيَّة يخرج المريض أمامك من غرفة العمليَّات إلى غرفة الإنعاش... الخ. أي الخطوات الصغيرة تخفِّف من قلقك الكلِّي. لكن عندما تكون في بلدٍ والمريض في بلدٍ وهذا البلد بعيدٌ ويعيش حالة صراعٍ دمويٍّ، عليك انتظار الوقت الكامل للعمليَّة وما قبلها من تحضيرٍ وما بعدها من إنعاشٍ حتَّى تستطيع أن تسمع خبرًا على الهاتف، وتبقى قلقًا لأنَّ هامشًا من الشكِّ بأنَّ الآخرين ينقلون لك أنباءً كاذبةً حتَّى لا تُصدَم بالنتائج السيِّئة، ويبقى الوضع كذلك

حتَّى يستطيع المريض أن يتكلَّم معك على الهاتف بعد حوالي عشر ساعاتٍ، تكون أعصابك قد أصابها التلف تمامًا. مررنا بكلِّ هذه المراحل، وجاء صوت أبي المتعب على الهاتف يقول: «أنا بخير... ادعوا لي»، كانت بضع كلماتٍ كافيةً لنطمئن. بكينا أنا وأمِّي وأختي من الفرح، إنَّها حياةٌ جديدةٌ يربحها أبي. فأبي على وشك التقاعد بعد أشهرٍ قليلةٍ، ولن يحتاج إلى غسيل الكلية، وهذا ما جعل أمِّي تفكِّر في الاستقرار في تركيا بديلًا عن دمشق، فهي لا تريد العودة إلى أميركا، وخيار تركيا ظهر مغريًا لها، فهم يستطيعون تحمُّل كلفته، لا سيَّما وأنِّي أوشك على إنهاء دراستي بعد أشهرٍ، وسأتزوَّج وأغادرهم، وهذا ما يخفِّف من التكاليف عليهم، لأنَّ تكاليف جامعتي كانت باهظةً، وكذلك أختي التي تبقَّى لها حوالي عامٌ ونصفٌ من الدراسة، وهي فترة يستطيعون تحمُّلها ماليًا، وبالوقت نفسه يعيشون مع أختي في اسطنبول ريثما يظهر خيارٌ آخر.

بعد حوالي الشهر حضر أبي إلى اسطنبول واحتفلنا بشفائه. وقال لي: «فرحتي الكبيرة رح تكون يوم فرحك»، وأصبح يفصلنا عن موعد زفافنا أنا ووائل حوالي أربعة أشهر فقط لا غير. بعد شفاء والدي وعودته إلى عمله، تفرَّغت أمِّي للتحضير لزفافي. كانت سعيدةً لأنَّ الخطط التي فكَّرت بها في البقاء في اسطنبول باتت قابلةً للتحقيق بشفاء أبي وهذا ما جعلها متحمِّسةً للتحضير للزفاف. أرادت أن يأتي الجميع إلى الزفاف، أرادت حفلًا كبيرًا يعوِّضها عن القهر والقلق اللذين شعرت بهما في الفترة الأخيرة بشأن المصير الذي ينتظرهما هي وأبي.

كنَّا نذهب إلى السوق يوميًّا لنرى الفساتين التي يمكن شراؤها، لم نكن ننوي الشراء بالتأكيد، نريد رؤية النماذج على الواقع، لأنَّنا قرَّرنا أن نفصِّل الفساتين عن طريق الإنترنيت في أميركا. وهذه الخدمة باتت موجودةً هناك وقد اقترحتها أختي سحر. حيث تؤخذ مقاسات الشخص، وتُرسَلُ مع اختيار نموذج الفستان من النماذج الذي يعرضها الموقع على الانترنيت، وبعد

عشرة أيَّامٍ يأتي الفستان بالمقاييس التي طُلبت. هذا لم يكن يحتاج الذهاب إلى السوق. بالتأكيد، هذا لا يقنع أمِّي المعتادة على التسُّوق بلمس البضائع، وتجربة قياس الملابس التي ترغب في شرائها، لذلك، كنَّا مضطرين للتجاوب مع رغبتها في التسوق، ونذهب في نهاية الأسبوع أنا وهي وأختي سوسن لنذرع أسواق اسطنبول طولًا وعرضًا.

في واحدةٍ من هذه الزيارات للسوق وفي ميدان تقسيم وفي مساءٍ ربيعيٍّ فيه لسعةٌ من بردٍ، تجوَّلنا في السوق سيرًا على الأقدام حوالي الساعتين، وكان علينا أن نستريح قليلًا قبل العودة إلى البيت. أشارت أمِّي بيدها إلى مقهًى قريبٍ منَّا، ما إن رفعت يدها حتَّى صرخت صرخةً رهيبةً، ضمَّت يديها إلى بطنها وسقطت على الأرض مغمًى عليها. لم أعرف ما نفعل، لا سيَّما أنَّ أختي شرعت بالبكاء وهي تنادي: «أمِّي... أمِّي...»، اتصلت بالطوارئ وطَلَبتُ سيَّارة إسعافٍ، وغطَّيت أمِّي بالمعطف الذي ألبسه. جاءت سيَّارة الإسعاف التي نقلتنا إلى أقرب مستشفى، وهو مستشفى سورب أغوب. بعد الفحوص الأوَّليَّة، وعودة أمي إلى وعيها، سألها الطبيب عن الطعام الذي أكلته ذلك اليوم، وهل هذه أوَّل مرَّة يأتيها هذا الألم أم هو ألمٌ متكرِّر؟ وغيرها الكثير من الأسئلة، لم يصل إلى تشخيصٍ محدَّدٍ للحالة، أو لم يرغب في استباق النتائج، وطلب منَّا إجراء فحوصٍ إضافيَّةٍ. وبعد الذهاب إلى المنزل، والمشاورات مع أبي في السعودية، وأخي وأختي في أميركا، أستقرَّ الرأي على أن نذهب في اليوم التالي إلى المستشفى الأميركيِّ في اسطنبول لتشخيص الحالة. ذهبنا إلى هناك وأجروا الفحوصات والتحليلات والصور على مدى أربعة أيَّامٍ، تبيَّن أنَّ هناك ورمٌ في الكبد، وكانت هذه الحالة، وفق الطبيب، قابلةٌ للعلاج من خلال عمليَّة استئصالٍ للجزء المصاب من الكبد، لاعتقاده في البداية أنَّ الورم وُلِدَ أصلًا في الكبد ومتموضِّعٌ فيه. مع المزيد من الفحوصات وتنظير القولون تبيَّن أنَّ الورم في الكبد انتقل إليه من القولون، أي أنَّ الإصابة بالمرض قديمةٌ حتَّى انتقل إلى

الكبد. سأل الطبيب أمِّي هل هي المرَّة الأولى التي شعرت فيها بالألم؟ أجابت: «نعم» استغرب الطبيب أن يتأخَّر الورم في الإعلان عن نفسه كلَّ هذه المدَّة. لم يتردَّد في القول: «بما أنَّك أميركيَّةٌ، إذا أردتِ نتيجةً جيِّدةً، عليك الذهاب إلى أميركا. كلُّ شيءٍ هناك أفضل بالنسبة لإصابتك»، صدمتنا إصابة أمِّي بالسرطان، أمَّا هي فلم تصدِّق إصابتها به. لقد انقلب كلُّ شيءٍ، كلُّ الخطط التي فكَّرت فيها أمِّي لترتيب أوضاعهم بعد عمليَّة أبي تبخَّرت، لم يعد أبي المشكلة، بل هي، كما أنَّ مرض أبي بالفشل الكلويِّ ليس خطرًا، من الصحيح أنَّه مؤلمٌ ومزعجٌ، إلَّا أنَّه ليس خطرًا على حياته. أمِّي حالةٌ مختلفةٌ، سرطانٌ متقدِّم وانتقل من عضوٍ لآخر، وهذه مرحلةٌ متقدِّمةٌ من المرض، أي أنَّ هناك خطرٌ على حياتها. كلَّما خطرت هذه الفكرة لي، أنفض رأسي بقوَّةٍ في محاولةٍ يائسةٍ لطرد الفكرة منه، لكن دون فائدةٍ. أصبح الخوف على أمِّي يخيِّم علينا جميعًا.

بناءً على نصيحة الطبيب في المستشفى الأميركيِّ في اسطنبول، كنَّا جميعًا بعد يومين في الطائرة مسافرين إلى أميركا. في أميركا أعاد الأطبَّاء إجراء الفحوصات والصور والتحاليل، وجاءت النتيجة نفسها التي شخَّصها الأطباء في تركيا. كان اقتراح الأطباء، البدء في العلاج الكيماويِّ، وإذا استجاب الورم للعلاج يمكن الانتقال إلى الخطوة التالية. عندما سأل أبي: «كم من الوقت يمكن أن يستمرَّ هذا العلاج؟»، كان جواب الطبيب: «هذا يتعلَّق باستجابة الورم للعلاج»، لم يشغلنا أيُّ موضوعٍ آخر، كانت صحَّة أمِّي موضوع الساعة ولا شيء غيره، لأنَّنا بمرض أمِّي عرفنا كم مكانتها مؤثِّرةٌ في حياتنا. كنَّا متأثِّرين جدًّا، بينما أبي في حالة انهيارٍ، صحيحٌ أنَّه بقي متماسكًا أمامها، بعيدًا عنها، لم أشاهد أبي في هذه الحالة من الضعف التي كان عليها طوال حياتي، شعرت أنَّه رجلٌ مكسورٌ، رجلٌ ينهار عالمه أمامه ولا يعرف ماذا يفعل؟ فهو عاجزٌ عن الإتيان بأيِّ شيءٍ يُنهي فيه المسألة. بالنسبة لأبي، كانت عائلته كلَّ حياته، ليس له حياةٌ خارجها، ويشعر أنَّ هذه العائلة

تنهار بمرض أمِّي التي تشكِّل عمودها الفقري. المسألة التي نسيناها كلُّنا في تلك الظروف، هي زفافي الذي يقترب بسرعةٍ. وفجأةً دون سابق إنذارٍ قالت أمِّي لي: «ديانا قولي لأهل وائل كلُّ شيءٍ سيكون في وقته»، سألتها: «شو قصدك؟»، قالت: «أقصد العرس»، قلت منفعلةً: «أي عرس؟ هذا مش وقتُه؟»، قالت: «إنت غلطانة، هذا وقتُه، خبريهم باللي قلتُه»، قلت: «ماما، ما في شي مستعجل، بنقدر ننتظر»، قالت: «صحيح، بس أنا مستعجلة، وما بدي شيء يتغيَّر، مرضي ما رح يوقف الحياة»، لم أرغب في مجادلتها، وقلت أحيل الموضوع على أبي وأهل وائل. عندما ناقشها أبي في الموضوع أصرَّت على موقفها كما نقل أبي قالت: «فؤاد، بدِّي أفرح بالبنت، ما بعرف شو رح يصير معي. إنت شايف كيف الحياة بترمينا من محل لمحل، ومن سيِّئ لأسوأ»، كلنا كنَّا أضعف من مناقشتها في الموضوع، ليس لأنَّنا لا نملك الحجَّة، بل لأنَّنا متضامنون معها ولا نريد إزعاجها باختلافنا معها. وعندما تكلَّمت أمُّ وائل معها أجابت الإجابة ذاتها، ولم يعد أمامنا سوى أن نقيم هذا العرس في وقته، لأنَّها ترغب في ذلك، وكان ذلك مؤلـمًا جدًّا بالنسبة لي. قبل العرس بحوالي الثلاثة أسابيع، سمعنا خبرًا مفرحًا، قال الطبيب: «الورم عند أمِّي بدأ يستجيب للعلاج الكيماوي وبدأ يتقلَّص، ما يعني إمكانيَّة إجراء جراحةٍ لاستئصاله»، قالت أمِّي للطبيب: «سنؤجِّل العمليَّة إلى ما بعد عرس ابنتي»، سأل الطبيب: «متى سيكون العرس؟»، قالت أمِّي: «بعد ثلاثة أسابيع»، قال الطبيب: «لا مشكلة، سننتظر إلى ما بعد العرس ونحدِّد موعد الجراحة»، أحالت أمِّي تحضير بقيَّة تفاصيل العرس على أختي سحر.

لم أرغب أن يأتي حفل زفافي في مثل ظروف مرض أمِّي، وللأسف، فنحن في كثيرٍ من الأحيان لا نختار ظروفنا، إنَّما تفرض علينا فرضًا. قدَّر أهل وائل موقف أمِّي، وحاولوا أن يسعدوها قدر الإمكان، ويمكنني القول إنَّ عرسي كان نموذجيًّا، فالصالة التي أقيم فيها العرس كانت في غاية الأناقة، قاعةٌ واسعةٌ، بحيطانٍ مزيَّنةٍ بمربَّعاتٍ رماديَّةٍ بمساحة بحوالي مترٍ بمترٍ، جانبٌ

كاملٌ من الصالة بواجهات زجاجٍ تطلُّ على مسبحٍ بستائر رماديَّةٍ بخطوطٍ عريضةٍ صفراء وبيضاء متمايلةٍ على طول الستائر من الأعلى للأسفل. فُرِشَت الأرض بقطعةٍ واحدةٍ رماديَّةٍ أيضًا ومزيَّنةٍ بدوائر متداخلة من الأسود والأبيض. والطاولات وُزِّعَت على نحوٍ مرتبٍ، ما يتيح ترك ركنٍ في صدر القاعة كمساحةٍ للرقص، والطاولات مزيَّنةٌ على نحوٍ جميلٍ، ووردةٌ أمام كلِّ مدعوٍّ، والخدمة والطعام في غاية الجودة، كلُّ هذا ناسبني تمامًا، خيَّم مرض أمِّي على حفل الزفاف، شاهدت أختي سحر تتنحَّى جانبًا وتبكي عندما ترى حزن أمِّي، التي تحاول أن تظهر أنَّها فرحةٌ بزفافي. حتَّى أنا لم أمسك دموعي عندما تعانقت أمِّي وخالتي وبكيتا. رغم جمال حفلة الزفاف، لم تكن حفلةً سعيدةً، لأنَّ الكلَّ حزينٌ من أجل أمِّي، يحاولون الابتسام في وجهها، ثمَّ يشعرون بالحسرة من أجلها والشفقة عليها. شاهدت دموع أمِّ وائل التي تجلس إلى جانبي، عندما رقصت أمِّي وسط الساحة، لم تتركها وحدها، مسحت دموعها وذهبت لتشاركها الرقص، كانت معجبةً جدًّا بأمِّي ومُدهَشةً من شجاعتها في مواجهة مرضها القاتل، كما قالت لي فيما بعد، وهو ما قاله أبو وائل أيضًا. كنت فخورةً بأمِّي، لكن كنت سأتخلَّى عن هذا الفخر على أن تكون أمِّي بصحَّةٍ جيِّدةٍ. منحت حفلة الزفاف أمِّي القوَّة لتحدِّي مرضها، أرادت أن يرى الجميع قوَّتها، وأنَّها لا تأبه لمرضها. رغم ذلك، كان سلوكها نفسه مؤشِّرًا على أنَّ المرض فعل فعله بها، لدرجةٍ غيَّر طبيعتها، فأمِّي وداد التي كانت في العرس غير أمِّي وداد التي عرفها ضيوف العرس في السابق، أرادت أن تقول شيئًا يناقض واقع المرض الذي تعيشه، وعلى عكس ما أرادت، خيَّم المرض على الجميع، ما منحها تضامنهم المطلق في ضعفها الذي حاولت صرفه كقوَّةٍ تحترم عليها.

ذهبت أنا ووائل لنعيش في فرانكفورت في المدينة التي حصلنا فيها على قبولٍ لنكمل دراستنا العليا، أنا أتخصَّص في طبِّ الأطفال، ووائل يتخصَّص في الجراحة. وعادت عائلة وائل إلى السعودية، بينما عاد أبي وأمي

وإخوتي إلى أميركا نهائيًّا بعد تقاعد أبي من عمله. أمَّا أختي سوسن فعادت إلى دراستها في اسطنبول.

أجرت أمِّي عمليَّة الاستئصال بعد عودتها إلى أميركا بحوالي شهر، وقال الطبيب أنَّ عمليَّة الاستئصال ناجحةٌ، وأنَّ الفحوص التي تلت العمليَّة بحوالي شهرٍ أشارت إلى اختفاء الورم نهائيًا. أمِّي التي بدت في غاية الصلابة في أثناء عرسي، أصبحت في غاية الضعف بعد العمليَّة الجراحيَّة. ووفق ما كانت تشرح سحر لنا، رفضت أمِّي الأكل بشدَّةٍ بعد العمليَّة، وهذا ليس جيِّدًا لصحَّتها وللعمليَّة، وهي استعانت بالجميع من أجل إقناع أمِّي بالأكل، بمن فيهم أنا فقد تحدَّثت معها، لكن دون فائدةٍ. وطلبت سحر من أخوالي أن يتكلَّموا معها، ولكنَّ كلَّ ذلك لم يكن مجديًا، دخلت في حالة اكتئابٍ شديدٍ، ولم يعد على لسانها سوى الحديث عن جدَّتي، التي باتت حاضرةً في حديثها طوال الوقت. وبدا كأنَّ امتناعها عن الطعام محاولةً للخلاص من حياتها بعد أن وجدت جسدها قد تشرَّح. بعد ثلاثة أشهر، قال الأطباء، عاد الورم لينمو من جديدٍ. وكأنَّ عودة الورم حفَّزها للمقاومة من جديد. أخذت تأكل ببطءٍ، وباتت أفضل حالًا، رغم جلسات العلاج الكيماويِّ المنهكة. تحسَّنت صحَّتها وزاد وزنها كيلوغراماتٍ عدَّةً بعد أن فقدت كلَّ لحمها وباتت أشبه بهيكلٍ عظميٍّ كما رأيتها في آخر زيارةٍ لي لأميركا. وبدأت تقاوم لأنَّها رغبت في حضور حفل تخرُّج سوسن الذي يقترب، والذي كان على مبعدة ستة أشهر. وعندما سألت أمِّي الطبيب: «هل أستطيع حضور حفلة تخرُّج ابنتي بعد حوالي ستة أشهر في تركيا؟» قال الطبيب: «تستطيعين ذلك إذا تحسَّنت صحَّتك، وحتَّى تتحسَّن صحَّتك، عليك أن تهتمِّي بطعامك»، بعد ذلك بدأ أكلها يتحسَّن وبذلك تحسَّنت صحَّتها، امتلكت هدفًا، قاومت من أجله، للوصول إلى حفلة تخرُّج سوسن.

طلبت منِّي أن أحضر إلى تركيا لأراهم لأنَّهم يشتاقون لي، وفي الوقت ذاته، أحضر حفلة تخرُّج سوسن. لكنَّ ظروفي لم تكن مناسبةً، لأنَّ فترة

وجودهم في تركيا صادفت فترة امتحاناتٍ لي في الجامعة. كنت مشتاقةً لهم وأرغب في السفر إلى هناك، لكن هذه المرة لم يحالفني الحظُّ. في اسطنبول حصل غير المتوقَّع مرَّةً أخرى، وكأنَّنا عائلةٌ مصابةٌ بشيءٍ اسمه لعنة اسطنبول. في الوقت الذي كان خوفنا على صحَّة أمِّي من هذه السفرة التي ستقطع فيها مسافةً طويلةً بين أميركا وتركيا، جاءت الفجيعة من أبي هذه المرَّة. أبي الذي شعر بآلامٍ مبرحةٍ، كابر على نفسه حتَّى انتهت حفلة تخرُّج سوسن. بعدها بساعاتٍ سقط مغمًى عليه، في المستشفى قال الطبيب، مثلما قال في المرَّة التي سقطت أمِّي مغشيًّا عليها: «بما أنَّه زارعٌ لكلية، الأفضل أن يعود إلى أميركا سريعًا»، سألت أمِّي: «هل الوضع خطير؟»، قال دون أن يجيب جوابًا حاسمًا: «تُفضَّل السرعة، هو يعاني من حال التهابٍ شديدٍ، ولأنَّ عنده زرع كليةٍ، هناك يتعاملون مع الحالة على نحوٍ أفضل. أعطيته الأدوية التي يحتاجها، وهناك سيفحصون الحالة مرَّةً أخرى»، حجز أبي على أوَّل طائرةٍ، وطلبت أمِّي من أبي أن تبقى مع سوسن أيَّامًا عدَّةً لأنَّها لا تعرف إذا كانت ستراها مرَّةً أخرى أم لا. وافق أبي وسافر وحيدًا. اتصلت أمِّي بأخي فادي وطلبت منه أن يستقبل أباه في المطار ويذهب به إلى المستشفى مباشرةً. وعندما وصل أبي إلى هناك كان يهذي ويرتعش من شدَّة الحرارة التي يعاني منها. كما قال فادي في وصف حالته فيما بعد، ويبدو أنَّ الرحلة الطويلة من تركيا إلى أميركا جعلت وضعه أسوأ بكثيرٍ من الحالة التي غادر بها تركيا. وعندما وصل إلى المستشفى في نيويورك دخل في حالة موتٍ سريريٍّ، وسرعان ما مات. لم نصدِّق ما حدث، «صدمةٌ انتانيَّةٌ» لالتهابٍ شديدٍ أودت بحياة أبي، وأمِّي التي تعاني من سرطانٍ متقدِّمٍ وعمليَّة استئصالٍ فاشلةٍ ما زالت على قيد الحياة. فكَّرت بالمصائر الغريبة للبشر ولنا وأنا في رحلة الذهاب إلى أميركا من أجل مراسيم دفن أبي التي لم تستطع أمِّي حضورها بسبب سوء وضعها الصحيِّ. لمت نفسي على أنِّي لم أترك امتحاناتي وأذهب إلى تركيا لأراهم، لكنت قابلت أبي المقابلة الأخيرة قبل

وفاته، لكنَّ القدر لا يقدِّم لنا مساراته اللاحقة، حتَّى نعرف كيف نتعامل معها. وصدمتي الشديدة جاءت، عندما اتصلت بأمِّي ولم تردَّ عليَّ.

منذ عدت إلى فرانكفورت بعد وفاة أبي شعرت شيئًا ما تغيَّر داخلي. شكَّل أبي نوعًا من الأمان لي، سواءً كان جانبي أو بعيدًا عنِّي، أفتقده بشدَّةٍ، وأشتاق له بشدَّةٍ. لم أنتبه لمزاياه، ليس لأنَّ «كلَّ فتاةٍ بأبيها معجبةٌ» كما يقول المثل العربيُّ، ولكن لأنَّه رجلٌ بمواصفاتٍ نادرةٍ. كان يجب أن ينتظر حتَّى أقول له: «شكرًا» على الكثير من الأشياء التي يستحقُّ الشكر عليها، رحل وقصَّرت أنا بحقِّه، ولم أقل له كلمة شكرٍ لم يكن ينتظرها. أفكِّر بأمِّي وأشعر بالأسى من أجلها، تصارع مرضًا لا يمكن الانتصار عليه، رغم صمودها في مواجهته منذ أكثر من عامين ونصف ورغم محنة وفاة أبي التي مرَّت بها. حياتها ليست سهلةً، وسحر لم تتذمَّر يومًا من وجود أمِّي عندها، تمنَّيت أن أؤدي هذه المهمَّة عنها، لكنَّ القدر جعلني أذهب إلى ألمانيا في الوقت الذي ذهب الجميع إلى أميركا.

القسم الخامس:
(ملحق)
موتٌ على حافَّة القطب
(صادق منير أحمد خليل)

1

مرَّاتٍ عدَّةً وعلى مدار سنواتٍ، سمعت أبي يتحدَّث عن عملٍ كبيرٍ يكتبه. تكلَّم بسعادة عن انتظام العمل وعن إنجازاتٍ سريعةٍ فيه أحيانًا، وأحيانًا أخرى تكلَّم عن احباطاتٍ أوقفت الكتابة لأشهرٍ، ما جعل العودة إلى عملٍ كبيرٍ من جديدٍ عودةٌ مضنيةٌ لنسيان تفاصيل العمل وتفاصيل الشخصيَّات، ما احتاج إلى قراءتها المرَّة بعد الأخرى لمعرفة أين وصلت الأحداث في كلِّ مسارٍ من مسارات الرواية المتعدِّدة وشخصيَّاتها الكثيرة في تقاطعاتها وتقاطع الأحداث في زمنٍ متسارعٍ تحاول الرواية تغطيته على أكثر من مستوى وأكثر من جيلٍ. فهمت من أبي أنَّه استلهم بنية الرواية من بنية عائلتنا، دون أن يكون ذلك توثيقًا لتاريخ العائلة ولشخصيَّاتها. وإذا كان من الصحيح أنَّ فيها الكثير من تجارب شخصيَّاتٍ حقيقيَّةٍ موجودةٍ في العائلة، مرَّت بهذه التجارب التي توثِّقها الرواية، إلَّا أنَّ الكتلة الأساسيَّة منها، هي متخيَّلٌ روائيٌّ يوثِّق تجارب آخرين لا ينتمون للعائلة، دُمِجَت في تجارب شخصيَّات الرواية، كما أنَّ فيها الكثير من الخيال بوصفها عملًا روائيًّا يحاول تغطية تجربةٍ في غاية القسوة والتعقيد مرَّ السوريُّون والفلسطينيُّون بها خلال السنوات التي تلت الاحتجاجات التي اندلعت في آذار من العام 2011، ثمَّ عمَّت البلد كلَّها، والتي فاقت كثافتها التاريخيَّة كلَّ التاريخ السوريِّ الحديث منذ الاستقلال. لم تكن التجربة أحداثًا تاريخيَّةً فحسب، بل تجربة ألمٍ إنسانيٍّ فظيعةً أيضًا، في اتساعها وفي عمقها، لدرجةٍ يمكن القول إنَّ الأحداث التي وقعت في السنوات اللاحقة لاندلاع الأحداث، تركت ألمًا في كلِّ بيتٍ على الأرض السوريَّة. خلال هذه السنوات وقع صراعٌ مريرٌ ودمويٌّ خلَّف ملايين الضحايا، عمليَّات قتلٍ واسعةً بوسائل مختلفةٍ، قنصٍ،

قصفٍ بالدبَّابات والمدفعيَّة، قصفٍ بالطائرات، قتلٍ بالسلاح الأبيض، تصفيةٍ في المعتقلات. ولم يقتصر ألم الضحايا على القتل، بل هناك ما هو أسوأ من القتل، الاعتقال بشروطٍ مروِّعةٍ، جعلت المعتقلين يتمنَّون الموت مئات المرَّات، تهجير الملايين إلى دول الجوار وإلى العالم كلِّه، عاش أغلبهم لسنواتٍ طويلةٍ في شروطٍ لا إنسانيَّةٍ، وما زال الملايين منهم يعيشون هذه الظروف السيِّئة. ولم يقتصر التهجير إلى الخارج، فكان التهجير الداخليُّ لا يقلُّ سوءًا عن التهجير الخارجيِّ. واعتُمِدَت سياسة التجريف السكَّانيِّ في الكثير من الأماكن، عبر سياسة الأرض المحروقة، إذ هُدِمَت مناطق بالكامل بالصواريخ والبراميل المتفجِّرة من أجل تهجير سكَّانها. ولم يكفِ الألم الذي تسبَّبت به القذائف والقتل، فقد دخل الجميع باستثناء تجَّار الحرب في مرحلة إفقارٍ جعلت الميسورين قبل العام 2011 يتحوَّلون إلى محتاجين، انخفضت قيمة الليرة السوريَّة لدرجةٍ دمَّرت مدخول كلِّ العائلات في البلد، ولم يعد دخل الموظَّف أو العامل يكفي لإطعام عائلته أبسط الطعام، ما تسبَّب ليس بضغط الحاجة لملايين كانوا لحدٍّ ما يكفون أنفسهم فحسب، بل أصبح هناك جوعٌ حقيقيٌّ بين السكَّان جرَّاء إفقارهم المطلق أيضًا.

لم يطلعني أبي على تفاصيل الرواية في أثناء العمل عليها، فهو لم يرغب يومًا في عرض عملٍ غيرِ مكتملٍ على الآخرين، مهما كان قربهم منه. انتظرت أن يُنهي العمل وينشره حتَّى أطلع عليه كاملًا دون نقصٍ. للأسف، هذا لم يحدث، لم يمهله الزمن حتَّى ينتهي من عمله الذي عدَّه العمل الأهم بين أعماله جميعها. لطالما عدَّ أنَّ لكلِّ كاتبٍ عمله المركزيُّ، وكلُّ الأعمال الأخرى التي يكتبها هي تمرينٌ للوصول إلى هذا العمل. ولأنَّ الكتابة عملٌ معقَّدٌ، فليس بالضرورة أن يكون العمل المركزيُّ هو آخر ما يكتبه الكاتب. يحاول الكاتب دائمًا أن يكتب عملًا أفضل من أعماله السابقة، أحيانًا ينجح، وأحيانًا يفشل، ولأنَّه غير قادرٍ على الحكم على عمله، فهو ينتظر كيف سيتلقَّاه الجمهور. عدَّ أبي القارئ العاديَّ أهمَّ من الناقد المتخصِّص في تقييم

العمل الروائيِّ، يقرأ القارئ من أجل المتعة، لا يكمل عملًا لا يحبُّه، علاقته مع الكتاب علاقة حبٍّ، وعندما لا يحبُّه يلقيه فورًا، لا شيء يدفعه لإكمال قراءة كتابٍ لم يحبَّه. بينما الناقد يملك مسطرةً نقديَّةً مسبقةً، والمساطر المسبقة مساطر تالفةٌ، لا تصلح لقراءة الجديد، الخارج عن المألوف النقدِّي المتهالك. كما أنَّه يقرأ من أجل عمله، فهو ينهي الكتاب الذي لا يحبُّه، ليكتب عنه، هذا إذا كان ناقدًا محترمًا، ويكتب عن الكتاب دون أن ينهيه، أو حتَّى دون قراءته، إذا كان ناقدًا غير محترمٍ. يُكتب الأدب للذوَّاقة وليس لمحترفي النقد، محترمون أو غير محترمين، والذين فشلوا في أن يكونوا روائيِّين فتطفَّلوا بنقدهم على أعمال الآخرين يتعيَّشون منها في الساحة الثقافيَّة. لم يهتمَّ بآراء النقَّاد لسببين: الأوَّل، أنَّ النقَّاد لم يحفلوا بأعماله، لم يجد ذلك سلبيًّا، بل على العكس، عدَّه إيجابيًا. فقد رأى أنَّ الساحة الثقافيَّة عبارةٌ عن عصاباتٍ ثقافيَّةٍ تسوِّق بعضها البعض، وهو لم يكن عضوًا في أيِّ عصابةٍ من هذه العصابات، وعدم كتابة العصابات الثقافيَّة عن أعماله دليلٌ على عدم انخراطه في هذه العصابات. الثاني، أنَّه عدَّ كلَّ عملٍ إبداعيٍّ هو عملٌ ناقصٌ، والكاتب يحاول كتابة النصِّ المطلق، ولأنَّ هذا النصَّ ليس في الواقع، يكون السعي إليه سعيًا لكمالٍ لا يمكن الوصول إليه، وهو ما يجعل كلَّ الأعمال المكتوبة والتي سوف تُكتَبُ، أعمالًا ناقصةً، ما يجعل الكاتب يكتب العمل بعد الآخر للوصول إلى كمالٍ مستحيلٍ. لا أستطيع عرض آراء أبي في الأدب والثقافة، لأنِّي أنقل هذه الآراء الشفويَّة بعد زمنٍ طويلٍ من النقاش معه، فقد كان رجلًا عميقًا، لا أستطيع مجاراته، وأيُّ سوء فهمٍ فيما أكتبه نقلًا عنه أنا مصدره.

كان رجلًا شديد الوضوح في آرائه، والوضوح لا يعني السهولة، ولا يعني عدم التناقض. كان يقول: «إذا كان الواقع هيك، فإحنا ما بنقدر نكون أفضل من واقعنا، وما بنقدر نكون واقفين ثابتين على أرض بترتج تحتنا. بس بحاول من خلال كتابة الأدب أتغلب على التعاسة في هذا العالم، أو أخفف

منها، أو أحتج عليها»، هو لم يعتقد أنَّ مهمَّة الكتب التغيير، لأنَّ هذه مهمَّة البشر، لكنَّ الكتب تساعد البشر على التغلُّب على مصاعب الحياة كونها أعمالًا ضدَّ التعاسة.

2

تفاوتت علاقتي مع أبي، وأنا مثل جميع من كبروا في ظلِّ أبٍ يفرض سلطته وسطوته المعنويَّة بالكثير من الطغيان، اختلفت معه، وتصارعنا، حاولت الاستقلال، حاولت قتله بالمعنى الرمزيِّ للخلاص من طغيانه. وكانت العلاقة معه تناقضيَّةً، هناك ما ينفِّرني منه، وهناك ما يشدُّني إليه بقوَّةٍ. كان هذان الاتجاهان المتناقضين يعملان في مراحل متتابعةٍ زمنيًّا أحيانًا، والغريب أنَّهما يعملان معًا وفي الوقت ذاته، أحيانًا أخرى، ما جعل علاقتي به غريبةً في تعقيدها، وأنا شخصيًّا، لست قادرًا على شرحها، أشعر الكلمات تهرب منِّي أو تعجز عن وصف الحالة. كلَّما وجدت نفسي أكثر استقلالًا عنه، وجدت نفسي أكثر حاجةً له. وهذا ضدُّ منطق الحياة، التي يُفترض عندما أكون أكثر استقلالًا بالمعنى المادِّي هذا يعني سأكون أكثر استقلالًا بالمعنى النفسيِّ، العكس هو الذي حدث معي، المزيد من الاستقلال المادِّي يعني المزيد من الارتباط النفسيِّ مع هذا الرجل غريب الأطوار، الذي هو أبي، والذي لم أكن -كما هو حال الآخرين- قادرًا على توقُّع ردَّات فعله. الأشياء والأحداث التي تستفزُّ الآخرين لم تكن تعني له شيئًا، وما كان يستفزُّه لم يكن يعني الآخرين بشيءٍ. عندما سألته عن غرابته في هذا الموضوع، قال: «مش غرابة، الخصوصية هي السر، لست جزءًا من القطيع، وأنا بستفزني كل شي بيتعلَّق بكرامتي الشخصية، أمَّا الأشياء الثانية ما بتعنيلي شي»، لم أفهم ما يقول، مع الوقت، بدأت أفهم ما يقصده، شرح هذا يكاد يكون عسيرًا، فليس من السهل أن تكون حساسيَّاتك مختلفةً عن محيطك، فهذا يوقعك في الكثير من المشكلات، وهذا ما حصل معه، لم يكن رجلًا متكيِّفًا، كان وفيًّا لرفضويَّته، رفضويَّةٌ احتجاجيَّةٌ من طرازٍ رفيعٍ، لذلك

لم ينل قبول الآخرين، عاش حياته بالطريقة التي رآها الأفضل رغم كلِّ مصاعبها، كان راضيًا عن حياته، رغم أنَّها لم تكن حياةً سعيدةً دائمًا. لم يكفَّ عن انتقاد كلِّ شيءٍ، فهو معادٍ للسائد، عدَّ السائد ظالمًا في كلِّ الحالات، ولم يكن يتوقَّع العدالة من عالمٍ يعاني من نقصانٍ هائلٍ منها، رغم كلِّ الشعارات الكاذبة التي جابت العالم، لكنَّها لم تسفر في النهاية سوى عن المزيد من الضحايا. لا أريد التحدُّث كثيرًا عن أفكاره، فأنا لا أصلح لهذه المهمَّة، لأنَّ هناك الكثير من الأفكار التي لا أعرفها، وقد أخذها معه، ولن أستطيع معرفتها، إلَّا إذا كان قد دوَّنها في مكانٍ ما، وتمكَّنت من العثور عليها في محاولاتي لجمع ما كتب. ما أريد الحديث عنه هو حياته، أو بالأصح حياتنا، أنا وهو. لا أعرف من أين أبدأ، ولا أملك موهبته لأضعها في قالبٍ روائيٍّ يشدُّ القارئ. سأحاول فعل ذلك بقدر ما أستطيع، رغم تحذيرات الآخرين الذين طلبوا منِّي عدم الإقدام على هذه المخاطرة، التي ستظهر فارقًا كبيرًا بين قدرتي وقدرته على الإمساك بالقضايا والتعبير عنها. تجنُّبًا لذلك، لن أحاول تقليده، سأكتب الأشياء بطريقتي، حتَّى لا أقع أسير تقليد طريقته في الكتابة.

لم تخطر الكتابة لي من قبل، وجدت نفسي مدفوعًا إليها بعد وفاة أبي المفاجئة، والتي أصابتني بحالةٍ من الاكتئاب الشديد. كان موته محزنًا وكارثيًّا بالنسبة لي. فهذا الرجل الذي كنت أبدو كصديقه أكثر منِّي ابنه، والذي لم يكن يعاني من أيَّة أمراضٍ خطيرةٍ أو غير خطيرةٍ، ويبدو بصحَّةٍ جيِّدةٍ، ويظهر أصغر من عمره بأكثر من عشر سنوات، ولم يغزوا الشيب شعره بعد رغم سنواته الثلاثة والخمسين. لم أصدِّق موته. كان أشبه بنجومٍ السينما وهو مسجًى بشعره الطويل على السرير في المشفى السويدي، بدا لي ممثِّلًا جميلًا يجيد الدور الذي أُسنِدَ إليه كميتٍ تمامًا، وعندما ينتهي من تصوير مشهده، سينهض عن سريره ويعود معنا إلى البيت، لنحتفل بعودته من فيلمٍ مؤلمٍ كدنا أن نصدِّقه. للأسف لم يكن يمثِّل، رفض النهوض من

غفوته والعودة معنا، أصرَّ على موته وصدَّقه وقرَّر الرحيل عنَّا. شعرت أنَّه يقول لي: «مليت من لعب دور مش دوري، منشان هيك لازم تصدِّق إنِّي ميت. أنت بتعرف إنِّي متّ قبل ما أكون مسجى بوقت طويل، متت لما ما عدت أحس إنُه لرفضي واحتجاجي معنى، متت من لما صارت الـ "لا" اللي بصرخها ما حدا بيسمعها»، حاولت إقناعه بالعودة من موته، فأنا ما زلت بحاجةٍ إليه، وليس عليه أن يخذلني ويمضي إلى موته، وعليه إنهاء هذا الدور المزعج والعودة إلى حياته بيننا، فهناك مهمَّاتٌ عليه إتمامها، ومن الجبن أن يهرب إلى موته قبل إنجازها. اتفقنا أن أكون رفيق شيخوخته، ووعدني أن يبقى حيًّا حتَّى ذلك الوقت. رفض الذهاب إلى شيخوخته، خذله قلبه وتوقَّف فجأةً عن العمل، ولم تكن المعدَّات الطبيَّة ولا الصدمات الكهربائيَّة قادرةً على إقناع هذا القلب بالعمل من جديدٍ، ولو لحينٍ، فمن الشائن أن يذهب ويرتاح في موته ويتركني وسط العذابات.

لا أعرف سرَّ تعلُّقي به، هل لأنَّه أبي، أم لأنَّه صديقي أكثر منه أبي؟ منذ جلسنا نحتسي الخمر معًا في حانةٍ من حانات دمشق القديمة في بداية الاحتجاجات في المدينة، شعرت أنَّه أصبح صديقي أكثر ممَّا هو أبي، وكلَّما أصبح صديقي أكثر أصبح أبي أكثر أيضًا. كلَّما فكَّرت بعلاقتي به أجد نفسي مربكًا في شرحها، لأنِّي ببساطةٍ لا أعرف كيف أحدِّد مكانته عندي. هل هو أبي، أم معلمي، أم صديقي، أم نديمي، أم محاوري ومرشدي؟ هل هو عدوِّي، أم هو العقبة في حياتي، أم هو من دمَّر حياتي، أم هو من أرغب في قتله وتجاوزه؟ أم هو كلُّ هذه الأشياء مجتمعةً؟ أسأل نفسي هل كلُّ الأبناء يعيشون هذه العلاقة المعقَّدة مع آبائهم، أم أنَّها مجرَّد علاقة أبٍ بابنٍ، يكبر الابن يستقلُّ وتبقى علاقة محبَّةٍ أو عداءٍ مع هذا الأب وفق تاريخ العلاقة؟ لا أفهم ما يحدث معي، طيلة عمري أشعر نفسي أقرب إلى أمِّي، ومنحازًا لها ضدَّه، واليوم أشعر هذا الانحياز كان نوعًا من الهرب منه، الهرب من طغيانه ليس كأبٍ، إنَّما كشخصٍ يأسرك أحيانًا، وينفِّرك بطريقةٍ

مزعجةٍ أحيانًا أخرى. وهذا النوسان في العلاقة ما بين أقصى القمَّة وأقصى القاع كان يربكني، لا سيَّما وأنِّي شخصٌ غير قادرٍ على الخروج من ارتباكي سريعًا، كما أنِّي شخصٌ انفعاليٌّ تكون ردَّات فعلي غالبًا غير محسوبةٍ منِّي، لذلك كثيرًا ما أجد نفسي متورِّطًا في خطأٍ أو خطيئةٍ وغير قادرٍ على التراجع عنها أو الاعتذار ممَّن ارتكبتها بحقِّه، أشعر بالعار وحدي ولا أستطيع الحديث مع أحدٍ آخر في الموضوع. أحيانًا، أشعر بالحاجة لأن يحتضنني وأبكي على صدره كطفلٍ، أن يلعب بشعري، كما كان يفعل وأنا طفل. كنت أقوم بذلك فعلًا، حتَّى قبل أيَّامٍ من وفاته، لم ينهرني يومًا، ولم يقل لي أنِّي كبرت على هذه الأشياء. أحيانًا، أشعر أنِّي بحاجةٍ إلى الصراخ في وجهه، من أجلي، من أجل الخلاص من طغيانه، من أجل فكِّ حياتي من علائقها معه. وأحيانًا، أشعر أنِّي بحاجةٍ إلى الصراخ بوجهه من أجله، من أجل الفرص التي أضاعها، لأنَّه يعطي لنفسه قيمةً أقلَّ ممَّا هو عليه في الواقع، ولأنَّه يترفَّع عمَّا هو له. هو يعدُّها عزَّة نفسٍ، لأنَّها أشياء لا تستحقُّ النظر إليها، وأنا أعدُّها تفريطًا بحقِّه، الذي من الطبيعي أن يدافع عنه. لم يكن هذا جبنًا منه، كان نوعًا من الخجل. والخجل هو الشيء الوحيد الذي يجعله مرتبكًا، وكنت أعتقد أنَّه رجلٌ واثقٌ من نفسه جدًّا لا شيء يربكه. ليست هذه حاله، في المواقف الكبرى لا يرتبك ويتخذ القرار بدمٍ باردٍ، مهما كانت الأحداث مشتعلةً. في مواقف أخرى صغيرةٍ، له مصلحةٌ شخصيَّةٌ فيها تجده يرتبك ويتخلَّى عن حقِّه مباشرةً ويغادر النقاش والمكان مفسحًا المكان للآخرين.

كلَّما كتبت عنه أكثر، أجد نفسي مقصِّرًا وغير قادرٍ على إعطائه حقَّه، وغير قادرٍ على تصويره بالصورة التي يستحقُّها، ولا قادرًا على شرح علاقتنا معًا. وأعتقد أنَّ ذلك يعود لشخصيَّته المتعدِّدة الوجوه. كلُّنا بشكلٍ أو آخر لنا وجوهٌ متعدِّدةٌ، وهذا جزءٌ طبيعيٌّ من حياة البشر، أمَّا تعدُّد الوجوه عنده فهو أكثر من أيِّ شخصٍ آخر عرفته وأكثر حدَّةً. عندما يقع حدثٌ ما،

كنت قادرًا على توقُّع أيِّ تصرُّفٍ يمكن أن تقوم به أمِّي، وغالبًا ما يكون تقديري لتصرُّفها اللاحق صحيحًا، وهذا ما يعطيني مساحةً للتصرُّف الاستباقيِّ لمعالجة ردِّ فعل أمِّي. أمَّا هو من الصعب توقُّع ردَّة فعله على أيِّ حدثٍ، غالبًا ما يُفاجئني، ويقوم بما هو عكس ما توقَّعته منه، يستفزُّني فشلي في ذلك، وهذا ما يجعلني غير قادرٍ على القيام بفعلٍ استباقيٍّ للتخفيف من ردِّ فعله غير المتوقَّع. عندما أفكِّر في مدى معرفتي به، يقودني تفكيري إلى سؤالٍ رئيسيٍّ، ما الذي أعرفه عن حياته، حتَّى أستطيع عدَّ نفسي على معرفةٍ جيِّدةٍ به؟ في هذا الموضوع أجد نفسي مرتبكًا، لأنَّ معرفتي بحياته، تجعلني قادرًا على القول إنِّي أعرف الرجل، وهو ما يقع في دائرة الافتراض. أفترض أحيانًا أنِّي مطلعٌ على تفاصيل حياته، وأحيانًا أخرى عندما يحدِّثني الآخرون عنه، أشعر أنَّهم يتحدَّثون عن شخصٍ آخر، أو بالأصح يتحدَّثون عن أشخاص متعدِّدين وليس عن شخصٍ واحدٍ، والأحداث التي تُروَى عن أبي ولا أعرفها تجعلني أشكُّ في معرفتي به، فهذا الرجل الذي يتحدَّثون عنه شخصٌ لا أعرفه.

3

حاولت جمع سيرته من معارفه وأصدقائه وإخوته وأقاربه، لأرسم صورةً للرجل الذي كنت أعتقد أنِّي أعرفه كراحة كفِّي، لأكتشف فعليًّا أنِّي لا أعرفه وأحتاج إلى الكثير من البحث لأعرف حقيقته التي باتت سرًّا بالنسبة لي. لا أستطيع القول إنِّي أرسم له صورةً كاملةً، بل أحاول مقاربته برسم صورةٍ تقريبيَّةٍ وفق المعلومات التي توافرت لي، والتي يمكن أن تكون ناقصةً، كما كانت معلوماتي السابقة، التي اعتقدت أنَّها كاملةٌ عن الرجل، الذي هو أبي.

من زاوية الشكل، تبدو سيرته كسيرة أيِّ شخصٍ وُلِدَ في المخيَّم وخاض تجربته المحكومة بالمكان والانتماء، المكان ضيِّقٌ، والانتماء تهمةٌ.

لم يحبَّ أبي المخيَّم، رغم أنَّه عاش جلَّ حياته فيه، كان يقول: «مش ممكن أحب المكان اللي بيعلن طول الوقت عن بؤسي، كل بيت وكل حارة وكل لافتة في المخيَّم بتحكي عن بؤس المخيَّم. المخيَّم مكان بذكرني بمسار الذل اللي عشته وعاشوه أهلي قبلي وأولادي من بعدي. بعرف إنُه كثير من أهالي المخيَّم بفكروه الجنة، بس أنا بكره المكان، ما في شي بالدنيا بخلِّيني أحب شي هو عنوان بؤسي!»، هذه نصف الحقيقة، ويمكن قراءة هذا الكلام، قراءةً خاطئةً، أنَّه يترفَّع على المخيَّم ويرى نفسه أرفع مقامًا من أهله. وهو تفسيرٌ خادعٌ لموقفه من المخيَّم، يكره المخيَّم ويحبُّ أهله، فهؤلاء لا ذنب لهم بما آلت إليه حياتهم، مرُّوا بظروفٍ أقوى منهم، لم يكونوا قادرين على صناعة حياتهم في بلدهم، فصنعوا أعجوبتهم وحوَّلوا المخيَّم إلى الجنَّة، بالخيال على الأقل، وبات المكان بديلًا مؤقَّتًا للوطن الساحر، وهذا الوطن الساحر أعطى هذا المكان شيئًا من سحره، لأنَّ سكَّانه

حملوا رائحة الوطن وزرعوها في أرض المخيَّم البائسة، لتنمو بشرًا حالمين باستعادة جنَّتهم وحياتهم التي انتُزِعَت منهم عنوةً، وأُلقُوا على قارعة الطريق، والعالم يتفرَّج عليهم، وعندما نظر إليهم، منحهم القليل من الطحين والسكر والملابس المستعملة ليستكملوا حياتهم في مناطق مهملةٍ من أوطان الآخرين. أستطيع القول إنَّه مقتنعٌ بعكس ما يقول، دون أن يصبح ما يقول نافلًا، فهو يحبُّ المخيَّم، لأنَّه يعتقد أنَّ المخيَّم هو الناس الذين فيه، وهؤلاء هم الذين صنعوا المخيَّم، بالكثير من الجهد والتعب، هم يستحقُّون كلَّ الاحترام على جهدهم لصناعتهم حياتهم من دون وطنٍ ومن طين أوطان الآخرين. لكنَّ هذه الجهود الكبيرة لم تغيِّر من الواقع البائس للمكان، بوصفه يعيش على هامش المدينة، بنوه غرباءٌ في منطقةٍ مهجورةٍ، ليس فيها سوى الطين والحشرات، ليحوِّلوها إلى مكانٍ صالحٍ للعيش، يستقبل غرباء الوطن الذي يعيشون فيه. القادمون إلى المخيَّم من أهالي البلد أعجبهم أن يتخفَّوا في هوية الغرباء الذين بنوا المكان، وقبلوا أن يندمجوا في هويةٍ أخرى تنطبق على المكان، مكانهم، فوجدوا أن يكون المكان هوية الغرباء، يعني بالضرورة أنَّه يشملهم كغرباء في أرضهم ووطنهم، وهو ما جعل المخيَّم اتحادًا للغرباء، الخارجيِّين والداخليِّين.

هناك الكثير من الأشياء التي أزعجته في حياته في المخيَّم، لم يكن يخجل بالحديث عن تجربته. حبوب دواء الغدَّة كريه الطعم أوَّل ما كره في المدرسة، الذي كان المعلم يضعه في يده مع حبَّه زيت السمك، عندما يقترب دوره في الصف الذي يوزِّع عليهم حليب الأونروا بطاسات الألمنيوم، التي تغسل بلحها بالماء فقط، ويأتي الطلاب من الصفوف الأخرى ويشربون الحليب في الكاسات ذاتها. الكريه في حبَّة دواء الغدة، أنَّه لم يكن يستطيع بلعها، حتَّى مع شرب حليب الأونروا الذي يكرهه، كانت حبَّة الغدة تبقى عالقةً في حلقه وطعم المرار الذي تتركه يعكِّر يومه كاملًا. ولم يحبَّ زيارات المسؤولين الدوليِّين ليتفقَّدوا صفوفهم، وكان يقول: «شو بيعطيه الحق إنُه

يتلصص على حياتنا، غير إننا بؤساء ومشرَّدين، ليش حياتنا مستباحة لتعرض كنموذج لبؤس اللاجئين وحياتهم؟ من حقنا نعيش حياة كريمة، وإنُه نحافظ على خصوصياتنا، بس هذا ما صار ولا بيوم، إذا ما تلصص الموظفون الدوليون على حياتنا، بيتلصص المخبرون وفروع المخابرات في البلد».

لم يكره طفولته على بؤسها، كره الأونروا وحبوبها المرَّة، كره المدرِّسين الذين يجلدون الطلَّاب دون سببٍ، كره المدير عندما رفعه فلقةً أمام كلِّ المدرسة دون أن يرتكب أيَّ ذنبٍ. فقرَّر هو وصديقه الذي عُوقِبَ مثله، أن يعاقبا المدير بدورهما ردًّا على الظلم الذي تعرَّضا له، فقرَّرا سرقة المدرسة عقابًا للمدير. نجحت الخطَّة وسرقا الكثير من كتب المدرسة وباعاها في «المسكية» سوق بيع الكتب المدرسيَّة المستعملة التي كانت قائمةً قرب الجامع الأمويِّ في وسط دمشق. انكشفت السرقة، وتنصَّل أهل صديقه من مسؤوليَّة ابنهم، ما جعله يتحمَّل المسؤوليَّة عن الحادثة وحده، استعاد أعمامي الكبار الكتب المسروقة من «المسكية» بأسعارٍ مضاعفةٍ، والتي لم يجدوها تغرَّموا بثمنها، حتَّى لا يذهب طفلهم إلى الإصلاحيَّة، والتي هي أسوأ من السجن في سورية.

بعد وفاة أبي بقيت لأشهر غير قادرٍ على الاقتراب من أوراقه وجهاز الكمبيوتر الخاصِّ به، لا أعرف إذا كان ذلك خوفًا من اكتشاف ما يهزُّ صورة أبي التي اعتقدت أنَّها اكتملت عندي في السنوات الأخيرة التي قضيناها معًا، أو خوفًا من الموت نفسه، الذي خطف أبي وترك أوراقه أمامي، تذكِّرني بأنَّ الموت دائمًا قريبٌ منَّا أكثر ممَّا نتصور. بوفاة أبي، أصبح لأغراضه رهبةٌ، قد تكون رهبة أغراض الميت، فالبعض عندما تقول لهم هذه الأغراض كانت لميت، يرفضون استخدامها، وكأنَّ الموت مرضٌ معدٍ. تعود رهبة أغراض أبي إلى علاقتي المتوتِّرة به، وتحوُّلها إلى إعجاب بالرجل، وبعدها من خوفي عليه وخوفي من فقدانه، وهذا الخوف الذي سرعان ما وقع بعد اكتمال علاقتي به، ليس كأبٍ فحسب، بل كصديقٍ وكرجلٍ صاحب تجربةٍ، حاولت أن

أستفيد منها، وأن أطلَّ عليها، لأنَّها تستحقُّ أنَّ تُعرَف. بعد أشهرٍ، استطعت الاقتراب من أغراضه، وبدأت أبحث في أوراقه لسببين: الأوَّل: كي أرتِّبها، والثاني: لأفصل الشخصيَّ عن العام، أي ما كان ينوي الاحتفاظ به دون نشر، وما كتبه من أجل النشر.

تبيَّن لي، بعد فرز أوراقه والملفَّات على كمبيوتره الشخصي، بين الروايات والمواد المكتملة التي تصلح للنشر، وبين المشاريع الكتابيَّة غير المكتملة، أنَّه كتب الكثير من المقالات والعديد من الكتب في السياسة والأدب، والكثير من مشروعاتٍ كتابيَّةٍ غير مكتملةٍ، وكلُّها موجودةٌ في مجلَّدين على الكمبيوتر. مجلَّدٌ أوَّل، فيه كتاباته السياسيَّة والفكريَّة والمقالات النقديَّة، من مقالاتٍ ودراساتٍ وكتبٍ سياسيَّة. مجلَّدٌ ثانٍ، تحت عنوان «الروايات»، لم يكن هذا المجلَّد الأهمَّ بالنسبة لي فحسب، وبالنسبة له أيضًا. على الرغم من قلَّة الروايات التي نشرها قبل وفاته نسبيًّا، وعددها أربعةٌ، إلَّا أنَّه عدَّ كلَّ الأعمال الكتابيَّة الأخرى، الصحفيَّة والسياسيَّة والفكريَّة والنقديَّة، تأسيسيَّةً للعمل الأساسيِّ، الروايات. كتب كتابًا عن اللاجئين الفلسطينيِّين، وكتابين عن التجربة السياسيَّة الفلسطينيَّة، وكتابًا عن الشعر الفلسطينيِّ، وكتابًا عن الرواية الفلسطينيَّة. أمَّا مجلَّد الروايات، فقد احتوى على الروايات الأربعة المنشورة، الأولى بعنوان «قرب النبع» وهي روايةٌ تتحدَّث عن الأحداث في بلدةٍ على سفح جبل الكرمل، في الأشهر القليلة التي سبقت نكبة العام 1948، عن رجلٍ لم يجد جدوى من الخروج من البلد، بعد هرب السكَّان للنجاة بأرواحهم. ليس لأنَّه لا يعرف ما ينتظره من مصيرٍ في تلك الحرب، بل لأنَّه لا يريد أن يعرف مكانًا آخر غير المكان الذي وُلِدَ وعاش فيه، فيقرِّر الصمود مع من بقي من مقاتلين، ويقضي في التصدِّي للهجوم اليهوديِّ على بلدته. الرواية الثانية بعنوان «ما بعد البنادق» وتتحدَّث عن انهيار أحلام جيل الستينيَّات في التجربة الفلسطينيَّة وتحوُّلات العمل السياسيِّ الفلسطينيِّ، من خلال الشخصيَّة

الرئيسيَّة في العمل، الذي تبدأ حياته السياسيَّة مقاتلًا في صفوف الثورة الفلسطينيَّة، يعيش تجربة الأسر في السجون الإسرائيليَّة بعد عمليَّةٍ فدائيَّةٍ داخل فلسطين، ويخرج منها بطلًا بعد عمليَّة تبادلٍ للأسرى مع إسرائيل. بعد خروجه من الأسر، تتالى الهزائم والتراجعات، ويتحوَّل من شخصٍ حالمٍ يريد تغيير العالم إلى شخصٍ كئيبٍ سوداويٍّ، حياته عبءٌ عليه. الرواية الثالثة بعنوان «وهم القمَّة» وهي روايةٌ عن أحداث سورية، تتحدَّث عن نظرة الطاغية للبلاد التي يحكمها، وللبشر الذين يحكمهم بوصفهم وقودًا لمعارك يخوضها بهم، كلُّ ذلك لأنَّه يعرف مصلحتهم أفضل منهم، وهم لا قيمة لهم دونه، لذلك فهو يمنُّ عليهم عندما يقتلهم ويدمِّر البلاد. الرواية الرابعة بعنوان «أن تكوني امرأةً» وهي تتحدَّث عن النساء، وكيف أنهنَّ محكوماتٌ بعشرات القيود، مهما كانت مكانتهم الاجتماعيَّة، سواءٌ كانت المرأة طبيبةً أو وزيرةً، أو كانت عاملة نظافةٍ وربَّة بيتٍ، فقد وُضِعَت سقوفٌ صارمةٌ لهنَّ، لا يستطعن تجاوزها، وفي حال حاولن ذلك، يَحكُمُ عليهن المحيط الاجتماعيُّ بأقذر الأحكام، وهي الأحكام المسبقة والجاهزة كسيفٍ مُسلَّطٍ عليهن لمنعهن من حيازة حريَّتهن. إضافةً إلى الأعمال المنشورة، هناك ثلاث رواياتٍ منجزةٍ، وعلى الأغلب منجزةٌ قبل آخر الأعمال المنشورة، ورغم أنَّها أعمالٌ كاملةٌ وجميلةٌ، إلَّا أنَّه لم ينشرها، لا أعرف السبب ولم يتكلَّم عن هذه الأعمال أمامي سابقًا. الرواية الأولى بعنوان «ضدُّ الريح» وتحكي عن شخصٍ متمرِّدٍ على الدولة العثمانيَّة في نهاية القرن التاسع عشر، ليس لتمرُّده أيُّ أساسٍ سياسيٍّ، هو احتجاجٌ على الظلم العثمانيِّ، يجمع عصابة رجالٍ خارجين عن القانون، ويقومون بهجماتٍ ذات طابعٍ انتقاميٍّ محدودٍ. لكنَّ الدولة العثمانيَّة ترى في هذه العصابة تهديدًا للدولة العليَّة، ما يجعلها ترسل جيشًا للقضاء على هذه العصابة التي تهدِّدها، تقضي المجموعة الرئيسيَّة للمتمرِّدين وعلى رأسهم مؤسِّس العصابة في صمودٍ مشرِّفٍ في معركةٍ غير متكافئةٍ على الإطلاق. الرواية

الثانية وتحمل عنوان «امرأةٌ ولا كلُّ الرجال» وتحكي قصَّة امرأة تواجه تحدِّيات لجوء ما بعد النكبة الفلسطينيَّة وحدها بسبب سلبيَّة زوجها، وهذه المرأة الأميَّة، تصرُّ على أن يحصل أولادها الذين خرجت بهم من فلسطين والذين أنجبتهم في مخيَّمات اللجوء، على أعلى تعليمٍ، حتَّى لا يكون مصيرهم مثل مصيرها هي وزوجها الأميَّين. تدير حياة العائلة على هذا الأساس، ويبقى هدفها ثابت الاتجاه، لا تنجح مع الجميع، لكنَّها تنجح مع أغلبيَّة أولادها. وفي هذه الرواية الكثير من تجربة جدَّتي التي أعرفها قبل قراءتي الرواية، وكأنَّها سيرةٌ ذاتيَّةٌ لها. والرواية الثالثة وتحمل عنوان «العيش تحت اسمٍ مستعارٍ» وهي تحكي قصَّة صحفيَّةٍ سوريَّةٍ تعمل في جريدةٍ رسميَّةٍ. يجعلها جبنها في عملها تكتب مقالاتٍ ومتابعاتٍ تافهةً، حتَّى لا تقع في دائرة المسائلة، خوفًا على أولادها، من مصيرٍ يصيبها بسبب مقالٍ قد يثير أحد فروع المخابرات. هي تعرف أنَّ مقالاتها لا تعبِّر عنها، لأنَّها تملك قدرةً مهنيَّةً أرفع بكثيرٍ ممَّا تقدِّمه في مقالاتها وتحقيقاتها، لكنَّها لا ترغب في إظهار هذه القدرة، فهي لا ترى جدوى من هذه الكفاءة في واقعٍ وظيفيٍّ، لا يقيم أيَّ قيمةٍ للكفاءة، إنَّما للولاء، وهي لا تريد أن تعلن الولاء لأحدٍ، لذلك عليها تجنُّب أيَّ صداماتٍ وأيَّ معارك فائضةٍ عن الحاجة، ولا جدوى منها، لذلك تقرِّر العمل بالتفاهات المطلوبة في الصحافة الرسميَّة. تؤدي هذا الدور على مدى سنواتٍ، لكنَّها غير مقتنعةٍ بما تؤديه، وبينها وبين نفسها تخجل من هدر عمرها على مواد صحفيَّةٍ تافهةٍ، في الوقت الذي تملك القدرة على كتابة مواد صحفيَّةٍ تثير جدلًا واسعًا في موضوعاتٍ كثيرةٍ، بوصف الصحافة سلطةً رابعةً مهمَّتها إثارة الجدل وكشف المستور، ووضع القضايا المهمَّة موضع النقاش العام، وفضح الفساد. هذا لم يكن مطلوبًا في الصحافة الرسميَّة إلَّا في حدود ما تحتاجه السلطة لمعاقبة المتمرِّدين عليها، وليس لما يحتاجه المجتمع. تبقى متذمِّرةً من حياتها المهنية، حتَّى تنفجر الاحتجاجات في البلد، عندها تقرِّر أن تخرج من

حذرها السابق، عادَّةً أنَّ الاحتجاجات جعلت للكتابة معنًى آخر، وبات الوضع يستحقُّ العمل الصحفيَّ الحقيقيَّ الذي تجيده للإسهام في تغيير البلد نحو الأفضل. ولأنَّها لا تستطيع أن تؤدي هذا العمل في جريدتها. أدَّته لصالح صحيفةٍ عربيَّةٍ تصدر خارج سورية. وحتَّى لا تعتقل، تكتب تحت اسمٍ مستعارٍ، ما يجعلها تُقدِمُ على عمل هامٍ في التغطية من قلب الأحداث، ما يعرِّضها للاعتقال، ليس بسبب مقالاتها التي تكتبها تحت اسمٍ مستعارٍ، إنَّما بسبب وجودها الميدانيِّ بين المتظاهرين والنشطاء. عندما تخرج من السجن بعد حوالي العام، تجد البلد قد تغيَّرت كثيرًا للأسوأ، وبات العيش فيه مستحيلًا، مع القمع الشديد الذي تتعرَّض له الاحتجاجات ومع التدمير الواسع للبلد بالبراميل المتفجِّرة والصواريخ، تقرِّر هي وزوجها الخروج من البلد، لحماية أطفالهم من مصيرٍ صعبٍ. تهاجر عبر رحلةٍ صعبةٍ إلى ألمانيا، لتعيش حياةً تعيسةً في لجوءٍ عدَّته مؤقَّتًا، لتكتشف أنَّه دائمٌ.

أمَّا الأعمال غير المكتملة فهي كثيرةٌ، منها ما كتب فيه صفحاتٍ عدَّةً فحسب، ومنها ما كتب فيها مقاطع، وهناك مقاطع كُتِبَت خارج مجلَّدات الرواية، وهذه على ما يبدو، لم يكن قد حسم في أيِّ روايةٍ سيستخدمها. هناك عملان كانا في طريقهما إلى الاكتمال، الأول «صنع الحنون» وهي تحكي قصَّة جريمة قتلٍ غريبةٍ، عن فتاةٍ وقعت في حبِّ شابٍّ وأرادا الهرب معًا دون أن يعرف أحد بهربهما. وكانت الخطَّة الجهنَّمية التي تقضي بقتل أخت الفتاة المعوَّقة بعد استبدال ثياب الفتاة بثياب أختها المعوَّقة، وقطع رأسها وأخذه معهما، لترك الانطباع، أنَّ التي قُتِلَت هي الفتاة التي هربت، والتي هربت هي الفتاة المعوَّقة. فقد كان جسد الفتاتين متساوٍ بالحجم، في البداية تنجح الخطَّة، ولكن تبدأ الشكوك وتبدأ الخطَّة بالانكشاف، لأنَّ الرواية غير منتهيةٍ، لا نعرف ماذا يحدث في نهايتها. والثانية الرواية التي بين أيديكم والتي تحمل عنوان «صوت السماء» وأنا أضفت «حكاياتٍ عن

الحرب والحبِّ» كعنوانٍ فرعيٍّ، محاولةً لتوضيحٍ أكبر لمضمون العمل، وأتمنَّى ألَّا تكون إضافةً سيِّئةً. لن أتحدَّث عن هذا العمل، لأنَّ وصول القارئ إلى هذه السطور، يعني أنَّه قد قرأ العمل. ما أريد قوله عن هذا العمل، أنَّ أبي عدَّه العمل الرئيسيَّ في تجربته الكتابيَّة، واستغرقت كتابته زمنًا طويلًا، وجرت عليه تغييراتٌ وتعديلاتٌ كثيرةٌ وكبيرةٌ. لم يكن واثقًا من قدرته على إنهائه قبل موته، ولم يعرف عدد الصفحات التي سيكتب، لم يحبِّذ الأعمال الضخمة يومًا، لأنَّه عدَّ أنَّ القارئ لا يملك الكثير من الوقت ليقرأ الروايات الضخمة، رغم رواج عددٍ منها في فترة كتابته لهذه الرواية، مثل رواية بول أوستر كاتبه المفضَّل الأميركيِّ «4 3 2 1» وهي أكثر من ثمانمئة صفحةٍ من القطع الكبير، وكذلك رواية رفيق شامي السوريِّ/ الألمانيِّ «الجانب المظلم للحبِّ»، والتي تبلغ صفحاتها أكثر من ألف صفحةٍ من القطع الكبير، وكذلك أعمال الإسباني كارلوس زافون، لا سيَّما عمله «متاهة الأرواح»، الذي يتجاوز الألف صفحةٍ من القطع الكبير. قادته الرواية وليس هو من قادها، كما أسرَّ لي مرَّةً، لأنَّه غير متحكِّمٍ بالعمل، فكان من الطبيعي ألَّا يعرف متى سينتهي منه، وهل سينتهي فعلًا؟ وهل كتب هذا العمل من أجل إنهائه، أم كتبه من أجل إشغال نفسه بعملٍ ظنَّ بأنَّه غير قابلٍ للإنجاز؟ وبأنَّه سيبقى يعمل به حتَّى وفاته دون أن يكتمل، حتَّى لو عاش عشر سنواتٍ أخرى، لن يكون قادرًا على إنهائه. كان قلقًا تجاه أعماله، وكان القلق الأكبر تجاه هذا العمل الضخم متعدِّد المسارات والشخصيَّات. أعتقد أنَّه خاف منه، فأصرَّ في لا وعيه، على عدم إكماله بسبب هذا الخوف. لا أعرف من أين نبع خوفه من كتاب يكتبه؟! فهو ليس كذلك في حياته. حتَّى لا أجد نفسي عالقًا في التفسير التلصُّصيِّ، كالذي يحاول قراءة الروايات بوصفها سيرًا ذاتيَّةً مموَّهةً للكتَّاب أو الكاتبات. فأنا لا أقصد ذلك، كلُّ ما أريده هو معرفةٌ أعمق لحياته، وبالتأكيد إنَّ أجزاء من هذه الحياة تسرَّبت إلى رواياته، واستطعت تمييزها عندما قرأت هذه المقاطع؛ ميَّزتها لأنِّي أعرف

أنَّها حقيقةٌ حدثت في حياته، قبل أن أقرأها في رواياته. لكن هناك الكثير ممَّا أعرفه عن حياته لم يندرج فيها.

4

عندما وقع هذا العمل بين يديَّ، ومنذ قرأت التمهيد له عرفت أنَّها تتحدَّث عن عائلتنا، جدِّي وجدَّتي وأعمامي وأولادهم، وعمَّاتي وأولادهم، هذا من ناحية البنية، ولأنِّي غير مطلعٍ على حياة الجميع، لم أعرف ما الحقيقي وما المتخيَّل في الفصول التي تتحدَّث عن أفراد العائلة. استعجلت القراءة حتَّى أصل إلى القسم الذي يغطِّي عائلتنا الصغيرة، أنا وأبي وأخي وأمِّي، لأعرف حجم المتخيَّل والواقعي في عائلتنا كما صوَّرها أبي في روايته. وجاءت الخيبة عندما انتهت الأوراق المكتوبة، وليس هناك أيُّ قسم يغطِّي عائلتنا الصغيرة، أُصِبتُ بالإحباط والخيبة. عدت إلى المجلَّد التاسع الذي يعود إلى الرواية على الكمبيوتر، والذي يعني أنَّه يتكلَّم عن العائلة التاسعة والأخيرة في تسلسل العائلات في الرواية، وهذا موقعنا الطبيعيُّ في عائلة أبي. وجدت المجلَّد فارغًا، كتب في المجلَّدات الأخرى الكثير من المقاطع المتفرِّقة غير المكتملة والتي لم تُصَغ على نحوٍ نهائيٍّ وكاملٍ، مجرَّد تجميعٍ أوَّلي من أجل الكتابة، ولا أستطيع القول إنَّها مقاطع مكتملةٌ. أردت أن أقرأَ عن نفسي، وأعرف ما الذي كتبه عنِّي، وما المتخيَّل وما الواقعي الذي كتبه عنِّي وعن علاقتي به، وما مدى معرفته بحقائق حياتي. كان فضولي جامحًا، لكن ما تُقْتُ إليه لم أجده. كلُّ أقسام الرواية المكتملة جمعها أبي في ملفٍ واحدٍ. ومن الواضح أنَّه يكتب القسم المحدَّد من الرواية، يُراجعه ويُصلحه ويُضيفه إلى الأقسام المنجزة من العمل، أمَّا الأقسام غير المكتملة على نحوٍ نهائيٍّ لم يضفها أو يضف مقاطع منها إلى كتلة العمل المنتهية والمُراجعة. لقد خسرت فرصة معرفة أيِّ نصٍّ يمكنه كتابته عنِّي، وهي المرة الثانية التي أخسر هذه الفرصة. لقد كتب أبي يوميَّاته على مدى سنواتٍ طويلةٍ في

خمسة عشر دفترًا، احتفظ بها في صندوق الصوفا في منزلنا في المخيَّم، وكلَّما امتلأ دفتر ضمَّه إلى إخوته، وكان يأمل أن يأتي يومٌ ويستفيد من هذه اليوميَّات في أعماله الروائيَّة القادمة. للأسف، خسر هذه الدفاتر في الحرب، فبعد أن غادر وغادرنا دمشق، دخلوا إلى بيتنا سرقوه وأشعلوا فيه النار. عدَّ أبي خسارة الدفاتر أقسى خسارةً تعرَّض لها في حياته. بالنسبة له، كانت الدفاتر أهمُّ من المنزل والمكتب والسيَّارة وكلِّ الأغراض التي خسرها. لم يتأثَّر أبي بالخسائر الماديَّة التي تكبَّدها خلال السنوات الطويلة للأزمة. قبل الحرب وخلالها وبعدها، كرَّر الكلام نفسه على مسامعي: «من أنا عمري خمسطاعشر سنة، قرَّرت أن أكون مثل بؤساء هيغو، ألَّا أنظر خلفي»، وبعد ذلك أصبح يقول: «أنا مثل بؤساء هيغو، فالبؤساء لا ينظرون خلفهم»، وهي استعارةٌ من رواية فيكتور هيغو الشهيرة «البؤساء» فعندما يغادر جان فالجان بطل الرواية المدينة بعد أن يسجن بسبب رغيفٍ «لم ينظر خلفه، لأنَّ البؤساء لا ينظرون خلفهم، فهم يعلمون أنَّ النحس يلازمهم، والشقاء يطاردهم»، كما كتب هيغو.

لم يبقَ أمامي لمعرفةٍ أفضل لأبي سوى أن أحفِّز ذاكرتي وذاكرة معارفه وأصدقائه وأقاربنا لأحاول رسم صورةٍ له، تُخرجه من الغموض الذي يكتنف شخصيَّته بالنسبة لي. ولا أدَّعي أنَّ ما وصلت له يشكِّل سيرةً ذاتيَّةً مُوثَّقةً له، لكنَّها سيرةٌ تحاول مقاربه هذه الحياة، التي صرت أعرفها أكثر في أثناء بحثي عن ملامح أبي، والتي اكتشفت في نهايتها أنِّي كنت أبحث عن ملامحي أيضًا. تحدَّثت إلى أصدقائه في كلِّ مراحل حياته، إلى أعمامي وعمَّاتي، ونبشت ذاكرتي، وذاكرة أخي وأمِّي، لاستخراج صورة أبي.

أبي آخر الأولاد الذين أنجبهم جدِّي، وعدَّه الجميع مدلَّل أمِّه، وهذا الدلال قد أفسده، وحوَّله إلى شابٍّ أزعر في مراهقته، سادت هذه الصورة عند جميع أعمامي الكبار وعمَّتي بيان، لم تكن هذه صورته عند الإخوة الأصغر، لأنَّهم عاشوا معًا في البيت ذاته. غادر أعمامي الكبار المنزل قبل

ولادته، أو غادروه وهو طفلٌ صغيرٌ، وأولادهم يجايلونه، وبعضهم يكبره سنًّا. وهذه الصورة جعلتهم يخشون على أولادهم من تأثير عمِّهم أو خالهم الأزعر عليهم. لم يتأثَّر أبي بأحكام إخوته الكبار، فهم لم يكونوا جزءًا من عالمه. عندما تحدَّث لي عن هذه الفترة قال: «رسموا صورة إلي وعجبتهم، بس أنا بحياتي ما كنت أزعر، صحيح أني ما كنت أسكت عن حقِّي، وعملت أشياء فظيعة خاطئة وأنا مراهق، بس بحياتي ما كنت أزعر، أو اعتديت على حدا، أو ضايقت بنت، أو حملت موس أو مسدس»، وعندما سألته: «من وين إجت هاي الصورة؟»، قال: «إجت من عنادي، كنت عنيد كثير، والشغلة اللي ما مقتنع فيها، ما بساويها لو بذبحوني. وإجت من طبيعة حياتي، وأنا صغير، ما كان عندي لعبة غير الشارع والبستان، وبالصيف أصير أسود اللون من الشمس لأنِّي طول النهار بالحارة. ببساطة ما كان عندي ألعاب تخليني قاعد بالبيت مثل ولاد إخواتي. إمِّي وأبوي ما بشتروا ألعاب، هاي كب للمصاري. منشان هيك كان لازم أعمل ألعابي بإيدي، سيَّارات من الأسلاك التي نجمعها من الزبالة، ونستخدم راصور التخت لنعمل دركسيون للسيَّارة، ودواليبها من أغطية قناني الكازوز المعدنيَّة، وكنت بحب الأشياء اللي بعملها. أو أعمل زحيطة من دفوف الخشب مع استخدام الرومانات، أو عرباية صغيرة، نحمل فيها طحين الإعاشة ونطلِّع شويِّة فرنكات. أو نلعب طابة أو دحل بالشارع، وبالصيف نطة زودة، يعني كلها ألعاب شوارع. وعندما تلعب بالشارع بدك تصير ابن الشارع ولا الولاد التانيين بيوكلوا حقَّك. بتضرب وبتنضرب، بتنزل دم الآخرين، الآخرين بنزلوا دمك، وطبيعي يكون إلك أعداء وأصدقاء، وأحيانًا بيتغيَّروا، الأصدقاء بصيروا أعداء والأعداء بصيروا أصدقاء. هذا طبيعي بالمخيَّم لما كنت صغير»، عندما تسأل الآخرين عن حقيقة هذه الفترة تسمع رواياتٍ أخرى، تقول عمَّتي بيان: «أبوك كان قرد، ما كان حدا بقدرلوا، مرَّة كان عنَّا قفلت عليه هو وأولادي، وغبت شي نص ساعة، رجعت لقيتو فاتح قفل الباب وهربان.

كيف فتح القفل؟ ما بعرف، سألت ولادي، قالوا ما بنعرف. ومرة أخذناه معنا على معرض دمشق الدولي، تركنا ورجع مشي على المخيَّم، وأخذ ابني سعد معُه، نزعلنا المشوار وبقينا طول الوقت ندور عليهم. وغيرها كثير»، أمَّا عمي خليل فيقول: «كانت تصرُّفاته غريبة، أعطيته ثلاث ليرات ورق لما ساعدني في إدخال بلاط البيت، لما كنت ببني بيتي. وعندما طلع من البيت، مزع الليرات وكبهم. إجا ابني عامر قلي، عمي مزع المصاري، طلعت وضربتُه كف، من يومها ما عاد دخل بيتي لأكثر من خمسطاشر سنة. ويوم عرس أخوي سعيد، وكان العرس عنَّا، ضرب ابني عامر قتلة ورجعُه على البيت مدمى»، كنت أعرف رواية أبي لهذه الأحداث في طفولته، وهو رواها على نحوٍ آخر قبل أن أسمعها من عمِّي وعمَّتي، قال: «وأنا صغير، كانت حريتي كل شي. بس عمتك قفلت علينا الباب، جنِّيت، ولا مرَّة قفلت أمِّي علينا الباب، وأكثر الوقت كان باب بيتنا مفتوح، حتَّى لما بنام. ما كان عندي مشكلة أختي تتركنا وتروح وترجع إيمتى ما بدها وبظل بالبيت، بس من دون ما تقفل علينا الباب. لكن عندما سمعت صوت المفتاح في قفل الباب، جن جنوني، أنا ما بنحبس. كان من السهل فتح القفل بدق اللسان الظاهر للقفل في الباب الحديد وهذا ما كان. ما بظل ورا باب مقفول، وأنا بقدر أطلع»، عن قصَّة ابنها قال: «لما أخذوني على المعرض، ما كنت بعرف أنه رح أكون مقيَّد، تعال لهون، ولا تعمل هيك، لا تبعد... أوامر طيلة المشوار، حسيت حالي بصف المدرسة ولازم أتكتَّف. وقتها، قلت لحالي ماني باقي، تركتهم وروحت مشي، من المعرض على المخيَّم. بس ابنها سعد، ما روَّح معي، ولو كان بدُه يروِّح معي ما كنت أخذتُه. بس عمتك ما بدها تصدق إنُه هو روَّح على البيت لحالُه، وكان أصغر مني بثلاث سنين. وظلت مُو مصدقة حتى لما صار ابنها رجل وعندو ولاد، ويحلف الأيمان إنُه ما كان معي. خلص بالنسبة إلها أنا رأس الفتنة، وما حدا يمكن يغير قناعتها بالموضوع»، أمَّا قصَّة ليرات عمِّي الممزَّقة، فقال: «وأنا صغير كنت كثير

معجب بأخوي خليل، كنت أحسُه شغلة كبيرة، وهو الوحيد اللي لما كان بشتغل بالسعودية جبلي هدية وأنا ولد صغير. طقم رسمي لطفل، وجرَّبت الطقم وكان مناسب، هي الهدية الوحيدة اللي فرَّحتني كثير، لأنُه بحياتي ما إجاني غيرها. وكانت هاي المحبِّة تخليني أحاول أكون قريب من هذا الأخ بعد ما رجع من السعودية. لما بنى بيت جديد مو بعيد عن بيتنا، وكانت عطلة صيفية، كنت أقضي الكثير من الوقت هناك، بحاول أساعد باللي بقدر عليه. ولما جاب أخوي بلاط البيت، نزلوه أمام البيت. سمعت أخي بقول بدنا عمال تدخل البلاط على البيت منشان ما ينسرقوا. قلت له: أنا بفوتهم. قال: أنت؟ قلت: أي أنا. ما كان مصدق أنُه أنا ممكن أفوتهم. قال: فوتهم وبعطيك خمس ليرات. وكانوا مصاري كثار بالنسبة لطفل هداك الوقت. ما صدَّقت. ركضت على الحارة. جبت الولاد صحابي من هناك، ستة ولاد، ومثل القرود بين ضحكة ولعبة قضينا النهار ندخل البلاط على البيت. وأنا سعيد، قلت بعطي كل واحد من الولاد نص ليرة، وبظلِّلي ليرتين، بفوت فيهم على السينما حوالي سبع مرات، كانت السينما بخمس وثلاثين قرش. لما خلصنا ما كان أخوي هناك، إجيت ثاني يوم، وصرت أحوص حوليه، عرف إنُه بدي المصاري. طلع جزدانُه وأعطاني ليرات ورق جديدة بتجرح. طرت من الفرح، طلعت أنط من البيت، ولما وصلت برة البيت، عديت الليرات طلعوا ثلاثة مش خمسة. طارت الفرحة، وحسيت حالي رح أنفجر، مسكت الليرات، وشقيتهم، وأعدت شقهم، حتَّى تحوَّلوا إلى قطع ورق صغيرة، ورميتهم في الأرض. شافني عامر ابنُه، راح قال لأبوه عمِّي مزَّع المصاري. طلع غضبان، وضربني كف. ما حسيت بالوجع، حسيت بإهانة تانية، بتخدعني وبتضربني كمان. ما بكيت قدامُه. ركضت على بيت أهلي، وهناك دفنت رأسي في المخدة الموضوعة على الطراحة في الغرفة الكبيرة، انفجرت بالبكى من القهر. شعرت إنُه أخي سقط من عيني. ما قلت لحدا شو صار، ولما سألتني أمِّي: ليش عبتبكي؟ قلتلها: ما في شي»، وعن حادثة ضرب ابنه قال

أبي: «كنت غلطان، صحيح أنُه عامر عاند لما رحنا نجيب الحلاق للعريس، بس القصة ما كانت بتستاهل الضرب، كنت متأثِّر باللي صار قبل سنين، يمكن هذا السبب اللي خلاني أضربُه بقسوة. أنا ما ببرِّر لحالي، كنت غلطان بهذا الموقف، بس بحاول أفسِّر. وقتها، كنت بعدني ما بفوت بيتهم، فقط طلعت على السطح، لأنُه عرس أخوي سعيد صار هناك. بس البيت ما دخلتُه لبعد العرس بأكثر من عشر سنين».

عاش أبي طفولةً قاسيةً، رغم سمعته كمدلَّلٍ في العائلة، عدَّها طفولةً سعيدةً رغم قسوتها، سعيدةً لأنَّه حرٌّ في حياته، لم تقيِّد جدَّتي حياته، وكان جدِّي غائبًا في دكَّانه طيلة النهار، لا يراه، يذهب إلى دكَّانه قبل أن يستيقظ أبي، ويعود بعد أن ينام. عمِّي سعيد كان المشكلة بالنسبة لأبي، فقد تأخَّر في الزواج، وعدَّ نفسه الوصيَّ على العائلة، بعد زواج عمِّي سعد وخروجه من المنزل، عمِّي سعيد نظر إلى أبي النظرة ذاتها التي عند الآخرين، بوصفه ولدًا أزعر، وكان عليه تأديبه، والتأديب يعني الضرب وفق مفاهيم عمِّي سعيد. ولم تكن هذه المشكلة الوحيدة عند عمِّي بالنسبة لأبي، فلم تكن مسألة الضرب مهمَّةً من وجهة نظر أبي، كان أسلوبًا سائدًا في ذلك الوقت، المشكلة أنَّ عمِّي سعيد ضربه بوحشيَّةٍ، لدرجة أنَّ هناك الكثير من علامات الضرب المبرح بقيت ندباته على رأس أبي طيلة حياته. كما كان من وجهة نظر أبي شخصًا غليظًا، وعندما يمزح يصبح أكثر غلاظةً. والمشكلة الثانية، أنَّه شخصٌ أنانيٌّ. لطالما كرَّر أبي أن أكثر ما أرعبه في حياته وهو طفلٌ، ليس ضرب عمِّي سعيد له، بل مزاحه الخطر. في البناء الأوَّل لبيت جدي، كان يوجد بئرٌ عربيٌّ يعتمدون عليه في الماء الذي ينشلونه منه، بينما يشترون ماء الشرب من الطنابر العابرة والتي تجلب ماء الفيجة من الميدان في تنكاتٍ، كان عمِّي سعيد يمسك أبي من قدميه ويدلي جسده في البئر، ويقول له وهو يضحك: «أزتك... أزتك»، وصف أبي الحادثة، وهو يقول: «لما أشوف المي تحتي، وراسي بقلب بالبير، وشايف انعكاسي بمية البير، أَنْخِرِسْ، ما أعود

قادر أصرخ، ولا قادر أبكي، أسمع ضحك سعيد وكأنَّها سكاكين تنغرس في قلبي. بجي الفرج لما أسمع صوت أمِّي بقول: الله لا يعطيك العافية. إترك الولد من إيدك، هلأ بقع. والله أنت ما بتعقل، عقلك أصغر من عقلُه. لما بصير برة البير بصير أبكي. الكارثة إنُه كان يعمل هيك منشان يسلِّيني، ما كان بيعرف أنُه بيرعبني»، وزاد نفور أبي من عمِّي سعيد مع الوقت لسلوك عمِّي الأنانيِّ في مواقف عدَّةٍ كان شاهدًا عليها. فعندما اصطحبه إلى المدرسة معه وهو طفلٌ قبل دخوله المدرسة، فهو عمل معلمًا في مدرسة محمد الأشمر الابتدائيَّة في أوَّل الزاهرة، ويُدرِّس الصفَّ الأوَّل. عندما يريد أن يأكل في الصف، يقول للطلَّاب: «ناموا» وهو أمرٌ بموجبه يخفض التلاميذ رؤوسهم على مقاعدهم حتَّى لا يشاهدوا المعلم وهو يأكل، قال أبي: «ما أقدر آكل، وما كنت بقدر أشوف ولاد بعمري بتلصَّصوا علينا وإحنا مناكل، ما بقدر أتحمَّل نظراتهم المسروقة إلى الأكل قدامنا»، مرَّة أخرى اعترت الدهشة أبي عندما اصطحبه وهو طفلٌ من أجل زيارة عمِّي سعد في دوما. وقتها كانت باصات دوما تنطلق من قرب جسر الثورة في قلب المدينة، حيث يقع سوق الهال قبل نقله إلى منطقة الزبلطاني في طرف المدينة. قبل أن يركبا الباص الذاهب إلى دوما، اشترى عمِّي سعيد بعض الموز، وهو شيءٌ نادرٌ وغالٍ في تلك الأيَّام، استحسن أبي فكرة أن يأخذ عمِّي سعيد إلى أخيه وأولاده بعض الموز، الذي لا يراه إلَّا نادرًا. قال أبي: «بعد ما طلعنا بالباص، أعطاني سعيد موزة أكلتها، أعطاني وحدة ثانية أكلتها، أعطاني وحدة ثالثة، قلتلُه: خيَّا ما عاد قادر آكل. قال: دبرها. أكلت الثالثة بصعوبة، وحسيت حالي رح أتفجر. بعد ما وصلنا دوما، ونزلنا من الباص. أعطاني موزة رابعة، وقلي: كلها. قلت: ما بقدر، شبعت. قال: شو نعمل بهدول، كان بقي ثلاث موزات. قلت: كبهن، إذا أكلت كمان موزة بموت. وفعلًا كبهن»، لم يُقدِّر أبي أنَّ عمِّي سعيد اشترى الموز لنفسه، لذلك اندهش حتَّى عندما رمى ما تبقَّى. من هذه التصرُّفات الأنانيَّة التي كانت تشبه تصرُّفات جدِّي بشأن الطعام وَلَّدَ

ردَّ فعل أبي تجاه تفضيل الطعام الجيِّد لنفسه. يقول: «حتَّى أبوي كان بعمل هيك، عدة مرات عندما نزوره في دكانه قرب الإعاشة، وكان يوكل الغدا بالدكان مو بالبيت، كنا نفاجئه وهو يأكل صنية صغيرة من اللحمة، يخبزها في الفرن القريب من دكانه، في الوقت الذي كنَّا فيه نأكل أقل الطعام في البيت. هذا ولَّد عندي رد فعل كل عمري، ما بقدر آكل شي برة البيت، من دون ما أَجيب مثلُه معي على البيت. كثير من الأشياء الصغيرة أثَّرت فيِّي وكوَّنتني. كنت وأنا شب صغير أفكِّر إنُه الحياة بتتكوَّن من المبادئ الكبيرة، مع الوقت اكتشفت العكس، الحياة بتتكوَّن من التفاصيل، التفاصيل الصغيرة هي اللي بتصنعنا، مش المبادئ الكبيرة»، لا أعرف تمامًا، هل حاول أن يقنعني بما هو مقتنعٌ به، أم حاول أن يعطيني درسًا في التربية لأنِّي ابنه. وأنا أميل إلى أنَّه تحدَّث عن تجربته في الحياة، لأنَّه رجلٌ حاول الحفاظ على القيم التي عدَّها أساسيَّةً، بعدما سقطت المبادئ الكبرى أو الأيديولوجيا التي حملها. فهو لم يخفِ ماركسيَّته، ولم يحاول الدفاع عنها عندما سقطت، بقي حاملًا للقيم الشخصيَّة ذاتها بصرف النظر عن الأيديولوجيا التي حملها، كان الشخص نفسه قبل سقوط الماركسيَّة وبعده. كان منحازًا للضحايا والمظلومين، منحازًا للعدالة، ولم يكن قادرًا على الاصطفاف مع المنتصر حتَّى في مباراة لكرة القدم، عندما يربح الفريق الذي يشجِّعه، يشعر بتعاطفٍ مع الفريق الخاسر. هذا لا يعني أنَّه رجلٌ ضعيف القلب، على العكس، كلُّ المسألة أنَّه يملك حساسيَّةً شديدةً تجاه الضحايا أو الظلم. كان نسيجًا وحده، وقد قرَّر منذ كان في سنِّ المراهقة، أن يعيش حياته، كما يريد، دون أخذ المحيط وأحكامه بعين الاعتبار. فضَّل أن يعيش كما يشاء ويصطدم مع المحيط، على أن يعيش بسلامٍ ويتملَّق المحيط، ويلبس الأقنعة التي تعجبهم. بحكم هذه الطبيعة، عاش سنواتٍ طويلةً في قطيعةٍ مع كلِّ أفراد عائلته، لم يسبِّب ذلك له أيَّ حسرةٍ. الاستثناء الوحيد كانت جدَّتي، التي عدَّها الشخص الوحيد الذي يهمُّه في العائلة،

وهي الوحيدة التي حاول ألَّا يُغضبها. طيلة الوقت ربط حبلٌ سريٌّ بينهما حتَّى في لحظات القطعية. هي الشخص الوحيد الذي يحسب له حسابًا، ليس لأنَّه يخافها، بل لأنَّه يحبُّها. فلطالما عدَّ نفسه تربية أمِّه. وكان يردِّد دائمًا مفسِّرًا حساسيَّته بالقول: «أنا ترباية أمِّي، مش تربابة أبوي. يعني تربابة مرة، والنسوان عندهم حساسيَّة أكثر من الرجال، وحساسيتي إجت من تربابة أمِّي. وأنا سعيد إنُه أبوي كان بعيد حتَّى ما يربيني. لإنُه أمِّي أجرأ من أبوي، لو ربَّاني أبوي، مو بس طلعت أقل حساسيَّة، وطلعت أجبن، لإنُه شخص استسلامي».

5

عندما أجمع أجزاء حياته لأجعلها متماسكةً، أجدها تهرب منّي، والسبب أنَّها لم تكن منتظمةً في الواقع، ما يجعلها غير منتظمةٍ في محاولة توثيقها أيضًا. فهي حياةٌ المتوقَّع لا يحدث فيها، وليس من السهل تبرير غير المتوقَّع في حياةٍ عاديَّةٍ، لكنَّها حياةٌ غريبةٌ في عاديَّتها. والتعامل مع شخصيَّةٍ قلقلةٍ، عاشت حياةً تشبهها في قلقها، بعيدةً كلَّ البعد عن الحالة الطبيعيَّة التي يعيشها البشر، يصبح صعبًا الإمساك بها، وهو ما يحتاج إلى لغةٍ استثنائيَّةٍ لتوصيف الشخصيَّة، التي كلَّما أمسكت بها، أجدها تتسرَّب من بين أصابعي، وتمدُّ لسانها لي، وكأنَّ طيف أبي يقول لي: «أنا لست قابلًا للتجسيد، لو كان ذلك ممكنًا، لكنت كتبت روايتي بنفسي»، سرعان ما أشيح بوجهي عن مثل هذا الكلام. فهو بنفسه شرع في تجسيد أفراد العائلة جميعهم، طبعًا تجسيدًا روائيًّا، ما يعني أنَّ هناك في حيوات الشخصيَّات المكتوبة في هذه الرواية الكثير من الحقيقيِّ. ومن تسلسل الرواية، يظهر أنَّه نوى الكتابة عن عائلته الصغيرة ضمن هذه الرواية، وبالتالي عن نفسه وعنَّا، هذا ما يقوله السياق الطبيعيُّ للرواية، صحيحٌ أنِّي لا أعرف ما الذي كان سيكتبه عن نفسه وعنِّي، وولَّد فضولًا هائلًا عندي لمعرفة كيف كان سيصوِّر مسار حياته بقلمه، لأفرز الخيال عن الواقع فيها، وأعرف كيف سيصوِّرني، وأيَّ شخصيَّةٍ سأحوز فيها، بصرف النظر عن المتخيَّل والواقعيِّ في شخصيَّتي. لو تحقَّق ذلك، لتعرَّفت على نفسي أكثر، وأنا على قناعةٍ أنَّه عرفني أكثر ممَّا عرفت نفسي، ولو كتب شخصيَّتي في روايته لكان ذلك أفضل لي من المتاهة التي أدخلت نفسي فيها لكتابة ملحقٍ لهذه الرواية.

حظِّي العاثر جعله يغادر الحياة قبل إكمال الرواية، ولم أعرف ما أردت معرفته.

لطالما قالت أمِّي وكرّرت القول: «أبوك ما كان بدُه إيَّاك، طلب منِّي أنزلك لما حملت فيك»، لسنواتٍ طويلةٍ سمعت هذه الكلمات، وتكرار هذا الكلام أثَّر فيَّ، وسألت نفسي: «لماذا لم يكن يريدني؟ وأيُّ ضررٍ سبَّبت له؟» ولسنواتٍ شعرت نفسي أكرهه لأنَّه لم يرغب في أن أكون ابنه، اتخذ موقفًا منِّي قبل قدومي إلى هذا العالم. وقلت: «إلى هذا الحدِّ يكرهني؟»، كان تأثير أمِّي عليَّ كبيرًا، وكنت منحازًا لها في صراعهما معًا، ولا أعرف هل هذا الانحياز بسبب عدم رغبة أبي أن أكون ابنه، أو أنَّ الأولاد غالبًا ما يصطفُّون مع أمَّهاتهم في الصراعات العائليَّة، ولو كنَّ على خطأٍ؟ وعندما ابتعدت عن تأثيرات أمِّي ورواياتها المنحازة للأحداث، عرفت كم كان موقفي تافهًا، كيف أُحاسب الرجل على موقفه منِّي، قبل أن أكون موجودًا في هذه الحياة، تعاملت وكأنَّ أبي يريد موتي وأنا كبيرٌ أعيش أمامه من لحمٍ ودمٍ، ولا يريد لي الاستمرار في الحياة. لم أدرك حينها، أنَّ المسألة تفضيلاتٌ وخياراتٌ في ترتيب الحياة، وليس موقفًا من الشخص الذي سيكون ابنه بعد أشهرٍ. عندما كبرت، وجدت الكثيرين من الأزواج يتناقشون، حول أيِّ أمكانيَّةٍ أفضل لهم، الاحتفاظ بالجنين أو التخلُّص منه. وهذا ليس موقفهم من أولادهم المفترضين، إنَّما موقفٌ من المشكلة القائمة في تلك اللحظة. لم يقل أبي لي يومًا: «ما كان بدِّي إيَّاك»، ولم يلمِّح إلى ضيقٍ من وجودي في حياته، أو عن رفضه أن أكون جزءًا من العائلة، ما جعلني أشكُّ بصحَّة رواية أمِّي عن رفض أبي لقدومي إلى الحياة. لم يعانِ أبي من مشكلاتٍ ماليَّةٍ أو ظروفٍ صعبةٍ عند ولادتي، على عكس الفترة التي وُلِدَ فيها أخي. ولا تدلُّ الصور التي التقطت لي في الأيَّام الأولى لقدومي إلى الحياة عن أيِّ تذمُّرٍ من أبي، فهي تقول إنَّه سعيدٌ بولادتي، وكانت الاحتفالات بهذه الولادة باذخةً، ولا تقارن بالاحتفالات بولادة أخي المتقشِّفة. ما أريد قوله إنَّ قصَّة رفض أبي

قدومي إلى الحياة اخترعتها أمِّي في فترةٍ متأخِّرةٍ من حياتنا الأسريَّة، وتحديدًا بعد انفجار الخلافات بينهما للتأثير عليَّ.

ولدت ابنًا ثانيًا لأبوين عنيدين، والعناد هو ما اكتسبته وراثيًّا منهما. لم تكن حياتي سهلةً في ظلِّ هذا النوع من الآباء، لذلك تمنَّيت أن يكون أبويَّ عاديَّين مثل كلِّ الآباء. عندما تعيش مع أبوين غريبين، تعيش حياةً غريبةً لا تشبه حياة الآخرين، صحيحٌ أنَّك تعيش بينهم ومعهم، لكن بطريقةٍ مختلفةٍ. يُولِّد الوضع الغريب حساسيَّاتٍ غريبةً، ليس عند الآباء فحسب، بل وعند أولادهم أيضًا. يريد الأبوان أولادهم كملائكةٍ، ولأنَّ ليس في الحياة ملائكةً والأبوان لم يكونا كذلك، لا أفهم لماذا على الأولاد أن يكونوا ملائكةً. إنَّها الرؤية المنحازة لأولادنا، فهم الأذكى بين الأطفال والأجمل والأكثر هدوءًا ولا يصنعون أيَّ مشكلاتٍ. أيُّ أولاد يتحدَّث عنهم الأهل، لا وجود لهم في الواقع ولا حتَّى في الأحلام. عندما يكبر الأولاد من الصعب حجب حقيقتهم، فهم سيذهبون إلى المدرسة، والعبقريَّة ستتكشَّف عن ولدٍ عاديٍّ، حتَّى عن ولدٍ كسولٍ وبليدٍ، والهادئ يصنع المشكلات مع زملاء الصف، والأجمل هو طفلٌ عاديٌّ. ليس هؤلاء من نتحدَّث عنهم، هؤلاء ليسوا أولادنا الذين ربَّيناهم، كيف فعلوا ذلك دون أن نعلم. ينكر الآباء هذا الواقع بعض الوقت، ولكنَّ الإنكار لا يصلح لحلِّ مشكلات الأولاد المتزايدة، يعودون إلى ضرب رؤوسهم بقبضاتهم والصراخ على أنفسهم: «كم كنَّا أغبياء»، وتبدأ مسيرةٌ أخرى فاشلةٌ لإصلاح الطفل المفسد، لإعادته إلى جادَّة الصواب، الذي لا يريده. قال أبي: «كنت عنيد بطريقة ما بتنوصف، لما بدك شي لازم تاخذُه، أو بتقوم بردَّات فعل مش متوقَّعه، مثل، إنُه تضرب راسك بالحيط، فجأة دون إنذار. أو تعض صحن الأزاز، لدرجة مرَّة كسرت سنانك وأنت بتعض الصحن. والأسوأ، يوم بدنا نفطمك. تركتك إمَّك معي بالبيت، وراحت على بيت أهلها، على أساس إذا كانت بعيدة إنت ما بتتذكر الرضاعة. بلشت تبكي من الساعة تسعة بالليل، ما وقفت لرحنا عند إمَّك

الساعة تلاتة بالليل، وقلتلها منشان الله رضعيه جنَّني. وهذا كان بيعني فطمك مرَّة ثانية، وتكرار رحلة العذاب مرَّة أخرى، ركض ورا البساس بالليالي، لألهيك عن الرضاعة»، كنت أصغر من تذكُّر ما يرويه أبي، ولم يقل لي هذا الكلام عندما كنت طفلًا، لم يرد أن يعزِّز عنادي، الذي بدأ يختلط بالتطرُّف الحادِّ عندما كبرت قليلًا، وفق أبي، لذلك روى هذه الأحداث وغيرها بعد أن تكوَّنت وأصبحت شابًّا ناضجًا. فهمت الكثير عن نفسي بعد أحاديث أبي عن طفولتي، هناك صفات ما زلت أحملها، وهو ما يطلق عليه أبي تعبير «تطرُّفك الحدِّي»، وهو شيءٌ أعاني منه حتَّى الآن. طبعًا، هناك أشياء تحتاج إلى عنادٍ حتَّى أنجزها، ودونه لا أستطيع إنجازها. وهناك أشياء العناد فيها مؤذٍ، وكثيرًا ما مارسته، لأعرف لاحقًا أنِّي ارتكبت خطًأ كبيرًا. وتعود هذه الأخطاء في كثيرٍ من الأحيان إلى استعجالي في الحياة، أريد أن أنتهي من الأشياء قبل الأوان، فأجد نفسي مستفزًّا وأريد فعل ما لا يمكن فعله، فأبدأ بارتكاب أخطاء تفقدني ميزتي كما قال أبي. وهذه الميزة -وفق أبي- هي «الجَلَدْ» أي أنِّي أملك الجَلَدْ لإنجاز ما أريد تحقيقه، لكنَّ الاستعجال يجعلني أخسر هذه الميزة، لأنَّهما متناقضتان. لذلك، كانت نصيحته الدائمة بالنسبة لي: «طوِّل بالك، ما في شي بالدنيا مستعجل، عيش كل مرحلة بحياتك، لإنُه كل مرحلة في الحياة وإلها جماليَّاتها»، لم أكن راضيًا عن شيءٍ، أريد تغيير كلِّ شيءٍ يتعلَّق بي شخصيًّا، لم أملك حلمًا عامًّا مثل أبي الذي أراد تغيير العالم إلى الأحسن، سار العالم باتجاه الأسوأ، وعكس كلِّ أحلامه. أردت تغيير حياتي إلى الأفضل، اعتقدت أنَّ الأفضل مالٌ أكثر، يستطيع أبي الحصول عليه، لكنَّه لا يريد، لأنَّ لا مال نظيفٌ في البلد، وكلَّما زاد المال وجمع المرء ثروةً كان المال ملوَّثًا بالقذارة والجريمة أكثر. لم يكن ما يقوله تبريرًا لعدم جمعه المال، وأنا متأكِّدٌ من قدرته على جمع المال، لكن لم يرده ملوَّثًا، لذلك لم يدخل هذا الطريق. طبعًا، هذا لا يعني كانت أوضاعنا الماليَّة سيِّئةً، إنَّما هناك مجالٌ وبحسب طبيعة مهنة أبي تحديدًا أن

يكون عنده الكثير من المال، لأنَّ أصدقاء له، أقلُّ كفاءةً وموهبةً منه جمعوا الكثير من المال. عندما سألني أبي بعد إلحاحي على المال وأنا في بداية شبابي: «شو رح أساوي بالمصاري، على فرض جبت المال؟»، قلت: «فيك تشتري أشياء كثيرة»، قال: «لشو؟» كنت قادرًا على الإجابة على سؤاله، أنَّ الأشياء الثمينة تعطينا الإحساس بالتميُّز، وقد نرضي غريزة الكائن الاستهلاكيِّ بالمزيد من شراء الأشياء، وغيرها من الأشياء التي يستطيع المال فعلها. لكنِّي لم أجب، وعرفت أنَّ أبي يدير النقاش لتفريغ أيِّ إجابةٍ لي من معناها. لم يكن رجلًا متقشِّفًا، أحبَّ الأشياء الجميلة، وهو رجلٌ أنيقٌ وذوقه في الملابس رفيعٌ، كره المبالغة الاستهلاكيَّة، أو شراء الأشياء الثمينة لخلق برستيج عند الآخرين من خلال سلطة المال عليهم. اعتقد أنَّ المال لا يعطي قيمةً للبشر، ولا يحتاجه البشر لمنح أنفسهم قيمةً، إلَّا عند الناس الذين لا قيمة لهم، والذين لا يرون في الإنسان مطلق إنسانٍ، قيمةً مطلقةً وكبيرةً. كان نقاش المال مع أبي متعبًا، ومن المؤكَّد لم يملك طموحًا ماليًّا، أو عمل يومًا على جمع المال. لم يرفض المال إذا أتاه، لكنَّه لم يسعَ إليه. الكثيرون اعتقدوا أنَّه ملك ويملك الكثير من المال، وكان يعرف ذلك، ويقول: «صيت غنى ولا صيت فقر»، عندما تُوفِّي لم يكن معه أيُّ مالٍ يذكر، وكلُّ الأساطير عن مالٍ وفيرٍ كانت مجرَّد أوهامٍ عند الآخرين لم تزعجه. كنت على خلافٍ معه حول النظرة إلى المال، معتقدًا وأنا شابٌّ صغيرٌ، أنَّ المال يملك القدرة على حلِّ كلِّ المشكلات. وحاول طيلة الوقت إقناعي، أنَّ المال يستطيع حلَّ الكثير من المشكلات، لكنَّه لا يستطيع حلَّ أهمِّ المشكلات، فهو لا يصنع الحبَّ أو السعادة، ولا يصنع الثقة ولا يشتري علاقاتٍ حميميَّةً. في هذه القضايا المال ثانويٌّ. وكان يستشهد بتجربته ويقول: «ما كانت أجمل وأسعد أيَّامي لما كان وضعي المالي منيح، على العكس، أجمل أيَّام حياتي، كانت أيَّام القلَّة، لما أتشارك مع الأصدقاء أشياءنا القليلة والمال الشحيح»، احتجت بعض الوقت حتَّى أفهم ما يعنيه أبي عن المال. وأعتقد أنَّ نظرته

إلى المال، كانت جزءًا من فلسفته في الحياة، فهو لا فلسفة معلنةً له، بل كان يعيش فلسفته على نحوٍ عمليٍّ في حياته اليوميَّة.

عشت معه علاقةً متوتِّرةً في فتراتٍ مختلفةٍ من حياتي، لا سيَّما في فترة مراهقتي المتأخِّرة، بينما هي علاقةٌ جميلةٌ وأنا طفلٌ، كان أبًا ديمقراطيًّا، نناديه باسمه أو لقبه، وهو ما أحبَّه. ناقشنا في كلِّ القضايا مناقشةً موضوعيَّةً، وساومنا على مطالبنا، أحيانًا أُعطِينا كلَّ ما نطلب، وأحيانًا أُعطِينا جزءًا منها. شكَّل ذلك تمرينًا لنا على الحياة الواقعيَّة، لأنَّ الحياة لا تقدِّم لنا كلَّ شيءٍ، وحتَّى نعرف ذلك علينا أن نتدرَّب عليه. أستطيع القول إنَّه نجح في تدريبنا على اتخاذ قرارات حياتنا. عدَدتُ هذا شيئًا طبيعيًا لا يحتاج إلى جهدٍ أو تدريبٍ، عندما شاهدت أصدقائي يفشلون في اتخاذ أصغر القرارات، عرفت أنَّ اتخاذ القرار يحتاج إلى تمرينٍ، دون هذا التمرين، قد يقضي الرجل حياته كلَّها دون أن يتخذ قرارًا واحدًا.

الوجه المرن أحد وجوه أبي المتعدِّدة، التي لا تظهر إلَّا في ظروفٍ معيَّنةٍ، وعندما يرى خطرًا علينا، يصبح صارمًا، ويتحوَّل إلى رجلٍ مستبدٍّ وقمعيٍّ، في هذا الموضوع لا مساومة بالنسبة له، بصرف النظر عن قناعتنا. فما يشكِّل خطرًا علينا لا يخضع للنقاش. كلُّ ما دون ذلك ليس مهمًّا، ويستطيع أن يغيِّر رأيه، وأن يؤيِّد رأي أيٍّ منَّا، عندما يرى ذلك صحيحًا ورأيه خطأً، لم يخجل أن تكون آراءنا أكثر إقناعًا من آرائه.

6

لم أعرف كم أشبه أبي، قبل ذلك اللقاء، وكانت أوَّل مرَّةٍ أجلس معه بمفردنا في خمَّارة أبي جورج، آخر خمَّارةٍ موجودةٍ في مدينة دمشق. في ذلك اليوم، وفي دمشق القديمة تصالحنا بعد خصامٍ. شربت أنا الفودكا وشرب هو العرق بصحَّتي وعلى حسابه طبعًا. في ذلك اللقاء هدمنا جدرانًا عاليةً، كنت بنيتها بيني وبينه، هدمنا الجدران بيننا كأبٍ وابنه وكصديقين لن يختلفا مرَّةً أخرى على شؤون الحبِّ بينهما وسيختلفان كثيرًا على شؤون الدنيا وأحوالها. يومها قلت له: «بدي إطلع درجات السلم كلها دفعة واحدة»، قال: «ما في شي بالدنيا بيستاهل العجلة، عش حياتك، ولا تستبقها»، عندها سألته: «ليش أنت استعجلت حياتك؟»، قال: «كنت مفكِّر إنِّي رح موت وأنا عمري ثمان وعشرين سنة، كنت بدي أساوي كل شي قبل ما موت، حبيت، وتجوَّزت، وخلَّفت، ورحت على الحرب وأنا ما بعرف أستعمل البارودة، ودرست جامعة، وفتت على السجن هذا كان خارج الحساب. كان هذا الجنان بعينُه، وأنا اليوم تجاوزت عمري الافتراضي بعشرين عامًا»، فاجأني الجواب، وقلت له: «أنا كمان بتوقَّع نفس العمر لحالي»، توقَّع أن يعيش هذا العمر في السنِّ ذاتها التي توقَّعت أنا أن أعيش فيها العمر ذاته، أيُّ كيمياء سحريَّةٍ فعلته هذه الجزئيَّة الصغيرة لتحطِّم الجدران العالية بيننا؟! ضحكنا ضحكتين صافيتين وأكملنا سيرنا في ليل دمشق القديمة وطرقاتها المتعرِّجة من باب شرقي إلى الجامع الأمويِّ مرورًا بباب توما. تسكَّعنا كما يجب أن نتسكَّع. كان يومًا من أجمل أيَّام حياتي. ذهب بنا الحديث مساراتٍ كمسارات دمشق القديمة التي سرنا عليها معًا في ذلك اليوم، أحاديث عن الحبِّ والحياة والموت والحرب والطموح والقيم

والمعاني والكتب والمرأة والشعر و... و... رجلًا لرجلٍ، صديقًا لصديقٍ، تألَّق في ذلك اليوم، وتألَّقت أنا بالعدوى منه. كانت ليلةً لا تنسى جعلت قلبي أبيضًا وأعطت حياتي معنًى، ليس لأنَّه أبي، بل لأنِّي رأيت كلَّ الجمال الذي داخله في حديثٍ من القلب إلى القلب مباشرةً. عدت إلى البيت شخصًا مختلفًا عن ذلك الشخص الذي ذهب معه إلى دمشق القديمة. لقد تغيَّر شيءٌ داخلي في ذلك اليوم. اليوم وقد فقدته، أتمنَّى لو نستطيع الذهاب مرَّةً أخرى إلى الخمَّارة في دمشق. نخوض من جديدٍ حديثًا آخر عن الحبِّ والمرأة والشعر والكتب وما فعل الحبُّ به وبي و... و... وأشرب نخبه، ونتألَّق في سماء دمشق نجمتين شاردتين خدرتين بفعل الحبِّ والكحول. ونعود مرَّةً أخرى مختلفين عمَّا كنَّا عليه، قبل ذلك أرغب بشدَّةٍ أن أقول له: «أحبُّك»، كلمةٌ عاريةٌ من أيِّ إضافةٍ. وقع هذا اللقاء بعد انطلاق الاحتجاجات في سورية بأشهرٍ عدَّةً، كان سعيدًا بما يجري، لحظةٌ تاريخيَّةٌ بالنسبة له، تثبت أنَّنا لسنا شعوبًا من الخراف تستسلم لجزَّاريها، بل بشرٌ من لحمٍ ودمٍ يستطيعون أن يقولوا: لا للظلم في وجه سلطاتٍ مجرمةٍ. لم تكن القصَّة، قصَّة البوعزيزي الذي ضاقت به الحياة، لدرجةٍ يحرق فيها نفسه بعد صفعه من شرطيَّةٍ متعجرفةٍ ليزيل عربة خضارٍ يتعيَّش منها، إنَّها قصَّة وحشيَّة سلطاتٍ على مدى عقودٍ، ليس ممكنًا العيش معها، إنَّها قصَّة الملايين المسحوقة، إنَّها قصَّة الشباب الذين باتوا بلا مستقبلٍ. لم أرَ أبي في حياتي متفائلًا، كما كان في تلك الفترة من الحراك الذي عمَّ البلدان العربيَّة، لا سيَّما البلدان الأكثر وحشيَّةً منها، مثل ليبيا وسورية واليمن. كسر البشر حاجز الخوف الذي عاشوا معه لوقتٍ طويلٍ. رأى الشباب أصحاب المستقبل يصنعون التاريخ الذي يستحقُّونه، لقد أقدموا على ما لم تستطع الأجيال السابقة بمن فيهم جيله الإقدام عليها. لطالما حلم بلحظة الثورة، وهو رأى الحلم يتحوَّل إلى حقيقةٍ يراها بعينه، ويلمسها في كلِّ مكانٍ، يسمعها تهتف في الشوارع بإسقاط السلطات، وعلى شاشات التلفزيون. لم

أتفق معه بالكثير من الآراء، وأحيانًا كنت أعارضه من أجل الخروج من سلطته أو بالأصح سطوته. لقد كان حضوره آسرًا، يملك قدرةً هائلةً في التعبير عن نفسه وعن القضايا التي يريد الحديث عنها بطريقةٍ في غاية الجمال، ويأتي للموضوعات من زوايا غير متوقَّعةٍ. اعتقدت أنَّ هذا رأيي به، لأنَّه أبي. مع سؤال الكثير من أصدقائه ومن أقاربنا الأكثر اختلافًا عنه، كان رأيهم من رأيي، أنَّ النقاش مع أبي وبصرف النظر عن حجم الخلاف معه في الآراء هو متعةٌ بحدِّ ذاته. كان يملك هذه الميزة، ميزة تحويل النقاش إلى متعةٍ، وكان مستمعًا جيِّدًا ودقيقًا، ويردُّ بانتظامٍ ووضوحٍ، ولا يتحدَّث في الأشياء التي لا يعرفها. وهو من قلائل أعرفهم، يجيبون بـ «لا أعرف» عندما لا يعرف، ولا يُفتي في أشياء لا يعرفها مثل الكثيرين. الكلُّ أحبَّ النقاش معه إلَّا أمِّي، كانت تعدُّه: «يقلب الحقَّ باطلًا، والباطل حقًّا»، وكان رأيها به يزداد قسوةً، كلَّما كان خلافهما أسوأ، وبات بالنسبة لها الشيطان الوحيد في الحياة بعد انفصالهما. كان انفصالهما جريمةً بحقِّنا أنا وأخي، وجاء توقيت الانفصال في غاية السوء ونحن في سنِّ المراهقة. في الوقت الذي كنَّا نحتاج إلى بيتٍ مستقرٍّ، انفجر الخلاف بينهما. لم ينتبها إلينا نحن أولادهما، انشغلا بنفسيهما، ولم يريا أيَّ شيءٍ آخر، لا يريانا، ولا يريا احتياجاتنا. لا أقصد احتياجاتنا بالمعنى المادي، الطعام والشراب والملابس، بل ما يحتاجه كلُّ مراهقٍ أن يأخذ والداه بيده في ظروف بلدٍ في غاية الرداءة. هدَّد انفصالهما مستقبلنا، ففي سنوات الصراع كنَّا في السن الذي يتحدَّد فيه مستقبل المراهق، هل يستطيع استكمال دراسته أم سيفشل في ذلك ويذهب إلى تعلُّم مهنةٍ ما، أم سينحرف ويتحوَّل إلى مجرمٍ؟ لم يتوقَّع أبي وأمِّي مستقبلًا مهنيًّا لنا، الاهتمام كان منصبًّا على دراستنا بوصفها مستقبلنا، لكنَّ الدراسة لا تصلح في بيتٍ متوتِّرٍ طيلة الوقت، وفي أزمة انفصالٍ امتدت طويلًا، وكنَّا أنا وأخي تحت لسعات سوطها دائمًا. نجا أخي في بداية الخلاف، وتجاوز امتحانات الشهادة الثانويَّة. وبقيت أنا عالقًا في خلافات أبي وأمِّي، وهذه

الخلافات هدَّدت وكادت تطيح بمستقبلي تمامًا، فقد توقَّفت عن الدراسة، كيف أدرس في ظلِّ وضعٍ متوتِّرٍ وشجارٍ دائمٍ؟! أصبحت أتمنَّى الانفصال حتَّى أحصل على الهدوء. لم يجلب الانفصال الذي وقع بعد عامٍ مريرٍ الهدوء، بل زاد الصراع اشتعالًا، أصبح الصراع في مكانين بدل أن يكون في مكانٍ واحدٍ، انحزت لأمِّي في الصراع، وكنت أرى أبي سبب كلِّ ما جرى ويجري. لذلك عندما وقع الانفصال، اخترت أن أكون مع أمِّي.

لم أرغب البقاء في البلد، حاولت الخروج منه وأنا مراهق، لم يحالفني الحظُّ. قرَّرت ذلك عندما حاز صديق أخي، الذي يدرس معه في المدرسة الأميركيَّة (الاميديست)، على منحة فولبرايت الأميركيَّة، وهي منحة تعايش، يذهب خلالها الطالب عندما يكون في العام الدراسيِّ الحادي عشر، ليدرس عامًا في مدرسةٍ أميركيَّة، ويعيش عند عائلةٍ أميركيَّةٍ. كانت هذه المنحة تُقدَّم عن طريق مدارس (الاميديست) الأميركيَّة. يجري الطلاب أصحاب السنِّ المناسب للمنحة اختبارًا في المدرسة، ويحصل عليها الأوَّل على المتقدِّمين. عندما حصل فادي صديق أخي على المنحة، قلت لنفسي، طالما فادي استطاع ذلك، فأنا أستطيع أيضًا، فهو ليس أذكى منِّي. وبدأت أدرس اللغة الانكليزيَّة بكثافةٍ قبل أن يأتي دوري بعامين، وعاهدت نفسي أنِّي إذا حصلت على المنحة، ووصلت إلى أميركا لن أعود إلى دمشق مهما كان الثمن. وشرعت خلال عامين بدراسة اللغة الانكليزيَّة على حساب غيرها من المواد، في الصف العاشر، لم أدرس سوى هذه المادة، لأنَّها السنة التي في نهايتها سيجري الاختبار. وقبل الاختبار كنت جاهزًا للتقدُّم له، لكنَّ حادثًا مشؤومًا في المدرسة الأميركيَّة حطَّم حلمي، فقد أدَّى الحادث المروريُّ إلى وفاة فتاةٍ سوريَّةٍ من طالبات المدرسة في أثناء رحلةٍ مدرسيَّة، استغلَّت السلطات في سورية الحادث وأغلقت المدرسة الأميركيَّة وشقيقتها الاميديست قبل شهرين من الاختبار، وكان الإغلاق على خلفيَّة الضغط الأميركيِّ الذي أدى إلى انسحاب الجيش السوريِّ من لبنان بعد اغتيال رفيق

الحريري رئيس وزراء لبنان الأسبق. وقد منعني هذا من التقدُّم إلى اختبار المنحة، حاول أهلي إقناع المدرسة بأن أجري الاختبار في بيروت، لكنَّ المدرسة رفضت، لأنَّ ذلك يعني أنِّي سآخذ المنحة إذا حصلت عليها من شخصٍ يستحقُّها في بلدٍ آخر. ما جرى كان ظالمًا بالنسبة لي، شعرت بالقهر، لم يُسمَح لي أن أجرِّب حظِّي وأختبر جهودي التي بذلتها خلال عامين. كان بالإمكان أن أُجرِي اختبار المنحة وأفشل في الحصول عليها، على الأقل أنال شرف المحاولة، حتَّى هذا الشرف لم أنله. كان أثر ذلك عليَّ سيِّئًا جدًّا، وبعد الحظِّ العاثر، جاء انفجار الخلاف بين أبي وأمِّي ليجعلني غير راغبٍ بأيِّ شيءٍ ومهملًا لكلِّ شيءٍ. وذهابي مع أمِّي عند أهلها وقت الانفصال زاد الوضع سوءًا، وفي النصف الثاني من سنة دراسة الشهادة الثانويَّة، شعرت أنِّي لن أدرس إذا بقيَ الوضع على حاله. قرَّرت العودة للعيش عند أبي، وإلَّا خسرت العام الدراسيَّ. عندما قلت لأبي: «بدي أرجع على البيت عند بيت جدِّي ما في جو دراسة»، قال: «البيت بيتك بابا، إنت بترجع إيمتى ما بدَّك»، لم أستطع قول كلمةٍ واحدةٍ، اجتاحتني رغبةٌ بالبكاء، أمسكت نفسي ولم تنزل دموعي. لم يتغيَّر تعامل أبي معي بعد عودتي، كان يطمئن على دراستي فقط، لا سيَّما وأنَّه يقضي أغلب الوقت خارج المنزل. وعندما عرف قبل شهرٍ ونصف من الامتحان أنِّي لم أنجز دراسة أيٍّ من المواد التي سأقدِّمها في امتحان الشهادة الثانويَّة، جنَّ جنونه. عندها أظهر الوجه الصارم. ترك عمله، وجلس معي كلَّ الفترة المتبقِّية، درس المواد معي ودرَّسها لي بصوتٍ عالٍ، وجمع الأسئلة المتوقَّعة من هنا وهناك، وحللناها معًا. كانت معركته أكثر منها معركتي، لم أجرؤ على معارضته، ونفَّذت كلَّ ما قال، لم أجرؤ على الرفض، عمل الأشياء من أجلي وليس من أجله، وأنا رغبت في تجاوز المرحلة فعلًا. نجح ونجحت، لم تكن علاماتي جيِّدةً، المهم أنِّي تجاوزت هذه المرحلة رغم الظروف القاسية، ودراستي السابقة التي لم يحالفني الحظُّ في الذهاب

من خلالها إلى أميركا، خدمتني في هذا الوقت، وهي التي أدخلتني الجامعة، من خلال علامة الاختصاص، دخلت كليَّة الأدب الإنكليزيِّ.

7

في بعض الأوقات من حياتي، لم أرغب في معرفة أيِّ شيءٍ عن حياة أبي، فقد عدَدتُ أنَّ حياته واهتماماته لا تعنيني، لم أهتمَّ بالقضايا العامَّة يومًا، ولم يكن يعنيني ما يكتب، سواءٌ كتب مقالاتٍ أو رواياتٍ، عدَدتُ عالمي لا يتقاطع مع عالمه على الإطلاق. وعندما كتبت وظيفة «صراع الأجيال» عندما درست في الايمديست، حرصت على إسماعه رأيي في هذا الموضوع، وبذلك إسماعه موقفي منه على نحوٍ غير مباشرٍ. وعندما قلت له: «بدي إقرأ لك وظيفتي»، قال: «بس أنا انكليزيتي سيِّئة»، قلت: «أنا بترجملك»، قال: «أوكي»، وعندما بدأت قراءة أوَّل جملةٍ، التي تقول: «الآباء والأبناء يعيشون في مكانٍ واحدٍ، لكن في عالمين مختلفين»، ابتسم وقال: «ما في داعي تكمل، وصلت الرسالة»، لقد فهم الرسالة، ولم ينزعج ممَّا قلت، لم أفهم ذلك، كنت أعلن احتجاجي الذي يفترض أن يثير سخطه، لكنَّه قابله بابتسامةٍ. فهمت بعد سنواتٍ طويلةٍ، أنَّ تلك الابتسامة كانت تعبِّر عن المفارقة، وقال لي بعد سنواتٍ تعليقًا على هذا الحدث: «ابتسمت، لأنِّي تذكَّرت تجربتي مع أبوي، ما كنت بقدر أقول لأبوي مثل هذا الكلام، مو لإنُه ما رح يفهمُه، هو ما كان موجود أصلًا، لإنُه فعلًا كنَّا في عالمين مختلفين وليس مجازًا، أبوي ما كان موجود بالبيت لأخوض معُه صراع وجود. ووقتها انبسطت إنُه ابني يعلن تمرده علي بطريقة جميلة عبر نص جميل»، إذًا، لم تكن ابتسامة أبي استخفافًا بي كما فهمت أنا، وأدرك أبي معنى كلماتي منذ قلتها، لماذا لم يقل لي هذا الكلام وقتها؟! ربَّما، لم يرغب في فتح الصراع حول طريقتي لحلِّ عقدة أوديب قبل أوانها. لا أعرف من أين جاء النفور من أبي في مراهقتي، هل هو أنانيَّةٌ منِّي، لأنِّي لا أريد أن أكون في ظلِّ هذا الرجل،

لأنِّي قادرٌ على صنع نفسي؟ أم أنِّي لم أرغب في العيش في ظلِّ رجلٍ يملك طغيانًا في حضوره، ولا أستطيع أن أكون مستقلًّا في ظلِّه؟ كانت المعركة مطروحةً من طرفي فقط، وكانت مشكلتي الخاصَّة، لم يجد أخي الذي يكبرني بسنتين أيَّ مشكلةٍ في العيش في ظلِّ أبي، تمرَّد في مراهقته، ككلِّ المراهقين، بأن امتنع عن تنفيذ أوامر أبي، أي امتنع بالمعنى السلبيِّ، وكان هذا يكفيه ليكبر متصالحًا مع أبي طيلة الوقت. أمَّا بالنسبة لي، لم يكن الاحتجاج السلبيُّ يكفيني، عليَّ أن أفعل شيئًا مختلفًا، شيئًا بالمعنى الإيجابيِّ الذي يجعلني ندًّا له، عدت للخلاف معه، وانسحبت من المنزل لأنِّي وجدت أنَّ أمِّي لا يجب أن تُترك وحدها. اعتقدت حينها، أنِّي بذلك أكون قد أنجزت توازنًا معه، وأنِّي حميت أمِّي من طغيانه، لكنَّ ذلك لم يكن مجديًا، لأنِّي أصبحت شريكًا اقتصاديًّا في المنزل مع أمِّي، لم أصبح مستقلًّا، إنَّما أصبحت ملحقًا بأمِّي بعد أن كنت ملحقًا بأبي. لم أنجز استقلالًا كاملًا عن أبي، لأنِّي بقيت أحتاجه من أجل أقساط الجامعة والمصاريف الإضافيَّة، التي لا يخلو شهرٌ منها. وعندما فكَّرت بالإنجاز الذي حقَّقته بالاستقلال عن أبي وإنجاز نديَّتي معه، وجدت نفسي أسخر من نفسي، فقد بقيَ وضعي في حالة تبعيَّةٍ، وزاد من أعبائي الشخصيَّة. كنت أنظر إلى الوضع الذي يعيشه أخي الذي بقي مع أبي، وهو مرتاحٌ بلا أعباء، أضحك وأقول لنفسي: «بدك تعمل زلمة تحمَّل نتيجة أعمالك»، لم تكن الحياة سهلةً، ولم تستجب لقراراتي، التي اعتقدت أنِّي سأنفِّذها بسهولةٍ، اكتشفت أنَّه لا قراراتٍ بلا ثمنٍ، لا شيء مجانيًّا في الدنيا.

لا تشبه مشكلة أبي مع أبيه مشكلتي في إنجاز النديَّة، كانت مشكلته مع إخوته في ظلِّ الأب الغائب، ولأنَّه الأصغر، الكلُّ أصدر إليه الأوامر، وهو لم يصدر الأوامر لأحد، حتَّى يهرب من الطلبات، يبقى خارج المنزل طيلة اليوم. وإذا كان هذا الوضع سهلًا في الصيف، إذ يستطيع البقاء في البراري حتَّى في الليل، لم يكن سهلًا في الشتاء مع البرد، يجب البحث عن مكانٍ فيه

دفءٌ، وكان له صديق عنده غرفةٌ مستقلَّةٌ على السطح مع أخيه الأكبر، كان يقضي عندهم الأيَّام الباردة، أمَّا الأيَّام المعتدلة، فليس من الصعب قضاءها ما بين السينما والتشرُّد في شوارع المخيَّم المحدودة. كلَّفه هذا الهرب عقابًا من عمِّي سعيد، وهو أكثر شخصٍ عاقبه بالضرب، وهذا ما جعله يصرُّ أكثر على الهرب من المنزل. عندما تزوَّج عمِّي سعيد، رغم أنَّه سكن في البناء ذاته في الطابق الثاني، لم يعد يجرؤ على ضرب أبي. لأنَّه لم يعد جزءًا من العائلة، فقد أصبحت له عائلته الخاصَّة، فليس له الصلاحيَّات في التمادي في عائلةٍ ليست عائلته، وأصبحت سلطته مقتصرةً على عائلته.

«يمكن تكون السياسة، هي اللي منعتني أصير مجرم»، قال أبي. في السنة الأولى في الثانويَّة بدأ يتعرَّف على السياسة، العيش الطبيعيُّ في المخيَّم جعله شخصًا متمرِّدًا، كان نتاج نكبةٍ لم يكن له يدٌ فيها، فلم تكن القضيَّة موجودةً بالنسبة له، إلَّا في الكتب التي تكتب عن قضيَّته دون أن يعيها. عندما بدأ يتعرَّف على السياسة، أصبح سؤال العدالة هو الذي يشغله، شغله على المستوى الشخصيِّ قبل ذلك، في هذه المرحلة صار السؤال قضيَّةً، والسؤال الشخصيُّ اندمج في السؤال العام. الوعي الذي أخذ يتكوَّن جعله يرى القضايا أكثر تعقيدًا من الصورة التبسيطيَّة التي كان ينظر فيها إلى العالم كطفلٍ. بدأ يتكوَّن كرجلٍ معجونٍ بسؤال العدالة، وبدأ يدرك فلسطينيَّته ليس كانتماءٍ فحسب، بل كقضيَّةٍ أيضًا، قضيَّةٌ من أكثر قضايا الظلم في عالمٍ تقاطعت مصالحه ليحرمه من أن يولد في بلده، بل يولد لاجئًا لأبوين لاجئين. السياسة قضيَّةٌ عامَّةٌ، منذ وعى هذه اللحظة بقي مرتبطًا بالشأن العام، بصرف النظر عن التحوُّلات التي جرت على حياته خلال السنوات اللاحقة من انخراطه في السياسة، وقبل أن يختار فصيلًا سياسيًّا ينتمي إليه، وجد نفسه في قلب معركةٍ كبرى. قبل أن ينهي امتحاناته للشهادة الثانوية بثلاثة أيَّامٍ، بدأت إسرائيل حرب اجتياح لبنان، كان ذلك في العام 1982، وفي يوم انتهاء الامتحانات، اتفق وعددٌ من

أصدقائه على الالتحاق بقوّات المقاومة في لبنان لصدِّ الاجتياح. كانوا أربعة شبابٍ شكّلوا ما يشبه خليّة نقاشٍ منذ كانوا في الصف العاشر، كانوا مستقلّين لم يقرّروا بعد إلى أيِّ جهةٍ سياسيّةٍ فلسطينيّةٍ سينتمون. مع اندلاع الحرب، لم يعد الأمر مهمًّا، سيلتحقون بالمعركة، ليس مهمًّا مع من؛ المهم الالتحاق، والأشياء الأخرى تنتظر إلى ما بعد الحرب. لم يسعفهم الحظُّ في اللحاق بمجموعة الجبهة الشعبيّة. فعندما وصلوا إلى المكتب كانت السيّارة قد غادرت قبل وصولهم بنصف ساعةٍ، عرضوا عليهم الانتظار حتّى الغد، لكنّهم لم يكونوا ليستطيعوا ذلك، فذهبوا إلى مكتب حركة فتح بالقرب من سينما النجوم على شارع فلسطين. وجدوا مجموعةً تتحضّر للذهاب إلى لبنان مباشرةً، سجّلوا أسماءهم في المجموعة المغادرة، وانتظروا تحرُّك الميكروباص الذي حملهم إلى لبنان. ثلاثةٌ من المجموعة لا يعرفون أيَّ تدريبٍ عسكريٍّ، سوى ذلك التدريب في معسكر الصف العاشر على بندقيّةٍ قديمةٍ نسوا اسمها. والرابع، كانت خبرته العسكريّة دورة أشبالٍ في معسكر عدرا لحركة فتح، أطلق فيه خمس طلقاتٍ من بندقيّة كلاشنكوف.

كانت تجربة الحرب قاسيةً على أبي، صحيحٌ أنّه لا يتحدّث عنها، ولم يدَّعِ بطولاتٍ فيها. وعندما يسأله أحدهم عن حقيقة أنّه كان هناك، يجيب باقتضاب: «نعم» دون أن يعطي أيَّ شرحٍ إضافيٍّ، ولا يعطي أيَّ موقفٍ من الحرب التي تسبّبت بالقضاء على سلطة منظّمة التحرير في لبنان. لم يكن أبي يحبُّ الحديث عن حدثين وقعا في حياته، وأعتقد أنّهما حدثان أثّرا عميقًا فيه، ولهذا السبب لا يتحدّث عنهما، هما تجربتي الحرب والسجن. عندما أصابني الفضول حول معرفة ما جرى معه في الحرب، كان متحفِّظًا في الحديث، وكان يجيب عن أسئلتي باقتضابٍ شديدٍ. عن سؤالي: «صحيح كنت بالحرب؟»، أجاب: «كنت»، سؤال: «هل خفت؟»، أجاب: «طبعًا خفت»، دون إعطاء أمثلةٍ عن المواقف التي خاف خلالها. سؤال «هل أصبت بالحرب؟»، أجاب: «جروحٌ بسيطةٌ»، سؤال: «طخيت على

الإسرائيليين؟»، أجاب: «نعم، طخيت»، سؤال: «صبت حدا منهم؟»، أجاب: «ما بعرف»، كانت إجاباته من هذا النوع، لكنَّ صديقه صلاح قال كلامًا آخر: «كان أبوك يسدِّد وما يطخ، ولما يطخ، يحاول ما يصيب حدا»، سألته: «ليش كان يعمل هيك؟!»، قال: «لأنُه كان بيسمع بكاء ولاد الجندي الإسرائيلي وصراخ أمُّه»، كانت إجابات أبي مقتضبةً، لم يستفض في شرح هذا الموضوع مع أنَّه متحدِّثٌ جيِّدٌ، أمام موضوع الحرب وموضوع السجن، يبقى شبه أخرسٍ. عندما راجعت أعماله والأوراق التي تركها، وجدته قد تحدَّث عن السجن في روايةٍ، وعن حرب لبنان في أخرى، ولكن التجربتين لا تشبهان تجربته مطلقًا، هي تجارب متخيَّلةٌ أو تجارب أشخاصٍ آخرين يعرفهم. ولا أعرف إذا كتب عن حرب العام 1982 في الدفاتر التي خسرها في بيتنا في المخيَّم جرَّاء الحرب في سورية. كان عليَّ جمع المعلومات حول تجربته في الحرب والسجن، التي سأعرفها من أصدقائه الأقرب له في تلك المرحلة، إضافةً إلى المعلومات التي عرفتها منه شخصيًّا.

8

عندما صعد الشبَّان الأربعة خالد وصلاح ومحمود وأبي منير إلى الميكروباص، لم يكن أيٌّ منهم يعرف معنى الحرب. ذهبوا بحماس الشباب، ليس دفاعًا عن حقِّهم في وطنٍ لم يولدوا فيه ولم يعرفوه سوى من حكايات الأمهات والجدَّات فحسب، بل ودفاعًا عن كرامتهم الشخصيَّة أيضًا. أعلن الوجود الفلسطينيُّ عن نفسه عبر الكفاح المسلَّح، والذي أصبح عنوان الكرامة للفلسطينيِّين. وهزيمة المقاومة الفلسطينيَّة في لبنان، لا يعني ابتعادهم أكثر عن وطنهم، بل هو إهانةٌ لكرامتهم التي استعادوها بدمهم. أربعة شبابٍ كانوا يغادرون مراهقتهم إلى شبابهم، وجاءت أشهر الحرب الثلاثة القاسية لتكون المعبر المرَّ إلى رجولتهم. يقول صلاح صديق أبي: «الحماس هو اللي دفعنا إلى ركوب الميكروباص، ما بنعرف شو يعني حرب، أربعة طلاب بكالوريا، خلصوا امبارح امتحاناتهم، واليوم التالي رايحين على الحرب، ما كانت بتهمنا النتائج، توقَّعنا نموت بس ما كنَّا نعرف شو يعني حرب. كان تصوُّرنا للموت رومانسيًّا، جيفاريًا، منزوع من سياقه. إنت بالحرب ما بتبدأ بالموت، أنت بتنتهي فيه. ما عرفنا هذا الشي، إلَّا لما بدأنا نسمع صوت الانفجارات حولنا بعد ما صرنا في الأراضي اللبنانيَّة. قبل هيك ما بنعرف شي، في حرب 73 كنَّا ولاد صغار، كل ما عرفناه عن الحرب مراقبة السماء، حتى نشوف إيمتى بتسقط الطيَّارة الإسرائيليَّة، ولما سقط طيَّار واعتقدوا أهل المخيَّم إنُه سقط قريب من المخيَّم، ركض كل أهل المخيَّم لعند بلدة يلدا للإمساك بالطيَّار الإسرائيلي، بس الطيَّار نزل بآخر الدنيا، وركضنا على الفاضي. وسمعنا بعض الانفجارات البعيدة، عندما قصفت الطائرات الإسرائيليَّة دمشق. هذا كل ما نعرفه عن الحرب، كنَّا طلاب

بكالوريا عندما دخلنا لبنان على إيقاع أصوات القصف الإسرائيلي، هاي الأصوات اللي قالت لنا شو يعني حرب، قبل ما ننزل على أرض بيروت في منطقة المتحف. الحماس ما قدر ينزع الخوف منَّا، كنَّا خايفين، والخوف طبيعي في الحرب، ويمكن يموت المقاتل من الخوف، ومش صحيح بنكون أبطال لأننا ما بنخاف، بالعكس بنكون أبطال لإننا بنخاف، وبنكون أبطال لأننا بشر، وطبيعي يخاف البشر، وطبيعي يجي الأبطال من البشر اللي بخافوا، لإنُه ما في بين البشر حدا ما بخاف. المهم ما كان فينا حدا جبان. حتَّى خالد لما إجت إمُه تاخذُه من بيروت شعر بالحرج، ما كان بدُه يروح، بس كمان ما كان بقدر يخلي إمُه ببيروت، وإمُه عنيدة، قالت: ما برجع بلاه، أبوه مات شهيد بحرب 73 وبكفيني شهيد واحد، ما بدي شهيد ثاني بالعيلة. كلنا تفهَّمنا موقف المرة وشجاعتها، اللي تحدت الحرب، دخلت بيروت الغربيَّة بعز الحصار عن طريق بيروت الشرقية لترَّجع ابنها من الحرب، لأنها بتعتقد إنها أخذت نصيبها من خسائر الشهداء. كنا بنعرفها، امرأة قوية، صنعت عيلتها بذراعها، ما كانت بتقدر تكون غير هيك ولَّا كان العيلة راحت. كان أولادها بخافونها وبحترمونها أكثر من الحرب، لما ظهرت فجأة في موقعنا في منطقة المتحف، خاف خالد منها أكثر من خوفه من القصف الإسرائيلي. ما قدر يرد عليها بشي. احتضنته في البداية وباسته لأنها وجدته حي وسليم، وبعد ذلك بلشت تضربه وتبكي. كنا بنهاب إمُه لخالد قبل ما تظهر بقلب الحرب، وبعد ظهورها، زدنا إعجابنا فيها وبقدرتها إنُه تعمل هيك وبكل عناد وما همها إنُه تكون ضد التيار. كنا زعلانين منشان موقف خالد المحرج، رغم اللي صار ما شفنا خالد بيوم إنُه متخاذل أو إنُه هرب من الحرب. على العكس، قدَّرنا إنُه لازم يروح مع إمُه، ودَّعناه، ولما وقفَّنا وحضنَّاه قبل ما يروح، قال أبوك لخالد: ما تزعل، رح تبقى معنا تقاتل على المحور حتَّى تخلص هاي الحرب، إذا ظلينا طيبين لحتَّى تخلص»، وعندما سألته: «ليش أبوي ما بحب يحكي عن الحرب مع إنُه كان فيها؟»،

قال صلاح: «لأبوك حساسية خاصَّة، هو ما بشوف المعاني الكبيرة، هو بس بشوف الضحايا، منشان هيك بيكره الحرب، وهو ما راح على الحرب لإنُه بحبها، هو راح لإنُه كان لازم يروح. ولما تشوف الحرب بس ضحايا، ما فيك تفخر فيها، وهذا كان موقف أبوك من الحرب. منشان هيك، لما خلصت الحرب ونزلنا من السفينة بطرطوس، ما قبل أبوك يرفع سلاحُه احتفالًا بهزيمة بتعادل نصر. ما كان بقبل اللعب على الكلام. برأيه الهزيمة هزيمة، والنصر نصر، وما بجوز اللعب على كلام يحوِّل الهزيمة إلى نصر، هزيمة في الواقع ونصر في الكلام، يعني نعيد إنتاج المصري أحمد سعيد مرَّة ثانية. وأبوك أكل ضربة قويَّة بالحرب باستشهاد محمود، وهم الاثنين كانوا الأقرب لبعض بينا، وأبوك ما بحب يذكر الحرب منشان ما يتذكَّر محمود. كلنا بنعرف إنُه ممكن نموت بالحرب، بس ما بنصدِّق إنُه هادا الممكن بصيبنا إحنا أو بصيب حدا بنحبُه عن جد. ما تحمَّل أبوك استشهاد محمود، وظل بقيَّة الحرب مريض وبحالة اكتئاب، خسارتنا كبيرة، ما صدَّقنا إنُه محمود استشهد، وأبوك حس حالُه المسؤول عن موته لإنُه كان صاحب فكرة نروح على بيروت، ومحمود تحمَّس للفكرة، وشاف فيها تأسيس لما بعد الحرب، طالما رح نشتغل بالسياسة، كنَّا أطفال نلعب بالسياسة، لكن الحرب لا تحتمل هذا اللعب، الحرب قضيَّة جديَّة، فيها الكثير من الموت، والدمار، والأذى الجسدي والنفسي. لم نكن مجموعات مقاتلة متقدِّمة، كنَّا مجموعة إسناد للمقاتلين المتقدِّمين، كنَّا نتقدَّم أحيانًا ونشارك في الاشتباكات، وبتكون مشاركتنا فعَّالة، خاصَّة قاذفي الأر بي جي. ومن لما وصلنا إلى بيروت، اختار محمود أن يكون قاذف أر بي جي ورفض أن يقبل بكلاشنكوف، لحد ما وعدُه النقيب أبو شادي مسؤول الموقع، إنُه يصير مثل ما بدُه، لازم يتعلَّم عليه أوَّل، وهيك قبل يحمل الكلاشنكوف مؤقَّتًا، ولم يخلف أبو شادي وعده، وخلال الأسابيع الثلاثة اللاحقة، قدر يلاقي وقت في أوقات الهدوء ويعلِّم محمود على الأر بي جي، ورمي عدة قذائف حيَّة، وبعد هيك صار

محمود مستعجل بدُه يضرب دبَّابة أو جرَّافة إسرائيليَّة. كان الوضع صعب على محور المتحف محل ما كنَّا، كانت البلدوزرات الإسرائيليَّة بتحفر ملاجئ للدبَّابات حتَّى تتقدَّم. طلب أبو شادي منَّا ما حدا يطلع من الخندق. محمود قال الوضع ما عاجبني. ما فهمنا شو يعني بإنُه الوضع مش عاجبه، لحتى شفناه بيركض بسرعة البرق باتجاه الجرَّافة، وبياخذ وضعيَّة الرامي، وبيطلق الصاروخ، اللي بينفجر بالجرافة. برجع محمود راكض وفرحان، وكأنُه راجع ربحان بمبارة كرة قدم في ملعب المخيَّم. بعد ما صاب محمود الجرافة، ولعت الجبهة على محورنا، سقطت القذائف مثل الرز، انفجارات بكل محل ما عاد قادرين نرفع راسنا. محمود بسمع القصف وكأنُه موسيقى، مثل السكران، لإنُه صاب الجرَّافة والدبابات رجعوا لورا. ما رضي أبو شادي عن التصرُّف، لامُه من دون ما يأنبُه، صحيح قام بعمل بطولي، بس كشف حالُه وعرَّض حالُه للخطر. كان يلومه وهو فرحان باللي سوَّاه، لوم المحبَّة. وهذا ما كان منيح لمحمود، حس حالُه صار منيع، وما رح تقدر القذائف تعملُّه شي. في المرة الثانية، عندما حاولت الدبَّابات تتقدَّم، طلع محمود من الخندق، وما لحق يركض، كانت قذيفة الدبابة قد انفجرت في حيط المبنى القريب منُه، صابتُه شظايا القذيفة إصابات صعبة في الصدر والبطن والرقبة. وهو بيطلع من الخندق، صرخ أبوك: محمود لا تطلع. محمود ما رد، ثواني وكلنا كنَّا بنصرخ: لا. طلع أبوك من الخندق يجيب محمود، حاولت أنا والشباب منعُه، بس ما قدرنا. زحف لعندُه تحت القصف، وجابُه. لما إجت سيَّارة الإسعاف، كان أبوك حاضن محمود وعبيبكي. لما حطُه على السرير وبدهم ياخذوه، أبوك قال: رح أروح معُه. أعطاني الكلاشنكوف تبعُه وجعبة المخازن، وركب سيَّارة الإسعاف وراح مع محمود على المستشفى، وما رجع على الموقع. محمود قعد أسبوعين عايش بعد ما انصاب، زرتُه مرتين، كان بغيبوبة، حاولت إقناع أبوك إنُه ما منَّا فايدة يبقى معُه. قلي: ما بقدر أتركُه، بذكِّرُه بأشياء بيحبها وبحكيلُه عن

أحلامنا، بلكي سمع ورجع. كان بدُه محمود يرجع، بس للأسف محمود ما رجع، بعد أسبوعين مات. ما قدر أبوك يرجع على الموقع، وراح اشتغل في جريدة «المعركة» اللي صدرت في بيروت وقت الحصار، وكانت تطلع كل يوم. هو وشخص آخر بصحِّحوا الأخطاء بالبروفات قبل الطباعة. ظل يشتغل هناك حتَّى توصَّلوا لاتفاق الخروج من بيروت. كتب أبوك رثاء حلو لمحمود، ونشروله إيَّاه في جريدة المعركة، وأظن إنُه أوَّل نص أبوك بينشرُه. احتفظت بالنص من أيَّام بيروت، وبعدُه عندي بس ما كان فرحان بالنشر، فرحة المرَّة الأولى مثل ما بصير مع الكل، لإنُه موت محمود أثَّر كثير على أبوك، وخلَّى ما في شي بالدنيا بيفرحُه. بس هو النص اللي بشر بإنُه أبوك رح يكون في يوم من الأيَّام كاتب»، طلبت من صلاح إرسال النص الذي تحدَّث عنه، وفعلًا أرسل صورةً عنه، وهو نصٌّ مؤلمٌ، نصٌّ أنضج من أن يكتبه شابٌّ لم يبلغ الثامنة عشرة بعد. والنص بعنوان «لم يحن رحيلك بعد» والنصُّ يقول: «أجلس إلى جانب سريرك، سرير الشهيد، لا لأسأل من أنت، بل لأسأل من أنا، عرفتك قبل أن أعرف نفسي. أَتَذكُرْ، كبرنا معًا في حارات المخيَّم، ووعدتني أن نبقى معًا حتَّى نصبح عجوزين، نروي لأحفادنا عن وطنٍ عرفناه من حكايات الجدَّات، حيث شممنا رائحة المريميَّة والسريس والزعتر والقمح حين نغفو في أحضانهنَّ على ترنيمة أصواتهن الجميلة. أجلس إلى جانبك لأذكِّرك بوعدك، وأقول: لم تكبر بما يكفي حتَّى تغادر، جئنا إلى بيروت ونحن لا نملك سوى الحلم، لنقاتل من أجلنا ومن أجل وطن الحكايات، من أجل الأمل، من أجل أمَّهاتنا.

ألا تريد تغيير العالم، ألم نتفق على ذلك، لماذا خذلتني وهربت يا صاحبي؟ فأنا لا أستطيع تغيير العالم وحدي، أريدك معي من أجل أن نحتسي كأس الشاي ونثرثر حول كتاب لينين «ما العمل؟»، لنتعلَّم منه كيف نعجن حزبنا الذي سيغيِّر العالم، أنا وأنت. ارجع ولن أغضب لأنَّك انتقدت إنجلز على غبائه بالقول بواقعيَّة الأرقام، ولذلك ليس هناك حلٌّ لجذر

الناقص. نعم أخطأ إنجلز وهناك حلٌّ لمعادلة جذر الناقص. ولكن يا رفيقي، لن نبني العالم الجديد من جذر الناقص. قد نبنيه من السخرية، لكنِّي لن أبني شيئًا دونك يا صديقي.

لعبنا معًا، وكبرنا معًا، لم نغادر حدود المخيَّم، كنَّا نملك العالم هناك، أنا وأنت والدراسة في البراري وفي الضوء الشحيح، أنت ستكون الطبيب، الذي سيعالج جراحنا. لا تغادر، نتائج الشهادة الثانويَّة لم تظهر بعد، ستكون ما أردت وما أرادت أمُّك. أرادتك طبيبًا وستكون. فأنت ما أردت وما صنعت منك أمَّك، كما كانت تصنع عشاءنا اللذيذ عند دراستنا في غرفة السطح لنقبض على المستقبل، أمُّك تدعو لنا من أجل نجاحٍ، لها فيه نصيبٌ مثل ما لنا يا صاحبي. لا تغادر، أمُّك تنتظرك. ولا أحتمل أن أخبرها أنَّك غادرت دون أن تودِّعها، وخذلتها وأخلفت وعدك، ولم تصبح الطبيب الذي تريده، ماذا أفعل أمام وخز عيونها الباكية؟!

دمك على يدي، أجلس إلى جوارك، وأروي لك كلَّ حماقاتنا معًا، لعلَّ ذلك يعيدك لنا، ولا يجعلني أشعر بالعار أمام أمِّك، بأنِّي ذهبت مع ابنها إلى الحرب وعدت من دونه. أرجوك ابق معي، لأنَّك جزءٌ منِّي.

لم يقنعك كلامي ولا شوق أمِّك ولا الذكريات بالعودة لنا، فقرَّرت أن تستمرَّ باستشهادك، لم تغادر وحدك، أخذت جزءًا منِّي معك. جزءًا منِّي مات معك أيُّها الحبيب».

قال صالح: «لما ركبنا السفينة واحنا طالعين من بيروت على طرطوس بعد ما انتهت الحرب وبلش المقاتلين يطلعوا بالسفن، آلاف الكلاشنوكوفات ودَّعتنا بإطلاق الرصاص بالهواء، الناس عبتبكي بالشوارع، وإحنا المقاتلين حاسِّين بالفخر. كان أبوك برَّة كل هذا، كان بحس بالحزن والخجل، ما قدر يطلع من الحزن من يوم ما مات محمود، وبالخجل من النتيجة التي وصلتها الحرب. قبل ما نطلع على السفينة رجع ولبس اللباس العسكري، كانت أوامر القيادة، الكل بدُه يطلع باللباس العسكري وحامل سلاحُه.

وكان أبوك هجر السلاح من لما انصاب محمود ومات. كان خجلان من حالُه بدل ما يحس بالفخر. لما طلعنا على السفينة وكنَّا مع بعض، صار يبكي، ما كنت بحاجة أسألُه ليش بتبكي، لأنِّي كنت بعرف إنُه بيبكي منشان محمود. ولما نزلنا بطرطوس كان خايف، قلي: مش رح أقدر أطلَّع بعينين إمُه لمحمود. قلتلو: منير، ليش بتعمل بحالك هيك، الذنب مش ذنبك، بعدين محمود مات بطل. قال: لا يا سيدي ذنبي، وبعدين شو يعني مات بطل؟ بالآخر مات، يعني ما عاد موجود. ما كان بيحمَّل حالُه مسؤوليَّة موت محمود، بس ما كان قادر يقبل فكرة إنُه محمود يختفي من حياتنا. وهو ما تعافى من مرض محمود اللي أصابُه بالحرب، إلَّا لما راح على تجربة أقسى من الحرب.

بعد الحرب بدت الخلافات داخل حركة فتح، اللي صار واحد من أعضائها بقلب الحرب، ما كان عاجبُه اللي صار بالحرب، بس كمان ما كان عاجبُه أكثر إنُه يكون الاحتجاج على الحرب وما بعدها بيخدم النظام في سورية. منشان هيك وقف بقوة ضد فكرة الانشقاق، وأخذ يناقش في كل مكان مخاطر إنُه النظام السوري يمسك الورقة الفلسطينيَّة بعد الحرب، وهذا اللي كان بدُه إياه النظام من يوم ما تدخَّل بلبنان قبل سبع سنين من الحرب. وقفة أبوك ضد الانشقاق ونشاطه ضدهم، كلَّفوه ثلاث سنوات سجن عند النظام السوري اللي ما بسامح حدا على الوقوف ضدُّه. طبعًا مو بس أبوك اللي دخل السجن في سورية على خلفيَّة الانشقاق، آلاف الشباب من حركة فتح وغيرها من الفصائل بهديك الأيَّام دخلوا السجن معُه. وهذه المرة كانت التجربة أكثر قسوة من تجربة الحرب، لإنُه راح على الحرب برجليه وبخياره، بس دخل على السجن غصب عنُه. منير بعد الحرب والسجن غيره قبل الحرب والسجن، صار رجال في أقسى ظروف ممكن يعيشها مراهق في طريقه إلى الرجولة. بعد السجن ما حسيت إنُه منير انكسر، رغم كل المعاناة اللي شافها، كان شايف في أمل، رغم كل شي.

شعرت إنُه انكسر عندما احتل صدام حسين الكويت وانهار الاتحاد السوفييتي، وضاعت الانتفاضة الفلسطينيَّة، وقتها حسيت أبوك انكسر. يمكن وقتها كل جيلنا حس إنُه انكسر. حسينا كل شيء انكسر».

9

لم يكن تقدير صالح أنَّ تجربة أبي في السجن أقسى من تجربته في الحرب دقيقًا، صحيح أنَّه لم يرغب بالتحدُّث عن الحدثين، لكن حديث أبي عن سجنه أسهل من حديثه عن الحرب، فعليًّا لم يكن قادرًا على التحدُّث عن الحرب. طبعًا، هذا لا يعني أنَّ سجنه كان سياحةً في فندقٍ، حتَّى لو كان كذلك، فأسر الحريَّة عقابٌ في غاية القسوة في المبدأ. وفق ما رواه أبي، ما خفَّف عنه سنوات سجنه في سجن صيدنايا العسكري، ما سمعه من زملاء السجن الذين قضوا سنواتٍ طويلةً في سجن تدمر الصحراوي، الذي يساوي الجحيم، أو الذين قضوا سنواتٍ طويلةٍ في فروع المخابرات قبل نقلهم إلى السجون. قال: «لما كنت أسمع عن تجاربهم في سجن تدمر وفروع المخابرات، كنت أحس إنِّي بفندق خمس نجوم. لإنُه تعذيب طويل مثل اللي بيعملوه في تدمر، مو بدمِّر الروح بس، بقتلها كمان، أنا شفت ناس إجوا من تدمر، وما رجعوا بقية حياتهم طبيعيِّين نهائيًّا. كنت محظوظ، أسبوع بفرع الضابطة الفدائيَّة، وكان من أسهل الفروع، شويِّة تعذيب، وعلى سجن صيدنايا مباشرةً. بس لما تحكي على السجن، ما في كثير أشياء تحكيها، لإنُه السجن روتين قاتل، ممكن أشهر وسنوات لا يحصل فيها أي جديد، رغم ذلك على المسجون أن يخترع حياته في ظل هذه الظروف. الشيء الجديد في السجن بيجي مع الزيارة. وأنا كنت بكره الزيارة، لإنُه ما كنت أقدر أتطلع بعيون إمِّي الحزينة، وأحس أنا اللي تسبَّبت إلها بهذا الحزن مش السجَّان. إمِّي ما تأخَّرت ولا مرَّة عن زيارة السجن، وأخواتي كانوا يجوا أحيانًا. بس أبوي ولا مرَّة فكَّر يجي يزورني. وكنت مبسوط بقرارُه ما يزورني، لأنِّي ما بعرف شو رح تكون حالتي لو إجا وزارني بالسجن.

أنا ما قدرت اتطلع بوجهُه لما طلعت من السجن، كيف لو إجا وزارني في السجن؟! كانت تجربة السجن تأمُّلًا وقراءة وتعرُّف على الطيف السياسي الفلسطيني والسوري عن قرب، لإنُه الجميع كان في السجن هداك الوقت، والسجن مكان مسكَّر على من فيه، بيتعرَّفوا على بعضهم بيتعاونوا أو بيتصارعوا. في السجن بتعرف الناس على حقيقتها، الأناني، البخيل، الانتهازي، الطيِّب، المتسامح، المسكين، أحيانًا الواحد بيكون خليط من كثير أشياء، أو ظروف محدَّدة تُخرج منه ما لا يريد أن يخرج. كانت معرفة البشر التجربة الأهم في السجن، خرجت من السجن وعندي عدد كبير من الأصدقاء، ومن كل القوى السياسيَّة. كانت القراءة ثاني أهم تجربة في السجن، قبل السجن، كنت مفكِّر حالي ختمت العلم، بهالكم كتاب اللي قرأتهم، في السجن عرفت متعة الكتب، والكتب بتخلِّي الإنسان إجمالًا أكثر تواضعًا، لإنُه بيعرف قديش هو صغير أمام بحر المعرفة الهائل، طبعًا، هذا لا يشمل الجميع، هناك من تصيبه الخيلاء كلَّما قرأ كتابًا جديدًا، وبصير يستعرض ما قرأ ويتعالم على الآخرين. أظن أهم ميزة لسجن صيدنايا إنُه الكتب كانت مسموحة، هذا خلاني أطلع على كم كبير من الكتب، في السنوات الثلاث التي قضيتها هناك. وكان في ميزة إضافيَّة في السجن، هي تنوُّع اختصاصات المعتقلين، وهاي الميزة بتجعل المعرفة بمتناولنا كلنا، أي في حال استعصاء أي شيء على الفهم، سواء بالرياضيات، أو الفيزياء، أو الكيمياء، أو العلوم الإنسانيَّة والفلسفة، موجود أحد بين المعتقلين يملك المعرفة المتخصِّصة في المجال الذي يطرح الأسئلة، حتى لو كان الموضوع زراعي أو عسكري..»، خرج أبي من السجن أكثر تماسكًا من حالته بعد الحرب، منحته تجربة السجن بعض المرونة، دون أن تقضي تمامًا على عناده. هذَّبت التجربة القاسية أشكال معارضته الحادَّة التي عبَّر عنها على نحوٍ صاخب قبل الاعتقال. وكأنَّ غياب ثلاث سنوات سجنٍ مختلفٌ عن غياب ثلاث أشهرٍ في الحرب.

بعد الحرب عاد أبي إلى دمشق، وكانت نتائج الامتحانات الثانوية قد صدرت والحرب مشتعلةٌ، وعندما عرف مجموع علاماته، وسألته عمَّتي نوال، في أحد اتصالاته القليلة التي أجراها من بيروت إلى بيت عمَّتي بيان التي كانت تملك هاتفًا في ذلك الوقت، عن فرع الجامعة الذي يريد تسجيله حتَّى لا يضيع عليه التسجيل، قال: «كليَّة الحقوق»، وعندما سألها عن نتيجة نجاح محمود الذي كان قد استشهد قبل أسبوع من هذا الاتصال، قالت له: «جاب 207 علامات»، وكانت هذه النتيجة تؤهِّله لدخول كليَّة الطبِّ، كما خطَّط، وكما كانت أمُّه تحلم. عندما سمع أبي نتيجة محمود أغلق الهاتف وخرج من غرفة الهاتف وهو يبكي بحرقةٍ. سأله صلاح الذي كان خلفه بالدور: «ليش عبتبكي. رسبت؟»، قال أبي: «لأ، بس محمود نجح وجاب علامات كليَّة الطب»، قال صلاح بسذاجة: «منيح»، قال أبي: «شو منيح يا حمار، محمود مات»، تركه وخرج من مبنى البريد في بيروت لينتظره خارجًا. عاد بعد ثلاثة أشهر ليجد المخيَّم كما تركه، لا يفتقد إلَّا لمحمود الذي استشهد في الحرب. أمَّا بعد ثلاث سنواتٍ في السجن، فخرج وكلُّ شيءٍ في العالم الذي تركه وراءه تغيَّر. لم يتوقَّع أن يحدث في ثلاث سنواتٍ كلُّ هذه التغيُّرات، ولم ينتبه في السجن إلى أنَّه هو بدوره تغيَّر، رغم الإحساس بثقل الزمن وبطئه. هناك من سافر، هناك من كبر، وهناك من تزوَّج، وهناك من مرض، وهناك من مات، آلاف التغيُّرات الصغيرة التي أحدثت فرقًا في عالمه، والتغيُّرات التي عاشها في السجن لم يكتشفها هناك، لم يملك الفرصة لاختبارها، عندما عاد إلى الحياة العاديَّة، بدأت تظهر هذه التغيُّرات، وعدَّ أنَّ ما يجري معه هو «تكيُّف ما بعد السجن» كما أسماه، لم يكن تقديره صحيحًا، فهذه التغيُّرات لم تكن ذات طبيعةٍ تكيُّفيَّةٍ، لأنَّها أخذت تعلن عن نفسها أكثر فأكثر، كلَّما ابتعد عن تجربة السجن. تغيَّرت نوعية القراءة والاهتمامات، تغيَّرت القناعات بشأن الكثير من القضايا اليوميَّة، وباتت محكومةً بطبيعة المعارف التي حصَّلها في

السجن، تغيَّر في الذوق الشعريِّ والموسيقا، حتَّى تغيَّر ذوقه في النساء. اكتشف أنَّ الوعي الذي كوَّنه في السنوات الثلاثة التي قضاها في السجن، كان أعمق ممَّا تخيَّل، جعله أكثر قدرةً على التكيُّف من جانبٍ، بحكم تجربة المعايشة التي لا بُدَّ أن يكون المرء فيها أكثر مرونةً، حتَّى يستطع العيش بأقلِّ قدرٍ من المشكلات في السجن. وفي الوقت ذاته، أصبح أكثر تصلُّبًا في الكثير من القضايا التي تبدو شكليَّةً، لكنَّها في الحقيقة امتدادٌ للسلطة بأبشع الطرق المرئيَّة وغير المرئيَّة.

10

انشغل بعد خروجه من السجن بالكثير من المشكلات الشخصيَّة، أراد ترتيب حياته، فهو لم يعد ذلك الشابُّ الصغير الذي اعتُقِلَ بسبب آرائه السياسيَّة، فهذه السنوات الثلاثة القاسية، يُفترض أنَّها حوَّلته رجلًا. لم يكن يبحث عن امرأةٍ عندما تعرَّف على منى قريبة صديقه صلاح، قابلها مرَّةً عابرةً، عندما استقبلهم الناس في ميناء طرطوس يوم الخروج من بيروت، لكنَّه لم يتذكَّرها، لأنَّ هناك الكثير من الناس الذين قابلهم في ذلك الوقت وعانقوه، رجالٌ ونساء وفتياتٌ وحتَّى أطفال، أراد الكلُّ لمس الأبطال الذين صمدوا صمودًا أسطوريًّا في بيروت. حتَّى عندما ذكَّرته بنفسها، لم يتذكَّرها، فهو لا يذكَّر أيَّ شخصٍ قابله في ذلك اليوم، ومن المستحيل أن يتذكَّرها بعد سنوات سجنه، كان حزنه على محمود يعميه بعد الخروج من بيروت. عندما ذكَّرته بنفسها، جاملها وقال: «تذكَّرتك»، لم يكن يرغب في إحراجها، ولأنَّ هناك شيئًا داخله قد تحرَّك تجاه هذه المرأة، وهو الذي اعتقد أنَّ مشاعره تجاه النساء قد تبلَّدت في السجن. كان قد أحبَّ ابنة الجيران في مراهقته، وعندما قرَّر اصطحابها إلى المدينة، ليأخذها بعيدًا عن المخيَّم، تحوَّل المشوار الذي يفترض أن يكون سعيدًا إلى كارثةٍ، لأنَّ زينب بنت الجيران، قضت المشوار في التكسي وهي تتقيَّأ، لأنَّها لا تستطيع ركوب السيَّارة، فهذا يحدث معها دائمًا، وهي لم تخبره من قبل. لم يكن قادرًا على إطعامها أيَّ شيءٍ في البلد، عندما جلسا في مقصف المرج الأخضر في الصالحية، وكان مكانًا معروفًا بأنَّ روَّاده من عشَّاق دمشق. فإذا أكلت سوف تتقيَّأ ما أكلته في طريق العودة، ولا يمكن أن يذهبا إلى المخيَّم مشيًا على الأقدام، لأنَّها ستتأخَّر عن البيت كثيرًا. لعن الساعة التي رمى فيها

الورقة، طالبًا منها موعدًا للقاء، وكان سعيدًا عندما جاءه الجواب بالإيجاب. بعد ما جرى، أصبح يصاب بالرعب كلَّما تحدَّثت عن مشوارٍ خارج المخيَّم. لم تدم العلاقة طويلًا، لقاءٌ هنا وآخر هناك، وجد أنَّ البنت أتفه ممَّا يمكن احتماله، فقطع العلاقة معها. مع منى كان الوضع مختلفًا، هو نَضجَ، وهي امرأةٌ واثقةٌ من نفسها، جميلةٌ، ذكيَّةٌ، مثقَّفةٌ، طالبةٌ جامعيَّةٌ لافتة للنظر، أراد من قوله إنَّه تذكَّرها أن يعبِّر عن اهتمامه بها. لم يتحرَّك قلبه كما تحرَّك عندما كان مراهقًا. هذه المرَّة للإحساس طعمٌ آخر، هناك شيءٌ في هذه المرأة جذبه لها، ليس جمالها فحسب، بل هناك شيءٌ أكثر من جمالها شدَّه لها، شيءٌ أعمق، ثقتها بنفسها وسلوكها كندٍ للرجال، وليس كامرأةٍ ضعيفةٍ. كانت امرأةً بكلِّ معنى الكلمة، امرأةٌ بكامل المواصفات، وفق ما وصف أبي، وعندما يأتي الحديث عن زواجنا نحن أولاده عرضًا، كان يقول: «أرجوني شطارتكم وجيبوا نسوان، مو أحلى من إمكم، مثلها أنا قبلان، بس مثلها لما كانت صبية»، وأنا لا أستطيع أن أتحدَّث بحياد عن هذه المرأة، لأنَّها ستكون أمِّي في قادم الأيَّام، لذلك أحاول رسم صورتها كما رآها أبي، وليست الصورة التي كوَّنتها عنها كأمٍّ. لأنَّ صورة الأم في تربيتنا منزوعةٌ من سياقها، عندما تكون المرأة أمَّنا، تكفُّ عن انتمائها للنساء، هي فقط الأمُّ بكلِّ الدلالات الطفوليَّة للأم التي تبقى معنا، الأمُّ منبع الحنان والتضحية من أجل الأبناء، المسكينة، لكنَّ الأمَّ القويَّة المدافعة عن حقِّها في الحياة والتي تمارس الجنس مع رجلٍ، حتَّى لو كان زوجها لو كان أبي، هذه الصورة للأم مرفوضةٌ، فالأم امرأةٌ بلا متطلَّباتٍ وليس لها رغباتٌ أو غرائز بحاجةٍ إلى إشباع.

لم يخفِ أبي وأمِّي علاقة الحبِّ بينهما، امتلكا الجرأة ليمارسا علاقتهما علنًا في المخيَّم، يخرجان معًا، تزوره في بيته، يأخذها من أمام بيتها. أكسبهما هذا الحبُّ المعلن احترام البعض وكراهية البعض، أكسبهما حبَّ واحترام الأصغر سنًّا في محيطهما العائليِّ، وكراهية الأكبر سنًّا في محيط العائلتين،

لأنَّهم عدُّوا هذا السلوك العلنيَّ إفسادًا لجيل الشباب الصاعد في العائلتين. لم يكن من المألوف في المخيَّم علاقات حبٍّ علنيَّةً بهذه الطريقة، شابَّان يمشيان في شوارع المخيَّم معًا ليلًا ونهارًا دون أيِّ رابطةٍ رسميَّةٍ. مارس أبي وأمِّي حياتهما الطبيعية كما اعتقدا، حياةً يعيشانها وفق قرارهما، وليس وفق إملاءات المحيط، طالما هما لا يؤذيان أحد. شابٌّ وفتاةٌ يجوبان شوارع المخيَّم وشوارع المدينة، ببناطيلهم الجينز والتيشرت والفيلد العسكري الزيتي، لباسهم الموحَّد أشار أنَّهما متساويان في النديَّة، صديقان، حبيبان، بين مجموعةٍ من الأصدقاء يشبهونهم، أصدقاء يحلمون بتغيير العالم ليصبح أكثر عدالةً، كانوا يعتقدون أنَّ هذا الحلم قابلٌ للتحقيق، وكان اليسار والماركسيَّة المدخل لتحقيق هذا الحلم بالعدالة للضحايا والفقراء والمظلومين. ولأنَّهما ولدا في قلب بؤس المخيَّم، كانا حسَّاسين للظلم وعندهما تضامنٌ عالٍ مع الضحايا، ما جعل الحبَّ بينهما محمولًا على الأحلام الكبرى كما هو محمولٌ على المشاعر، رغم الواقع البائس الذي يعيشانه. آمنت أمِّي بأبي وأنَّه رجلٌ ينتظره مستقبلٌ مهمٌّ، آمنت أنَّ عنده ما يستطيع تقديمه، فتراجعت طموحاتها خلف طموح أبي. اعتقدت طيلة حياتها، أنَّها هي التي صنعت أبي، لولاها لما استطاع أن يقوم بأيِّ شيءٍ في حياته، حتَّى لم يكن ليستطيع إكمال دراسته الجامعيَّة دون إلحاحها عليه بضرورة إنجازها. لم تكن ثقة أبي بنفسه توازي ثقة أمِّي به، لم يكن رجلًا مهزوزًا، إنَّما شخصًا قلقًا، ليس متأكِّدًا من أيِّ شيءٍ، على عكس ما تعطيه الانطباعات الأولى للمرء عنه، إذ يبدو كرجلٍ يبالغ بثقته بنفسه، وينطق بالأشياء كأنَّها حقائق مطلقةٌ. حقيقته العميقة عكس هذه الصورة، هو نموذجٌ للرجل القلق، لأنَّه عرف مبكرًا أنَّ الحياة لا تقدِّم نفسها بسهولةٍ، لقد عانى ما عانى بسبب قناعاته، ولم يدفع وحده ثمن هذه المعاناة، بل دفعها أهله، ولا سيَّما أمُّه التي اعتقد طيلة حياته أنَّ علاقةً خاصَّةً تربطه بها، حتَّى في أكثر أوقات العلاقة تأزُّمًا بينهما بعد زواجه. وبسبب الثمن

الذي دفعه لهذه القناعات، عدَّ أن من حقِّه عيش حياته كما يريد هو، لا كما يريد المجتمع، وألَّا يلبس الأقنعة التي تروِّج القيم الكاذبة لمجتمعٍ فاسدٍ ومزيَّفٍ. ليس من السهل حمل هكذا قناعاتٍ في زمنٍ كان الإفساد والزيف يسيران سريعًا على قدمٍ وساقٍ في البلد، ولم يكن لمثل أبي ومن يشبهونه سوى اختراع مجتمعهم الخاصّ بعيدًا عن المجتمع العام الذاهب إلى المزيد من الانغلاق على ذاته وعلى قيمه الرديئة. اختار بعض الناس هذا النوع من الحماية في مواجهة شراسة القمع الذي تعرَّضت له البلد في عقد الثمانينيَّات، ولأنَّ المخابرات اخترقت حياة العائلات، باتت التقيَّة هي السائدة بعد الخوف الذي عُمِّمَ على الجميع. لم يعد أحدٌ يثق بأحدٍ، بات الشكُّ في الجميع هو القاعدة السائدة في البلد، ليس لأحدٍ أمانٌ. في ظلِّ هذه الأوضاع دخل أبي السجن، وفي ظلِّ تفاقمها خرج من السجن، وكان عليه أن يستمرَّ في حياته وقناعاته وطريقة حياته، مع حذرٍ إضافيٍّ حتَّى لا يعود إلى السجن من جديدٍ. وفي مثل هكذا أوضاع استطاع ومن يشبهوه تشكيل مجتمعٍ داخل المجتمع، مجتمعٍ يشبههم ومنفصلٍ عن المحيط الغارق في الطقوس الشكليَّة للتخلُّف مدعومًا بالمال الخليجيِّ. دافعوا عن حقِّهم أن يكونوا مختلفين، أن يعيشوا وفق فهمهم للحياة، وفق قيمٍ أخرى حقيقيَّةٍ وليست شكليَّةً. لم يكونوا مجتمعًا من الملائكة، فهم بشرٌ وارتكبوا من الأخطاء والخطايا الكثير، وهم بذلك ليسوا أفضل من غيرهم، ولم يدَّعوا ذلك. كانوا يرفضون العيش مع القطيع، فكانوا منه وليسوا منه في الوقت ذاته. ينتمون ويعيشون بين هؤلاء الذين لا يعرفونهم، وهم يشكِّلوا بالنسبة للآخرين مجتمعًا مبهمًا؛ مجتمعًا بلا أخلاقٍ ولا ضوابط، وهذا الاتهام كان نوعًا من مقاومة الاختلاف معهم بإدانته. عانى طويلًا من سوء التكيُّف مع محيطه، لم يكن قادرًا على تفسير عدم قبوله المطلق لكلِّ الأشياء حوله وللرفض الذي عاشه طيلة عمره. كان دائم الانتقاد لكلِّ شيءٍ، ولا يعجبه العجب، كما يقول أصدقاؤه عنه، وهو ما اختبرته بنفسي، هو متطلِّبٌ في

كلِّ شيءٍ، وهي صفةٌ أتعبته طيلة حياته، يريد الأشياء مثاليَّةً، مع أنَّه يعرف جيِّدًا ألَّا شيء مثاليٌّ في الحياة، ولم يكن هو كذلك، كما يقرُّ، كان يقول: «حتَّى لو ما كنت مثالي، ليش الأشياء ما تكون مثالية؟!»، لم أفهم كيف كان يطالب بشيءٍ هو نفسه غير قادرٍ على تحقيقه. وفي الوقت الذي كان يقول: «إنَّ العالم كلَّه مصمَّمٌ من النقصان»، عندما أتأمَّل حياته، أشعر أحيانًا أنِّي أفهمه، وهو يبدو شخصًا مفهومًا جدًا، وأستغرب لماذا لم يستطع الآخرون فهمه، مع أنَّ فهمه ليس صعبًا. لكن في أحيانٍ أخرى، أجد أنَّه شخصٌ في غاية التعقيد والغموض، ومن المستحيل فهمه، ربَّما من الكم الهائل من التناقضات التي عاشها خلال حياته. كلَّما حاولت معرفته أكثر، يهرب منِّي، أو هو شخصٍ يرفض الانتظام بصورةٍ نمطيَّةٍ له، لذلك يتمرَّد على محاولة توصيفه كما تمرَّد دائمًا على حياته من أجل تغييرها وتحقيق التوازن المستحيل فيها، وغالبًا ما كان الفشل مصير هذا التمرُّد، حتَّى على صعيد توازنه الذاتيِّ، واكتشف متأخِّرًا أنَّه من المستحيل أن تجد توازنك في عالمٍ يفتقد إلى الثبات. وفي هذه الحالة، حتَّى لو استطعت التوازن، ستتحوَّل إلى بهلوانٍ في عيون الآخرين. أصبح التوازن لا معنى له، والحفاظ على الحدِّ الأدنى هو المطلب الملحُّ. بدأت أحلامه بالتحطُّم، صحيحٌ أنَّه شاهدها تتحطَّم في الحرب التي عرفها وهو في قلبها المتفجِّر وفي أقبية السجون وعتمتها التي اختبرها، لكنَّ الإقرار بالتحطُّم سيتأخَّر حتَّى سقوط الدول الاشتراكيَّة واحتلال العراق للكويت. بعدها أصبح العالم ينحدر باتجاه الأسوأ، وأصبح من الجنون العيش مع التفاؤل، لأنَّ كلَّ شيءٍ تداعى ساحقًا كلَّ الأحلام في العدالة وإنصاف الضحايا. والانتفاضة الفلسطينيَّة التي راهن أن تكون مدخلًا لتغييرٍ ما في المنطقة ماتت مع احتلال العراق للكويت، العالم أصبح أسوأ، المنطقة أصبحت أسوأ، فلسطين أصبحت أسوأ، سورية أصبحت أسوأ، المخيَّم أصبح أسوأ، المحيط أصبح أسوأ. وبسبب كلِّ هذا السوء أصبح التماسك الذاتيُّ قضيَّة القضايا، لقد تحطَّمت هويةٌ بناها

بصعوبةٍ في محيطٍ محبطٍ، وقبل أن يكتمل تَشكُّل الهوية، تحطَّم الكثير من مكوِّناتها الراسخة وانهارت الأحلام الكبيرة المرتبطة بها، شعر بالضياع. في هذه المرحلة كان عليه أن يعيد بناء حياته وعالمه من جديد.

تزوَّج وأمِّي عندما شعرا أنَّهما مناسبان لبعضهما وغير قادرين عن الاستغناء عن بعضهما، بالقليل من طقوس الاحتفال لشخصين مفلسين أصبح العاشق والعاشقة زوجين حالمين بمستقبل أفضل لهما ولأولادهما وللآخرين. وبعد زواجهما بسنواتٍ قليلة تحطَّمت الأحلام، والأسوأ من تحطُّمها، أنَّهما لم يملكا غيرها رصيدًا من أجل المستقبل، وعندما تحطَّمت أصبحا عراةً أمام مستقبلٍ غامضٍ لا يعدهم سوى بالأسوأ. أنجبا أخي محمود في ذروة أحلامهما بمستقبل أفضل، اختار أبي اسمه لتبقى ذكرى صديقه الشهيد معه طيلة حياته، وبعد سنواتٍ قليلةٍ أنجباني وأطلقا عليَّ اسم صادق في ذروة تحطُّم أحلامهما. في اختياره أسماءنا، حاول أبي إيجاد أسماءٍ لنا تحمل معانيًا لحياته، وتمنَّى أن تحمل حياتنا معاني أسمائنا، رغم أنَّه ليس مقتنعًا بما يقوم به، وكان يؤمن بأغنية فيروز الشهيرة التي تقول: «لا سود الأسامي ولا عسليات، عينينا هن أسمينا»، أحيانًا، يبحث البشر عن المعاني، حتَّى في الأشياء التي لا معنى لها في الحياة. كان عليه أن يعيد إنتاج حياته من حطامها، يستصلح ما هو مفيدٌ ويرمي ما هو ضارٌّ. لم تكن العمليَّة سهلةً، فليس من السهل أن يقوم المرء بهذه العملية وهو فاقدٌ لتوازنه، وفي عالمٍ تسوده الفوضى وتحطُّم الأحلام الكبيرة. ساد الارتباك حياته، تمنَّى لو يستطيع التحوُّل إلى رجلٍ مؤمنٍ بالله، فهذا الإيمان، يساعد البشر على التماسك عندما يمرُّون في مراحل الاضطرابات الكبرى. فالله وحده يصلح لأنَّ نعلِّق عليه مسؤوليَّة كلِّ الكوارث التي نمرُّ بها، ونعدُّها اختبارًا منه لإيماننا الذي لا يريد لنا نحن عباده سوى الأفضل، حتَّى عندما يختبرنا ويعرِّضنا لأسوأ الظروف. لم يستطع تجاوز عتبة الإيمان بالحياة الأرضيَّة، إلى الإيمان بالحياة السماويَّة بعد الموت. صحيحٌ كان على قناعةٍ أنَّ للتطرُّف

هيكلٌ عظميٌّ واحدٌ، وأنَّ التطرُّف اليساريَّ الماركسيَّ لا يختلف شيئًا عن التطرُّف الإسلاميِّ الإرهابيِّ. وهو ما فسَّر به سهولة انتقال الماركسيِّين إلى إسلاميِّين بعد انهيار الاتحاد السوفييتيِّ والدول الاشتراكيَّة، حيث انتقل الكثير ممَّن يعرفهم إلى القوى الإسلاميَّة. لذلك لم يكن غريبًا عليه أن ينتقل أبو السعيد المناضل اليساريَّ والمنتمي إلى الجبهة الشعبيَّة لتحرير فلسطين، والذي قبع في السجون الإسرائيليَّة خمسة عشر عامًا قبل إطلاق سراحه في عمليَّة تبادل الأسرى مع إسرائيل في منتصف الثمانينيَّات، ليخرج متحمِّسًا لمواصلة النضال لتحرير فلسطين الديمقراطيَّة الاشتراكيَّة، مع انهيار الدول الاشتراكيَّة أصابه رضٌّ فكريٌّ قويٌّ جرَّاء الانهيار. ولم يجد أبو السعيد أيَّ صعوبةٍ في الانتقال من الجبهة الشعبيَّة إلى حركة الجهاد الإسلامي، حاملًا معه قناعاته حتَّى تحليله السياسيَّ والفكريَّ نفسه، مع تعديلٍ بسيطٍ، بأن أحلَّ الله محلَّ الماديَّة الديالكتيكيَّة والماديَّة التاريخيَّة للتحليل، غير ذلك لم يجرِ أيَّ تعديلٍ على الخطاب السياسيِّ للرجل الذي استمرَّ في قول التحليل السياسيِّ ذاته، وهو مطمئنٌ الاطمئنان ذاته في المرحلتين، وفي الانتماءين. لم يجدِ هذا مع أبي، لم يكن صاحب يقينٍ، حتَّى عندما عدَّ نفسه ماركسيًّا، فهو انتمى إلى الماركسيَّة في فصيلٍ غير ماركسيٍّ، فقد كان ماركسيًّا في يسار فتح، ولم ينتمِ إلى الجبهة الشعبيَّة ولا الجبهة الديمقراطيَّة، أو غيرها من الفصائل الفلسطينيَّة الماركسيَّة، واعتقل كعضوٍ في فتح، وليس كعضوٍ في فصيلٍ يساريٍّ، صحيحٌ أنَّ احتجازه مع قوى اليسار السوريِّ لعب دورًا مهمًّا في بلورةٍ أفضل لقناعته اليساريَّةٍ داخل السجن من خلال النقاش مع هؤلاء. ورغم تعاطفه الشديد مع أعضاء الحزب الشيوعيِّ-المكتب السياسيِّ، إلَّا أنَّه لم يفكِّر في الانتماء إليهم، مع أنَّ هناك بعض الفلسطينيِّين انتموا إلى هذا الحزب، كما انتمى آخرون إلى رابطة العمل الشيوعيِّ. بقي هو على قناعته بأولويَّة القضيَّة الفلسطينيَّة على كلِّ القضايا، وهذا لم يمنعه من مساعدة أصدقائه من اليساريِّين السوريِّين الذين تعرَّف عليهم في السجن. ومرَّاتٌ

عدَّةٌ كادت هذه المحاولات أن تعيده مرَّةً أخرى إلى السجن، رغم حذره في التعامل مع هذا الموضوع بعد خروجه من السجن. ناسبه الانتماء إلى الماركسيَّة في فصيلٍ وطنيٍّ غير ماركسيٍّ مثل فتح، وقبل هذا الفصيل بهم كتيَّارٍ داخليٍّ، وهذا ما ناسب طبيعته الشخصيَّة، كشخصٍ قلقٍ لا يركن إلى اليقينيَّات. المفارقة أنَّ اعتقاله لم يكن لأسبابٍ يساريَّةٍ، وهذا شكَّل ذروة الدراما في حياته، فهو المنتمي إلى يسار فتح، الذين انشقُّوا عن الحركة بعد حرب بيروت، وخاضوا حربًا داخليَّةً داميةً وصلت إلى حصار ياسر عرفات ورفاقه في طرابلس بعد أقلَّ من عامٍ على الخروج من حرب لبنان، هذه المرَّة بمساعدة القوَّات السوريَّة، ما أجبر عرفات والمقاتلين على الخروج من جديدٍ، هذه المرَّة من مدينة طرابلس اللبنانيَّة، وبسبب حصار إخوته في الحركة وبمدفعيَّة الجيش السوريِّ. تأتي مفارقة أبي، أنَّ الأغلبيَّة الساحقة من التيَّار اليساري الذي انتمى إليه في الحركة وقف مع الحرب ضدَّ ياسر عرفات اليمينيِّ. في هذه اللحظة وهو اليساريُّ وجد نفسه أقرب لياسر عرفات من كلِّ رفاقه الذين ذهبوا في الاتجاه المعاكس. لم يكن ليؤيِّد حركةً مدعومةً من السلطة في سورية في مواجهة قيادةٍ فلسطينيَّةٍ، ليست عصبويَّة للتنظيم، بل لأنَّه متأكِّدٌ من أنَّ السلطة في سورية لا تحمل أيَّ نيَّاتٍ حسنةٍ تجاه منظَّمة التحرير والمؤسَّسات الفلسطينيَّة التي تريدها ورقة مساومةٍ كغيرها من الأوراق التي تسيطر عليها، لذلك لم يكن يستطيع أن يكون سوى ضدَّ تدمير العنوان الوطنيِّ الفلسطينيِّ الأهمِّ، منظَّمة التحرير. لم يتخذ موقفًا سريًّا من المسألة، ولم يكن يستطيع العودة إلى السلاح ليقاتل من جديد ضدَّ حرب السلطة السوريَّة على المنظَّمة، لأنَّه قرَّر أن يهجر الحرب، لكنَّه قرَّر أن يجادل المنشقِّين في عقر دارهم، وجزءٌ كبيرٌ منهم من أصدقائه وإخوته السابقين في الحركة، وهناك منهم من قاتل معه في بيروت. عدَّ ما يجري أكبر وأخطر من العلاقات والصداقات الشخصيَّة، ولم يتورَّع حتَّى في الندوات العلنيَّة عن إعلان موقفه بأنَّه ضدَّ سيطرة

السلطة السوريَّة على القرار الفلسطينيِّ. وكان أصدقاؤه السابقين يعيِّرونه في النقاش بوصفه «اليساريُّ الذي يدافع عن اليمين»، أو «اليساريُّ الذي باع روحه إلى أعدائه في اليمين»، كانت فترةً من أصعب فترات حياته، لأنَّ الموقف الذي اتخذه بدا غير مفهومٍ للآخرين، ولبعض أقرب أصدقائه. بالنسبة له، كان موقفه في غاية الوضوح، الوقوف مع الضحايا هو الناظم الأساسيُّ لحياته، كيف إذا كانوا الضحايا أبناء جلدته، هكذا نظر إلى الصراع الذي أدخله السجن. لم يكن أسير إيديولوجيا ضيِّقةٍ تقول: طالما أنا مع اليسار يجب الوقوف مع من أنتمي إليهم أيديولوجيًّا، لم يكن ليفعل ذلك، لأنَّ الوقوف مع الحقِّ كان يعني بالنسبة له إنصاف الضحايا، فلا يمرُّ عليه الظلم الذي يتغطَّى بالشعارات لسحق الضحايا. لم تمرَّ الشعارات الكبيرة التي أُرِيدَ سحق الفلسطينيِّين وقضيَّتهم تحتها. ظهر رأيه وكأنَّه رأيٌ انتهازيٌّ، أو رأيٌ متناقضٌ مع قناعاته، رأيٌ يحاول أن يبرِّر ما لا يمكن تبريره. بعد الحرب أصبحت الورقة الفلسطينيَّة مستباحةً من النظام السوريِّ فأراد الإمساك بها، وكان يجب منعه من السيطرة عليها بأيِّ ثمنٍ. لذلك، وجد نفسه أقرب لياسر عرفات الذي طالما شعر بالنفور من سياسته البهلوانيَّة، ودافع علنًا عن إصرار الرجل على الهرب بالقرار السياسيِّ الفلسطينيِّ من الرئيس السوريِّ المستشرس على الإمساك به، لأسبابٍ تتعلَّق بتجميع أوراق الضغط، ولا تهمُّه القضيَّة الفلسطينيَّة ولا يهمِّه الضحايا السوريِّين أنفسهم. دافع عن قناعته وليس عن ياسر عرفات، دافع عن الحقيقة، ودافع عن الرجل عندما كان محقًّا، كما هاجمه عندما اعتقد أنَّه على خطأٍ. ودفع ثمن هذا الدفاع، ثلاث سنواتٍ من عمره في السجن. كان الموقف في تلك الظروف المركَّبة والمعقَّدة تمرينًا على التقاط الأساسيِّ والإمساك به، بعيدًا عن الشعارات الكبيرة التي تغطِّي الجرائم التي تُرتكب بحقِّ الناس. لأنَّه بعد سنواتٍ سيكون أمام زلزالٍ كبيرٍ، سبَّبه انهيار الدول الاشتراكيَّة، وهو ما عنى انهيار النموذج الذي دافع عنه بوصفه نموذج الحكم الأكثر عدالةً،

رغم كلِّ العيوب التي عانت منها هذه الدول. وليتكشَّف أنَّها دولٌ تحكمها عصاباتٌ من المجرمين تحت شعاراتٍ كبيرةٍ أيضًا، ما استوجب مراجعة لقناعاته، والبحث عن نظرةٍ جديدةٍ إلى الصراعات التي تجري في عالمٍ معقَّدٍ. ولأنَّ كلَّ شيءٍ، وفق وجهة نظره، مضطرٌ لتبرير نفسه أمام محكمة العقل. لذلك حاول مصالحة قيمه الراسخة وتخليصها من الجرائم التي ارتكبتها الدول تحت شعارات الاشتراكيَّة وشعارات العدالة التي أنتجت مزيدًا من الظلم. باتَ إنصاف الضحايا وما يخدم هذا الإنصاف الناظم الأساسيَّ لحياته. عدَّ الماركسيَّة، مثل الكائن البشري يولد ويعيش طفولته ويشبُّ وينضج ويشيخ ويموت، وهو ما كتبه في مقالٍ استدعى ردودًا شرسةً من أصدقائه، الذين طالبوا بنصب محكمةٍ له على التراهات التي كتبها. لقد وصلت الماركسيَّة إلى احتضارها دون تراجع الظلم الذي يُفترض أنَّها ضدُّه، والذي زاد بدل أن ينقص، وكانت الأنظمة التي تبنَّت الماركسيَّة من أكثر الأنظمة توغُّلًا في قمع البشر، ما جعله يخجل بقناعاته السابقة ويصاب بالخيبة من الحال الذي وصل إليه العالم. لم يتخلَّ عن انحيازه للضحايا ولقيم العدالة التي يستحقُّها كلُّ البشر، أدرك أنَّ الخلل في أفكاره يكمن فيما يحمله من أيديولوجيا ترى القضايا ولا ترى أصحابها، سوى بوصفهم وقودًا لهذه القضايا. عدَّ أنَّ أهمَّ انعطافٍ في حياته يكمن في تلك الفكرة، أنَّ البشر الأحياء يجب أن يحتلُّوا المركز في قيمه، فلا مكان لقضايا لا ترى البشر المظلومين وتحاول إنصافهم.

11

لم تنفصل المراجعة عن حياته، التي باتت بحاجةٍ إلى تغييرٍ يتناسب مع زمنٍ يذهب في اتجاهات أكثر ظلمةً. كان قراره الأوَّل، ترك العمل السياسيِّ الفصائليِّ الضيِّق، أيّ قرَّر ترك الحركة التي ينتمي إليها، شعر أنَّه ليس قادرًا على العيش في القيود التي يفرضها العمل السياسيُّ، بعد أن شعر نفسه قد تخلَّص من القيود التي فرضتها الأيديولوجيا. أراد أن يصبح حرًّا من أيِّ التزامٍ سياسيٍّ أو أيديولوجيٍّ أو تنظيميٍّ، لأنَّه أراد قول رأيه في كلِّ شيءٍ صراحةً، وبالمساحة الممكنة، حتَّى يحقَّق ذلك يجب ألَّا يكون محسوبًا على أيٍّ من الاتجاهات السياسيَّة في الساحة الفلسطينية، وفي الوقت نفسه ألَّا يقطع معها، لكن بصفته صاحب وجهة نظر، شعر أنَّه سيكون له دورٌ أفضل إذا قال رأيه مستقلًّا عن الجميع، دون أن يفقد الاهتمام بالقضيَّة الكبرى والعمل على خدمتها، ولأنَّه صاحب قلمٍ، حاول أن يكون الصوت الذي يقارب الحقيقة في كتاباته، وألَّا يكون له مصلحةٌ سوى خدمة القضيَّة. كانت معادلةً صعبةً، المحافظة على استقلاله في زمنٍ سقطت فيه القيم، لم يختر السكوت، وهو يرى قضيَّته تدخل في متاهات التفاوض، التي لا تمنح الفلسطينيِّين سوى الفتات، لم يكن ضدَّ المفاوضات بين الفلسطينيِّين والإسرائيليِّين في المبدأ، لكنَّه ضدُّ مفاوضاتٍ تساوي بين الجلَّاد والضحيَّة، ومطلوبٌ من الضحيَّة الاعتراف بآلام الجلَّاد الذي أدماها، قبل أن يقبل الجلَّاد بالتفاوض معها على قضيَّةٍ جديَّةٍ من القضايا التي طحنها الاحتلال. ولم يرَ الزمن صالحًا لهذه المفاوضات، التي تجري في أسوأ الظروف الفلسطينيَّة والعربيَّة بعد احتلال العراق للكويت والحرب الأميركيَّة على العراق لإخراجه منها. كلُّ شيءٍ ينهار، كلُّ شيءٍ بات رجراجًا وقابلًا للاختفاء،

ليس واثقًا بـأيٍّ شيءٍ، وإذا كان في السابق شخصًا حسَّاسًا، فقد بات شخصًا مهزوزًا بفعل تراكم الانهيارات.

ولدت أنا بعد إخراج القوَّات العراقيَّة من الكويت بأشهرٍ عدَّةً، أي في الظرف الأسوأ الذي مرَّ أبي به، لم تكن صعوبة الظرف تتعلَّق بالمال، بل بالأزمة الشخصيَّة التي مرَّ بها. شعر نفسه وحيدًا، رغم عدم وجود أزمة في العلاقة مع أمِّي، كانت العلاقة في أحسن حالاتها. تصرَّف تحت ضغط الشعور بالوحدة على نحوٍ غريب، لأنَّ كلَّ شيءٍ أصبح غير مفهومٍ بالنسبة له، بات كلُّ شيءٍ ممكنًا. خلال هذه الفترة التي تلت ولادتي، أصبح أبي شخصًا ضائعًا، أمِّي تقول إنَّه لم يعد يرغب في شيءٍ، حتَّى عندما كنت جنينًا أراد التخلُّص منك. قال: «شو المستقبل اللي راح يشوفُه، ليش نخلِّف ولاد لنعذِّبهم؟»، أصبح شعوره باللا جدوى هو السائد تجاه كلِّ شيءٍ. لم تسقط الأحلام فحسب، بل حلَّت محلَّها الكوابيس أيضًا. حاول المقاومة، فشل حينًا ونجح حينًا آخر. لم يتحدَّث لي عن هذه الفترة كثيرًا، وكأنَّه ألغاها بوصفها الأسوأ في حياته. لكنَّ الغريب أنَّ سعيد صديقه المقرَّب في تلك الفترة، أخبرني قصَّة حبٍّ عاصفةٍ في حياته في تلك الظروف الصعبة، قصَّةٌ لا تصدَّق، ولم يأتِ أبي على ذكرها، ولا حتَّى التلميح لها. روى لي سعيد حكاية والدي التي احتفظ بها لنفسه، ولم يخبر مخلوقًا بها قبل أن يرويها لي. ورفض بشدَّةٍ ذكر اسم المرأة التي وقع أبي في حبِّها في ذلك الوقت. وروى لي تفصيلًا يتعلَّق بي في هذه العلاقة، نقلًا عن أبي طبعًا. والتفصيل يقول إنِّي كنت معه في بيت حبيبته عندما دخلنا وكنت في أوَّل تجربتي بالمشي. وضعني على الأرض وعانق المرأة، وعندها شعرني أشدُّه إلى الخلف محاولًا إبعاده عن المرأة. ترك المرأة والتفت إليَّ، وكنت ما أزال أشدُّه بعيدًا عنها. قال لسعيد: «لما حسيت إنُه بشدني، فكَّرت حالي بتوهَّم. بس اطلعت عليه وهو بشد بانزعاج، خفت، كأنُه بعرف إنُه هاي المرة خطر عليه. ما بعرف ليش تركتها، وحملتُه وعبطُه»، كانت حركة طفلٍ عفويَّةً، طرحت عليه

سؤال: ماذا تفعل بعائلتك وأيُّ طريقٍ تسير به؟ كما قال سعيد، في حيرته لم يكن قادرًا على اتخاذ موقفٍ من أيِّ شيءٍ، ينجرف وراء أيِّ شيءٍ، لم يكن قادرًا على نزع نفسه من حضن تلك المرأة، ولم يكن قادرًا على التخلِّي عن عائلته من أجلها، لا سيَّما أطفاله الصغار، لم يعرف ماذا يفعل وكيف يخرج من الورطة. وقعت المرأة في حبِّه تمامًا، وكانت مستعدَّةً لأن تفعل أيَّ شيءٍ من أجله. لم تعرف من أين يأتيها هذا الحبُّ لهذا الرجل الحزين والبائس؟! جعلتها هذه الحالة تجنُّ به، تريد أن تفعل أيَّ شيءٍ ليخرج من حالته، لم تطلب منه أيَّ شيءٍ، أيَّ التزامٍ، أيَّ وعدٍ. ولم يكن هو قادرًا على إعطاء أيِّ التزامٍ أو وعدٍ لها، لأنَّه ببساطةٍ قرَّر ألَّا يكذب عليها وألَّا يكون مزيَّفًا معها، فأصبحت مرآته. كلَّما شاهدت الحزن الشديد في عينيه اعتصر قلبها الألم. عدَّها الشيء الحقيقيَّ الوحيد في حياته، رغم ذلك لم يكن قادرًا على الهرب منها، ولا على البقاء معها. كان حبُّها له من القوَّة ما بلغ بها درجة رفض أن تكون السبب في دمار عائلته، وأن تتسبَّب له بالمزيد من التعاسة. فما كان منها سوى الانسحاب من حياته، قست عليه وعلى نفسها لأنَّها تحبُّه، كان حبًّا نبيلًا، حبٌّ نادرٌ من امرأةٍ حطَّمت قلبها من أجل تخفيف التعاسة عن الرجل الذي أحبَّته بجنونٍ. لم يقبل ذلك، لكن لم يكن عنده خيارٌ آخر، انفصلت عن زوجها بسبب حبِّه، وهي تعرف أنَّه أجبن من أن يتزوَّجها، فلم يكن أمامها سوى الهرب منه، فلا خيار آخر. حاول الاتصال بها بكلِّ الوسائل، رجاها أن تبقى لأنَّه لا يستطيع العيش من دونها، قالت له وهي ليست مقتنعةً: «بتقدر تعمل هيك، إنت أصلًا كنت عايش من دوني»، في لقاء الوداع الأخير بينهما، لم تقبل أن يلمسها، ولا أن يعانقها، ولا أن يقبِّلها، ولم تقبل حتَّى أن تسلِّم عليه بيدها، حين خرجت من البيت الذي التقيا به لم تلمسه حتَّى لا تضعف وتنهار. نظرت إليه نظراتٍ طويلةً بعيون تريد أن تحتفظ بصورته لفترةٍ طويلةٍ. قال لها: «بعمل شو ما بدك، بس ما تروحي»، قالت: «أنت ما رح تقدر تعمل شي، لو بدك تعمل عملت»، لم يفهم من

أين جاءت بهذه القوَّة؟ ومن أين جاءت بقسوة القلب؟ وهل أحبَّته حقًّا؟ لم يتوقَّع هذه القسوة منها، أراد أن يعرض عليها الزواج في السرِّ، لكنَّه خاف أن يُشعِرَها بالإهانة بهذا الاقتراح، فتراجع عن ذلك في آخر لحظةٍ. عندما خرجت وقف مشلولًا، شاهد الدموع تسقط من عينيها رغمًا عنها. لم تنتظر، ركضت وهي تخفي دموعها باتجاه الباب الخارجيِّ، وخرجت من البيت، ومن حياته.

بعد خمسة عشر عامًا، انفصل أبي عن أمِّي، وكان انفصالًا عنيفًا. عرفت هذه المرأة بهذا الانفصال، وفهمت أنَّه انفصالٌ نهائيٌّ، وليس خلافًا عابرًا بينهما. حصلت على رقم هاتفه المحمول من أحد أصدقائه واتصلت به. وروى سعيد بقيَّة الحكاية قائلًا: «رن رقم غريب على هاتفه المحمول، ما اهتم، دائمًا في ناس بتتصل بأرقام خطأ. ولما فتح خط الهاتف وسمع صوتها ما عرفها، سألها: "مين معي" أُحبِطَت عندما لم يعرفها، توقَّعت، أو حبِّت يعرفها من أوَّل كلمة. مرَّت خمسطاشر سنة وما سمع صوتها، وما صادفها ولا مرَّة بهذا الوقت الطويل. ولما قالت اسمها الأوَّل، ما عرفها، وهذا زاد من إحباطها. سألها من جديد: "مين معي" عندها قالت اسمها الكامل، ارتجف شي داخله، رجعت ذكريات ما بتنتهي، كأنُه السنين امّحت وصارت الذكريات أقرب، والأحداث اللي صارت قبل سنين طويلة، كإنها امبارح. ما حب الرجفة اللي ولدت جواه. كان مبرِّر اتصالها إنها بدها تستشيرُه بموضوع طلاقها من جوزها. قال لحالُه، المحامين معبِّين البلد، ليش أنا؟! شرحت حالتها، وسألتُه عن إجراءات الطلاق، وبرَّرت إنها ما بدها تتطلق وهي بتحب ابنها الصغير وما بدها يتربيه بعيد عن العيلة، وهي ما عاد عندها قدرة على التغيير، تحملت طلاق واحد بصعوبة، وما فيها تتحمَّل طلاق ثاني، وما عاد عندها قدرة على المغامرة، وبدها تحافظ على حياتها مع إنُه ما فيها حب، على الأقل فينا نعمل حياة محترمة مع بعض، حتى لو في بحياتُه مرة ثانية. ما فهم ليش بتقولُه كل هاي الأشياء، اللي ما

إلها علاقة بالطلاق، بس هو حس إنها عبتعزف على وتر حساس عنده. حكت كتير، ورد عليها باختصار، بالكلمات اللازمة بس. ما حب يكون طرف في هذا الموضوع بعد كل هذه السنين من الغياب، وهو حاسس حالُه ما عاد الشخص نفسُه اللي كان بهديك التجربة. وهو بيعرف كمان هي تغيَّرت، ما في شي بظل على حالُه في العالم بعد كل هاي السنين. ما حس إنُه اتصالها أثَّر فيه، مع إنُه في شي جواته رجف. واعتبر الموضوع عادي، ارتجاف عابر لذكريات تجربة حلوة. بس حس حالُه متضامن معها، طلاقين لمرة كتير قاسي في مجتمعنا، هو عالم قاسي من دون الطلاق، فكيف بطلاقين. قرَّر ما يحاول يأثِّر عليها بأي اتجاه كان، لا منيح ولا عاطل في مصير هاي المرة التي عرفها وحبها كل الحب في علاقة مجنونة قبل سنوات طويلة.

لما اتصلت كان نسيها من زمان، طيفها يمر بين وقت وثاني، والذكريات بتتباعد، حياتها مشيت بطرق طالعة نازلة، وحياتُه لما اتصلت كانت مشربكة، ما كان خلص من الانفصال القاسي اللي بعدو جرحو ما اندمل. ما كان ناقصُه أزمات، فقرَّر لازم يحط حد للموضوع وما ينجر أكتر. راحت الاستشارة بحالها، أعطاها رأيُه بكل حيادية، وأنهى المكالمة، واعتبر إنُه الموضوع انتهى، وبسرعة خطرلُه إذا بدُه يعمل علاقة معها، ما رح يعمل شي، قبل ما يصير طلاقها نهائي، ما رح يساوي اللي عملُه في المرة الأولى. وهاي كانت رغبتُه اللي حاول يدفنها. ولما فكَّر في الموضوع، ما لاقى اتصالها بريء، ما كانت بحديثها متوترة، مثل النساء اللي بدهم يطَّلقوا، حكت كأنُه بتحكي عن حدا تاني. لأوَّل مرَّة ما كان بدُه يشوف الواضح، إنُه المرة ما اتصلت إلَّا لترجِّع العلاقة معُه، علاقة حلوة بتخليها تكون سعيدة بطلاقها بدل ما تكون حزينة، مع إنُه قالت غير هيك. وحس في شي جواتُه بيرغب ترجع هديك الأيام. واعتبر إنُه من حقها تحاول ترجِّع حب ما إلُه مثيل حتَّى تتجاوز محنتها، أو تحوِّل محنتها لمناسبة فرح. وكان على استعداد للتضامن معها منشان الأيام الماضية، بس من دون ما يدفع هاي العلاقة

بأي اتجاه، هيك قرَّر. هذا القرار تبخَّر بسرعة، بعد عدِّة اتصالات لاقى حالُه أضعف من إنُه يقاوم، ولما بكت انهارت كل الدفاعات، حاول المقاومة، حاول إنه يقول لأ، ما قدر. وكل ما شرحت أكثر، كان بيغرق أكثر والصورة بتصير أوضح. شرحت نفسها من دون ضوابط، ومن دون ما تخبِّي شي. كانت عطشانة حكي عن علاقتهم، العلاقة الأجمل في حياتها، والمحذوفة غصب عنها، ما كانت هي ولا هو بيقدروا يحكوا عن هاي العلاقة اللي انسحروا فيها. العلاقة المحذوفة كانت أكثر شي بحبُوا يحكوا عنُه بس ما بقدروا، ما بقدورا يصرحوا عن الطرف الثاني في العلاقة، لأنها رح تكون فضيحة، حتَّى بعد سنوات طويلة من نهايتها. كانت عقاب قاسي، أجمل تجربة في حياتهم ما بقدروا يحكوا عنها للأبد. هاي أبوك مات وأنا مش قادر أقلك مين هاي المرة، لأنِّي وعدتُه ما أقول لمخلوق بالدنيا مين بتكون، ووفاتُه خلتني أحرص على أسراره. بكت وبكى لما قالتلو: «أنت أحلى حب مر بحياتي، واللي بقهر أنُه ما بقدر أحكي عنُه. حبيت كثير أحكي عنُه، وكيف كنت أطير معك. ما كنت بقدر وإنت بتعرف ليش»، ما فهموا كيف مشيت هاي العلاقة، وما كانوا فاهمين كيف عبستعيدوها، ظلت المكالمة طول الليل، وأطول مكالمة بحياتُه. ما عرف ليش ظل يسمع كل هذا الوقت، في شي أقوى منُه أجبرُه يسمع كل حرف، ما حكى كثير. هي حكت كل الحكي، كلامها بيتدفق بنبرة باهرة، أحضرت العلاقة القديمة بكل تفاصيلها، ذكريات تجر ذكريات، وهم بيرجعوا للتفاصيل، صور متلاحقة في الشتاء والصيف، في الليل والنار، تفاصيل فكر وفكرت إنهم نسيوها، صور متلاحقة في أماكن أحبوها، عناق في أكثر المناطق فضائحية، رجل متزوج من أخرى مع امرأة متزوجة من آخر في أكثر المناطق انكشافًا، لو حدا من معارفهم شافهم لكانت فضيحة بجلاجل، عناق على الطرقات، لقاءات حميمة في أكثر مطاعم دمشق ازدحامًا، عناق على الطرقات ومطر يغسلهم ويبللهم ويمشون مبلولي الملابس متعانقين. ما كانو بساووا شي غير إنهم

بدوروا على بعض، ولما بيلتقوا، ما بيقدروا يبعدوا عن بعض، بهربوا من الآخرين، بسرقوا القبل والتلامس الجسدي، والالتحام الجسدي في كل وقت في أوضاع محفوفة بألف خطر وخطر. ما كان شي بردع أجسادهم عن الالتحام غير الموت، العلاقة كانت الجنان بعينه. الذكرى جرِّت الذكرى والحلو جر الحلو، والزمن انمحى وتلاشى بقوة الذكريات، أحضروا الماضي بجماله دون الألم، وكأنهم عادوا هناك. توهجت خلال حكيها، كان حاسس فيها، والتوهج صابُه بالعدوى. حس بسعادتها من نبرة صوتها، وصارت في عالم سحري، عالمها عالمه، عالم قوي سورته بمتاريس عالية حجب عنها أوجاع الماضي والحاضر. طالت المكالمة لدرجة ما ظل حكي، بعد شوي من حديثها تسربت كلمة «حبيبي» إلى كلامها، قالت الكلمة مرتبكة في البداية، بعد شوي صارت تقولها بشكل عادي، زي ما كانت تقولها زمان. عاشت حالة من الهذيان الساحر، أشعرتها بالتحليق كأنها شخص يتعاطى الحشيش قالت: «معك، كنت أوَّل مرَّة بعرف شو يعني حب، إنت علَّمتني الحب، إنت أول حب، صحيح إنِّي حبيت غيرك، بس حبك ما بشبه أي حب ثاني، إذا في بالعالم أصنص حب، بكون حبَّك. حب طيَّرني لعند الله، هذا ما حسيتُه غير معاك. يلعن ربك»، حكت وهي ترتجف، بس رجفة سعادة، كان صوتها بيجي من مكان غير هذا العالم، عالم سحري هي بتسبح فيه. طايرة فوق بيتها المهدوم والعالم التافة الذي حسبتله ألف حساب. ساعات من الحديث الطويل ما ملِّت ولا هو مل، على العكس حسِّت في شي بروحها تغيَّر، وما عادت قادرة تسكت، قالت: «حبيبي، يلعن ربك، حاسة حالي بحبَّك أكثر من زمان»، ارتبك، وما عرف شو يقول مع إنُه سمع الكلام اللي كان بتمنَّى يسمعُه، لاقى حالو بقول: «وأنا كمان بحبك» انتظرت هذه الكلمة حتَّى تقول: «حاسة إنُه ما تركنا بعض، وإنُه السنوات ما مرت، مش قادرة أوصف مشاعري، أنا مبسوطة. هذا الحب ما عشته من قبل حتى معك، مش عارفة شو عمبصير. ما توقعت كل شيء ينهار بهاي السرعة، شو

سويت فيّ؟! وهذا كلُه وإحنا بس بنحكي على الهاتف، شو رح يصير بس أشوفك؟! مش قادرة أستنى. بدي أشوفك اليوم..»، طلع الصبح وكانت المكالمة ما زالت مستمرة، ما تركت القصة مفتوحة، قالت: «بدي أشوفك المسا»، فوافق فورًا.

انتظرتُه بالمكان اللي اتفقوا عليه، عرفها من مشيتها اللي ما غيَّرتها السنين، لما وقف سيارتُه جنبها، انتبهت عليه. فتحت باب السيَّارة وركبت. اطلع بوجهها الطفولي اللي ما تغيَّر، عيونها وأنفها وكرسي خدها وابتسامتها وسنانها، هي هي حبيبته التي تركته زمان لم تتغيَّر، الشي الوحيد المختلف، شعرها اللي كان طويلًا بطبقات منسدلة على كتافها، وكان كثير يحب يمسحُه بإيدُه، أصبح قصَّة قصيرة، وهاي قصَّة الشعر ما غيَّرت شكلها، ولا وزنها الزائد بعض الشيء عن زمان. لما ركبت السيَّارة ما كانت واثقة إنُه الشخص اللي جنبها هو نفس الشخص اللي تركتُه بقسوة مشلول في هديك الشقَّة الباردة، اللي كان فيها آخر لقاء إلهم قبل أكثر من خمسطاشر سنة. سواقة السيارة منعتُه من أنُه يتأمَّل وجهها، سرق نظرات خاطفة، بس ما قدر يتأمَّلها لعند ما وصلوا على المطعم اللي اختارتُه هي بصحنايا. سأل حالُه بالطريق: هاي المرة اللي قاعدة جنبي هي نفسها المرة اللي تركتني من سنين؟ لما قعدوا، اطلعت فيه بتتفحصُه عيونها بدها تاكلُه وقالت: «شكلك ما تغيَّر أبدًا» قال: «الشي الوحيد اللي ما تغيَّر فيني هو شكلي»، قالت: «خفت تكون تغيَّرت»، قال: «أكيد تغيَّرت، وإنت تغيَّرتي كمان. ما في شي بيبقى على حالُه بهاي الدنيا»، قالت: «ما بظن إنُه تغيَّرنا، حتَّى لو صار وتغيَّرنا، حبنا ما أظن تغيَّر» طلبوا من الكرسون بعض المقبِّلات والبيرة. على العكس من الليلة الماضية على الهاتف، بلَّش الحديث مرتبك. وأمام لسعات البرد أخذت تشد جاكيتها على جسدها، قرَّبت جسمها من جسمه حتَّى تشعر بالدفا، حست إنُه دفيت مع إنها ظلت ترجف. ولأنُه المحل كان بارد، طلعوا من المطعم راجعين. وهو في طريق الرجعة وُقَفْ السيَّارة على جنب

الطريق عند صوامع الحبوب اللي بمنطقة السبينة فجأةً. اطلع في عينيها، كانت بتقولُه: خذني. عدل وجهها باتجاهه، كانت مستسلمةً، أمسكها من كتفيها وعدَّل جلستها، نظر إلى شفايفها اللي بترجف، انقض عليهم والتهمهم، وكانت هي تنتظر الإشارة، اشتعلت السيَّارة بالرغبة والمتعة، وصراخها زاد من جنونه، فاجتاحها، كما اجتاحته من دون اعتبار للخطر. هرست شفايفة بين سنانها، وشعر بالألم وبطعم الدم المالح، كانت ترتعش وكأنَّها مراهقة أوَّل مرَّة بلمسها رجل. قالت وهي حاسِّة حالها مهدودة «يلعن دينك، شو عملت فيني؟!» وصلها قريب بيتها، وروَّح على البيت يفكِّر، شو هالجنان اللي بعملُه؟

انهارت الحواجز، وبسرعة استعادوا الحب القديم، اخترقوا الزمن، وكأنهم ما بدهم يرضوا باللحظة الصعبة اللي هم فيها، رجعوا لوقت بعتقدوا إنُه أحلى وقت بحياتهم، كان بدهم يسترجعوا هاي اللحظات. كانوا بهربوا من زمانهم وبندمجوا بزمان تاني، أو كانوا بجيبوا الماضي للحاضر. كانوا شخصين فقدوا عقلهم، ما عادوا حسُّوا باللي حواليهم، والنار اللي ولعت جواتهم كانت عبتحرق كل شي، الزمن والانتظار والمتاعب، وبتحرق كل الاعتبارات التي بتوقِّف بوجه استردادهم ما أحبوا. بركان وانفجر وأخذ كل شي بطريقُه، ما عاد شافوا غير لحظتهم المستعادة. كانت تكرِّر: «أنا بحبك أكثر من أوَّل، وما رح أتركك بعد ما لقيتك»، كانت بتقول كلامها بثقة، وكأنُه كنز رجعلها. ما عاد بدها شي غير تظل بجنبُه، أخذت إجازة من الشغل، وما عاد بدها تشوف حدا أو تحكي مع حدا، بدها يظل معها ليل ونهار. كأن الجنان أوصلها لشي بحياتها ما كانت تتوقع تعملُه ولا هو بتوقَّع يعملُه، بعد هداك اليوم، أبوك عرف إنُه اللي بعملُوه أكثر من جنان. أن تجتاحه في اليوم التالي على سفح جبل قاسيون بالقرب من الناس ومن معسكرات الجيش، كان أكثر من جنان امرأة عرفته بنفسها بأنها ما عادت المرة المجنونة، صارت امرأة رزينة، اللي ساوته هداك اليوم واللي قبل

إنُه ينجر إلُه لينفجر الجبل تحتهم رغبة رهيبة ما عرفها قبل هيك، كان أكثر من جنون، وعرف إنهم سقطوا في هاوية من الصعب الخروج منها. اللي صار على جبل قاسيون، كان البداية، كرت المسبحة، عملوا حالة خارج زمانهم ومكانهم، حالة هاربة من كل شيء، واعتقدوا إنهم مسكوا بكل اللي بدهم إياه، ورجعت الحياة لتكون حياتهم، وبدهم يواكبوها زي ما بدهم. بس كانت حياة بالعتمة، وكانوا بعرفوا إنهم ما بقدروا يعلنوا هذه الحياة، لألف سبب وسبب. هم سرقوا الوقت اللي كان لازم يسرقوه، الوقت اللازم ليتوازنوا، ويعرفوا إنُه في أشياء حلوة في الحياة، وبكير يشعروا بالشيخوخة اللي شعروا فيها في الأيام الأخيرة. كانوا بعرفوا إنُه هاي العلاقة مستحيلة الاكتمال، ويمكن يكون جمالها بعدم اكتمالها، لا هو ولا هي تصوَّروا يعيشوا مع بعض، في جواتهم رغبة تبقى هاي العلاقة تكويهم، علاقة الحلم اللي مش قابل للتحقيق. هي الحلم اللي بيبقى حلم ومن المستحيل إنُه يصير واقع. تمنُّوا يقدروا يكسروا هذا القناعة العميقة داخلهم، بس ما قدروا. وهذا هو اللي جعل العلاقة ملتهبة على طول، ما عرفت أي هدوء، السبب قناعته وقناعتها، إنُه كل لقاء بينهم قد يكون اللقاء الأخير، لأن هاي العلاقة محكومة عليها بالإعدام، وقبل إعدامها، عليهم استغلالها حتى أقصى درجات الاستغلال، بالمشاعر والأجساد، فأصبح كل لقاء، كأنَّه استقبال من غياب طويل وبالوقت نفسه وداع نهائي، يمكن ما يشوفوا بعضهم بعدها. ما طلبت منُه شي، ولا هو وعدها بشي، ولا كان كل هذا مطروح، ما كانوا بيعرفوا يفسروا هاي العلاقة. مصير العلاقة محتوم، والتعلُّق محتوم، وهي العلاقة اللي رح يعتبرها، كل واحد لحالُه، العلاقة اللي رح تسعده طول عمره، العلاقة المشتهاة واللي بيتمنوها، مش بس لأنُه ممنوعة عليهم، كمان لأنهم كانوا على قناعة عميقة إنهم أفضل اثنين في الدنيا بصلحوا لبعض. بس كل شي ثاني مختلف عن قناعتهم، بيقول إنتو مش لبعض، وإنتو ما بتقدروا تدفعوا ثمن هاي العلاقة. بقي هو يعتقد إنها حبُّه الأفضل المفقود،

وبقيت هي تعتبر إنُه زوجها المثالي الذي لم ولن تحصل عليه، هذا ما قالو أبوك. عند وفاته، بكته كحبيب وزوج وعشيق وأخ وأب وسند، وبكته كأنُه آخر رجل على وجه الأرض. أنا شفت هذا شخصيًّا، عرفتُه بنفسي ما حدا حكالي إيَّاه، سمعتُه منها بداني وشفتُه بعيني، لما خبَّرتها إنُه أبوك مات».

12

أصابتني هذه القصَّة بالضيق، لم أسمع عن أبي شيئًا يشير لمثل هكذا علاقة. طبعًا، لم يكن ملاكًا، هل يمكن لعلاقةٍ بهذا الصخب أن تمضي هكذا دون أن يلحظ أحدٌ، وكأنَّ شيئًا لم يكن، حبٌّ بركانيٌّ لم يلفت انتباه أحدٍ من المحيطين؟ لم أذهب أبعد من رواية العم سعيد لمعرفة حقيقة هذه العلاقة والمزيد من التفاصيل حولها، وهو لم يقل لي، من تكون هذه المرأة. لو قال لي، لما ذهبت إليها لأسألها عن هذه العلاقة، وأقول لها أنا ذلك الطفل الذي حاول إبعاد أبيه عنك في بيتك. لكنِّي لم أكبح نفسي من التفكير مطوَّلًا بهذه العلاقة، وفكَّرت ما الذي يمكنني سماعه منها أكثر من الذي سمعته من العم سعيد؟ ويبدو أنَّه الوحيد المطلع على علاقةٍ اتسمت بانفجاريَّتها دون أن ينتبه أحدٌ. بالتأكيد لها روايتها، وما عاشته لا يمكن لأحدٍ غيرها شرحه، لكنِّي خفت، لا أعرف إذا ما كان ذلك الطفل قفز من أعماقي وشعرت بالغيرة من امرأةٍ أحبَّت أبي، جعلت حبِّي له كابنٍ يصبح أصغر. وقد أكون خفت من تدمير الأسطورة التي تحدَّث عنها العم سعيد، وتكون المرأة أقلَّ من الصورة التي رسمها أبي عنها ونقلها العم سعيد. شيءٌ ما صرخ في أعماقي، اترك صورة المرأة كما رسمها العم سعيد، وأنا استجبت لهذا النداء الداخليِّ. ولم أستطع سؤال أمِّي، إذا كانت تعرف شيئًا عن هكذا علاقة أقامها أبي مع امرأةٍ تعرفها، وامتنعت عن السؤال لأسبابٍ عدَّةً. الأوَّل: أنَّ أمِّي لم تسامحه على الخلاف والانفصال القاسي الذي حصل بينهما، حتَّى بعد وفاته. والثاني: لم أُرِد فتح جرحها من جديدٍ، وأذكِّرها بأبي الذي ظلَّ جرحها الأكبر حتَّى بعد غيابه. والثالث: أنِّي سمعت اتهاماتٍ عديدةً من أمِّي عن علاقاتٍ نسائيَّةٍ أقامها أبي في أثناء زواجهما وبعده، بعضها قابلٌ

للتصديق، وبعضها غير قابلٍ للتصديق، لكنَّها لم تتطرَّق ولا مرَّةً للحديث عن مثل هكذا امرأة، أو لمثل هكذا علاقةٍ أقامها أبي تشبه علاقته بهذه المرأة. والرابع: خفت أن تؤلِّف قصَّةً سخيفةً لترضي نفسها، ولتثبت من جديدٍ أنَّ أبي رجلٌ سيِّئٌ وتحطِّم أسطورة حبٍّ أنا شخصيًّا حسدت أبي عليها، وتمنَّيت أن تتكرَّر معي، رغم الآلام التي تركتها. صدمتني القصَّة لأنَّ فيها شيءٌ غريبٌ، سحريٌّ، علاقةٌ شائكةٌ، فيها من الجمال والألم والحزن والتحطُّم الكثير، علاقةٌ غير منطقيَّةٍ مثل الكثير من الأشياء غير المنطقيَّة في الحياة، قصَّةٌ بقيت على هامش حياته، مع أنَّها في غاية المركزيَّة، لو لم يكن العم سعيد صديقًا حميميًّا لأبي، لما عرفت عن هذه القصَّة شيئًا. وأهميَّة ما قاله أنَّه يضيء جانبًا معتمًا من حياة أبي، التي كلَّما تقدَّمت في معرفتها، أشعر أنَّها زادت غموضًا وتشابكًا وتناقضًا، علاقةٌ تفسِّر بعض الأشياء، وفي الوقت ذاته تجعل أشياء أخرى تدخل في غموضٍ إضافيٍّ. لو كان حيًّا لسألته عن الكثير من الأشياء لأفهم حياته أكثر، هذه الحياة التي أصبحت هاجسي بعد وفاته.

في سنواته الأخيرة، كان أبي إلى جانبي، وعدَدتُ وجوده في حياتي راسخًا، وهو شيءٌ لا يمكن تغييره، لم أفكِّر أنَّ الموت سيخطفه وبهذه السرعة. لو عرفت ذلك، لقضيت معه وقتًا أكثر لأفهم هذا الرجل الغامض، ولأفهم نفسي في الوقت ذاته. فمنذ وفاته وأنا أشعر أنَّه مرآتي، كلَّما بحثت في حياته أكثر وعرفت عنها المزيد، تتضح حياتي لي أكثر من السابق. كنت سأسأله عن هذه العلاقة تحديدًا، ومن أين جاء بكلِّ طاقة الحبِّ التي عاشها، رغم ظرفه الصعب وقلقه وحزنه الدائم في ذلك الوقت؟! أريد أن أفهم ما هو غير قابلٍ للفهم، وأعرف هل كان هو نفسه قادرًا على فهم ما عاشه، وبالتالي قادرًا على شرحه؟! الغريب أنَّه لم يكتب عن هكذا علاقةٍ في كلِّ أعماله، قرأت كلَّ أوراقه التي تركها وراءه، لم أعثر لا على مقاطع تتحدَّث عن مثل هكذا علاقة، ولا كذلك على مشروع رواية تتضمَّنها، مع أنَّها علاقةٌ

روائيَّةٌ بامتيازٍ، ولا أدري إن امتلك خططًا لعملٍ يكون بمستوى هذه العلاقة قبل وفاته. فعندما تحدَّث عن المستقبل، قال: «مستقبلي وراي، عندي كم كتاب بدي أكتبهم، قبل ما أموت»، كان موته مفجعًا ومبكرًا، ولا أعرف إن فكَّر في كتابٍ يتحدَّث فيه عن هذه العلاقة أو يستلهمها، وبالتأكيد لكانت من أجمل أعماله.

لم أتوقَّع وأنا أبحث في أوراق أبي وفي إعادة بناء حياته عبر جمع أجزائها من الآخرين أنَّه سيقدِّم لي دروسًا في الحبِّ. هذا آخر ما توقَّعته منه. عندما قال لي «أنا محظوظ بالنسوان»، لم أفهم ما عناه، ابتسمت وقلت في نفسي: «هو بواسي حالُه»، كنت أعرف أيَّ ظروفٍ مرَّت بها علاقاته النسائيَّة، وكيف كانت عاصفةً لدرجةٍ غير محتملةٍ، لا أقصد علاقته بأمِّي فحسب، بل علاقته بنساءٍ أخرياتٍ أيضًا. لم تكن عاصفةً بدرجةٍ أقلَّ، ولم تسبِّب جروحًا وندوبًا أقلَّ. لكن ما عرفته في أثناء تعمُّقي في حياته، كان صادقًا بهذا الشأن، لا تعني الصراعات العنيفة بين المحبِّين، سوى أنَّ هذا الحبَّ عميقٌ لدرجة الخلاص منه يكون مزلزلًا. بذلك يكون محقًّا فيما يقول عن حظِّه في النساء. فهو قال: «أنا بالحياة بحب أروح للآخر، خاصة في الحب. اللي ما بقدر الواحد يعيشُه بهدوء، لأنُه الحب حتى يكون عميق، لازم يكون عنيف»، حكمت من النتائج على العلاقات النسائيَّة التي عاشها، ولم أرَ هذه النتائج العنيفة هي نتاج لمشاعر أعنف منها، بهذا عاش حياته حتَّى نهايتها، وتركت فيه أثرًا عميقًا، كما ترك في شريكاته في الحبِّ الأثر ذاته. حتَّى أنَّ النبش في هذا الجانب فسَّر علاقة أمِّي المعقَّدة والجنونيَّة به، وهذا ما جعلني أنظر إلى ردِّ فعلها تجاه صراع الانفصال، بنظرةٍ من التعاطف، لم أكن أُحمِّلها لها ونحن نمرُّ في عاصفة الانفصال بينهما كعائلةٍ. الآن، بعد غيابه بحوالي العامين، أفتقده، لم أتوقَّع أن أشعر بالفقد لهذه الدرجة، أحيانًا لا ننتبه لمكانة من نعدُّ مكانتهم ثابتةً في حياتنا، حتَّى نفقدهم، وعندما نفقدهم، يتركون هوَّةً ساحقةً لسنا قادرين على ترميمها

دونهم. هذا ما شعرته عندما تُوفِّي أبي، لم أقدِّر المكانة التي شغلها في حياتي، حتَّى فقدته، وأنا الرجل الذي عانى ما عانى من مشكلاتٍ مع والدته. لحضوره طغيانٌ لم أشعر بحجمه إلَّا عند الفقد الذي فجَّر طغيان حضوره حتَّى وهو غائبٌ. وأستطيع أن أفهم حضوره في حياة النساء اللواتي أحبَّهن، وكم هو مهولٌ، وهو ما يفسِّر الزلزال الذي يتسبَّب به فقدان العلاقة معه، لأنَّ النساء يعددن فقدان العلاقة مع الحبيب معادلًا حقيقيًّا للموت. هذه المشاعر المزلزلة هي ما يفسِّر حجم الفقدان بخسارته، لا سيَّما عندما نعرف أنَّ الحبَّ الجارف قليلٌ في هذه الحياة، والأهمُّ، أنَّه يحتاج إلى شريكٍ يعرف ممارسة هذا النوع من الحبِّ، وهؤلاء قلَّةٌ في الحياة. أفهم هذا الآن، وأفهم حجم الخسارة التي تكبَّدها أبي، وتكبَّدتها النساء اللواتي أحببنه. إنَّه الفقد المطلق المزلزل.

13

حسَدت أبي على حظِّه مع النساء، لأنِّي لم أعرف في حياتي، ما يشبه العلاقات التي اختبرها في حياته، وهذا لا يعني أنِّي لم أعرف الحبَّ في حياتي. بل عرفته وعرفته جيِّدًا، لكن لا أشعر أنِّي عرفت هذه العلاقات المطلقة مع النساء. بالتأكيد لم أرغب أن أعيش حبًّا عاصفًا كادعاءٍ، بل أردت عيشه كحقيقةٍ، وهذا النوع من الحبِّ، إمَّا أن تكون محظوظًا وتعرفه، أو تبقى في علاقات حبٍّ أقلَّ منه بكثيرٍ. أمَّا أن تعيش علاقات حبٍّ عدَّةً من هذا النوع، فهو الحظُّ بعينه. بعد تجاوزي المراهقة ودخولي الجامعة، أدركت أوَّل حبٍّ حقيقيٍّ في حياتي. اعتقدت أنَّه حبٌّ عاصفٌ، أعجبني التعقيد في العلاقة، أعجبني التعرُّف على امرأةٍ جميلةٍ لها ظروفها المعقَّدة، وأن تحبَّني في ظلِّ تعقيداتها، شعرت نفسي أخوض تجربةً هائلةً وعميقةً، وعليَّ أن أكون النبيل الذي يحتمل ظروف امرأةٍ أجبرتها الظروف على الزواج من رجلٍ لا تحبُّه وأنجبت ولدين منه، وهي تسعى للخلاص من هذه الظروف دون أن تنجح في ذلك. كنت مستعدًّا أن أكافح معها ضدَّ ظروفها، حتَّى نخرج معًا من هذا الوضع. اعتقدت أنَّ الحبَّ قادرٌ على صنع المعجزات. كنت أبني وهمًا، لم أشكَّ أنَّها أحبَّتني، ولا أشكُّ بأنِّي أحببتها، لكنَّ هذه العلاقة افتقرت إلى الجنون الذي تحتاجه، أو أنا كنت المجنون الوحيد في هذه العلاقة. أمَّا هي في غاية العقلانيَّة والحسابات الباردة. والحبُّ العاصف يحتمل كلَّ شيءٍ ما عدا الحسابات الباردة التي تقتله. كانت مشغولةً بمصير ابنيها، أكثر ممَّا هي مشغولة بحبِّنا، وكلَّما طلبت منها حسم موقفها، حتَّى ننتهي من هذه الازدواجيَّة المقيتة، تتهرَّب وتقول: «أعطيني شوية وقت، وضعي مو سهل»، أعطيتها الفرصة بعد الأخرى، بقينا نراوح

مكاننا ولم نصل إلى مكانٍ، كنت مستعدًّا للذهاب معها إلى نهاية الطريق، مهما كانت النتائج، هي جَبُنَت. لم ألمَها على ذلك، تفهَّمت مخاوفها، لكنِّي لم أقبلها، لأنَّ البلد ذهبت بعيدًا، وبدأت تدخل في الدمار وهي ما زالت متمسِّكةً بأن أمنحها المزيد من الوقت حتَّى تقرِّر. كانت متردِّدةً ومرتبكةً، وليست قادرةً على المغامرة بمستقبل ابنيها. دخلت البلد في حربٍ مدمِّرةٍ، ولا مستقبل لابنيها ولا لأبناء الآخرين. لكنَّها ظلَّت على تردُّدها، وليس في يدي ما أفعله. لم أتوقَّف عن حبِّها، لكنِّي قرَّرت أن أغادر هذه العلاقة، لأنَّها ستبقى تراوح مكانها إلى ما لانهايةٍ. لقد ارتبك مفهوم الحبِّ عندي، وفقدت الثقة به، وبإمكانيَّة أن يصنع لأصحابه حياةً مستمرَّةً وجميلةً. لم يكن هذا بفعل تجربتي الشخصيَّة، بل يعود إلى تجربة أمِّي وأبي. فقد سمعت الكثير من الكلام عن قصَّة الحبِّ العاصفة بينهما، وكيف تحدَّيا كلَّ الظروف المعيقة، ولم أفهم كيف ينجح هذا الحبُّ بتجاوز كلِّ هذه العقبات، ويفشل في النهاية في الاستمرار؟! سمعت من أمِّي الكثير من الكلام عن أبي الذي تغيَّر، ولم يعد ذلك الرجل الذي أحبَّته وأحبَّها، بعد أن كان يهتمُّ بكلِّ تفاصيلها، لم يعد يراها، ولا يلتفت لها. أمَّا تفسير أبي للانفصال فهو أبسط، أنَّ الناس تتغيَّر وهم يعيشون معًا، ويصلون لدرجةٍ لا يعرفون بعضهم وهم ينامون على سريرٍ واحدٍ. ويشدِّد على: «إذا كان الحب بدُه يحوِّل حياتي إلى جحيم، ما بدِّي إيَّاه»، ليس صحيحًا ما قالته أمِّي بشأن علاقتها مع أبي، أرادت منه أن يؤكِّد الحبَّ كلَّ يومٍ من جديدٍ، كما في بدايته، وهذا ما جعلها تضع أبي في اختباراتٍ لا تنتهي، لتتأكَّد هل ما زال الرجل الذي يحبُّها أم تغيَّر. كانت الاختبارات شكوكًا تقول لها إنَّه تغيَّر، ما جعلها تستنتج أنَّه لم يعد يحبُّها، وهذا يعني أنَّه سيتركها. بقيت هذه النبوءة تدور في رأسها، وعملت على نحوٍ غير واعٍ على تحقيق نبوءتها، بصرف النظر عن صحَّة تقييمها لمشاعر أبي. وكانت هذه الفترة الخطرة لأمِّي التي أرادت الحفاظ على بيتها وحياتها وحبِّها بأسوأ طريقةٍ ممكنةٍ،

ومن الطبيعي أن تنتج هذه الطريقة عكس ما أرادت، وتحقِّق نبوءتها بتغيير أبي. هذا لا يعني أنَّ أبي ملاكٌ، في الخلافات العائليَّة لا ملائكة وشياطين، كلُّ واحدٍ من الطرفين فيه جزءٌ من الشيطان، وهناك شيطانٌ أكثر وشيطان أقلُّ موزَّعين بين الطرفين، ولكن لا شيطان بالمطلق وملاكًا بالمطلق. مثلما كان حبًّا صاخبًا، كانت نهاية الصراع انفصالًا صاخبًا، ولا أعرف إذا كان المرء يستطيع أن يقول إنَّ نهاية العلاقة تستمدُّ صخبها وعنفها من صخب وعنف بدايتها. أربك هذا الانفصال الصاخب مفهومي عن الحبِّ وخلق عندي شكوكًا حول وجود حبٍّ لانهائيٍّ في هذا العالم. ولم يربك انفصال أبي وأمِّي مفهومي عن الحبِّ فحسب، بل أربك حياتنا أيضًا، وقَسَّم العائلة، كانت التجربة قاسيةً على الجميع، أمِّي، وأبي، وأخي، وأنا. وأعتقد أنِّي أكثر شخصٍ دفع ثمن هذا الانفصال، أحيانًا لانحيازي، وأحيانًا بسبب عنف هذا الانفصال. عندما انفجر الصراع أمامنا، لم أكن قد بلغت الخامسة عشرة من عمري، لم يكن الصراع وليد تلك اللحظة، ولم نعرف عنه شيئًا، فجأةً ودون سابق إنذارٍ انفجر صراعٌ هائلٌ بين أمِّي وأبي، اللذان لم نَرَهما قبل ذلك الوقت، سوى متفقين ومتفاهمين على كلِّ شيءٍ حتَّى علينا. كيف حدث ذلك بين ليلةٍ وضحاها، لم أفهم ذلك، ولأنِّي عدَدتُ أمِّي ضحيَّة أبي، انحزت إليها في الصراع، وبات أبي بالنسبة لي ممثِّل الشرِّ في الكون. فمنذ انفجر الصراع أمامنا، أخذت أمِّي تشيطن أبي، والحبيب السابق باتَ أكبر مضطهدٍ في التاريخ، وأنا المراهق الذي عليه حماية أمِّه من القهر والظلم الذي تعاني منه. بدأت بتحريضنا عليه، محاولةً زرع الكراهية فينا تجاهه، ولأنِّي كنت منحازًا لها وأشعر بآلامها، وددت لو أقتله لأنهي هذا الصراع المدمِّر في المنزل. كان انحيازي لأمِّي مطلقًا، هي على حقٍّ كاملٍ وأبي مخطئٌ بالكامل. هذا الانحياز هو الذي جعلني أخرج معها من المنزل عندما طردها بعد وعده أن تبقى هي معنا في المنزل، ويخرج هو من المنزل، وهذا ما جرى قبل أشهرٍ عدَّةٍ من طردها من المنزل. لم أفهم ولا أخي سبب هذا التغيير في

موقفه. إذا كان ذلك بسبب تشهيرها به بين أصدقائه وعائلته، فهو لم يكن شيئًا جديدًا، كانت تقوم بذلك منذ انفجر الصراع علنيًا بينهما. يبدو هناك شيءٌ قد حدث استفزَّ أبي لدرجة إقدامه على هذا التصرُّف ضاربًا عرض الحائط بكلِّ شيء وافق عليه من اتفاقاتٍ سابقًا. لم تتكلَّم أمِّي عن هذا الشأن ولم يتكلَّم هو. لا أعتقد أنَّ الاستفزازات العاديَّة هي التي دفعت أبي لنحو هذا المنحى من سلوك عنيف. لم أفسِّر ذلك التصرُّف سوى أنَّه نابعٌ من حقارة أبي، وهذه الحقارة التي تظهر في اللحظات العصيبة، وهي ما كنَّا نمرُّ به في تلك الفترة. ولأنَّه سلوكٌ حقيرٌ وقفت مع أمِّي في هذه الأزمة، وعندما خرجتْ من البيت خرجتُ معها، ولم أطق البقاء معه في المكان ذاته، وهو يدمِّر أمِّي. خرجت معها من البيت في أسوأ حالةٍ، وذهبنا للعيش عند بيت جدِّي مؤقَّتًا. كان الوضع هناك لا يطاق، صحيحٌ أنَّنا كنَّا نزور بيت جدِّي، ونعرف الوضع، لكن أن تعرف الشيء وأن تعيشه مسألتان مختلفتان. لم أحتمل العيش في بيت جدِّي، لا سيَّما وأنَّ السنة التالية ستكون سنة الثالث ثانويِّ، وهي السنة الأهمُّ في حياة أيِّ طالبٍ، لأنَّها السنة التي تحدِّد مصيره، فعلى هذه السنة وعلى دراستها يعتمد الفرع الذي سيدخله في الجامعة. ولأنِّي رغبت بقوَّةٍ في دخول الجامعة، لم يكن البقاء في بيت جدِّي يوفِّر أيَّ فرصةٍ للدراسة ودخول الجامعة. كان عليَّ أن أفعل شيئًا، وإلَّا كان مستقبلي مهدَّدًا بالضياع. ولم تكن أمامي خياراتٌ كثيرةٌ. خياران، الأوَّل أن أبقى مع أمِّي في بيت جدِّي، ويكون ذلك إعدامًا لمستقبلي، ففي تلك الظروف لا أستطيع فيها الدراسة، ولا تجاوز الامتحانات، وعرفت النتيجة سلفًا إذا بقيت في ذلك المكان. الثاني، أن أتجاوز خلافي مع أبي، وأعود إلى هناك حتَّى أستطيع إنجاز هذه المرحلة، رغم أنِّي لا أطيق العيش معه. كان عليَّ الاختيار بين الحلَّين السيِّئين. كانت العودة إلى بيت أبي هي الحلُّ الأقلُّ سوءًا، فهو يوفِّر شروط الدراسة كحدٍّ أدنى. ولم يكن يعيش في البيت سوى أبي وأخي، وليس هناك أيُّ أحدٍ غريبٍ

دخل إلى حياتهما. عندما قرَّرت العودة إلى منزل أبي، خفت أن يرفض عودتي، لأنِّي أنا من اختار الخروج، وهو لم يطردني، ولكنِّي عدَدتُ طرد أمِّي طردًا لي في الوقت ذاته. لم أطلب منه العودة إلى المنزل مباشرة، طلبت من أخي محمود الذي استمرَّ في العيش مع أبي جسَّ نبض أبي بشأن العودة، قال لي: «أبوك ما عندُه مشكلة ترجع على البيت»، كانت هذه أخبارٌ مفرحةٌ بالنسبة لي، على الأقل هناك فرصةٌ لتجاوز سنة الثالث الثانوي على نحوٍ أفضل، كما اعتقدت. فعندما زرت أبي في البيت وقلت له: «ما فيني أدرس ببيت جدِّي، وأنا بفكر أرجع على البيت منشان فحص البكالوريا»، قال: «أنت بتعرف البيت بيتك، ومكانك منتظرك»، اعتقدت أنَّ مشكلة ظروفي الدراسيَّة ستتحسَّن، وسأتجاوز هذا الامتحان بسهولةٍ، في الشروط الجديدة، لكنِّي كنت واهمًا. ما لم يكن محسوبًا، هو ما قامت به أمِّي. عندما لم تستطع إزعاج أبي لأنَّه لم يكن يردُّ على إزعاجاتها، قرَّرت أن تزعجه من خلال إزعاجنا نحن أولاده، فنحن أكثر طرف يهمُّه أمرهم. لم أعرف لماذا فعلت ذلك، هل هو الانتقام أم الحبُّ؟ هل هو الانفصال أم محاولة الاسترداد بطريقةٍ خاطئةٍ؟ وإذا كانت مشكلتها مع أبي، لماذا تزعجنا نحن أولادها، والمفترض أنَّها تحبُّنا، لم أشكَّ بأنَّها تحبُّنا، لكنَّ سلوكها لم يشِر إلى ذلك، رغبة الانتقام تفوَّقت على كلِّ المشاعر الأخرى، لم ترَ في المسألة إلَّا انتقامًا من رجلٍ خسرت من أجله عمرها دون أن يقدِّر ذلك، وعليه دفع الثمن، لو كان الثمن إزعاج أولادها وتدمير مستقبلهم. كان سلوكها غريبًا، الكثير من البشر يختلفون وينفصلون، تكون المشكلة كبيرةً في البداية، وبعد ذلك تأخذ بالصغر، وتنتهي بأن يذهب كلُّ واحدٍ منهم في طريقه. لم يكن هذا الوضع عند أمِّي، بل بقيت في حربٍ طاحنةٍ، لم يوقفها عن الاستمرار فيها، لا زواج أبي من امرأةٍ أخرى، ولا الحرب التي حطَّمت سورية، ولا موت أبي. ولأنَّ أمِّي امرأةٌ في غاية القوَّة والجرأة والنشاط، لم تملَّ أو تكلَّ من اختراع أساليب لإزعاجنا، من أجل إزعاج أبي، وصلت في إحدى المرَّات

لدرجة أنَّها حاصرتنا في البيت ورفض أبي فتح الباب لها، لأنَّه لا يريد مشكلةً معها، ولا يمكنه التفاهم، ولا حتَّى الكلام معها، لأنَّها قرَّرت سلفًا ما تريد فعله، وهي ستفعله وتنسحب غير عابئةٍ بأيٍّ شيءٍ. أصرَّت على إزعاج أبي بكلِّ الطرق، نجحت أحيانًا، لكنَّها فشلت أغلب الأحيان، لأنَّه عرف هدفها وتجنَّب أن يحقِّقه لها، أمَّا هي فشلها لا يردعها أو يجعلها تتراجع عن محاولات إزعاجه، بل يزيدها إصرارًا على تحقيق الهدف. وعرفت مع الوقت أنَّنا نقطة ضعفه التي تستطيع أن تضغط بها عليه وتزعجه. عندما كنت معها، كان أخي محمود هو أداة الإزعاج، تتصل به، وتبقى تشتمه وتشتم أبي حتَّى يستنفذ قدرته على الاحتمال، فينهار ويبكي، عندها تعرف أنَّ هذا سيزعج أبي. اعتقدت أنَّ هذا السلوك خاصٌّ بأخي، لأنَّه لم يصطفَّ معها، وبقي مع أبي، وبقاؤه معه لا يعني أنَّه يقف معه في خلافه مع أمِّي. أمِّي على قناعةٍ بأنَّ العالم مقسومٌ إلى معسكرين، معسكرها ومعسكر أبي، وليس بينهما أيُّ إمكانيَّةٍ للحياد. بقاء أخي مع أبي جعلها تعدُّه في معسكر العدو، وهذا ما استفزَّها طيلة الوقت، مع الإبقاء على خيط صلةٍ بهذه العلاقة حتَّى لا تنقطع، ويقاطعها أخي وتفقد قدرتها على التأثير، لذلك بعد أن تزعجه وتنتهي المهمَّة بإزعاج أبي، تعود لتصالحه. اعتقدت أنَّ الأمر لن يتكرَّر معي عندما أعود إلى العيش مع أبي، لا سيَّما أنِّي ناقشت الموضوع معها، وعندما شرحت لها الموضوع، قالت: «معك حق، ما في شي في الدنيا أهم من مستقبلك، وهون فعلًا ما في مجال للدراسة، البيت مثل حمام السوق. اعمل اللي فيه مصلحتك»، شعرت أنَّ موافقتها على ما سأقوم به، سيجنِّبني نظرتها لي مثلما تنظر إلى أخي. كنت مخطئًا، بعد أسبوعٍ من عودتي إلى بيت أبي أصبحت أنتمي إلى معسكر الأعداء، وبدأ الإزعاج يمتدُّ إليَّ، وكأنِّي لم أقف معها في خلافها مع أبي. كانت الدراسة عند بيت جدِّي مستحيلةً، لأنَّ هناك اكتظاظٌ، صراعاتٌ صغيرةٌ مزعجةٌ لا تنتهي. بانتقالي عند أبي، أمِّي هي من جعل الدراسة هناك مستحيلةً، وأعتقد أنَّها سعت

من أجل فشلي في تجاوز الامتحان، ولتثبت أنَّ أبي غير قادرٍ على إنجاز هذه المهمَّة، وأنَّه هو من يتحمَّل مسؤوليَّة تدمير العائلة، لأنَّ نجاحي يعني نجاح أبي في احتضاني ومساعدتي على النجاح، وعليه فإنَّ الطلاق ليس حالةً تدميريَّةً للعائلة. لا أحبُّ قول هذا الكلام، لكن هذه هي الحقيقة التي لا يمكن حجبها، وأتذكَّرها كلَّما تأمَّلت ذلك العام. قبل الامتحان بأقلَّ من شهرٍ ونصف، جاءت أمِّي وأزعجتني، وعندما جاء أبي وجدني أبكي. سألني: «مالك، ليش بتبكي؟»، قلت: «أمي ما بتخليني أدرس»، قال: «ما ترد عليها»، قلت: «ما رديت عليها، هي إجت هون وما خلت كلمة علي وعليك شتم ولعن»، في نهاية اليوم، اقترح أبي أن أذهب إلى بيت عمِّي خليل، فهو يعيش ببيته الكبير مع زوجته وحدهما، وكلُّ أولاده تزوَّجوا وغادروا البيت، وأن أقضي الأيَّام الباقية وصولًا إلى الامتحان عند بيت عمِّي، من دون معرفة أمِّي، وهكذا أجتاز الامتحان بعيدًا عنها وعنه. رحَّب عمِّي بالفكرة، وأنا وافقت وانتقلت إلى بيت عمِّي، لكنَّ الأمر لم يمرَّ على خيرٍ. بقيت أمِّي تبحث عنِّي، حتَّى عرفت أنِّي عند بيت عمِّي، جاءت واقتحمت البيت، وتشاجرت مع عمِّي. شعرت بالخجل وهي تقوم بذلك، لم أكن ولدًا صغيرًا حتَّى تعاملني وكأنِّي قطعة قماش. عرف أبي بالمشكلة. أعادني إلى البيت، وقال: «بتقول لأمك على لساني. إذا بتيجي هون رح أكسر رجلها»، كانت أيَّامًا عصيبةً قبل الامتحانات بأسابيع عدَّةٍ، ولم يكن الوقت المتبقِّي كافيًا للدراسة، ويئست من إمكانيَّة تجاوزي للامتحانات. وعندما سألني أبي عن الدراسة وعن المواد التي أنهيت دراستها حتى أعيدها وصولًا إلى الامتحانات. اعترفت له أنِّي لم أستطع الدراسة، وأنِّي لم أنجز الشيء المهمَّ الذي يبشِّر بإمكانيَّة تجاوزي للامتحانات. جُنَّ جنونه من الجواب، لم يتوقَّع ما سمع، فأنا عدت إلى البيت بخياري، من أجل الدراسة وتجاوز الشهادة الثانوية، واليوم قبل شهرٍ من الامتحانات يجدني بلا إنجازٍ يُذكر. أخذ الوضع على أنَّه تحدي حربٍ بالنسبة له وقرَّر ألَّا يسمح بحصول ذلك مهما كان

الثمن. لن يسمح لي أن أغامر بمستقبلي، ولن يسمح لأمِّي أن تنجح في هزيمتي وهزيمته في هذه المعركة، التي باتت معركته بالكامل بعدما جرى، ونجاح أمِّي في تعطيل دراستي بفعاليَّةٍ فاجأته وفاجأتني. كان لأمِّي قدرةٌ هائلةٌ على التأثير بحياتنا، رغم تجاهل أبي لكلِّ ما قامت به، لم يكن قادرًا على التجاهل هذه المرَّة، تجاوزت أمِّي كلَّ المحرَّمات بالنسبة له عندما تلاعبت بمستقبل ابنها. اتخذ قراره، بترك العمل، والتفرُّغ لدراستي، ليس بمعنى مراقبتي وأنا أدرس، كما فعل في تجربته السابقة مع أخي. هذه المرَّة قرَّر الانخراط هو نفسه بالدراسة معي. فقد كلَّف صديقًا له بإدارة عمله وتفرَّغ للامتحانات، جلساتٌ طويلةٌ، هو يطلب منِّي الإعادة وراءه لمعلومات التاريخ والجغرافيا والفلسفة واللغة العربيَّة. الشيء الوحيد الذي لم يكن بحاجةٍ إلى إعادته عليَّ هو اللغة الانكليزية التي أجدتها من خلال الدراسة في المدرسة الأميركيَّة. حوالي شهرين من الحجز قبل الامتحان وخلاله، لم أستطع التحرُّك فيها، كان يرافقني طيلة الوقت، واستراحاتي محدودةٌ، كان محمومًا أكثر منِّي في الدراسة، حفظ المنهاج وكأنَّه هو من يتقدَّم إلى الامتحانات. وعندما أنتهي من امتحان مادَّةٍ، نراجعها على السريع، ونذهب سريعًا لدراسة المادَّة التي تليها في التوقيت. وبقي الوضع متوتِّرًا ومشحونًا حتَّى نهاية الامتحانات، عندها تنفَّست الصعداء. عاد أبي إلى عمله، واستعدت أنا حياتي من جديدٍ. شعرت تلك الأيَّام أطول أيَّام حياتي. خفت من النتيجة، لم أكن واثقًا من أنِّي سأنجح، صحيحٌ أنِّي شعرت المسافة التي فصلت بين الامتحانات والنتائج مسافةٌ كبيرةٌ، وكلَّما اقترب موعد النتائج شعرت بالخوف، أردت النجاح، رغبت بذلك بقوَّةٍ، ليس من أجل نفسي، فأنا عمليًّا لا أستحقُّ هذا النجاح، رغبت به حتَّى لا يشعر أبي بالإحباط، تعاطفت معه أشدَّ التعاطف في تلك الأوقات، ولم أرغب أن يشعر أنَّه بذل جهده هباءً. وعندما أعلنت النتائج نجاحي غمرتني سعادةٌ هائلةٌ، كانت سعادتي من أجله أكثر منها من أجلي.

14

رغم نجاحي في الشهادة الثانوية، لم أستطع الانحياز لأبي في الصراع مع أمِّي، بقيت متعاطفًا معها، حتَّى في تلك اللحظات التي آذتني فيها. بقيت أسير موقفي الأوَّل من الصراع، أحاول التصالح مع أبي وشيءٌ داخلي يرفض هذه المصالحة، وينحاز إليها رغم ألمي منها. وحتَّى أبرِّر هذا الموقف، عدَدتُ أمِّي امرأةً مريضةً وكان على أبي تحمُّلها، وهي التي صمدت معه كلَّ هذه السنين. وقتها لم أعرف، هل أحبُّ أبي أم أكرهه؟ حملت مشاعر مختلطةً تجاهه، وانحيازي لأمِّي دفعها أكثر باتجاه الكراهية. في تلك الفترة لم أنتبه، أيَّ حياةٍ يعيشها أبي. عدَدتُه شخصًا متجبِّرًا وعنيدًا، حتَّى يبقى على قطيعةٍ مع أمِّي، أدركت أنَّه لا يفكِّر بالعودة إليها، تمنَّيت أن نعود عائلةً مثل كلِّ العائلات، التي وصلت خلافاتها حدَّ الطلاق، تختلف وتتشاجر، وتطوي مشكلاتها وتستمرُّ الحياة. صحيحٌ أنَّ أمِّي بالغت في اختراع المشكلات وبناء المزيد من الحواجز، لكنَّ كلَّ ذلك يمكن أن يمرَّ مع رجلٍ آخر من أجل أولاده، ومن أجل الحفاظ على العائلة، هذا لم يحصل مع أبي وأمِّي. قرَّر أبي أنَّ أمِّي خرجت من حياته إلى الأبد. لم أفهم هذه الحديَّة حينها، وهذا ما جعلني أعود للالتحاق بأمِّي من جديدٍ، لكن هذه المرَّة، ليس عند بيت جدِّي، إنَّما في بيتٍ صغيرٍ استأجرته لأنَّها ليست قادرةً على العيش هناك.

احتجت بعض الوقت لأكوِّن صورةً أفضل عن الخلاف بين أبي وأمِّي. سمعت أمِّي طيلة الوقت تحكي القصص عن خلافها مع أبي، وعن كونها ضحيَّةً لهذا الرجل الأناني. سمعت قصصها مئات المرَّات، وبصيغٍ مختلفةٍ وإضافاتٍ وحذفٍ وفق المستمع والحال، رواياتٍ متكرِّرةً، تكرارها جعلها

تصدِّقها، في المقابل تكرارها جعل الآخرين يضجرون منها، وجعلها تظهر بمظهر التشهير به، لم تراعِ أنَّ الناس مشغولةٌ بألف قصَّةٍ وقصَّة، وليست مهتمَّةً لقصَّتها، قد تسمعها مرَّةً أو اثنتين، لكن لن يبقى الآخرون يسمعون قصصها المكرَّرة إلى الأبد. لم يفعل أيَّ شيءٍ كي يفقدها المصداقيَّة، دمَّرت مصداقيَّتها بنفسها، ليس عند الآخرين فحسب، بل وعندنا، نحن أولادها الذين أصابنا الملل من القصَّة المكرَّرة المرَّة بعد الأخرى والعام بعد العام.

احتجت إلى سنواتٍ وحربٍ وهربٍ ومنفى حتَّى أسمعه دون انحيازٍ مسبقٍ، أسمع روايته للأحداث وفهمه للخلاف الذي انفجر بينهما. لم يحبَّ أبي التحدُّث في الموضوع، فهو عدَّ الموضوع وراءه منذ حدث الانفصال. وقد ادَّعى أنَّه، منذ حدث الانفصال لم يعد يذكر أمِّي، لولا أنَّنا نحن أولاده من يُذكِّره بها، لكان نسيها منذ زمن، ويحلف الأيمان أنَّها لا تأتيه حتَّى في أحلامه، وكأنَّها لم تكن يومًا في حياته ولم يعيشا معًا أكثر من عشرين عامًا.

على مضضٍ وتحت إلحاحي، وبعد معاناةٍ طويلةٍ مع الصراع الدامي في سورية، الذي قذفنا في نهاية المطاف إلى مملكة السويد، وفي هذا البلد القطبيِّ، وفي ليلةٍ شتائيَّةٍ، سمعت روايته عمَّا جرى. قال: «القصة ما بدها كثير شرح، الحياة الأسرية، والحب، والزواج، وأشياء كثيرة في الحياة، تشبه الحياة نفسها، تبدأ نواةً، وتكبر وتولد، وتصبح طفلةً، وتراهق، وتنضج، وتشيخ، وتموت. والعلاقة مع أمِّك مرقت بكل هاي الأطوار، ما فيني أقول إيمتى حصل الشرخ بالضبط، لإنُه هاي الأشياء بتصير أوَّل وبعدين بنكتشفها، يمكن يكون بين حدوثها واكتشافها سنوات. اللي صار، كنَّا عايشين بمكان واحد، وكل واحد بتغيَّر باتجاه من دون ما ننتبه، ولما انتبهنا، صار الموضوع غير قابل للإصلاح. أمَّك ما قبلت هاي النتيجة، لإنَّها اعتقدت أنا ما فيني أعيش من غيرها، منشان هيك من وجهة نظرها أنا لازم أركع، ولأنَّها بتعتقد إنها هي اللي عملتني، ولولاها ما عملت شي في حياتي. هادا الوهم اللي ركب عندها وبيركب عند كثير نسوان بعد سنوات طويلة من الحياة

المشتركة، ما بعودوا ينتبهوا على الرجل اللي عايش معهم، بصير الاهتمام بأغراضه بديل عن الاهتمام فيه. وهيك بتعتقد المرة إنها بتقوم بدورها على أكمل وجه، بدون ما تنتبه لحالها، إنها بتتغيَّر وهو بتغيَّر، بصير كل واحد بوادي، وهي بتعتقد إنها مسيطرة على الوضع، اللي تدمَّر واللي كان كان. طبعًا، ما بدِّعي إني كنت ملاك بهاي العلاقة، ما في ملائكة على الأرض. في شي خرب في العلاقة، وهادا الخراب خلَّى إمَّك تعتقد إنُه من حقها تنتهك كل خصوصياتي، اللي بحياتي ما كنت حريص عليها. بس صار الانتهاك مجاني، ما عاد مقبول بالنسبة إلي. اعتقدتْ إنِّي مكسب مضمون ونهائي، ولما عرفت إنُه هذا يمكن يتهدَّد، تنبأت بإنِّي بدي أتركها، ولإنُه المعادلة صارت، إمَّا تنتهك حياتي وإمَّا أني أتركها، أصبحت نبوءتها قابلة لتحقيق ذاتها. لا أفهم لماذا فعلت هذا، وليش أوصلت الأمور لهذا الصدام الحد. بظن أصبحت المعادلة تملكية بالنسبة إلها، هو لعبتي، مش من حق حدا يقرب منها، حتى لو بدي كسرها. كنت لعبتها المفضلة ليس أكثر من ذلك. ولإنِّي ما بقبل أكون لعبة حدا، فكان لازم التغيير. كان ممكن أحتمل الوضع حتى نهاية العمر منشانكم ومنشان الأيام الخوالي. لكنها وضعت الصراع كله في سياق خطر عليها وعلي وعليكم. ما تحمَّلت، فكرة إنُه تهددني بالسكين بإنها ستقطع شرايينها، إذا لم أعترف، وما كنت بقدر إتحمَّل فكرة إنُه ممكن هاي السكين تفوت ببطني أو ببطنها وأنا بحاول آخذها منها. وقتها مين ممكن يقتنع إنُه مو واحد منَّا قتل الثاني، أو على الأقل شرع في قتله؟! لم أقبل هذه المعادلة، فكان علي إنهاء هذا الرعب إلى الأبد. تحمَّلت كل اتهامات الدنيا منها، سكتت منشانكم ومنشان الخبز والملح. قالوا: انجنت، قلت: تروح على دكتور، قالت أنا مش مجنونة. هي مش مجنونة بس بدها تجنِّني، ما خلت حدا من صحابي ومعارفي وما راحت وشهَّرت فيني عندهم. وكل اللي ساوتُه مجرد رد فعل على نذالتي. أتفق معها بذلك، فإذا كنت بهذه النذالة، من الأفضل أن نفك هذه العلاقة وكل واحد يروح بحالُه. بس

هي لا، بدها تكون مرتي، وبدها تطلعني أحقر واحد في العالم. هاي معادلة ما في حمار بالدنيا بقبل فيها. رغم هيك سكتت، وما قابلت الإساءة بالإساءة، رغم استمرار الإساءات إلى اليوم. وزي ما إنت بتعرف، وقفت معها في زمن الحرب، حتى وصلت لهون، عملت هيك منشانكم ومنشانها ومنشاني، كل هذا، ما كان إلُه معنى عندها، لإنُه ببساطة، أول ما انتهت حاجتها إلي، سبِّتني ورجعت تشهِّر فيني، وكأنُه لا هم إلها في هذه الحياة غير سبِّي. انفصلنا، بس هي مش راضية، بعد أكثر من عشر سنوات على الطلاق، مش قابلة تقر إنِّي ما عدت زوجها، كل اللي بشوفوها بتحكي، بقولوا كأنها انفصلت امبارح، وكأنُه ما مرق على سورية حرب طاحنة، طحنتنا، مثل ما طحنت غيرنا. وإنت بتعرف إنُه ما قصَّرت معها، وإذا كان من واجبي أوقف معها، إحنا زوجين، زي ما بتعتبر. بس مو من واجبي أوقف معها بالحرب، ولا أقدِّم اللي قدَّمتُه، هذا مانو مسؤوليتي ولا واجبي، رغم هيك أنا ما قصرت معها منشان ما تتبهدل، لأنِّي ما بحب حدا بالدنيا يتبهدل، كيف إذا كانت أم ولادي، وحبي القديم، وسنوات طويلة من العشرة؟ بس إنت بتعرف إنُه كل هذا ما بيَّن. أنا ما بلومها، ولا بطلب تشكرني، بس النكران، بشع. هي خرجت من حياتي بأسوأ طريقة ممكنة، وما خلت إساءة ما عملتلي إيَّاها، لو بدي أعمل مثلها، كنت انتقمت بقلب الحرب. بس أنا ما بعمل هيك، هاي مش أخلاقي. بس إنُه بعد كل هذا اللي عملتُه، بظل الموقف، هو هو، كأنُه ما انفصلنا، ولا كأنُه مر علينا حرب، دمَّرت البلد ودمَّرت حياتنا، وخلتنا نهرب لآخر الدنيا. باختصار، هي تسبَّبت بجرح ما بيشفى»، روى قصَّة انفصالهما بطريقةٍ مختلفةٍ، رأيت وقعها عليه مختلفًا تمامًا عن أمِّي، في الوقت الذي عاشت أمِّي كلَّ السنوات اللاحقة مشغولةً بالخلاف مع أبي حتَّى بعد موته. عدَّ أبي أنَّ أمِّي اختفت من حياته، وعندما سألته: «يعني اللي كان بينكوا ما كان حب، وإنُه عيشتكوا مع بعض كانت وهم؟» قال: «لا، ما فيك تحكم اللاحق بالسابق،

فشل تجربتنا لاحق، وما كان موجود بمكوِّنات العلاقة الأصلية. يعني البشر لا تقف عند لحظة وبتظل تجترها طول عمرها، لأنها أحلى لحظة بحياتها. الحياة بتمشي، وبتترك وراها الحلو والمر، ولأنُه الحياة بتمشي، إحنا بنتغيَّر. مع السنين بصير الشخص مختلف، بحن للشخص اللي تركُه وراه، لما كان يحب، بس لا هو بعدو اللي حَب، ولا هي بعدها اللي انحبِّت. كل واحد بطلب من غيرُه يكون زي ما كان زمان، بس هو مش قادر يكون اللي كانُه زمان. بصيروا غريبين في بيت واحد، بطالبوا الزمن يرجع لوار، مع إنهم هم أنفسهم مش قادرين يرجعوا لورا، حتى لو بدهم يعملوا هذا الشي. بستغربوا كيف صار هيك، وما حدا فيهم بعترف إنُه هو سبب اللي حصل. وبدخول الاتهامات المتبادلة، والحنين إلى الحب المفقود، بتصير الحياة بلا حب، والمطالبة فيه أكثر بخلِّي الحياة أكثر جفافًا، والحب ببعد أكثر. في هذا الوقت بتكون العلاقة دخلت بالتفكُّك. في ناس بتحافظ عليها منشان الصورة أمام الناس، وفي آخرين ما بهمهم الناس، بوصل الصدام بينهم لحرب شرسة. هذا اللي صار معنا أنا وإمَّك. إمَّا إنُه حبنا ما كان حقيقي، هذا مش صحيح، لا، كان حقيقي جدًّا وعاصف، حسدنا عليه كثير من أصدقائنا، لساتهم بحسدونا. والحب ما بنشاف بالنتائج بس، بنشاف بوقتُه وبتأثيرُه على حياتنا، وقديش أثَّر بحياتنا وأثَّرنا بحياة الآخرين. أمَّا الحب إذا بدنا نقيسُه بالنتائج، فكل حب هو حب فاشل. الحب حالة مؤقَّتة، ممكن يستمر العمر كلُه وممكن يستهلك بسنوات وممكن بأشهر. بكل الحالات بستاهل نعيشُه، مع كل الوجع اللي ممكن يسبِّبُه إلنا. إحنا حبينا بعض، وتزوَّجنا، وعشنا حياة حلوة لسنين، وبعدين خربت هاي العلاقة، يمكن أنا السبب، يمكن هي، يمكن إحنا الاثنين، لما تخرب ما بعود مهم مين المسؤول عن خرابها».

لا أعرف لماذا شعرت كلامه باردًا، لا يتناسب مع أبي وقدراته التعبيريَّة؛ كلامٌ تحليليٌّ، يبدو أنِّي رغبت في سماع كلامٍ آخر عن تجربته، وليس كلام

أحدٍ يتحدَّث عن تجربةٍ قاسيةٍ مرَّ بها، يحلِّلها عقليًّا بكلِّ برودٍ، أنا الذي كنت شاهدًا على انفجاراته المتتالية في ظلِّ الصراع الذي نشب بينهما على مدى سنوات. تعود انفجاراته من سلوك أمِّي الاستفزازيِّ إلى حساسيَّته، وإلى معرفة أمِّي الجيِّدة به، والتي جعلتها قادرةً على القيام بأفعال تستفزُّه لدرجة الانفجار، مع أنَّه حاول أن يكون موضوعيًّا وهادئًا خلال الصراع، في بعض الأحيان خانته قدرته على التحمُّل وتمزَّق غضبًا، كان قادرًا على قتلها لو كانت أمامه، بتصرُّفاتها التي كادت في حالاتٍ عدَّةٍ أن تتسبَّب في توقُّف قلبه من شدَّة استفزازيَّتها. في جانبٍ من تفكيره قتل حبَّه القديم بالبرود تجاهه، لم يعد قادرًا على التفاعل مع هذا الحبِّ، أو قرَّر في عقله الباطن ألَّا يتفاعل، لم تكن أمِّي قادرةً على فهم ما يجري مع هذا الرجل الذي تعرفه جيِّدًا، وهل عنده هذه القدرة الهائلة على تجاهلها، وهو الذي لبَّى كلَّ طلباتها في الماضي؟! لم تفهم ما الذي جرى للرجل وما الذي غيَّره إلى هذه الدرجة التي جعلته متبِّلد الحسِّ تجاهها؟! حتَّى عندما حاولت الانتحار، لم تفهم كيف تبَّلد حسُّه، لدرجةٍ لم يكن يهتمُّ سواءً عاشت أو ماتت، ما الذي جعله قاسيًا لهذا الحدِّ؟! أكلها إحساس المرارة والخيبة تجاه الرجل الذي عدَّته كلَّ حياتها، وعدَّت من حقِّها عليه أن يسامحها على أيِّ شيءٍ فعلته من أجل هذه الحبِّ الذي كان أجمل شيءٍ في حياتهما. لم تصدِّق ما جرى، لم تصدِّق أنَّ الرجل الحسَّاس والذي تعرفه جيِّدًا، والذي لا يستطيع أن يكذب بمشاعره كلَّ هذه السنوات التي قضياها معًا، وفي المقابل لم يكن عندها ما يفسِّر هذه القسوة، التي ظهرت فجأةً عند الرجل الذي أحبَّته حدَّ الجنون، وعندما أخذ جنونها بحبِّه يظهر انسحب من حياتها، عدَّها غريبةً عنه. أرادت أن تسأله هذه الأسئلة وغيرها، لكنَّه أقفل باب النقاش معها، فبقيت أسئلتها معلَّقةً، ولم تسمع إجاباته عليها، والتي أملت أن تسألها له في مصالحةٍ ما ستأتي بها الأيَّام، حتَّى تفهم ما جرى على الأقل، لكنَّه مات دون أن يحدث ذلك، مات وبقيت أسئلتها معلَّقةً.

15

لا جديد فيما قاله، لكن عندما سمعته، لم يبقَ الموقف السابق ذاته، وأصبحت أكثر تفهُّمًا لموقفه. جاء ذلك من فهمي للأوضاع التي مرَّ بها، ولما فعله في أثناء الحرب التي حطَّمت البلد وشرَّدتنا. في الفترة الأولى، بعد خروجي من البيت للمرَّة الثانية، عدت لصناعة الكراهية تجاهه حتَّى أستطيع الصمود مع أمِّي. صحيحٌ أنِّي عدت للتصالح معه، لكن من دون عودةٍ إلى المنزل، بقيت مع أمِّي، وهو لم يطلب منِّي العودة إلى المنزل. تركني مع حريَّة اختياري. كانت مصالحتي له، خليطًا من محبَّته والحاجة له، صحيحٌ، كنت أنمِّي الكراهية تجاهه، لكنَّ الكثير من المشاعر الإيجابيَّة لم أكن قادرًا على محوها من داخلي، بتعزيز الكراهية الذي اشتغلت عليها. بعيدًا عن كونه أبي، هناك شيءٌ جذَّابٌ في شخصيته، ويعجبني كشخصٍ، وهذا ما خلق عندي رغبةً بقتله والتمثُّل بحياته في الوقت ذاته، القتل بالمعنى النفسيِّ لتجاوزه، والتمثُّل بمعنى القدرة على عيش الحياة بعمقها كما عاشها، وبالكثير من التسامح، الذي لا يجعل المرء ينظر خلفه. غريبةٌ علاقتي بهذا الرجل. طبعًا، كان لي مصلحةٌ في عودة العلاقات بيننا، وهي تحديدًا مصلحةٌ ماليَّةٌ. لم أكن أنا وأمي قادرين على تسديد تكاليف العيش، من أجرة منزلٍ ومصروفاتٍ أكلٍ وخدمات هاتفٍ وكهرباء وغيرها، إضافةً إلى مشوارٍ هنا وآخر هناك، على مطعمٍ، نزهةٍ، موعدٍ غراميٍّ... الخ لذلك، كان عليَّ اللجوء بين الحين والآخر لأبي، من أجل تجنُّب انهيارٍ ماليٍّ، أو الحصول على أقساط جامعتي، التي لم أكن قادرًا على دفعها في ظلِّ التزامات المنزل، وكان عملي في التعليم الخاصّ يدرُّ عليَّ دخلًا يذهب في مصروفات المنزل، إضافةً لراتب أمِّي. وهذا ما جعلنا بلا وفرٍ ماليٍّ لنسدِّد منه أقساط الجامعة

أو غيرها من المصروفات الطارئة. شكَّل أبي وأخي الذي يعمل الملجأ الذي أحتمي به عند الحاجة. لم ينتظر أبي حتَّى أطلب المال، كان يعرضه عليَّ، ويسأل إذا كنت أحتاج المزيد، وعندما يأتي موعد قسط الجامعة، يعطيني إيَّاه قبل موعده. لم يكن هذا اللجوء الاضطراريُّ إلى أبي يعجب أمِّي، تحتجُّ بأنَّها لا تريده، دون أن تقدِّم خيارًا بديلًا، ودون أن يكون هناك أحدٌ على استعدادٍ لإقراضنا المبلغ. كان احتجاجها أنَّها لا تريد منه شيئًا. وكنت أقول: «هذا شي بيني وبينُه إنتِ شو دخلك؟»، تقول: «ما بدي شي من هذا الحقير»، أقول: «مين قلك اطلبي منُه شي؟ بس بالآخر، شو ما صار هذا أبوي»، لم يربط أبي منح مبالغ المال، بأيِّ شروطٍ لاستحقاقها. عرف أهميَّتها بالنسبة لي، لذلك كان حريصًا على استمرارها.

في الوقت، الذي اعتقدت أنَّ أبي يمرُّ بأفضل وأسعد أوقاته، فقد حصل على حريَّته، وهو في وضعٍ اجتماعيٍّ وماليٍّ جيِّد، يستطيع أن يعيش حياةً مرتاحةً، ويقوم بما يرغب به. كانت هذه الصورة خادعةً، صحيحةً في الشكل، ولكنَّها غير ذلك في العمق. لم يكن أبي مشغولًا بأوضاعٍ ماليَّةٍ أفضل، وهذا لا يعني أنَّه يكره المال، هو اعتقد أنَّه يبحث عن عالمٍ أفضل، لكنَّ هذا العالم لا يلبث أن يصبح أسوأ فأسوأ، ليس بالنسبة للآخرين فحسب، بل وبالنسبة لحياته الخاصَّة أيضًا. انهارت العائلة، وأنا عددتُه السبب في هذا الانهيار، لأنَّه يريد التخلُّص من القيود التي تكبِّله، لم يكن هذا صحيحًا، لم يكن هناك ما يقيِّده والعائلة قائمةٌ. ولم يفعل ذلك لأسبابٍ دراميَّةٍ، أي أنَّه يريد أن يجعل من حياته قصَّةً دراميَّةً. ما حصل قصَّةٌ حزينةٌ، وقصَّة فشلٍ ذاتيٍّ. هكذا نظر إلى العاصفة التي حطَّمت حياتنا، كان يمكنه تجنُّبها، بشروطٍ قاسيةٍ، بتحوُّله إلى شخصٍ آخر لم يرغب في أن يكونه. هذه المرَّة عَبَرَ الفشل العام إلى الخاصِّ الذي عدَّه ملجأه الأخير، هذا الملجأ الذي اعتقد أنَّه أكثر ثباتًا، ليكتشف أنَّه في غاية الهشاشة، وبسبب هذه الهشاشة انهارت حياته ولم يستطع هو المقاومة. الشخص الذي أراد تغيير العالم، لم يستطع

الحفاظ على عائلته، ولم يستطع التغيُّر للحفاظ عليها، عدَّ أنَّ التنازلات التي عليه تقديمها، تجعله شخصًا آخر، وهو بعد أن انهار كلُّ شيءٍ، قرَّر الحفاظ على نفسه من التغيير، عدَّ ذاته قلعته الأخيرة، إذا سقطت سيتحوَّل إلى جثَّةٍ تمشي على قدمين. كانت معاركه القديمة مع العالم الخارجيِّ، ولأنَّه لم ينتصر على هذا العالم الخارجيِّ، انتقلت معاركه إلى داخله، وتعرَّض لأقصى أنواع الصراعات الداخليَّة، التي تشدُّ الشخص بعشرات الاتجاهات وكلُّ اتجاهٍ له وجاهته، كلُّ الاتجاهات كانت تخرجه من شخصه وتحطِّم ماضيه الذي بنى عليه كلَّ الأحلام التي لا يريد التخلِّي عنها، حتَّى ولو أصبحت أحلامًا مستحيلة التحقُّق. شعر أنَّ عليه تدمير كلِّ ما حوله حتَّى ينجو، يدمِّر كلَّ ما أنجز حتَّى لا يخسر نفسه في معركةٍ خاسرةٍ، ويقدِّم المزيد من الخسائر في عالمٍ ظالمٍ، ويتحوَّل إلى شخصٍ عديم التكيُّف، يجترُّ عالمه ويشعر بالوحدة، رغم كثرة الأصدقاء حوله. وجد كلَّ شيء في العالم ينهار حوله، هذا الكلُّ شيءٌ خارجيٌّ ولا يبحث عنه، لأنَّه أراد أن يجد نفسه، وهذه لن يجدها في المحيط، سيجدها داخله، حيث لا يريد أن يبحث، حيث خاف أن يبحث. كانت معركته الأصعب، أصعب من الحرب مع إسرائيل التي خاضها شابًّا صغيرًا، لأنَّ العدو الإسرائيليَّ كان معروفًا. وأصعب من تجربة السجن، لأنَّ السجَّان معروفٌ أيضًا. المعركة الأصعب لأنَّ العدوَّ فيها مجهولٌ، بلا ملامح، ولا عناوين، وهو ليس قادرًا على تحديده، ولا يدرك تمامًا، هل هذا العدو خارجه أم داخله. لم يعرف إذا العالم كلُّه هو عدوه أم هو عدوُّ نفسه، إنَّها معركةٌ مع الأشباح، ولذلك هي معركةٌ قاسيةٌ وصعبةٌ. معركةٌ يحارب فيها نفسه ويخسر فيها أحبَّته من أجل انتصارٍ مستحيلٍ. معركةٌ انتحاريَّةٌ، لا فوز فيها، معركةٌ أراد أن ينتصر فيها كلُّ الجميل الذي انهزم أمام واقعٍ غير عادلٍ وغير منطقيٍّ، لكنَّه حقيقيٌّ ويأكل حياته وحياة الآخرين، ويحوِّلهم إلى ضحايا غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم. رغم إقراره بهزيمته وهزيمة أحلامه، يثور ويرفض هذا الإقرار، ويرفض هذا الواقع

القاهر، دون أن تكون لديه الأدوات المساعدة على الرفض، والعمل ضدَّ واقعٍ قاسٍ. وعدَّ رفض الهزيمة، يعني أنَّ يحافظ على نفسه في زمنٍ كلُّ شيءٍ فيه يتآكل ويتداعى أمام زحف المال والتفاهة، وشعر أنَّ التضامن بين المال والتفاهة، واحدةٌ من أخطر الأمراض التي ابتلى فيها العالم. وقرَّر ألَّا يكون جزءًا من هذه التفاهة، بأيِّ ثمنٍ. كلُّ هذا لم أكن أعرفه أو أشعر به، لم أكن أراه سوى الأب الأنانيَّ، الذي حقَّق وضعًا ماليًّا مريحًا، وليس لديه همٌّ جديٌّ، وكل المتاعب التي يتحدَّث عنها، ترفٌ فائضٌ عن الحاجة، مقابل المصاعب التي أعيشها وتعيشها أمِّي، فهو يطلق شكاوى المرتاحين الأنانيِّين.

أحيانًا نفقد القدرة على تقدير أوضاع الآخرين، لا سيَّما عندما نعاني من أوضاعٍ صعبةٍ، معتقدين أنَّها أهمُّ معاناةٍ في الدنيا، وما دونها مجرَّد تفاهاتٍ وادعاءاتٍ بأنَّ أصحابها ضحايا لظلم الآخرين. ولا أعرف لماذا لُمتُ أبي على وضعٍ اخترت أنا أن أكون به. واليوم أعرف أنَّ اتهامي لأبي نوعٌ من الأنانيَّة، لكنَّها أنانيَّةٌ معكوسةٌ، بمعنى، كنت أرى آلامي وأوجاعي ومتطلَّباتي هي المركزيَّة في العالم، لذلك رأيت آلامه ترفًّا، دون أن أرى من حقِّه، أن يرى مثلي، متاعبه هي المركزيَّة. نكتشف أنَّنا أنانيُّون، ولا نريد الاعتراف بهذه الحقيقة الصارخة، والتي تؤكِّد ذاتها ألفَّ مرَّةٍ كلَّ يومٍ. ما الذي كنت أرغب في إثباته؟ أنَّ أبي أنانيٌّ، وأنَّني الشاب صاحب المسؤوليَّة، الذي حملها دون أن يطلب منه أحدٌ تحمُّلها، لا سيَّما وأنَّها ليس مسؤوليَّتي. أردت الانضمام إلى أمِّي الشهيدة، لأصبح شهيدًا جديدًا في مأساة الانفصال العائليِّ، وكأنَّ هذه المأساة العائليَّة باتت مركز العالم، وعلى الجميع أن يأخذ منها موقفًا مع هذا الطرف أو مع ذاك. أعجبتني الدراما، أصنع الدراما، أنضمُّ إليها، حقيقيَّةً أم مُدَّعاةً، المسألة ليست هنا، المسألة أنَّ هناك دراما وأنا جزءٌ منها وانتهى الأمر. إلى الآن لا أعرف كيف أشرح هذا الأمر، هل هو معقَّدٌ لهذه الدرجة، أم أنَّه يربكني لدرجة أن أفشل في شرحه؟! مضى وقتٌ طويلٌ على هذه الأحداث، عشر سنواتٍ من حربٍ طحنت البلد، وطحنتنا

معه، ورحل الرجل صانع المأساة، تاركًا وراءه الكثير من الغموض، بدل أن تصبح الصورة واضحةً بغيابه ازدادت ضبابيَّةً. وأنا ما زلت مرتبكًا في رواية ما حدث، أبحث عن الوضوح والقصَّة الكاملة، لأجد نفسي أضيع أكثر في تفاصيل اعتقدت أنَّها في غاية الوضوح وأصبحت أكثر ضبابيَّةً بعد النبش في حياة أبي.

16

قبل الحرب استقرَّت أوضاعنا، دون أن تكفَّ أمِّي عن الاستمرار في خوض معركتها ضدَّ أبي. التي لم تعد تعني أحدًا، ومن يسمعها كان يسمعها بدافع اللباقة الاجتماعيَّة، لأنَّه لم يكن مُقنعًا لأحدٍ أن تستمرَّ هذه الحرب من طرفٍ واحدٍ بعد عامين من الانفصال. أبي وأخي يقيمان معًا في بيتٍ ملك أبي، وأنا وأمِّي نقيم معًا، في بيتٍ ندفع إيجاره. ليس هناك التزاماتٌ عند أخي تجاه المنزل، يعمل وراتبه يعود عليه بالكامل، وفوق ذلك، غالبًا ما تبقى سيَّارة أبي معه عندما لا يحتاجها. بمعنًى ثانٍ، في الوقت الذي يوفِّر أخي راتبه كاملًا، وزيادةً عليه يكسب الرفاه المجانيَّ باستخدام السيَّارة التي يضع فيها بعض البنزين بين الحين والآخر، أدفع أنا كلَّ ما أحصل عليه من عملي في البيت، ولا يكفي، فأبقى محتاجًا إلى بعض المال الإضافيِّ، والذي غالبًا ما ألجأ إلى أبي من أجل سدِّ النقص. كان الوضع ظالمًا لي، والمشكلة لم يقرِّر أحدٌ أن يظلمني، إنَّما أنا ظلمت نفسي، وكنت أدفع ثمن قراري. لكن هذا الواقع، لم يمحُ الإحساس بالظلم والنظر بعين الحسد إلى وضع أخي المرتاح. نحن شقيقان، وُلِدَا للأب والأم ذاتهما، اللذان تصارعا حدَّ الفضيحة، ولماذا يكون الظلم لي، وأدفع وحدي ثمن انفصالهم، ثمن معركةٍ لست جزءًا منها، لكنِّي وضعت نفسي في قلبها، وفي المكان الخطأ. لا أعرف إذا كان هذا سوء تقديرٍ منِّي، أم هو الاصطفاف في معركةٍ مع الطرف الذي اعتقدت أنَّه الضحيَّة، لأجد هذا الموقف، الذي عدَدتُه بطوليًّا وقتها، يتحوَّل إلى شيءٍ من الروتين والمسؤوليَّة المملَّة والثقيلة عليَّ. ولماذا أكون في هذا الموقع وأدفع هذا الثمن. ولماذا يتمتَّع أخي بالامتيازات، ولا يعاني ما أعاني، وعندما يريد أن يساعد في بيتنا، يساعد من فائض المال الذي معه، لا يستهلك كلَّ ما

يحصل عليه. صحيحٌ أنِّي ظلمت نفسي، لكنِّي اعتقدت أنَّ هذا سيدوم لوقتٍ قصيرٍ، وأعود فيه البطل الذي اصطفَّ مع أمِّه المظلومة. لكنَّ هذه البطولة تحوَّلت إلى قسوةٍ وملل مع استطالتها، وبدت كأنَّها عقابٌ اخترته لنفسي، لا سيَّما مع عدم تعاون أمِّي معي بموضوع المال، والذي عدَّته مجالًا لتفريغ أزمتها، في هذه الرحلة أو ذلك المطعم. وأنا عليَّ أن أبقى أعمل في المنزل مثل ثور الساقية، في الوقت الذي يرتاح أخي طيلة الوقت، ويذهب ليقضي أوقاته ومشاويره مع صديقته أو أصدقائه في سيَّارة أبي، وهذا لا يكلِّفه جهدًا ولا مالًا. كرهت هذا الوضع، لكنِّي لم أستطع الخروج منه، وجدت نفسي عالقًا في وضعٍ ظالمٍ. لم أنجح في تقديم نفسي كشهيدٍ، ولم أرغب في هذه الصورة التي باتت مملَّةً، طالما الشهيدة الأصلية لم تعد كذلك، لكنَّها حافظت على الادعاء بذلك، معتقدةً أنَّها كلَّما تمسَّكت برواية مظلوميَّتها أكثر، يكون التضامن معها أفضل، وتستطيع تشويه صورة أبي، معتقدةً أنَّها هي التي صنعت حياته، وأنَّ من حقِّها تدميرها، وكأنَّ هدم العائلة ليست تدميرًا لهذه الحياة، والتي هي في النهاية حياته التي اهتزَّت مع انهيار العائلة. بسلوكها الأنانيِّ، لم تر أمِّي في الكون سوى مشكلة انفصالها عن أبي، بوصفها أعظم حدثٍ شهده القرن الواحد والعشرين. هذه المركزيَّة للحدث التي اعتمدتها أمِّي، أثَّرت عليَّ بقوَّةٍ، ليس بمعنى أنِّي مقتنعٌ فيها، بل على العكس. في البداية اقتنعت بالرواية التي روتها أمِّي عن الخلاف مع أبي، وصدَّقتها، لأنِّي أردت تصديقها وليس لقوَّة إقناعها. مع الوقت بدأت مصداقيَّة هذه الرواية تتفكَّك أمام الوقائع العنيدة. وكلَّما فقدت الرواية مصداقيَّتها، أثَّرت عليَّ أكثر، والسبب أنَّها كلَّما فقدت رواية أمِّي مصداقيَّتها أكثر، أعادت تكرارها من جديدٍ، على أساس أنَّ التكرار يعطيها مصداقيَّةً ليست فيها. مع فقدانها المصداقيَّة، وتكرارها المرَّة بعد الأخرى، باتت مملَّةً ومضجرةً وفي كثيرٍ من الأحيان تستعيد تفاصيل سمعتها ألف مرَّةٍ، ولا معنى لها ولا معنى لتكرارها، لكنَّها تصرُّ على روايتها، وكأنَّها

وقائع جديدةٌ وصادمةٌ. لم أحتمل هذا الوضع، وأصبحتُ أتشاجر معها كلَّما كرَّرت روايتها، وأطلب منها طيَّ الموضوع لعدم رغبتي في سماع القصص السخيفة للمرَّة المليون. عدَّت ذلك نقلًا لمواقعي والوقوف مع أبي ضدَّها، ولم يكن لهذا أساسٌ، كلُّ ما هناك أنَّ الموضوع أصبح مقرفًا بالنسبة لي، ولم أعد قادرًا على سماع أيِّ كلمةٍ إضافيَّةٍ في موضوعٍ استهلكنا وقضى على حياتنا، ولا همَّ لنا في الحياة سوى تفاهات الانفصال التي تتكرَّر كلَّ يومٍ آلاف المرَّات مع المنفصلين، وهي تجربةٌ ليس فيها الكثير من الإثارة، بينما أمِّي استمرَّت في عَدِّ هذا الموضوع مركز الكون، وهو ما كاد يدفعني إلى الجنون.

عدَّ أبي حياته العائليَّة السابقة كأنَّها لم تكن، أخذ يعيد ترتيب حياته من جديدٍ، بناءً على الوقائع القائمة، حسم مسألة العودة للعيش المشترك مع أمِّي نهائيًّا بعد انفصالهما الرسميِّ. تدخَّل البعض لسؤاله عن إمكانيَّة العودة للعيش المشترك، كان الموضوع يُغضبه بشدَّةٍ، وبات الجميع يعرف أنَّ هذا ليس ممكنًا، إلَّا أمِّي عدَّت ما جرى خلافًا عابرًا وسيعودان إلى العيش معًا، لم تكن قادرةً على الاعتراف بالوقائع العنيدة التي جعلت هذه العودة مستحيلةً.

17

عندما اندلعت المظاهرات في البلد، كنَّا ما نزال نعاني من الآثار الارتداديَّة للانفصال الصارخ بين أبي وأمِّي. لم يستطع أبي إعادة ترتيب حياته كما أراد، ولا أنا وأمِّي رتَّبنا أوضاعنا كما نريد، بقيتُ وأمِّي نحاول إنجاز استقلالنا بالكثير من الصعوبة، وفي ظروفٍ غير مواتيةٍ. لم ينقصنا في تلك الفترة سوى التعقيد الذي تسبَّب به انفجار البلد بالاحتجاجات التي انتقلت إليه من البلدان الأخرى. على عكس أبي، لم أهتمَّ يومًا بالسياسة، لا أعرف إذا كان ذلك ردُّ فعلٍ على تجربة أبي، لأنِّي لم أكن معجبًا بها في ذلك الوقت، وحينها لم أفهم كيف لرجلٍ ذكيٍّ مثله أن يخسر حياته في الركض وراء أوهام السياسة ووراء أحلامٍ ساذجةٍ؟! لو أنَّه اشتغل على نفسه وعلى مصالحه، لكان حصل على ثروةٍ، ولم نكن محتاجين لنعاني ما عانينا. ذهب ليقاتل في حربٍ ضدَّ إسرائيل وهو طفلٌ ويريد هزيمتها، لم يكفيه معاناته من الهزيمة مع رفاقه في تلك الحرب، وقد حوَّلته إلى شخصٍ حزينٍ بعد خسارته أعزَّ أصدقائه، كلُّ ذلك لم يستطع كسر أحلامه، التي عاد ليدفع ثمنها ثلاثة سنواتٍ في السجون السوريَّة. وجعلته تجربة السجن أكثر حزنًا، لكنَّها لم تكسر أحلامه بعالمٍ أفضل أيضًا، صحيحٌ أنَّه انسحب من العمل السياسيِّ المباشر، لكنَّه بقي فيه ككاتبٍ مشغولٍ بالشأن العام، معتقدًا أنَّ دوره ككاتبٍ أفضل له وللشأن العام من العمل الحزبيِّ المباشر. فهو عرف مبكرًا أنَّه لا يصلح للعمل السياسيِّ المباشر، وأنَّه لا يصلح كرجل تنظيمٍ ومتابعة للآخرين والدفاع عن الخطِّ السياسيِّ لتنظيمه طيلة الوقت مع الحمقى الذي يعدُّون أنفسهم عباقرة زمانهم في العمل السياسيِّ. لا أعرف هل كان عدم اهتمامي بالسياسة يعود إلى مبالغة أبي في الاهتمام بها، ما

جعلني أَعدُّ أنَّها السبب في الحياة التعيسة التي عشناها، ودونها حياتنا ستصبح أفضل بكثيرٍ، أم يعود ذلك لكرهي لأبي في ذلك الوقت، ما جعلني أكره كلَّ تجربته في الحياة، وأبتعد عن كلِّ ما اقترب منه؟! إنَّه النفور لألف سببٍ وسببٍ، لكن لم أعرف، هل هو نفور الكراهية فعلًا أم هو نفور الحبِّ؟! وهل هو النفور الذي يجعلنا نمتنع عن القيام بشيءٍ يقوم به أحدٌ نحبُّه، حتَّى لا نصبح نسخةً مشوَّهةً عنه؟! لم أكن قادرًا على تحديد مشاعري الحقيقيَّة منه، رغم أنَّ عمليَّة تحديد المشاعر لا تبدو مسألةً معقَّدةً، أعتقد أنَّها في حالتي وفي علاقتي مع أبي، كان تحديد مشاعري تجاهه مسألةً في غاية التعقيد. لم يفرض علينا أن نقرأ ما كتب، لا مقالاتٍ ولا كتبًا، ولم يطلب ذلك منَّا ولا مرَّةً، ولم يكن يخبرنا أنَّه كتب هذا المقال، أو هذا البحث، أو هذا الكتاب، أو هذه الرواية. ولم يكن عندي فضولٌ لمعرفة ما يكتب، حتَّى عندما أعرف أنَّه كتب مقالًا أو روايةً، لم يكن عندي الفضول لأقرأ ما كتب. لم يفتخر أمامنا بما كتبه، كان ذلك تحصيل حاصلٍ بالنسبة له، من يريد أن يقرأ يبحث عمَّا يريد قراءته، لو وضعت الكتاب في فم من لا يريد القراءة، فإنَّه لن يقرأ. لذلك، لم أقرأ أيًّا من مقالاته أو كتبه في ذلك الوقت. لم أرغب في معرفة ما الذي يكتبه، ولماذا يكتب، وهذا جعلني أبتعد عن قراءة أيِّ شيءٍ من كتبه، وساعدني في ذلك ابتعادي عن القراءة باللغة العربيَّة، واقتصار قراءاتي على الكتب الانكليزيَّة، بحكم دراستي في الجامعة. لا أعرف إذا كان تأخُّر قراءتي لأعماله ميزةً أم عيبًا، لأنِّي عندما قرأتها، لم أكتشف كاتبًا جيِّدًا فحسب، بل أعدت اكتشاف أبي، وأدَّعي أنِّي أستطيع انتزاع كلِّ الأجزاء التي كتبها في أعماله معتمدًا على تجربته الشخصيَّة. أصبحت على معرفةٍ كبيرةٍ به قبل أن أقرأ ما كتب، لكن عندما قرأت أعماله بتُّ أكثر تعلُّقًا به، وعرفت حساسيَّة الرجل، وبتُّ أخاف عليه، لم أتوقَّع أن يفعلها ويموت مبكرًا ويتركني قبل معرفته كما يجب أن أعرفه،

لقد خذلني وذهب إلى موته مبكرًا، وقبل أن يكمل كتابه، الذي عدَّه جوهرة التاج لأعماله، وأنَّ كلَّ أعماله السابقة تمارين من أجل الوصول إليه.

كان علينا أن نمرَّ بتجربة أقسى من الانفصال لأتعرَّف على أبي من جديدٍ، فكانت تجربة الحرب في انتظارنا على بعد وقتٍ قصيرٍ من الانفصال. لم أشعر نفسي يومًا جزءًا من البلد الذي وُلِدتُ وعشت فيه، عشت غريبًا، ليس في البلد وحسب، بل وفي عائلتي الصغيرة أيضًا. لم أكن معادٍ لثورة السوريِّين على سلطةٍ طحنتهم، وفي الوقت ذاته لم أجد نفسي في هذه المظاهرات، فعندما لا تشعر أنَّ البلد بلدك، لا تجد معنًى لأن تدفع ثمنًا مجانيًّا من أجل بلدٍ غريبٍ عنك وأنت غريبٌ فيه. تملَّكني هذا الشعور في بداية الاحتجاجات على النظام. شعرت أنَّ من حقِّ الناس الاعتراض على الظلم، وشعرت نفسي أعترض على ظلمٍ آخر، لا تحلُّه الاحتجاجات التي انفجرت في البلد. وُلِدتُ غريبًا لأبٍ غريبٍ ولجدٍّ غريبٍ في بلدٍ لا يريد أن يعترف بنا سوى كغرباء، ليعلِّمنا الوطنيَّة، وطنيَّتنا. لم أقف في المدرسة في دور الحليب كما وقف أبي في دورٍ آمله وكان يُذكِّره أنَّه غريبٌ وأنَّ حياته مستباحةٌ، وأنَّ من حقِّ الآخرين النظر فيها رغمًا عنه، ولا معنى لحياته الخاصَّة، فهو لا يملكها لأنَّه غريبٌ. لم أقف لأنَّ الأونروا قد دخلت في مرحلة الإفلاس عندما دخلت مدارسها، فليس هناك دفاتر وأقلامٌ ومساطر توزَّع على الطلَّاب كما روى أبي. صحيحٌ أنَّ تعليم مدارس الأونروا عُدَّت أفضل من تعليم المدارس الحكوميَّة، وهذا لا يعود لأنَّ هذا التعليم جيِّدٌ فعلًا، بل يعود لأنَّ التعليم الحكوميَّ في البلد انهار، فظهر التعليم الرديء للأونروا وكأنَّه تعليمٌ نموذجيٌّ. صحيحٌ أنِّي لم أقف في الدور على كأس الحليب ولم أحمل كأسًا من الألمنيوم في انتظار صفِّ العذاب للخلاص من حليبٍ لا أرغب في شربه. لكنِّي وقفت في طوابير أسوأ، ودخلت تجارب تصرخ في وجهي، أنت غريبٌ، غريبٌ. كنت مع أبي في ذلك اليوم الأسود، يوم عرفت أنَّ مأساتي وُلِدَت قبل أن أولد بعشرات السنين. رافقت أبي إلى المؤسَّسة

العامَّة للاجئين الفلسطينيِّين وهي مؤسَّسةٌ سوريَّةٌ تُشرِفُ على شؤون اللاجئين الفلسطينيِّين، من أجل الحصول على ما يُطلق عليه تسمية «الهوية» وهو في الحقيقة، «تذكرة إقامةٍ مؤقَّتةٍ للفلسطينيِّين». فقد بلغت الرابعة عشرة من عمري، وبات عليَّ الحصول على واحدةٍ من أجل إثبات شخصيَّتي في الدوائر الرسميَّة وأمام الشرطة، وأمام المخابرات إذا احتاج الأمر. في ذلك البناء الكئيب الذي يقع في البناء ذاته الذي تقع فيه بلديَّة اليرموك، والتي تقع بدورها في سوق الخضار المكتظِّ في المخيَّم، وهو المكان الأكثر صخبًا في فترة ما بعد الظهر. هناك كان عليَّ أن أكتشف للمرَّة الألف أنِّي لست من هذا البلد. في ذلك اليوم استمعت إلى الحوار الغريب الذي دار بين أبي والموظَّف في المؤسَّسة. عندما أخذ أبي الاستمارة لتعبئتها من أجل الحصول على البطاقة، وجد فيها خانةً غريبةً تطلب تحديد تاريخ اللجوء لمقدِّم الطلب، الذي هو أنا. لم يفهم أبي المقصود، فأنا لم ألجأ، إنَّما وُلِدتُ في دمشق، وأبي كذلك. عندما عاد أبي إلى الموظَّف وسأله: «أستاذ خالد، شو بدي أكتب في خانة تاريخ اللجوء؟»، أجابه الرجل بكلِّ اطمئنانٍ: «اكتب 1948»، قال أبي: «أكيد عبتمزح؟!»، قال الرجل: «أبدًا يا أستاذ، بحكي جد»، قال أبي: «يا رجل، مش معقول، أنا أبوه ما كنت بعدني ولدت، معقول هو لجأ قبل ما يولد أبوه؟!»، قال الرجل: «يا أستاذ لا تشيلها من أرضها، أكتبه وخلص. الكل بكتب نفس التاريخ»، انتبهت إلى أبي المذهول، شعرت أنَّه يريد أن يشتم ويصرخ ويلعن، لكنَّه ضبط نفسه، لأنَّ لا شأن للرجل الذي أمامه بالأمر، فهو مجرَّد موظَّفٍ ينفِّذ الأوامر. قال بيأس: «رح أكتب هذا الجنون..»، لم أفهم تمامًا ما جرى، لم أصدِّق هذا الحديث، لم أصدِّق أنِّي لجأت إلى البلد قبل أن أولد بحوالي خمسين عامًا، شعرت أنَّها مزحةٌ سخيفةٌ وقاسيةٌ، سخريةٌ مضحكةٌ بطعم المرار، كان الحوار الغريب بين أبي والموظَّف مؤشِّرًا على واقعي الأسود. في تلك اللحظة، عرفت أنَّ حياتي محكومةٌ بأشياء خارجةٍ عن إرادتي، وأنَّ إرادتي لا معنى لها في صناعة

حياتي، فحياتي تقرَّرت بتعريف أنِّي غريبٌ ولاجئٌ قبل أن يولد أبي، إنَّه مصيرٌ محتومٌ قبل أن أولد. كان علينا أن نقبل الغرابة بوصفها وضعًا عاديًّا، لأنَّ من الطبيعي أن ينتج الغرباء الغرابة، وعليهم التكيُّف مع الغرابة التي تُفرَض عليهم. لذلك لم أجد معنى لمشاركتي في المظاهرات، ليس لأنِّي ضدُّها، بل لأنَّ مشاركتي فيها لا معنى لها. وما زاد قناعتي بموقفي، منذ بداية الاحتجاجات اتهِمَ الفلسطينيُّون بأنَّهم من بدأ المؤامرة على البلد في درعا واللاذقية وهي أوَّل المناطق التي انفجرت فيها المظاهرات. كانت هذه أدلَّة النظام للتأكيد أنَّ ما يجري في البلد عبارةٌ عن مؤامرةٍ خارجيَّةٍ على البلد، يُستَخدَمُ فيها الفلسطينيُّون لتخريب البلد. كان هذا يؤشِّر إلى أنَّ النظام يعدُّ الفلسطينيين يقفون مع الثورة ضدَّه، فقد حدَّد هويتهم السياسيَّة ومكانتهم في الصراع بوصفهم أعداء. لم يقنع هذا المحتجين، الذين بات الكثير منهم يتهموننا بالوقوف مع النظام ضدَّ الثورة، وأصبحت الاتهامات تأتي من طرفي الصراع في سورية. ولأنَّ الفلسطينيِّين طرفٌ ضعيفٌ في البلد، باتوا متَّهمين من الجميع. وكلَّما أصبح الصراع أكثر دمويَّةً وتدميرًا، ازدادت الاتهامات لهم. لم يتعامل أحدٌ معنا كأبناء بلدٍ، أو كبشرٍ متنوِّعين ومختلفين وبمصالح متناقضةٍ، أي هناك من وقف مع النظام، وهناك من وقف مع الاحتجاجات، وهناك من عدَّ ألَّا علاقة له بالصراع. لم تكن هذه حالة الفلسطينيِّين فحسب، بل كانت حالة السوريِّين أيضًا، فهناك من وقف مع هذه الجهة وهناك من وقف على الجهة الأخرى، لكن لم يتَّهم أحدٌ كلَّ السوريين بأنَّهم متآمرون على البلد، أو كلَّ السوريِّين يقفون مع النظام كتلةً واحدةً. هذا الاتهام الشامل كان من نصيب الفلسطينيين، كلُّ طرفٍ من أطراف الصراع يريد منهم أن يثبتوا ولاءهم له في صراعٍ دمويٍّ لم يُحسَم بعد.

لم تسفر الاحتجاجات عن سقوط النظام، بل تحوَّلت إلى حربٍ طويلةٍ، وفي الحرب تزيد الاتهامات، وتزداد صعوبة الحياة. أبي المتفائل بالتغيير

الذي ستأتي به الثورة على النظام، والذي انتظره طويلًا كحاجةٍ تاريخيَّة لانتقال البلد من حالة المستنقع إلى العمل على مستقبلها جديًّا، وجد ضالَّته في الربيع العربيِّ، لكنَّ هذا الربيع الذي أطاح سريعًا بالرئيس التونسيِّ زين العابدين بن علي، والمصري حسني مبارك، والليبي معمَّر القذافي بمساعدة الناتو، حتَّى الرئيس اليمنيُّ علي عبد الله صالح سقط بعد مقاومةٍ طويلةٍ، لكن استعصى الربيع العربيُّ في سورية ولم يستطع الإطاحة بالنظام. لم يخطر ببال أبي أنَّ النموذج السوريَّ سيحطِّم الربيع العربيَّ ويكسر مساره، وسيبقى النظام والرئيس على رأس السلطة لسنواتٍ طويلةٍ، وينفذون شعارهم «الأسد أو نحرق البلد»، سيحرقون البلد ويحطِّمونها ويدمِّرونها، ويُهجِّرون نصف سكَّانها، وسيبقى الأسد على رأس البلد. أبي المتفائل بإنجازات الربيع العربيِّ، وجد نفسه يائسًا من الحالة السوريَّة بعد عامٍ ونصف من احتجاجاتٍ يزداد ضحاياها، دون تقديم أيِّ تنازلٍ من النظام للمتظاهرين. يزداد القتل ويتوسَّع، وتتوسَّع الوسائل التي يستخدمها النظام في إبادة الناس وهدم منازلهم. بعدما كان إطلاق النار على المتظاهرين هو السائد في بداية الاحتجاجات، أخذت تتصاعد أدوات القتل، انتقل القتل إلى القنص البعيد، وجاء دور قصف مناطق المتظاهرين بمدافع الهاون، وبعد ذلك استُهدِفَ البشر بطائرات الهليوكوبتر، إلى أن أخذت الهليوكوبتر تُسقِطُ البراميل المتفجِّرة الكبيرة التي تدمِّر كلَّ ما تسقط عليه، وبعدها استُخدِمَتِ الطائرات الحربيَّة في قصف الأفران وأدوار الناس التي تقف في انتظار الحصول على حصَّتها من الخبز، وصولًا إلى قصف المدن بصواريخ بعيدة المدى. لم تتبقَ وسيلة قتلٍ لم يستخدمها النظام وأمنه من أجل إسكات الناس، كما استخدم الاعتقالات الواسعة والتصفية في السجون والقتل بالسلاح الأبيض والتعذيب، من أجل وقف الاحتجاجات، فشلت كلُّ هذه الأساليب في إسكات الناس، كما فشل الناس في المقابل في إسقاط النظام، الذي تربَّع على عرش الخراب الذي تسبَّب به في البلد. بعد حوالي العام من

المظاهرات وتحوُّل الاحتجاجات إلى صداماتٍ مسلَّحةٍ وتشكيل الجيش الحرِّ في مواجهة جيش النظام ومراوحة الوضع مكانه لأشهرٍ، أصاب الإحباط أبي، وبعد قناعته أنَّ الأحلام الجماعيَّة للضحايا في الحريَّة قد آن أوان تحقيقها على أرض الواقع، أصبح على قناعةٍ أنَّ الحلول الجماعيَّة قد فشلت، وأنَّ الثورة لن تنتصر بسهولةٍ، وإذا انتصرت، فإنَّها ستكون انتصارًا بطعم الهزيمة، بل انتصارًا يخلِّف وراءه دمارًا هائلًا، يحطِّم البلد لعشرات السنين القادمة. بناءً على قناعته الجديدة، أتخذ قرارًا بمغادرة البلد إلى القاهرة، التي باتت تسمح بدخول الفلسطينيِّين إليها بعد سقوط الرئيس حسني مبارك، في الوقت الذي منعتهم سابقًا من الدخول لسنواتٍ طويلةٍ لمجرَّد كونهم فلسطينيِّين. كان خروج أبي من البلد بمنزلة هزيمةٍ له ولأحلامه، وهزيمةٍ للثورة التي راهن عليها، تحت البطش العنيف من النظام جعلته يعيد النظر في حياته وحياتنا، وتوصَّل إلى قناعةٍ تقول: «عندما تفشل المشاريع الجماعيَّة الكبرى، يصبح الحلُّ فرديًّا»، هذا الاستنتاج هو الذي دفعه لمغادرة البلد إلى مصر، معترفًا بالهزيمة ومنتقلًا إلى المكان الذي أنجز ثورته، واختار رئيسًا في انتخاباتٍ ديمقراطيَّةٍ، صحيحٌ أنَّ هذا الرئيس جاء من «الإخوان المسلمين»، وهذا مؤسفٌ بالنسبة له، لكنَّه خيارٌ ديمقراطيٌّ، جاء بانتخاباتٍ ديمقراطيَّةٍ وشفَّافةٍ. متمنِّيًا أن تنجح الثورة في سورية ويعود من جديدٍ إلى دمشق، لكنَّ الرحيل أصبح مسألةً محسومةً، وليس ممكنًا البقاء في البلد.

عندما حسم خياره، لم يدرك أنَّه لن يعود إلى البلد، أو لم يرغب في تصديق ذلك، ودَّعنا على أمل عودته قريبًا إذا سقط النظام رغم قناعته بالهزيمة، وبسبب هذه القناعة عمل بالخيار الثاني، بأنَّنا سنلحق به إلى مصر عندما يرتِّب أوضاعه. قسَّم المال الذي معه مع أخي، وأعطاني بعض المال لأنِّي كنت أقيم مع أمِّي، احتياطًا لأيِّ طارئٍ، ترك السيَّارة مع أخي، وعمل له وكالةً عند الكاتب بالعدل ليتصرَّف بها في حال احتجنا ذلك. لم يكن يملك

الكثير من المال، تقاسم معنا القليل الذي يملكه. عندما أعطاني المال وعانقني، شعرت بحبٍّ هائلٍ تجاهه لم أشعره من قبل، وشعرت أنِّي قد لا أراه مرَّةً أخرى، أردت أن أقول له: «بحبَّك كثير»، لكنِّي عجزت عن نطق هذه الجملة، لا أعرف ما الذي منعني، هل هو خجلي، أم خوفي من تأثيرها السلبيِّ عليه؟ أو أنِّي عدَدتُ نفسي رجلًا، والرجل لا يجوز أن يقول مثل هذه الكلمات لوالده؟ كان عليَّ قول هذه الكلمات له، لا سيَّما أنَّه غادر وقد باتت الاشتباكات في المخيَّم عاديَّةً، والهليوكوبتر تحلِّق فوق المخيَّم طيلة اليوم، واللجان الشعبيَّة التابعة للقيادة العامَّة التي تعمل في المخيَّم بإشراف المخابرات قد انتشرت، وقد بات يسكن المخيَّم عشرات آلاف اللاجئين القادمين من المناطق المجاورة التي تتعرَّض لقصفٍ. ترك أبي مكتبه الذي حوَّله إلى مكانٍ يسكنه اللاجئون القادمون من أماكن أخرى. وانتقل إلى مكتب صديقٍ له في المخيَّم بالقرب من مشفى فايز حلاوة، ولأنَّ صديقه لم يعد يأتي إلى المكتب لأنَّه يعيش خارج المخيَّم. لم يدم هذا الحال طويلًا، لأنَّ أبي قرَّر مغادرة البلد، وهو على قناعةٍ أنَّ المخيَّم سيتعرَّض إلى ما تتعرَّض إليه المناطق السوريَّة الأخرى، فليس للمكان أيُّ حرمةٍ كما اعتقد بعض السذَّج. وكان أبي يذكِّر ما قاله عبد الحليم خدَّام وزير الخارجيَّة السوري حينها في لقاءٍ تهديديٍّ لقادة الفصائل الفلسطينيَّة، نقلًا عن الأسد الأب عندما وقعت الاشتباكات الدامية في يوم الأرض، الذي جاء بعد خروج المقاتلين الفلسطينيِّين من بيروت بعد حرب العام 1982، كانت الرسالة التي حملها خدَّام لقادة الفصائل، تقول: «لا تعتقدوا أنَّ المخيَّم أغلى عند السيِّد الرئيس من حماة»، وكانت لغةً تهديديَّةً واضحةً وفجَّةً، من أنَّ النظام يمكن أن يُجرِّف ويدمِّر المخيَّم، مثلما دمَّر مدينة حماة القديمة بالكامل وذبح أهلها، قبل حوالي عامٍ من أحداث المخيَّم. عدَّ أبي أنَّ النظام هو النظام، آلة القتل هي ذاتها الذي صمَّمها الرئيس الأب، والرئيس الابن لم يفعل شيئًا، غير أنَّه ضغط على زر التشغيل في آلة القتل التي لم يخترعها، وعندما ضغط

زرِّها، أدَّت آلة القتل الرهيبة بوظيفتها بجزِّ أعناق السوريِّين دفاعًا عن السلطة.

كنت سعيدًا لمغادرة أبي المخيَّم قبل سقوطه، وقبل رحلة اللجوء التي خضناها، ولأنَّه لم يشهد تلك اللحظة القاسية من الألم المكثَّف. صحيحٌ أنَّه عانى ما عانى خوفًا علينا في ذلك اليوم العصيب، لكنَّه عانى من بعيدٍ، وكان في مأمنٍ من أن نقلق نحن عليه في تلك اللحظات الرهيبة. أعفاه عدم وجوده في قلب الحدث من معاناةٍ شديدةٍ، لا أعرف كيف سيكون تأثيرها عليه، ولا تأثيرها علينا، أشعر أنَّنا نحن الذين خضنا التجربة، التي وشمتنا وشمًا عميقًا، كوشم الكيِّ بالنار الذي كنت أشاهده في أفلام رعاة البقر الأميركيَّة. ولا أعتقد أنَّ أحدًا من الذين شهدوا تلك التجربة، قد تعافى من أثر قسوتها في روحه، رغم السنوات التي مرَّت على تلك الليلة الرهيبة.

18

مثل غيري، لم أتوقَّع سرعة التطوُّرات في المخيَّم، لنجد أنفسنا في ليلةٍ قاسيةٍ، نجمع القليل من أغراضنا لنغادر المخيَّم إلى غير رجعةٍ، رتَّب سفر أبي مع الحادث الذي أصاب أخي وضعًا جديدًا. قبل مغادرة أبي إلى القاهرة، كان قد لجأ هو وأخي إلى داخل المخيَّم، لأنَّ منطقة بيتنا في نهاية شارع اليرموك قد باتت منطقة اشتباكاتٍ مستمرَّةً، ما جعل أخي وأبي ينتقلان للعيش في شقَّة عمَّتي بيان في المخيَّم، التي لم يكن فيها سوى ابنها الصغير طارق، وعندما تهدأ الأوضاع يعودان إلى البيت من جديدٍ. غادر أبي المخيَّم قبل حوالي ثلاثة أشهر من قصف طائرة الميغ الحربيَّة للمخيَّم، كانت الأوضاع في المنطقة رديئةً جدًا، والاشتباكات بين الجيش الحرِّ وقوَّات النظام على أطراف الحجر الأسود لا تتوقَّف. عاد أبي مرَّةً واحدةً إلى المنزل، أحضر ما يحتاجه من أجل السفر، وبقي كلُّ شيءٍ على حاله. وعندما غادرا المنزل، أعطيا المفتاح لجارهم الذي يسكن فوقهم، حتَّى ينزل هو وأولاده ليعيشوا في المنزل، لأنَّهم يسكنون في الطابق الأخير وأيُّ قذيفة هاون يمكن أن تخترق السقف وتتسبَّب بمجزرةٍ له ولزوجته وأولاده الأربعة. شكر الرجل أبي، ووعده أن يحافظ على المنزل كما تركه. قال أبي: «ما تشغل حالك بالبيت أبو مازن، البلد كلها خربت ما وقفت على البيت»، وفي الزيارتين اللتين ذهبت فيهما إلى المنزل بعد أن غادر أبي لأحضر بعض الوثائق من المنزل، وجدت الرجل وفيًّا لوعده، كنت أجد البيت أفضل حالًا من الوضع الذي كان عليه عندما كنَّا نسكن فيه.

بعد مغادرة أبي بحوالي الشهرين، كسر أخي ركبته. كان في زيارة لبيتنا، وعندما غادر نازلًا الدرج إلى الشارع، حيث كنَّا نسكن أنا وأمِّي في بيتٍ

عبارةٌ عن غرفةٍ وصالةٍ في غرب اليرموك بالقرب من شارع الثلاثين. في تلك الليلة وهو ينزل الدرجات، انقطع التيَّار الكهربائيُّ فجأةً فأظلم المكان، ففقد توازنه وسقط على الدرج، محدثًا دويًّا، وصرخ صرخةً هائلةً بفعل الألم الذي تسبَّب به وقوعه، دفعنا صراخه أنا وأمي للخروج سريعًا لمعرفة ما جرى له، وجدناه ملقًى أسفل الدرج يئنُّ من الألم. لم نفهم، ولم يفهم هو ما الذي حصل معه، ولم يعرف مستوى الإصابة، حتَّى اليوم التالي عندما ذهبنا إلى الطبيب، وشخَّص حالته، ووضع رجله في الجبس من قدمه حتَّى أعلى فخذه. فقد قدرته على التحرُّك، ما أجبره على البقاء عندنا طيلة الوقت، والتوقُّف عن الذهاب إلى العمل.

سارت الأيَّام بطيئةً بالنسبة لي، وازدادت البلد اشتعالًا، وشغلي بدأ يتراجع، ودراستي متعثِّرةٌ، والتهديدات في كلِّ مكانٍ، الحواجز العسكريَّة يمكن أن تعتقلني لأيِّ سببٍ، ودون سببٍ، القذائف تطير في كلِّ الاتجاهات، ولا سيَّما القادمة من خارج دمشق إلى داخلها، والتي زارتنا واحدةٌ منها في أثناء الامتحانات في كليَّة الآداب، إذ سقطت القذيفة إلى جانب القاعة التي كنَّا نقدِّم فيها الامتحانات، ما دفع الجامعة إلى إلغاء الامتحان، وإرسال الجميع إلى بيوتهم. لا يمكن التركيز في الامتحان تحت القصف، هذا هو الجنون بعينه. لم أستطع التعوُّد على القصف، كانوا يقولون إنَّ المرء يستطيع أن يتعوَّد على القصف، ويتراجع خوفه، ويصبح القصف مجرَّد أصواتٍ فقط، حدث كأيِّ حدثٍ بسيطٍ في الحياة، كأن يتحطَّم صحنٌ في حوض جلي. لم أقتنع بهذا الكلام، الذي يبدو أنَّه قيل من شخصٍ أراد أن يشجِّع نفسه على احتمال شروطٍ غير قادرٍ على احتمالها، يتحدَّث عن تحوُّل الكوارث إلى أشياء عاديَّةٍ مع مرور الوقت، ما يجعلنا نعتاد عليها. أعتقد من قال هذا الكلام لم يكن مقتنعًا به، حاول أن يفعل ذلك دون أن ينجح، لانفجارات القذائف خصوصيَّتها، الصوت وحده كفيلٌ بصناعة الخوف. صحيحٌ أنَّ الكثيرين قالوا، عندما تسمع صفير القذيفة اعلم أنَّها تجاوزتك

وذهبت إلى مكانٍ بعيدٍ، لكن ماذا عن القذيفة الثانية والثالثة... والألف. يسبِّب الخوف للبشر حالتين متناقضتين، الصمت أو الثرثرة، وأصحاب الثرثرة يقولون كلامًا فارغًا على شكل نصائح تبدو ثمينةً، لكنَّها مجرَّد كلامٍ لتمرير الوقت ليس إلَّا. لم أعتَد على القذائف وبقيت أخاف كلَّما انفجرت قذيفةٌ قريبةٌ أو بعيدةٌ، فليس هناك ضمانةٌ أنَّ القذيفة يتيمةٌ، علَّمتني الحرب أنَّ القذائف لا تأتي فرادى، فدائمًا عليَّ انتظار القذيفة التالية، حتَّى لو لم تأتِ. رافقني الخوف من الحرب حتَّى بعد أن ابتعدت عن المكان آلاف الكيلومترات. يعشِّش الخوف داخلنا، يستمرُّ في إخفاء ذاته، نعمل نحن على إخفائه حتَّى نستطيع الاستمرار في الحياة معه، لكنَّه يعيش معنا ويعشِّش داخلنا، ويبقى بعد التجربة يرافقنا طيلة حياتنا، يأتينا في أحلامنا وفي صحونا، ونحن الذين ظننَّا أنَّنا تخلَّصنا منه عندما ابتعدنا عنه. طيلة الفترة التي شهدت فيها الحرب، سواءٌ كانت الاشتباكات القريبة بالسلاح الفرديِّ، أو مجرَّد طلقاتٍ بعيدةٍ، أو قصفًا مدفعيًّا، أو قصف طيرانٍ، في كلِّ الحالات أُصبتُ بالخوف، طلقةٌ طائشةٌ قادرةٌ على قتلي أو أن تجعلني معاقًا. لم تكن الاشتباكات وصوت القذائف هي الشيء الوحيد الذي أخافني، فالحواجز العسكريَّة تسبَّبت لي برعبٍ أكثر من القذائف أيضًا، فالقذائف طائشةٌ يطلقها عسكريٌّ أعمى لا يعرف أين ستسقط. أمَّا الحواجز فهي تهديدٌ بعيونٍ مفتوحةٍ، تهديدٌ بشريٌّ، تهديدٌ وحشيٌّ. أيُّ حاجزٍ، وأيُّ عسكريٍّ أو عنصر مخابراتٍ معكَّر المزاج، يمكن أن يحوِّل حياتي إلى جحيمٍ، أو لخطأٍ ما في الاسم، أو لتشابهه مع اسمٍ آخر. هذا الشخص الواقف على الحاجز، يُذكِّرك أنَّ حياتك في هذا البلد لا قيمة لها، يمكن لعسكريٍّ جاهلٍ ونصف مجنونٍ أن يسلبك إيَّاها ويرسلك إلى سجونٍ لا تعرف إذا كنت ستخرج منها، وإذا خرجت منها، هل ستخرج سليمًا أم ستحمل كلَّ الندوب والأمراض التي عرفتها البشريَّة في تاريخها الطويل، جرَّاء ممارسات تعذيبٍ لا يمكن وصفها، التي عرفتها السجون، التي قضى فيها عشرات الآلاف تحت

التعذيب الشرس؟! توغَّلت البلد في جنونها، وتوغَّلت السلطة في إنتاج الرعب، أشكُّ أنَّ أحدًا في البلد على طرفي الصراع قد نجا منه، إنَّه الرعب المعمَّم كصناعةٍ وطنيَّةٍ باللغة المحليَّة، تجعل الناس متساوون في مخاوفهم من موتٍ ينتظرهم في كلِّ زاويةٍ في البلد الذي تحوَّل إلى مسلخٍ بشريٍّ. لم يكن الخوف هو الوحيد الذي لم أتعوَّد عليه في البلد الذي دخل مسار تدميرٍ لم تبدُ له نهايةٌ، الشيء الآخر الذي قرَّرت ألَّا أتعوَّد عليه هو قتل البشر. وهذا ما تعلَّمته من أبي، كنت كثيرًا ما أمزح أنِّي لو أملك القوَّة لكنت دمَّرت البشر، كان كلامي يزعجه قبل دخول البلد في دوَّامة القتل. مع القتل في البلد، وعندما أقول «لو أنا لقتلت وذبحت» أصبح الكلام يستفزُّه أكثر، صرخ مرَّةً في وجهي قائلًا: «لازم تنتبه على كلامك، ما في سبب بالدنيا بخلِّي بني آدم يقتل بني آدم»، قلت: «بس أنا ما قتلت حدا»، قال: «بعرف إنَّك ما قتلت حدا، بس أنت عبتقنع حالك بالقتل»، قلت: «كيف؟! ما فهمت»، قال: «القتل بيبدأ بالكلام، بس تقبل فكرة قتل الآخر، بتكون جهَّزت حالك، تعبر من القول إلى الفعل دون ندم، بحجَّة إنُه يستحق القتل لإنُه أقل منِّي، أو لإنُه هو تسبَّب في قتل نفسه»، نظرت إليه نظرة استغرابٍ واستخفافٍ، قرأها جيِّدًا وأضاف: «لا تطلَّع فيني هيك، كلنا ممكن نتحوَّل لمجرمين، وأنا وإنت وكل من بتعرفُه، إحنا مش محصنين، منشان هيك، إنُه ما نتحوَّل لمجرمين، هاي معركة مع أنفسنا نظل ندرِّبها تبقى ضد القتل على طول، قبل التعامل مع واقع قاسي، بدفعنا دفع لنتحوَّل لمجرمين وقتلة»، لم آخذ كلامه على محمل الجدِّ، وعدَدتُه مبالغةً من أبي وحساسيَّته الزائدة عن الحدِّ، وثقافته التي جعلته غريبًا عن الواقع الذي نعيشه. تذكَّرت كلامه وأنا أشاهد أصدقاء لي يتحوَّلون إلى قتلةٍ وأدوات قمعٍ بأيدي الجلَّاد، تحت ذريعة «بدنا نعيش، وإذا إحنا ما عملنا هذا الشي في ألف مين يعملُه»، برَّروا ما يفعلونه من جرائم بالقول: «إنَّها الحاجة»، لم أقتنع بذرائعهم، وكنت مقتنعًا بما كان يقوله أبي: «ما في شيء في العالم بستحق إنُه إنسان

يقتل إنسان ثاني»، كان على حقٍّ، أجل مع الوقت نتعوَّد على القتل والدم، وفي بحر الدم الذي يعمُّ البلد، قد نصبح نحن جزءًا من مكنة القتل، والذرائع كثيرةٌ. نعم، ليس صعبًا أن يتحوَّل حتَّى الخجول والخائف والحسَّاس إلى قاتلٍ، في بلدٍ تحوَّل فيه القتل إلى المهنة الأكثر ممارسةً في طول البلد وعرضها. وقتها قرَّرت ما كان أبي قد قرَّره لنفسه منذ بداية الاحتجاجات، أنَّه لن يتعوَّد على القتل مهما بلغ رعب الأرقام، وسيبقى مقتنعًا حتَّى وفاته، ليس هناك قتلٌ أكثر وقتلٌ أقلُّ، كلُّ قتلٍ هو جريمةٌ مطلقةٌ، سواءً قتل إنسانٍ واحدٍ أو قتل ملايين البشر، فالجريمة الثانية على ضخامتها لا تجعل قتل إنسانٍ واحدٍ جريمةً صغرى. لذلك كره المقارنة التي اعتمدها الكثيرون بين جرائم النظام الضخمة، الذي يقتل شعبه، وبين جرائم إسرائيل التي تقتل على نطاقٍ محدودٍ، وتقتل الفلسطينيِّين وليس شعبها، ما جعلهم يعدُّون إسرائيل عدوًّا رحيمًا مقارنةً بحكَّام سورية. أحزنه هذا المنطق، فجرائم الجلَّادين في كلِّ الحالات هي جرائم كبرى، والجرائم لا تقارن، كلُّ جلَّادٍ يرتكب جريمةً كبرى، وإسرائيل أجرمت وارتكبت مجازر بحقِّ الفلسطينيِّين وسلبتهم حقوقهم وما زالت، وهذه الجرائم ليست لجلَّادٍ رحيمٍ مقابل جلَّادٍ قاسٍ. كلُّ الجلَّادين قساةٌ، ولا شيء يعوِّض الضحايا سوى محاكمة الجلَّادين، كما حَلُمَ أبي، وكان يعرف أنَّه يحلم، لأنَّ الجلَّادين غالبًا ما ينجون بجرائمهم، في عالمٍ أكثر ما يفتقد إليه هو العدالة. ورغم أحلام أبي بالعدالة فإنَّ الواقع كان من القسوة أن أبقى هذا الرجل غريبًا في كلِّ مكانٍ عاش فيه، وذهب إلى موته في بلدٍ لم يحبَّه يومًا، أراده معبرًا إلى مكانٍ آخر، لكنَّه عَلِقَ في المعبر ومات فيه، وأخذ حلم الانتقال إلى بلدٍ آخر مع أحلامه السابقة معه إلى القبر دون أن تتحقَّق.

19

حلم أبي بالتغيير الذي آن أوانه في البلد مع انطلاق الاحتجاجات، تحوَّل الحلم إلى كابوسٍ في البلد كلِّه، ولم ينجُ المخيَّم من هذا المصير، بل كان مصيره أكثر سوداويَّةً من كثيرٍ من المناطق في البلد. هذا المكان الذي اعتقد الكثير من سكَّانه أنَّه سينجو في الوقت الذي يغرق البلد كلُّه بالدم. لم يتخيَّل أهالي المخيَّم أنَّهم سيتعرَّضون إلى نكبةٍ جديدةٍ، كانوا يرفضون هذا المصير، مع أنَّه يُرسَمُ أمامهم ويتقدَّم بخطواتٍ سريعةٍ نحوهم. لا أقول ذلك لأنِّي توقَّعت أن يحصل ما حصل في المخيَّم، على العكس، أنا من الذين توقَّعوا أن ينجو المخيَّم من مصير البلد، وكنت أَعدُّ نبوءة أبي نوعًا من سوداويَّةٍ عشَّشت فيه مع فشل الثورة بالإطاحة بالنظام، جاء الواقع أكثر سوداويَّةً من سوداويَّة أبي. وهو ما أدخلني في تجربةٍ صادمةٍ، لم أشفَ منها أبدًا.

هناك ليلةٌ تعادل حياةً كاملةً، وهناك أعوامٌ تمرُّ لا معنى لها، إنَّها الليلة التي حدَّدت مصيرنا اللاحق. ليلةٌ واحدةٌ، لم أعتقد يومًا أن يكون لوقتٍ بهذا القِصَرِ كلُّ هذا التأثير على مصير جموعٍ من البشر، ونحن منهم كعائلةٍ. إنَّها ليلة الجحيم بامتيازٍ، ليلةٌ لن تعادلها ليلةٌ أخرى في حياتي. بدأ يومٌ آخر في حياة المخيَّم في صراعٍ عمَّ البلد ونال المخيَّم ما ناله من هذا الصراع، القصف المستمرُّ لأطرافه، القنص على أطرافه، واشتباكاتٌ بالقرب منه في كلِّ من حيِّ التضامن والحجر الأسود ومنطقة القدم. رغم ذلك، استمرَّت الحياة في المخيَّم، نزح بعض سكَّانه الخائفين إلى مناطق أكثر أمنًا، بقيت الكتلة الرئيسيَّة في المخيَّم واستمرَّت في الاعتقاد أنَّ الأزمة ستنتهي، وأيًّا كانت هذه النهاية، سيبقى المخيَّم على حاله. ساءت الأوضاع بين

المجموعات المسلَّحة التي شكَّلتها الجبهة الشعبيَّة-القيادة العامَّة والمرتبطة بالمخابرات، وبين تشكيلات الجيش الحرِّ في التضامن والحجر الأسود الذين يحاولون التنسيق معًا، وباتت المجموعات المسلَّحة في المخيَّم تقطع الطريق عليهم. في ذلك اليوم بدأت مجموعات الجيش الحرِّ الدخول إلى المخيَّم، هربت المجموعات المسلَّحة التابعة للقيادة العامَّة قبل حصول أيِّ اشتباكاتٍ بين الطرفين، أو جاءتها أوامر بالانسحاب إلى خارج المخيَّم دون قتالٍ. لم يفهم أحدٌ ما يجرى في المخيَّم في ذلك اليوم، وأنا منهم، جرت الأمور بسرعةٍ غريبةٍ، وكأنَّ هناك تنسيقٌ بين كلِّ الأطراف يفوق قدرة أيِّ إنسانٍ على تخطيطه وتنفيذه، وإذا كان ما جرى مخطَّطٌ له فإنَّ تنفيذه فاق كلَّ خيالٍ في دقَّته، وهي بالتأكيد خطَّةٌ غير موجودةٍ، فليس هناك من يملك هذه الموهبة، في تنظيم كارثةٍ بهذه السرعة الرهيبة. في هذا الوقت الذي كان الوضع فيه غامضًا، انسحب مسلَّحو القيادة العامَّة من المخيَّم إلى دوار البطيخة، وبعضهم سيحاصر في مبنى الخالصة التابع لتلك الجبهة، وهؤلاء سيخرجون في الأيَّام التالية من الحصار باتفاقٍ مع الجيش الحرِّ دون أن يُجرَح أيٌّ منهم. وقبل أن يكتمل هذا الانسحاب، حلَّقت طائرةٌ حربيَّةٌ فوق المخيَّم وقصفت المخيَّم في أماكن عدَّةٍ، أوَّلها بالقرب من جامع عبد القادر الحسيني حيث أحدث الصاروخ مجزرةً حقيقيَّةً في المكان. وفي مكانين آخرين، عند مدرسة المالكيَّة، وبالقرب من المحكمة عند شارع الثلاثين. غيَّرَ هذا القصف مصائر مئات آلاف البشر الذين يسكنون المخيَّم، حياة هؤلاء قبل هذا القصف لن تشبه ما بعده، عمليَّة اقتلاعٍ رهيبةٌ حدثت في المكان في تلك اللحظة، الكابوس الذي خاف أهالي المخيَّم منه أصبح واقعًا معاشًا. ومنْ حَلُمَ بالبقاء في المخيَّم بعد انتهاء الصراع تبخَّرت أحلامه في تلك الليلة الفاصلة في حياة أهل المخيَّم فلسطينيِّين وسوريِّين، الذين لن تعود حياتهم كما كانت قبله. في تلك الليلة انفجر الألم العظيم في المكان، ألمٌ عابرٌ للمنازل، والأشخاص، وللعائلات، وللأجيال. إنَّه الجحيم

مجسَّدًا على الأرض. أصابتني الصدمة من قصف طائرة الميغ، لم تكن المرَّة الأولى التي يُقصَفُ فيها المخيَّم، لكن كلُّ القصف السابق للمخيَّم جاء بمدافع الهاون، وسقطت القذائف على المخيَّم، سواءً بقصدٍ أو عن طريق الخطأ، ما يعني أنَّه ليس المستهدف بالقصف. مع قصف طائرة الميغ لا لِبسَ في مكانة المخيَّم بالنسبة للنظام، بات في الموقع المعادي الذي استحقَّ القصف، ليس بمدفعيَّة الهاون هذه المرَّة، بل بالطائرات الحربيَّة. صحيحٌ أنَّ قصف طائرة الميغ لم يوقع ضحايا أكثر من قذائف حارة الجاعونة، التي تسبَّبت بمجزرةٍ، لكنَّ تلك القذائف لم تشكِّل لحظةً مفصليَّة في الصراع على أرض المخيَّم، مثلما كانت لحظة قصف طائرة الميغ. أعلن هذا القصف المخيَّم مكانًا معاديًا، وعلى أهالي المكان أن يتخذوا قرارهم بالانتماء إلى مكانٍ معادٍ أو الرحيل عن بيوتهم لإسقاط التهمة عنهم. السؤال ذاته طرح نفسه على الجميع دون تنسيقٍ، ما العمل؟ وهو السؤال نفسه الذي طرحه سكَّان المناطق التي عُدَّت معاديةً على أنفسهم، وكانت النتيجة رحيلٌ جماعيٌّ، أعرف ذلك من تجربة داريَّا، التي كنت مطلًّا عليها، بحكم علاقتي بفاديا، والتجربة القاسية التي مرَّت بها في أثناء الاشتباكات هناك، التي أدَّت إلى تفريغ المدينة من سكَّانها، ولم يبقَ فيها سوى المعارضين المسلَّحين. شخصيًّا فهمت الرسالة، وما ينتظر المخيَّم هو المصير الذي عرفته داريَّا والعديد من المناطق التي عُدَّت معاديةً وجُرِّفَ سكَّانها منها.

كدت أجنُّ عندما اندلع الصراع في داريَّا، لم أكن قادرًا على معرفة ما الذي يجري هناك، وعليه فإنِّي لا أعرف مصير فاديا. لم تردَّ على رسائلي على الموبايل، لم تكن تستطيع الردَّ، كانت محاصرةً مع زوجها وولديها طيلة الوقت، وقد قُطِعَت الاتصالات عن كلِّ المدينة حتَّى لا يستفيد أهالي داريَّا منها. وبعد ثلاثة أيَّامٍ من انقطاع الأخبار ويومين على المذبحة التي حدثت في المدينة، جاءت رسالتها على الموبايل، لتقول إنَّها بخيرٍ. كدت أفقد أعصابي خلال فترة الانتظار، تسرَّبت أخبار القتل من المدينة في أثناء ارتكاب

المذبحة، وكلَّما سمعت خبرًا سيِّئًا عن داريَّا يصيبني الهلع من أن ما يحدث قد يكون حدث معها وأنَّها واحدةٌ من القتلى. عندما تخطر ببالي هذه الفكرة أضرب رأسي بقبضة يدي حتَّى أطرد الفكرة دون نجاح. وعندما قابلت فاديا في الجامعة، رفضت التحدُّث عمَّا جرى في تلك الأيام، لكنَّها لم تعد فاديا التي أعرفها، قرَّرت على نحوٍ مفاجئ أن تبعدني عنها بأيِّ ثمنٍ، لم أعرف السبب ولم تتحدَّث عنه، لكنَّها بلَّغتني بوضوحٍ في ذلك اللقاء أنَّ علاقتنا يجب أن تنتهي. وعندما سألتها: «ليش؟»، قالت: «من غير ليش. هاي العلاقة محكوم عليها بالإعدام، من دون اللي بصير بالبلد، كيف مع اللي بصير بالبلد. خلص صادق ما بدي أعذبك وأعذب حالي، ظروفي صارت زي الزفت، وما بدي أتسبَّبلك بأي ألم أو جرح»، ما قالته صحيحٌ، هناك ألف سببٍ من أجل إنهاء هذه العلاقة، كنت أعرف ذلك، لكنِّي اعتقدت في بعض اللحظات، أنَّنا نستطيع تجاوز كلِّ ظروفنا، لا سيَّما ظروفها، ونكون معًا، كان حلمًا تمنَّيت أن يتحقَّق رغم الكارثة التي حلَّت بالبلد. لكن هذا لم يحدث، لم ترغب في لقائي مرَّةً ثانيةً، قبلت ذلك على مضضٍ. أخذت منِّي وعدًا قبل أن أقابلها أنَّها ستكون المرَّة الأخيرة، وأنا عاهدتها ألَّا أبحث عنها أو أحاول الاتصال بها بعد هذا اللقاء، وعدتها بذلك والتزمت به. كان اللقاء حزينًا، شاهدت حزن العالم كلَّه في عينيها، لم أستطع إخراجها من حالتها، من الواضح أنَّها مرَّت بظروفٍ في غاية القسوة، ويبدو ما حصل معها أوصلها إلى نتيجةٍ أنَّها لا تريد أن أكون جزءًا من حياتها. كان لقاءً قاسيًا عليها وعليَّ، تمنَّيت لو أنِّي لم أطلبه منها ولم أشاهدها على هذه الصورة، وهي الصورة الأخيرة التي ستبقى عالقةً بذهني عن المرأة التي أحببتها حدَّ الجنون. حتَّى تزيد من قسوة هذا اللقاء، رفضت في نهايته أن أعانقها، وقالت: «أرجوك، مش قادرة»، خرجت راكضةً والدموع في عينيها من المطعم الذي كنَّا نجلس فيه وسط دمشق. عشَّشت صورة حبيبتي المكسورة في ذاكرتي وعذَّبتني طيلة الوقت. جلب قصف طائرة الميغ ذاكرة

الألم في الخوف على فاديا، وكنت على قناعةٍ أنّنا في المخيَّم دخلنا المسار ذاته الذي سبقتنا إليه داريًّا.

كان يومًا عاديًّا من أيَّام المخيَّم، عندما أطلقت الطائرة الصاروخ الأوَّل الذي سقط بالقرب من جامع عبد القادر. كنت ذاهبًا إلى بيت عمِّي خليل لآخذ قسط الجامعة منه، الذي وجب عليَّ دفعه في تلك الفترة. فقد اتصل أبي في اليوم السابق وقال إنَّه تكلَّم مع عمِّي، وأنَّه سيعطيني مبلغ القسط لأسجِّل في الجامعة. استيقظت متأخِّرًا، وكانت أمِّي قد ذهبت إلى مدرستها، وتركت أخي محمود الذي أقام عندنا منذ حطَّم ركبته نائمًا، هو ومحمد ابن خالتي، فقد سهرا لوقتٍ متأخِّرٍ في الليلة السابقة، ونام محمد عندنا، فقد كان أهله قد نزحوا من الحجر الأسود إلى شقَّةٍ لأقاربهم على شارع الثلاثين بالقرب منَّا، فمن العادي أن ينام عندنا عندما يتأخَّر في السهرة. سرت باتجاه بيت عمِّي وأنا نصف نائمٍ، وعندما وصلت أوَّل شارع المدارس دوَّى انفجارٌ هائلٌ، لم أكن قد سمعت مثله من قبل، ارتجَّت الأرض من تحتي والمباني المحيطة بي، شعرت الانفجار بقربي مباشرةً، رغم شعوري بأنَّه قريبٌ لم أرَ الدخان في السماء بسبب كثافة أبنية المخيَّم. لم أعرف من أين أتى صوت الانفجار بالضبط، فهو قادمٌ من وسط المخيَّم، كنت متأكِّدًا أنَّ الانفجار لم يكن على أطراف المخيَّم، بل في قلبه تمامًا. بعد الانفجار بلحظاتٍ رنَّ هاتفي المحمول، كان أخي يريد الاطمئنان عليَّ. قال: «وين أنت؟ ارجع على البيت»، قلت: «هيني راجع» لم أعد إلى البيت، وجدت نفسي أركض مع الذين يركضون باتجاه مكان الانفجار، ويركض آخرون بالاتجاه المعاكس، وقبل أن أصل إلى الحارة المؤدية إلى جامع عبد القادر الحسيني قابلتنا امرأةٌ تركض بعكس اتجاهنا تلطم على وجهها وتقول: «يا الله، شو هاد الناس اتقطعت»، لم أفهم بماذا تهذي تلك المرأة، سوى عندما وصلت إلى هناك، ما زالت بقايا الغبار في المكان تجعل الرؤية صعبةً، لكن لون الدم وأصوات البكاء والعويل والوجع تأتي من كلِّ مكانٍ، اثنان يحملان

مصابًا يصرخ من ألمه، مرُّوا بجانبي ليصلوا إلى السيَّارات التي حضرت تبرُّعًا لنقل الجرحى إلى مشفى الباسل القريب من المكان، وهو على بعد حوالي 300 مترٍ من مكان سقوط الصاروخ. وبعد وصولي بدقيقةٍ، أطلقت الطائرة صاروخًا ثانيًا، كان صوته مدوِّيًا كأنَّه انفجر في الجوار، لكنَّه سقط هذه المرَّة في فناء مدرسة المالكيَّة على مسافة أمتارًا عدَّةً من بيت عمِّي خليل، حيث كنت ذاهبًا لأخذ مال القسط من عمِّي، والمدرسة تبعد عن الجامع حوالي 500 مترٍ لكن يفصل بينهما الكثير من المباني المكتظَّة في المخيَّم. حملت طفلًا نازفًا في حوالي العاشرة من عمره إلى أحد السيَّارات التي تنقل الجرحى، وكان هناك شابٌّ يصرخ: «يا شباب ما عاد الباسل بتحمَّل جرحى، خذوا الجرحى على مشفى فلسطين»، وقبل أن ينهي الشاب كلمته الأخيرة، كان الانفجار المدوِّي للصاروخ الثاني، قد جعلني أنحني على الطفل بين يدي، وكذلك فعل الآخرون كردٍّ فعلٍ، الذي ظهر من قوَّته كأنَّه سقط على بعد أمتارٍ عدَّةٍ. بعد نقل كلِّ الجرحى وجثث القتلى إلى المشافي التي اكتظَّت بهم، جلست متعبًا إلى جانب جدار المدرسة على الزاوية الثانية للجامع، أشاهد بدهشةٍ الدماء على الجدران، وأراقب ثلاثة أشخاصٍ يحاولون التقاط بقايا أشلاء المصابين، بقايا قطع اللحم البشريَّة المتناثرة هنا وهناك على الأرض بين الحطام الذي تسبَّب به الانفجار، أجزاءٌ من جدران الزقاق محطَّمةٌ تغطِّي الزقاق، زجاج النوافذ المحطَّم ينتشر في كلِّ مكانٍ، نوافذ البيوت مقتلعةٌ من مكانها ومرميَّةٌ هنا هناك، شرفاتٌ سقطت بفعل الانفجار. غسيلٌ من قمصانٍ وفساتين وسراويل من كلِّ المقاسات منشورٌ فوق الردم اقتُلِعَ من مكانه ونشره الانفجار فوق الخراب والجدران. أحذيةٌ وشحَّاطات القتلى والجرحى والهاربين التي تركوها وراءهم مرميَّةً في كلِّ مكانٍ. سمعت الذين يجمعون الأشلاء البشريَّة للضحايا، يتمتمون بكلماتٍ فهمت منها أنَّ هناك أشلاءٌ للضحايا وصلت إلى أسطح الأبنية في الزقاق. جلت بنظري في المكان، الذي هدأ لحدٍّ ما، لم يتوقَّف بكاء الرجال والنساء

المتجمعين في المكان والمصدومين حزنًا على الذين سقطوا، لا مكان آخر لهم يذهبون إليه، وبين لحظةٍ وأخرى، يصدر صراخٌ هائلٌ من رجلٍ أو امرأةٍ يشتمون وهم يبكون ويشكون أمرهم لإلهٍ لا يريد أن يردَّ عنهم الأذى. كان صراخهم حارقًا وقاسيًا ومؤلمًا، لم يقلُّ تأثيره عليَّ عن مشاهد الدم، صراخ الألم من النساء والرجال المفجوعين بأحبَّتهم. دفعتني أصوات البكاء المحيطة بي طيلة الوقت للبكاء رغمًا عنِّي، وجدت نفسي وأنا أجلس القرفصاء، أشبك ذراعيَّ فوق ركبتيَّ وأضع رأسي فوقهما وأنحني، وشرعت في بكاءٍ مرٍّ، وبصوتٍ مسموعٍ. ربَّت أحدهم على كتفي، وقال: «خيًّا صادق فيك شي؟ رحلك حدا؟»، رفعت رأسي لأعرف من الذي يناديني باسمي، وجدت رامز زميل الدراسة في الإعداديَّة، الذي يسكن في الحارة المجاورة للجامع ينظر إليَّ بعيونٍ خائفةٍ من مصيبةٍ أصابتني. قلت من بين دموعي: «لا خيًّا رامز، ما رحلي حدا. بس أنت شايف!»، وأشرت برأسي إلى ما يفعله الأشخاص الثلاثة الذين يلتقطون بقايا اللحم البشريِّ. جلس رامز إلى جواري مثل جلستي. قال: «الله كبير، كل هذا ما رح يروح ببلاش»، قلت: «كيف وإيمتى؟ تعبنا من الموت»، قال: «والله ما بعرف شو أقول»، صمت للحظاتٍ وأضاف: «خيًّا. تلفونك برن»، لم أنتبه إلى هاتفي المحمول الذي يرنُّ في جيبي، وكأنَّه ليس لي. فتحت هاتفي لأسمع صوت أخي يصرخ: «لك أنت شو دين ربك، ليش ما بترد على التلفون، شو بدك تموتني؟ وين إنت؟ عبقولوا صاروخ سقط قريب بيت عمَّك خليل. إنت هناك؟»، قلت: «لا، ما رحت لهناك، أنا بخير، شوي وباجي على البيت، وبحكيلك»، لا أعرف كم من الوقت بقيت جالسًا هناك ورامز يجلس إلى جانبي، ننظر في الفراغ ونسمع أصوات النحيب التي ترتفع بين الحين والآخر صراخًا ساخطًا وباكيًا على عدالةٍ مفقودةٍ، عندما وقفتُ لأغادر المكان، سألني رامز: «بتحب أوصلك خيًّا؟»، قلت: «شكرًا رامز، أنا منيح»، صافحني وقال: «الله معك»، لم أذهب إلى البيت، كان عليَّ الذهاب إلى بيت عمِّي، وهذه المرة ليس من

أجل قسط الجامعة، بل من أجل الاطمئنان عليهم. عندما وصلت إلى هناك، كان الغبار قد هدأ، واجهة البناء الخارجيَّة سليمةٌ، صعدت إلى بيت عمِّي في الطابق الأوَّل، وقبل أن أدخل كان عامر ابن عمِّي ينزل الدرج من بيته، وسرعان ما سألته: «كلكم بخير، عمِّي بخير؟»، قال: «كلنا بخير، بس أبوي تعبان، وبيوتنا تدمرت»، سألني بعد أن شاهد الدم على ملابسي: «خير، إنت صابك شي؟»، قلت: «لا، كنت عند جامع عبد القادر»، سألني «كيف الوضع هناك؟»، قلت وأنا أدخل: «مذبحة، ولحم الناس على الحيطان بحارة الجامع»، عندما جلت بنظري ببيت عمِّي، كان الحطام في كلِّ مكانٍ وتعمل زوجات أولاد عمِّي على تنظيف المكان قدر الإمكان. دخلت إلى الغرفة التي فيها عمِّي، قلت: «السلام عليكم»، ردَّ ابن عمِّي أحمد الموجود في الغرفة مع عمِّي السلام، لكنَّ عمِّي لم يردَّ على سلامي، كان ينظر إليَّ ولا يراني. وعندما سألته عن حاله، لم يردَّ ولم تتغيَّر نظرته، كان تحت تأثير الصدمة، جسده موجودٌ في المكان، وروحه موجودةٌ في مكانٍ آخر. لم أرغب في البقاء حتَّى لا أكون عبئًا عليهم في هذا الوضع المأساويِّ الذي يحتاج إلى الكثير من العمل، ألقيت السلام وغادرت. شعرت نفسي منهكًا والبيت بعيدٌ جدًّا، ولست قادرًا على الوصول إليه. عندما دخلت البيت وشاهد محمود الدم على ثيابي، وقف على رجله السليمة وهو يقول خائفًا: «شو صرلك؟ من وين هذا الدم؟»، وأخذ يتحسَّس جسدي، باحثًا عن مصدر الدم. وأضاف: «شو هذا، انصبت خيَّا؟»، قلت: «هذا الدم مش دمِّي»، سأل: «لكان دم مين؟»، قلت: «دم الناس اللي قصفتهم الطيَّارة جنب الجامع»، قال أخي: «شو ودَّاك هناك؟»، قلت وأنا أدخل إلى الحمَّام وأنزع ثيابي: «منشان الله خلص، القصَّة ما بدها تحقيق. رحت وخلص»، أغلقت الباب ورائي وشرعت في البكاء من جديد. نزعت ملابسي، ودخلت تحت ماء الدش لأغسل جسدي محاولًا غسل الألم من داخلي وإيقاف الدموع التي استمرَّت بالنزول حتَّى تحت الدش. حاولت تجاهل القادم من

خلال الغرق في الحزن على الضحايا بالقرب من الجامع. فهي لم تكن المجزرة الأولى التي تقع في البلد، لكنَّها المجزرة الأولى التي أشاهدها بأمِّ عيني، وكانت العنوان للمرحلة القادمة للمخيَّم. لم أكن وحدي من فهم الرسالة التي أرسلتها طائرة الميغ التي ألقت صواريخها على المخيَّم. كلُّ أهل المخيَّم بكلِّ أعمارهم فهموا الرسالة، فهي رسالةٌ يستطيع أيُّ غبيٍّ قراءتها. عندما خرجت من الحمام، قال لي أخي محمود: «الجيش الحر صار عند الخالصة»، قلت: «شو يعني؟»، قال: «يعني المخيَّم صار مع المعارضة»، قلت: «محل ما قصفت الميغ، ما كان في جيش حر ولا في معارضة، كان في شوية لاجئين مساكين»، قال: «شو بدنا نعمل هلأ. الكل صار عبيحكي على الطلعة. أنت شو رأيك؟» قال كلماته، والخوف ظاهرٌ على وجهه، لم أفهم لماذا هو خائفٌ، وعندما انتبهت إلى رجله المكسورة، فهمت، وخفت عليه أنا أيضًا. اتصلت أمِّي وهي عائدةٌ من عملها، سألت أخي عمَّا يجري لأنَّ الناس تغادر المخيَّم بالمئات. كانت أمِّي تسير عكس الناس، الميكروباص الذي حملها عائدةً إلى المخيَّم، كان من بين سيَّاراتٍ قليلةٍ داخلةٍ إلى المخيَّم، في الوقت الذي بدأ الناس في مسيرة الرحيل من المخيَّم بعد قصف الطائرة مباشرةً. وعندما وصلت أمِّي إلى البيت، سألت: «ليش الناس عبتهرب من المخيَّم؟»، لم يكن عندنا جوابٌ واضحٌ، والجواب هو أنَّ هناك من قرَّر أنَّ وضع المخيَّم وموقعه في الصراع قد تغيَّر، وبناءً على الموقع الجديد على السكَّان أن يقرِّروا البقاء في المكان أو مغادرته. مع بدء القصف في عصر ذلك اليوم، لا حاجة لنقاش الأمر، بات الخروج من المخيَّم حقيقةً مؤكَّدةً ومسألة ساعاتٍ، بعد الإنذار الذي بثَّه أعوان النظام بين الناس، من أنَّ النظام سيوقف القصف في ساعات الصباح، ومن يريد الخروج الآمن يستطيع الخروج في هذه الساعات. لكنَّ السؤال كيف نخرج ومعنا أخي مكسور الرجل؟ ما الذي سيقنع حواجز النظام، أنَّه ليس من جرحى الجيش الحرِّ المعارض وهو يخرج متخفِّيًا بين المدنيِّين؟ ومن الذي يستطيع إقناعهم

أنَّه كسر رجله بسبب سقطةٍ سخيفةٍ على الدرج، تسبَّب بها الانقطاع الفجائيُّ للتيَّار الكهربائيِّ؟ الكثيرون تعرَّضوا للتصفية والاعتقال لشكوكٍ أقلَّ من هذه بكثيرٍ. أصبحنا جميعًا خائفين على محمود من هذا الخروج. طبعًا، كان الاقتراح من الجميع أن ينزع محمود جبيرة الجبس الكبيرة عن قدمه. حتَّى أبي اتصل من القاهرة، واقترح الاقتراح ذاته. واتصل عمِّي سعد الذي يسكن في بيت جدِّي منذ لجأ من دوما ليطمئن علينا، وليفهم ما الذي نريد فعله. أخبره محمود أنَّنا نرتِّب أنفسنا من أجل الخروج من المخيَّم في صباح اليوم التالي. لم يكن هناك طبيبٌ يمكننا الذهاب إليه ليفكَّ الجبس عن رجله، وعلينا فكَّه بأنفسنا بأدوات المطبخ. أخذنا نرتِّب الأشياء التي سنأخذها معنا، وأجَّلنا فكَّ الجبس إلى آخر وقتٍ حتَّى نختصر الألم الذي سيسبِّبه له فكُّ الجبس إلى حدِّه الأدنى. في الليل لم نعد وحدنا في البيت، فقد لجأ جدِّي وجدَّتي وخالي وخالتي إلينا قبل حلول المساء، وكنَّا طلبنا من ابن خالتي البقاء معنا ليقود السيَّارة بنا إلى خارج المخيَّم في صباح اليوم التالي، لأنَّ أخي محمود غير قادرٍ على قيادتها بسبب رجله المكسورة، وأنا لا أعرف القيادة. ويجب أن يكون هناك من يقود السيارة التي تركها أبي مع أخي قبل أن يغادر إلى مصر. لم يكفَّ جدِّي عن الثرثرة في ذلك اليوم، ولم يكفَّ أبي عن الاتصال من مصر ليطمئن علينا وعلى الترتيبات، ولا تريد مشاهد أشلاء ضحايا القصف قرب الجامع مفارقتي، كلُّ هذه الأشياء معًا جعلتني غير قادرٍ على الاحتمال، أصبحت متوتِّرًا، وما زاد الطين بلَّةً، أنَّ قصف مدافع الهاون قد بدأ منذ عصر ذلك اليوم على أطراف المخيَّم، بدأ بعيدًا عن بيتنا. مع هبوط الظلام أخذت القذائف تقترب من البيت شيئًا فشيئًا، وعندما أصبح القصف يستهدف محيط مبنى الخالصة المحاصر من الجيش الحرِّ وفيه مقاتلو القيادة العامَّة، ولأنَّ المبنى قريبٌ منَّا وقذائف الهاون عمياء، أخذت القذائف تسقط في الزقاق الذي نسكن فيه، ولم تلبث واحدةٌ منها أن سقطت في منور التهوية للبناء الذي نسكن فيه، ما جعل

الغبار يملأ المكان، وأُصِبنَا جميعًا بالذعر. كان محمد ابن خالتي يحاول قصَّ الجبيرة، وهو يحزُّها بالسكين من أعلى الفخذ حتَّى القدم، وبدت حينها قويَّةً ومتماسكةً غير قابلةٍ للكسر وكأنَّها مصنوعةٌ من الحديد، وهو يحزُّها بحذرٍ حتَّى لا يجرح رجل محمود، أنجز قسمًا كبيرًا من المهمَّة، لكنَّها بدت غير قابلةٍ للكسر، كلَّما حاول كسرها يفشل في ذلك. عندما ملأ الغبار المكان، وجدت نفسي مستفزًّا من الجبيرة، قلت لمحمد: «بعد شوية»، تنحى محمد جانبًا، قمت بمسك الجبيرة بيدي الاثنتين، وقمت بشدِّها باتجاهين متعاكسين، لا أعرف من أين أتتني تلك القوَّة التي جعلتني أحطِّم الجبيرة، استجمعت كلَّ مشاعر القهر والوجع التي شهدتها ذلك اليوم وكلَّ يومٍ في هذا البلد لتمنحني القوَّة لكسر هذه الجبيرة التي تهدِّد أخي بالموت، ليس لشيءٍ فقط لأنَّ جنودًا أغبياء ومسلَّحين يمكن أن يعتقدوا أنَّه جُرح وهو يحارب مع مسلَّحي المعارضة. وأنا أحاول كسر الجبيرة كان محمود يقول لي: «خلص، اتركني، إنتو اطلعوا وأنا ببقى بالمخيَّم»، قلت: «ما رح تبقى بالمخيَّم، وإذا بقيت في المخيَّم ما رح تبقى لحالك رح أبقى معك»، كانت ليلةً مشحونةً بكلِّ مشاعر القهر والظلم والغربة. ليلةً طويلةً جدًّا، بدت كأنَّها أطول من قرنٍ. في الليل اتصل عمِّي سعد، واطمأنَّ إلى أنَّنا كسرنا الجبيرة، وأنَّنا جاهزون للخروج من المخيَّم، لم نكن نعرف أيَّ وضعٍ سيكون عليه الحاجز على مدخل المخيَّم في الصباح، فلم يكن الخروج من شارع الثلاثين ممكنًا، لأنَّ الشارع مزروعٌ بالقنَّاصة المتمركزين على بنايات القاعة العالية في مدخل المخيَّم، والشارع مقنوصٌ حتَّى نهايته عند الحجر الأسود، كلُّ واحدٍ يحاول الخروج من هناك، هو ميتٌ لا محالة. قال عمِّي لمحمود على التلفون: «بس أطلع أنا، وبشوف شو الوضع عند دوار البطيخة، وبحكي معك، وبقلك إذا بيفتشوا ولا لأ»، كانت ليلةً عصيبةً، لم يهدأ القصف فيها، ولم تهدأ الأفكار في رأسي، وفي رأس كلِّ شخصٍ كان في البيت أو في المخيَّم في تلك الليلة، التي كانت أطول ليلةٍ في حياتي. لم أكن قادرًا على التفكير، تهرب

الفكرة قبل أن تستقرَّ في رأسي، تعود لتحلَّ محلَّها صورة الدم قرب الجامع. قرب منتصف الليل، قالت أمِّي لي: «أنت تعبان، نام شوية»، امتثلت لقولها، واستلقيت على سريري، مع أنِّي أعرف سلفًا أنِّي غير قادرٍ على النوم، وإذا كنت قادرًا على فعل ذلك هربًا من أسئلة اللجوء المعذِّبة التي ليس لها إجابةٌ، فإنَّ القذائف التي تنهمر طيلة الوقت لن تجعلني أنام. استلقيت على سريري في الضوء الشحيح الآتي من الصالة، الذي تأتي معه أصوات الأحاديث المتداخلة لأمِّي وأخي وجدِّي وخالتي، التي أسمعها ولا أفهم مضمونها، غفوت على صوت الثرثرة لدقائق عدَّةٍ، سرعان ما انفجرت قذيفة لتذكِّرني أنَّ النوم ممنوعٌ في تلك الليلة.

في الصباح اليوم التالي، كان كلُّ شيءٍ جاهزًا لرحيلٍ قد يفشل في حال كانت الحواجز تفتِّش الخارجين. بعد اتصال عمِّي سعد، وإخبارنا أنَّه خرج من المخيَّم وأنَّ الطريق مفتوحةٌ والحواجز لا تُوقف ولا تُفتِّش أحدًا، تحرَّكنا محشورين في السيَّارة، أخي محمود إلى جانب محمد ابن خالتي الذي يقود السيَّارة، ونحن ستة محشورين في الكرسي الخلفي. عندما تحرَّكت السيَّارة باتجاه شارع اليرموك، كنت محشورًا إلى جانب الشباك، لم أكن قادرًا على التحرُّك بسهولةٍ. عند المفرق بين الشارع المؤدِّي إلى بيتنا وشارع اليرموك، نظرت إلى الزاوية الثانية من الشارع، لأرى لوحة المكتب التي تحمل اسم أبي، تنهَّدت، مرَرتُ نظري تحت اللوحة، كان نهر البشر يأتي من الحارات الضيِّقة ليصبَّ في الطريق المؤدِّية للخروج من المخيَّم، سيَّاراتٌ وشاحناتٌ تفيض بالبشر والأغراض، بشرٌ على درَّاجاتٍ آليَّةٍ درَّاجاتٍ عاديَّةٍ وعربات السوق ورجالٌ ونساء وأطفالٌ وشيوخٌ راجلين. يسير الكلُّ باتجاهٍ واحدٍ، التيه والحزن يعلو الوجوه كلَّها. بين الحين والآخر يختلط بكاء طفلٍ هنا مع عويل امرأةٍ هناك. كنت أتأمَّل الوجوه والمكان الذي لم أشعر أنَّه مكاني، فجأةً شعرت بحبٍّ جارفٍ اتجاهه وبأنِّي أفقد مكاني الذي أحبُّ، وإن كرهته فهو غير قادرٍ على كرهي. هذا المكان الذي حاولت أن أربِّي نفسي ضدَّه،

وجدت نفسي مشدودًا إليه بآلاف الروابط، التي لم أكن أنتبه لها. كما لم أكن مشدودًا إلى شيءٍ آخر في الحياة. لطالما عدَدتُ نفسي قادرًا على تحمُّل كلِّ الخسارات، لكن في هذه المرَّة شعرت أنِّي غير قادرٍ على تحمُّل هذه الخسارة. وقتها عرفت كم أنا متعلِّقٌ بالمكان الذي اعتقدت أنِّي أكرهه، وأصبحت أشعر أنَّه يشكِّلني ويشكِّل جزءًا أساسيًّا من هويتي العميقة كلَّما ابتعدت عنه أكثر، ولا شيء يعوِّضني عنه. إنَّه وطني أنا الذي وُلِدتُ لاجئًا فيه، لم أعرف أنَّ له هذه المكانة عندي سوى بعد خسارته. لم أكن وحدي من شعر بذلك، شاهدت ذلك في الكثير من الوجوه التي كان حزنها يقول إنَّ رحيلهم من المكان هو أكبر من قدرتهم على الاحتمال، لكنَّهم يرحلون منه هربًا من موتٍ محقَّق إذا ما بقوا فيه. هذا ما فسَّرَ لي التيه في نظرات الراحلين عن المخيَّم، ومنهم عرفت أنَّ من يحبُّ المكان يحمله معه، ويعيش فيه حتَّى لو اختفى عن الخريطة. وهذا ما جعلني مثل كثيرين، كلَّما زاد دمار المخيَّم زاد تعلُّقي به، وأن لا مكان في العالم يمكن أن يحلَّ محلَّه، إنَّه هويتي الشخصيَّة، أي أنَّه أكثر من وطنٍ. شعرت أنَّ الناس تسير خارجةً من جنَّتها إلى جحيم اللجوء، من مكانٍ احتضنهم وصنع حياتهم وصنعوه وحوَّلوه إلى مكانٍ يشبههم فأصبح هويتهم. الكثير من الأشياء لا نعرف قيمتها إلَّا بعد فقدانها. وفقد المخيَّم، مخيَّمي، مكاني الأثير، جعلني أشعر نفسي غريبًا بالمطلق هذه المرَّة، غريبًا في كلِّ مكانٍ على الأرض. كانت غربتي قبل ذلك معروفةٌ بمكانٍ صنعناه نحن الغرباء ليشبهنا، ولأنَّنا لن نستطيع صناعة مكانٍ غيره سنبقى متعلِّقين به طيلة حياتنا اللاحقة. كبرت معاني المخيَّم ونحن نغادره، وستكبر أكثر كلَّما ابتعدنا عنه أكثر. كان قدرنا أن ننتقل من غربةٍ إلى غربةٍ، من غربةٍ جزئيَّةٍ إلى غربةٍ مطلقةٍ، بدأت خطواتها عندما أصبحنا خارج المخيَّم. وعندما أصبحنا خارجه شعرت بالنجاة من جهةٍ، وشعرت باليتم من جهةٍ أخرى، الهرب من الموت إلى منفًى جديدٍ لا يمكن أن يكون دعوةً للاحتفال. بوجودنا خارج المخيَّم شعرنا

بالارتياح من أجل أخي محمود، وبالحزن لمغادرة المخيَّم. وعندما أصبحنا في الزاهرة، شرع محمود بالبكاء، سألته أمِّي: «بتبكي لإنُه طلعنا؟»، قال: «مو بس منشان هيك»، سألته أنا: «منشان إيش بتبكي؟»، قال: «منشان المصاري التي تركتهم مخبايين بالبيت»، قلت: «أنو مصاري؟»، قال: «اللي تركهم أبوك معي»، قلت: «إن شاء الله، هدلون اللي قلتلي تأكَّد إنهم محلهم، تحت جارور الخزانة، لما جبت قنينة الغاز؟!»، قال: «إي هدلون»، هو قال هذا الكلام، بدأنا أنا وأمِّي نضرب به من الخلف بكفوف أيدينا.

20

غادرنا المخيَّم إلى بلدة صحنايا، أي أنَّنا بقينا في مدينة دمشق، ولم ننتقل إلى مدينةٍ أخرى، ولم نبتعد عمليًّا سوى بضع كيلومتراتٍ معدودةٍ عن المخيَّم، لكنَّنا انتقلنا إلى عالمٍ آخر ليس عالمنا، وتحوَّلنا إلى بشرٍ آخرين، ولم نعد نحن الذين كنَّا نسكن المخيَّم قبل أيَّامٍ. في ساعاتٍ معدودةٍ، خسرنا مكاننا وتحوَّلنا إلى لاجئين فعليِّين في البلد التي وُلِدنا فيها لاجئين وفي مكانٍ مخصَّصٍ للاجئين أصلًا. ولأنَّنا لم نملك إمكانيَّةً لحياةٍ أخرى، أقنعنا أنفسنا أنَّ المخيَّم وطننا كغرباء لم نختره إنَّما وجدنا أنفسنا فيه، وطنٌ مؤقَّتٌ نظريًّا، لكنَّه وطنٌ نهائيٌّ فعليًّا، لم يقبلنا هذا الوطن تمامًا، رغم ذلك اخترعنا فيه حياةً تشبه العيش في الأوطان، أو اخترعنا فيه نحن الغرباء حياةً يتجاوز التعلُّق بها تعلُّق أصحاب المكان والمواطنين بأوطانهم. لذلك أصبحنا لاجئين على بعد كيلومتراتٍ عدَّةٍ، ونَحِنُّ إلى المخيَّم كوطنٍ مفقودٍ، وهو الوطن الذي حلَّ محلَّ الوطن الأصليِّ فلسطين. باللجوء الجديد أصبح سكَّان المخيَّم يحنُّون إلى مخيَّمهم البديل عن وطنهم، بوصفه وطنهم الأصيل الأهمُّ من البلاد. فجأةً نبت هذا الشعور داخليٌّ، ونحن نرتِّب أغراض الغياب عن المخيَّم في بيت اللجوء في صحنايا. خلال ساعاتٍ لم أعد ذلك الشخص الذي كنته في المخيَّم، أصبحت شخصًا آخر، غاضبًا من كلِّ شيءٍ، يرفض كلَّ شيءٍ، يريد أن يتشاجر مع الجميع، لم أعد أطيق نفسي، انتقال كيلومتراتٍ عدَّةٍ جعلني غريبًا عن كلِّ شيءٍ. وقتها فهمت شعور فاديا، وتفهَّمت رغبتها بعدم رؤيتي، وأعتقد أنَّ الشعور الذي أصابني في اقتلاعي من بيتي والذي زلزلني، لا بُدَّ أنَّه زلزلها أكثر منِّي، وهي المرأة الحسَّاسة، لذلك لم ترغب في رؤيتي، وهي في أشدِّ حالاتها ضعفًا، في تلك الأوقات فهمت كيف أنَّ لحظةً

من لحظات الحرب يمكنها قلب حياتنا رأسًا على عقبٍ، ولا نعود نحن أنفسنا الذين كنَّا قبل تلك اللحظات. بمعنى قد تسير الحياة طبيعيَّةً في الحرب لأعوامٍ ولا يكون هناك متغيِّرٌ كبيرٌ يُشعرنا بالزلزلة. عشنا في الصراع أكثر من عامٍ وتسعة أشهر، لم يكن هناك متغيِّرٌ مهمٌّ في حياتنا، مع أنَّ البلد انقلبت رأسًا على عقبٍ بفعل الاحتجاجات، وعندما هُجِّرنا من المخيَّم تمزَّقت حياتنا وبتنا بشرًا آخرين لا نعرف أنفسنا. عندما كنَّا في المخيَّم أقمنا علاقاتنا كأحرارٍ، مع اللجوء تغيَّر كلُّ شيءٍ. في صحنايا سكنَّا معًا نحن وبيت خالتي، كانت علاقاتنا جيِّدةً قبل ذلك وتحوَّلت مع التوتُّر والضيق إلى مشكلاتٍ مستمرَّةٍ. لم أُطِقِ العيش مع هذا الحشد من البشر، اقترحت على أمِّي مغادرة المكان واستئجار مكانٍ آخر، ويمكننا ذلك بالاعتماد على ما يرسله أبي من مالٍ. رفضت، بحجَّة أنَّ الوضع مؤقَّتٌ وسيتغيَّر سريعًا. لم أجد نفسي قادرًا على التقدُّم إلى الامتحانات الجامعيَّة التي جاءت بعد أيَّامٍ عدَّةٍ من خروجنا من المخيَّم. قالت أمِّي: «روح على امتحاناتك، يمكن تغيِّر جو»، قلت: «ما لي نفس لشي»، وتحت إلحاح أمِّي لإخراجي من المكان، تصفَّحت كتابي بلا رغبةٍ، واتصلت بفتحي صديق أبي الذي يسكن وسط دمشق، كما أوصاني أبي الذي اتصل به من القاهرة وأخبره بحاجتي. طلبت منه أن أنام عندهم في الليلة السابقة لليوم الذي يصادف يوم امتحان، لأنَّ الحواجز بين صحنايا ووسط دمشق كثيرةٌ، فإذا ذهبت صباحًا إلى الامتحانات لن أستطيع الوصول في وقت الامتحان. رحَّب الرجل بي، وكنت سعيدًا بزيارتهم وتعرُّفي عليهم عن قربٍ في اليومين اللذين قضيتهما عندهم. عندما ذهبت إلى الامتحان في اليوم التالي، ووصلت إلى القاعة، جلسنا جميعًا في أماكننا، وبدأ توزيع أوراق الامتحان، بعدها شرعنا في الإجابة على الأسئلة، بعد عشر دقائق من بدء الامتحان، دوى انفجار قذيفة هاون سقطت على بعد حوالي خمسمئة مترٍ من القاعة التي نمتحن فيها. بثَّ الانفجار الرعب بين الطلَّاب والطالبات اللواتي صرخن من المفاجأة. وقبل أن يهدأ رعبنا، سقطت قذيفة

ثانيةٌ أقرب، وتبعتها قذيفةٌ ثالثةٌ انفجرت خارج القاعة التي نجري الامتحان فيها. كان الصوت هائلًا هذه المرَّة، تحطَّمت النوافذ الزجاجيَّة بفعل الانفجار، دبَّت الفوضى بيننا، تركنا أوراق الامتحان وهربنا من القاعة محشورين في مدخلها، كلُّ واحدٍ يريد الهرب قبل غيره. خلال لحظاتٍ، لم يبقَ أحدٌ في القاعة، ولا في الجامعة كلِّها. اتصلت أمِّي وأخي وأنا في الطريق ليطمئنَّا عليَّ، لأنَّهم عرفا أنَّ قذائف هاون سقطت في الجامعة حيث كنت. طمأنتهما، وأخذت أذرع شوارع دمشق، وجدت حركتها طبيعيَّة في الأماكن البعيدة عن مكان القصف في الجامعة. كانت المرَّة الأولى التي أذهب فيها إلى وسط دمشق منذ خروجنا من المخيَّم. شعرت أنَّ المدينة المألوفة بالنسبة لي غريبةٌ عنِّي، وهي التي عرفت شوارعها بالتفصيل لأنَّها كانت الأحبَّ على قلبي وذرعتها مئات المرَّات، أحيانًا لوحدي أو مع أصدقائي، وأحيانًا مع حبيبتي. شعرت الأماكن ذاتها التي أعرفها عن ظهر قلبٍ باتت غريبةً، ولم أعرف تمامًا هل المدينة التي تغيَّرت بسبب الحرب، أم أنا الذي تغيَّرت بسبب اللجوء؟! حتَّى وجوه الناس في الشوارع ليست الوجوه ذاتها التي كانت قبل الحرب، ولم تكن تحمل الملامح والتعبيرات التي أراها على الوجوه المتعبة والتائهة في شوارع المدينة اليوم. هل هي متعبةٌ فعلًا أم أنا أعكس تعبي عليها؟ سألت نفسي، واستنكرت السؤال الغبيَّ الذي أطرحه. كلُّ الدم الذي سال، وكلُّ التهجير الذي جرى، وكلُّ الآلام التي تغطِّي البلد، وتسأل عن تعب الناس؟! قلت في نفسي معاتبًا نفسي على أنانيَّتي، التي لم ترَ سوى ألمي الشخصيَّ، وآلام الآخرين مجرَّد انعكاسٍ لألمي. مع أنَّ بينهم من يحمل آلامًا تجعل آلامي بالنسبة لهم مجرَّد تفاهةٍ. شعرت بالضيق في المدينة التي طالما شعرت فيها بالراحة. حتَّى أحسِّن مزاجي سرت باتجاه دمشق القديمة، وهي المكان الأثير لدي. كان السير على الأقدام في دمشق، أفضل ألف مرَّةٍ من ركوب حافلةٍ أو تكسي، لأنَّ مئات الحواجز العسكريَّة للتفتيش انتشرت داخل المدينة وحوَّلت تنقُّلات الناس إلى تعذيبٍ حقيقيٍّ.

المشي هو الوسيلة الوحيدة لتجنُّب الوقوف في طوابير السيَّارات التي تنتظر على مئات الحواجز التي تُقطِّع شوارع المدينة إلى مربَّعاتٍ أمنيَّةٍ صغيرةٍ. لم أشعر بتحسُّن مزاجي عندما وصلت إلى دمشق القديمة. وعندما جلست في مقهى النوفرة خلف الجامع الأمويِّ، وهو المكان المفضَّل لدي، لم أشعر بالراحة التي كنت أشعرها عندما أصل إلى هناك في الماضي، وأرى المكان المزدحم، الذي كنت على استعدادٍ لأن أنتظر على درجات الجامع ساعاتٍ ريثما يشغر مكانٌ لنا. تأمَّلت الكراسي القديمة في المقهى واللوحات القديمة التي تصوِّر عنترة والزير سالم وتدعم قصص الحكواتي الذي يروي قصصهم مساء. تأمَّلت كرسي الحكواتي الشاغر. رشفت قهوتي كغريبٍ في مدينةٍ غريبةٍ، يعرفها من الكتب كسائحٍ، لا كمَن عاش فيها حياته كلَّها، وأحبَّ أماكن وكَرِهَ أخرى، والأماكن التي أحبَّها تصبح غريبةً عليه. اجتاحتني رغبةٌ شديدةٌ بالبكاء، قمعتها بشدَّةٍ أكبر، قمعها حوَّلها إلى غصَّةٍ في صدري، توقَّفت عن شرب قهوتي في منتصفها، دفعت حسابي وخرجت من المقهى. مشيت بعكس الطريق التي أتيت منه قبل قليل، تأمَّلت هذه المرَّة وجوه الناس بفضولٍ، لأقرأ الألم الرهيب في عيون المارَّة، وهي التي أكَّدت لي للمرَّة الألف، أنَّ كلَّ صراعٍ دمويٍّ هو صراعٌ قذرٌ، وكلُّ حربٍ، هي حربٌ قذرةٌ، لا حروب نظيفةٌ، كلُّ الحروب قذرةٌ، وعندما سرت عائدًا بين الناس في شوارع دمشق المنكوبة رأيت الحرب في عيون المارَّة وفي وجوههم الشاحبة والحزينة، فالحرب ترسم معالمها على ملامح البشر المكويِّين بنارها. مشيت عائدًا إلى بيت العم فتحي، أردت توديعهم والعودة إلى صحنايا، أصرَّ العم فتحي أن أبقى معهم تلك الليلة طالما ألَّا شيء أفعله في صحنايا وحتَّى يخفِّف عنِّي الإحباط الذي أصابني جرَّاء فشل تقديمي الامتحان الذي جئت من أجله، لم يعرف أنَّ الإحباط سابقٌ على الامتحان، لكنِّي وافقت على البقاء.

كانت ليلةً سعيدةً، واستثناءً من حالتي الرهيبة، فبعد يومٍ طويلٍ وأنا أجوب شوارع دمشق المدجَّجة بالعسكر والحواجز والألم على الوجوه، والتي زادت حزني حزنًا وإحباطي إحباطًا. أمَّا في بيت العم فتحي، شعرت أنِّي في بيتي، وسرعان ما عقدت صداقةً قويَّةً معه ومع زوجته الطيِّبة بسمة ومع ابنته ديما التي تصغرني بعامين، وابنه ممدوح الذي يصغرني بأربع سنواتٍ. شعرت أنِّي أنتمي لهذه العائلة منذ زمنٍ بعيدٍ، أشعرني الجميع أنِّي واحدٌ منهم، وأنَّ البيت مفتوحٌ لي في أيِّ وقتٍ، بامتحاناتٍ ودونها. شكرت أبي بيني وبين نفسي على منحي هذه الفرصة وهو بعيدٌ، لم أعش تجربةً سعيدةً منذ خروجي من المخيَّم، ولم أقضِ وقتًا ممتعًا أحتاجه بشدَّةٍ، مثلما قضيت الوقت في بيت العم فتحي.

21

لم نصبح غرباء ولاجئين في صحنايا لأنَّنا تركنا بيوتنا في المخيَّم فحسب، بل أصبحنا لاجئين لأنَّنا عدنا لتجريب كلِّ القهر الذي وقع على آبائنا وأجدادنا أيضًا، منتظرين في طوابير أطول من تلك التي انتظروا فيها مساعدات الأونروا. وكلَّما وقفت في دورٍ للحصول على المساعدات، شعرت بالقهر يأكلني، ليس من الذي مورس عليَّ في هذه الحرب القذرة فحسب، بل الذي مورس على أهلي في السابق أيضًا. لعنت الحاجة، ومن تسبَّب بها، ومن تسبَّب بطرد أهلي من فلسطين، ومن تسبَّب بطردنا من المخيَّم. وسيتكرَّر قهر دور المساعدات في لبنان مرَّةً أخرى، عندما ننتقل إلى هناك هربًا من الحرب.

لم تطل الفترة التي قضيناها في صحنايا، ما أعاق خروجنا من البلد، أنَّ أخي محمود مطلوبٌ للجيش، الذي حاول طيلة الفترة اللاحقة على اندلاع الاحتجاجات تأجيل نفسه من الخدمة العسكريَّة دون نجاحٍ. وكان خوفه وخوفنا جميعًا، لا سيَّما أبي، أن يتمَّ سوقه إلى الخدمة العسكريَّة من أحد الحواجز، وعندها ستكون الخيارات قاسيةً، أن يطلق النار على الناس أو أن ينشقَّ. طبعًا، قرَّر أخي الانشقاق عن الجيش سلفًا في حال سوقه إلى الجيش، وأن يلتحق أو لا يلتحق بالجيش الحرِّ هذه مسألة يحكمها الظرف، أمَّا مسألة الانشقاق عن الجيش في حال اعتقاله على أحد الحواجز، فكانت بالنسبة له مسألةً محسومةً. خاف من الحواجز، وكلَّما صادف أحدها شعر أنَّه في طريقه للاعتقال، لم يعتقله أيٌّ منها، إنَّما اعتقلته دوريَّة الأمن العسكريِّ في المخيَّم، التي نصبت له مسؤولها فخًّا عندما سافر أبي إلى القاهرة في المرَّة الأولى، قبل أن يعود إليها نهائيًّا بعد أشهرٍ. وقتها استغلَّ

المساعد المسؤول عن دوريَّة الأمن العسكريِّ غياب أبي واتصل ببيت جدِّي يسأل عن أبي المسافر في القاهرة، ردَّت عمَّتي وداد على الهاتف، وعندما عرفت أنَّ الأمن يسأل عن أبي، اتصلت بأخي محمود وأخبرته باسم الرجل الذي يسأل عن أبي وأعطته رقم هاتفه. اعتقد أخي أنَّ السؤال يخصُّ أبي، فذهب إلى مقابلة الرجل، ليفهم وضع أبي الأمنيَّ، إذا كان مطلوبًا حتَّى يخبره ألَّا يعود من مصر. عندما وصل إلى موقع الرجل، سأله عن اسمه، وعندما قال اسمه، سرعان ما أمرَ الرجل الدوريَّة باعتقاله لأنَّه متخلِّفٌ عن سوق الجيش. استطاع أخي أن يتصل بأصدقاء أبي الذين استشارهم بما يفعل بشأن سؤال الأمن عن أبي. فقالوا له اذهب وقابل الرجل، وإذا حصل شيءٌ اتصل بنا. وعندما اتصل بهم، حضروا إلى المكان على وجه السرعة، فاوضوا الرجل مفاوضاتٍ صعبةً، حتَّى قَبِلَ ترك أخي، دون أن يسوقه إلى الجيش. نجا أخي بصعوبةٍ، بعدها زاد خوفه من الحواجز العسكريَّة. عندما عاد أبي من القاهرة، زاره مسؤول الدوريَّة في المكتب، وطلب منه تسليم محمود للسوق للجيش. ضحك أبي وقال: «أكيد بتمزح. ليش لما مسكتوه ما أخذتوه على الجيش؟»، بعد مفاوضاتٍ، رشاه أبي ببعض المال، واتفق معه ألَّا يقترب من محمود في المخيَّم وهي منطقة صفِّ الضابط المذكور، وقال: «ما دخلني، إذا مسكوه برَّة المخيَّم»، قال أبي: «برَّة المخيَّم إنت ما دخلك، بس إذا أنت مسكتُه، بصير إلنا كلام تاني»، مشت الصفقة على هذا الأساس، ولم يعد الرجل للبحث عن أخي بعدها. ولم تعد دوريَّة المخيَّم موجودةً والمخيَّم ذاته ذهب مع الريح، وأصبحنا لاجئين في مكانٍ آخر. بعد الخروج من المخيَّم زادت المحاولات من أجل الخلاص من هذا الرعب، بتأجيل أخي عن الجنديَّة عبر الرشوة. وتمكَّن أخي أخيرًا من العثور على امرأةٍ قامت بالمهمَّة مقابل المال، وبعد إنجاز المهمَّة التي لم تُقلِق أخي وحده، بل أقلقتنا جميعًا، أصبح أخي حرًّا وقادرًا على التحرُّك إلى خارج البلد، في الوقت الذي تدهور وضع البلد الأمنيِّ بسرعةٍ.

اتخذ أبي القرار بخروجنا إلى لبنان فورًا. رتَّبنا أوضاعنا بسرعةٍ، وجرى التفاوض مع بيت جدِّي على من يرغب في المغادرة إلى لبنان ومن يريد البقاء في دمشق، وكُلِّفتُ بالذهاب قبل الجميع من أجل ترتيب الأوضاع هناك والحصول على منزلٍ. اختلفت شراكتنا في لبنان عنها في صحنايا، وكان شركاؤنا في المنزل عائلة خالةٍ أخرى إضافةً إلى جدِّي وجدَّتي وخالي وخالتي. بعد بحثٍ مضنٍ وجدت شقَّةً تناسب إمكانيَّاتنا الماديَّة في حيِّ الزينة في محيط مدينة صيدا. وبعد أيَّامٍ وصل الجميع لنبدأ الدوران في حلقةٍ مفرغةٍ من البحث عن مخرجٍ غير موجودٍ أصلًا. صحيحٌ أنَّ الوضع في صيدا آمنٌ أكثر من الوضع في دمشق المشتعلة، لكنَّ الغلاء فيها فاحشٌ، والمال يتبخَّر بسرعةٍ وإمكانيَّاتنا الماديَّة متواضعةٌ، رغم أنَّ أبي رفع المبلغ الذي يرسله لنا من القاهرة، والمساعدات التي نحصل عليها من الأونروا وغيرها. حاولت أنا وأخي إيجاد عملٍ ما في لبنان، بحثنا في كلِّ مكانٍ دون جدوى، وحاول أصدقاء أبي في لبنان مساعدتنا في ذلك، كانت الأوضاع في غاية الصعوبة. رغم ذلك استطاع أحد أصدقاء أبي أن يؤمِّن لي عملًا لأربعة أيَّامٍ كمترجمٍ فوريٍّ مع وفدٍ من الأونروا يريد الاطلاع على أوضاع المخيَّمات الفلسطينيَّة في لبنان، وهو العمل الوحيد الذي استطعت الحصول عليه، بعد انتهائه عدت للبحث عن عملٍ دون جدوى. كان الانتقال من دمشق إلى صيدا، انتقالًا من جحيمٍ إلى آخر. هناك شيءٌ مكسورٌ فينا كلُّنا، ولا سيَّما فيّ، لم أستطع ترميمه. أدركت أنَّ حياتنا السابقة تحطَّمت، وبسبب تحطُّمها أصبحت في غاية الأهميَّة، لأنَّ المستقبل مظلمٌ للغاية، أو بالأصح تحطُّم حياتنا السابقة حطَّم معه مستقبلنا، لأنَّ البلد الذي يمكن أن نبني فيه مستقبلنا قد تحطَّم أيضًا، وإذا كان البلد بلا مستقبلٍ، فكيف يكون لنا نحن الغرباء فيه مستقبلٌ؟! زاد حزني في صيدًا، وشعرت باليأس والشلل، أصبحت شخصًا لا فائدة منه مرميٌّ بين عشرات آلاف اللاجئين في بلدٍ لا يطيقهم، بلا مستقبلٍ ولا قدرةٍ على العودة إلى عالمي القديم. بات العالم ضيِّقًا جدًّا،

وانخفضت السماء على الأرض لدرجةٍ خنقتني. لا نقطة نورٍ في النفق المظلم الذي أعبره، حاولت البحث عن معنًى يساعدني على الاستمرار في العيش، لم أجد شيئًا يذكر، كلُّ شيءٍ تبخَّر، كلُّ الجهود التي بذلتها في دراستي تبخَّرت. عندما اقترحت عليَّ أمِّي أن أعود إلى دمشق لأتقدَّم لامتحانات الفصل الثاني من العام الدراسيِّ لعلَّ ذلك يغيِّر من مزاجي. لم أرَ ذلك مناسبًا، فلا معنى للعودة للامتحان والدراسة، فإن كان لا معنى للحياة ذاتها، فتفصيلٌ مثل الدراسة يتحوَّل إلى عقابٍ حقيقيٍّ. حاول أبي أن يصنع فرقًا بأن اتصل مع أخي، وطلب منه أن يحتفل معي بعيد ميلادي بعيدًا عن الأجواء في المنزل، وأن يدعوني للاحتفال خارج المنزل. لبَّيت الدعوة التي حاول أخي بكلِّ السبل إخراجي ممَّا أنا فيه، كنت أشعر بصخرةٍ هائلةٍ تقبع على صدري لا تريد أن تتحرَّك. بقي الوضع على حاله، حتَّى جاء اقتراح أبي الذي صنع فرقًا.

22

فجأةً دون سابق إنذارٍ، قال أبي: «ضبُّوا شناتيكم، وتعالوا على مصر، ما عاد في خيار، طريق التهريب على أوروبا مفتوح، ويمكن بعد شوي يسكِّر. مصر بعدها بتفوِّت الفلسطينية عائلات، ما في وقت. ارجعوا على الشام إنتو وإمكو، عشان تجوا لهون»، كانت تبليغًا لقرارٍ غير قابلٍ للنقاش. فاجأنا الاقتراح، لم نملك ردًّا عليه، وتساءلنا كيف نفعل ذلك، اقترح أخي محمود أن أذهب أنا أوَّلًا، لنرى هل سينجح الموضوع أم لا. إذا نجح يلحق بي. وأنا اقترحت العكس، أن يذهب هو إذا نجح الأمر ألحق به، وأكون قد أنهيت دراستي، التي لم يبقَ لي فيها سوى فصلين. وجدت أمِّي في الفكرة حلًّا جذريًّا، حتَّى لا نبقى نتخبَّط في أوحال الأزمة في سورية، بهذا الخيار نخرج من المعادلة نهائيًّا لأنَّنا نصبح خارجها. عندما أبلغت أبي باقتراحي أن يذهب أخي وأنا أنتظر حتَّى أتخرج من الجامعة ردَّ غاضبًا: «شو أعمل بشهادتك إذا أنت صرلك شي؟!»، وكان أخي قد أخبره شيئًا مشابهًا، وجاء ردُّه علينا، كلٌّ على حدةٍ: «إنتو الاثنين، رح تمشوا المشوار خطوة خطوة مع بعض، ما بدِّي يجي يوم حدا منكم يقول عملت هيك مع أخوي وما عملتُه معي. إنتو الاثنين عندي مثل بعض، ولازم تاخدوا الفرصة نفسها، وما بدي بعد هيك أندم على شي. الوضع خرا وإنتو أدرى بالوضع»، قدَّمنا اقتراحاتنا لعلَّ ذلك يخفِّف الكلفة الماليَّة، فنحن لا نملك المال الكافي لإنجاز المهمَّة، عندما قلت له ذلك، قال: «مين قال المصاري مشكلتكم، هاي مشكلتي، وأنا بحلها»، لم يترك لنا أيَّ فرصةٍ لرفض القرار، فقد كان هو صاحب المال وبذلك صاحب القرار. كان لقراره هذا أسبابٌ عدَّةً، طبعًا أوَّلها اللجوء هو حلٌّ نهائيٌّ لوضعنا القلق، ومن جهةٍ أخرى، خوفه من خسارة عمله، بعد

الانقلاب على الثورة الذي جرى في مصر، وبذلك لا يستطيع مساعدتنا بعدها، لذلك كان عليه أن يجد حلًّا جذريًّا للمشكلة، قبل أن نتحوَّل إلى مشكلةٍ غير قابلةٍ للحلِّ بالنسبة له، لا مجالٍ للجدل، بات علينا تنفيذ الأمر.

عدنا إلى دمشق لأنَّها طريقنا الوحيد إلى القاهرة، التي جرى فيها الانقلاب على الثورة قبل أن نسافر إلى القاهرة بحوالي شهرين، ومع هذا الانقلاب استعجل أبي قدومنا، فقد كان من الواضح أنَّ الإجراءات القادمة ستعود لتمنع الفلسطينيِّين من الدخول إلى مصر. بعنا سيَّارة أبي بموجب الوكالة التي مع أخي، استخرجنا الأوراق التي ستلزمنا لإثبات ما نريد إثباته في الدولة التي سنلجأ إليها، ومنها بيانٌ عائليٌّ. لنتفاجأ وفق البيان العائليِّ، أنَّ أبي قد تزوَّج، فقد احتوى البيان العائليُّ على اسم ناديا زوجته الجديدة. لم يصدِّق أخي محمود عينيه بعد استخراجه البيان العائليَّ من مؤسَّسة اللاجئين. عندما مدَّ لي البيان العائليَّ وقال: «شوف»، وأشار إلى خانة الزوجة فيه، لم أصدِّق ما أرى، نظرت له وقلت: «إيمتى وكيف؟»، قلب شفتيه وقال: «ما بعرف!»، كان عليه أن يعطي الأوراق إلى أمِّي حتَّى تحفظها مع الأوراق الأخرى. أعطى الأوراق لأمِّي وهمَّ في الخروج، نظرت أمِّي إلى الأوراق، نادته وهي منفعلةٌ، وقالت: «شو هذا؟»، وأشارت إلى خانة الزوجة. قال: «شوفة عينك»، قبل أن يكمل كلامه، صفعته أمِّي على وجهه بقوَّةٍ. دُهِشَ أخي ودُهِشتُ من هذا السلوك الغريب من أمِّي. لم أفهم، ولم يفهم أخي المدهوش ردَّة فعلها، فأبي قد انفصل عنها رسميًّا قبل أكثر من خمس سنواتٍ، ومن المتوقَّع أن يُقدِمَ على هذه الخطوة منذ زمنٍ. ولم يكن أخي من تزوَّج دون أن تعلم حتَّى تصفعه، تعاملت مع الأمر كأنَّها ما تزال زوجته وخدعها وتزوَّج عليها، ولأنَّه غائبٌ ليس أمامها، لم تجد سوى أخي الذي يدافع عنه حتَّى تصفعه، لأنَّه أخفى الموضوع عنها. وأضافت: «أنا مش مسافرة معكم»، قال أخي بانفعالٍ بعد الصفعة: «لطيزي، لا تسافري، خرا على السفرة كلها. عوفتينا الله. هو بتجوَّز، بيطلق، بموت، بنتحر، هو

حر، هاي حياتُه وهو حر فيها، إنت شو دخل ربك، إنت ما عدتي مرتُه، إنتو مطلَّقين من سنين طويلة. ولا نسيتي»، خرج أخي من الغرفة وصفق الباب خلفه، وخرج من البيت كلِّه. رفض أمِّي السفر معنا يعني أنَّنا لن نسافر أنا وأخي، لأنَّ شرط الدخول إلى مصر هو أن نكون عائلةً، كانت السلطات المصريَّة تعيد الشباب العزَّاب من مطار القاهرة. بدت أمِّي جادَّةً بعدم السفر معنا، وهذا ما عدَّته يعطِّل مشروع أبي، وهي التي سعت دائمًا لتعطيل مشاريعه، حتَّى لو تعلَّق هذا التعطيل بحياتنا. نسيت الحرب والظروف الرديئة التي نعيش فيها، ولم تفكِّر سوى بخلافها القديم مع أبي، كأنَّه لم يُحسَم من سنين، وعدَّت تعطيل السفر انتقامًا منه، وليس منَّا. لم يكن هذا التصرُّف محمولًا ولا مقبولًا منها، فهي تغلق علينا فرصة نجاةٍ حقيقيَّةً قد لا يكون هناك غيرها، لكنَّها لم ترَ سوى أنانيَّتها وروحها الانتقاميَّة، حتَّى لو كنَّا نحن من سيدفع الثمن وليس أبي. حينها، عرفنا من أبي أنَّه تزوَّج بعد مغادرته دمشق، وأنَّ زوجته التي كانت تقيم معه في القاهرة غادرت مع رحلات البحر ورست رحلتها الأخيرة في السويد. وأنَّه قد أخفى عنَّا الأمر، ليس لأنَّه يخاف أو يخجل ممَّا فعل، فهو يحبُّ زوجته كما لم يحبَّ امرأةً من قبل، ويفخر بها ويقدِّرها ويقدِّر شجاعتها وبسالتها لخوضها رحلةً مرعبةً، سبعة أيَّامٍ في قارب صيدٍ مهترئٍ ومكتظٍّ، من الإسكندرية إلى ايطاليا، ومن إيطاليا إلى السويد برًّا. هو فعل ذلك، لأنَّه خطَّط أن نذهب نحن إلى القاهرة ونعيش معه، ولم يُرِد أن يكون هناك سببٌ يجعلنا نرفض الذهاب إلى هناك. هذه المرَّة، لم أستطع السكوت عن تصرُّف أمِّي. انتظرت إلى اليوم التالي حتَّى هدأت. سألتها: «شو بدك؟ ما نسافر، هذا بناسبك؟»، قالت: «أنا ماني مانعتكم من السفر، سافرو زي ما بدكوا»، قلت: «أنت بتعرفي، إنُه ما فينا نسافر بدونك»، قالت: «هاي مشكلتكم»، قلت: «شوفي، رح أحكي اللي عندي. كأنك في الدنيا ما في مشكلة في العالم غير مشكلتك مع أبوي، اللي مفترض خلصت من خمس

سنين بعد الطلاق. على كل حال هاي المرة، إنت ما عبتنتقمي منُه، إنت عبتنتقمي منا إحنا ولادك، مش بس ولادُه، عملتيها قبل هيك وعاقبتيه فينا، لكن هذه المرة مش مثل كل مرة. يبدو أنت مش عارفة إنُه الدنيا حرب والبلد مدمر، وإحنا عنا فرصة نهرب، وإنت بتعطليها علينا. كل اللي عملتيه معاي بالسنين الماضية سامحتك عليه، لأنك كنت بتمري بأزمة. بس هاي المرة، ما رح أسامحك طول عمري. ومش إحنا لحالنا رح ندفع الثمن. أنتِ رح تدفعيه قبلنا. إذا ما سافرنا، ما رح يبقى شي زي ما هو»، قالت: «شو يعني بتهددني؟!»، قلت: «احسبيها زي ما بدك، ما رح أوقف مع حدا بدُه يدمرني، حتى لو كان هذا الواحد أمي»، قالت: «أنا بدي أدمركم؟!»، قلت: «سبق وعملتيها، وما في داعي أذكرك. بس اليوم، البلد مدمر ودخلنا بمطحنة دموية. إجتنا فرصة نطلع منها، وأنتِ بتضيعي الفرصة. وإنتِ بتعرفي إذا ضاعت هاي الفرصة، يمكن ما يكون غيرها. بس تعطيلك إلها، ما رح يخلي أبوي اللي بتعرفيه يوقف معنا ومعاكي. وبعد هيك إحنا ما عاد بدنا نوقف مع حدا بيسعى يدمرنا»، أخذت تبكي وتقول: «أنا بضيع الفرصة عليكوا؟ هذا الحكي بتحكي بعد كل اللي عملتُه منشانكوا»، مع بكائها فقدت أعصابي، قلت: «شو اللي عملتي غير المصايب، خلصيني من فكرة إنت ضحية، قصتك إنت وأبوي مثل ملايين القصص، ما حدا عمللها إيدين ورجلين مثل ما عملتيلها إنت. ولا تعتقدي بعد هذا الفصل رح يظل أبوي يساعدنا. لنشوف من وين بدنا ناكل ووين بدنا نسكن. ولأشوف شو بدها تعمل مساعدة الأونروا. وأنا بعد هيك ما رح أوقف معك شو ما صار يصير، اللي ما بوقف معي، ماني مجبور وقف معُه»، خرجت من الغرفة عند بيت خالتي من صحنايا وصفقت الباب خلفي وغادرت البيت. كنت أبلغها ما أريد، وأنا أعرف عنادها الشديد، لذلك، لم أتوقَّع أن تغيِّر رأيها الذي طالما تمسَّكت به خلال فترة ما بعد انفصالها عن أبي، مهما كان هذا الرأي خاطئًا أو مؤذيًا. شعرت أمِّي أنَّ الخسارة هذه المرَّة ستكون كبيرةً،

شعرت أنِّي جدِّيٌ فيما قلت، وأنَّ الموقف مفصليٌّ في حياتنا، وأخي لا يقلُّ عنِّي جديَّةً. وما كان يمكن احتماله قبل الحرب في البلد، ليس من الممكن احتماله بعد الكارثة التي نعيشها. ويبدو كلامي نبَّهها إلى ما هو غائبٌ عنها، أنَّنا مع الخروج من المخيَّم، بات اعتمادنا الكليُّ، وعليه فإنَّ اعتمادها هي أيضًا، على أبي، أيُّ قرارٍ من أبي بوقف المساعدات سيحوِّل حياتنا إلى كارثةٍ، فهي صعبةٌ مع هذه المساعدات، دونها ستنحدر حياتنا إلى القاع مباشرةً. أمِّي مستفيدةٌ مباشرةً من مساعدات أبي، صحيحٌ نحن نغطِّي هذه المساعدات، بمعنى أنَّه من الناحية الشكليَّة، أبي يساعد أولاده، ولكن في الحقيقة هي مستفيدةٌ رئيسيَّةٌ من هذه المساعدة ومحسوبةٌ ضمنها. وعرفت حينها إذا نفَّذنا تهديدنا وقاطعناها بعد تنفيذ ما تهدِّد به ستجد نفسها بلا معينٍ، وانكشاف الغطاء عنها لن يجعل أبي يساعدها وحدها بعد أن تتسبَّبت بكارثةٍ لنا. حسبتها من الجهات جميعها، وجدت نفسها أكبر الخاسرين، عندها عدَّلت رأيها وأذعنت ووافقت على السفر. حجزنا رحلة دمشق-القاهرة على الخطوط الجويَّة السوريَّة. ودَّعنا الجميع في دمشق وذهبنا إلى المطار، وصلنا إلى المطار وقمنا بإجراءات الخروج بكلِّ سلاسةٍ، وخُتِمَت وثائق سفرنا، لكنَّ الطائرة التي يُفترض أن تقلع الساعة الواحدة باتجاه القاهرة، تأخَّر إقلاعها كما أعلنت ميكرفونات المطار ولم نعرف سبب التأخير. خلال انتظارنا في المطار سمعنا صوت انفجاراتٍ، بعضها قريبٌ وبعضها بعيدٌ. عندما رنَّ الهاتف المحمول لأخي محمود، كان المتصل رفيق أحد أصدقاء أبي، قال: «حدد موقعك، وين صرتوا؟»، قال محمود: «بعدنا بالمطار»، قال: «يلعن دينك، مو على أساس تكونوا بالقاهرة؟!»، قال محمود: «على أساس هيك، بس الطيَّارة تأخرت بالإقلاع»، قال مرتبكًا: «خلص، روحوا اركبوا الطيارة»، قال محمود: «رفيق، شو في؟ شو بكيفنا نطلع على الطيارة؟ في شي؟»، قال: «ما في شي. بعدين بتعرف»، ليس من عادة رفيق أن يتكلَّم بهذه الطريقة إلَّا إذا كان هناك حدثٌ جللٌ. حاولت

أنا ومحمود أن نجد تفسيراً لهذه المكالمة، لكننا عجزنا عن إيجاد سببٍ مقنعٍ لما قاله، ومن المستحيل أن يتصل رفيق ليزعجنا دون سببٍ وجيهٍ ومقنعٍ. تركنا التفكير في الموضوع، عندما نادت إذاعة المطار طالبةً من المسافرين التوجُّه إلى الطائرة المغادرة إلى القاهرة.

نظرت من الطائرة مليًّا إلى الأرض التي تقع بالقرب من مطار دمشق الذي غادرنا منه، لأنِّي شعرت أنَّ هذه النظرة قد تكون الأخيرة للبلد. لم أكن أعرف وأنا أنظر النظرة الأخيرة إلى أرض دمشق أنِّي أنظر إلى مكانٍ يشهد في وقت مغادرتنا ذاته جريمةً وحشيَّةً في غاية البشاعة. بعد وصولنا إلى مطار القاهرة اتصل أبي، وكان متوتِّرًا جدًّا، وعندما قلنا له إنَّنا أصبحنا في مطار القاهرة، زفر زفرة الراحة التي جاءت واضحةً في صوته، وهو يقول بتعبٍ شديدٍ: «الحمد لله على سلامتكم»، اعتقدنا أنَّها الكلمة التقليديَّة التي تقال في مثل هكذا مناسباتٍ. عندما وصلنا إلى البيت عند أبي، أخذنا بالأحضان بقوَّةٍ غير عاديَّةٍ. وهناك، فهمنا قلق أبي واتصال صديقه رفيق ونحن ننتظر في مطار دمشق. ففي الوقت الذي كنَّا فيه ننتظر الطائرة في مطار دمشق الذي يقع في الغوطة الشرقيَّة، أطلقت قوَّات النظام المتمركزة في منطقة القلمون وسط سورية ستة عشر صاروخًا يحمل موادًا كيميائيَّةً باتجاه الغوطة الشرقيَّة، سقطت في بلدات زملكا وعين ترما وكفر بطنا وعربين في الغوطة الشرقيَّة ومدينة المعضميَّة في الغوطة الغربيَّة، وقُتِلَ جرَّاء هذا القصف حوالي ألفٌ وخمسمئة شخصٍ أغلبهم من الأطفال، وأصيب أكثر من سبعة آلافٍ آخرين. خاف أبي وصديقه علينا عندما تسرَّبت أخبار القصف وعرفا أنَّه قصفٌ بالأسلحة الكيميائيَّة على الغوطة وعلى المناطق القريبة من المطار. عرف أبي ذلك متأخِّرًا، وعندما حاول الاتصال بنا، كانت طائرتنا قد أقلعت من مطار دمشق، دون أن نعرف أيَّ شيءٍ عن الجريمة التي وقعت على بعد كيلومتراتٍ عدَّةً منَّا. لم يفرح أبي بنا مثلما أراد أن يفرح بسبب المذبحة التي جرت في الغوطة الشرقيَّة عندما كنَّا هناك، وكان

من الممكن أن نكون من ضحاياها المحتملين، وفي ظلِّ حظر التجوُّل الذي فرضه قادة الانقلاب على ثورة 25 يناير على مصر. رغم ذلك، فرح بنجاتنا من المذبحة ومن البلد، هذا الهدف الذي عمل عليه طيلة الأشهر التالية لوصوله إلى القاهرة تحقَّق. نعم، أصبحنا خارج البلد، وكان هذا في غاية الأهميَّة بالنسبة له. إنَّها النجاة، وفي ظلِّ الشروط التي حصلت فيها، طرحت علينا مشكلةً جديدةً، لم تكن مطروحة قبلها، ماذا عن عودة أمِّي إلى دمشق، المدينة التي قُصِفَت بالسلاح الكيميائيِّ في أثناء قدومنا قبل أيَّامٍ؟

عندما وصلنا إلى القاهرة، كان الوضع متوتِّرًا بين أبي وأمِّي، والتي عدَّت أنَّ ما عرفته من زواج أبي قبل سفرنا من دمشق يعيد قصَّة خلافهما إلى بدايتها، وكأنَّهما لم ينفصلا قبل سنوات. لم يهمَّنا أنا ومحمود هذا الوضع المتوتِّر، إلَّا بقدر تأثيره على مصير أمِّي، الذي ناقشناه معًا واتفقنا أنَّ من الخطأ أن تعود إلى دمشق في هذه الظروف المستجدة، وأقترح محمود أن نقترح على أبي أن تسافر أمِّي معنا في رحلة البحر، لن نتركها تعود إلى بلدٍ يُقصَفُ سكَّانه بالسلاح الكيميائيِّ. لم نكن نملك الكثير من الوقت، لأنَّنا قد نسافر في أيِّ لحظةٍ، وفق ما يقرِّر المهرِّب، لذلك لم نتأخَّر في طرح الفكرة على أبي، وقد خفنا أن يرفض أيَّ تعاونٍ مع هذا الاقتراح بفعل الخلاف القديم بينهما والذي تسبَّب له بجروحٍ ما زالت نازفةً، وكنَّا نفكِّر بالحجج التي سنسوقها من أجل إقناعه بهذا الحلِّ. كنَّا مخطئين، لم نحتَج لأيٍّ من هذه الحجج، فعندما عرضنا عليه الفكرة، وافق فورًا وتعهَّد بتأمين المبلغ الذي يغطِّي تكاليف سفرها، وبالفعل خلال أيَّامٍ، أسهم خالي بجزءٍ من المبلغ، وتدبَّر أبي الجزء الباقي، وبتنا جاهزين جميعًا لمغامرة التهريب. لم نبقَ طويلًا في القاهرة، ستة أيَّامٍ، وفي اليوم السابع كنَّا متجهين إلى الإسكندرية، لنقطع البحر إلى الضفَّة الأخرى، وننجو من الحرب التي تركناها وراءنا.

لم يُرِد أبي أن يتعامل مع سماسرة التهريب، وبات على معرفةٍ جيِّدةٍ بوضع التهريب من الإسكندرية إلى إيطاليا، فقد افتتح اللاجئون الفلسطينيُّون والسوريُّون الذين لجأوا إلى مصر بعد انطلاق الاحتجاجات في سورية خطَّ تهريبٍ قبل أشهرٍ من قدومنا إلى مصر، ومرَّ عبر هذا الخطِّ آلاف اللاجئين قبلنا، ومرَّ منهم الكثيرين قبلنا وبعدنا على أبي الذي استضافهم وساعدهم في العثور على الطريق إلى قارَّة الخلاص، هناك من نجح في هذه الرحلات وهناك من فشل.

في الطريق إلى الإسكندرية، فكَّرت في سوء الحظِّ الذي يرافقني طيلة الوقت، وخوفي من الفشل، جعلني أقول لأبي قبل مجيئنا من لبنان، أن يتركني أكمل السنة الباقية لي في الجامعة، وأن يذهب أخي في هذه الرحلة، وبعد تخرُّجي ألحق به. لم يكن ذلك من أجل التخرُّج جديًّا بقدر ما كان من خوفي من فشل الرحلة. وقد عاد لي هذا الشعور مرَّةً أخرى، ونحن نركب الميكروباص باتجاه الإسكندرية. كانت أمِّي على عكسي متفائلةً، ولم ترَ أنَّ الذين أقدموا على الرحلة رغم مخاطرها أفضل وأشجع منَّا، ونحن نستطيع عبورها، مثلما عبرها الآلاف قبلنا. كانت ثقتها بنجاح الرحلة مذهلًا، وتمنَّيت أن أصاب بعدوى ثقتها لأخفِّف من تشاؤمي. كان أخي محمود وسطًا بيني وبين أمِّي، وعدَّ أنَّنا لسنا سيِّئي الحظِّ، وأنَّ النجاح والفشل لا يعتمد على قدراتنا، المسألة مرتبطةٌ بغيرنا، ونحن سنحصد جهد آخرين، هم الذين سينجحون أو يفشلون، ونحن نتأثَّر بنتيجة عملهم.

عندما وصلنا إلى الإسكندرية، أنزلنا المهرِّب بشقَّةٍ قريبةٍ من البحر مع عائلتين، صادف أنَّ إحداهما من المخيَّم، في منطقةٍ لم نستطع التعرُّف عليها أو تذكُّرها فيما بعد، كنَّا قلقين على نجاح الرحلة فلم ننتبه لشيءٍ في الأماكن التي عبرناها. وكان الرجل يأتي لنا بالطعام كلَّ يومين، وأحيانًا ننزل من الشقَّة التي تقع في الطابق الثالث في شارعٍ فرعيٍّ، نتمشَّى قليلًا وسرعان ما نعود، لأنَّ الرحلة يمكن أن تنطلق في أيِّ وقتٍ. ونحن في القاهرة وقبل

الانطلاق إلى الإسكندرية، جهَّزنا الأغراض التي سنأخذها معنا في رحلة البحر في حقائب الظهر. والشيء الوحيد الذي اشتريناه من هناك هو سترات الإنقاذ من الغرق، التي سنلبسها عندما نصعد إلى القارب المتهالك الذي ينتظرنا في عرض البحر والذي سيحملنا إلى إيطاليا. كلُّ يومٍ من وجودنا في الإسكندرية يأتينا خبرٌ أو اتصالٌ من المهرِّب أو أحد رجاله ليقول لنا كونوا على استعدادٍ الرحلة اليوم، وفي المساء يعود للقول الرحلة تأجَّلت. منذ اليوم الثاني لوجودنا هناك، بدأنا نشعر بالملل، ولم نعد نصدق وعود المهرِّب، الذي يقول تجهَّزوا للرحلة مرَّتين في اليوم على الأقل، ويعود ليقول إنَّها تأجَّلت، ما يصيبنا بالإحباط. في اليوم الرابع من الانتظار، قال الشاب العشرينيُّ من العائلة الثانية التي تسكن معنا الشقَّة: «هذا المهرب مش نافع، خلينا نشوف غيرُه. شكلُه بكذب علينا»، قال محمود له: «إحنا ما بنعرف مهرب ثاني، أنت بتعرف مهرب غيرُه؟» قال الشاب: «بعرف رقم مهرب ابن حرام، وكلمتُه ما بتصير تنتين، مش مثل هذا الكذاب»، قال محمود: «اتصل فيُه ما بنخسر شي، إذا في مجال بنطلع معُه بدل ما نستنا»، أخرج الشاب رقم هاتفٍ محمولٍ مكتوبًا على ورقةٍ، وبدأ بكتابة الرقم على الهاتف المحمول، بعد أن سجَّل الشاب الرقم، قال محمود له: «أشوف هذا الرقم»، وفجأةً شرع محمود بالضحك، وكان له قدرةٌ كبيرةٌ على حفظ الأرقام، أخذ يضحك ويشير إلى الورقة وينظر إليَّ، قال لي وهو غارق في الضحك: «احزر هذا رقم مين؟» قلت وأنا مستغربٌ من ضحك محمود: «رقم مين؟»، قال: «والله يا خيا، المهرب ابن الحرام، طلع أبوك. هذا رقم أبوك»، وسرعان ما غرقت معه في الضحك، أمام دهشة الشاب الذي لم يعرف ماذا يفعل؟ أخذ محمود الهاتف من الشاب، وتحدَّث مع أبي، على أساس أنَّنا اتصلنا فيه من رقم الشاب على سبيل التجريب، لم نخبره أنَّ الشاب اعتقد أنَّه مهرِّبٌ كبيرٌ. وقد كانت هذه السمعة قد سبقت أبي عند البعض، فبعضٌ من أصدقائه أعطوا رقمه إلى أقاربهم ومعارفهم ليساعدهم

في الوصول إلى المهرِّب، ويدلَّهم على أسهل وأسرع طريقةٍ، اعتقدوا أنَّه هو المهرِّب، وحاولوا أن يساوموه على السعر. فشل صديقنا الشاب في العثور على مهرِّبٍ آخر، ما اضطرنا للانتظار مع المهرِّب ذاته. بعد ثلاثة أيَّامٍ ووعودٍ متشابهةٍ وكاذبةٍ. اتصل المهرِّب، وأحضر ميكروباص ليقلَّنا إلى المكان الذي سنركب منه. كان الوقت ظهرًا على عكس ما توقَّعنا أنَّنا سنذهب بهذه الرحلة ليلًا. سارت بنا الحافلة إلى بلدةٍ بجوار الإسكندرية، اسمها بلطيم. وهناك عند شاطئ سباحةٍ يعجُّ بالروَّاد أنزلنا الميكروباص في انتظار القوارب. كنَّا حوالي عشرين شخصًا بين رجالٍ ونساء وأطفالٍ، وكنَّا جميعًا نحمل حقائب الظهر ونلبس ستراتٍ سميكةً مع أنَّ الجوَّ حارٌّ في أب / أغسطس، كان أيُّ عابر سبيلٍ سيرى وضعنا مريبًا على هذا النحو، بين من يسبحون في حرِّ الصيف. بعد حوالي ساعةٍ من الانتظار، لاح قاربٌ صغيرٌ بالقرب من الشاطئ. قال المهرِّب: «اركضوا»، ركضنا باتجاه القارب الذي ينتظرنا على بعد حوالي خمسين مترًا داخل الماء. كنت على بعد أقلَّ من عشرة أمتارٍ من المركب، عندما سمعت إطلاق النار وهناك من يصرخ: «عندك»، قبل أن أصل إلى القارب، التفَّ الذي يقود المركب وقاده مسرعًا إلى داخل البحر. نظرت إلى الخلف، كان رجال الشرطة يركضون خلفنا، وأخي الذي لم يتعافَ كسر رجله تمامًا، يجلس على الرمل بالقرب من الماء وأمِّي تصرخ على رجال الشرطة المصريَّة الذين شرعوا باعتقالنا. وقعنا في قبضة الشرطة وفشلنا في عبور البحر. عندما جمعونا ونحن ننتظر مجيء السيَّارات لتحملنا إلى مكان الاحتجاز. سألت الضابط المصري الشابَّ الذي أبدى تعاطفه معنا: «أنت ليش مسكتنا، وبدك تحبسنا؟»، قال الضابط: «أنا بحميكم من الموت يا فندم»، ابتسمت ابتسامةً ساخرةً، وقلت: «بتحكي جد. إحنا هربانين من الموت، وإنت لما بتمنعنا نكمل رحلتنا، وبتقول إنَّك بتحمينا من الموت، إنت هلأ بدك ترجعنا على البلد، يعني بدك ترجعنا على الموت اللي هربنا منه، وهيك أنت بتكون أنقذتنا من موت محتمل، حتى تبعثنا على موت أكيد»،

ارتبك الضابط الشاب، وأخذ يشيح بوجهه عنِّي مصدومًا بما سمع منِّي، وكأنَّه فعلًا لم يكن يعرف مصيرنا الذي قادنا إليه بما فعله من أداء واجبه لينقذنا من الموت، إنَّها الحياة في أكثر حالتها سخريةً، أداء الواجب، عندما لا يكون من نؤدي الواجب اتجاههم يحتاجون هذا الواجب، بل على العكس إنَّه يضرُّهم في تلك اللحظة.

تحطَّم الحلم، وبدل أن نجد أنفسنا على الجانب الشماليِّ من البحر المتوسط، وجدنا أنفسنا نتكوَّم كعائلاتٍ محطَّمة في سجن بلطيم في الإسكندرية في مصر المحروسة. وهناك على الشاطئ الجنوبيِّ للبحر المتوسط كانت الشرطة المصريَّة تحطِّم أحلام اللاجئين السوريِّين والفلسطينيِّين السوريِّين في الوصول إلى شاطئ البحر الآخر. آلاف اللاجئين نجوا في قوارب الموت، ووصلوا إلى الجانب الآخر شاقِّين طريقًا آخر في بلادٍ أخرى، أمَّا نحن فجلسنا في السجن نحسد الذين نجحوا في الفرار من الشرطة، ونندب حظَّنا العاثر، وننتظر ترحيلنا من البلد، الذي لم يمنعنا من تحقيق حلمنا فحسب، بل ولا يريدنا على أرضه أيضًا.

لا أحد يريدنا، كلُّ شيءٍ عثرةٌ في طريقنا، النجاة ممنوعةٌ علينا، كابوس الإبعاد إلى دمشق هو العودة إلى مكانٍ بلا مستقبلٍ، مهدَّدين فيه بالقتل عن طريق قناصٍّ يتسلَّى بقتل البشر، أو بقذيفةٍ طائشةٍ. شعرت أنِّي تسبَّبت بهذا الفشل لأنِّي توقَّعته منذ البداية، وحاولت تجنُّب المجيء. كانت أيَّام السجن قاسيةً، ليس لصعوبة السجن وقذارته وازدحامه، بل لأنَّها الأيَّام التي تحطَّم فيها حلم الخلاص، وهي حال جميع من دخل ذلك السجن، ما عدا الأطفال الذين لم يدركوا ما يجري حولهم. غرقت في أحزاني وفقدت الأشياء معناها، كان الفشل هذه المرَّة بطعم العلقم. شعرت أنَّ حياتي تقودني من فشلٍ إلى فشلٍ، مرَّةً فشلٌ بفعل تصرُّفاتي ومرَّةً فشلٌ بفعل ظروفٍ خارجةٍ عن إرادتي. استنجدنا بكلِّ الهيئات الدوليَّة، لعلَّنا نجد من يعمل على حمايتنا من مصيرنا القادم، واستنجدنا بسفارات دولٍ تعدُّ حاميةً

لحقوق الإنسان، لم يجدِ كلُّ هذا الجهد نفعًا، ولم يتحرَّك أحدٌ لإنقاذ لاجئين، قُبِضَ عليهم وهم يحاولون الفرار في قوارب الموت، لا جريمة لهم، سوى أنَّهم حلموا بالنجاة، التي كانت تحتاج إلى قطع الحدود بطريقةٍ غير شرعيَّةٍ، وهذا حوَّلهم إلى مجرمين وأودعوا في السجن. لو كانوا يملكون وسيلةً شرعيَّةً، لما احتاجوا المغامرة بحياتهم في زوارق متداعيةً للوصول لهذه النجاة. لم تجدِ جهودنا وجهود أبي وأصدقاؤه وجميع أهالي وأقارب المعتقلين الآخرين استجابةً لتغيير المصير المحتوم بالترحيل من مصر، وكان الشيء المتواضع الذي حصلنا عليه هو الإبعاد إلى بيروت بدلًا من دمشق.

23

بعد رحلة الهرب الفاشلة من مصر إلى أوروبا، وجدت نفسي في البيت ذاته في مدينة صيدا من جديدٍ، وهو البيت الذي غادرناه قبل عشرين يومًا مغادرةً دون عودةٍ. عندما وجدت نفسي مع خالتي وعائلتها وبيت جدِّي، شعرت بقهرٍ أكبر من ذلك الذي شعرت به عندما اعتقلتنا الشرطة المصريَّة وأفشلت رحلتنا. أن أعود إلى العالم الظالم الذي ودَّعته من أجل رحلة نجاةٍ لا عودة منها هو القهر بذاته. عدت للسؤال العبثيِّ، ما الذي أفعله هنا؟ لم أستطع فعل شيءٍ يذكر في لبنان في المرَّة الأولى، وكنت متأكِّدًا أنِّي لن أستطيع فعل شيءٍ في المرَّة الثانية، والفشل في رحلة الهرب كوى روحي، ولم أُطِق شيئًا، وتحوَّلت إلى شخصٍ عصبيٍّ يغضب من أيِّ شيءٍ. شعر أبي بحجم الخيبة التي أصابتنا جميعًا، وعرف أنِّي الأكثر تأثُّرًا بهذا الوضع، اعتذر منِّي، لأنَّه تسبَّب لي بهذه التجربة القاسية، وكرَّر ألَّا خيار آخر أمامنا، ولا هربٌ من الموت الذي يجتاح سورية، سوى ركوب الموت إلى الجهة الأخرى من العالم، لم يبقَ أمامنا سوى الحلول الفرديَّة. صحيحٌ أنَّها حلول المهزومين، لكنَّها حلولٌ تحفظ للمهزومين الحدَّ الأدنى من كرامتهم، وهي أفضل من أن يُهان المهزومون يوميًّا ويدفعون ثمن هزيمتهم المرَّة بعد المرَّة إلى الأبد. لم أكن بوارد سماع أيِّ كلامٍ، وأيِّ تفسيرٍ للحالة العبثيَّة القاسية التي نعيشها. طلب أبي من أخي محمود محاولة إخراجي من الحالة النفسيَّة الرديئة التي أعيشها. وقد حاول ذلك بكلِّ السبل، لأنَّه قلق عليَّ، صحيحٌ أنَّه أصيب بالخيبة مثلي، لكنَّ خيبته لم تكن بالحدَّة التي أصابتني. امتلك الأمل في أنَّنا سنخرج من الحالة التي نمرُّ بها، وقال: «أنا واثق إنُه أبوي ما رح يتركنا، وإحنا بالآخر رح نقدر نعمل شي»، لم أعرف إذا كانت هذه قناعته

الحقيقيَّة، أم قال ذلك ليُخرجني من الحالة التي كنت أعيشها. لكنَّ شيئًا من هذا لم يحدث، مرَّت الأيَّام ثقيلةً مملَّةً، وأنا أزداد ضجرًا وعدم يقينٍ من أيِّ شيءٍ، كما أنَّ المال الذي جمعه أبي من أجل تهريبنا إلى أوروبا، والذي أرسله معنا إلى لبنان، لعلَّ فرصةً تظهر في الأفق تنطلق من لبنان، أخذ بالنفاذ بسرعةٍ، كلُّ يومٍ ينقص وكلُّ شهرٍ يتبخَّر جزءٌ أساسيٌّ منه. اقتنعت بعبثيَّة البقاء في لبنان، والعودة إلى دمشق في ظلِّ المجزرة القائمة هناك ليست أقلَّ عبثيَّةً. كلُّ هذا لم يلغِ السؤال الذي طرحته على نفسي، ماذا أستطيع أن أفعل في ظلِّ هذا الجنون؟ شعرت نفسي حشرةً لا معنى لها، أيُّ قدمٍ عابرة تستطيع سحقها. لم يمرَّ عليَّ وقتٌ بثقل الوقت الذي مرَّ عليَّ في هذه الفترة من حياتي. لم أنجح في فعل أيِّ شيءٍ، يبحث أبي لنا عن طريقٍ عبر القاهرة، ونحن نبحث عن طريقٍ لنا من لبنان، دون أن نجد أيَّ منفذٍ للنجاة. عندما أخبرني أخي محمود أنَّ صديقه عمر قد سافر من مطار بيروت إلى ليبيا، ليحاول الذهاب من هناك عبر رحلة تهريبٍ، لم أبالِ، وقال عندما ينجح عمر في رحلته، نقترح ذلك على أبي. وعندما تحدَّثت مع أبي على الهاتف، قلت له ما قاله محمود. مباشرةً قال: «أعطيني أخوك أحكي معُه»، أعطيت الهاتف لأخي محمود، سأله أبي عن التفاصيل، قال له أبي أن يتَّفق فورًا مع الجماعة على سفرنا إلى ليبيا. قال أخي: «يمكن يكونوا نصَّابين، ويروحوا علينا المصاري»، قال أبي: «حتَّى لو كان هيك، على الأقل بنكسب شرف المحاولة»، قال أخي: «عنَّا مشكلة ثانية»، قال أبي: «شو؟»، قال أخي: «المصاري ما بكفُّونا كلنا»، قال أبي: «بعرف، بس إذا ظليتوا عندكو، ما رح يظل مصاري تكفي حدا»، قال أخي: «شو يعني؟»، قال أبي: «بتروح أنت وأخوك»، قال أخي: «وإمِّي؟»، قال أبي: «بننتظر شوي لنشوف شو بصير معكو»، قال أخي: «إحنا ما بنترك إمِّي»، قال أبي: «ليش إنتو شو عبتعملوا لإمكو عندكو»، قال أخي: «وإمِّي شو بتعمل؟!»، قال أبي: «إمكو عندي لحد ما تدبروا حالكو»، حاول أخي مرَّةً ثانيةً أن يقنع أبي بأن يسافر

أحدنا ويبقى الآخر. قال أبي بحسمٍ وجزمٍ: «رجلك على رجل أخوك بكل خطوة»، أغلق أخي الهاتف المحمول. نظر إليَّ وقال: «أبوك قرَّر نروح على طريق ليبيا، يعني رح نلحق عمر».

أصابني قرار أبي بمشاعر مختلطةٍ، اشتعل الخوف من الفشل مرَّةً أخرى، ماذا لو فشلنا هذه المرَّة؟ هل أتحمَّل هذا النوع من المغامرات من جديدٍ؟ شعرت أنِّي سأتحطَّم إذا فشلنا، وهو ما زاد من منسوب خوفي ورفعه إلى السماء. من جانبٍ آخر، شعرت أنَّ هذا القرار هو الوحيد الذي يمكنه إخراجي من حالة الدمار الذاتيِّ التي دخلت فيها. لن أستطيع بقواي الذاتيَّة أن أخرج من الحالة التي أمرُّ فيها، وليس هناك سوى تحدٍ كبيرٍ مثل هذا الذي اقترحه أبي يجعلني أخرج من الحالة، على الأقل خلال الرحلة ما بين مغادرة بيروت وفشل المحاولة من جديدٍ. فجأةً، خفت ماذا لو لم تتعدَ المغامرة الفكرة، وتبقى محصورةً في فكرةٍ حمقاء تتبخَّر في سماء صيدا. خفت على الفكرة التي كسرت روتيني الأسود الذي أعيشه منذ عدنا من مصر. سرعان ما انشغلنا بالاتصالات، وإعداد الحقائب من جديدٍ لرحلةٍ جديدةٍ عن طريق مكانٍ جديدٍ، اشتعلت فيه الثورة قبل أن تشتعل في سورية، واستطاعت هذه البلد الإطاحة بدكتاتورها معمَّر القذافي بمساعدة الدول الغربيَّة عسكريًّا، هذه المساعدة التي لم تحظَ بها الثورة السوريَّة. لكنَّ الإطاحة بالدكتاتور لم تصنع السلام في البلد الذي انقسم إلى ميليشياتٍ مسلَّحةٍ، كلٌّ منها تسيطر على منطقةٍ جغرافيَّةٍ. وهذا ما جعل البلد ممرًّا لتهريب اللاجئين بعد التشديد على المهرِّبين في مصر وإغلاق أراضيها في وجه القادمين من سورية. حسبنا كلَّ الحسابات ونسَّقناها مع أبي، وبات كلُّ شيءٍ جاهزًا، بعد أن اتفقنا مع الرجل في ليبيا وأرسل لنا بطاقات الطائرة، التي كانت عبارةً عن ورقةٍ، لم نقتنع أنَّها يمكن أن تدخلنا إلى الطائرة المغادرة. مجرَّد أسماء وأرقامٍ مكتوبةٍ على ورقةٍ، لم يكن أمامنا سوى التصديق، والتعامل مع هذه الورقة التافهة بوصفها ليست بطاقة طائرةٍ

فحسب، بل وبطاقة نجاةٍ أيضًا. في صباح يوم المغادرة، تفقَّدنا أغراضنا ووثائق سفرنا التي لا تصلح لإدخالنا إلى أيِّ مكانٍ في العالم، لعلَّها تدخلنا هذه المرَّة إلى مكانٍ يكون فيه خلاصنا من حالةٍ ورثناها عن أهلنا دون إرادتنا. في ذلك الصباح الأخير لنا في صيدا، وقبل أن نودِّع أمِّي وأهلها وخالتي. أخذنا من أمِّي المال المخصَّص للرحلة، لنكتشف قبل مغادرتنا أنَّه أقلُّ ممَّا كانت تقول، وبذلك لن يكفي ليوصلنا إلى نهاية الرحلة كما هو مخطَّطٌ، ولم نملك الوقت ولا الجرأة لنخبر أبي بالخلل الذي وقع حتَّى يتدارك الوضع، لأنَّ علينا المغادرة فورًا. عندما سأل أخي محمود: «شو هذا؟ هذا المبلغ ناقص»، قالت أمِّي: «بعرف»، قال أخي: «وين الباقي؟»، قالت: «ديَّنتهم لخالك»، قلت أنا «شو؟ ليش عملتي هيك؟»، قالت: «هذا اللي صار»، سألتها: «وليش ما قلتيلنا؟»، قالت: «ما بعرف»، نظرت إلى محمود، الذي نظر إليَّ بدوره نظرة استغرابٍ، وكانت نظرة تواطؤٍ أيضًا، لا فائدة من الشجار مع أمِّي في لحظة الوداع، فهي غير مناسبةٍ على الإطلاق، كنَّا مدهوشين من سلوكها، ودهشتنا كانت أكبر لأنَّها أخفت عنَّا هذا التصرُّف الذي يمكن تداركه.

24

هوى قلبي في اللحظة التي أقلعت الطائرة من مدرج مطار رفيق الحريري في بيروت. احتلَّني خوفٌ رهيبٌ، ليس من أخطار الرحلة، إنَّما من فشلٍ جديدٍ، سيكون أقسى عليَّ من أيِّ رحلةٍ. لم أحتمل هذه الفكرة، وكلَّما خطرت ببالي أحاول التخلُّص منها، فيزداد إلحاحها عليَّ، لدرجةٍ اعتقدت أنَّ الرحلة ستفشل بسبب المخاوف التي تعتريني، وتكون نبوءةٌ سوداء تحقَّق ذاتها وتعيدنا إلى المربَّع الأوَّل، ولم أكن أستطيع العودة إلى ذلك المربَّع، الموت أهون من ذلك، ولن أعود إلى الإذلال الذي شهدته في مصر. هبطت الطائرة في طرابلس على مدرجٍ ظهر كأنَّه مدرجٌ في الفراغ، لا مباني للمطار، ولا موظَّفين، رجالٌ مسلَّحون لم نعرف صفتهم، هل هم جيشٌ، أم موظَّفون، أم ميليشيا؟ عندما نزلنا من الطائرة، جاء شابٌّ في مطلع الثلاثينات، يرتدي بدلةً عسكريَّةً ويضع نظارةً شمسيَّةً يمشي بتباهٍ. نادى على أسمائنا وأسماء عائلةٍ أخرى. أشار إلينا أن نتبعه، تبعناه إلى سيَّارة دفعٍ رباعيٍّ تقف على مقربةٍ من بناءٍ اخترقته العديد من الطلقات بفعل اشتباكٍ سابقٍ، وينتشر حول البناء مجموعةٌ من الشباب المسلَّحين الذين يرتدون اللباس العسكريَّ. أشار الشاب إلينا بالصعود إلى السيَّارة ولم يركب معنا. قاد بنا السائق الليبيُّ الأسمر النحيف، بعيونه الناعسة السيَّارة خارجًا من المطار. كان السائق يتحدَّث بلسانٍ ثقيلٍ، ظهر كثملٍ أو متعاطٍ للحشيش. رغم ذلك كان متعاطفًا معنا، وعندما سألنا لماذا أتينا إلى ليبيا؟ أجبناه، أتينا من أجل العمل، ابتسم ابتسامةً ساخرةً، وأخرج سيجارةً من علبة السجائر، أشعلها، وعندما أشعلها تأكَّدت من سبب كلامه الثقيل، بمجرَّد إشعاله السيجارة انتشرت رائحة الحشيش في السيَّارة. بعد خروجها من المطار، سارت السيَّارة

في طريقٍ صحراويٍّ، شعرت أنَّه طريقٌ لا ينتهي. لم يرغب الشابُّ في إحراجنا بالقول إنَّه يعرف لماذا نحن في ليبيا، وأنَّه يعمل مع عصابات تهريب البشر، ولا داعي للكذب عليه. لم يفعل ذلك. قال إنَّ من حقِّنا أن نخفي سبب قدومنا إلى ليبيا، لكنَّه يعرف السبب، ولا يحتاج أن نقول له، لأنَّه ببساطةٍ الذي يريد البحث عن عملٍ لا يترك طرابلس ليبحث عنه في زوارة، ولا أحد يأتي إلى ليبيا للبحث عن عملٍ سوى المقاتلين، وشكلنا يقول نحن لسنا مقاتلين. ليبيا «مافيهاش شغل غير الحرب»، كما قال. لم يرغب الرجل في أن نكون مخدوعين، وشعر من واجبه تحذيرنا، لأنَّ المهربين يكذبون على زبائنهم بتصوير الوضع على غير حقيقته. لذلك قال: «ما تصدقوا، إنكم تروحوا أوروبا بسفينة ويخت. ترَ تروحوا بشختورة تلفانة»، وعندما مررنا بجانب البحر، أشار إلى زورقٍ أكله الصدأ يرسو على الشاطئ المكشوف من الطريق الذي تسير عليه السيَّارة، وقال: «رح تركبوا مثل هاي»، شرح بقدرٍ ما يستطيع الصورة الواقعيَّة للتهريب في ليبيا، حتَّى لا يخدعنا أحد. ولم يكن يعرف أنَّ ما يقوله، ليس جديدًا علينا، فنحن اختبرنا هذا العالم السفليَّ في مصر قبل أن نأتي إلى ليبيا. لم نكن بحاجةٍ لشرح الرجل، وجدت نفسي أشكره، ليس على معلوماته التي أعرفها من قبل، لكن من أجل تضامنه معنا. مع هذا الرجل الذي كاد يغيب عن الوعي وهو يقود السيَّارة فينا على الطرق الليبيَّة الطويلة، عرفت أنَّ الحرب مهما كانت قاسيةً، لا تستطيع أن تخرِّب كلَّ شيءٍ، فهناك الكثير من الناس الأنقياء في عالم الحرب القذر، يحافظون على نقائهم، حتَّى لو كان ذلك ضدَّ مصلحتهم، حتَّى لو كانوا يعملون مع عصابات العالم السفليِّ لتهريب البشر. كنَّا قادمين من بلدٍ تعيش حربًا تشبه حربهم، مع فارقٍ بسيطٍ، أنَّهم أطاحوا بالديكتاتور ويتصارعون على سلطة البلد، أمَّا في المكان الذي جئنا منه، بقي الديكتاتور يسفك دم رعاياه دون ردِّ فعلٍ ضدَّه من العالم، سوى الكلام الفارغ الذي تقوله الدول الكبرى، كلامٌ دون فعلٍ.

بعد رحلةٍ شاقَّةٍ استغرقت حوالي عشر ساعاتٍ وصلنا إلى المكان المحدَّد. وقفت السيَّارة أمام حاجزٍ يحرسه مسلَّحون، وإلى جانبهم سيَّارةٌ عسكريَّةٌ تحمل مدفعًا مضادًّا للطيران. عندما قال لهم السائق أنَّ الركَّاب الذين معه مرسلين من الأمير، وهذا كان لقبًا للرجل الذي أرسلنا من المطار، قال شابٌّ ثلاثينيٌّ بلحيةٍ، يبدو أنَّه يدير الحاجز، الأمانة وصلت، وطلب من السائق إنزالنا ومغادرة المكان. نزلنا من السيَّارة وأنزلنا أغراضنا. غمز الرجل ذاته شابًّا آخر، وقال هذا الأخير: «يلا، وراي»، سرنا خلفه وبعد أن تجاوزنا الحاجز توجَّهنا نحو بيوتٍ متقاربةٍ عدَّةً، ليست بعيدةً عن البحر، لكنَّها ليست شاليهات في منطقةٍ سياحيَّةٍ، بل منطقةٌ سكنيَّةٌ أو هكذا كانت فيما سبق. استطعت رؤية البحر عندما اقتربنا من البيوت، هي ليست ملاصقةً للبحر تمامًا، وفي الوقت ذاته ليست بعيدةً عنه، يمكن الوصول إليه خلال خمس دقائق مشيًا على الأقدام. كانت المظاهر المسلَّحة في ليبيا تبعث على الرعب، وهي مظاهر لم نرها في مصر، لم يحمل المهرِّبون السلاح في مصر، على الأقل علنًا. في ليبيا كنَّا في قلب مجموعةٍ من الشباب المدجَّجين بالسلاح، كلُّ واحدٍ منهم يحمل بندقيَّةً روسيَّةً على الأقل مع مخازن للطلقات في جعبٍ معلَّقةٍ على الصدر، تجوَّل هؤلاء حولنا بملامح بالغوا في جديَّتها. عندما وصلنا، وجدنا في المكان أكثر من أربعمئة شخصٍ بين رجلٍ وامرأةٍ وطفلٍ ينتظرون دورهم في عبور البحر إلى الشاطئ الآخر. توزَّع المنتظرون على حوالي عشرين بيتًا، وعندما وصلنا عرفنا أنَّ بعض الذين كانوا مسجونين معنا في مصر، سبقونا إلى ليبيا من أجل محاولةٍ جديدةٍ. وبعضٌ آخر منهم لحق بنا في فترة انتظارنا هناك. بثَّ وجود المسلَّحين بسلوكهم العدوانيِّ الرعب بين منتظري الرحلة، والأسوأ، أنَّهم اعتدوا بالضرب على كلِّ من حاول الاحتجاج على سلوكهم. وتمنَّيت أنا وأخي ألَّا يحدث هذا لأيٍّ منَّا، لن نستطيع السكوت في حال تعرُّض الآخر للضرب، وعندها لن نعرف إلى أين ستصل الأمور. وعندما جمعنا أحد المسلَّحين،

وطلب من الجميع الجلوس، تأخَّر أخي محمود بالجلوس، أعاقته آلام الركبة التي استمرَّت معه بسبب إزالة الجبس المبكر عنها حتَّى يستطيع الخروج من المخيَّم في تلك الليلة اللعينة. عندها قال المسلح لمحمود: «ما بتعرف تقعد بسرعة، إجي أعلمك كيف تعمل هيك؟!»، طبعًا كانت اللغة التهديديَّة واضحةً. لم أحتمل أن يتكلَّم بهذه اللهجة مع محمود، فقلت: «جرِّب لنشوف مين بدو يعلِّم الثاني»، تفاجأ المسلَّح بالردِّ، وقال بلغةٍ ساخرةٍ: «وأنت مين بتكون؟!» لم أجب. قال علي صديقنا في الرحلة: «هذا أخوه»، قال المسلَّح: «آه، رح مرقها هاي المرَّة»، هممت بالردِّ عليه، شدَّ علي على يدي وهمس: «مرقها ما بدنا مشاكل»، هدأت من أجل علي، لكنِّي أصبحت أكثر توتُّرًا، وأصبحنا أنا وأخي أكثر حذرًا، حتَّى نتجنَّب أيَّ صدامٍ بيننا وبين المهرِّبين، والذي ستكون خسارتنا نتيجته المحتومة. كلَّما طال انتظارنا، زاد خوفي من الفشل، ليس بفعلٍ خارجٍ عن إرادتنا كما جرى في الإسكندرية، عندما اعتقلتنا الشرطة المصريَّة هناك. هذه المرَّة خفت من الاصطدام مع المهرِّبين بسبب جلافتهم، ويمكن أن يصل الصدام معهم إلى حدِّ قتلنا أنا وأخي في مكانٍ لا يعرف أحدٌ عنه شيئًا، أو يطردنا المهرِّبون لنجد أنفسنا مرَّةً أخرى نبحث عن طريقٍ جديدٍ، غير قادرين على اجتيازه، لأنَّ كلَّ مدَّخراتنا قد تبخَّرت. قرَّرت الضغط على أعصابي، رغم الانتظار الطويل الذي يضغط بدوره علينا بقوَّةٍ، لم نملك خيارًا سوى تمرير هذه الفترة الصعبة بهدوءٍ. وأخي الذي لا يقلُّ عنِّي توتُّرًا عمل على تهدئتي. كانت الوعود الكاذبة نفسها التي سمعناها في الإسكندرية، جهِّزوا حالكم اليوم الطلعة، وكل مرَّةٍ يكون الكلام كاذبًا.

في ليلةٍ باردةٍ من ليالي أواخر آذار، أيقظنا المسلَّحون بعد منتصف الليل، وطلبوا منَّا تجهيز أنفسنا. نقلونا سريعًا على دفعاتٍ إلى شاطئ البحر، نظَّمونا على شكلٍ صفوفٍ، ومن وصل باكرًا انتظر الآخرين حتَّى يتجمَّعوا، وكنَّا أنا وأخي في منتصف الصفوف. زاد الخوف من برودة الليلة التي

ستحدِّد مصيرنا، وقلقنا من الانتظار الطويل جعلنا نشعر أنَّنا نكاد نتجمَّد من البرد، رغم ألبستنا السميكة. ساد الصمت بيننا على نحوٍ غريبٍ، في الوقت الذي زاد المسلَّحون الصراخ علينا، وبكى الأطفال لأنَّ أهاليهم أيقظوهم من نومهم من أجل رحلة الموت هذه. جلست امرأةٌ مع ثلاثة أطفال أكبرهم في العاشرة إلى جوارنا في الصفِّ الذي نجلس فيه أنا ومحمود، ضمَّت أولادها والتصقت بي لتخفِّف من رعبها، كانت ليلةً بلا قمر، فلم أميِّز ملامح المرأة إلى جواري، وكنت متأكِّدًا أنَّها ليست من المجموعات التي سكنت قربنا خلال فترة الانتظار، وكنَّا نشاهدها. شرعت المرأة في بكاءٍ مكتومٍ حتَّى لا يشعر به من حولها. رغم خوفي من فشلٍ جديدٍ، قلت لأهدئها: «ما تخافي، كلها كم ساعة، وبنخلص من هذا العذاب»، قالت من بين دموعها: «خايفة على الولاد»، سألتها: «من وين أنت؟»، قالت: «من حمص»، قلت: «ما تشغلي بالك»، التفتُّ إلى محمود على جانبي الآخر، الذي كان يستمع إلى حديثنا، وسألته: «محمود، فيك تحمل معك ولد صغير؟»، قال: «أكيد، هاي ما بدها سؤال خيَّا»، قلت للمرأة: «أنا اسمي صادق، وهذا أخوي محمود، إحنا فلسطينية من مخيَّم اليرموك. بدنا نساعدك إذا بتحبِّي، بقدر أحملك ولد، وأخوي بحملك ولد، وبظل معك ولد»، قالت وفي صوتها تردُّد واضحٌ: «أنا اسمي فاتن. والله بكون ممنونتك، يكثر خيركو، أنا مش عارفة كيف بدي أطلع بالبحر؟»، قلت: «لا تشغلي بالك، إحنا إخوات»، اتفقنا على أن تحمل هي طفلها الصغير الذي لم يتجاوز السنتين، ويحمل محمود الطفلة التي تبلغ حوالي ست سنوات، وأنا أحمل الطفل الكبير الذي يبلغ العاشرة. إذا كنَّا نحن سنبتلُّ بالماء مضطرين، لكنَّنا قادرين على تجنيب الأطفال هذه التجربة القاسية في ذلك اليوم البارد. قلت لمحمود: «لما بنركض بالمي بتركض قدامي ما بدي أضوعك»، قال: «تمام» عندما أمرَّ المسلَّح صفَّنا بالتحرُّك إلى القوارب الصغيرة، ناولت البنت التي شرعت في البكاء إلى أخي محمود، وكان بكاؤها

دليلي في الركض وراء محمود. وحملت الولد الكبير وركضت خلف محمود، وعندما لامست أقدامي الماء، شعرت بتيارٍ من الجليد يجتاح جلدي من قدمي إلى أعلى رأسي، ركضت خلف محمود حوالي خمسين مترًا في الماء، وصل الماء فيها حتَّى خاصرتي، كنت أرفع الطفل عاليًا على كتفي حتَّى لا يبتلَّ وأتبع محمود أمامي، وعندما وصلنا إلى القارب الصغير، لم يكن محمود قادرًا على القفز إلى القارب بسبب ألم رجله الفظيع جرَّاء خوضه في الماء البارد. وضعت الطفل الذي أحمله في القارب، وكان محمود بدوره قد وضع الطفلة التي يحملها في القارب الصغير أيضًا. لا أعرف من أين جاءتني القوَّة، التي جعلتني أرفع محمود المتمسِّك بطرف القارب وأرميه فيه، تسلَّقت القارب وراءه. عندما امتلأ الزورق الصغير بالبشر، قاده الشاب الذي يعمل عليه بسرعةٍ باتجاه القارب الكبير الذي يبعد حوالي خمس كيلومتراتٍ عن الشاطئ. عندما تحرَّك القارب ورغم الضجيج القويِّ الذي يصدره المحرِّك القديم، صرخت بكلِّ قوَّتي: «فاتن»، ناديت على أمِّ الأولاد لكنِّي لم أسمع إجابةً منها، فعرفت أنَّها لم تستطع الصعود إلى الزورق. قلت لمحمود: «أم الأطفال ما قدرت تطلع على الزورق»، قال بصوتٍ حزين: «بعرف»، ليس هناك ما يقال، أنصتنا إلى صوت المحرِّك الصاخب وبكاء الأطفال وإلى اصطكاك أسناننا من البرد الذي يأتي من ثيابنا المبلَّلة. صمتنا ونحن نفكِّر بمصير الأطفال وما الذي سنفعله بهم. بعد صمتٍ طويلٍ قال محمود صارخًا حتَّى أسمعه وبصوتٍ أعلى من صوت محرِّك الزورق: «رح نأخذهم معنا»، قلت: «عين العقل»، لم نكن بحاجةٍ لأكثر من هذه الكلمات حتَّى نحسم خيارنا بشأن أطفالٍ لا ذنب لهم، لا بحربٍ قذرةٍ وقعت في بلادهم، ولا برحلة موتٍ هم وقودها، لتهرب بهم أمُّهم من موتٍ يتربَّص بهم في بلدهم. كان الخيار الوحيد السليم أمامنا، فلا يمكن التفكير بإعادتهم مع الزورق الذي نركبه إلى حتفهم، لا سيَّما إذا كان قد حصل شيءٌ مكروهٌ لأمِّهم، فنحن لا نعرف مصيرها وبذلك نلقيهم في المجهول. لقد فكَّر محمود

بما فكَّرت فيه، وكان أكثر جرأةً منِّي بالتعبير عمَّا يجول في رأسه. وبعد ذلك بتنا نعرف ما علينا، زاد عبئنا، لم نرغب في التخلِّي عن المسؤوليَّة التي أُلقيت علينا في أسوأ الظروف، التخلِّي عن هؤلاء الأطفال سيجعل ظروفهم أسوأ ألف مرَّةٍ من أخذهم معنا. عندما وصلنا إلى القارب الكبير، كان علينا تسلُّقه تحت أضواءٍ شحيحةٍ. ولأنَّ القارب الكبير أعلى من الزورق الذي نركبه بحوالي مترٍ ونصف لم يستطع الرجال والنساء كبار السنِّ والأطفال صعود هذه المسافة، لذلك كان علينا أنا وشابٌّ آخر أن نساعدهم. رفعت محمود وناولته الطفلين أوَّلًا. وبدأت بمساعدة الآخرين على الصعود. كنت أنا والشابُّ آخر الصاعدين إلى القارب الكبير، وعاد الزورق إلى الشاطئ بسرعةٍ أكبر من السرعة التي جلبنا بها، لأنَّه فارغٌ، ليأتي بمجموعةٍ أخرى من المنتظرين.

عندما صعدت إلى القارب الكبير، لم أستطع العثور على محمود، لأنَّ المركب في غاية الاكتظاظ، الذي شعرت به من الأجساد التي اصطدمت بها دون أن أراها. وجدت مكانًا أستطيع الجلوس فيه في حيِّزٍ ضيِّقٍ بين شخصين لا أعرفهما، وسرحت في مصير الطفلين اللذين مع محمود، كنت أسمع بكاء أطفالٍ آخرين على المركب، ولكن لم أعرف إذا كان الطفلان اللذين مع محمود منهم. ولم أعرف في أيِّ جانبٍ من المركب يجلس محمود. انتظرت الضوء لأعرف أين مكانه بالضبط، ولأرى الازدحام الهائل على القارب بأمِّ عيني. «شو بنقدر نعمل مع الولدين؟!»، سألت نفسي وأنا حائرٌ، هل نسلِّمهم للشرطة الإيطاليَّة عندما نصل إلى هناك؟ هل نأخذهم معنا إلى البلد الذي سنذهب إليه؟ فأنا ومحمود لم نتَّفق على البلد الذي سنذهب إليه، تركنا الموضوع حتَّى نصل إلى الشاطئ الآخر، لأنَّنا لم نكن واثقين من وصولنا بعد التجربة المصريَّة الفاشلة. أم ندَّعي أنَّهما إخوتنا ونبقيهم معنا حتَّى نعرف مصير أمِّهم، أو نعرف طريق الوصول إلى أهلهم؟ أفكارٌ تذهب

وأخرى تأتي، دون أن أستقرَّ على خيارٍ، قلت سأنتظر وأناقش الأمر مع محمود.

بعد صعودي إلى القارب لم أعرف مشاعري بالضبط في تلك الليلة الرهيبة، لم أعرف إن كنَّا نجحنا في النجاة أم ما زال الفشل بانتظارنا بعد هذا الوصول؟ الارتباك واللا يقين هو ما عشته، وحده التفكير بوضع ومستقبل الطفلين أخرجني من هذا اللا يقين، شعرت بمسؤوليَّتهما تقع على كاهلي، ويجب أن أكون بمستوى هذه المسؤوليَّة التي رماها عليَّ القدر. بعد صعودي إلى القارب وشعوري بالازدحام من خلال الارتطام بالأجساد، أحصيت ثلاثة زوارق صغيرةً أخرى لحقت بنا على المركب الكبير، محمَّلةً بعشراتٍ آخرين من الأطفال والنساء والرجال. في تلك الليلة كان الناس على القارب خيالاتٍ بين الحقيقة والوهم. استمرَّ بكاء الأطفال طيلة الوقت، وأحيانًا بكاء نساءٍ، وبين الحين والآخر بكاء رجلٍ هنا وآخر هناك، لدرجةٍ شعرت أنَّ كلَّ من في المركب بكى، لأنَّ الليل بعتمته الحالكة ستر الموجوعين حين بكوا، فأعفاهم من الخجل من دموعهم. ربَّما كانت دموع الحزن، ربَّما دموع الخلاص، ربَّما دموع الخوف، ربَّما دموع الضياع، ربَّما دموع القهر. ربَّما... ربَّما... وربَّما دموع كلُّ هذه الحالات مجتمعةً، فالقارب محشورٌ بقصص ألمٍ بشريٍّ لا تنتهي لهاربين من الموت. كان أغلب من على المركب من السوريِّين والفلسطينيِّين السوريِّين، والقليل من الأفارقة ومن جنسيَّاتٍ أخرى. الجميع هاربون من أوضاع لا يمكن احتمالها، قرَّروا المغامرة بحياتهم وبحياة أولادهم للوصول إلى حياةٍ أخرى في مكانٍ آخر بعيدًا عن القتل الذي لا قدرة لديهم ولا طاقة على احتماله، أو احتمال فكرة أن يصيب أحد أحبَّتهم، أمَّا من أصاب الموت أحبَّته فقرَّر أن ينجو بالباقين. شعرت أنَّ القارب كتلة ألمٍ هائلةٌ تسير على سطح مياه البحر المتوسط على السواحل الليبيَّة. عندما بدأ الضوء يبزغ بدأت الخيالات التي شاهدتها ليلًا تتضح ملامحها، وبدأ الحشد على القارب تتضح معالمه، لم أتخيَّل هذا الكمَّ الهائل

من البشر على هذه القطعة الحديديَّة التي تطفو وسط البحر، والتي أطلق عليها أخي محمود تعبير «بانيو كبير»، من المستحيل أن يحشد أحد حيوانات بهذا العدد على هذه المساحة الصغيرة للقارب المتهالك والتالف، فكيف عندما يكون هؤلاء رجالٌ ونساء وأطفال؟! عندما أنارت الشمس البحر، وأصبح المشهد على القارب واضحًا لرؤوسٍ لا تنتهي لبشرٍ متجاورين، ذُهِلتُ لأنَّ الموجودين على المركب لا يستطيعون التحرُّك، فالواحد منَّا محاصرٌ ببشرٍ آخرين من الجهات جميعها. اتضحت الوجوه الحزينة والشاحبة والخائفة، التي لم تنزعج من هذا الازدحام، وكأنَّ تلاصق الأجساد على القارب أعطى الهاربين إحساسًا بالأمان، طالما أنَّ جسدي ملتصقٌ بجسدين فيهما حرارةٌ على الأقل، فهذا يعني أنِّي ما زلت حيًّا. سار القارب على غير هدًى في البحر، ولا أعتقد أنَّ الشابين اللذان يقودانه والواقعين تحت تأثير الحشيش يعرفان إلى أين يقودان المركب ويقودانا، ولا أعتقد أنَّهما كانا يعرفان الاتجاهات أصلًا في الحالة التي كانا عليها. أرعبني مشهد الركَّاب المتلاصقين، لا مكان لقدمٍ إضافيَّةٍ على المركب. ظهري على حديد المركب البارد، أضمُّ قدمي لأوسع مكانًا للذي أمامي، وعلى جانبيَ يلتصق شخصان بي. كلَّما صعدت الشمس درجةً في السماء زادت الحرارة رغم أنَّنا في نهاية آذار، كانت الليلة السابقة باردةً، زاد خوفنا ونحن في عرض البحر، لا شي غير الماء حولنا، الماء من كلِّ الجهات، الأزرق في السماء فوقنا، والأزرق في البحر الذي نعبره، أخافني اللون الأزرق فهو دليلنا للفراغ، والهارب يخاف من الفراغ، لذلك خفت من اللون الأزرق الذي يحيط بنا من الجهات كلِّها. مرَّت الساعات بطيئةً كسلحفاةٍ، هناك من الموجودين على القارب من صمت من الخوف، وهناك من أخذ يثرثر مع جارٍ لا يعرفه ولا يسمعه ليتغلَّب على خوفه، وهناك من أغمض عينيه، وهناك من أخذ يدخِّن، كانت الوجوه كلُّها موحَّدةً بالخوف، احتلَّ الخوف القارب. الأطفال هم الناجون الوحيدون من الخوف، لأنَّهم لم يعرفوا أيَّ أخطارٍ نمرُّ بها، فهم

إمَّا يبكون أو تعبُّوا من البكاء فناموا. كلَّما تقدَّمت الساعات زاد الخوف، الكلُّ خائفٌ من الماء، الماء الذي هو دلالة الحياة في كلِّ شيءٍ سابقٍ في حياتي، يهدِّدني ويهدِّد من معي بالموت، صانع الحياة أصبح فجأةً جالب الموت لنا. خفت مثل الجميع، ركبنا البحر في أسوأ ظروفٍ مع بشرٍ حمقى وأملنا أن نقطع الماء إلى الجانب الآخر من العالم، لكن في وسط هذا الماء المحيط بنا من كلِّ جانبٍ، مع هذا القبر الحديديِّ الذي يسير على الماء إلى نهايتنا، سوف لا نصل إلى مكانٍ. سيبتلعنا هذا البحر، وتأكلنا أسماك المتوسِّط، دون أن أستطيع الوصول إلى أخي لأشدَّ على يده في اللحظة الحاسمة وأقول له «أنا بحبك»، أخرجني صراخٌ مرعبٌ ينادي باسمي من أفكاري السوداء: «صادق... صادق» عندما التفتُّ إلى مصدر الصوت، وجدت فاتن أمَّ الطفلين الذين بقيا معنا تناديني، كانت تحمل طفلها الذي بقي معها وحقيبة ظهرها، وتدوس على الناس وهي تتجه نحوي باكيةً وهي تصرخ: «وين ولادي؟»، والذين تدوسهم في طريقها إليَّ كانوا يشتمونها ويصرخون عليها ويدفعونها بعيدًا عنهم، لم تأبه لكلِّ هذا، أرادت معرفة مصير أولادها. وصلت عندي والرعب في وجهها ومنهكةً من الخوف. قلت لها: «لا تخافي، أولادك بخير. مع أخوي محمود، هون على المركب»، كان ابنها الصغير يبكي من مسكها له بقسوةٍ. قالت: «احلف ولادي بخير»، قلت: «أقسم بالله، إنُه ولادك بخير. بس أنا افترقت مع محمود، لإنُه طلع هو والأولاد أوَّل على المركب وبعدين أنا طلعت. هو وولادك على المركب»، حاولت التحرُّك للبحث عنهم، لكنَّها هذه المرَّة لم تملك القوَّة لتدوس على الناس. جلست لصقي بصعوبةٍ بعد أن وسَّع الشابُّ بجانبي لها مكانًا ضيِّقًا، وأنا وسَّعت مساحةً أخرى. شرعت بالبكاء وهي تجلس قالت: «أنا مش مصدقة لإنِّي طول الليل فكَّرت ولادي راحوا. لما وصلت على المركب بعدكو صرخت، ناديت على ولادي، وناديت عليك وعلى أخوك، ما حدا جاوب. صرخت من كل قلبي، لحد ما أغمى علي. صحيت من شوي، ورجعت أدوِّر.

احلف إنُه ولادي بخير»، حزنت عليها من جديدٍ، كلُّنا خائفون، أمَّا هي فقد كانت غائبةً عن الدنيا، لأنَّها فقدت ولديها، وهي لم تصدِّق أنَّها تستعيدهما، كادت تستسلم لفقدانهما.

عندما لاحت السفينة الإيطاليَّة من بعيدٍ، كنَّا قد قضينا في السجن الحديديِّ الذي يعبر بنا البحر حوالي أربع عشرة ساعةً، وكانت الشمس قد حرقت وجهي، حاولت تغطية وجهي بيدي دون جدوى، حرقتني الشمس رغم الجوِّ البارد. أشعرتني السفينة الإيطاليَّة الضحمة بضآلة المركب الخرب الذي نركبه، خفت وفرحت. خفت، لأنِّي أدركت حجم الخطر الذي عبرنا به عندما اخترنا هذا الطريق، وأنَّنا فعلًا ركبنا الموت من أجل الوصول إلى الشاطئ الآخر. فرحت، لأنَّ هذه الرحلة أوشكت على نهايتها، وأنَّنا على بعد خطوةٍ من الرسوِّ على الشاطئ الآخر للمتوسِّط الذي حلمنا به هربًا من الحرب والموت، بصرف النظر عن البلد الذي سنقرِّر الذهاب إليه، كنت على قناعةٍ أنَّ الوصول إلى الطرف الآخر من البحر لا عودة منه. ستكون حياتي والمكان الذي عشت فيه طيلة حياتي السابقة مجرَّد ذكرى. هكذا فكَّرت أو هكذا تمنَّيت، أن تكون الأشياء بهذه السهولة، أترك مكاني، أنتقل إلى مكانٍ آخر، أعيش فترة غربةٍ، أتعب قليلًا، أتكيَّف مع بلدٍ جديدٍ، وأبدأ حياةً أخرى، أتذكَّر ماضيَّ، وأمضي في حياتي. لكنَّ الحياة لم تكن بهذه السهولة التي تمنَّيتها.

25

عندما شاهد ركَّاب الزورق السفينة الإيطاليَّة التي ظهرت في الأفق الأزرق للمياه التي لا تنتهي بدأوا بالصراخ فرحًا، أخذ الجميع بالتلويح المجنون لركَّابها للدلالة على وجودهم وخوفًا من أن تسير باتجاهٍ آخر ولا ترانا. شخصت أنظار الجميع باتجاه السفينة، عندما التفت باتجاه السفينة الإيطاليَّة شاهدت محمود يخرج من فتحة القارب المؤدية إلى المحرِّكات، وهو يعرك عينيه وكأنَّه خارجٌ من نومٍ طويل. عندما سألته فيما بعد: «شو ساويت، بهذا الوقت أنت والولدين؟» قال: «ولا شي، لما طلعت على القارب، مسكني شاب من الشابِّين اللي بسوقوا القارب وأخذني لمدخل الغرفة، وقال: لا تسمح لحدا يدخل. قعدت بمدخل الغرفة والولاد ببكوا. هدأتهم، وقلتلهم لازم يهدوا عشان ماما تعرف تجي لعندهم، إذا ظلوا يبكوا ما رح تقدر تجي. سكتوا شوي، وبعدها غرقوا بالنوم من التعب. وأنا ما قدرت أقاوم بعدهم، غرقت بدوري بالنوم، يمكن منشان أهرب من الوضع اللي كنَّا فيه. ولما سمعت الناس عبتصرخ سفينة... سفينة... وقتها فقت وطلعت من الغرفة لأتأكَّد بسمع صح ولا عبحلم. وعندها أنت شفتني».

انتشلنا بحَّارة السفينة الإيطاليَّة من القارب، أعطونا أغطيةً للتدفئة، ووزَّعوا علينا عبوات الماء وبعض المعجَّنات. قال الضابط الإيطاليُّ: «أهلا بكم على متن السفينة الإيطاليَّة لاروكو، أنتم بأمان، نتمنَّى عليكم اتباع التعليمات حتَّى نصل إلى الشاطئ»، ترجمت ما قاله للذين يجلسون إلى جواري. وعندما سأل الضابط: «من يعرف الإنكليزية» أشار الذين حولي إليَّ. أعاد الضابط السؤال عليَّ، أجبت بالإيجاب، قال: «هل عندك مانع أن

تساعدنا؟» هززت رأسي نافيًا. اصطحبني الضابط معه لأترجم له احتياجات الناجين، وليفهم منّي ما جرى. كان رجلًا لطيفًا ومتعاطفًا، تظهر علامات الحزن عليه عندما يسمع القصص الحزينة للناجين. من حواراتنا فهمت أنّنا لن نعود إلى الشواطئ الإيطاليَّة سريعًا، لأنَّ على السفينة أن تكمل جولتها المعتادة قبل عودتها. وأنَّها مجهَّزةٌ لاستضافتنا خلال ساعات الرحلة الطويلة. لم تكن هذه الساعات طويلةً علينا، كانت طويلةً على أمّي في صيدا وعلى أبي في القاهرة الذين ينتظرون خبر نجاتنا ووصولنا إلى الشاطئ الآخر بفارغ الصبر. وتَأخُّرنا في إخبارهم يعني أنَّ عشرات التصوُّرات السوداء لمصيرنا ستعبر في رأسيهما. الخمس عشرة ساعةً التي قضيناها على ظهر ذلك المركب، كانت الأطول على أمّي وأبي، لم يكن أمامهما أيُّ شيءٍ يفعلانه من أجل معرفة مصيرنا سوى انتظار اتصالٍ منَّا، ولم يكن ذلك ممكنًا في عرض البحر، فلا تغطية للهواتف المحمولة، والهواتف التي تعمل في عرض البحر هي هواتف الثريا، التي لم نكن نملك أيَّ واحدٍ منها. لم أستطع الانتظار للوصول إلى الشاطئ. طلبت من الضابط الإيطاليّ مساعدتي في الاتصال بأحد الوالدين حتَّى لا يبقيان يفكّران في المصائر السوداء لنا، وهي مصائر عرفها الآلاف من الذين حاولوا عبور البحر وفشلوا في ذلك. عندما جاءني الضابط بهاتفٍ كبيرٍ حتَّى أتحدَّث منه. اتصلت بأمّي التي شرعت في البكاء الشديد عندما سمعت صوتي. وقالت: «أنا مش مصدقة. الله يحميكوا. الله يوفقكوا»، وعندما أعدت الاتصال هذه المرَّة بأبي، شعرت في صوته رجفةٌ لم أسمعها من قبل أو بعد، تنهيداته القاتلة تُعبِّر عن الخوف الهائل الذي عاشه على مصيرنا. قال: «فرحتي ما بعطيها لحدا. حمل ونزل عن ظهري»، وأنا متأكِّدٌ أنَّه شرع في البكاء بعد إغلاق خطِّ الهاتف. وفي ذلك اليوم كتب، على صفحته على الفيس بوك:

«يا ولدي...

خذْ غدك معك

لا تتركه على رصيف العابرين
حتَّى لا يسرقه اللصوص
يحملك زورق الأوديسة من منفى إلى منفى
لا وطن لك تعرفه
لم تختر
المنافي التي ولدت فيها
اختارتك رياح الشمال
فاصعدْ في منامك إلى السماء
كنْ أنت
كنْ ما تريد
أدمنَّا المنافي يا ولدي
فما حاجتنا إلى الأوطان؟!».

الوصول إلى الشاطئ الآخر للمتوسط، هو انتقالٌ إلى عالمٍ آخر، وصول إلى الأمان هربًا من جنون الحرب، هربًا من مستقبلٍ مظلمٍ. بهذا الوصول شعرت بالارتياح، بصرف النظر عن البلد الذي سيكون وجهتنا. تركت المكان الذي طالما شعرت أنِّي لا أنتمي إليه، وسأذهب إلى مكانٍ لن أكون خائفًا فيه، إنَّه إحساس النجاة في لحظة ذروته، لحظة النجاح بعد تجربة فشلٍ مريرةٍ. عندما وضعت قدمي على السفينة الإيطاليَّة في عرض البحر المتوسط وضعتها على طريقٍ جديدٍ، لم يكن انتقالًا من مكانٍ إلى مكانٍ، بل انتقالًا من عالمٍ إلى عالمٍ، ومن حياةٍ إلى حياةٍ. هل أصبحت شخصًا آخر بهذا العبور؟ بالتأكيد لا، لكنَّه وضعني في شروط حياةٍ أخرى. صحيحٌ أنِّي لم أختر حياتي، ولم أختر الرحيل من مكانٍ ليس لي، وأنَّ الحرب هي التي دفعتنا للهرب من جحيمها، لكنَّها منحتنا الفرصة لتجربة حياةٍ أخرى. وضعنا هذا الانتقال جميعًا في شروطٍ جديدةٍ، أنا وأخي ذاهبان للاستقلال الماليِّ عن أبي،

والخلاص من إحساسنا القاتل بالاعتماد عليه في شروطٍ في غاية القسوة. وأبي يتخلَّص من قلقه علينا في لبنان ومن حالة الحاجة التي نعيشها، ولم نستطع إيجاد مخرجٍ لها في بلدٍ لا عمل لنا فيه. وسيتخلَّص من عبء خوفه ألَّا يستطيع الوفاء به في ظروف الحرب. وفكرة أنَّه قد يأتي وقتٌ لا يستطيع مساعدتنا، فيشعر بالعجز تجاهنا كانت تصيبه بالرعب، بهذا الوصول يتحرَّر أبي من مخاوفه والتزاماته ويتجاوز قطوع الحرب المرعبة. وتخلَّصت أمِّي من وضعٍ كرهته حدَّ العمى، أن تكون محتاجةً لمساعدة أبي الذي عدَّته جلَّادها، ولم تكن قادرةً على رفض المساعدة في الظروف القاهرة التي نعيشها، صحيحٌ أنَّها في البداية كانت مغلَّفة بوجودنا معًا، وأنَّها تبدو مساعدةً لنا فقط، وهي تستفيد منها بالتبعيَّة. مع فكرة المغادرة والعمل عليها وعدم وجودنا معها في المكان، أصبح عليها أن تأخذ المساعدات من أبي مباشرةً، وهذا ما أشعرها بالغضب والمهانة، التي قبلتها على مضضٍ، انتظرت اللحظة التي تتخلَّص فيها من هذا الوضع القاتل بالنسبة لها، وهذا ما حصل بوصولنا إلى الشاطئ الآخر للمتوسط. كان الوصول حلًّا لمشكلاتنا الأساسيَّة التي فرضتها الحرب علينا.

بعد انتهاء جولة السفينة رست في ميناءٍ إيطاليٍّ ليلًا. أنزلونا منها وكنَّا منهكين من رحلتنا ومن رحلة السفينة الإيطاليَّة، لم نعرف أين نحن، ركبنا الباصات التي كانت تنتظرنا، نقلتنا إلى مخيَّمات تجمُّع اللاجئين، أبنيةٌ من طابقين مبنيَّةٌ على شكل مربَّعٍ ناقص الضلع، محاطةٍ بسور شائكٍ. حالما وصلنا نسينا رحلة البحر الخطرة والمرهقة، وانشغلنا بالتفكير كيف نتملَّص من البصمة التي تجبرنا على تقديم طلب اللجوء في إيطاليا؟! فنحن لا نرغب في ذلك، لأنَّ شروط اللجوء في إيطاليا سيِّئةٌ نسبة لشروط اللجوء في ألمانيا ودول الشمال الأوروبيِّ. سمعنا الكثير من القصص قبل مغادرتنا الشاطئ الجنوبيَّ للمتوسط نقلًا عن لاجئين وصلوا قبلنا إلى تلك الأراضي وما تعرَّضوا له من ضربٍ وإهانةٍ هم وأولادهم لإجبارهم على أن يبصموا، وإذا

بصموا، فإنَّ عليهم أن يبقوا ويقدِّموا طلبات لجوئهم في الدولة التي دخلوا منها إلى أوروبا، وفق ما تنصُّ عليه اتفاقيَّة اللجوء بين الدول الأوروبيَّة المكوِّنة للاتحاد الأوروبيِّ المعروفة باتفاقيَّة دبلن الموقَّعة في العام 1990. وفي حال بصمنا يجب علينا البقاء في إيطاليا وتقديم طلب اللجوء فيها، وإذا ذهبنا إلى دولةٍ أخرى، عند وصولنا لها ستظهر البصمة ويعيدونا إلى البلد التي بصمنا فيه. كان المخيَّم الذي نقلونا إليه بمنزلة سجنٍ محاطٍ بأسلاك شائكةٍ من الصعب تجاوزها، وأيُّ مغادرٍ يجب أن يستخدم الباب الرئيسيَّ الذي دخلنا منه. بعد أن وزَّعونا على الغرف، دخلت إلى الحمام وأخذت دشًا ساخنًا، فأنا لم أستحم منذ حوالي أسبوع، وقد تحوَّلت ملابسي إلى قفصٍ حديديٍّ قاسٍ على جسدي بسبب الأوساخ المتراكمة، وبسبب مياه البحر المالحة التي حوَّلت ملابسي إلى ما يشبه المبرد لأنَّها جفَّت على جسدي بعد ما صعدنا إلى القارب الكبير، ولم يكن هناك فرصةٌ لأبدِّل ملابسي، التي لا أملك منها سوى غيارٍ واحدٍ كنَّا سنستخدمه عندما ننزل على الأراضي الإيطاليَّة لإكمال طريقنا إلى الشمال. سبب هذا الوضع تسلُّخاتٍ في جلدي، لا سيَّما بين فخذي. بعد الدش أعطتني الملابس النظيفة إحساسًا بأنِّي شخصٌ آخر على أرض أخرى تركت ماضيَّ يسيل مع الماء القذر في بلوعة المخيَّم الإيطاليِّ، أو هكذا اعتقدت حينها.

بعد الحمام لم نسترح أنا وأخي، خرجنا من الغرفة، بحثًا عن مخرجٍ من المخيَّم، كانت الرياح القادمة من البحر تحمل معها البرد وطعم الملح العالق في الهواء، فحصنا كلَّ السور الخارجيِّ المحيط بالمكان، وجدنا من الصعب اجتيازه، ليس فقط بسبب مناعة السور، بل لأنَّه مزوَّدٌ بأجهزة إنذار في حالة الاقتراب منه. شعرنا أنَّنا في السجن، نظرت إلى أخي، سألته: «شو رح نعمل؟»، قال: «والله مش عارف»، قلت: «في جميع الحالات، ما رح أبصم، حتَّى لو طخُّوني»، قال: «استنى شوي، لا تقول شي، خلينا بكرة نشوف شو الوضع»، لم نتوقَّف عن البحث عن مخرجٍ من المعتقل، لأنِّي

صرت أعدُّه كذلك بعد فحصه، وكان الباب الخارجيُّ مغلقًا ومحروسًا، وهذا ما زاد من إحباطي، سألت نفسي: «شو رح أساوي إذا مسكوني، وضربوني كهرباء ومسكوا أصابعي وبصَّموني رغمًا عنِّي مثل كثيرين عملوا فيهن هيك؟!»، أخافني السؤال، تخيَّلت نفسي مثبَّتًا وغير قادرٍ على فعل أيِّ شيءٍ، شعرت بالعجز قبل حدوث الواقعة. لم نكن نملك سوى خطَّة العناد في رفض البصمة، لي ولأخي أسبابنا المختلفة في رفض البصمة والمتابعة إلى دول الشمال. هو فكَّر في لمِّ شملِ صديقته وفاء لعلاقتهما الوطيدة معًا، ولأنَّه لم يرغب في تركها في صراعٍ مع الظروف التي أفرزتها الحرب. وبما أنَّه اختار هذا الخيار، وأبي بطبيعة الحال سيأتي، لأنَّ زوجته شرعت في معاملة لمِّ شملٍ له في السويد. ولم يبقَ سوى أمِّي، فكان خياري أن أذهب إلى هناك حتَّى أتقدَّم بمعاملة لمِّ شملٍ، كنت أعرف أنَّ هذا لا يصلح لأنِّي فوق السنِّ القانونيِّ، ولكن دائمًا هناك استثناءٌ، وتمنَّيت تحقيق هذا الاستثناء لأمِّي، ولنصبح كلُّنا كعائلةٍ صغيرةٍ ناجيين من الحرب المجنونة التي أطاحت بكلِّ شيءٍ في سورية، لكنَّنا لم نكن قد حدَّدنا البلد الذي سنذهب إليه بعد.

العقبة الأولى التي علينا تجاوزها لنكمل رحلتنا إلى دول الشمال هي الخروج من المعسكر الإيطاليِّ، ولم يكن الخروج وحده يكفي، بل علينا الخروج دون تلك البصمة اللعينة. ناقشنا أنا وأخي الموضوع طويلًا دون الوصول إلى خطَّةٍ معقولة لتنفيذ الفرار من ذلك المعتقل. وعندما تعبنا قرَّرنا ترك الأمر إلى صباح اليوم التالي، وغرقنا في النوم من تعبٍ متراكمٍ.

في صباح اليوم التالي، جال الضابط المسؤول عن المعسكر على كلِّ الأقسام وقال إنَّ هناك باصٌ سيأتي بعد الغداء، وأنَّه سينقلنا إلى مكانٍ آخر، بعد أن تأخذ الشرطة بصماتنا. عندما سمعت الكلام الأخير للضابط بإنكليزيَّته الركيكة، شعرت بالاستفزاز، وبعد أن انتهى من كلامه، اقتربت منه وانتحيت به جانبًا، وقلت له: «عندي أسئلةٌ، هل يمكن أن تجيبني عليها؟»، قال: «بالتأكيد، تفضَّل»، سألته: «هل نحن معتقلين هنا؟»، أجاب:

«أبدًا، أنتم لستم معتقلين، فلم ترتكبوا أيَّ جريمةٍ حتَّى تكونوا معتقلين. أنتم هنا كإجراءٍ إداريٍّ»، قلت: «هل نستطيع الخروج من المكان الآن؟»، قال: «بالطبع، فأنتم ضيوفٌ هنا، ولستم معتقلين، وتستطيعون المغادرة الآن»، وأشار بغمزة عين تشي بتواطؤٍ معي فهمتها إذنًا بالخروج قبل أن تأتي الشرطة وتأخذ بصماتنا. وعندما همَّ بالخروج من الصالة التي نحن فيها اقتربت منه وقلت: «سأخرج أنا وأخي الآن من هنا»، هزَّ رأسه موافقًا، وقال: «أتمنَّى لكما حظًّا سعيدًا»، رجعت راكضًا إلى أخي، وقلت: «قوم، رح نمشي هلأ»، قال: «شو صار؟»، قلت: «بعدين بقلك»، قلت لعلي الشابُّ الذي كان معنا في الرحلة: «راقبنا، إذا طلعنا من باب المعسكر، الحقنا بعد عشر دقائق بنستنَّاك بأقرب محطَّة قطار»، حملنا أنا ومحمود حقائبنا، دون أن ننبس بأيِّ كلمةٍ، ودون إلقاء السلام على الآخرين. كلَّما اقتربنا من الباب الخارجيِّ، ارتفعت دقَّات قلبي أكثر، وعندما وصلنا شعرت صوت قلبي كقرع طبلٍ. سألنا الحارس على الباب: «بماذا أستطيع مساعدتكم؟»، قلت: «نريد الخروج»، وكنت أبحث عن حججٍ لأقولها له من أجل السماح لنا بالخروج، لكنَّه لم يسأل عن السبب. فتح لنا الباب، وخلال ثوانٍ كنَّا خارج المعسكر، وكأنَّنا تحت تأثيرٍ من السحر. طبعًا هو لم يكن كذلك، كانت السياسة الإيطاليَّة غير المعلنة تفعل ذلك، هناك من يُجبَرُ على البصم حتَّى ولو بالضرب، حتَّى تُقنِعَ إيطاليا شركاءها الأوروبيِّين أنَّها ملتزمةٌ بالاتفاقيَّة، وحتَّى لا تستعيد كلَّ اللاجئين الذين يعبرون أراضيها، وفق الاتفاقيَّة أيضًا كان عليها ترك الآلاف يعبرون أراضيها إلى الدول الأخرى دون أخذ بصمتهم، ونحن كنَّا من هؤلاء المحظوظين الذين لم يتعرَّضوا للضرب من أجل أخذ بصمتهم، لذلك خرجنا بهذا التواطؤ غير المعلن.

عند خروجنا من المعسكر كان نشطاءٌ من الكنيسة بانتظارنا بالقرب من المعسكر، نقلونا بالباص إلى مقرِّهم، الذي سار بنا إلى الطرف الآخر من جزيرة صقلية إلى بلدةٍ صغيرةٍ بجانب مدينة باليرمو. استضافونا في مبنًى

من ثلاث طبقاتٍ مخصص للأطفال اليتامى تابعٍ للكنيسة، كان فارغًا منهم، فاستخدمته الكنيسة لاستضافة اللاجئين الذين تدفَّقوا على الجزيرة قادمين من الشاطئ الآخر للمتوسط. لم نقضِ سوى يومين في ذلك المكان، وكان علينا التحرُّك سريعًا، فكلَّما زاد الوقت الذي نقضيه في إيطاليا، ازداد خطر أن تقبض الشرطة علينا وتأخذ بصماتنا. في صباح اليوم الثالث، أبلغنَا متطوِّعو الكنيسة أنَّنا عازمون على الرحيل. دلُّونا على الطريق إلى محطَّة القطار القريبة من المكان، وتمنَّوا لنا التوفيق في رحلتنا. قطعنا التذاكر إلى ميلانو، التي كلَّفت كلَّ المبلغ المتبقِّي معنا، وبقيت يوروهاتٌ عدَّةٌ من أجل الطعام. احتاجت رحلتنا إلى حوالي أربع عشرة ساعةً وتبديل أربع قطاراتٍ لنصل إلى ميلانو. لم نكن نعرف ما الذي نستطيع فعله بعد ذلك، ما توقَّعناه عندما أخذنا ما تبقَّى من المال من أمِّي لبدء الرحلة، وجدناه أمامنا في ميلانو، لم يعد هناك المزيد من المال لإكمال رحلتنا. لم يحتج الوضع الذي نحن فيه إلى الكثير من النقاش، لم يكن أمامنا أيُّ حلٍّ نستطيع القيام به بأنفسنا، لذلك مثل كلِّ مرَّةٍ لجأنا إلى أبي من جديدٍ. بعد صعودنا إلى القطار المتجه إلى ميلانو اتصل محمود به وشرح له الوضع الذي نحن فيه، لم يطلب منه المساعدة، كان الشرح ذاته كافيًا ليعرف أبي أيَّ مأزقٍ نعيش. لم نكن نعرف ما الذي يستطيع فعله. بعد حوالي الساعة، عاود أبي الاتصال بنا، وقال: «لما بتوصلوا على ميلانو، بتستنوا هناك، رح يجي صالح زوج سمر بنت عمكوا خليل يأخذكم من هناك. أعطيتوا أرقامكم، وهو رح يطلع بعد شوي من البيت. وبس يصل على ميلانو، رح يتصل فيكوا. حاولوا ما تقربوا من الشرطة»، لم يكن لدينا خططنا الخاصَّة، ولم يكن أمامنا سوى تمنِّي وصول صالح في أسرع وقتٍ إلى ميلانو، وألَّا نقضي وقتًا طويلًا في انتظاره. لم نعرف بماذا يفكِّر صالح وإلى أين سينقلنا؟ كان كلُّ شيءٍ يخصُّنا معلقًّا على إرادات الآخرين. سألنا الأسئلة وتوقَّعنا، وناقشنا مخاوفنا، خفنا واستعجلنا الوصول، كلُّ ذلك من أجل لا شيءٍ. كان مصيرنا في تلك اللحظات معلَّقًا

بمساعدة صالح. صحيحٌ أنَّه عندما كنَّا في ليبيا كان الهدف الوصول إلى الشاطئ الآخر للمتوسط، وليس مهمًّا أيَّ بلدٍ على ذلك الجانب، حتَّى لو كانت إيطاليا. بعد الوصول رمينا الافتراضات السابقة وراءنا، وبدأنا البحث عن الأفضل لنا، وهذا ما أصبحنا عليه في إيطاليا، تمنِّيات ليبيا التي كانت قبل أربعة أيَّامٍ، أصبحت من الماضي البعيد، وأصبح هناك تمنِّياتٌ وخطط حدٍّ أدنى مختلفةٌ. كنَّا نقتل الوقت بأحاديث فارغةٍ وذكرياتٍ نجبر أنفسنا على تذكُّرها، نسمع بعضنا حينًا، ويتحدَّث أحدنا إلى الثاني، والذي هو في عالمٍ آخر، لا يسمعه ولا يراه. الوقت ثقيلٌ ولا نعرف كيف نقتله، همُّنا الأكبر أن نراقب حركة القطارات جيِّدًا في المحطَّات التي علينا فيها تبديل القطار، ونسأل ونتأكَّد من وجهتنا الصحيحة، فلم يكن هناك مجالٌ للخطأ، لأنَّ الركوب في قطارٍ آخر سيكلِّفنا عدم الوصول إلى ميلانو، ولن نقابل صالح، والأهم من كلِّ هذا أنَّنا لا نملك المال من أجل تذاكر جديدةٍ لتصحيح الخطأ الذي يمكن أن نرتكبه. لذلك كان تركيزنا على الطريق مبالغًا فيه، لدرجة أنَّ التركيز نفسه هو الذي كان سيتسبَّب في ضياعنا. ففي مثل هذه الحالات ينتج التركيز الشديد عكسه، فيتحوَّل إلى تشتُّتٍ وتعبٍ، لا سيَّما وأنَّنا نسير خائفين في بلدٍ لا نعرفه. كلُّ مسافةٍ قطعناها في هذه الرحلة الطويلة، كانت أطول من أخواتها، لأنَّ كلَّ مسافةٍ من هذه المسافات تغيِّر مصيرنا، فلم تكن مجرَّد مسافةٍ نقطعها بين مكانين. فلو أنَّنا لم ننجح في الخروج من لبنان إلى ليبيا، لبقينا عالقين في وحل الحرب في سورية وارتداداتها في لبنان، والخيار الوحيد سيكون العودة إلى المكان الذي لم يعد صالحًا للعيش. ولو أنَّنا لم نستطع مغادرة ليبيا ونجاح رحلتنا إلى الجانب الآخر من المتوسِّط، لما شعرنا بالنجاة، وبقينا دون حلٍّ لمشكلتنا الأساسيَّة، وكان يمكن للحرب في ليبيا أن تبتلعنا، كما كان يمكن للحرب في سورية ابتلاعنا أيضًا، ويمكن لمياه البحر ابتلاعنا، كان الطريق الطويل

محفوفًا بالموت دائمًا. الوصول إلى الشاطئ الآخر هو إحساسٌ بالنجاة من الموت في الأماكن التي مررنا بها.

26

عندما اتصل صالح على هاتف محمود المحمول عرفنا أنَّه في ميلانو، كان الوقت منتصف ليلةٍ باردةٍ. طلب صالح منَّا، إرسال تحديدٍ لموقعنا حتَّى يستطيع الوصول إلينا، أرسلنا له موقعنا من محطَّة القطار. خرجنا من المحطَّة وأخذنا نذرع الشوارع القريبة منها، حتَّى لا نلفت نظر الشرطة، كان برد الليل شديدًا. بعد نصف ساعةٍ عاود الاتصال بنا من جديدٍ وأخبرنا أنَّه أصبح في موقف السيَّارات التابع لمحطَّة القطار. عندما ذهبنا إلى هناك وجدنا صالح يقف إلى جانب سيَّارةٍ من نوع أوبل زرقاء اللون ما زال محرِّكها يعمل. عندما رأيته شعرت أنِّي أخرج من غرقٍ محقَّقٍ. أخذنا بالأحضان، وطلب منَّا الركوب بالسيَّارة، وسرعان ما انطلق عائدًا. بعد أن سألنا على أحوالنا، وهل نحتاج إلى الطعام أو أيَّ شيءٍ آخر قبل أن ننطلق، أجبنا بالنفي، عزم علينا المشاركة ببعض الطعام الخفيف الذي أحضره معه.

في رحلتنا مع صالح شغلتنا أسئلةٌ تفصيليَّةٌ لم نكن قادرين على طرحها عليه، وهو لم يجعلنا نحتاج لها. بعد أن صعدنا السيَّارة، قال صالح: «الحمد لله على سلامتكم. أنا مبسوط إنكم وصلتوا. إنتو صرتوا ضيوفي، رح نروح على البيت، بتبقوا عندي، البيت بيتكم، بترتاحوا كم يوم وبعدين، بوصلكم على ألمانيا وبتكملوا طريقكوا على المكان اللي بدكم تروحوا عليه. مقرِّرين لوين بدكم تروحوا؟»، أجبنا بالنفي. قال: «فكروا على مهلكم، معكم وقت والبيت بيتكم. ومنها بتشوفوا عمكم»، وفي الطريق إلى بيته، عرفنا لأوَّل مرَّةٍ، أنَّ صالح وسمر جلبوا ناديا زوجة أبي من المدينة ذاتها التي جلبنا صالح منها، وساروا على الطريق ذاته، واستضافوها في بيتهم، حتَّى استراحت، ثمَّ أوصلها صالح إلى ألمانيا وركبت القطار من هناك إلى السويد.

لا أعرف لماذا شعرنا مع صالح بالأمان، وتبدَّدت مخاوفنا من الشرطة، هل لأنَّنا صرنا محميِّين في سيَّارةٍ تخصُّ أحدًا نعرفه، هل للثقة التي تحدَّث بها صالح؟ لم أكن أعرف جوابًا، لم يربكنا عندما وصلنا إلى الحدود الإيطاليَّة/ السويسريَّة، كلُّ ما قام به أنَّه اتصل بأحد أصدقائه على الجانب السويسريِّ من الحدود وطلب منه أن يلقي نظرةً على الحاجز الحدوديِّ الذي يقع بين إيطاليا وسويسرا. وعندما أخبره بأن لا أحد هناك، عبرنا الحاجز الحدوديِّ الفارغ بأعمدته المدهونة بالأحمر والأبيض، وبتنا في الأراضي السويسريَّة.

بالوصول إلى بازل في سويسرا وضعنا إيطاليا وراءنا، وبات علينا أن نقرِّر الخطوة التالية، كنَّا في استضافة سمر الفرحة باستعادة ذكرياتها مع محمود، وهي التي كانت علاقتها قويَّةً معه، كانا أكثر من أخوةٍ، وخفَّت هذه العلاقة بعد زواجها وذهابها إلى ألمانيا. كما كانت علاقة سمر مع أبي قويَّةً جدًّا، كان يحبُّها كأنَّها ابنته، وكانت هي تعدُّه الشخص الأفضل والأقرب لها في العائلة كلِّها، أقرب من إخوتها، وترتاح في بيتنا كأنَّه بيتها، ولم يعاملها أحدٌ منَّا كغريبةٍ حتَّى أمِّي قبل الانفصال عن أبي. زوجها صالح كان في غاية النبل، لم يقصِّر معنا. عندما اتصل أبي ونحن في الطريق من إيطاليا إلى سويسرا، وشكر صالح، لم أعرف ما الكلمات التي قالها أبي، لكنِّي سمعت ردَّ صالح وهو يقول: «أبو محمود لا تقول هيك. على شو بتشكرني، هدلون إخواتي. بجيبهم من آخر الدنيا»، شعرت برجفةٍ في جسدي، ووَلَّدت عندي رغبةً شديدةً في البكاء، حبستها بصعوبة، لكنَّ الدموع أبت أن تبقى مكانها، فسالت على خدي، وسترها ليل الطريق إلى بازل.

لم يكن صالح شخصًا عاديًّا، تعرَّفنا عليه بعد زواجه من سمر، شخصٌ في غاية اللطف، رغم تديُّنه حريصٌ على عمله، وقد احتاج المساعدة ببعض القضايا القانونيَّة من أبي عندما تُوفِّي والده، ما عزَّز العلاقة بينهما. لكنَّنا لم نعرف صالح الحقيقيَّ حتَّى الأحداث في سورية، هذا الشاب الذي تعلَّم في ألمانيا ميكانيك الطيران وهو شابٌّ، وعمل في ألمانيا، وكان يعمل في سويسرا

عندما وقعت الأحداث في سورية، لم يحتَج أحدٌ مساعدَته وردَّه خائبًا، ليس من أهله أو أهل زوجته، بل أيٌّ هاربٍ من سورية. ولم أصدِّق عندما قال صديقه سامر الذي رصد الطريق لنا، أنَّ صالح أحضر لاجئًا سوريًّا مارًّا في سويسرا يريد الوصول إلى ألمانيا إلى بيته واستضافه، استحمَّ وارتاح وغيَّر ملابسه، ونقله إلى ألمانيا بسيَّارته، قطع له بطاقة القطار إلى الوجهة التي يرغب فيها، وعاد إلى بيته. اعتقدت أنَّ سامر يبالغ بمحبَّته لصالح، وعندما سألت سمر أكَّدت لي الحادثة، قالت: «صالح عندُه قناعة إن الخير اللي بعملُه هو اللي بخليه مرزوق، منشان هيك، بظل يقلي أي حدا بحتاج أعطيه وما تعدِّي. كلُه برجع رزق إلنا»، كنت أعرف بعض ما فعله مع عمِّي وأولاده، والمساعدات التي قدَّمها لهم من أجل أن يصلوا إلى سويسرا وألمانيا، حتَّى ابن عمِّي عامر الذي ذهب إلى نيوزلندا دفع صالح كلفة انتظاره في تايلاند لحوالي عامين. ولم تقتصر مساعداته على أهل زوجته، بل شملت كلَّ محتاج في عائلته، وكان آخرها ابن عمِّه الذي رافق أمِّي في رحلتها من لبنان، وهو الذي دفع كلفة رحلته للوصول إلى ألمانيا تهريبًا. لو قال لي أحدٌ أنَّ هناك شخص بهذه المواصفات وفي ظلِّ أزمةٍ طاحنةٍ من النوع الذي مررنا به، لما صدَّقت، ولقلت هذا ملاكٌ وليس إنسانًا. لأنَّ البشر عادةً ما تهرب من التزاماتها في الأحداث الكبرى، والذي يتحمَّل وينفِّذ التزامات غيره، لا شكَّ أنَّه ملاكٌ، وهذا هو صالح.

في بازل كان علينا حسم وجهتنا، لم يكن الموضوع قابلًا للتأجيل، فعندما نقطع الحدود إلى ألمانيا، يجب أن نكون قد حسمنا إلى أيِّ بلدٍ نريد الذهاب. أنا ومحمود تواطأنا على تأجيل نقاش الموضوع، لأنِّي أعرف بماذا يفكِّر، وهو يعرف بماذا أفكِّر، النقاش الذي تجنَّبناه بات على الطاولة ولا يمكن تأجيله. يريد محمود الذهاب إلى السويد لأنَّه يريد لمَّ شمل صديقته، وهو قد سأل منذ كنَّا في لبنان عن لمِّ الشمل، وعرف أنَّ السويد أفضل وأسهل بلدٍ لإنجاز هذه المعاملة، وهو يريد ذلك، دون أن يعلن عنه قبل

إنجاز المعاملة، ويريد أن أرافقه إلى السويد، لنجرِّب إمكانيَّة لمٍّ شملٍ استثنائيٍّ لأمِّي، فهو لا يستطيع تقديم طَلَبَي لمٍّ شملٍ في الوقت ذاته. لم أرغب في الذهاب إلى السويد، ليس لأنِّي أملك شيئًا ضدَّ البلد، كنت أعرف أنَّ هذا البلد كئيبٌ، وفضَّلت أن نذهب إلى ألمانيا أو إلى هولندا، كنت أقدِّر أنَّهما أفضل من السويد. ودار الجدل طيلة أسبوعٍ ولم نستطع حسم الموضوع. سألنا سمر، قالت: «ما بعرف، هذا موضوع إنتو بتقرروه»، لم تحاول نصحنا بأيِّ تجاهٍ حتَّى لا تؤثِّر علينا ونأخذ قرارًا لا نريده، لا سيَّما أنَّها تعرف أنَّنا مختلفان حول الموضوع. أحالتنا إلى صالح، وقالت: «اسألوا صالح، هو أدرى بهذا الموضوع»، وعندما سألنا صالح قال: «إنتو قرروا، اللي فيني أقولُه روحوا على البلد اللي وراقُه أسهل. هاي البلاد، بلاد وراق»، بقينا في المكان ذاته، لم نستفد من نصيحة صالح. في النهاية سألنا أبي في القاهرة عن رأيه في الموضوع، لعلَّه يحسم القرار، رغم عدم معرفته بالسبب الحقيقيِّ للخلاف، قال: «القرار برجع إلكم، أنا حاسس بالنجاة اتجاهكم. إذا إجت علي، أنا جاي على السويد عند مرتي، وحاببكم تكونوا معي هناك. بس هذا مش ملزم إلكم. إنتو اختاروا، حتَّى لو كل واحد بروح على بلد، مش مشكلة، السفر بهديك البلاد سهل»، زاد جواب أبي من تعقيد المسألة بالنسبة لنا، مسألةٌ بسيطةٌ بدت وقتها مسألةً معقَّدةً. وعندما عرف صالح أنَّنا مرتبكين بالموضوع قال: «مش مضطرين تتخذوا قرار بسرعة. هذا البيت بيتكوا، بتظلوا لما تقتنعوا لوين بدكم تروحوا»، بقينا أسبوعًا آخر في سويسرا، البلد جميلٌ لدرجة أنَّه جعلني أفكِّر بالتقدُّم بطلب اللجوء فيه، لولا نظام اللجوء المعقَّد والجنسيَّة السويسريَّة التي يطول انتظارها حتَّى اثنا عشر عامًا. زرنا عمِّي خليل مرَّتين في بازل، عندما وصلنا كان في المشفى، زرناه هناك، وفرح بزيارتنا كطفلٍ صغيرٍ وهو الرجل الثمانينيُّ، أراد أن يتذكَّر معنا كلَّ شيءٍ في دمشق، ليس ما جرى في الحرب فحسب، وبل يتذكَّر عمره كاملًا أيضًا. وهو ما كان عليه في المرَّة الثانية التي زرناه في بيته.

سأل عمِّي خليل أخي محمود عن الخاتم، قال محمود: «هو أغلى شيء عندي، وبشكرك كمان مرَّة عليه»، وعمِّي خليل يحبُّ رواية قصَّة خاتم أبي الذي أهداه لأخي محمود.

يعود هذا الخاتم بالأصل لأبي، أعطاه أبي لجدَّتي قبل اعتقاله بأشهرٍ، ولم يطالب به بعد خروجه من السجن وبقي مع جدَّتي حتَّى وفاتها، وعندما تُوفِّيَت، لم يقبل أبي أيَّ قطعة ذهبٍ من الذي تركته جدَّتي، وتبرَّع بحصَّته من الذهب لعمَّتي نوال. أعمامي وعمَّاتي كلَّفوا عمِّي خليل بتقسيم الذهب بينهم وفق الحصص الشرعيَّة. لم يقبل عمِّي خليل أن يفرِّط بخاتم أبي، كان يعرف أنَّ أخي محمود سأل جدَّتي عن الخاتم الذي شاهده في إحدى صور أبي القديمة قبل السجن. فوعدته بالخاتم إذا نجح في الشهادة الثانويَّة، لكنَّه في ذلك العام، لم ينجح. وفي العام التالي عندما نجح في الثانويَّة، قالت له إنَّها ستعطيه الخاتم عندما تُخرج ذهباتها من مخبئهم. لكنَّها لم تفعل ذلك حتَّى وفاتها، وأخي محمود لم يلحَّ في طلبه منها. عندما شاهد عمِّي خليل الخاتم عزَّ عليه حرمان محمود منه، فأخذه جزءًا من حصَّته، وأعطاه إلى أخي محمود هديةً منه، وكانت لفتةً جميلةً. أخذ محمود الخاتم الذي احتفظ به ككنزٍ ثمينٍ. وظلَّ يحمل هذه اللفتة الجميلة لعمِّي، بأن جعله يحتفظ بشيءٍ عزيز عليه ذكرى من أبي. بعد حديث الذكريات حزن عمِّي خليل لمغادرتنا، لأنَّه قد لا يرانا مرَّةً ثانيةً. احتفل بنا لأنَّنا من رائحة حياته القديمة التي غادرها دون رغبةٍ منه، وشعر نفسه يستعيدها جزئيًّا عندما شاهدنا، والفرحة التي شعر بها تبدَّدت بخبر مغادرتنا المدينة والذهاب إلى بلاد الشمال.

27

أخيرًا، حسمت أمري وقرَّرت الذهاب مع محمود إلى السويد، لعلَّ لمَّ شملٍ استثنائيًّا لأمِّي يجعلنا ننتهي من مشكلة وجودها في لبنان، ليس عندي ما أخسره في هذه المحاولة، وإذا نجحت نكون محظوظين، فتصبح كلُّ العائلة في السويد بصرف النظر عن العلاقة بين أمِّي وأبي. أوصلنا صالح إلى داخل الأراضي الألمانيَّة، قطع لنا تذكرتين إلى مدينة مالمو في جنوب السويد، أعطانا خمسمئة يورو نقدًا، وتابعنا طريقنا. خلال رحلتنا عبر ألمانيا، تمنَّيت أن تقبض الشرطة الألمانيَّة علينا وتجبرنا على تقديم طلب لجوءٍ فيها حتَّى لا نكمل الرحلة إلى السويد، لكنَّ هذا لم يحدث، كانت الرحلة ميسَّرةً وسهلةً، وبعد ست عشرة ساعةً وجدنا أنفسنا في مدينة مالمو، التي لا نعرف فيها أحدًا. عدنا للاستنجاد بأبي من جديدٍ. اتصل بصديقٍ له في مالمو، وهو بدوره أرسل ابنه الذي رافقناه إلى بيته، حيث قضينا عنده تلك الليلة.

في اليوم التالي، سلَّمنا أنفسنا إلى دائرة الهجرة في مدينة مالمو، التي نقلتنا بدورها إلى مدينة يونغشوبينغ في وسط السويد، في انتظار قرار قبول لجوئنا في السويد. بعد أيَّامٍ استدعتنا دائرة الهجرة من أجل تحقيقٍ موسَّع معنا، وبعد أسبوعين حصلت أنا على الإقامة الدائمة، وبعد شهرٍ لحق أخي بي وحصل على الإقامة. تقدَّمت بطلب لمِّ الشمل من أجل أمِّي، وأخي تقدَّم بطلبٍ مماثلٍ من أجل صديقته. لم يطل المطاف بطلب أمِّي الذي سرعان ما رُفِضَ، لضعف الصلة بيني وبينها، ولم أعرف كيف يمكن أحد أن يقنع المحقَّق السويدي أنَّ علاقتي بأمِّي أقوى ممَّا يتصوَّر، وأنَّ الحرب تجعل

العلاقات أقوى أو تحطِّمها. كان من السخرية رفض الطلب لضعف الصلة بيني وبين أمِّي. بذلك بات علينا البحث عن مخرجٍ آخر من أجلها.

أصبح وجودنا في السويد شرعيًّا، بعد رحلةٍ غير شرعيَّةٍ، عبرنا فيها بلادًا كثيرةً، كان فيها شرعنة غير المشروع طريقنا للنجاة من الحرب. بعد أشهرٍ لحق أبي بنا في السويد. عندما قابلناه لحظة وصوله، كانت المرَّة الأولى التي نراه فيها بعد رحلتنا الفاشلة من مصر، وأوَّل مرَّةٍ نتعرَّف بها على زوجته ناديا. كنَّا سعداء لأنَّه قرَّر في النهاية الانتقال إلى السويد، بعد جدلٍ طويلٍ معه وتردُّده قبل اتخاذ قراره، كان يقول: «شو رح أعمل بالسويد بعد هاد العمر!؟»، ضغطت زوجته عليه وضغطنا نحن عليه حتَّى لا يبقى في مصر. خفنا عليه مع الإشاعات عن إمكانيَّة أن يعيد قادة الانقلاب في مصر اللاجئين السوريِّين والفلسطينيِّين السوريِّين إلى دمشق، وهذا يعني أنَّ أبي سيعود إلى السجن مرَّةً ثانيةً، أرعبنا أن يكون هذا مصير أبي، لأنَّنا نعرف أيَّ أثرٍ تركت تجربته السابقة مع السجن في روحه. أن يُعتَقَل مرَّةً أخرى وبشروط الاعتقال التي أصبحت أسوأ ألف مرَّةٍ من المرَّة السابقة، يعني مقتله المؤكَّد. لذلك، دفعناه بكلِّ قوَّةٍ نستطيعها من أجل انتقاله إلى السويد. لا أعرف كم أثَّرنا في قراره، وفي النهاية ليس مهمًّا من الذي أثَّر في قراره، المهمُّ أنَّه انتقل إلى السويد.

اعتقد أبي أنَّه قادرٌ على التكيُّف مع الجحيم، وولَّدت عنده هذه القناعة من تجربته التي قادته على طرقاتٍ متعرِّجةٍ لم يتوقَّعها، تكيَّف معها، وعدَّ أنَّه مرَّ بتجربتين في غاية القسوة، حربين وسجن، وهما تجربتان تكيَّف معهما وتجاوز آثارهما المدمَّرة. هكذا قال، مع أنِّي أدرك أنَّ التجربتين جرحتا روحه، ولم يستطع الخروج منهما حتَّى وفاته. وعندما انتقل إلى القاهرة، وهي أوَّل مرَّةٍ ينتقل للعيش خارج مدينة دمشق. لم يشعر بالغربة، بل أحبَّ المدينة، وعاش كأحد سكَّانها وليس كلاجئٍ من مذبحةٍ تدور في سورية. والغريب كما قال إنَّه لم يشعر بالحنين إلى دمشق، وكأنَّه لم

يعش فيها طيلة حياته، رغم أنَّه عاش فيها غريبًا، فهي تبقى المدينة التي تكوَّن فيها، وخاض كلَّ تجاربه المهمَّة والتافهة بين شوارعها وأزقَّتها ومدارسها وجامعتها وباراتها وسجونها. المدينة التي شعر فيها بالظلم خلقت حساسيَّته المرهفة، فكان ابنها بامتيازٍ، رغم ادعائه بأنَّه لا يحنُّ إليها. لا أستبعد أنَّه اتخذ قراره بألَّا يحنَّ إليها حمايةً لحساسيَّته، وليحمي نفسه من الانهيار، لم يعد يحتمل المزيد من الخسائر، قضى حياته في الخسارة، خسر كلَّ ما أحبَّ، ولم يكن قادرًا على خسارة حياته في المدينة التي أحبَّها فأنكر حنينه إليها، حتَّى لا توجعه أكثر. لم يفكِّر في مغادرة دمشق حتَّى بعد سجنه، توافرت له فرصة الذهاب إلى أبو ظبي وبراتبٍ كبيرٍ، لكنَّه رفض العرض. كان متعلِّقًا بالمدينة التي عرفها عن ظهر قلبٍ، ولا يمكن لرجلٍ لا يحنُّ أن يعرف بالتفصيل المكان الذي لا يحنُّ إليه كما عرف أبي دمشق. وُلِدَ في المدينة، وعاش طفولته فيها، وشبَّ في حواري المخيَّم، وعشق في المدينة، عاش فيها الحبَّ أكثر من مرَّةٍ، وحملت تجاربه مع النساء ذكرياتٍ حارقةً، له فيها قبلة العاشق على درجات الجامع الأمويِّ، يتحدَّى فيها كلَّ شيءٍ، المقدَّس والمخابرات والعائلة والمارَّة. له فيها مشاوير العشَّاق المفلسين في شوارع المدينة الباردة شتاءً، الملتهبة صيفًا، مشى ومشت إلى جانبه، غير قادرين على ترك بعضهم وغير قادرين على الاحتماء من المطر أو الشمس، لأنَّهما لا يملكان ما يدفعانه مقابل فنجانين من القهوة تُشرِّع لهما الجلوس في مقهًى أو بارٍ أو استراحة عشَّاقٍ، لينظر في عيني حبيبته مباشرةً، بدلًا من النظرات التي يسرقها في مشيته إلى جانبها. العاشق الذي ركع على ركبتيه في ليلة عيد الميلاد على شرفة كنيسة صيدنايا ليعلن وبصوتٍ عالٍ لحبيبته، عندما اختلط شعرها مع ليل المكان مع خمر احتساه حتَّى الثمالة احتفالًا بجمالها، فركع، وقال: «يلعن ربك. بعبدك»، وكان يعني ما يقول تمامًا. ركع مسحورًا بلوحة الليل والشعر الذي يلعب به النسيم والوجه الأحمر والعيون البرَّاقة بفعل كؤوس الخمر، تجسَّدت

حبيبته كآلهةٍ تستحقُّ العبادة، فقال لها كلماته، التي استحقَّتها بجدارةٍ كما قال. لطالما أحبَّ رواية تفصيلٍ آسرٍ حصل على التلِّ المشرف على بلدة عرنة في قلب جبل الشيخ، عندما دلقت حبيبته كأس نبيذها الأحمر على قميصها الأبيض. أسره مشهد النبيذ المسفوك على صدرها ورآه يصعد رويدًا رويدًا إلى خدَّيها، واكتملت لوحةٌ ساحرةٌ، خليطٌ من الخجل والارتباك والنبيذ، أراد شرب النبيذ بعصره من قميصها وبتقبيل خدَّيها، ارتعش جسده أمام الجمال، وكلَّما حدَّق فيها أكثر، كان الخمر في وجهها يصبح أكثر حمرةً، حتَّى باتت غير قادرةً على النظر إليه، فأخذها وأخذته إلى سماءٍ سابعةٍ فوق جبلٍ قمَّته تتكلَّل ببياض الثلج. عادا إلى بلدة قطنا، واشترى لها قميصًا جديدًا، حتَّى لا تعود إلى بيتها وعلى صدرها آثار جريمة الحبِّ المسكوب على قميصها في ذلك الجبل، واحتفظ هو بقميصها وبخارطة النبيذ عليه.

في المخيَّم، كبر كأطفال المخيَّم، بكلِّ الألم الذي يشعره الغرباء، عندما يولدون في مكان، يتعلَّمون درسه الأوَّل، أنَّه ليس لهم، غاص في أوحال المخيَّم، وتعفَّر في ترابه، ذاق طعم برده القارس، وحرِّه الذي لوَّن بشرته وجعله أسود اللون من فرط ما لعب في شمسٍ حارقةٍ مع أولاد الجيران. في المخيَّم سرق مستودع كتب المدرسة انتقامًا من المدير الذي صفعه بلا أيِّ ذنبٍ ارتكبه، وحطَّم أضواء البلديَّة لأنَّه كان ساخطًا على المكان وعلى حياته. وكسَّر مرايا السيَّارات الخاصَّة، لأنَّه وأصدقاءه الماركسيُّون الجدد، الذين يحبُّون خطواتهم الأولى في الأيديولوجيا، قرَّروا أنَّ أصحاب السيَّارات برجوازيُّون ويجب معاقبتهم بتخريب ممتلكاتهم، لأنَّهم يستغلُّون الطبقة العاملة المسكينة، قناعاتٌ ساذجةٌ وتبسيطيَّةٌ لأطفالٍ يتعلَّمون السياسة، ويبدؤون بمهمَّة تغيير العالم، كلِّ العالم، بتحطيم مرايا سيَّارات البرجوازيِّين في المخيَّم، انطلاقًا ممَّا كتبه ماركس: «قام الفلاسفة حتَّى الآن بتفسير العالم فقط، بينما المطلوب تغييره»، في المخيَّم سرق أوَّل قبلةٍ من ابنة الجيران في الخرابة المجاورة لبيتهما. وفي المخيَّم نال من الضرب ما يكفي في مشاجرات

المدرسة ومشاجرات الحارة، وسال دمه مرَّاتٍ ومرَّاتٍ. في المقابل أذاق الآخرين مرَّاتٍ كثيرةً ما أذاقوه من ضربٍ، وأسال دمهم كما أسالوا دمه. في المخيَّم جرَّ هو وصديقه محمود أكياس الطحين من الإعاشة إلى بيوت أصحاب المساعدات الغذائيَّة في عربةٍ صنعاها بنفسيهما، وتقاضيا مبالغ تافهةً مقابل جهدٍ هائلٍ في جرِّ العربة الصغيرة في شوارع المخيَّم المحطَّمة. نضج مبكرًا وأخذته السياسة منذ مطلع المرحلة الثانويَّة، وذهب ليبحث عن حلمٍ كبيرٍ، اعتقد أنَّ الماركسيَّة ستنجزه بوصفها تحقيقًا للعدالة وإنصافًا للمظلومين، فكان حلمه بتغيير العالم، وباستعادة وطنه الذي وُلِدَ بعيدًا عنه. ذهب إلى الحرب من أجل حلمٍ بالعدالة ووطنٍ ضائعٍ، وذهب إلى السجن من أجل الأحلام ذاتها، وسرعان ما تحطَّمت هذه الأحلام بفعل انهيار الاتحاد السوفييتيِّ والدول الاشتراكيَّة، وانهار حلم الوطن بذهاب القيادة الفلسطينيَّة لتوقيع اتفاقات أوسلو.

لم يرَ أيًّا من أحلامه العامَّة أو الشخصيَّة تتحقَّق، فكان رجل الخسائر بامتيازٍ. لذلك عندما اندلعت الثورة المصريَّة وأطاحت بالرئيس المصريِّ، ثمَّ اندلعت الثورة السوريَّة، صعد تفاؤلٌ دفينٌ داخله، وعادت الأحلام بعالمٍ وبلدٍ أكثر عدالةً تتلألأ من جديدٍ. وعاد أبي ليتألَّق، ويشعر أنَّ القناعات التي حملها، والعلاقات التي أقامها، وحياة الهامشيِّ الباحث عن العدالة من أجل الضحايا ومن أجل عالمٍ أجمل لأصحاب الحساسيَّات العالية قد آن أوانها. صحيحٌ أنَّ التضحيات آلمته جدًّا، كان يقول لنفسه: «التاريخ لا يرحم، ما في انعطافة ما إلها ثمن، وثمن غالي»، بعد ذلك، لم يعد يقبل الثمن، وبات الثمن مكلفًا وأكبر من أيِّ إنجازٍ، وباتت التضحيات مجانيَّةً وغير مجديةٍ، حتَّى لو وصلت لأهدافها بإسقاط النظام. وهذا ما أدخله في اكتئابٍ طويلٍ. كانت معادلةً ظالمةً، دُفع الكثير من الدم ثمنًا للثورة ولم يسقط النظام، شعر أنَّ الثمن عبثيٌّ، والناس لم تعد قادرةً على العيش، ملايين المشرَّدين في الداخل والخارج، دمارٌ عمَّ مدن البلد، حطَّم عشرات آلاف المباني. وعندما

قصفت الطائرات الروسيَّة المخيَّم بعنفٍ، مدمِّرةً الكتلة الأساسيَّة السليمة، واختفاء داعش من المكان بين ليلةٍ وضحاها، ودخول الجيش وأعوانه ومخبريه إلى المخيَّم، وسرقوا كلَّ ما كان فيه من مفروشاتٍ، وخلعوا شبابيكه وأبوابه وبلاطه وسرقوها، وسرقوا حتَّى أسلاك الكهرباء من الجدران والحديد من الأسقف. أذهله الحقد على المكان، ولم يفهم لماذا كلُّ هذا الدمار، وكتب على صفحة الفيسبوك يومها: «تحطيم المكان يعني تحطيم الذاكرة وبذلك تحطيم البشر. مخيَّم اليرموك نموذجًا»، في المعنى العميق للتدمير الشامل للمخيَّم الذي جرى بعد حسم الحرب فعليًّا، لم يكن سوى تفسيرٍ واحدٍ، هو أنَّ من قام بذلك، كان يرغب في اختفاء المكان عن الخريطة، ولأنَّه لم يكن قادرًا على فعل ذلك. فقرَّر تحطيمه بالصواريخ ليحوِّله إلى ركامٍ ويحطِّم أصحابه ويخفيهم.

28

كنت الأقرب له في تجربته السويديَّة، ليس لأنَّنا سكنَّا البيت ذاته، بل لأنِّي اكتشفت أبي وصديقي من جديدٍ. قبل ذلك، كنت أعتقد أنِّي أعرفه، لم يكن هذا صحيحًا، أبي ليس رجلًا غامضًا، وفي الوقت ذاته ليس من السهل فهمه، وجاءت الأحداث في سورية لتطحننا وتحطِّمنا وتغيِّرنا جميعًا، لا أعرف حجم التغيير الذي تعرَّض له خلال الأزمة، ما أعرفه أنِّي تعرَّفت على أبٍ آخر في السويد، غير ذلك الذي عرفته سابقًا.

لم تأتِ حياته في السويد كما تمنَّينا. تمنَّينا أن يجد الراحة مع زوجةٍ أحبَّها كما لم يحبَّ امرأةً من قبل حتَّى أمِّي. لقد أرهقته الحرب، كما أرهقته حياته، وآن الأوان ليستريح من كلِّ هذا في بلدٍ بعيدٍ عن مكان الألم. لاحقه الألم في المنفى السويدي، ولم تتوافر له الراحة التي تمنَّيناها له، وسرعان ما انفجرت الخلافات بينه وبين زوجته، ووجد نفسه مضطرًا للتخلِّي عن هذه العلاقة، دون أن يكون له الخيار في الذهاب إلى مكانٍ آخر، وهو ما جعله معتقلًا في السويد. لم أعرف ما الذي جرى بينه وبينها، لم يرغب بمناقشة الموضوع ولا حتَّى بتذكُّره، قرَّر إنهاء العلاقة بعد محاولاتٍ فاشلةٍ عدَّةً للمصالحة. وكان من الطبيعيِّ بعد ذلك أن نعيش معًا، وهذا الخيار الأفضل. عندما بدأ يدرك أيَّ وضع يعيش، اكتشف هول وحماقة القرار الذي اتخذه بالقدوم إلى السويد. وانقسمت الحماقة إلى قسمين، الأوَّل، أنَّه اتخذ قرار القدوم إلى السويد عكس ما عاهد عليه نفسه منذ كان في الخامسة عشرة من عمره، ألَّا يجعل حياته تعتمد على أحدٍ آخر غيره. الثاني، أنَّه لم يدرك مسبقًا معنى تحوُّل الإنسان إلى نكرةٍ في مجتمعٍ لا يعرفه، والمجتمع الذي يعيش فيه لا يريد أن يراه، وهو غريبٌ لم يكن جزءًا

من شبكة الحياة المحيطة به، ولم يعد يعرف كيف يفكِّر، ولا كيف سيقيم أبناؤه العلاقات فيما بينهم ومع من حولهم. عندها اكتشف كما قال: «الجحيم أهون من هاي الحياة، اللي ما إلها لا طعم ولا لون ولا ريحة»، وناسبه وصف السويد الذي وجده في الرواية السويديَّة التي تحمل عنوان «المهاجرون»، التي تتحدَّث عن هجرة السويديِّين إلى الولايات المتحدة في نهاية القرن التاسع عشر، والتي يصف إحدى شخصيَّاتها السويد، بقوله: «السويد حفرةٌ في الجحيم» كان البلد الذي يظهر بوصفه الجنَّة على الأرض، معادلًا للجحيم بالنسبة لأبي، الذي وجد نفسه محبوسًا في هذا الجحيم وغير قادرٍ على مغادرته.

الكتابة هي الشيء الوحيد الذي أسهم في حفظ توازنه، في وحدةٍ لم يعتَد عليها، وحدةٌ لم تدخل يومًا في سياق برنامجه الحياتي، أحبَّ العلاقات مع الآخرين وعدَّ صداقاته ثروته التي لم تخذله يومًا، في الوقت الذي خذله كلُّ شيءٍ في الحياة حتَّى قدميه. فهو لم يُقم هذه العلاقات المتشعِّبة والمتنوِّعة والمنتشرة في كلِّ مكانٍ، لأنَّه ابن العمل العام فحسب، بل أقامها لأنَّه يحبُّ الآخرين، ودائمًا ما أحسن الظنَّ بهم. كما أسهمت الكتابة في حفاظه على صِلَاته مع عالمه القديم. صحيحٌ أنَّه يعيش عزلةً في السويد، لكنَّه حافظ بالكتابة على نافذةٍ يحبُّها، كان يفرح عندما يتصل أحد الأصدقاء منتقدًا أحد مقالاته، ولا يهمُّه رأي هذا الصديق سواءً كان سلبيًّا أم إيجابيًّا بهذا بالمقال المعني، المهمُّ شعوره أنَّ أحدًا ما اهتمَّ بالمقال وقرأه وأخذ منه موقفًا. ويكون أسعد إذا كان اتصال الصديق من أجل إطراءٍ على ما كتبه. عاش في عالمين منفصلين، عالم الواقع اليوميِّ السويديِّ الذي يطحنه في تفاصيل لم تخطر له أبدًا وتعزِّز من وحدته وعزلته، في الوقت الذي يعود إلى عالمه القديم في ممارسة الكتابة فيصبح سعيدًا بالعودة إلى الموضوعات التي عمل عليها لسنواتٍ طويلةٍ، وهو الإسهام التي اعتقد أنَّه مجال تأثيره في مستقبل بلدانٍ يهمُّه أمر البشر الذين تعرَّضوا فيها لظلمٍ مديدٍ، في

الوقت الذي يستحقُّون الحياة الكريمة مثل غيرهم من البشر. هذه الكتابة التي اعتقد يومًا أنَّها تستطيع تغيير العالم، أصبحت مهمَّتها حفظ توازنه وحمايته من الجنون أو الانتحار. الفشل الذي منيت به الثورات العربيَّة، وفشل الثورة السوريَّة في الإطاحة بالنظام الذي ارتكب مجازره المستمرَّة بحقِّ البلد، أدخلوه في إحباطٍ لم يعد قادرًا على الخروج منه، رغم محاولاته المستمرَّة إقناع نفسه، كما أنَّ الأسوأ ممكنٌ دائمًا كذلك الأفضل ممكنٌ دائمًا أيضًا، ولا يمكن للحياة أن تسير من سيِّئ إلى أسوأ فقط. عندها يستطيع إنجاز نوعٍ من الانتصار على إحباطه، وسرعان ما يطيح خبرٌ سيِّئٌ بهذا التفاؤل المؤقَّت. اقتصرت كتابته على المقالات المنشورة في الصحيفة التي يكتب لها، وكان الاستثناء روايةٌ واحدةٌ أنجزها في السويد، وهي رواية «وهم القمَّة» التي حاول أن يصوِّر فيها كيف ينظر الديكتاتور إلى نفسه والى الآخرين، وهو في المنصب الذي يصادر فيه إرادة بلدٍ، وكيف يدمِّر بلده، في الوقت الذي يدَّعي أنَّه يعمل على حمايتها من أعدائها الظاهرين والمخفيِّين. الرواية الثانية، هي هذه الرواية غير المكتملة، والتي وضع لها «صوت السماء» عنوانًا مؤقَّتًا، والتي عمل عليها جلَّ سنوات وجوده في السويد دون أن يُنهيها، وقد استمرَّت في التضخُّم، لإحساسه أنَّها يجب أن تكون معادلًا موضوعيًّا للتراجيديا السوريَّة الهائلة وطويلة الأمد، وفي كلِّ مراجعةٍ لها شعرها ناقصةً وقاصرةً، ما جعله يعيد النظر فيها المرَّة بعد المرَّة. وهذه الرواية عكس الروايات الطويلة التي حاولت تصوير تتابعٍ تاريخيٍّ لأحداثٍ صنعت مصير البشر في مدينةٍ ما أو منطقةٍ ما أو بلدٍ، بالضدِّ من هذه الصيغة، حاول في هذه الرواية أن يعطي مقطعًا عرضيًّا للزمن، تكون بؤرته الثورة السوريَّة، ويصوِّر تأثيرها على شخصيَّاتٍ تنتمي إلى أجيالٍ مختلفةٍ، ملاحقًا مصائرهم التي دفعتهم لها الأحداث الكليَّة أو الجزئيَّة في البلد، التي أفرزت مصائر تراجيديَّةً هائلةً لا يمكن ملاحقتها جميعًا، إنَّما تصوِّر نماذج منها، ولكلِّ حالةٍ خصوصيَّتها، فقد كان على قناعةٍ،

أنَّ هناك ملايين قصص الألم البشريّ في مصائر الناس ومعاناتهم ممَّا جرى. لذلك رفض التعامل مع الضحايا بوصفهم أرقامًا إحصائيَّة، قال: «لكلِّ ألمٍ قصَّته وملامحه البشريَّة، والأرقام احتقارٌ لوجع البشر، هدول بشر من لحم ودم، إلهم أحبَّة تألَّموا لألمهم أحيانًا أكثر منهم، مش ممكن يكون الألم أرقام ضحايا وبس»، شعر بالعجز لأنَّه لم يستطع فعل شيءٍ للضحايا، وهذا ما زاد حزنه. وكلَّما سمع قصصًا أكثر ازداد حزنًا وتعاطفًا أكثر وشعر بحزنٍ. وعندما أراه على هذه الصورة لم أكن أستطيع الاقتراب منه، لأنِّي أشعر بالعجز تجاهه أيضًا، وأعرف أنَّه لا قوَّة في الأرض تستطيع إخراجه من حزنه. خفت عليه من حزنه العميق، خفت من حساسيَّته المفرطة، التي حوَّلت بلد المنفى القطبيِّ إلى نوعٍ من العقاب القاسي، كلُّ شيءٍ تبدَّد، المكانة، الأصدقاء، العمل، المكان، حتَّى الأحلام. لقد شعر نفسه خفيفًا، ليس بمعنى أنَّه متخلِّصٌ من أعبائه، بل بمعنى فقد معنى حياته وفقد ثقته بعالمٍ أفضل. حاول ترميم أحلامه دون جدوى. كوَّن قناعاتٍ جديدةً في منفاه، لم يكن كارهًا للبلد الذي وجد نفسه فيه، على العكس وجد فيه احترامًا عاليًا للبشر يضمن كرامتهم، وهذه الميزة الكبرى، رغم الكثير من العيوب في البلد، على رأسها اللا مبالاة الآتية من أنَّ كلَّ شيءٍ مسؤوليَّة الدولة، وهناك إذعانٌ هائلٌ من الناس للنظام والسلطة، إذعانٌ طوعيٌّ أخافه.

نعم، نستطيع العيش في مجتمعٍ آخر، لكنَّنا لن نكون جزءًا منه، حتَّى لو قبلنا هذا المجتمع، تحفر الثقافات الأصليَّة في النفس البشريَّة عميقًا، ما يجعل الخروج منها في غاية الصعوبة. هو لم يستطع الخروج منها، وأنا أفهمه، لأنِّي أنا ابنه الذي جئت إلى السويد، وعمري أقلُّ من نصف عمره، لم أستطع أن أكون جزءًا من هذا المجتمع، درست في مدارسهم وجامعاتهم، واشتغلت في البلد أعمالًا متنوِّعةً، ولكن هناك قطبةٌ مخفيَّةٌ في العيش في هذا البلد تمنع أيَّ قادمٍ من خارج البلد أن يكون جزءًا منه. لذلك، اعتقد أبي أنَّه يمكن للمرء العيش في مجتمعٍ مستوى الحياة فيه أقلُّ على أن يجد

فيه نفسه، ويكون أفضل من العيش في مجتمعٍ مستوى الحياة فيه جيِّدٌ دون أن يجد نفسه فيه، ويتحوَّل فيه إلى نكرةٍ. هذا لا يعني أن مستوى الحياة التي عاشها في السويد كانت أفضل من مستوى الحياة التي عاشها في دمشق، بل حتَّى دخله بالمعنى المطلق كان أفضل من دخله في السويد. المسألة لم تكن مسألة دخلٍ، بل مسألة معنًى، أن يجد نفسه، ومكانته، ومعنًى لوجوده، وهذا ما لم يتوافر له في السويد. الغريب أنَّه لم يفكِّر بكتابة عملٍ عن تجربته أو تجربة الآخرين في السويد، إنَّما بقيت مشاريعه الكتابيَّة تتمحور حول حياته القديمة، لدرجةٍ أعتقد أنَّه لم يرغب في إنهاء هذا الرواية، لأنَّ العمل بها ربطه بحبالٍ قويَّةٍ مع عالمه القديم، وأراد المحافظة عليها، لأنَّه شعر في حال انتهى من كتابة هذه الرواية، لن يكون هناك ما يعمل عليه، ما سيزيد من كآبته وحزنه.

عندما اصطحبته إلى باريس في عيد ميلاده الثالث والخمسين، لأخرجه من أحزانه التي داهمته بشراسةٍ بين الحين والآخر، شعرت أنَّه خرج من الحالة التي كان عليها، كان سعيدًا بزيارة المدينة لأوَّل مرَّةٍ. وجد باريس الحقيقيَّة تشبه باريس الكتب التي في رأسه، لم تفاجئه، كأنَّه زارها سابقًا، فهو يعرفها ويعرف مناطقها، وكأنَّه يتحدَّث عن مكانٍ عاش فيه، عندما زرنا كاتدرائيَّة نوتردام، لم يتفاجأ بالمكان والبذخ الذي فيه، وكأنَّه يستعيد رواية فيكتور هيغو «أحدب نوتردام»، وتناولنا طعامنا في الحيِّ اللاتيني وتذكَّر رواية سهيل إدريس التي تحمل اسم الحي كعنوانٍ لها. لا أقصد أنَّه كان يترجم النصوص التي في رأسه بالواقع الذي يراه، إنَّما حاول إقناعي أنَّ الكتب تشبه السفر، فهي تُعرِّفنا بالأماكن والبشر وكأنَّنا نعيش في المكان فعلًا، وأنَّ الكلمات تستطيع أن تكون من لحمٍ ودمٍ، وليست أداة وصفٍ فحسب. كانت أيَّامًا جميلةً، شكرني على الرحلة، لدرجة اعتقدت أنَّها شكَّلت نقلةً في حياته المتعبة في المنفى، ولم أتوقَّع أن تكون رحلة وداعٍ نعود منها ليموت بعد ثلاثة أيَّامٍ. لم يقنعني موته، والموت ليس مقنعًا بكلِّ

الحالات، فجعنا بموته، ليس لأنَّه غير متوقَّعٍ، بل لأنَّه غريبٌ وظالمٌ. صحيحٌ أنَّه شعر بغربةٍ قاتلةٍ، لكنَّه ما كان عليه الرحيل، كان عليه أن ينتظر قليلًا لعلَّ حظًا أوفر يصيبه في السنوات التي كان يمكن أن يعيشها، حياةً تنصفه أكثر، بعد كلِّ هذا الظلم الذي تعرَّض له. كان علينا أن نساعده أكثر، كنَّا قادرين على ذلك، أخذتنا الحياة ولم ننتبه أنَّها تخبو في عينيه.

كان غريبًا في كلِّ مكانٍ عاش فيه، وما عزَّز غربته هنا، لاحقه سوء الحظِّ في هذا البلد، حصلت أنا وأخي على الجنسيَّة السويديَّة، أمَّا هو فلم يحصل عليها. عندما انفصل عن زوجته، اضطر أنَّ يقدِّم طلبًا جديدًا للجوء، وعندما مُنِحَ اللجوء، تغيَّرت قوانين الهجرة في السويد، ما جعل دائرة الهجرة تمنحه إقامةً مؤقَّتةً، وهو ما يعني أنَّه لا يستطيع التقدُّم بطلب الجنسيَّة إلَّا بشروطٍ مشدَّدةٍ لم يستطع تحقيقها، فبقي في البلد يحمل بطاقة إقامةٍ مؤقَّتةٍ، مثل تلك التي حملها في دمشق، ويحمل وثيقة سفرٍ سويديَّةٍ وليس جواز سفر، كما حمل وثيقة سفرٍ سوريَّةٍ وليس جواز سفرٍ، وفي الوقت الذي حمل الوثيقة السوريَّة بوصفه فلسطينيًّا، فإنَّ السويد جرَّدته حتَّى من هذه الصفة، وأصبح يحمل وثيقة سفرٍ لشخصٍ لا وطن له، كما هو مدوَّنٌ على الوثيقة السويديَّة.

منحه هذا الوضع الغريب الذي عاشه في أواخر أيَّامه مكانةً تشبه المكانة التي تصوَّرها عن نفسه طيلة عمره، أنَّ كلَّ العالم غريبٌ عنه. وُلِدَ غريبًا في مكانٍ ليس له، وعاش في أماكن غريبةٍ ليست له، ومات في مكانٍ غريبٍ ليس له أيضًا. وُلِدَ لاجئًا، وعاش لاجئًا، ومات لاجئًا في بلد تعدُّ نفسها من أفضل دول العالم في حقوق الإنسان، وهو لم يحصل على حقِّه في أيِّ مكانٍ، أراد أن يكون محاميًّا يدافع عن المظلومين ويُنصِفَ الضحايا، لكنَّه وهو الضحيَّة، لم يستطيع أن يُنصِفَ نفسه، ولم يُنصِفهُ العالم الذي عاش فيه.

عندما وجدته ميتًا في سريره، في ذلك الصباح الشتوي الكئيب والمظلم على حافَّة القطب، لم أصدِّق ما أرى، لم أصدِّق أنَّ الرجل القويَّ قرَّر الرحيل. اعتقدت أنَّه يمزح فلم يحن أوان الوداع بعد. وعندما أدركت أنَّه تُوفِّي فعلًا، شتمته بحرقةٍ لم أعرفها من قبل. لم أحتمل خسارته لأنِّي أحتاج إليه كما لم أحتَجه في حياتي. لم ينتظر، لقد فكَّر بالانتحار مرَّاتٍ عدَّةً، كما أسرَّ لي مرَّةً، ولأنَّه ابن الحياة ويحبُّ نفسه امتنع عن القيام بذلك، معتقدًا أنَّ العالم وحياته ستصبحان أفضل، رغم كلِّ الألم الذي مرَّ به هو وأحبته، لكنَّ هذا لم يحدث. قرَّر الرحيل لاعتقاده أنَّه لم يبق له دورٌ في الحياة، وبات الرحيل أفضل الخيارات، لقد تصوَّر موته وقلَّده، لم يكن موتًا تمامًا، كان رحيلًا من مكانٍ غير مرغوبٍ، كان موتًا إراديًا معادلًا للانتحار.

غاب أبي وأنا أصبحت يتيمًا بكلِّ معنى الكلمة، رغم أنِّي رجلٌ راشدٌ.

مع اختفاء أبي، شعرت أنَّ سقفاً يحميني تحطم فجأة وبتُ في العراء. لم أعد قادرة على تحمّل المزيد من الخسارات، والخسارات الكبيرة لا تتوقف عن لطمي المرة بعد الأخرى. كان اختفاؤه صعباً، لا أعرف، هل هو حيٌّ أو ميِّت؟! وإذا كان حيًّاً، أي حياة يعيش، وفي أيّ ظروف، هل فقدَ الذاكرة؟ هل اعتقل؟ هل جنّ ولم يعد يعرف أين يذهب؟ هل مات؟ وإذا مات، هل وجد مَنْ دفن جثَّته، أم بقيت في العراء؟ هل اتكأ على جدار في زاويَّة مخفيَّة، ومات هناك، ولم يعثر أحد عليّه؟ يخطر لي ألف سؤال أبشع من بعضها البعض بشأن مصير أبي. مع اختفاء أبي، عرفت أن المفقود حالة أصعب من الموت، فالميَّت تعرف أنَّ حياته انتهت، إنِّه بات بين يدي ربه، أما المفقود، تأخذك أسئلة الحياة والموت إلى كل التصورات المرعبة، وترجع خالي الوفاض، سوى من القلق الذي يأكلك.

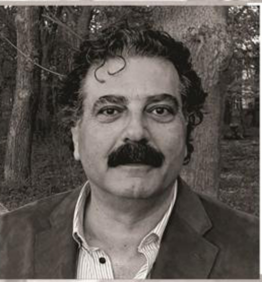

كاتب وروائي فلسطيني، رواياته: "قبر بلا جثة"، "دفتر الرئيس"، "في غبار الماضي". من دراساته: "النظام العربي - ماضيه، حاضره، مستقبله"، "تحولات التجربة الفلسطينية"، "واقع الفلسطينيين في سورية".

LAMASSU
دار لاماسو للنشر والتوزيع